جامعة ابن خلدون - تيارت
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية



للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة أكاديمية تعنى بالدراسات والبحوث
في التاريخ والمجتمع





العدد العاشر ديسمبر 2016
ردمد:1112-5896

الخلدونية

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تيارت

العدد العاشر ديسمبر 2016

Dépôt légal718-2005 الإيداع القانوني

ISSN1112-5896:ردمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

سورة آل عمران، الآية 140

الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تيارت، العدد العاشر ديسمبر 2016

هيئة القراءة والتحكيم:

من خارج الجزائر:

من سلطنة عمان: أ.د.بوعلام بلقاسمي. د.بوعصبانة سليمان عمر. **من المغرب:** أ.د. حسن الصادقي، د.إدريس بوهليلة، د.لحسن تاوشيخت، د. أحمد الشكري. د.عمر أكراز، د.عبد السلام مقداد. **من معهد العالم العربي بباريس:** أ.د. الطيب ولد لعروسي. **من جامعة تونس:** أ.د. مقداد عرفة. **من جامعة منوبة:** الأستاذ الدكتور تليلي لعجيلي. **من جامعة الزيتونة:** الأستاذة رفعة عطية.

من داخل الجزائر:

من جامعة وهران1: أ.د.بن نعمية عبد المجيد، أ.د. بن معمر محمد، أ.د.جيلالي سلطاني، أ.د.فغرور دحو، أ.د.مهديد إبراهيم، أ.د. عبد القادر بوعرفة، أ.د.مزيان محمد، د.بوركبة محمد، د.بحري أحمد. **من جامعة وهران2:** د.بن سادات نصر الدين. **من الجامعة الإفريقية بأدرار:** د.الحمدي أحمد. د.مولاي امحمد. د.بعثمان عبد الرحمن **من جامعة الجزائر1**: أ.د.بوساحة عمر. أ.د.عليش لعموري. **من جامعة تلمسان:** أ.د. عباس محمد، أ.د.عبد الجليل مرتاض، د.وهراني قدور. **من جامعة بشار**: د.حيمي عبد الحفيظ. **من جامعة معسكر:** أ.د.طيبي غماري، أ.د.بوداود عبيد، أ.د.ودان بوغافلة، أ.د.عدة بن داهة .**من جامعة بلعباس:** أ.د. هلايلي حنيفي. د.عسال نور الدين، د.شخوم سعدي. **من جامعة مستغانم:** د.سيكوك قويدر. **من جامعة تيارت:** أ.د.شريط عابد، أ.د.مدني بن شهرة، د.زروقي عبد القادر، د.بن جامعة الطيب. د.مصطفاي أحمد. **من جامعة خميس مليانة:** أ.د.تلمساني بن يوسف. **من جامعة الأغواط:** أ.قفاف عبد الرحمن. **من جامعة الجلفة:** د.بن حاج ميلود. **من جامعة سطيف2**: أ.د.سفاري ميلود. **من جامعة الجزائر2**: أ.د.جمال يحياوي. أ.د.حساني مختار. **من جامعة الوادي:** أ.د.لشهب أبو بكر. **من جامعة غرداية:** أ.د.إبراهيم بحاز، أ.دمانة أحمد. **من جامعة المسيلة:** د.روبي محمد. أ.بركات عبد الحق. **من جامعة الشلف:** أ.د. شارف عبد القادر. د. غربي بغداد. د. هاشمي آمال.

قواعد النشر بالمجلة

إن صفحات مجلة الخلدونية مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه. ومن أجل تسهيل عمل المجلة يرجى من الراغبين في نشر بحوثهم الالتزام بالقواعد التالية:

1- أن يكون العمل العلمي أصيلا لم يسبق نشره.

2- ينبغي أن تتميز الأعمال المقدمة بالجدّة والعمق في الطرح وبالأسلوب السليم والمنهجية العلمية، ولا تقبل المجلة المواد المنشورة أو المقدمة للنشر في جهات أخرى.

3- أن لا تزيد عدد صفحات المقال عن **15** صفحة.

4- أن تكون اللغة العربية مكتوبة بخط Traditional Arabic بحجم **16** واللغة الأجنبية بحجم **12** خط Times New Roman ، وأن يرفق المقال بملخصين مع الكلمات المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.

5- لا يقبل أي مقال بعد انتهاء الآجال، والمجلة غير ملزمة بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

6- كل الأعمال العلمية المقدمة تخضع للتحكيم السري؛ العلمي النوعي والمتخصص قبل النشر، وتُخطِر المجلة الباحثين بقرار صلاحية المواد أو عدمها. كما أن البحوث والدراسات التي يرى المحكمون تعديلها تُرَدُّ إلى أصحابها لإجراء التعديلات لكي تأخذ طريقها إلى النشر. وتحتفظ المجلة بحقها في إدخال تعديلات، أو تأخير النشر إلى عدد قادم حسب إمكانياتها،

7- يجب الالتزام بالطرق العلمية المقدمة في النشر، على أن تكون الهوامش يدويا وفي آخر المقال.

8- تكون المقالات مصحوبة بملخصين إحداهما بلغة المقال والثاني بإحدى اللغتين (فرنسية أو إنجليزية).

وسائل الإيضاح:

يجب أن تقدم الجداول الإحصائية والرسوم البيانية والخرائط والصور الأصلية مستقلة عن النص في (**A4**) بشكل فردي أو جماعي مع ذكر رقم الجدول أو الشكل. ويجب أن تتسم وسائل الإيضاح بالوضوح.

كل المراسلات توجه إلى البريد الإلكتروني للمجلة: alkhaldonia.fsh@gmail.com

ما تنشره المجلة لا يعبر سوى عن رأي صاحب المقال، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة التحرير

الفهرست العام للموضوعات

كلمة العدد

بقلم الأستاذ الدكتور تاج محمد ، مدير المجلة

ها هو العدد العشر تضاء شمعته، وينضاف الى سابق الأعداد وينحت في أفئدة محبيه حبا معرفيا ، لايزال يسري ويتغلغل حتى يصبح إكسيرا شافيا مستجيبا لكل حالات القراء.

تكبر بعددها العاشر ، وتعتلي لترى فتصبح مبراسا يسترشد به أهل الفكر والمعرفة ، من الذين ازدانت بهم صفحات الخلدونية.

فهنيئا لنا جميعا بهذه الاستمرارية ، وهنيئا لكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بذلك ، وهنيئا لجامعة ابن خلدون بهذه الاضاءات المتوالية ، التي تتسرب من داخل الخلوة الخلدونية ، لمريدي ابن خلدون ومحبيه.

وهنيئا للذين أصرّوا على وضع ثقتهم في الخلدونية ، وأودعوها روحهم حروفا ، وكلمات ، وجملا ، وعبارات ، وفقرات ، ونصوصا.

افتتاحية العدد

بقلم الدكتور عبد الحق شرف، رئيس تحرير المجلة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد؛

بصدور العدد العاشر من مجلة الخلدونية تكون هاته الأخيرة قد وفّت عقدها الأول، ودوّنت اسمها ضمن مصاف المجلات المحترمة. وهي بهذا الإنجاز ترنو لأن تحقق الأفضل، وليس ذلك فحسب؛ بل أن تكون منبرا علميا تُنشَد من خلاله الريادة، وتخط طريقها نحو الأحسن وطنيا وعالميا.

إنني وأنا أحبّر أوراق هاته العجالة لمدين بالفضل لأهله، لكل من ساهم ولو بالكلمة الطيبة في تشجيعنا على إتمام السيرة والمسير، رغم الصعاب الجسام، التي تقف في طريقنا بين الفينة والأخرى، إما معرقلة أو مثبّطة. لكنه وبتوفيق من العلي القدير، ثم بتشجيع أصحاب الهمم وجنود الخفاء تمّ لنا المراد في أن تطفئ الخلدونية شمعتها العاشرة، رغم كل الصعوبات والعراقيل.

وها نحن اليوم نقدمّها في قالب متنوع، وشعارنا أن نقطف من كل بستان زهرة، فجاءت المحصّلة بحق مادة ثرية متنوعة، ساهم في بذرها أساتذة وباحثون أجلاّء من شتى جامعات الوطن.

وبهاته الفرصة السانحة أتقدم إلى كافة أعضاء لجنة القراءة والتحكيم من داخل الجزائر وخارجها، بخالص الثناء والشكر والعرفان، على جهودهم المتواصلة في خدمة مجلتنا قراءة وتحكيما، وهو ما أعطى للمجلة مصداقية عالية، كنا دائما نطمح لأن تتبوأها مجلتنا.

وهو شكر موصول لكافة أعضاء هيئة التحرير، كل باسمه، على ما بذلوه من جهود متواصلة في سبيل أن يرى هذا العدد النور، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التعمير البشري بمنطقة جنوب الونشريس

من خلال الشواهد الاثرية

الأستاذ الحاج لبيب، جامعة تيارت

ملخص

كثيرة هي الشواهد الاثرية الدالّة على وجود الانسان واستقراره او مروره بأي منطقة، وهو ما يتأتى من خلال الاعمال الميدانية سواء عن طريق المسح الاثري او الحفريات، مبرمجة منها او انقاذية، ليتم بعدها دراستها تقنيا ومخبريا بغية تحديد الاطار الكرونولوجي لهذه الشواهد ومن ثمّ تسليم النتائج العلمية للمؤّرخ لاجل التحليل الموضوعي ونشر المحتوى في شكل تقارير في كتب أو مجلات، وهو ما اردناه من خلال هذا المقال الذي يسلط الضوء على أهلية منطقة الونشريس الجنوبي بالسكان منذ ما قبل التاريخ وهو ما دلتنا عليه عديد المواقع الاثرية من بقايا بمختلف انواعها ووظائفها عبر التاريخ.

Abstract:

There are many archaeological evidences of human existence and settlement or passage in any area, which have come to light through the fieldwork by either programmed or rescue archaeological surveys or excavations that are examined technically and in laboratory in order to be determined chronologically. Then, the scientific results are delivered to historians for objective analysis and dissemination of content in form of reports in books or magazines, which is our objective through this article that sheds light on the populated Southern-Ouarsenis area since prehistoric times, the thing that has been confirmed by many remnants of archaeological sites of various kinds and functions throughout history.

الكلمات المفتاحية: الونشريس، الليمس، سهل السرسو، موريطانيا القيصرية، عين تكرية، التحصينات العسكرية.

Key-Words: Ouarsenis, Limes, Sersou Plain, Mauritania Caesariensis, Ain Toukria, Military Fortifications.

مقدمة

يتضح من خلال الشواهد الأثرية التي عثر عليها، سواء من خلال عمليات التنقيب والبحث الأثري أو من خلال التحريات التي قام بها باحثين في مجال الآثار أن المنطقة عرفت حقب تاريخية منذ عصور ما قبل التاريخ وبدايات الدخول في التاريخ ثم الفترة القديمة الى غاية حلول الإسلام بالمنطقة.

إن لفترة ما قبل التاريخ بالمنطقة مراحل انتقالية عديدة تركت بصماتها من خلال مواقع أثرية أين تم العثور على أدوات وصناعات حجرية بينت مهارة إنسان تلك الفترة في تقنيات التحكّم في ذلك الى جانب تسجيل عدة محطات لما قبل التاريخ، عثر بها على كتابات ليبية وأشكال آدمية وحيوانية عبّرت وبصدق عن استيطان القبائل البربرية لمنطقة الونشريس وسهل السرسو كما هو الحال بالنسبة لانتشارهم عبر كامل شمال إفريقيا[1]، حيث يتفق جمع من علماء الآثار على تحديد الفترة التاريخية لذلك ويحددونها بحوالي 7000سنة من خلال استقراء تجمعات بشرية اتخذت من المنطقة مركز عبور يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، خاصة وان تلك القبائل كانت تعرف بالترحال والبحث عن الاستقرار وكل ما يضمن بقاءها.

وتتوالى الأحداث بالمنطقة قديما، فبعد احتلال شمال إفريقيا من طرف الرومان وبسط السيطرة على مرتفعات الونشريس أين عجزوا عن تسلقها وباعتبار هذه المرتفعات بوابة التحكم في المنافذ والمخارج فان القبائل المورية التي اتخذت من جبال الونشريس معقلا استراتيجيا لها واتخاذها حصونا طبيعية لصد هجمات العدو ومقاومة الاستعمار الروماني[2]، وقد كانت هذه القبائل تابعة لمملكة ماصيصيليا التي كانت تسيطر على الجزء الغربي من الجزائر حتى المغرب وبقاء الونشريس تابعا لها بقيادة الملك سيفاقص 213-202ق.م[3].

وتثمينا للدور الفعال الذي لعبته السلاسل والمرتفعات الجبلية بعلوها وارتفاعها، أصبحت رمزا للحرية حيث يقول الباحث شنيتي: " تحولت المناطق الجبلية الى أشبه جزر مستقلة في بحيرة رومانية دلالة على احتفاظهم باستقلالهم، وتحولت المرتفعات الى قواعد خلفية لمحاربة الاستعمار

الروماني، وأمام عجز الدولة الرومانية على قمع الثورات لجأت الى وضع جدار الليمس وهو عبارة عن قواعد عسكرية لمراقبة القبائل غير الخاضعة لسلطتها على طول الونشريس"(4).

ووجود أثار ذلك على جدران مدن تيارت وتلمسان* من خلال نقيشات لاتينية، باسم الملك **صولومونيس** علما أن هذه المدن كانت تابعة للحكام المحليين والأفارقة ومنهم **مازونا** MAZUNA بحكم علاقتهم مع البطريق صولومونيس 535 م (5).

وبعد إنشاء هذا الخط الذي لقي من خلاله الرومان ضالتهم، بفصل كل القبائل والمرتفعات عن بعضها البعض وتقويته بمجموعة من الخطوط العسكرية، حيث أنشئ خط شمالي من عين الدفلى إلى شلف حتى واد ارهيو وغيليزان، وخط جنوبي من بوغار ثم قرية أولاد هلال مرورا ببورباكي وصولا إلى تيارت، وخط غربي يمتد من تيهرت عبر واد مينا إلى غيليزان ، أما الخط الشرقي فيمتد من بوغار الى المدية ثم تيبازة (6).

هذا ما أعطى الفرصة لبناء معسكرات ومدن وبسط السيطرة وهو ما تثبته الشواهد الأثرية المتواجدة بأغلب المواقع والتي سنقوم بالإشارة الى بعضها خلال هذه الدراسة، بالاعتماد على مجموعة من البحوث التي أجريت على جزء كبير من المنطقة.

ومع مطلع القرن الخامس اشتدت ثورة القبائل المعادية للرومان، وضعفت السلطة الرومانية، وظهرت قوة أخرى منافسة للرومان تمثلت في الوندال وقد كان دخولهم إلى أرض إفريقيا سنة 429 م، بعد أن أزاحوا الرومان منها واستغلوا ثورات القبائل المورية.

وحتى لا يحدث لهم ما حدث للرومان لم يدخلوا في صراعات مع الثوار المحليين وتركوهم يشكلون ممالك مستقلة لا يربطهم بها سوى الخضوع الاسمي والشكلي وفي تلك الفترة ظهرت مملكة الونشريس المورية، والتي امتدت من وارسنيس إلى نهر ملوية بوهران، ولما غلب البيزنطيون الوندال على ارض إفريقيا سنة 534 م، رفضت الممالك المحلية هذا الوافد الجديد معتبرة إياه استعمارا رومانيا ثانيا، ودخلت معه في صراعات بين عامي 535 و 539 م باءت بفشل البيزنطيين مما جعلهم يتراجعون عن فكرة استعادة ملك موريطانيا القيصرية الرومانية الذي أزالته

الممالك المحلية، وتم حذف هذه المقاطعة نهائيا من قائمة المقاطعات البيزنطية في عهد الإمبراطور موريس 582، 602 م ، ومن ثم بقي الونشريس ومملكته مستقلا بعد أن أخضعه الرومان تحت سيادته وسلطة حكمه (7).

بعد دخول الإسلام لبلاد الونشريس خلال عهد الفتوحات والتي كانت بين سنتي 62، 64 هـ /681، 683 م، على يد اغلب حملات الفاتحين الذين اخضعوا سكان الونشريس تحت لواء الإسلام لتتوالى بعدها الأحداث وتستمر الانشقاقات بين القبائل والملوك والأمراء حتى الفترة المعاصرة وتحديدا مرحلة المقاومة الوطنية التي كان لسكان الونشريس قسط وشرف كبير في تدعيمها وبعث نشاطها تمهيدا لتحريرها من قبضة الاستعمار الفرنسي(8).

طبيعة الاستيطان والتواجد البشري :

المعروف على تاريخ الشعوب القديمة وحتى الفترات المتأخرة، اختيار الأماكن الخاصة لإقامتها، وهذا لاستقطاب العنصر البشري في المدينة أو القرية وقد ساعد في ذلك والى حد كبير الظروف البيئية الملائمة وهذا ما يميز المنطقة من خلال تنوع تضاريسها على غرار ما تم التطرق إليه سابقا بذكر الجبال والسلاسل الجبلية التي من شانها توفير الحصانة الطبيعية وتخفيف الضغط خاصة من الناحية الأمنية، والسهول التي تضفي الطابع الفلاحي الذي تتميز به منطقة الونشريس بوجود عدد كبير من المراكز الفلاحية ذات الإنتاج الوافر، أما بالنسبة للإنشاءات المعمارية والمتمثلة في الأضرحة، المدن، ومراكز المراقبة، حيث ومن خلال بحثنا هذا، عثرنا ببعض المواقع على مثل هذه الهياكل مما يدعنا نقول أن المنطقة بها محاجر لتوفير الصخور ذات النوع الجيد والحجارة الضخمة، وبعودتنا الى توضيح دلالات التواجد البشري بالمنطقة، فان تأكيدنا يبقى ملازما لمظاهر التطور الحضاري لعصور ما قبل التاريخ، والمعلومات التي بحوزتنا تدل على وجود حضارة حقيقية بالمنطقة، في انتظار الإعلان عن أوجه ثقافية وحضارية أخرى بعد التعمق في الأبحاث مستقبلا.

ما يميز سكان إفريقيا الأوائل حبهم للتنقل والترحال وصيد الحيوانات، كل هذا في ظل انعدام القوانين والتقاليد ونظم الحكم، وبدايات معرفتهم للسكن كانت مع اتخاذ الكهوف، المغارات

والمخابئ الصخرية كملاجئ أينما أدرك الليل سيرهم [9] ولعل المخابئ الصخرية لمنطقة عين الصفا وتلك الموجودة بمكمن الجمل دليل واضح على ذلك واعتبارها من بين محطات ما قبل التاريخ بالمنطقة حيث وجود مجموعة من الكتابات الليبية، والنقوش الصخرية المتمثلة في الأشكال الآدمية والحيوانية بأشكال تخطيطية وهندسية، وكذا الحال بالنسبة لمواقع كاف اللوز، وارنان، سيدي بوتوشنت وبوقايد، التي تحوي مجموعة من العناصر الفنية والأدوات الحجرية، ضف الى ذلك الكتابات الأثرية لما قبل التاريخ وفجر التاريخ[10].

من الواضح أن الإنسان البدائي كان يعبر عن أحاسيسه ومشاعره ومعتقداته الدينية بالنقش على الصخر وطرق أنواع الدفن، فمن خلال ملاحظاتنا لرسم بعض الحيوانات على واجهات الصخور دليل على بدايات استئناسها (الخروف، الثور، الكلب) .

هذا كل ما تقدمه الشواهد الأثرية لحضارة ما قبل التاريخ على اختلاف المراحل الانتقالية للعصور الحجرية، حيث أن للفن الصخري دلائل أكيدة وواضحة، وكذلك ممارسة مختلف الشعائر للتعبير عن مضامين حياتية واجتماعية، لتبقى مجمل الدراسات في تطور مستمر نظير تطور الأفكار والمناهج التي ارتكزت عليها المجتمعات القديمة ضمانا لاستمرارها وفرض تواجدها في ظل الاختلافات المتعلقة بالجنس، اللغة، الجغرافيا وكذا السعي لينظم الكل تحت لواء الانتماء الحضاري،

أما الفترة القديمة، فمعالم الاستيطان لا تزال بارزة وواضحة بشكل جيد، خاصة من خلال بعض المدن المدنية والمعالم الدينية والعسكرية حيث يتضح التواجد الرسمي للإمبراطورية الرومانية، والذي يبين كذلك الاستغلال الحقيقي للأراضي الفلاحية وإسكان الأشخاص والجنود وتبني الفيالق العسكرية في شكل مجموعات أو أفراد والهدف هو إدماج الأهالي أكثر فأكثر في خطوة تبين الأسلوب الروماني في استيطان التراب الإفريقي واحتوائه، وما ساعد أكثر في بعث الحركية والديناميكية، فتح شبكة الطرقات على محور موريطانيا القيصرية والمناطق التابعة لها (مركز عين تكرية) [11] والحفريات الأثرية التي أجريت ولا زالت، بينت وجود مراكز دفاعية قديمة تقع جغرافيا في أقصى حدود المنطقة من الناحية الشرقية (تازا، عين أشير، وتيحمامت) وفي نفس السياق، حيث نلمح الاستمرارية في تواجد الشعوب الى فترات متأخرة من التاريخ الحديث، كانت كلها حافلة

بالأحداث مع وصول جموع العرب، ومجيء الإسلام الذي أذن بإبعاد ركائز الحضارات السابقة وإضعاف مصادر تقويتها لان الكل يتنافى من حيث المبدأ والمصالح التي تبعث كلها للبناء والاستمرار على ارض افريقية لتبقى ملكيتها لأصحابها ومستحقيها.

دلائل التعمير والاستيطان البشري بالمنطقة:

1- الشبكة المائية :

ما تدونه الوثائق والمصادر الخاصة بالتاريخ القديم هو قيام اغلب الحضارات على ضفاف الأنهار ومنابع المياه والأودية، ونذكر من ذلك قيام الحضارة المصرية على ضفاف نهر النيل العظيم، وكذا حضارة بلاد الرافدين التي تنسب تسميتها الى نهري الدجلة والفرات (ما بين النهرين- العراق القديم) حيث استمرت في ذلك الشعوب عبر التاريخ مستغلين التنوع التضاريسي والتكوين الجيولوجي لمناطق الاستقرار البشري وتنشيط الحركة التجارية خاصة منها القائمة على السواحل البحرية (الموانئ والمرافئ التجارية).

من خلال العمل الميداني، وبالعودة الى دراسة الخريطة الطبوغرافية للمنطقة، تم الوقوف على مجموعة من منابع المياه من عيون، شعاب وانهار وحتى الآبار المنجزة ضمن المنشآت والهياكل البنائية القديمة، ومن خلال الدراسة الطبيعية التي تخص الجانب التضاريسي من حيث أن المنطقة تتميز بطابع جبلي على ارتفاع يسمح بتساقط كميات معتبرة من الثلوج في فصل الشتاء، وهذه الأخيرة تخزن في جوف الصخور مشكلة فيما بعد ظهور عدد معتبر من العيون والمنابع (جبال الونشريس والمداد) اضافة الى أن المنطقة تتميز بمناخ بارد شتاء وبمعدل تساقط يضمن توفر المياه على اغلب فصول السنة، فموقع قصر الروم بمنطقة القواسم يتوسط مجرى مائي على قسمين (شمالي وجنوبي) ينحدر من قمة جبل أولاد بن يوسف ويصب في نهر القواسم في المكان المسمى "الروراوة" اضافة الى وجود حوضين لجمع المياه بالموقع وكذا قرب كل من موقعي توم زايت والقلايل من النهر الرئيسي الذي وحسب جيولوجية المنطقة وتكوينها التضاريسي، لم يغير مساره منذ القديم، مما يدعنا نقول أن اختيار أماكن إقامة أبراج ومدن أثرية بالمواقع المذكورة كان على حساب الأنهار والمجاري المائية التي

تصب فيها، وفي هذا السياق، يذكر LACAVE LAPLAGNE[12] أن اختيار الرومان لبناء قواعدهم المختلفة وخاصة على ضفاف الأنهار في إشارة منه الى إستراتيجية وجاذبية موقع واد لرجام وعذوبة مياهه وخصوبة تربته وهو ما جعل الكثير من العائلات تتمتع بالإقامة نظير افتقادها لمصادر تموينها بالمياه، وبشهادة الباحث بدلالة احتمال اختيار هذه العائلات بعد أن ترومنت وأخذت على عاتقها بناء مدن لإيوائها الى جانب الأضرحة وقصور العبادة وممارسة الطقوس الدينية والجنائزية.

كما أن المصادر القديمة تشير الى وجود بعض المنشآت ذات الغرض الاستحمامي والترفيهي ويتعلق الأمر بالحمامات المعدنية، حيث وجود منبع مائي ساخن أو مسبح محفور في الصخر بمنطقة سيدي سليمان [13] وهو مستغل الى يومنا هذا باعتباره احد المراكز المعدنية والسياحية في المنطقة بالإضافة الى وجود بعض الآثار غير الواضحة على الخريطة، ومنها بقايا منزل وعمودين بمنطقة أولاد غالية وخربة بني علة (الخرب)[14]، أما ببلدية بني شعيب وعلى إحدى الهضاب وجود مجرى مائي على يمين واد فودة، وغير بعيد عن الطريق الرابط بين برج بونعامة وثنية الحد وجود كتابة أثرية غير واضحة[15]، وبمنطقة أولاد بسام وجود بقايا لبعض المعالم مبنية بالآجر والحجارة المنحوتة، وهي موجودة بمحاذاة ربوة محاطة بثلاث أودية كبيرة مبنية بالحجارة وبالمكان المسمى **كاف** الحمام وجود سبعة أسوار متوازية مشكلة من الحجارة غير المنتظمة وغير المنحوتة بارتفاع ثلاث أمتار وطولها مئات الأمتار [16].

بالناحية الجنوبية وما تحتمله الوثائق التاريخية في هذا المجال، ذكر نهر واصل الذي شهد أهم المراكز العسكرية الرومانية التي كانت تابعة على وجه الخصوص لأهم معسكر بالمنطقة (عين تكرية) في الفترة الرومانية، وهي بذلك تشكل احد نقاط الارتكاز للخط الدفاعي الثاني "الليمس"[17] حيث أن هذه الانجازات لم تتوقف عند هذا الحد، بل تواصلت حسب ما تمليه الطبيعة البشرية والأهمية الجغرافية لإقامة المراكز العسكرية والاستيطانية، مع أن خرجاتنا الميدانية لم تمكننا من العثور على آثار وبقايا ما ذكرته المراجع في مجال الآثار وهذا بحكم وجودها في مناطق فلاحية وزراعية تنتمي الى سهل السرسو الشمالي.

وبموقع تازا –برج الأمير عبد القادر، ومن خلال الحفريات الأثرية التي يقوم بها الدكتور بويحياوي، أشارت في تقاريرها الى وجود نظام توزيع وتصريف المياه، وبعض الصهاريج وخزانات المياه بالمدينة الأثرية خلال فترة إقامة الأمير عبد القادر هناك. (18)

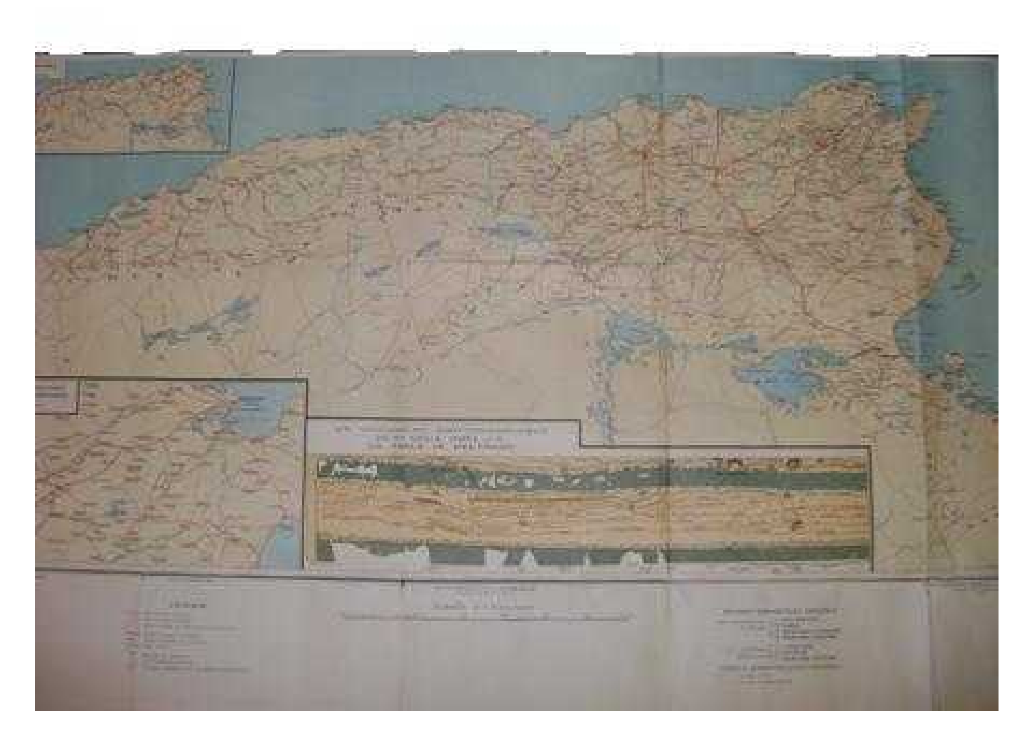
هذه الشبكة المائية وان لم نتمكن من الإشارة إليها بشكل تفصيلي نظرا لوقوعها في مناطق معزولة ومتدهورة امنيا، إلا أنها تعتبر احد العوامل الأساسية والرئيسية للتواجد البشري بهذه المنطقة، وهو ما نستطيع استنتاجه على ارض الواقع من خلال كثرة السيول والمجاري المائية بوسط المدينة خاصة في فصل الشتاء وبداية فصل الربيع، وهو ما جعل ضرورة تمركز المنشآت الدفاعية والمراكز الفلاحية حول هذه الشبكة الحيوية.

2– شبكة الطرقات:

إن إحكام السيطرة على أي إقليم، موقع أو مقاطعة ما لا يمكن إلا بإنشاء شبكة طرقات جيدة واستحداث منافذ ومخارج ضمن الفجوات أو الطرق الثانوية وغير الرئيسية، ما يمّكن تنقل الفرق والجيوش العسكرية من منطقة لأخرى خاصة ضمان إيصال المؤن والمعدات اللازمة لها دون عناء(19)، حيث تكون الطرقات محروسة عن طريق الإنشاءات التحصينية الدفاعية والإستراتيجية، لا لشيء إلا لتثبيت السلم وضمان امن الطرقات حيث أن نجاح الرومان في تحقيق هذا النظام كان احد ابرز عوامل توفير الأمن في شمال إفريقيا في نهاية القرن الثاني والثالث ميلادي، للإشارة، ومن خلال بحوثنا التي تركزت في بعض مراحلها على المطالعة استنتجنا أن مخلفات الحضارة الرومانية في هذا المجال أعيد استعمالها من طرف الشعوب الآتية من بعد، وهو ما يرجح فكرة تداخل المستويات الأثرية على اختلاف الفترات التاريخية.

من خلال النظر للمعطيات الجغرافية والتي يمكن من خلالها القول وبتأكيد ذلك أنها في اختيار شبكة الطرق العسكرية ونحن هنا نحاول توضيح أن جبال الونشريس ذات التشكل الجيولوجي الضخم من جهة وقلة الموارد الحيوية لإقامة المدن من جهة أخرى ما عدا إقامة بعض القلاع على المرتفعات لمراقبة التحركات على السهول الضيقة أحيانا والمتسعة أحيانا أخرى...وعلى

هذا الأساس فان كتلة جبال الونشريس لم تتح الفرصة لإنشاء طرقات بإمكانها ربط الإستراتيجية الدفاعية بمختلف النقاط والمتمركزة أساسا على بناء المراكز للمراقبة العسكرية وحماية محطات المدن على طول الطريق، وأمام غياب واندثار معالم شبكة الطرقات بالمنطقة حاولنا الاعتماد على استقراء خريطة شبكة الطرقات بإفريقيا الرومانية **لبيار صلاما**.



الخريطة 01: شبكة الطرقات بإفريقيا الرومانية

ل **SALAMA. P**

انطلاقا من منطقة زابي شرقا مرورا ببوغار وصولا الى حدود واد مينا بغيليزان غربا على محور الطريق الداخلي **الرئيسي** والمعروف (Reconnue)، الذي يربط ويشمل عديد المدن التي قمنا بجرد مواقعها الأثرية وكمثال على ذلك اعتبار منطقة تازا الواقعة بالقرب من شبكة طرق رومانية مكثفة لموريطانيا القيصرية، ومن ذلك الطريق الروماني الذي يمر بقربها والآتي بداية من بوغار، دراق، قرية أولاد هلال ثم تتبع الحدود طريقا استراتيجيا يمر عبر ثنية الحد، تيارت ثم فرندة، وهذا

التحديد فإن منطقة تازا تقع في حدود الخط الدفاعي الثاني الذي امتد بسبب الحركة التوسعية التي اتخذها الرومان كإضافة وتدعيم للخط الأول من خلال تطويق المناطق الداخلية والتلية خاصة بعد نهاية الحكم السيفيري (235م) بداية من منطقة سيلاص (الخربة الزرقاء) مرورا بزابي جوستينيانة (المسيلة) الى غاية مقر اللفيف السوري (مغنية)– NUMERUS SYRORUM– [20]، حيث اعتبر هذا الطريق الشريان الوحيد لتنشيط الحركة التجارية وتامين المدن ومعسكرات الجيوش التابعة والتي لها علاقة مباشرة مع مدن الإمبراطورية على غرار الطرق **الثانوية** والافتراضية (Supposé) التي تم شقها لتنمية المناطق الواقعة على محور الطريق الرئيسي واستغلال ثرواتها وتسهيل الاتصالات والإشارات العسكرية، حيث نستطيع ذكر في هذا المجال اتصال الطرق الثانوية مع المناطق الداخلية الغربية، وخاصة منها تلك التي عرفت إنشاء مراكز مراقبة وحراسة المنشآت العسكرية باعتبارها جزءا من خط الليمس خاصة في المنطقة الواقعة بين جبال الونشريس جنوبا والحدود الشمالية لسهل السرسو حتى منطقة تيارت.

– الطريق الرئيسي:

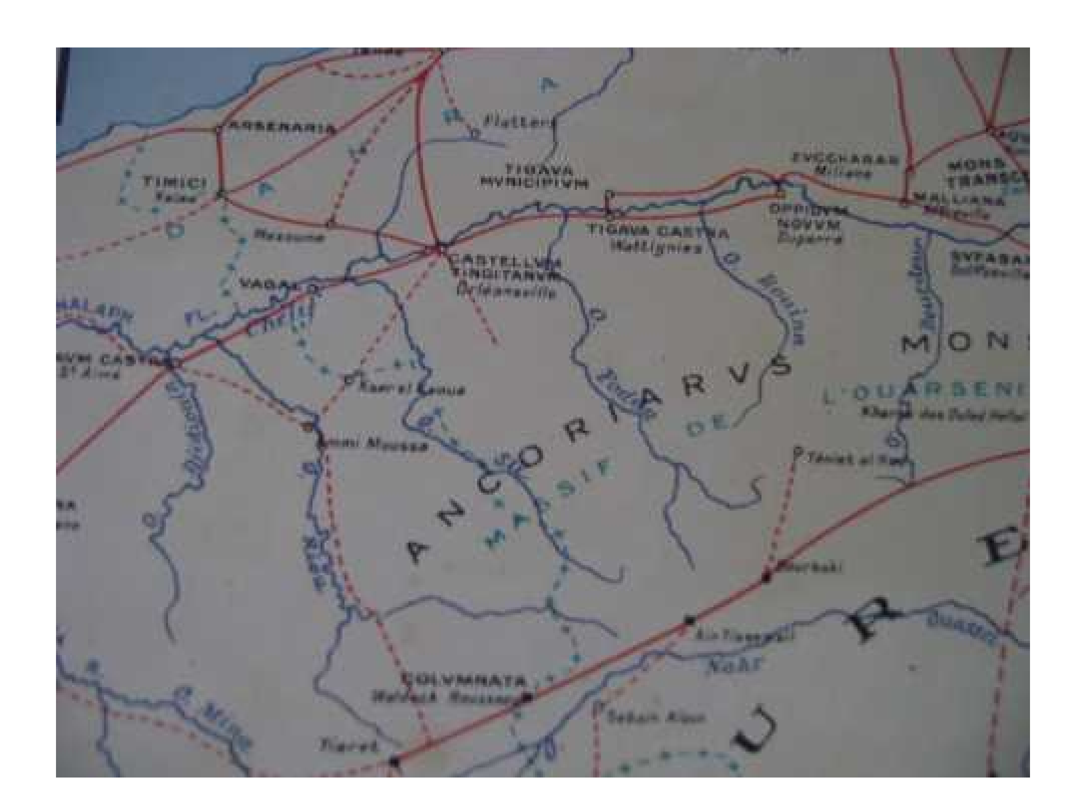
منطقة زابي (المسيلة حاليا) شرقا حتى حدود واد مينا بغيليزان غربا واهم مميزات هذا الطريق وقوعه على المحور شرق غرب الليمس الموريطاني والإشراف على المناطق الداخلية للأطلس التلي خصوصا جبال الظهرة، الونشريس والسهول الشمالية بمراعاة وقوع بعض المواقع الأثرية التي تم ذكرها على غرار تازا ومعسكر عين تكرية (المسماة بورباكي على الخريطة) وعين تيسمسيلت حتى منطقة تيارت كمناطق إستراتيجية.

وجود طريق رئيسي بأقل مسافة من الطريق السابق يربط خربة أولاد هلال شمال شرق ثنية الحد بالعاصمة ايول (شرشال) مرورا بحمام ريغة (AQUAE CALIDAE) وجبال زكار.

الخريطة 02: مقطع من خريطة شبكة الطرقات

بإفريقيا الرومانية

ـــــــ الطريق الرئيسي



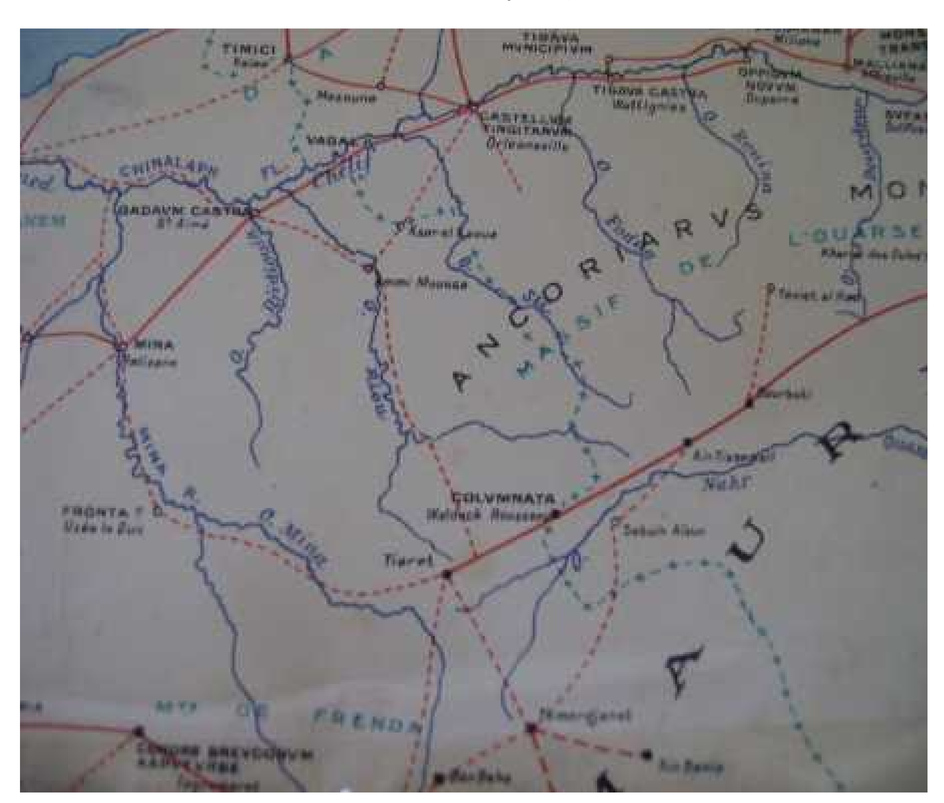
– الطرق الثانوية:

عديدة، بما أنها تتفرع من على حدود الطريق الرئيسي وتربط المدن الداخلية والقريبة سواء للأغراض التجارية أو تلك التي بها منشآت وأبراج دفاعية، والملاحظ أنها تتجه كلها نحو الشمال على عكس الطرق الثانوية الأخرى لمنطقة تيارت والمتجهة نحو الجنوب (الأطلس الصحراوي).

الخريطة 03: مقطع من خريطة شبكة الطرقات

بإفريقيا الرومانية

الطرق الثانوية



الشواهد الاثرية للتعمير البشري بالمنطقة:

أردنا في ختام هذه الدراسة أن نعرض اهم البقايا الاثرية لبعض المواقع والتي بدورها تمثل شواهد الوجود البشري بالمنطقة منذ ما قبل التاريخ والفترة الرومانية اذا اعتبرنا ان استقراء هذه البقايا علميا يحدد جوانب كرونولوجية من شأنها تأكيد نظرية ان المنطقة ضاربة في اعماق التاريخ من خلال محطات ومواقع ما قبل التاريخ والفترة التاريخية.

من بين الشواهد الاثرية بالمنطقة نجد موقع عين اشير ببلدية برج الامير عبد القادر حيث تشمل اثاره عشرات القبور الدائرية (التيميلوس) تحفها حجارة متوسطة الأحجام وغير مرتفعة كثيرا

على مستوى سطح الأرض، استغل في ذلك ربوة صغيرة كمقبرة تم من خلالها دفن الأموات مقاساتها من حيث قطر الفوهة تتراوح من 1,25م إلى 1,40م أما المسافة بين القبور فتتراوح من 40 إلى 65 سم. لكننا لم نتمكن من التعرف على المقاسات الداخلية للقبور وحتى طرق الدفن بحكم عدم تعرض الموقع لأي عمليات تنقيب أو بحوث أثرية.



الصورة 01: منظر عام للموقع

أما نشاط الانسان في حقبة ما قبل التاريخ خصوصا ما تعلق بالصناعات الحجرية، فتحرياتنا الميدانية اثبتت وجود موقعين عثر بهما على ادوات حجرية بأشكال مختلفة، ويتعلق الامر بموقع كاف اللوز المحاذي لموقع عين تكرية شمالا حيث ان هذه الادوات تم العثور عليها على السطح من خلال عملية المسح الاثري التي قمنا بها خلال 2009 في اطار جرد المواقع الاثرية.



الصورة 02: مظار عام للموقع



الصورة 03: نماذج للأدوات الحجرية بالموقع

أما الموقع الثاني يتواجد ببلدية بوقايد حيث يتطرق الباحث دحدوح[32] الى وصف الموقع على انه يحتل زاوية مشكلة من واد بوقايد وأحد روافده، على بعد 600 م جنوب غرب منجم الباريت وبالقرب من **ركبة** العتبة، واعتباره ثالث المواقع التي تعود لفترة ما قبل التاريخ وتحديدا فترة العصر الحجري الحديث (النيوليتيك)، ويشير نفس الباحث الى أن الموقع تم اكتشافه من طرف السيد **جين موران** (JEAN MOREL) في سنة 1948، حيث قام بجمع 148 أداة حجرية مصنوعة اغلبها من حجر الصوان والكوارتزيت وهي تتمثل في النصال، الشظايا، النصيلات والمثاقب.



الصورة 04: الأدوات الحجرية الملتقطة من الموقع
عن الباحث : **دحدوح**

فيما يتعلق بالممارسات الدينية والجنائزية بالمنطقة، فالشواهد الاثرية لا تزال معالمها قائمة لكن حالة حفظها سيئة، ومن بين هذه الشواهد نجد بقايا ضريح سيدي جغبالة ببلدية المعاصم حيث وبعد معاينة الموقع، أين تكثر القبور بجوار الضريح تم تسجيل تواجد عدد كبير من الحجارة المنحوتة، مقاساتها تتراوح من 1,55 الى 1,60 م طولا، ومن 55 الى 60 سم في السمك أما الارتفاع فيختلف حسب الوظيفة والشكل حيث كانت مشكلة للضريح من الجهة العلوية، أما قاعدة الضريح فتبلغ مساحتها 40,96 م^2، وباعتماد نظام التدرج في بناء الأضرحة والتي تبلغ في مجملها أربعة دورات في البناء، حيث تبلغ المساحة الإجمالية 18,49 م^2، وعليه فإن هذا النوع ينتمي إلى الأضرحة هرمية الشكل،



الصورة 04: مظهر عام للضريح



الصورة 05: تقنية بناء حجارة الضريح

والملاحظ على طبيعة الحجارة المكونة للجهة العلوية للضريح، أنها مسطحة من الزوايا الخارجية بشكل أفقي على عكس تلك المكونة للأجزاء السفلى المنحوتة بشكل مربع.

كما تم تسجيل سقوط اغلب الحجارة المكونة لأسوار الضريح بشكل كلي، ما عدا جزء من السور الغربي مما اثر على عدم إمكانية اخذ المقاسات الخاصة أساسا بتحديد المساحة الإجمالية للضريح من جميع الجوانب وحتى إعادة تصوره في شكل مخطط، من شأنه تسهيل إعادة ترميمه خاصة وان الحجارة التي كانت مكونة له لا تزال بالموقع.



الصورة 07:سقوط اغلب حجارة الضريح

بيبليوغرافيا المقال:

(1) **عبد الرحمن محمد ابن خلدون**. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة المطبوعات ج1، بيروت 1971، ص156.

(2) **شنيتي محمد البشير**. موريتانيا القيصرية، دراسة حول الليمس ومقاومة المور، أطروحة دولة في تاريخ وأثار المغرب القديم ج1، معهد الآثار، جامعة الجزائر 1992، ص55.

(3) **غانم محمد الصغير**. المملكة النوميدية والحضارة البونية، شركة دار الأمة، الجزائر 1998، ص50-51. **أنظر أيضا**: **قداش محفوظ**. الجزائر في العصور القديمة، ترجمة صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1993، ص63-64، 66. **دحدوح عبد القادر**. **تيسمسيلت**، محطات تاريخية ومواقع أثرية، الجزائر 2009، ص19.

(4) **سعيداني سحنون**. الاستيطان بمنطقة الونشريس، ماجستير في التاريخ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 2008، ص08**نقلا عن**: **شنيتي محمد البشير**. الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص95.

* بحكم التجاور ووقوع المدينتين -تيارت وتيسمسيلت- في الفترة القديمة على نفس الخط الدفاعي (الليمس) وبلوغه المغرب الأقصى مرورا بتلمسان واشتراك هذه المدن في نقاط دفاعية مختلفة، عرفت فترة بناءها تضييق الخناق على المقاومة التي أبداها سكان شمال إفريقيا رافضين كل أشكال الاحتلال والاستيطان.

(5) DIEHL, CH. L’Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (523, 709) Vol I et II, Paris 1892, PP 260- 262.

(6) شنيتي محمد البشير. المرجع السابق، ص342، 349 و351. انظر أيضا:

- SALAMA, P. Les voies romaines de l'Afrique du nord.

(7) **دحدوح عبد القادر**. المرجع السابق، ص21.

(8) **نفسه**، ص23 و33.

(9) **محفوظ قداش**. المرجع السابق ص 30-38.

(10) **كمال بولغرايف**: دراسة وصفية تحليلية لمحطات الفن الصخري لمنطقة ثنية الحد بولاية تيسمسيلت، ماجستير آثار ما قبل التاريخ، معهد الاثار، جامعة الجزائر 2007. ص 44-55.

(11) SALAMA, P. Les voies romaines de l'Afrique du nord, Alger 1951, PP 36-37.

(12) LACAVE LAPLAGNE. Notes sur les ruines romaines relevées dans la commune mixte d'Ammi Moussa, **B**ulletin de la **S**ociété de **G**éographie et d'**A**rchéologie d'**O**ran, 1911, P 48.

(13) CADENAT, P. « Fouilles à Columnata 1956-1957 » Libyca Archéologie / Epigraphie, N° VI, 1er semestre, 1958, PP 89-93.

(14) CAVAULT, P. « Note sur les ruines antique d'Ain Toukria » **R**evue **A**fricaine, N° 27, O.P.U, 1883, PP 233.

(15) GSELL, S. **A**tlas **A**rchéologique de l'**A**lgérie, Feuille 23, N° 02.

(16) BASSET, P. Etude sur la Zenatia de l'Ouarsenis et du Maghreb central,Paris 1895, P 12.

(17) GSELL, S. Op Cit. N° 02.

(18) WAILLE, V. Une reconnaissance Archéologique entre Theniet el Had et Tiaret. **B**ulletin de **C**orrespondance **A**fricaine, 1884, P 461.

(19) CAGNAT, R. L'Armée romaine et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, 1892, P 653.

(20) **بويحياوي عز الدين**. التقارير العلمية لحفرية تازا برج الأمير عبد القادر لكل المواسم من 2001 إلى 2009، أرشيف مديرية الثقافة لولاية تيسمسيلت (مصلحة التراث الثقافي).

(21) SALAMA, P. Op Cit. PP 100-101.

(22) COURTOIS, C. Les vandales et l'Afrique. Edition, Arts Métiers Graphiques, Paris 1955, P 79.

التعريف بالمفاهيم:

(العبرانيون، بني إسرائيل، اليهود)

الأستاذ بلخير بقة، جامعة تيارت

الملخص: يتناول المقال التعريف بالمصطلحات (العبرانيون، بني إسرائيل، اليهود)، والهدف من هذه التعريفات هو الوقوف على أهم الفروقات الموجودة بين هذه المصطلحات المرتبطة بتاريخ اليهود، والوصول إلى هذه الفروقات لن يتأتى إلا من خلال الوقوف على أصل كل مصطلح، وتحديد اطاره الزمني، ومجالات استعمال كل مصطلح حتى لا يقع الخلط لدى البعض في استعمال المصطلحات، وهو ما لاحظناه في كثير من الأعمال التي تخلط بين الكلمات الثلاث، في حين أن استعمالها يختلف وفقا للإطار الزمني المدروس.

الكلمات المفتاحية العربية: اليهود، العبرانيون، بني إسرائيل.

Abstract :The article deals with the definition of terms (Hebrews, Israelites, Jews), and the goal is to stand on the most important differences between the three terms, as well as discuss the origin of each term and determine its historical context, and thus demystify some, which is located have confused these terms and find them employ the term other instead while their meaning different things especially in terms of the historical context in.

الكلمات المفتاحية الانجليزية: Hebrews, Israelites, Jews.

مقدمة: إن أكثر ما يثير حب التطلع لدى المثقفين على اختلاف مستوياتهم هو تساؤلهم عن أصول أسماء البلدان والأماكن الجغرافية والأقوام، لذا فإن الباحثين في أصول الأقوام والحضارات والجغرافية التاريخية يولون اهتماماً بالغاً لهذا الموضوع بالنظر إلى صلة ذلك بجلاء الحقائق عن أصول الحضارات والهجرات البشرية واستيطانها، ومن أجل هذا أردت في هذا البحث أن أعرف بالمصطلحات التي أطلقت على اليهود والبحث في أصولها وتاريخها. وذلك بغرض إزالة الغموض وكذا الخلط الذي كثيرا ما يقع فيه البعض لدى تناولهم للمواضيع التي تخص تاريخ اليهود.

1-العبرانيون: تتفق جل المصادر على أن لفظة عبراني أطلقت على سيدنا إبراهيم ﷺ، وعلى ذريته من بعده[1]، وهي من أقدم التسميات التي عرف بها بنو إسرائيل في التاريخ، وقد اختلف العلماء حول أصل هذه التسمية[2]:

قيل أن إبراهيم عليه السلام لُقب بالعبراني لأن أحد أجداده يسمى عابر (عِبر)، فهو إبراهيم بن تارح بن حاور بن سروح بن رعو بن عابر حسب ما يذكره سفر التكوين الذي تنسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب[3]. غير أن هذا الطرح يبقى بعيدا عن الصواب، ذلك أن بين إبراهيم ﷺ وبين عابر ستة أجيال متوالية، فلو شاء إبراهيم ﷺ أن ينسب إلى أحد أجداده كان من البديهي أن يعزى إلى سام أشهر أجداده. ولو كانت النسبة لعابر فلم لم ترد في الكتاب طيلة ستمائة سنة؟ ولم لم يسم إبراهيم بها قبل عبوره نهر الفرات وهو بعد في أرضه وعشيرته؟[4]

وفريق آخر يحتمل أن يكون سيدنا إبراهيم ﷺ عبر نهرا، وهذا النهر المقصود يحتمل أن يكون نهر الفرات، كما يحتمل أن يكون نهر الأردن[5]، وذلك حين نزح من العراق إلى كنعان[6] عن طريق عبوره النهر[7]. وجاء في التوراة أن يعقوب هو الآخر قد عبر الفرات فارا من أصهاره في العراق نحو كنعان، فهرب هو وكل ما كان له، وقام وعبر النهر وجعل سمته نحو جبل جلعاد[8]، وتروي هذه القصة كيف أن لابان صهر يعقوب قام بمطاردته حتى أدركه في بادية الشام فاتفق على الانفصال، وقال لابان ليعقوب: [**51وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ: «هُوَذَا هذِهِ الرُّجْمَةُ وَهُوَذَا الْعَمُودُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ. 52شَاهِدَةٌ هذِهِ الرُّجْمَةُ وَشَاهِدٌ الْعَمُودُ أَنِّي لاَ أَتَجَاوَزُ هذِهِ الرُّجْمَةَ إِلَيْكَ وَأَنَّكَ لاَ تَتَجَاوَزُ هذِهِ الرُّجْمَةَ وَهذَا الْعَمُودَ إِلَيَّ لِلشَّرِّ**][9]. أي أن هذا الحجر وهذا النصب اللذين وضعتهما بيني وبينك يشهدان أني لا أعبر هذا الحجر إليك وأنت لا تعبر هذا الحجر، لذلك يميل بعض الباحثين ومنهم حسن ظاظا إلى اعتبار عبور يعقوب لنهر الفرات أساسا لاسم العبرانيين، وكما ذكرنا سابقا فهم ينتسبون إلى عبور النهر، كما ينتسبون إلى من قام بهذا العبور[10].

وقد رجح هذا الرأي العالمان السريانيان ابن الصليبي (ت1171م) وابن العبري (ت1286م)، إذ أيد ابن العبري قوله بالترجمة اليونانية "أكويلا" التي تترجم العبراني بالمجتاز أو العابر، وهو الرأي نفسه الذي دعى إليه الحاخام[11] اشتاين في كتابه اليهودية، وكذا كليفن الذي أكد أنها مشتقة من فعل معناه عبور النهر، وهذا معناه عبور ابرام الفرات[12]. غير أن هذا

الاحتمال ضعيف لأن العبرانيين عرفوا بهذا الاسم حسب ما جاء في التوراة قبل عبور يعقوب لنهر الفرات.

ويرفض ولنفسون الرأيين السابقيين لأن كلمة عبري حسبه لا ترجع إلى شخص معين أو حادثة بعينها، وإنما ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر بمكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى، والكلمة حسبه في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو عبر الوادي أو النهر من عبره أو عبر السبيل شقها، وكل هذه المعاني نجدها في الفعل سواء في العربية أو العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل الذي يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة عبري إذن مثل كلمة بدوي أي ساكن الصحراء والبادية[13]. لكن لو كانت التسمية من الهجرة والنقل لكانت معظم الأمم السامية نعتت بها، ولكن اختص بها العبرانيون دون غيرهم من الأمم السامية، والتي لا تختلف عنهم في موطنها الأصلي[14].

وهناك من يذهب إلى أن أصل الكلمة هو كلمة خابيرو (Habiri) (ابر بالأبجدية الأوغاريتية[15]، وعابيرو باللغة المصرية القديمة، والخابيرو عند البابليين) وهي قبائل بدوية ظهرت في فترة معاصرة لظهور العبريين غزت فلسطين وتوغلت فيها[16]، وكان هؤلاء على ما يبدو منتشرين على أطراف الهلال الخصيب[17] كشعب غير مستقر وفوضوي يقوم بخدمة من يدفع له أكثر سواء كأيد عاملة في الأعمال المدنية الكبرى أو كمرتزقة في الجيش، ويذهب اندريه لومير إلى أن أصول الشعب العبري توضع في الإطار العام لحركة الهابيرو أو العابيرو في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وأنه من المستحيل عدم تقريب التعبيرين أحدهما من الآخر[18]. وهو الرأي نفسه الذي ذهب اليه مجموعة من المؤرخين والعلماء أمثال" هول و"أوسترلي" و"وولي" و" أولبرايت" و"دريتوون" و"فانديه" و"ياهور لبيب" و"أحمد بدوي" و"ميك"، وأكدوا أن الخابيرو هم العبرانيون في التوراة[19].

ولكن أكثر العلماء يتحفظون في جعل العبري والخابيرو من أصل واحد؛ إذ يشيرون إلى أن عبري صفة تدل على النسب والانتماء بينما الخابيرو تدل على مجموعة الناس[20]. وينقل لنا بيومي مهران مجموعة من الآراء حول المصطلح، منها ما يذهب إليه جون ويلسون (john Wilson) إلى

أن هؤلاء الخابيرو أو العابيرو لم يكونوا من بني إسرائيل، وأنه من المرجح أن هذه الكلمة تدل على اسم بعض القبائل البدوية في شرق الأردن، في حين يرى ادوارد دروم أن العلاقة بين اللفظين مشكوك فيها فكلمة "خبيرو" صفة تعني الرفيق أو الحليف أو الشريك، بينما كلمة عبري مشتقة من الفعل السامي الشائع، في العربية كما سبق ذكره عبر أي اجتاز، أما الحاخام ابشتين فأكد أن الربط بين العبرانيين والجوالين الخابيرو أمر بعيد الاحتمال، والتشابه في حروف الكلمتين حسب الكسندر شاف لا يعني أن الاسمين من أصل واحد[21].

وقد ورد ذكر الخابيرو في المصادر القديمة المسمارية والفرعونية، وذلك قبل ظهور موسى بعشرات القرون، فكان السومريون يسمونهم "سا-كاز" منذ عهد أور الثالثة، وورد ذكرهم أيضا في نصوص بابل ونوزي[22] وماري وأوغاريت، كما ورد ذكر العبيرو في وثائق تل العمارنة[23] المصرية التي بعث بها ملوك كنعان إلى أمنحوتب الثالث (1390-1352ق.م) وأخناتون، والتي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م[24]، إذ ورد المصطلح بصيغة العفيرين وذلك في رسائل "رب هدّا" ملك جبلا (جبيل) الذي أرسل مجموعة من الرسائل لأمنحوتب الرابع لما كان في حرب طويلة مع ملوك أمورو الذي استمالو العفيرين (الخبيرو) وحرضوها عليه، وقد كان هؤلاء حسب هذه الرسائل مرتزقة منتشرين في مناطق متفرقة من ساحل بلاد الشام، يعتمدون في معيشتهم على النهب والسلب والقتل، ومن بين هذه الرسائل التي ورد فيها المصطلح (Ea67, Ea71-Ea77, Ea79, Ea81- Ea83, Ea85, Ea87- Ea88, Ea90-Ea91, Ea104, Ea113, Ea116, Ea121, Ea127, Ea129- Ea130)[25].

ووردت الكلمة في ورقتين من أوراق البردي كتبتا في القرن الثالث عشر ق.م في عهد رمسيس الثاني (1292-1225 ق.م)، وهما موجودتان في متحف لايد بهولندا، وهما رسالتان أحدهما من كاتب اسمه كويسر جوابا لرئيس له اسمه بكنفتاح يقول فيها: "**استرضاء لسيدي أتممت أمره الذي أنفذه إليّ قائلا أعط الجنود قوتهم وأعط أيضا العبريو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رمسيس...**"، والثانية من كاتب اسمه كينا إلى رئيس اسمه كيجانا يقول فيها: "**أطعت ما أمرني به سيدي قائلا أعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضا الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت إليه عناية رمسيس...**"[26]. وقد دلت التحريات على أن العبيرو تمكنوا من احتلال

مدينة أريحا[27] قبل عهد موسى بحوالي قرنين من الزمن ثم اختفى ذكرهم من الأحداث التاريخية منذ الألف الثانية ق.م[28].

ويذكر ولنفسون أن كلمة عبري ترتبط بلفظ عربي ارتباطا لغويا متينا لأنهما مشتقان من أصل واحد، وتدلان على معنى واحد[29]، ويذهب فريق من علماء إلى اعتبار أن كلمة عبري مشتقة من عربي بطريق القلب[30]، غير أن أحمد سوسة يطرح عكس هذا الرأي، ذلك أن اللفظان فعلا مرتبطان ببعضهما، غير أن كلمة عربي هي التي اشتقت من لفظ عبري، ودليله في ذلك هو أقدمية كلمة العبري على العربي، فالأول كما ورد سابقا يرجع إلى القرن الخامس عشر ق.م، والذي ورد في رسائل تل العمارنة وكان يقصد بها عرب البادية والرحل[31].

أما لفظ عربي فقد لأول مرة في التاريخ في القرن التاسع ق.م في إحدى الوثائق الأشورية للملك شلمناصر (858-724 ق.م) يعود تاريخه إلى 853 ق.م[32]، ثم أخذت لفظة العرب منذ القرن الثامن ق.م ترد بكثرة في الوثائق الأشورية والبابلية في صيغ متعددة: أريبي (Aribi) وأربي (Arbi) وعربي (Arbu)، ووردت في نصوص بابلية عبارة (ماتوا أريبي) أي أرض العرب والبادية[33]، وجاءت عرباية أو أرباية (Arbaya) في النصوص الفارسية عام 530 ق.م بمعنى البادية[34]، وعند العبرانيين بمعنى البدو والأعراب[35]، وفي أواخر القرن الخامس ق.م ظهرت في كتابات اليونان بمعنى سكان جزيرة العرب كلها[36]. ويذكر جواد العلي أن كلمة العرب الواردة في التوراة جاءت بمعنى البداوة أو البادية، والأعرابي مرتبط بالتنقل والتحرك[37].

وأيًا كان الأمر فإن الكنعانيين كانوا أول من أطلق على إبراهيم عليه السلام لقب العبراني، ثم صار لقبا لبعض نسله من بعضه، ثم تابع المصريون والفلسطينيون في ذلك[38]، وقد كان لفظ عبراني يدل أولا على غربة الشعب، وكان يرد على لسان الشعوب التي كان يعيش هذا الشعب بينها مغتربا[39]، هذا وقد استعمل العبرانيون أنفسهم هذه التسمية مفرقين بها بين جلدتهم وبين غيرهم من الشعوب، وإن كانوا يفضلون دائما لفظة الإسرائيليين خاصة بعد أن استوطنوا كنعان، وعرفوا المدنية والحضارة[40].

وقد تغير مدلول لفظ العبرانيين منذ سبي الأسباط[41] العشرة وتشتيتهم في البلاد، وتفرقهم بين الشعوب الأخرى، ولم يبق سوى يهوذا وبنيامين، فتسمى الشعب نسبة ليهوذا، وبطل استعمال

لفظ عبراني التي كانت تدل على كل الشعب وأخذ معنى جديدا[42]، وأصبح اسم العبريين بعد العودة من السبي خاص بالرعيل الأول من اليهود أي أيام يعقوب ويوسف وموسى عليه السلام حتى ما قبل السبي البابلي، وتتحدث التوراة عن العبرانيين بصفتهم غرباء عن اليهود وليسوا منهم[43].

ولم ترد كلمة عبراني أو عبري في القرآن الكريم، ولو عرف العرب اليهود بهذه التسمية لوردت في القرآن الكريم بهذه التسمية، ونجد كذلك أشهر المؤرخين العرب كانوا يسمون اليهود ببني إسرائيل في كتبهم تماشيا مع منهج القرآن الكريم، ومثل ذلك فعله الأشوريون قبل الإسلام بأكثر من ألف ومائتي عام، فعندما دوّن سنحاريب (705-681 ق.م) تفاصيل حملته على مملكة يهوذا سمى حزقيا ملك يهوذا حزقيا اليهودي، ولم يستعمل كلمة عبري أو عبراني، وهذا دليل آخر على أن كلمة عبري لم يسبق أن استعملت للدلالة على بني إسرائيل في تلك العصور التاريخية[44].

وقد ارتبطت الكلمة اليوم بالمقدسات التراثية القديمة، حيث حرص اليهود في أيامنا على تسمية كل ما يتعلق بهذا التراث بالعبري، فنجد عبارة اللغة العبرية، الثقافة العبرية، الأدب العبري، الجامعة العبرية، الصحافة العبرية... ولا يسمون أنفسهم بالعبرانيين[45].

2- إسرائيل: وهو الاسم البديل الذي عرف به النبي يعقوب بن إسحاق عليه السلام [46]، فقد أطلقت الكلمة على سيدنا يعقوب عليه السلام ونسله في القرآن الكريم[47]. وقد عرف أبناؤه بأبناء يعقوب، ولما صار اسمه إسرائيل سموا بالإسرائيليين أو بنو إسرائيل[48]، وكلمة إسرائيل عبرانية مركبة من مقطعين الأول "اسرا" والثاني "ايل"، وقد اختلف العلماء في تفسيرها[49]:

فقيل أنها تعني عبد الله. قال ابن عباس: "إسرا بالعبرانية هو عبد، وايل هو الله، وقيل إسرا هو صفوة، وايل هو الله. وقيل اسر من الشد، فكأن إسرائيل الذي شدّه الله وأتقن خلقه، ذكره المهدوي" وقال السهيلي: "سميّ إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى فسُمي إسرائيل أي أسرى إلى الله ونحو هذا، فيكون بعض الاسم عبرانيا، وبعضه موافقا للعرب"[50]، وقال القضال: "قيل إن إسرا بالعبرانية في معنى إنسان، فكأنه قيل رجل الله"[51]. بينما يرى وهب بن منبه أن إسرائيل معناها ولي الله باللسان السيرياني ومعنى إسرا ولي وإيل الله، مثل جبرائيل رسول الله، وعزرائيل عبد الله، وميكائيل صفي الله...الخ[52].

وفسرها البعض الآخر: اسرا بمعنى الحكم أي ليحكم ايل أو ايل يحكم[53]. وذهب فريق آخر إلى أن إسرائيل تنطق في العبرية " يسرا يل " وهي مكونة من كلمتين "يسرا " وتعني غلب أو ساد، وكلمة إيل هي اسم الإله في اللغة الأرامية، والذي عبده اليهود في فترة سابقة، والمقصود ببني إسرائيل من تناسلوا من أبناء يعقوب الاثنا عشر[54].

وقيل أن "إسرا" معناها الذي يحارب أو يصارع، "إيل" ومعناها الإله، ومعنى الكلمة الذي يصارع الإله أو جندي الإله ايل[55]. وسبب هذه التسمية أن الملاك هو الذي أطلق على سيدنا يعقوب عليه السلام هذا الاسم بعد صراعه حتى مطلع الفجر، فقد أورد سفر التكوين قصة عن سيدنا يعقوب أنه صارع الله من أجل أن يأخذ منه عهدا بمنحه أرض فلسطين له ولبنيه، حيث ورد في التوراة قصة مفادها أنه خاض عراكاً ضد رجل حتى مطلع الفجر عند جدول صغير في منطقة الأردن يدعى "يبوق"، ولما رأى الرجل أنه لا يقدر عليه، طلب منه أن يطلقه، فقال له لا أطلقك حتى تباركني، فباركه وقال له: لن يدعى اسمك يعقوب من بعد، بل إسرائيل، لأنك صارعت الله والناس وغلبت. [**22ثُمَّ قَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَخَذَ امْرَأَتَيْهِ وَجَارِيَتَيْهِ وَأَوْلاَدَهُ الأَحَدَ عَشَرَ وَعَبَرَ مَخَاضَةَ يَبُّوقَ. 23أَخَذَهُمْ وَأَجَازَهُمُ الْوَادِيَ وَأَجَازَ مَا كَانَ لَهُ. 24فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ. وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. 25وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. 26وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي». 27فَسَأَلَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». 28فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدِرْتَ». 29وَسَأَلَهُ يَعْقُوبُ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ**][56] .

وقد ورد ذكر اسم إسرائيل في قصيدة منقوشة على جدران الكارناك[57] سجلت فيها انتصارات مرنبتاخ (1225-1215ق.م)، فقد ذكر بعض المؤرخين استنادا إلى الدراسات الأثرية أن قبيلة من إسرائيل هربت من مصر إلى فلسطين قبل حكم هذا الملك فراراً من الاضطهاد الذي وقع عليها في عهد أبيه رعمسيس الثاني، وأنها هي التي نكل بها مرنبتاح لأنها تمردت على الحكم المصري في فلسطين، ويعتقد محمد عزة دروزة أن ورود الاسم في القصيدة يدل دلالة واضحة على أنه كان يطلق قبل حياة موسى عليه السلام، وبالتالي قبل خروج بني إسرائيل بقيادته من مصر على القبيل الذي

سموا في مصر، ثم ظلوا يسمون بعد خروجهم بالعبرانيين وقبل كتابة سفر التكوين[58]. وأطلق الاسم فيما بعد على جميع أسباط اليهود الاثني عشر، واستمر ذلك حتى بداية انفصال الأسباط من سبطي يهوذا وبنيامين، وحين وقع الانفصال أطلق الاسم على الأسباط العشرة التي تشكل الشمال[59].

وهذه التسمية هي المفضلة عند اليهود على باقي التسميات التي عرفوا بها عبر تاريخهم[60]، إذ فضلوه على لقب العبرانيين، بل وكانوا يفخرون ويعتزون به لأنه اللقب الذي أطلقه الرب على أبيهم، مقترنا بالوعد الذي منحه لهم كشعب مختار كما يزعمون، لذا تردد هذا اللقب في كل أسفار التوراة، ضف لذلك أن لقب العبرانيين يدخل معهم أبناء إبراهيم من غير يعقوب، أما إسرائيل فلا يحتمل إلا نسل يعقوب فقط[61].

وقد كان الحديث عن بني إسرائيل في القرآن مستفيضا مليئا بالدروس والعبر في كل ما يتعلق بالتاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل، فأفاض القرآن في سرد أطوار النبوة والرسالة التي ظهرت في بيت إسرائيل، ومن خلال متابعتنا للنص القرآني يمكننا تتبع أطوار هذه التسمية، فهي قديمة عرفت حين كان العبرانيون في مصر وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِكَ فَأَرْسِل مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيل وَلاَ تُعَذِّبْهُم قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَن إتَّبَعَ الهُدَى**﴾[62]. فتسمية بني إسرائيل وردت في الآية في خضم دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون[63] للعدول عن كفره والإيمان بالله، ولتبليغه بأنهما مبعوثين من طرفه سبحانه، وأن ما جاءا به هو دلالة ومعجزة[64].

وظلت هذه التسمية قائمة حتى بعد بعد فرارهم من مصر. يقول تعالى:﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيْلَ البَحرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَونُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ أَمَنتُ أَنهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي أَمَنَتْ بِهِ بِنُو إِسْرَائِيل وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ**﴾[65]. أي أن بني إسرائيل لما اشتد اضطهاد الفرعون عليهم خرجوا صحبة موسى عليه السلام من مصر، وطاردهم فرعون حتى ساحل البحر، فلما أدركهم أمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر فانفلق، واجتاز بنو إسرائيل البحر، ولحقهم فرعون فكانت أن غرق في البحر[66].

واستمرت حتى بعد سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾(67). فقد كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة، ثم أحدثوا وعبدو الأصنام إلى أن بعث إليهم صموئيل، فدعا بنو إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعدائهم، غير أنه حذرهم بعدم الالتزام بعدهم إن عين لهم ملكا، غير أنهم أكدوا على اتباع ملكهم وهم من أُخذت منهم البلاد وسُبي أولادهم، غير أنهم بعد ذلك لم يلتزموا بعدهم(68).

وظلت في زمن سيدنا عيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾(69). وذكر بني إسرائيل في الآية جاء في خضم الحديث عن دعوة عيسى عليه السلام، فعيسى عليه السلام لما بلغ رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين، واهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به(70).

ولا شك أن هناك فرقا بين مسمى بني إسرائيل واليهود في القرآن الكريم، وذلك واضح من خلال متابعتنا لصيغة الخطاب، وصيغة الحديث المتعلقة ببني إسرائيل واليهود. يقول الدكتور صلاح الخالدي: "إن القرآن الكريم عندما كان يتحدث عن بني إسرائيل في تاريخهم السابق على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أو كان يشير إلى بعض ما وقع لهم وعليهم قبل البعثة كان يطلق عليهم بنو إسرائيل، ولما كان يتحدث عنهم في مواجهتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة –بعد هجرته إليها– ويكشف عن نفسياتهم ودسائسهم وتحريفاتهم ويفند شبهاتهم ودعاياتهم وأقوالهم كان يطلق عليهم اليهود، إذن يمكننا أن نقول أن هذا الشعب المعروف في التاريخ يسمى بني إسرائيل في حياته السابقة منذ يوسف عليه السلام وانتهاء ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الشعب نفسه بعد البعثة النبوية فقد هذا الاسم وأخذ اسما جديدا وهو اليهود.."(71).

3– اليهود: اختلف اللغوين في أصل ومعنى المصطلح:

أ– قيل أنها كلمة عربية من الهود: أي التوبة، هَاد يَهُودُ هودًا وتَهَود: أي تاب ورجع إلى الحق، فهو هائد، وهي التوبة والعمل الصالح[72]. وقيل سمو باليهود لأنهم تابو عن عبادة العجل[73]. جاء في التنزيل: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[74]، أي تبنا ورجعنا إليك[75].

ب– وقيل مشتق من الهوادة أي السكون والموادعة، وهدنا إليك أي سكنا إلى أمرك[76]، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هَادُوا وَالنَصَارَى وَالصَابِئِيْنَ مَن آمَن بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوفٌ عَلَيهُم ولَا هُم يَحزَنُون**﴾[77].

ج– بينما ذهب آخرون إلى أن التسمية كانت لأنهم كانوا يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة، لأن السموات والأرض تحركت حين أتى الله موسى التوراة[78].

د– ويرجع بعض الباحثين نسبة اليهودي إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السلام، فقلبت العرب الذال إلى دال، لأن الأعجمية إذا عربت غيرت من لفظها[79]. ويرى حسن ظاظا أن اسم يهوذا مشتق لغويا من أصل سامي قديم وهو (و د ي)، وهو يتكون من اسمين "يهوه"[80] وتعني الرب و"ود" وتعني في الأصل السامي الاعتراف والإقرار بالجزاء، ومنها كلمة دية عند العرب، وهكذا تعني الكلمة شكر الإله، أو الاعتراف بنعمته، وقد اشتقت ليئة زوجة يعقوب هذا الاسم لابنها الرابع من هذا المعنى حسب سفر التكوين، فأسمته يهوذا فقالت: "هذه المرة أشكر الرب" ولذلك سمته يهوذا وتوقفت بعده عن الإنجاب لفترة من الزمن[81]. واليه ينتسب اليهود باعتبارهم قبيلة من قبائل العبرانيين الإثني عشرة وأطلقت الكلمة كذلك على مملكة الجنوب يهوذا، ثم اتسعت دلالتها بعد السبي الأشوري، واختفاء مملكة إسرائيل واستمرار يهوذا بعدها بقرنين من الزمن، فأصبحت الكلمة تطلق على كل من يعتنق الديانة اليهودية في أي زمان ومكان بغض النظر عن انتمائه العرقي أو الديني[82].

وقد اختلفت الآراء حول بداية استعمال هذا الاسم، فهناك من يرجعه إلى أيام موسى عليه السلام –أي القرن الثالث عشر ق.م–[83]، وهناك من يرجعه إلى أيام داود عليه السلام وسليمان عليه السلام، غير أن من يطالع أسفار الكتاب المقدس يلاحظ أن صفة اليهود لم تواكب بني إسرائيل منذ بعثة موسى عليه السلام مباشرة، فالظهور التاريخي لكلمة يهود في العهد القديم بما يشير إلى ديانة محددة حيث كانت الغلبة، وإلى هوية سياسية واثنية ظهر متأخرا، فنحن لا نجد ذكرا لليهود أو اليهودية في أسفار

الشريعة الخمسة المنسوبة إلى سيدنا موسى ، وكذلك أسفار يشوع والقضاة والملوك الأول، وترد هذه الصفة في سفر الملوك الثاني حيث وردت الكلمة في عهد آحاز ملك يهوذا، الذي قام بنقل رصين ملك آرام أيلة إلى آرام، وطرد يهود أيلة (العقبة)، كما يرد في السفر نفسه ذكر الحوار بين رئيس سقاة الأشوريين وبين اليهود في القدس؛ حيث يطلق على أهالي مملكة يهوذا صفة اللغة اليهودية، وكان ذلك في عهد حزقيا الذي خلف والده آحاز(84).

ويذكر أحمد سوسة أن مصطلح (يهودي) استعمل لأول مرة في بابل عندما كان اليهود في الأسر، ومنذ ذلك التاريخ استعملوا اسم يهود نسبة إلى مملكة يهوذا، حيث أن عددا كبيرا منهم كانوا ينتمون إلى مملكة يهوذا، وأن أول تسمية (يهودي) وردت على لسان الملك الآشوري سنحاريب (705-681ق.م) عند وصفه لانتصاراته على مملكة يهوذا، فسمى حزقيا ملك يهوذا (حزقيا اليهودي) أي المنتسب إلى يهوذا(85).

وبذلك فأول ما وصلنا ذكر هذا الاسم يهودي قد سميّ به سبط يهوذا وسبط بنيامين (المملكة الجنوبية)(86)، كما أنه لم يعثر على أي وثيقة أو معاهدة قبل عهد سليمان أو بعده ورد فيها ذكر مصطلح اليهود، ونجد أن القرآن الكريم عبّر عن من عاصروا موسى ببني إسرائيل أو قوم موسى(87). وهناك فريق تأخر بالمصطلح إلى أيام الفرس (539-332 ق.م)(88) فأطلقوا على شعب مملكة يهوذا (المملكة الجنوبية) اسم اليهود، وأطلقوا على عقيدتهم اسم اليهودية(89).

والراجح أنه أطلق أولا على مملكة الجنوب بعد انفصال مملكة الشمال، وظل هذا الإطلاق إلى سبي الأسباط العشرة (السبي الأشوري)، ولم يبق إلا مملكة يهوذا بعد اختفاء مملكة الشمال، ومن ثم حل اسم يهودي محل عبري للدلالة على نسل إبراهيم، وأصبح لفظ يهودي اسم جنس يطلق على كل أفراد الشعب، وشاعت هذه التسمية أثناء السبي البابلي (586-539 ق.م) حتى غدت لقبا لكل الأمة، وبعد العودة من السبي توسع معناها فصارت تشمل جميع من رجعوا من الأسر من الجنس العبراني(90). ومهما يكن من أمر فإن المصطلح مستحدث لم يستخدمه موسى ومن بعده من الأنبياء، ولم يستخدم أنبياء بني إسرائيل هذا الاسم في مخاطبة أقوامهم، وهذا يعني أن هذا الاسم أطلق على الدين المحرف لا على الدين الحق، وأشار الخطاب القرآني إلى هذا الاسم في فترة عزير وذلك بعد السبي. قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وَقَالتِ النَّصَارَى**

المَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَولُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَولَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(91).

الهوامش:

(1)- سفر التكوين (13:14).

(2)- أبراهام مالمات وحييم تدمور، **العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية**، تر: رشاد عبد الله الشامي، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، ط1، 2001، ص ص 16-17.

(3)- سفر التكوين (10:21-25، 11:10-26). ينظر كذلك: محمد على البار، **المدخل إلى دراسة التوراة والعهد القديم**، ط1، دار القلم، دمشق، 1990، ص 31-32.

(4)- فتحي محمد الزغبي، **تأثر اليهودية بالأديان الوثنية**، تق: يحي هاشم حسن، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، مصر، 1994، ص 78.

(5)- محمد ضياء الرحمن الأعظمي، **دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند**، ط2، مكتبة الراشد، 2003، ص 65.

(6)- **كنعان**: نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، مشتقة في العبرية من كنع بمعنى ركع، وفي الكلدانية بمعنى خزي، وفي العربية بمعنى خضع، ويذكر القديس اوغسطين "إن السبب في تسمية أرض الميعاد بأرض كنعان يؤخذ من معنى هذه الكلمة فمعناها المنخفض"، وهناك آراء أخرى تشير إلى أن أصل الكلمة غير سامي، فالاشتقاق الجديد يجعله دوري الأصل (Kaarggi) بمعنى الصباغ الأرجواني، وهذا أعطى الصيغة الأكدية في نوزي (كناخي – Kinakhi) وفي مسمارية تل العمارنة (Kinakhkhi) وفي الفنيقية (كنع – Kena)، وفي العبرية كنعان أي بلاد الأرجوان، لهذا أطلق مؤرخو الشرق الأدنى القديم على العناصر التي قطنت فلسطين ولبنان وسورية منذ أقدم العصور تسمية كنعان وكنعانيين كتسمية تقليدية عامة لمنطقة فلسطين والساحل الفينيقي، وقد وردت تسمية كنعان في التوراة حيث اتفق المستشرقون الاستعماريون والصهاينة على أن هذه الأرض هي الأرض التي وعد الرب إبراهيم عليه السلام، فصاروا يدعونها اليوم بأرض الميعاد لتكون المسرح الجغرافي الاستعماري الصهيوني الحديث. ينظر: أحمد الدبش، **كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب**، ط1، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص 35-36.

(7)- موسكاتي سبتينو، **الحضارات السامية القديمة**، تر: السيد يعقوب، مر: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت، 1986، ص139.

(8)- **جلعاد**: جبل غرب الأردن يشرف على وادي يزرعيل انصرف منه قسم من جيش جدعون، وبالقرب منه عين حيرود المسماة اليوم عين جلعود. ينظر: بطرس عبد الملك وآخرون، **قاموس الكتاب المقدس**، ط15، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، 2011، ص 264.

(9)- سفر التكوين (31: 51- 52)

(10)- حسن ظاظا، **الساميون ولغاتهم تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية عند العرب**، ط2، دار القلم، دمشق، 1990، ص 62-63.

(11)- **الحاخام**: كلمة عبرية معناها (الرجل الحكيم أو العاقل)، وكان هذا المصطلح يطلق على جماعة المعلمين الفريسيين (حاخاميم) ومنها أخذت كلمة (حاخام) لتدل على المفرد، وتستخدم الكلمة للإشارة إلى الفقهاء اليهود الذين فسروا كتب المدراش وغيرها من الكتب، وجمعت تفسيراتهم في التلمود. ينظر: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، الموسوعة الموجزة في جزأين، مج 2، ط5، دار الشروق، (د.م)، 2009، ص59.

(12)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 77.

(13)- إسرائيل ولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**،ط1، دار القلم، 1980، بيروت، ص 77

(14)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 78. ينظر كذلك: محمد سيد طنطاوي، **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، ط2، دار الشروق، 2000، ص 11.

(15)- **الأبجدية الأوغاريتية**: تعتبر أقدم أبجدية في العالم، وتعود إلى القرن الرابع عشر ق.م، وأول اكتشاف لها يعود إلى سنة 1929م حيث عثر على أول رقيم آجري كتب بالمسمارية بلغة غير معروفة في أوغاريت، وتوالى العثور على الرقم، وخلال حفريات عامي (1948-1949م) وفي قاعة أمانة السر بالقصر الملكي عثر على رقيم صغير من الآجر نقشت عليه تلك الأبجدية لتكون نموذجا للكتبة المبتدئين، وتتألف من 30 حرفا مسماريا (Cuneiform). تطورت الأوغاريتية من الكتابة التصويرية والمقطعية حتى وصلت إلى الأبجدية، وكانت من 29 حرفا مسماريا منها ثلاثة ألف (أَ وأ وإ) وحرف السين يكتب بشكلين، وعدلت إلى 22 حرفا، يفصل بين الكلمات حرف مسماري عمودي، وكانت تكتب من اليسار إلى اليمين، وبعدها اقتبسوا الكتابة من اليمين إلى اليسار من الآراميين، ويعتقد بعض العلماء أن الهيروغليفية أثرت على أبجدية أوغاريت، ويرى البعض أن ثمانية حروف أبجدية تشبه مقاطع من الكتابة المسمارية البابلية أي (الأكادية-الأمورية)، وقد اكتشف رقيم طيني عليه أبجدية أوغاريتية حروفها تتبع ترتيب الأبجدية العربية الجنوبية: (هـ ل ح م ق غ). ينظر: فاطمة جود الله، **سوريا نبع الحضارات** -تاريخ وجغرافية أهم المواقع الأثرية-، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999، ص 48-49.

(16)- أبراهام مالمات وحييم تدمور، المرجع السابق، ص 16-17.

(17)- **الهلال الخصيب**: مصطلح وضعه العلامة جيمس هنري بريستد، وأصبح شائع الاستعمال. ينظر: جيمس هنري بريستد، **انتصار الحضارة** -تاريخ الشرق القديم-، تر: أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969، ص 151. ويقع إلى الشمال من الصحراء العربية، وهو عبارة عن سهل خصب على شكل قوس عظيم تتجاوز الصحراء طرفيه، وتتعمق في قلبه، بينما تحيط به الجبال من ورائه على شكل قوس فيبدو كالهلال المقلوب، وينتهي الطرف الغربي للهلال الخصيب في جنوب شرق البحر المتوسط، بينما يرتكز طرفه الشرقي على الخليج العربي، وبذلك تقع العراق في نطاقه الشرقي، حيث أينعت حضارة سومر وازدهرت بابل وأشور، في حين تحتل سوريا قلبه حيث قامت حضارة الآراميين والحيثيين، أما نطاقه الغربي فتقع لبنان في الشمال حيث قامت حضارة الفينيقيين، وفلسطين في الجنوب حيث استقر الكنعانيون والفلسطينيون قديما، وكان الهلال الخصيب ومازال إلى منطقة صراع. ينظر: حسين فوزي النجار، **أرض الميعاد**، دراسة علمية للوعد الإلهي لبني إسرائيل بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص 36-37.

(18)- اندريه لومير، **تاريخ الشعب العبري**، تر: انطون إ. الهاشم، ط1، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 1999، ص 10.

(19)- محمد بيومي مهران، **بنو إسرائيل** التاريخ: منذ عصر إبراهيم عليه السلام حتى عصر موسى عليه السلام، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص 31.

(20)- أبراهام مالمات وحييم تدمور، المرجع السابق، ص 16-17.

(21)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 32.

(22)- **نوزي**: تعرف كذلك باسم نوزا، وهي مدينة قديمة تقع في أعالي دجلة في موقع يورغان تبه جنوبي غربي كركوك في العراق، كان اسم هذه المدينة في الألف الثالث ق.م جاسور (أو غاصور)، وقد أثبتت التنقيبات في موقع المدينة استيطانها منذ عهود ما قبل التاريخ وحتى القرن الخامس عشر ق.م، وهو عصر ازدهار نوزي التي كانت حينها تحت الحكم الحوري، وعثر في موقع المدينة على 4000 لوح يحتوي قسم كبير منها نصوص قانونية. ينظر: هنري س. عبودي، **معجم الحضارات السامية**، ط2، جروس برس لبنان، 1991، ص 865-866.

(23)- **وثائق تل العمارنة**: تقع جنوبي مدينة المنيا المصرية بنحو 50كم على البر الشرقي لنهر النيل، والاسم منسوب لقبيلة بني عمران التي تقيم هناك، وهو يضم آثار مدينة آخت آتون التي أمر أمنحوتب الرابع ببنائها، وقد عثر فيها على الرسائل التي سميت باسم المدينة،

وهي رقم صغيرة لا يتجاوز حجمها غالبا الكف البشرية، وعليها نصوص مدونة بالكتابة المسمارية واللغة الأكدية، يبلغ عددها 382 رقيما (نصا)، وهي 350 رسالة والباقي نصوص متفرقة مختلفة المواضيع، وتوصف الرسائل بأنها رسائل تبادلها ملوك مصريون من الأسرة الثامنة عشرة (أمنحوتب الثالث، أمنحوتب الرابع، توت عنخ آمون) مع ملوك كبرى ممالك الشرق القديم (ميتاني، خَتّي، بابل)، وملوك آشور وأرزاوا وألاشيا، وملوك أو حكام كانوا يحكمون مدنا في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن) خلال القرن الرابع عشر ق.م. ينظر: فاروق إسماعيل، **مراسلات العمارنة الدولية وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م**، سلسلة دراسات آثارية (4)، ط1، إنانا للطباعة والنشر، دمشق، 2010، ص ص 13-15.

(24)- أحمد سوسة ، **العرب واليهود في التاريخ**-حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية- ط2، العربي للطباعة والنشر، دمشق، (د.ت). ص 243-244.

(25)- فاروق إسماعيل، المصدر السابق، ص 50. للإطلاع على نصوص الرسائل ينظر: المصدر نفسه، ص ص 271-396.

(26)- محمد عزة دروزة، **تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم**، ط3، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص 31.

(27)- **أريحا**: معناها (مدينة القمر) أو (مكان الروائح العطرية). وهي مدينة ذات أهمية عظمى، تقع على مسافة خمسة أميال غربي نهر الأردن وعلى مسافة سبعة عشر ميلا شمال شرقي أورشليم. أما أريحا التي ورد ذكرها في العهد القديم فموضعها تل السلطان، الذي يقع على بعد مسافة ميل من مدينة أريحا الحديثة التي تدعى الآن (الريحا) وتلول أبو العليق التي تقع على مسافة ميل غربي أريحا الحديثة هي بقايا الحي الراقي الغني من أريحا في عصر العهد الجديد. وتقع أريحا في منخفض يبلغ 825 قدما تحت مستوى سطح البحر ولذا فجوها حار. ينظر: بطرس عبد الملك وآخرون، المرجع السابق، ص 58.

(28)- أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 243-244.

(29)- إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص 78.

(30)- محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المرجع السابق، ص 63.

(31)- أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 247. ينظر كذلك: زكي شنودة، **المجتمع اليهودي**، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت)، ص 5-6.

(32)- رضا جواد الهاشمي، العرب في ضوء المصادر المسمارية، مجلة كلية الآداب، العدد 22، بغداد، 1987، ص 640. ينظر كذلك: علي الجواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج6، أوند للطباعة والنشر، (د.م)، 2006. ص 574 وما بعدها.

(33)- زيدان جورجي، **العرب قبل الإسلام**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966، ص 43.

(34)- علي الجواد، المرجع السابق، ج1، ص 144. ينظر كذلك: لطفي عبد الوهاب، **العرب في العصور القديمة**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2007، ص 403.

(35)- سفر اشعياء (31)

(36)- لويس برنارد، **العرب في التاريخ**، تر: نبيه أمين فارس، محمد يوسف زايد، (د.ن)، بيروت، 1954، ص 11.

(37)- علي الجواد، المرجع السابق، ج1، ص 19.

(38)- محمد بيومي مهران، ، المرجع السابق، ص 33.

(39)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 79.

(40)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 34. ينظر كذلك: إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص 78.

(41)- **الأسباط**: مفردها سبط وهو ولد الولد أي ولد الابن أو الابنة، وجاء في الحديث الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ. ينظر: أبا الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت 711هـ)، **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج6، ج22، دار

المعارف، القاهرة، (د.ت). والأسباط هم أولاد يعقوب عليه السلام، وعددهم اثنا عشر، فولد كل واحد منهم أمة من الناس فسموا أسباطا. ينظر: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/923م)، **تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن**، تح: عبد الله عبد المحسن التركي، ج2، ط1، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 2001، ص597-598. والأسباط الاثني عشر هم: لاوي، يهوذا، يساخر، زبولون، يوسف، بنيامين، دان، نفتالي، جاد، أشر، شمعون، روبيل. ينظر: أبي الحسن بن علي المسعودي (ت 346هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مر: كمال حسن مرعي، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص38.

(42)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 80.

(43)- حسن ظاظا، **الشخصية الإسرائيلية**، دار القلم، دمشق، 1999، ص 24.

(44)- أحمد سوسة، المرجع السابق، ص246- 247.

(45)- حسن ظاظا، (**الشخصية..**)، المرجع السابق، ص 24.

(46)- أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما : "لم يكن من الأنبياء من له اسمان إلا إسرائيل وعيسى عليهما السلام فإسرائيل يعقوب وعيسى المسيح". ينظر: الحاكم النسابوري (ت 405هـ/1014م)، **المستدرك على الصحيحين**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ج2، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 405. رقم 552/3415. حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(47)- ورد ذُكر هذا الاسم في القرآن إحدى وأربعين مرة، خمساً وعشرين مرة في السور المكية، وستة عشر مرة في السور المدنية. ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، **الشخصية اليهودية من خلال القرآن** –تاريخ وسمات ومصير–، ط1، دار القلم، دمشق، 1998، ص 33.

(48)- سفر التكوين (34: 7، 13)

(49)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 93-94. ينظر كذلك: حسن ظاظا، (**الشخصية..**)، المرجع السابق، ص19.

(50)- أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج2، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ص6-7. ينظر كذلك: محمد بن عمر الفخر الرازي (606هـ)، **التفسير الكبير**، ج1، ط2، دار الإحياء التراث العربي، بيروت، 1999، ص 474.

(51)- محمد بن عمر الفخر الرازي، المصدر السابق، ص 474.

(52)- وهب بن منبه (ت 114هـ)، **كتاب التيجان في ملوك حمير**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، الهند، 1347 هـ، ص 154.

(53)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 35.

(54)- صوفي حسن أبو طالب، جمال محمود عبد العزيز، **تاريخ النظم القانونية**، مركز جامعة القاهرة، 1998، ص 353. ينظر كذلك: أحمد عثمان، **تاريخ اليهود**، ج1، مكتبة الشرق، القاهرة، (د.ت)، ص 31.

(55)- عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، مج 1، ص103. ينظر كذلك: بطرس عبد الملك وآخرون، المرجع السابق، ص 69.

(56)- سفر التكوين (32: 22-29).

(57)- ويعرف كذلك بلوح مرنبتاح الذي اكتشف عام 1886م، وهو الوحيد الذي اكتشف فيه أول ذكر لإسرائيل في نص خارج عن التوراة ، وقد اتخذ المدافعون عن إسرائيل التوراتية هذا النص حجة في مواجهة النزعة المشككة. ينظر: أبراهام مالمات وحييم تدمور، المرجع السابق، ص 46. ونص القصيدة: "ينعم أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أبيدت لن يكون لها بذرة، وأصبحت حورو (فلسطين وما جاورها) أرملة لمصر". ينظر: أحمد فخري، **مصر الفرعونية موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 232 ق.م**، الهيئة المصرية

للكتاب، 2012، ص 282. واللوح موجود في المتحف المصري بالقاهرة تحت رقم 34025 وجده عالم الآثار بتري في المعبد الجنزي لمرنبتاح بطيبة (الاقصر). ينظر:

G. Buysschaert, **Israël et le Judaïsme dans le Cadre de l'ancien orient**, trad par: Vander Waeter, ed: Beyaert, Paris, 1953, P 155.

(58)- محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص 35-36.

(59)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 83. ينظر كذلك: عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص 103.

(60)- محمد خليفة حسن أحمد، **تاريخ الديانة اليهودية**، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، 1998 ، ص 24. ينظر كذلك: زكي شنودة، المرجع السابق، ص 11.

(61)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 83- 84.

(62)- سورة طه، الآية: 47.

(63)- **فرعون**: أصلها "بيرع" بمعنى البيت الكبير أو البيت الملكي، ولم تكن هذه الكلمة من ألقاب الملك قديما، وأول ظهور للمصطلح في التوراة كان في سفر التكوين (12: 15-20)، ويرى البعض أن المصطلح يعود إلى ما بعد عصر يوسف عليه السلام، بمعنى بعد عصر الدولة الوسطى بما لا يقل عن مائتي سنة تقريباً أي ابتداء من عصر الملك أخناتون. ينظر: أحمد محمد عوف، **أحوال مصر من عصر لعصر**، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص11-12. للمزيد ينظر كذلك: بلقاسم رحماني، الأسماء القرآنية القديمة في ضوء الدراسات الأثرية الحديثة، مجلة الصراط، 2009، ص118. **أما فرعون موسى**: فإن صمت التوراة والقرآن الكريم وكذا المصادر الأثرية عن ذكر اسم شخصية فرعون موسى عليه السلام، فتح الباب أمام الكثير من الاحتمالات والاجتهادات، إذ يذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن الخروج حدث في عهد الفرعون "أحمس الأول" سنة 1575 ق.م الذي طرد الهكسوس هو فرعون الخروج، ويزعم يوسيفوس أن مانيتون المؤرخ المصري إنما يرجع الهكسوس إلى أصل سامي وهم من اليهود. يوسيفوس، **ضد آبيون آثار اليهود القديمة**، تر: محمد حمدي إبراهيم، ج1، ط1، الكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، 2007. الفصل 15، الفقرة 94، ص 48، والفصل 16، الفقرة 103، ص 52. غير أن هذا الرأي بعيد عن الواقع لأن خروج بني إسرائيل كان برغبة منهم، أما الهكسوس فطردوا نتيجة ثورة، كما أن مدينة رعمسيس التي بناها اليهود كانت بعد خروج الهكسوس بثلاثة قرون. ينظر: سعيد ابو العينين، **الفرعون الذي يطارده اليهود بين التوراة والقرآن**، دار أخبار اليوم، مصر، 1997، ص 111. ومنهم من ذهب إلى القول أن "تحوتمس الثالث"(1490 ق.م-1436 ق.م) أو ابنه "أمنحوتب الثاني"(1439 ق.م-1406 ق.م) هو فرعون موسى عليه السلام . وحجتهم في ذلك: [**1وَكَانَ فِي سَنَةِ الأَرْبَعِ مِئَةٍ وَالثَّمَانِينَ لِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِمُلْكِ سُلَيْمَانَ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فِي شَهْرِ زِيُو وَهُوَ الشَّهْرُ الثَّانِي، أَنَّهُ بَنَى الْبَيْتَ لِلرَّبِّ**]. سفر الملوك الأول (6: 1). ينظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 342. وهناك من يذكر "امينوفيس الرابع" (أخناتون) كفرعون موسى عليه السلام مستدلا بغزو الخابيرو لمنطقة كنعان، وهو ما تحدثت عنه رسائل العمارنة،. ينظر:
G. Buysschaert, Op.Cit, P 156-157.

وهناك من يرى أنه كان في أعقاب أيام أخناتون أو بعده بفترة وجيزة، وأنه الخروج حدث بين (1358-1350 ق.م) أي بعد وفاة أخناتون وقبل أن يعيد حورمحب توطيد سلطان الدولة. ينظر:

Sigmund Freud, **Moses and Monotheism**, Trad: Katherine Jones, HPIP, 1939, p 48.

بينما يذهب آخرون إلى القول: أن "رمسيس الثاني" هو فرعون موسى عليه السلام واستندوا في ذلك إلى تشييد مدينة بر رعمسيس التي ذكرت في التوراة في سفر الخروج (1: 11) وتشهد الحركة البنائية زمن هذا الفرعون بالفعل على نشاطه الكبير مما يرجح كونه المقصود، على أن

"رمسيس الثاني" هو من سخر بني إسرائيل وأخرجهم، وقد رُدَّ على أصحاب هذا الاتجاه استنادا إلى نصين توراتيين سفر الخروج (2: 23، 4: 19). ويذهب الكثير من العلماء أن رمسيس الثاني هو فرعون التسخير في حين أن ابنه مرنبتاح إنما هو فرعون الخروج، أي أن الخروج كان في أيام هذا الأخير، ويعتمد أصحاب هذا الرأي على نص التوراة الخاص ببناء مدينتي فيثوم ورعمسيس، وعلى ما جاء في لوح إسرائيل الذي ذكرته سابقا. ينظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص354- 411. للمزيد أكثر حول الموضوع ينظر:

Maurice Bucaille, **La Bible**, **Le Coran et La Science**, Les Ecritures saintes examinées a la lumiére des connaissances modernes, 15éme ed, Seghers, Paris, 1976, p 390-410.

(64)- أبي الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ابن كثير (ت 774هـ/1372م)، **تفسير القرآن الكريم**، ج2، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص 1868.

(65)- سورة يونس، الآية 90.

(66)- ابن كثير، المصدر السابق، ج3، ص 1447.

(67)- سورة البقرة، الآية: 246.

(68)- ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 479.

(69)- سورة الصف، الآية: 14.

(70)- ابن كثير، المصدر السابق، ج4، ص 2886.

(71)- صلاح عبد الفتاح الخالدي، المرجع السابق، ص 38.

(72)- ابن منظور، المرجع السابق، مج 6، ج 51، ص 4718.

(73)- أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج2، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ص 158.

(74)- سورة الأعراف، الآية: 156.

(75)- ابن منظور، المرجع السابق، مج 6، ج 51، ص 4718. ينظر كذلك: ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 213.

(76)- أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المصدر السابق، ص 158-159.

(77)- سورة البقرة، الآية: 62.

(78)- الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت 510هـ)، **معالم التنزيل في التفسير والتأويل**، ج1، دار الفكر، بيروت، 1975، ص 93. ينظر كذلك: ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 213.

(79)- أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المصدر السابق، ص 158.

(80)- **يهوه**: تطلق التوراة على الله ﷻ لفظ يهوه (Yhwh)، ولفظ إلوهيم (Elohim) أحيانا أخرى، وفي كلتا الحالتين إنما هو إله بني إسرائيل دون سائر البشر، وقد بدأت فكرة الإله الواحد في التوراة مع إبراهيم عليه السلام، وقد ألحقت به التوراة صفات تتناقض والصفات العلية، وهي صفات أقرب منها إلى لصفات البشر من ضعف وحركات ونسيان وغضب وسرقة وقتل، وأنه يمشي في الجنة، وأنه لا يدعي العلم وأنه غيور، كما أنه كثيرا ما يقع في الخطأ، وهو قاس ومتعصب لشعبه... حتى أنها صورته يصارع يعقوب عليه السلام حتى مطلع الفجر ولا يفلته يعقوب عليه السلام حتى يغير اسمه إلى إسرائيل. ينظر: محمد بيومي مهران، **بنو إسرائيل**، الحضارة الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضائية والعسكرية، ج4، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص ص 400-413. وورد في قاموس الكتاب المقدس أن لفظة يهوه هي فعل المضارع من هيه أو هوه كما كان في الأصل، ومعناه كان أو حدث أو وجد، وبعبارة أخرى هو الذي كان،

والذي أعلن ذاته وصفاته، وتستعمل لفظة يهوه مختصرة في أسماء المقطع الأول من أسماء العلم كيشوع وكذلك في المقطع كإشعيا وحزقيا وغيرهما، وقد أطلق المصطلح يهوه حسب ما جاء في القاموس منذ عهد موسى عليه السلام على جبل حوريب سفر الخروج (6: 3). ومنذ أواخر القرن الرابع ق.م تزايد الخوف من تدنيس اسم يهوه، فمنع الشعب من النطق به. وأصبح لا يستطيع التلفظ به إلا رئيس الكهنة عند تلاوة الصلاة وإعطاء البركة في الهيكل، واستعاضوا عن النطق به بأسماء أخرى أهمها (أدوني) أي الرب والسيد. واستعملت في الترجمة السبعينية في القرن الثالث ق.م (كيريوس) أي (رب) بدلا منه، وقد ورد اسم يهوه باللغة العبرية في العهد القديم 6823 مرة. وقد استعمل اسمًا لله للدلالة على معاملة الله للبشر أو معاملته لشعب بعينه وبنوع خاص في علاقة العهد مع ذلك الشعب. ينظر: بطرس عبد الملك وآخرون، المرجع السابق، ص 1096-1097.

(81)- حسن ظاظا، (**الشخصية**..)، المرجع السابق، ص 28. ينظر كذلك: عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص 102.

(82)- عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص 102.

(83)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ج1، ص 39.

(84)- سفر الملوك الثاني (6:16). ينظر كذلك: عبد الرحيم غنيم، **اليهود بين القرآن والتوراة ومعطيات التاريخ القديم**، ط1، دار الجليل، دمشق، 2000، ص 12.

(85)- أحمد سوسة، **ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق**، (د.ط)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، 2001، ص 21.

(86)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 87.

(87)- سورة الأعراف، الآية: 134. سورة المائدة، الآية: 20.

(88)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ج1، ص 39.

(89)- سليمان مظهر، **قصة الديانات**، ط2، مكتبة المتبولي، القاهرة، 2002، ص 350.

(90)- فتحي محمد الزغبي، المرجع السابق، ص 90.

(91)- سورة التوبة، الآية: 30. ينظر كذلك: محمد عصمت بكر، **جذور الفتنة أجيال بني إسرائيل الأولى**، دار النمير، دمشق، (د.ت)، ص16-17.

العلاقات الاقتصادية بين مصر وشبه الجزيرة العربية في القديم

الأستاذ قفاف البشير، جامعة تيارت

مقدمة: يعتبر المجال الاقتصادي من أهم الميادين التي ظهرت فيها الصلات الحضارية جليا بين مصر وشبه الجزيرة العربية في القديم، ويقصد بالحياة الاقتصادية كل ما يتعلق بالاقتصاد من معنى وعلاقته بالحكم والشعب والتجارة والمال، أو ما يتعلق منه بالزراعة والصناعة والحرف، ونركز في هذا المقال كل ما يشمل التجارة بنوعيها البري والبحري وما يشمل الزراعة، وتشمل التجارة مستويين، الداخلي أي تعامل أبناء بلاد العرب بعضهم مع بعض وعلى المستوى الخارجي أي التعامل مع المجتمعات والامبراطوريات الأخرى.

وقد كان العرب في الغالب تجارا، ومشهودا لهم في العالم القديم بامتهانهم هذه الحرفة والتجارة في لغة "المسند" هو "مكر" ويتبين من خلال دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير أن لأهل مكة (العربية الشمالية) تجارة مزدهرة وأصول وقوانين خاصة بهم، كما كانوا خبراء في التنمية الأموال واستثمارها واستغلالها، وفي المسند ألفاظا كثيرة ذات معاني تجارية تتعلق بالشراء والبيع والعقود، وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا يمارسون التجارة أبدعوا فيها، والتجارة في لغة القتبانيين هي ش، ت، ي، ط، "تنشيط" دور التجارة في ربط الصلات الحضارية بين مصر وشبه الجزئية العربية.

1-العرب والتجارة الدولية في القديم: الحقيقة التي يجب الإقرار بها هي أن شبه الجزيرة العربية سواء الشمالية أو الجنوبية في الميدان الاقتصادي لم تقتصر على حدود المنطقة فقط، بل تعدت امتدت إلى خارجها اتصلت بالتجارة العالمية، وأثرت فيها زمنا طويلا، وقد كانت بلاد تصدير وتجارة وعبور للبخور والعطور، كما كانت مركزا مهما للاتصال التجاري بين المحيط الهندي

والبلاد الواقعة شرق البحر المتوسط وبينت النقوش التي عثرت عليها على أن الحياة الاقتصادية وركزت على الزراعة والتجارة [1]. ويخلص أحد الباحثين إلى أن اتساع نطاق السلع داخل البلاد العربية وكذا التجارة مع البلدان الخارجية اكتسبت أهمية كبيرة ساعدتها على إقامة علاقات مالية أساسها التعامل النقدي وهذه العوامل لها أثر مهم في نمو الاقتصاد العربي قبل الإسلام[2].

والأنباط هم أكثر الشعوب العربية القديمة نشاطا أشدهم تأثيرا في حضارة الجزيرة العربية وأقام الأنباط دولتهم في المنطقة الواقعة إلى الشرق من خليج العقبة أين يمر الطريق التجاري الكبير شمال جنوب، لهذا كانت دولتهم ذات طابع تجاري وعاصمتهم "البتراء" أب واد موسى حاليا، وقد بلغوا أوجهم في القرنين الأولين قبل الميلاد إلى غاية سقوطهم على يد الرومان عام (106ق.م)، ومع ذلك لم يتوقف نشاطهم التجاري وكانت مصر من أهم المناطق التي تردد عليها الأنباط بقوافلهم التجارية. ودليل مرور القوافل هي النقوش النبطية التي خلفتها صخور الوديان الممتدة من ساحل البحر الأحمر إلى النيل عبر الصحراء الشرقية، وتدل هذه النقوش أن ما ورد منها على صخور وادي الحمامات والوديان المتفرقة منه يشبه إلى حد كبير النقوش النبطية على صخور الحجاز وخاصة في مدائن صالح التي تعتبر منطقة عبور الأنباط إلى البحر الأحمر في طريقهم إلى مصر[3].

ويبلغ عدد المذكورة حوالي 81 نقشا أو قدم هذه النقوش توجد في الشمال وبالضبط في منطقة "القافية" أما في الجنوب الصحراء الشرقية فإن أقدم النقوش النبطية توجد في منطقة الممتدة بين "واد الحمامات" و "وادي عباد" ونوعية هذه النقوش كما صنفها العلماء أنها نقوش تذكارية سجلها الأنباط في رحلاتهم التجارية عبر الصحراء الشرقية في طريقهم من البحر الأحمر إلى النيل قادمين من شبه الجزيرة العربية محملين بالسلع للمتاجرة بها، وأهم السلع بدون شكهي "البخور والطيوب" التي تنتجها الجزيرة العربية والتي كان الطلب عليها كبيرا في مصر الفرعونية لاستخدامها للطقوس الدينية والمقابر والمعابد، وهذه النقوش أمدتنا بمعلومات عن استقرار الأنباط في مناطق مختلفة من مصر ومن الأدلة التي تثبت ذلك هو النقش الذي يسجل عقد حرره رجل زال اسمه وبقي اسم والده وهو "يرحبولة" ويبدو من السياق أن هذا الرجل استأجر مبنى ليستخدمه كاهن الجالية النبطية طوال حياتهما[4]. ومن خلال دراسة أشكال حروف هذا النقش وجد الباحثون أنه يرجع إلى

القرن الأول قبل الميلادي، وهذا له دلالة على أن الأنباط استقروا في شرق الدلتا وأنهم كانوا جالية لها معبدها الخاص[5].

أ–التجارة البرية:

قبيل سقوط الامبراطورية المصرية في حوالي منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كان الأراميون والفنيقيون قد سيطروا على التجارة البحرية وحوض البحر المتوسط، وأنشأوا على شواطئه سلسلة من الإمارات والمستوطنات والمراكز التجارية[6].

ومن جهة أخرى سيطر العرب على التجارة البرية واستخدام الجمل كوسيلة لنقل البضائع والسلع، واستطاع العرب الوصول إلى أقصى المناطق في شبه الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها، وأول إشارة إلى القوافل واستخدامها في التجارة في البلاد العربية هي التي جاءت في "سفر الملوك" والغريب في الأمر أن أسفار التوراة لا تذكر من الشعوب العربية الجنوبية غير "سبأ" وقوافل "سبأ" وذهبها كما أشار "سفر أشيعا" في القرن الثامن قبل الميلاد إلى قوافل "إيفا" و"مدين"[7].

أما الحدود الجنوبية تمتد كما يفهم من قول "حزقيال" حران وكنه وعدن تجار سبأ وإذا ذهبنا للمقارنة بين قوافل سبأ في القديم وقوافل قريش فغن هذه الأخيرة كانت أصغر حجما تسير أحيانا بألفي بعير، وبحكم المشقة في البلاد العرب فإنه كانت لديهم رحلتين الشتاء إلى اليمن والحبشة وكانت توافق قدوم المراكب من الهند وشرق إفريقيا إلى الموانئ اليمنية، ورحلة الصيف إلى الشام والعراق ومصر وكانت توافق هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وكانت لهم طريقتين أساسيتين للقوافل تسير أحدهما من حضر موت إلى البحرين على الخليج العربي ثم إلى "صور" على البحر الأبيض المتوسط، أما الآخر فيكون مناخا للبحر الأحمر وما دام الطريق الأول مجاور للحدود الشرقية فسمي بطريق الشرق، والثاني مجاوز للحدود الغربية فسمي بطريق الغرب[8].

أما من جهة مصر فقد كان قدماء المصريين يهتمون بالتجارة القوافل والملاحة البحرية إذ توغلت سفنهم في البحر الأحمر في عهد الملك "سنغر الأول" أول ملوك الأسرة الرابعة إلى بلاد "نيشا" الواقعة شرق إفريقيا وكذلك السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية[9]. كما بعث الفراعنة في

المملكة الوسطى برحلات استكشافية إلى بلاد "نيشا" كما اهتموا بتسهيل عملية الملاحة وربط النيل بالبحر الأحمر حيث قامت الملكة "حتشيسوس بحفر قناة لهذه المهمة وهي تمتد عبر الفرع البلوزي أحد فروع النيل القديمة(10).

والعرب اهتموا من جهتهم وركزوا على الملاحة في البحر وبناء السفن التجارية كما ذكر في القرآن الكريم في سورة الإسراء قوله تعالى:" هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ "، وفي سورة الإسراء قوله تعالى:" رَبُّكُمْ الَّذي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْله إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا". وفي سورة لقمان قوله تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاته إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ".

فقد كان للعرب قوارب صغيرة تجوب محاذاة شاطئ البحر الأحمر حتى موانئ الشمالية ولكن طورها القدماء في شبه الجزيرة العربية إلى السفن تجارية كبيرة لاسيما أنها وجدت أدلة على ذلك في النقوش عربية تعود إلى قرون قبل الميلاد سبئية ومعينة مكرسة للآلهة العربية في جزيرة ديلوس في البحر إيجه(11). وعلى ذكر أهمية التجارة فإنه كان لها الدور الأساسي في ربط الصلات والعلاقات بين العربية الشمالية والعربية الجنوبية حيث أدخلت الكتابة الثمودية والنبطية إلى اليمن، وأصحاب هاتين الكتابتين من الشعوب المقيمة بالعربية الشمالية حيث كانوا يركبون القوافل من الجنوب إلى الشمال ومنهم من سكن فيها واختلط بسكانها، وعثر العلماء في أماكن متعددة من خرائب اليمن على كتابة العربية الشمالية(12).

ب-التجارة البحرية

1-الملاحة في شبه الجزيرة العربية: من خلال ما ذكره العلماء والمؤرخون أنه لم ترد في كتابات "المسند" التي عثر عليها في الجزيرة العربية معلومات عن أسفار العرب البحرية، لا إلى سواحل إفريقيا ولا غيرها، ولكن مهما يكن فقد أظهر العلماء بعض الأدلة عن تجارة شبه الجزيرة البحرية من خلال أدلة مادية وإن كانت قليلة حيث عثر على كتابات معينة من مناطق مختلفة مثل جزيرة ديلوس من جزر اليونان، وكذلك في مصر كتبت حوالي 263 ق.م بالجزيرة وهي كتابات

قصيرة ولكن ذات أهمية كبيرة لانها تثبت وصول المعنيين بين مصر في ذلك العهد وعن وجود صلات تجارية ربطت بين مصر وشبه الجزيرة العربية في البر والبحر هذه الكتابات تتحدث عن رجب اسمهّ زيد بن زيد ايل" من آل ظبرن "اعترف بوجود دين عليه إلى بيوت آلهة مصر من المر وقصب الطيب"(13). وقد ذهب صاحب النص المذكور "رودوكناكس" إلى احتمل ان "زيد ايل" كان كاهنا في معابد مصر ولو كان من أصل غير مصري، وكان هذا الشخص يستورد السلع الخاصة بالمعابد من أموالها ولم يكن إلا وسيطا بين البائع والمشتري(14).

وهناك من يزعم أن العرب الجنوبيين لم يكونوا إلا أصحاب قوافل وتجارة برية أما التجارة البحرية والملاحة بيد شعوب غيرهم أكثر تطورا في هذا الميدان، وأن السفن الشرقية كانت تنقل السلع إلى شبه الجزيرة العربية، وكما يقال أن العرب لم تكن لهم إمكانيات صناعية السفن من الأخشاب وغيرها، والغريب في الأمر أن اليمنيون قد سلموا بهذه الحقائق المزعومة في النصوص القديمة، والغرض منها الافتخار بالحضارة الشرقية(15).

2–السلع التجارية القديمة:

السلع المقدسة:

البخور "اللبان": من المعروف أن مواطن البخور في البلاد هي المنطقة الممتدة من جبال "سنحان" إلى الشرق من "ظفار" حتى جبال "المهرة" المطلة على ساحل سيحوت"، ويبلغ امتداد هذه الهضبة من الشرق إلى الغرب حوالي 250 ميلا ويبلغ ارتفاعها في بعض المناطق نحو 300قدم، وتنحدر منها إلى الساحل وديان تكسو معظمها الأعشاب والأشجار البرية، وأجواد أنواع اللبان وهو ما يوجد على السفوح الشمالية، أما المنحدرات الجنوبية فلبتنها رديء. وقال ابن خلدون في العبر:"وفي هذه البلاد يوجد اللبان وفي ساحله العنبر الشحري...وبلاد الشجر مدينة مرباط وظفار"

وقال الثعالبي في ثمار القلوب: "عنبر الشحر يضرب به المثل" وقال صاحب تاج العروس يصف شجرة البخور:"شجرة شوكية لا تسمو أكثر من ذراعين لها ورق مثل ورق الأس، ولا يكون اللبان إلا بالشجر من اليمن، ومنابت شجرته الجبال "وعندما زار صاحب كتاب" الطواف حول

البحر الايرتيري "الميناء" قنا" وهو ميناء مملكة حضر موت الرئيسي، شاهد قوافل الابل والقوارب تنقل اللبان من داخل حضر وسواحلها إلى ميناء "قفا" وسمي ملك حضر موت بملك بلاد اللبان"(16).

ومع أن الجوانب الافريقية حول مضيق باب المندب وخليج عدن كان ولا يزال ينتج اللبان، إلا أن تجارته كانت بيد العرب الجنوبيين الذين حرصوا على اتمام أسرار تجارتهم ومصادرها، فقد اعتقد المصريون وغيرهم أن بلاد العرب وحدها هي التي تنتج البخور وغيره من السلع المقدسة(17).

ويذرك "هيرودوت" عندما زار مصر وجد المصريون يشيرون إلى جبال بلاد العرب، إلى الشرق من مصرن على أنها مواطن البخور ورأينا من قبل أن الثوراة والكتب الكلاسيكية تذكر البخور كسلعة عربية تحملها قوافل سبأ ضمن السلع العربية الثمينة الأخرى إلى مصر وإلى بلاد اشام وأقدم اشارة إلى البخور هي التي جاءت في النقش الذي يتحدث عن رحلة السفن الني أرسلها الملك "ساحورع" حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد إلى بلاد "بنت" لجلب البخور وغيرها من السلع الشرقية، ولا يعقل أن تكون هذه الرحلة هي الأولى، ولقد سبقتها رحلات عرف من خلالها المصريون السواحل الجنوبية للبحر الأحمر، وسواحل خليج عدن، والطرق الأمنية إليها، وينظر المصريون القدامى وحتى الشعوب الأخرى إلى البخور والمر والصبر ومختلف الطيوب نظرة تقديس، حيث كانوا يسمون الأرض التي تنتج هذه المواد "الأرض المقدسة" أو أرض الآلهة، ويستعمل البخور عادة قربانا للآلهة. ففي القرن الثامن عشر قبل الميلاد أقام رمسيس الثالث بناية خاصة وللبخور الذي كان يحرقه قربانا للآلهة "أمون"(18).

وعندما نرجع إلى المسند اليمني نجده يتحدث عن البخور والمر اللذين يقدمانهما لآلهتهم، ونستهلك في العالم الواحد عشرات الأطنان من البخور، عدا ما كان يحرق خارج المعابد في المناسبات والعادات القديمة، ورغم شهرة بلاد العرب لدى شعوب العالم القديم لإنتاج هذه المادة المقدسة إلا أنه لا يعقل أن أشجارها هي وحدها كافية لتزود العالم القديم بعشرات الأطنان من البخور الذي يحتاج إليها كل عام(19).

وإن كان "هيرودوت" قد بلغ حينما قال أن العرب كانوا يهدون إلى "دارا الأول" كل عام ألف وزنه من البخور أي حوالي 25 طن، لكن هذا من جهة يبين ضخامة الكميات التي كانت تستهلك من هذه السلعة"[20].

البخور عصب تجارة الأحمر في القديم: يتضح من خلال ما ذكرنا ان مناطق البحر الأحمر اشتهرت منتجة للبخور خاصة ذلك النوع المدعو الكندر وهو اللبان المألوف لنا، وعندما نقارن رواج البخور في القديم وفي عصرنا الحالي فإننا نجد الفرق شاسع بالنسبة لأهمية وللكمية المستعملة وحتى دواعي الاستعمال، وهذا الفرق لم يكن سببه نقص الكميات المنتجة فحتى الوقت الحالي يمكن انتاج كميات كبيرة من البخور، ولكن الأساس في ذلك انخفاض الطلب عليه مقارنة بالعصور القديمة، وذلك لعاملين أساسيين:

أولهما: معرفة الإنسان لأنواع من العطور أطيب رائحة وأيسر منالا من البخور.

ثانيا: وهو الأهم، تغيير نمط التفكير الديني اليوم عنه عند القدماء، بعد أن استنارت عقول البشر بالكتب السماوية ويتمثل هذا التغير في تحرر الفكر الديني منه الارتباط بالسحر الذي كان يسيطر على العقائد الدينية، حيث كانوا يعتقدون أن لهم قوة سحرية عندما يحرق في المعابد أو في المقابر[21].

ونتحدث الآن عن المصريين القدماء بوجه خاص لاعتقادهم بالبخور، حيث كانوا اضافة إلى استخدامه للطقوس الدينية في معابدهم، فقد انفردوا أيضا باستخدامه في المقابر بطريقة تتماشى مع عقيدتهم الخاصة وايمانهم بالبعث والخلود بعد الموت، وهي ضرورة تخليد الجسد والروح، ومن هذه الناحية فقد كانت عقيدة المصريين تغلب عليها الأفكار الساذجة إذ اعتقدوا أن الروح في حاجة دائمة بعد الموت إلى التمتع بالقرابين لاكتساب التجدد، وبالتالي الخلود في الحياة الأخرى، ولاكتساب الروح هذا التجدد لا بد من استدعاءها لتقديم القرابين لها، وبتم ذلك بقراءة تعاويذ خاصة وحرق البخور فتصعد الروح إلى مسكنها (أي الجثة) [22]. على هذا الأساس ابتكر المصريون عملية التحنيط للحفاظ على الجثة وبالتالي الاعتناء بالروح.

وهذه العملية كانت تلزم المصريين استعمال كميات كبيرة من البخور لتعقيم الجثة وحمايتها من التلف ولتعطيرها وتعطير أماكن التحنيط، هذه الأفكار انفرد بها المصريون عن سائر الشعوب القديمة مما جعلها أكبر مستهلك لهذه المادة، والتي كانت تجلب طبعا من العربية الجنوبية التي اشتهرت بتجارته، واكد هذا القول "هيرودوت" أن البلاد الوحدية التي تنتج البخور والقرفة والمر واللادن هي البلاد العربية[23]. وقد سمع "هيرودوت" عن المصريين روايات عن الأخطار التي يتعرض لها من يمجع الطيوب فإن أشجارها تحميها أفاعي مجنحة[24]. وهذا النوع من الروايات قد أظهر قدسية مادة البخور عند المصريين وبالتالي كان لابد لهم من جلبها من شبه الجزيرة العربية أو بمعنى آخر ربط صلات تجارية اقتصادية معها.

بعدما ذكرنا أهم سلعة مقدسة في القديم هي مادة البخور فإن هناك سلعة أخرى كانت ذات أهمية نظرا لمجالات استعمالاتها فنجد:

المر والصبر: يقول "البرت هيل" في كتابه النبات الاقتصادي :" المر الحلو نوع عربي معروف منذ القدم وقد استعمل قورنا طويلة في البخور والعطور والتحنيط، وكان يضاهي الذهب في قيمته، ووصف "هيرودوت" عمليات التحنيط لدى القدماء المصريين، فقال أنه بعد استخراج دماغ ميت ويشق البطن ويستخرج كل ما في داخله وينظف التجويف، بعد ذلك يملأ التجويف بالمر وكل مادة عطرة عدا البخور، وهناك أسطورة عن العنقاء سمعها "هيرودوت" في مصر تقول أنها إذ توفي احد من ودلديها تقوم بوضع جثة في كتلة من المر ثم تحملها من بلاد العرب إلى معبد الشمس في مصر حيث تدفنها فيه[25].

وكان إلى جانب استعماله في المراسيم الدينية يستعمل في تركيبة الدهن المقدس الذي يؤخذ كعلاج للجروح وبعض الأمراض، وينتج بكثرة في المناطق المجاورة لمضيق باب المندب[26]. اما الصبر فنبات من فصيلة الزنبقيات يستخرج من أوراقه سائل صمغي مر الطعم يستعمل في الطب والاسهال.

وهناك سلع أخرى كثيرة عربية مقدسة لكن لم يكن لها دور في التعاملات التجارية بين الجزيرة العربية ومصر في القديم.

3-جغرافية منطقة البحر الأحمر وأهميته التجارية:

بما أن البحر الأحمر كان عاملا اساسيا وطريقا رابطا بين مصر القديمة وشبه الجزيرة العربية، فإنه يجدر بنا دراسته دراسة تاريخية وجغرافية لإدراك هذه الأهمية وابرازها، كذلك يجدر بنا ابراز أثر العوامل الجغرافية والبشرية في تشكيل الصلات الحضارية.

أ-الطبيعة: يمتد البحر الأحمر من ميناء السويس والعقبة شمالا إلى بوغاز باب المندب جنوبا، ثم يتسع في الجنوب لتكوين خليج عدن، ولا يعرف بالضبط سبب تسمية البحر الأحمر بهذه التسمية حيث توجد آراء كثيرة في هذا، بعضها قديم وبعضها حديث فمنها من يقول أن السبب هو اللون الاحمرار الذي تبدوا به الجبال الواقعة على الشواطئ هذا البر ومنهم من يقول أنها ترجع إلى لون نوع من الطحالب التي تميل إلى الاحمرار وتعكس هذا اللون(27).

ويبلغ طوله 2000 كلم وعرضه 400 كلم ويضيف كلما اتجهنا شمالا حيث يتفرع إلى قسمين شرقي يكون خليج العقبة وغربي يكون خليج السويس ويفصلهما عن بعضهما شبه جزيرة سينا، كما انه لا توجد أنهار تصب في البحر الأحمر ولا تسقط أمطار في القسم الشمالي منه والمناطق المحاذية له جبلية بوجه عام وسواحله رملية(28).

وبالنسبة لخليج عدن فإن المناطق المطلة عليه فاحلة فساحله الجنوبي رملي منخفض خال من العوائق اما ساحله الشمالي فهو رملي تتخلله الجبال، ويمتد البحر الأحمر طولا من شرق إفريقيا على شكل أخدود في قناة وسطى وقناتين ساحليتين(29).

أما المناخ البحر فهو شديد الصعوبة ويعتبر من العوائق أمام النشاط البشري بارتفاع نسبة الرطوبة وخاصة القديمة وبالتالي سندرس التأثيرات المصرية بدون قيد زمني كي نرى التدرج في تأثر سفن شبه الجزيرة العربية على امتداد زمني واسع، ونصل إلى إدراكه بدرجة كبيرة، كما سنخرج عن الإطار الجغرافي على أساس أن السفن العربية كانت تنشط في مناطق واسعة من المحيط التي بدورها قد تركت تأثيرا هناك(30).

أما عن الامتداد الزمني فقد كانت التأثيرات البحرية لا تختلف كثيرا في العصور الوسطى عنها في العصور القديمة بسبب طبيعة التقاليد البحرية التي تمتاز بثباتها وعدم تعرضها للتغيير الكبير عبر العصور أو المسافات، وعلى عكس الميدان البري فإنه تختلف فيه العادات والتقاليد ودرجة التأثر بما هو خارجي، نظرا لكثرة الحواجز من منطقة لأخرى.

اما المجال البحري فإنه يعد مشتركا تقل فيه الحواجز نظرا لأن الماء هو الطريق الوحيد والثابت، وبالتالي فإنه يقوم على أساس ثقافي مشترك يفرضه النمط الموحد للبيئة البحريةن هذا مما يساعد على انتشار تقاليد لمسافات شاسعة دون تغير كبير وبالتالي من السهل معرفة أصلها بسهولة.

4-طرق بناء السفن وتسميتها:

أ-التسميات المصرية للسفن: فمن الجانب المصري اطلق قدماؤهم على السفن التي كانوا يبحرون بها اسما عاما وهو "حعو" بمعنى"سفن" واسما خاص هو "كبنت"وهذه الكلمة مشتقة من اسم "كبن" الذي اطلقه المصريون على ميناء "بيبلوس" او "جبيل"، والواقع على الساحل اللبناني شمال بيروت، هذا الميناء الذي كانوا يستوردون منه مادة خشب الأرز، واستنتج الباحثون من هذه التسمية أن قدماء المصريين كانوا يعتمدون على الفينيقيين في صناعة سفنهم، أي أن السفن المصرية كانت تصنع بالساحل الفينيقي وتحول إلى البحر الأحمر ووجدت نقوش تشير إلى أن هذه السفن كانت تصنع داخل مصر نفسه[31].

وهناك أدلة أخرى تذكر أن المصريون كانوا يصنعون السفن ثم تفك إلى قطع وتنقل من النيل إلى البحر الأحمر وتركب ليعاد الإبحار بها، وبعد عودتها إلى تعاد نفس العملية بإرجاعها إلى النيل، وهذه الحقائق تدفعها إلى القول أن نوع السفن التي كانت تبحر في البحر الأحمر لها أهميتها وخاصيتها المتميزة وهي الفك والتركيب، وعن اصل السفن فغن التسمية "كبنت" لا تعني ان السفن كانت تصنع عند الفينيقيين ولكن الأصل في ذلك هي مداة خشب الأرز الذي يستورد نظرا لمتانة وطول ألواحه لصناعة السفن الضخمة. وبالنسبة لموضوعنا هذا فإنه المهم في هذا النوع من السفن أنها كانت من السفن المخيطة او الخيطية، أي التي تشد ألواحها بالحبال ولا تستخدم المسامير المعدنية.

ب-التأثيرات المصرية في الصناعة السفن بشبه الجزيرة العربية: هناك نص هيروغليفي يتحدث عن السفن الخيطية يرجع إلى الأسرة السادسة الفرعونية أوائل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، جاء فيه أن احد رؤساء البعثات المصرية التي كانت تزمع السفن إلى إحدى مناطق البحر الأحمر، قد قتله البدو أثناء قيامه ببناء سفينة من نوع "كبنت"، وقد استخدم النص كلمة "سبت" مصرية قديمة في التعبير عن عملية بناء السفينة، ثم وردت الكلمة بنص آخر من العصر نفسه فوق مثلث فيه سفينة وهي تبنى بشد ألواحها بالحبال(32). ويلاحظ ان هذه الكلمة تستعمل حتى اليوم في الدارجة المصرية لتدل على "السلة" ومن خلال ما ذكرناه يتبين أن السفن الخيطية كانت هي التي تستعمل في رحلات المصريين في البحر الأحمر.

وعلى أساس هذا نأتي إلى بيت القصيد، حيث نجد أن هذا النوع من السفن كان هو الطراز الشائع للسفن العربية المستعملة للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي في العصور القديمة أو في العصور الوسطى، كما كانت دلك على ذلك الروايات التاريخية، ففي العصور القديمة أشار مؤلف كتاب "الطواف حول البحر الاريتري" "إلى السفن" رهابتا" وهي المنطقة تقع على الساحل الإفريقي الشرقي كانت من نوع السفن المخيطية وإن هذه السفن كانت من صناعة عربية، إذ يقول في هذا الصدد "..يوجد ميناء آخر في "إزانيا" يسمى "رهابتا" وقد اشتق اسمه من السفن المخيطية".

....وكان أمير معافر "دولة يمنية قديمة" يحكمها بمقتضى حق قديم، يخضعها لسادة المدينة التي تلقاها أول ما تلقاها على ساحل العرب....وأهل موزا، مخا الحالية" يحكمونها الآن باسمه، ويبعثون إليها بسفن تجارية، يستخدمون في معظمها ربابنة ووكلاء عربا يألفون أهل البلاد ويتزوجون معهم ويعرفون السحل واللغة"(33).

ومن خلال هذه الترجمة لاحظ بعض الباحثين ان كلمة "رهابتا" بالسفن المخيطة أو الخيطية، وإشارة المؤلف لوجود تأثيرات عربية في "رهابتا" هذا أن الكلمة قريبة من الكلمة العربية "ربط" ولعلها نفس الكلمة حرفت على لسان الكتاب الكلاسيكيين لأنها تشير أيضا إلى عملية بناء السفن بربطها بالحبال، ويرى حوراني ان هذا الاسم عربي الأصل كان يطلق على السفن المشدودة الألواح بالليف أي السفن الخيطية(34).

الواقع أن السفن كان النوع السائد في البحر الأحمر واستمر استخدامه طوال العصور حتى بعد معرفة سكان هذه المناطق للمسامير الحديدية في تثبيت الألواح، وهذا ما جعل الباحثون إلى التناول عن التمسك بالنوع الأول، وخلصوا إلى السفن الخيطية أكثر ليونة وأكثر تحملا للاصطدام بشعاب المرجان التي يزخر بها البحر الأحمر، وظلت هذه حتى العصور الوسطى، ودارت العديد من الآراء حول ذلك، فالمسعودي يقول أن مياه المحيط الهندي تذيب الحديد بخلال مياه البحر المتوسط، ويذكر ابن بطوطة أن مراكب اليمن والهند تخاط بالحبال من "القنبار: لان البحر الأحمر وغربي المحيط الهندي مليئة بالحجارة، فإن المركب مشدودا بالمسامير تحطمت، وإن كان مخاطا أعطي الليونة فلا ينكسر[35]. ونتساءل نحن كما تساءل الباحثون عن أصل السفن العربية ومن أين جاءت؟

ذكر البعض أنها من الهند على أساس أن الخشب "الساج" الذي كانت تصنع منه السفن العربية من الهند"[36]. ولكن إذا نظرنا جيدا إلى طريقة بناء السفن الخيطية العربية يلاحظ أنها تشبه إلى حد كبير طريقة بناء السفن المصرية القديمة، فكلاهما كان يعتمد في تثبيت ألواح السفينة من الدسر الخشبية والخيوط والحبال، هذا بالاضافة إلى قدم استخدام المصريون لهذا النوع من السفن مما جعلهم الرواد في هذا الميدان، ورغم أنه لا يوجد نماذج للسفن المصرين التي كانت تستخدم في البحر الأحمر كي نعرف طريقة بنائها، وكذلك لا توجد نماذج للسفن العربية والمصرية التي استعملت في داخل مصر وأهم هذه السفن المعروفة بمركز الشمسن والتي وجدت في الجنوب من الهرم الأكبر بالجيزة عام 1954، والتي ترجع إلى عهد الملك "خوخو"[37].

اما السفن العربية في العصود الوسطى "إذ لا شك أن هذه الطريقة لم تتغير كثيرا عن العصور القديمة نظرا لثبات تقليد البحرية، ومن خلال الفحص الذي أجري على مركب "خوخو" المذكور يتضح ان ألواح السفينة واجزائها كانت تثقب قرب أطرافها، ثم توضع في الثقوب دسر خشبية تتصل ببعضها بحبال من كتان أو ليف نخيل، وهذه الطريقة نفسها اتبعت لصناعة السفن العربية في العصور الوسطى مع الفارق في نوع الحبال، وهناك فارق آخر وهو ان السفينة العربية كانت تصبغ مذابة[38].

ورغم أن هذه المادة لم تستعمل في سفينة "خوخو" إلا أنها استخدمت في السفن القديمة المصرية، بوجه عام كما ذكرها الباحثون من خلال الرسوم والنصوص[39]. ومنه فإن المرجع أن السفن الخيطية التي استخدمها العرب القدماء في البحر الأحمر والمحيط الهندي في العصور القديمة، والتي أطلق ليها الكتاب المسلمون الاسم "جلبة" وترجع في أصلها إلى السفن الخيطية المصرية المسماة "كبنت" والتي استخدمت في البحر لملائمتها لطبيعة هذا البحر، حيث تمتلئ شواطئه، بشعاب المرجان والصخور، إضافة إلى أنه يسهل عملية فك السفينة ونقلها بين شاطئ النيل وساحل البحر الأحمر كما دلتنا الآثار التي وجدت في موقع الميناء الذي كانت تركب وتفك فيه هذه السفن[40].

ج–أصول أجزاء السفن بشبه الجزيرة العربية: تحدثنا في العنصر السابق عن تأثير أنواع شبه الجزيرة العربية بالسفن المصرية وفي هذا العنصر نتطرق إلى أصول السفن العربية وإلى أصول أجزاء السفن العربية وتأثيرها بالسفن المصرية القديمة ونجملها فيما يلي:

1–الشراع: يرى الباحثون أن الشراع العربي المثلث قد تطور عن الشراع المصري المربع[41].

وذلك بوضع الشراع المربع عبر السفينة طولا مع إمالة طرف مقدمته إلى الأسفل، وكانت هذه الطريقة مستخدمة في النيل لفائدتها في تسيير السفينة ضد الرياح الشمالية السائدة في مصر، ثم سار التطور نحو الشراع العربي المثلث بان قصر الجزء الأمامي من الشراع ورفع محو مؤخرة السفينة، لتأخذ حظا من الريح فظهر هذا النمط من الشراع، والحقيقة ان فكرة الشراع المثلث كانت معروفة في مصر ولكن المصريين استخدموه في السفن التي تتطلب وظيفتها ان تكون خفيفة الحركة مثل السفن الحربية، ومثال ذلك السفن التي استخدمها رمسيس الثالث "الأسرة العشرون" حوالي عام 1180 ق.م في المعركة البحرية الشهيرة التي شنها ضد شعوب البحر[42].

ويقول: الآن فاليارس" المعروفة بكتابته عن المراكب الشراعية القديمة، إن المركب اليمني الذي سافر عليه "قد بني من مجموعة غريبة من القطع الخشبية" يدل هذا على أنه لم يستطيع معرفة نوع الخشب الذي بني به المركب اليمني، مما يؤكد أن مراكب ساحل تهامة لم تكن تبنى بخشب الساج الهندي كمراكب الساحل الجنوبي لليمن[43].

واستعمل العرب "القار، ودهن الحوت، في سد الثقوب، والشقوق في ما بين الألواح بعد خياطتها او تسميتها، وكانت عدن مشهورة بيع دهن سمك القرش. قال ابن جبير:" يتصيدون ما صغر منها يقصد سمك القرش، فيطبخونه في قدور فتذوب وتصبح شحما مذابا" وكانوا يطلون به على قاع المراكب لحمايتها من دودة السفن".

2-الدفة: يرى البعض أن صيغة التثنية في الاسم العربي للدفة هي "سكان" وهي في الغالب دليل على استخدام العرب للدفة المزدوجة"[44].

3-الصاري: ظهرت في المحيط الهندي أشكال من الصواري مثل الصاري الذي على شكل سلم والصاري ثلاثي الأعمدة[45].

وهذه الأنواع من خصائص الصواري القديمة هذا فضلا على أن طريق ربط الصاري إلى نصب مثلث في قاع السفينة التي ظهرت في السفينة العربية هي طريقة مصرية قديمة[46].

4-طريقة تدعيم بدن السفينة بالحبال المجدولة: تميزت بعض أنواع السفن العربية باستخدام الحبال المجدولة في الإحاطة ببدن السفينة لتدعيمه ضد أمواج البحر الأحمر العاتية، وهذه الطريقة ظهرت في السفن المصرية القديمة منذ أقدم العصور، ومثال ذلك سفينة من عهد الفرعون "ساحورع" من الأسرة الخامسة[47].

5-زخارف السفن:

كان المصريون يرسمون أو يحفرون على مقدمة سفنهم شكلا خاص يمثل عين إلههم "حورس" لاعتقادهم أنها تبعد عنهم الأذى، وتبشرهم بسلامة العودة، وقد زهرت هذه العين في رسوم أحد كهوف منطقة "اجنتار" بالهند ورغم أنه لا يوجد لدينا سفن عربية قديمة من ذلك العصر بها ذلك الرسم، إلا أن دور الشكل، وخاصة أن هذه العين تطورت في رأي الباحثين إلى الفتحة التي تدلى منها مرساة السفينة العربية"[48].

واستنادا إلى الرسوم القليلة التي خلفها الفراعنة وغيرهم من الشعوب القديمة يرى الباحثون أن مراكب العصور القديمة كانت على العموم من ذات مقدمات تنحت أطرافها على الشكل رؤوس حيوانات مخيفة اعتقادا منهم أنها ترعب الأرواح الشريرة، التي كان القدماء يعتقدون أنها موجودة في البحر، ولكن يبدو أن هذه السفن التي تحمل مقدمتها أشكال حيوانات كانت تستخدم للقرصنة والأغراض الحربية كالسفينة الفرعونية، والغرض منها إدخال الرعب في قلوب من تهاجمهم وإرعاب الأرواح الشريرة في أعمال البحر. أما السفينة التجارية فلا بد أن تكون ذات مظهر مسالم كسفن المصرية التي تتردد إلى بلاد "بنت" أيام الملكة "حتشبسوت" والتي كانت مقدمتها على شكل زهرة اللوتس"[49].

5-الموانئ العربية القديمة: على العموم أنه يمكن القول أن المراسي على الساحلين الغربي والجنوبي في بلاد العرب الجاهلية، والشواطئ الإفريقية المقابلة لها، قد برزت بشكلها البدائي حيث تتوفر الحماية الكافية للقوارب من العواصف، منذ أن بدا رجال البحر على السواحل العربية يترددون على الشواطئ الإفريقية القريبة منهم ونتيجة لاستمرار تدفق موجات المهاجرين العرب إلى الشواطئ الإفريقية أخذت هذه المراسي تتطور وتتسع، وبدأت تشهد نوعا من التبادل التجاري بين المهاجرين والسكان الأصليين، والموانئ القديمة في شبه الجزيرة العربية وخصوصا الجنوبية كثيرة منها ما اندثر ومنها ما تغير اسمه أو موقعه[50]. وأشهرها:

أ-عدن: لا يستبعد أن ميناء عدن كان أحد تلك الموانئ العربية القديمة التي شهدت بداية نشاط اليمنيين البحري وبداية ارتباط اليمن بشرق إفريقيا فهو في موقع أمين حصين تحيط به الجبال من كل جهة وتحميه من الرياح الموسمية ومن العواصف وعدن جزيرة يفصلها عن البر قناة مكسرة[51].

فكانت السلع تنقل من البر إلى القناة ومنها إلى الميناء عدن، وشيد قدماء اليمنيين قنطرة على القناة كان كولها ثلاثمائة ذراع لتسهيل مهمة الانتقال، وبما أنه لا سبيل للوصول من البر إلى الساحل إلى القنطرة أو الجسر اضطروا إلى شق نفقين أحدهما طويل والآخر قصير هذا الأخير يبدأ من جهة البر في الجبل المقابل للشرق ثم تخرج إلى مدينة عدن أسفل التلة التي شقت منه طريق

العقبة، ولا يعرف حتى الآن متى شق النفقين وحتى طريق العقبة، ولا يعرف في أي عهد من ملوك اليمن تم ذلك إذ لم يعثر حتى الآن على كتابة من كتابات المسند تشير إلى ذلك، ولكن استنادا إلى ما جاء في بعض نصوص المسند عند قيام "يدع أب ذبين بن شهر" آخر مركبي قتبان وأول ملوكها بحفر الأنفاق وشق الممرات الطويلة في جبال لتمر القوافل التجارية في مملكته التي امتدت حدودها إلى البحر جنوبا وباب المندب غربا وحضر موت شرقا، وسبأ شمالا اختلف العلماء في تحديد زمن هذا الملك، فمنهم من يرجعه إلى القرن الثامن قبل الميلاد ومنهم قال القرن الرابع قبل الميلاد.

وكان ميناء عدن مهم جدا في العالم القديم حيث كان اليونانيون لا يتجاوزون بمراكبهم هذا الميناء قبل أن يعرفوا الطرق البحرية إلى الهند، وقال صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري "يتصف عدن كانت تسمى السعيدة" وكانت مدينة هامة عندما كانت الرحلة من الهند إلى مصر أمرا لم يتحقق بعد، وكان اليونانيين لايجرؤون على الملاحة بمصر إلى الموانئ الواقعة وراء المحيط، بل كانوا يأتون جميعا إلى هذا الميناء، وفي تلك الأيام كانت تتلقى السلع من كلا البلدين كما تتلقى الاسكندرية ومصر السلع التي تجلب من الخارج(52).

وقد جاء على تجارة اليمن البرية والبحرية نكسات بسبب الحروب الداخلية والسيطرة الخارجية، ولكن حتى بعد انتقال التجارة البرية إلى قريش بقيت عدن سوقا تجارية للسلع الشرقية والسلع الرائجة مثل الطيب بمختلف أنواعه والبخور والعطور والبرود وغيرها من السلع اليمنية، وكانت التجارة حرة(53).

ب–ميناء قنا:

حران وقنية وعدن تجار سبأ وكلمد تجارك(54).

يعتقد الباحثون أن "فنية" المذكورة في السفر "حزقيال" هي "قنا" الميناء المشهور أيام صاحب "الطواف البحر الاريتري" في جنوب البلاد الغربية إلى الشرق من عدن، وكان الميناء سوقا لكل اللبان الذي يزرع في البلاد، يؤتى به على ظهور الجمال وفي الأرمات المحلية المصنوعة من الجلد وفي القوارب.

وكانت لها تجارة من شرق افريقيا والسند وفارس وعمان، كما أنها هي الميناء الرئيسي للمملكة حضر موت التي كانت حدودها تمتد من "مرباط" شرقا إلى "ميفعة" غربا ومن صحراء الربع الخالي حتى البحر جنوبا، وكانت علاقتها بشرق افريقية قوية جدا ومنها مصر عن طريق التجارة، ومنذ العصور القديمة كانت "قنا" تتلقى السلع من البر والبحر[55].

ولكن هذا الموقع مجهولا، حيث طغت عليه الرمال إلى غاية سنة 1834، حيث توقفت سفينة انجليزية في ممر ضيق قصير ومغلق من أحد جانبيه فنزل الضباط ومعهم ملاح عربي الذي قال لهم أن هذا الحصن هو حصن الغراب وراحوا يبحثون عن النقوش والخرائب والكتابات الأثرية، واستطاعوا استكشاف المكان وتحديد معالمه من أبراج ومنازل صغيرة مربعة الشكل، والمنحدرات التي تنتشر بها الآثار ويقول أحد الضباط أنه لم يجد أطلال أبنية كبيرة ولا قناطر أو الأعمدة، فقد كانت معظم الخرائب مبنية من الصخور كسيت بإسمنت مصنوع من الصدف المتحجر، أما عن الجزيرة الصغيرة فكانت فيما مضى مفصولة عن الساحل تماما، ولكن اليوم متصلة به ببرزخ رملي[56].

ج–ميناء المخا: يعتبر "المخا" ميناء قديم يرجع تاريخه إلى القرون من ما قبل التاريخ، فقد عثر فيها على نقش بلغة المسند، أرجع تاريخه فريق من العلماء إلى قبل الميلاد بحوالي 300 سنة، ذكر هذا الاسم في كتابه سجلت فيها حروب الملك "يوسف أسار" المشهور "بذي نواس" على الأحباش ونصارى اليمن[57].

و"المخا" بلغة المسند هي "مخن" أو "مخان" وهو اسمها القديم، ولقد وجد صاحبّ الطواف" هذا الميناء مليئ بالمراكب، وأصحاب السفن والملاحين العرب والناس في شغل شاغل بشؤون التجارة وهي مدينة من الأسواق أقيمت على أساس من القناون[58].

د–ميناء سمرهم: يعتبر أيضا من الموانئ القديمة في شبه الجزيرة العربية المدثرة، ويعرف اليوم "خور روى" وهو "بظفار" وميناء مهم جدا لقربه من المنطقة التي تنبت فيها شجيرات اللبان، وكان تابعا لمملكة حضر موت[59].

الخاتمة: لقد لعب الجانب الاقتصادي الدور الأهم في توضيح الصلات الحضارية بين مصر وشبه الجزيرة العربية في القديم، حيث وجدنا بعد تطرقنا إلى مراحل اتصال سكان شبه الجزيرة بالحضارة المصرية، أنه كان معظمه لسبب اقتصادي بحت، هذا طبعا بعد المجال الديني وتسهيل الاتصال عن طريق الكتابة واللغة، وانجر عنه بعد ذلك التأثر وانتقال المظاهر الحضارية في المجالات الأخرى، حيث كان أول اتصال في شبه جزيرة سيناء على أساس التنقيب في المناجم النحاس، ثم عن طريق البحر الأحمر والملاحة البحرية. وهذه الصلات الحضارية في المجال الاقتصادي كانت دافعا لاتصال الحضارة المصرية بشبه الجزيرة العربية، وانتقال المظاهر الحضارية إلى بلاد العرب، حتى أن بعض العلماء والباحثون يذكرون أنه قد وصل المجتمعين إلى اندماج شبه كلي، وتأثرا بمظاهر وعادات بعضهما البعض.

الإحالات والهوامش:

---

[1] – رحماني بلقاسم، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا منذ قيام الدويلات العربية الجنوبية حتى الفتح الإسلامي، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1993– 1994، ص55.

[2] – لوندون، ترجمة بكر السقاف، القاهرة، 1979، ص84.

[3] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره في القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، جانفي 1993، ص463–654.

[4] - Litmann enno; Nabataen inscription from Egypt, 1 BSOAS-BULTIN of the scool- oriental, vol xv, 1953, p1-20.

[5] - Milki J, and J Starcky, inscription nabatiennes in winnette, ancient records from north Arabia, 1970, p152.

[6] – حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط2، دار العودة، بيروت، 1981، ص78.

[7] – الزوزوني.

[8] – منذر عبد الكريم البكر، دراسات في تاريخ العرب فبل الإسلام، تاريخ الدولة الجنوبية في اليمن، مطبعة جامعة البصرة، بغداد 1980، ص375.

[9] – أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة 1971، ص65.

[10] – منذر عبد الكريم البكر، نفس المرجع السابق، ص377.

[11] – جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة، ترجمة يعقوب البكر، القاهرة 1958، ص29.

[12] – علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج7، ط2، القاهرة، 1993، ص242.

[13] – نفسه، ص264.

[14] – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص175.

[15] – قفاف البشري، الصلات الحضارية بين مصر وشبه الجزيرة العربية منذ قيام الدولة الوسطى الفرعونية إلى غاية نهاية الدولة الحديثة، ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، 2005، 2006، ص

[16] – w.thesiger arqbian sandsm, 1960, p173.

[17] – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص132.

[18] – نفسه، ص135.

[19] – الأفغاني سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص25.

[20] – جواد علي، المرجع السابق، ج7، ص265.

[21] – pliny, natural history, book X11, p54.

[22] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص566.

[23] – فيليب حتي، تاريخ العرب المطولن ج1، ط4، بيروت، 1965، ص56.

[24] – بيرين جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت، 1963، ص28.

[25] – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص138.

[26] – جواد علي، المرجع السابق، المفصل، ج2، ص506.

[27] – Encyclopedia Britannica, vol 19, 1964, p26.

[28] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص2.

[29] – قفاف البشير، المرجع السابق، ص107.

[30] – عبد المنعم الحليم سيد، نفس المرجع السابق، ص433.

[31] – تم الكشف عن الميناء المذكور عامي 1977/1976 ويقع شمال ميناء القصير بحوالي 60كلم، ووجدت به لوحة تشير إلى بعثة أرسلت في القرن العشرين قبل الميلاد في عهد الأسرة 12، وجاء فيها أن السفن صنعت في شاطئ النيل، أنظر: كتاب: عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، مقال: الكشف عن موقع ميناء الأسرة 12 الفرعونية في منطقة وادي جواسيس على سواحل البحر الأحمر، ص ص 72- 145.

[32] – w.smith stevesen, the art and architecture of ancient Egypt, 1958, p167.

[33] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص434.

[34] – جورج حوراني، المرجع السابق، ص51.

[35] – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص332.

[36] – سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة، 1959، ص196.

[37] – جورج حوراني، المرجع السابق، ص 253، 254.

[38] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص436.

[39] – M.z, Nour, Z.Iskander, M.S.Osman , the cheops baots, part 1, 1960, p12.

[40] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص436.

[41] – أنظر اللوحة رقم ( )، أ.سفينة مصرية في عهد الدولة الحديثة، ب- سفينة مصرية في العهد الدولة القديمة/ ج–سفينة عربية تظهر فيها تأثير الشوارع المصري على الشراع العربي.

[42] – سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة، 1959، ص336.

[43] – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص336.

[44] – جورج حوراني، المرجع السابق، ص ص 267- 269.

[45] – سعاد ماهر، المرجع السابق، ص198.

[46] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص437.

[47] – أنظر اللوحة رقم (16)، ص162 تمثل سفينة مصرية من عهد الدولة القديم عهد الملك ساحورع ويلاحظ شكل الحبال التي شدت حول بدن السفينة لتدعيمها.

[48] – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص436.

[49] – حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص 336- 338.

[50] – خريطة رقم (13) ص142 توضح أهم مراكز التبادل التجاري في القديم في شبه الجزيرة العربية.

[51] – حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص 239.

[52] – حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص240.

[53] – جورج حوراني، المرجع السابق، ص64.

[54] – سفر حز قيل.

[55] – حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص249.

[56] – جاكلين بيرن، المرجع السابق، ص351.

[57] – جواد علي، المرجع السابق، ج2، ص161.

[58] – حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص253.

[59] – أنظر: الخريطة رقم (14)، توضح اتجاه السفن جنوب الجزيرة العربية نحو شمال إفريقيا وشرقها وجنوبها الشرقي.

مكانة الحُجّاب الأمويين بالأندلس في الحياة الأدبية والعلمية

(138-422هـ/ 756-1031م)

الدكتور وهراني قدور، جامعة تلمسان الأستاذ رزقي عبد الرحمن، جامعة تلمسان

ملخـص:

امتاز الحجاب الأمويون بالأندلس بالكثير من الخصائص الإيجابية وبالعديد من المهارات الفردية فبالإضافة إلى النباهة والذكاء والفراسة فقد عرفوا بالفروسية والقوة والقدرة على القتال وقيادة الجيوش، واتخاذ القرارات المناسبة والموفقة، بالإضافة على التحكم في اللغة والتفوق فيها فكان منهم الشاعر الحكيم، والناثر الخطيب، وسنستعرض في هذا المقال مجموعة من الحجاب الذين عرفوا بنباهتهم العلمية والأدبية، وما مدى تأثيرهم على أداء مهامهم.

الكلمات المفتاحية: الحجاب، الأمويون الأندلس، الأدب، اللغة، الشعر.

Abstract:
The chamberlains of Umayyad Spain were distinguished by many positive qualities and unique skills in addition to vigilance, intelligence, and their keen powers of discernment. They were also known for their chivalry and strength and ability as fighters and leaders of troops and their capability of making the appropriate decision. They had an excellent command of language both prose and verse. In this article we will present a number of chamberlains who were famous for their intellectual and literary prowess, and the extent of its influence on the execution of their duties.

Key Words: Chamberlain, Umayyads, Andalus, literature, language, poetry.

عرفت الأندلس في العهد الأموي (**138-422هـ/ 756-1031م**) منصب الحاجب في أرقى أشكاله وأكثره تطورا، فقد كان الحاجب بمثابة المشرف على عمل الوزراء والمكلف بتقييم عملهم وعرض عملهم على الأمير أو الخليفة، ولا شكّ أنّ الوصول إلى هذا المنصب المهم كان يتطلّب مميزات ومؤهِّلات أدبية وذهنية وشخصية مختلفة تظهر فيمن يريد الوصول إلى هذا المنصب، فتساعده على أداء الأمثل لمهامهم بل تجعله يقوم بها ببراعة تامة.

فقد تميَّز الحاجب "عبد الرحمن بن عبد الواحد بن المغيث" بمقدرته العسكرية الفائقة وقيادته للصوائف والحملات ضد المماليك النصرانية في الشمال[1]، بالإضافة إلى أنّه تولّى الكتابة

للأمير عبد الرحمن الأوسط[2]، وقد كان بحقّ كما وصفه ابن حيان: «أكمل من حمل هذا الاسم (الحاجب)، وأجمعهم لكل جملة حسنة»[3].

وقد كان هذا الحاجب شاعراً مُفوَّها، وأنشد له "ابن حيان" في رثاء "الحكم بن هشام" وتهنئة ولده الأمير "عبد الرحمن بن الحكم" بالحكم الأبيات التالية:

كــان الزمـان مرزأ بخليفة — أودى فكــــاد نهارنا أن يظلمـا

حتى إذا قعد الإمام لبيعـة — كالغيث شـــح بوابلـه ثم انهمى

لله أية بيعــة ما أعظمـــا — وأجـل فخرا في الأنام و أفخما

أعطت قريش بيعة مرضية — لإمامها الملك الكريم المنتمي

وبدا كمثل البدر ينصدع الدجى — عنــه ويكشف نوره ما أبهمــا

لله أنت أبو المطرف في الوغى — ولخائف ولمعتف قد أعدما[4].

ومن أهم ميِّزات الحاجب "عيسى بن شُهيد" حسن اختياره لوزراء حكومته ورجال خدمته مما جعله موفّقاً في عمله ، وقد حرص على إسداء النصح لهم بما يُحَسِّنُ من مستوى آدائهم لمهامهم، ثم رعايتهم حتى يصلوا إلى مراتب الدولة[5]؛ فقد نصح "عبد الواحد الاسكندراني"، بالإمساك عن الغناء ، ثمَ قَرَّبَهُ من الأمير عبد الرحمن الأوسط فاستندمه، ولم تزل عنايته تصحبه حتى ولاّه الوزارة والمدينة[6]؛ وكان قد أُعجب بطريقة عمل كاتبٍ عيَّنه حين خرج إلى إشبيلية غازياً، وهو "محمد بن موسى الغافقي"، فصحبه معه إلى قرطبة واستوزره[7]، ولم يتوقّف أمره عند هذا الحد؛ بل أصبح وكيل ولي العهد الأمير "محمد بن عبد الرحمن"[8]. وسر إعجاب الحاجب بعمل الكاتب هو حبه للأدب لأنّه لا يمكن له إتقان عمله دون أن تكون له موهبة أدبية كبيرة.

وكان الحاجب "هاشم بن عبد العزيز" مميزاً كذلك، فقد وصفه "ابن الأبّار" قائلاً: «واجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة»[9]؛ لكن رغم كل هذا المديح فقد نسب إليه الكثير من المُؤرخين سبب الفتنة التي حدثت زمن الأمير "محمد"، وذلك لسوء تصرّفه[10].

ولهاشم في مدينة "إلبيرة" يذم وروده عليها وهي مكان أوليته:

إذا نحن رحنا عنك يا شر بلدة فلا سقيت رباك صوب الرواعد

ولا زال سوط من عذاب منزل على قائم من ساكنيك وقاعد

فأجابه فتى من أهلها المتأدبين:

لقد حرم التَّوفيق من ذم بلدة يروح بها في نعمة وفوائدِ

ومن يتمنى سوط خِزْيٍ منزل على قائم من ساكنيها وقاعد

فإن كنتم لم تحمدوا ما اختبرتم فكل لكل لائم غير حامد[11].

وله شعرٌ كتب به إلى الوزير وليد بن غانم[12]، وهو في أسره:

فكم غصة بالدمع نهنهت خوف أن يسر بما أبديه شنان كاشح

تحاملت عنه ثم نادمت في الدجى نجوم الثريا والدموع سوافح[13].

وكان سبب نكب الأمير "المنذر" لحاجبه هاشم أبيات من الشعر رثا بها الأمير "محمد"؛ وكان له من الشعر الكثير يستعطف به الأمير بعد سجنه:

وإني عداني أن أزورك مُطبــــق وبابٌ منيع بالحديد مُضَبَّـــــبٌ

فإن تعجبي يا عـــاج ممَّا أصابني ففي ريب هـذا الدهر ما يتعجـــب

وفي النفس أشيـــاء أبيت بغمّها كأني على جمر الغضا أتقلــــب

تركت رشاد الأمر إذ كنت قـادراً عليه فلاقيت الذي كُنت أرهـــب

وكم قائلٍ قال انج ويحك سالماً ففي الأرض عنهم مُستراد ومذهب

فقلت لــــــه: إنَّ الفرار مذلةٌ ونفسي على الأسواء أحلى وأطيب

سأرضى بحكم الله فيما ينوبُني وما من قضاء الله للمرء مهرب

فمن يَكُ مسروراً بحالي فإنه سينهل في كأسي وشيكاً ويشرب[14].

وقد كان الحاجب "جعفر المُصحفي" من أهل الأدب البارع، وله شعر كثير يدل على طبعه وسعة أدبه[15]، فقد أنشد يهنِّئ الخليفة "الحكم المُستنصر" على ميلاد ولي العهد "هشام":

هنيئاً للأنـــام وللإمـــــام كريم يستفيد على كــــرام

مُرَجًّى للخلافة، وهو ماء ومأمول لآمال عظـــــام

أضاء على كريمته ضياه   فلم تعلم بغاشية الظلام

ولم لا يستضاء بجانبيها   وبين ضلوعها بدر التمام[16]

وله في وصف سوسنة قائلاً:

يا ربُّ سوسنة قد بتُّ ألثمها   وما لها غير كعم المسك من الريق

مصفرة الوسط مبيض جوانبها   كأنها عاشـــق في حجر معشوقٍ[17].

ووصف تفاحة بقوله:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي وَمَا حَوَتْ   فَأَنْـتَ بِهَـــا مِنّي أَحَقُّ وَأَمْلَكُ

وَلَكنّي أُهْـــدِي التي لا تَرُدُّهَـــا   يمينُ ولاَ فيهَا لذي اللحظ مَتْرَكُ

تناولتُهـــا من غُصنهـــا وكأنّهـــا   من الحسن ذاك الناجم المتفلك[18].

ووصف سفرجلة قائلاً:

ومصفرة تختالُ في ثوب نرجسِ   وتعبق عن مسك ذكيّ التنفسِ

لَها ريحُ محبوب وقسوةُ قلبه   ولونُ محبٍّ حُلةَ السقمِ مكتَسِ

فصُفْرَتها مِنْ صُفرتي مُستعارةٌ   وأنفاسُها في الطيب أنفاس مُؤْنسي

فلمَّا استتمت في القَضيبِ شَبَابَهَا   وحَاكَتْ لها الأَنْوَاء أبرادَ سُنْدُسِ

مددتُ يدي باللُّطْفِ أبغِي اقْتطافَها   لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي

وكَان لها ثَوْبٌ من الزَّغْب أغبرٌ   يَرِفُّ عَلى جسمٍ من التبر أملس

فلمَّا تعرَّت في يدي من لباسها   ولم تبق إلا في غلالة نرجس

ذكرتُ بها من لا أبوح بذكرهِ   فأذبلها في الكف حر تنفُّسي[19].

فلمَّا نكبه الحاجب الذي خلفه "محمد بن أبي عامر" وسجنه، استعطفه واستشفع كثيراً فلم ينل شفاعة:

عَفَا اللهُ عَنْكَ أَلاَ رَحْمَةٌ   تَجُودُ بِعَفْوِكَ إِنْ أَبْعَدَا

لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أعْتَمِدْهُ   فَأَنْتَ أَجَلُّ وَأَعْلَى يَدَا

أَلَمْ تَرَ عَبْداً عَدَا طُورَهُ   وَمَوْلًى عَفَا وَرَشِيداً هَدَى

أَقِلْنِي أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ   يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى[20].

وبلغهُ أن أقواماً توجعوا له، وتفجعوا مما وصله، فكتب إليهم:

أحنُّ إلى أنفاسكم فأظنها　　　بواعث أنفاس الحياة إلى نفسي

وإن زماناً صرت فيه مفنداً　　　لأثقل من رضوى وأضيق من رمسي[21].

وقد كان "المنصور ابن أبي عامر" أشهر الحُجاب دون منازع، فقد تميز بطموحه الذي فاق به الآفاق. فتسلق سلَّم المجد درجة درجة حتى وصل إلى مبتغاه فحقّق مناه، وحكم الأندلس دون أن يشاركه في ذلك أحد حتى الخليفة نفسه. وقد اجتمعت فيه صفات ومميزات عديدة تفوق الحصر؛ ومنها سعة علمه فقد عين في منصب القضاء وكان لا يُعين فيه إلا مُتفقه في الدين.

«وقد كان لـ "ابن أبي عامر" لما تولى تمكن من الحكم مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة»[22].

وقد اعتنى وتشدَّد في جودة الكتب التي تبعث إليه من خلال جودة النص ونوعية المداد، حتى لقد أصدر عهدًا يوبِّخ فيه العُمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا إحكام الخط وتمييز أنواع الرق والمداد، وهدَّد من يكتب في رقِّ رديء أو مداد دني أو خط خفي فيه لحن أو بشر فإنه معزول وسيغرم المال الذي ذُكر في الكتاب[23].

«وبلغ من إفراط حبه للغزو أنّه ربما خرج للمُصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره به أولاً فأولا، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر. غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة وقد ذكرها ابن حيان في كتابه "المآثر العامرية"، واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثارها فيها؛ وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم»[24].

«وكان في أكثر زمانه لا يُخل بأن يغزو غزوتين في السنة، وكان كلما انصرف من قتال العدو يأمر بأن يُنفض غبارُ ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال، وأن يجمع ويُحتفظ به؛ فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه بعد وضعه في قبره»[25].

وكان كمن سبقه من الحُجَّاب ناظماً للشعر، فقد قال مُفتخراً:

رميت بنفسي هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم مخاطر

وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسمر خطي وأبيض باتر

ومن شيمي أبي علي كل طالب أجود بمال لا تقيه المعاذر

وإني لزجاء الجيوش إلى الوغي أسود تلاقيها أسود خوادر

لسدت بنفسي أهل كل سيادة وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا المعالي بالعوالي حديثه وأورثناها في القديم معافر[26].

وهكذا امتاز الحُجَّاب بالأندلس بشخصيات قوية، وكانت قوّتهم مستمدّة من تنوّع معارفهم وتجاربهم، فكان منهم الشاعر البليغ، والقائد المُحنك، والذكي المُقدّر لعواقب الأمور، وكانت الحجابة منصباً إدارياً له قوانين تضبطه، فخُصِّص له راتب معين، وعُيِّن له موقع معروف في الاحتفالات والاستقبالات.

الهوامش:

---

1 - ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية،1992، ج4، ص154.

2 - ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق: محمود علي مكي. بيروت: دار الكتاب العربي، 1393هـ/1973م. القطعة 02، ص170.

3 - نفس المصدر. ص165.

4 - ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985، ج1، ص135.

5 - ابن حيان، المقتبس، ق02. ص169.

6 - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب: بيروت القاهرة، 1989، ص89.

7 - نفس المصدر، ص 90.

8 - نفس المصدر، ص93.

9 - ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص137.

10 - ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق:د. شوقي ضيف. ط02، القاهرة: دار المعارف، 1963. ج 01، ص53.

11 - ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص142.

12 - وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ولي للأمير محمد بن عبد الرحمن خطتي الوزارة والمدينة وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن محمد وذكر ابن حيان من وفور هذا الجيش ما يستغرب واختص وليد هذا بصداقة هاشم بن عبد العزيز وإياه خاطب من موضع أسره دون الوزراء وهو قام بعذره عند الأمير محمد فشكر وفاؤه وكان كاتبا أديبا مرسلا بليغا وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر ومحمد أبعدهما شأوا في ذلك وقد عاشر المطرف ابن الأمير محمد على الأدب وكاتبه بالشعر وولي المدينة والوزارة والكتابة وارتفع قدره في الدولة، وتوفي وليد في شعبان سنة اثنتين وسبعين ومائتين، ابن الأبار، الحلة السيراء. ج2، ص374.

13 - ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص141.

14- ابن الأبار الحلة السيراء. ج1، ص140. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة). عمان: دار الشروق. ط1، 1997. ص89. عمر فروخ، المرجع السابق، ج4، 134.

15 - عبد الواحد المُراكشي، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية(لجنة إحياء التراث)، 1383هـ/1963م. ص62.

16 - المراكشي ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب. بيروت: مكتبة صادر، د.ت. ج02، ص353.

17 - ابن الأبار، الحلة السيراء.ج1، ص261. إحسان عباس، المرجع السابق. ص96.

18 - ابن خاقان، أبو النصر الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق مديحة الشرقاوي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. ط01، 1422هـ/ 2001م. ص60. ابن الأبار، الحلة السيراء.ج1، ص261.

19 - ابن خاقان، المصدر السابق. ص59. ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص262.

20 - إحسان عباس، المرجع السابق. ص90.

21 - ابن خاقان، المصدر السابق. ص64.

22 - المراكشي، المصدر السابق. ص83.

23 - إحسان عباس، المرجع السابق. ص96.

24 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق. ص83.

25 - نفس المصدر. ص84

26 - نفس المصدر، ص275. عمر فروخ، تاريخ الادب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، دار العالمين بيروت، 1984، ج4، ص317.

المصادر والمراجع:

- ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985، ج1.

– ابن خاقان، أبو النصر الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق مديحة الشرقاوي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. ط01، 1422هـ/ 2001م.

– ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق: محمود علي مكي. بيروت: دار الكتاب العربي، 1393هـ/1973م. القطعة 02.

– ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1،بيروت: دار الكتب العلمية،1992، ج4.

– ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق:د. شوقي ضيف. ط02، القاهرة: دار المعارف، 1963. ج 01.

– عبد الواحد المُراكشي، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية(لجنة إحياء التراث)، 1383هـ/1963م.

– ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب: بيروت القاهرة، 1989.

– إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة). عمان: دار الشروق. ط1، 1997.

– عمر فروخ، تاريخ الادب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، دار العالمين بيروت، 1984، ج4.

التسامح والتعايش بين المسلمين وأهل الذمة ببلاد الأندلس

إلى نهاية عصر المرابطين 92-520 هـ /711-1126م

د/ خالد حسين محمود، جامعة عين شمس، جامعة الحائل، مصر

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن التسامح وقضايا العيش المشترك بين المسلمين وأهل الذمة ببلاد الأندلس الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، بهدف دحض افتراءات بعض الكتاب الذين أهدروا "التاريخية" لحساب الأهواء الدينية والرؤى السياسية، فراحوا يبالغون في تصوير الاضطهاد الذي تعرض له أهل الذمة في مختلف أقطار العالم الاسلامي وعلى مدى التاريخ، متجاهلين ما انطوى عليه الشرع الاسلامي من مبادئ قويمة للتعايش السلمى، وإنماء العلاقات الودية بين جميع الشعوب على اختلاف الانتماءات الدينية والمذهبية والعرقية والطائفية، تعزيزاً للعمل الجماعي المشترك لما فيه الخير والسعادة للإنسانية. وتم رصد بعض مظاهر التعايش السلمي بين والمسلمين وأهل الذمة على مستوى التعايش الاقتصادي-الاجتماعي وتبادل العلاقات والتأثير والتأثر، أو على مستوى احترام العقائد والمقدسات وصيانة دور العبادة، أو على مستوى المشاركة الفكرية والعلمية، اعتماداً على النصوص المصدرية الأصلية، والتركيز بشكل كبير على النوازل الفقهية والتي تعكس الحياة اليومية بواقعية تامة.

Research Summary:

This research seeks to detect about tolerance and the issues of communal living between Muslims and Dhimmis in Al-Andalus to the end of the era of Almoravids; In order to refute the calumnies of some writers who have squandered " The historical" because of the political visions and religious prejudices. They exaggerated in photographing the persecution suffered by the Dhimmis in the

various countries of the Islamic world, throughout history. They ignored the Islamic law of unorthodox Principles of Peaceful Coexistence, and develop friendly relations among all peoples with different religious, sectarian, ethnic. Furtherance of the joint collective action that which is good and happiness of humanity. This research detected some semblance of peaceful coexistence between Muslims and Dhimmis on the level of social - economic coexistence, and exchange relations, impact and influence, Or on the level of respect for the beliefs and sanctities and maintenance of places of worship, Or at the level of intellectual and scientific participation, depending on the original source texts, and focus heavily on the jurisprudential events,that reflect the daily life completely realistically.

تمهيد:

انطوى الشرع الإسلامي – ذي الأبعاد العالمية- على مبادئ قويمة للتعايش السلمى وإنماء العلاقات الودية بين جميع الشعوب على اختلاف الانتماءات الدينية والمذهبية والعرقية والطائفية؛ وأُعْطى غيرُ المسلمين عهود الأمان داخل دار الإسلام، فعاشوا مواطنين يسرى عليهم ما يسرى على المسلمين من التمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات دون تفرقة أو تمييز، باستثناء ما تستوجبه أمور العقيدة الإسلامية أو يحتمه أمن الدولة المسلمة[1].وهكذا، ظل العالم الإسلامي خلال معظم عصوره يشكل نموذجاً للتسامح والتعايش[2]بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والملل ، لتنصهر ضمن وحدة اجتماعية تميزت بخصائص حضارية مشتركة وانسجام اجتماعي ملحوظ، رغم ما كان يظهر أحيانا من نعرات التعصب والتحيز، إلا أنها ظلت في التحليل الأخير استثناءات ونتوءات في هذا التاريخ[3].

لم يشذ المجتمع الأندلسي خلال العصر الوسيط عن تلك القاعدة؛ فقد عاش فيه "النصارى واليهود إلى جانب المسلمين في مجتمع واحد يسوى فيه بينهم في جميع الحقوق والواجبات..تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد"[4].وهو ما تسعى تلك الدراسة إلى كشفه وتبيانه، من خلال رصد واقع التعايش والتسامح الذي ساد بين مسلمي الأندلس وأهل الذمة

خلال تلك الفترة، وذلك بهدف دحض مزاعم المتحاملين من الباحثين، والذين كالوا للمسلمين بالأندلس تهمة التعصب الشديد تجاه أهل الذمة واضطهادهم ومعاملتهم معاملة لا إنسانية[5].حقيقة إن يهود الأندلس على وجه الخصوص تعرضوا لبعض الاضطهادات خلال ذلك العصر، لكنها كانت ردة فعل طبيعية تجاه خيانتهم وتآمرهم وتجاوزاتهم كما سيتضح لاحقاً.

تستلزم دراسة موضوع التسامح والتعايش بين الشعوب والأديان الاحتياط والتحفظ مما جاء في بعض المرجعيات الفقهية، والتي تلون خطابها –في الغالب الأعم– بنبرة من التعصب والتشدد تجاه بعض الطوائف الدينية، والتي لا تنم عن طبيعة الدين السمحة، بقدر ما ترتبط بعوامل هيكلية فرضت موقفاً صارماً متشددا، وتستوجب في المقابل الاحتكام إلى الواقع التاريخي الذي يثبت أن المجتمع الأندلسي تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الفقهاء، وتعامل المسلمون مع كل الطوائف الأخرى على أساس مبدأ الانفتاح على الآخر، بعيداً عن كل أشكال الاستعلاء والتميز، متجاوزين التحذيرات الفقهية التي تشدد على عدم التعامل مع أهل الذمة أو التداخل معهم[6].وهو ما ينسحب أيضا على أهل الذمة الذين تجاهلوا القيود التي فرضها رجال دينهم، واندمجوا في المجتمعات الإسلامية التي عاشوا فيها[7].

لقد تعاملت المؤسسة الفقهية بالأندلس مع أهل الذمة باعتبارهم مواطنين لهم حقوق المواطنة، فقد نقل الفقهاء عن ابن حزم فتواه بأنه إن تعرض أهل الذمة داخل المجتمع لعدوان خارجي فعلى المسلمين "قتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله"[8]، كما أكد ابن سهل أن جميع سكان الأندلس على اختلاف مللهم "في الحقوق سواء"[9].

لا يمكن قبول دراسة وضعية أهل الذمة في الأندلس باعتبارهم أقلية في مواجهة أغلبية مسلمة، أو القول بانعزالهم في أحياء خاصة عن المحيط الإسلامي، بل خلافاً لذلك، عاش أهل الذمة بالأندلس باعتبارهم عنصراً وطنياً، وتمتعوا بكامل الحقوق وبكافة الامتيازات[10]، واندمجوا مع غيرهم

من السكان في منظومة النشاط الاقتصادي، وشاركوهم في مناحي الحياة الاجتماعية وألوان العطاء الفكري والمعرفي، وهو ما اعترف به وأكد عليه باحثون غربيون[11].

أكدت المعطيات المصدرية على تعايش اجتماعي مشترك ربط بين المسلمين وأهل الذمة بالأندلس، امتزجوا من خلاله في كل الأماكن المستوطنة بالأندلس، فما أن استقر المسلمون بالأندلس، حتى عاهدوا أهل الذمة فاندرجوا في سلك "أهل الطاعة المستمسكة بالجماعة"[12]، وسمح لهم بالسكنى في مواضعهم التي كانوا فيها "يعالجون فلاحة الأرض، وعمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومداراة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم"[13]، وعاشوا في قرطبة بجوار قصر الخلافة والجامع الكبير، ونسب لهم فيها بعض المواضع[14]، كما تواجدوا في شلب[15]، والبيرة[16]، وإشبيلية، وطليلطلة[17] ،وأليسانة[18]، والمرية[19]، وماردة [20]، وسرقسطة[21]، وطركونة[22]، ودانية[23]، ومرسية[24]، وبلنسية[25]، ورندة[26]، ووشقة[27]، وبيانة[28]، ناهيك عن القرى التي شهدت اختلاطاً بين المسلمين وأهل الذمة[29].

ونتيجة لسياسة التسامح هاته سرعان ما تحولت الأندلس إلى مركز استقطاب لعناصر وافدة من أهل الذمة من مختلف الأصقاع، بل صاروا أغلبية بين سكان بعض المناطق؛ حتى أنها نسبت إليهم[30]، وتكفي الاشارة إلى "روطة اليهود"[31]، واليسانة التي عرفت بـ"مدينة اليهود"[32]، كما عرفت بـ"غرناطة اليهود"[33]، لكثرة أعدادهم بها[34]، وهو ما ينطبق على بجانة التي كان "أهلها يهود"[35]، وطليطلة التي كان بها "يهود كثيرة[36] قدرهم بينارت[37]خلال القرن الخامس الهجري/11م بنحو أربعة ألاف نسمة.

شارك أهل الذمة بالأندلس في العديد من الأنشطة الاقتصادية، وهو ما دفع الفقهاء لمناقشة التفريعات الفقهية لأنواع الشراكة بين المسلم والذمي[38].فقد اشتغل أهل الذمة بالفلاحة وزراعة الأرض وامتلكوا الحقول والكروم[39]، وعملوا بالنجارة والجزارة[40]وصناعة الخبز والصياغة[41] والدباغة

والصباغة، وصناعة الخمور[42]، والخياطة، ودباغة الجلود، وصناعة الأحذية، ونسج الأقمشة، والدلالة، ونسخ الكتب وتجليدها، وعملوا كأساكفة، وحمالين وكيالين[43]، ومارسوا البيع والشراء بالأسواق[44]، وهو ما أكدته أمثال العامة[45]. كما حظي اليهود بأهمية كبرى في مجال التجارة[46]، وتشير الوثائق إلى امتلاك يهود طليطلة حوانيت تجارية داخل مركز المدينة التجاري[47]، وهو ما ينسحب على يهود إليسانة الذين حققوا من التجارة أرباحاً طائلة جعلتهم أكثر غنى وثراء من غيرهم[48]، وذكر جوايتاين[49] أن أموال اليهود وبضائعهم كانت تودع طرف رجال الأعمال المسلمين الذين كانوا يسافرون بها مع القوافل أو بالسفن. وورد في إحدى وثائق الجنيزة نص رسالة أرسلها أحد يهود الأندلس إلى يهودي آخر جاء فيها:" إذا كانت هناك قافلة، وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرَّمْ بإرسالِ البضائع معهم"[50]، وكان اليهود يزورون بيوت شركائهم المسلمين ويهنئونهم في أيام الأعياد[51].

لم تفرض السلطة الاسلامية بالأندلس خلال فترة البحث على أهل الذمة السكن في أحياء خاصة، وأعطتهم حرية التنقل والاستقرار، وهو ما أدى إلى تجاور دور المسلمين وأهل الذمة، ، ففضلا عن الأمثال الشعبية التي تشير دلالاتها إلى تأكيد ذلك المعنى[52]ترد إشارات عمن "كان له جار نصراني"[53]، وعن ربض باليسانة اشترك في سكناه "المسلمون وبعض اليهود"[54]، وعن يهودي سكن درباً ليس فيه إلا المسلمين[55]، وعن وصي باع دارا ليتيم مسلم كانت داخل دور اليهود[56]، وعن مسلم باع داره ليهودي[57]، وتشير رواية الطرطوشي[58] إلى أن الفقيه ابن الحصار القرطبي كان له جار نصراني "يقضي حوائجه وينفعه، فكان الفقيه يكثر أن يقول له: أبقاك الله وتولاك، أقرا الله عينك! يسرني والله ما يسرك! جعل الله يومي قبل يومك". وكان لليهود دار عبادة وسط حي إسلامي[59]، وجرت العادة بتأجير اليهود دوراً للسكنى من المسلمين والنصارى[60]، ويؤكد جوايتاين[61] أن "بيوت اليهود كانت متاخمة لبيوت المسلمين وبيوت المسيحيين، فلم يكن هناك جيتو، ولكن على العكس من ذلك كانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومي".ولا أدل على تجاور بيوت

المسلمين وأهل الذمة من فتوى الجرسيفي بأن "يمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم والتكشيف عليهم"[62].

ولما كانت المجاروة واقعاً مألوفاً وأمراً معتاداً أجاز الفقهاء لليهود بناء دورهم بجوار دور المسلمين[63]، وأجازوا أن يكرى المسلم داره لنصراني أو يهودي[64]، وأوجبوا عليه الوفاء بحقوق الجوار مثل المخالطة وقضاء الحاجة ولين القول[65]، كما ناقشوا مسالة شهادة نساء أهل الذمة على ولادة النساء المسلمات من جيرانهن[66].

استلزم ذلك التجاور والتداخل الاجتماعي احترام حقوق أهل الذمة الاجتماعية، فسمح لهم بصناعة الخمر وشربها والمتاجرة فيها[67]، وبالاستفادة من مياه الآبار التي حفرها المسلمون[68]، ومن مياه آبار المساجد[69] وبامتلاك الحمامات[70]، وشارك المسلمون لجيرانهم من أهل الذمة في احتفالاتهم وأعيادهم الدينية[71]، رغم المحاذير الدينية التي كانت تطلقها أفواه الفقهاء الذين اعتبروا ذلك بدعة[72]. كما جرت عادة اليهود توزيع الفطير على زوارهم من جيرانهم المسلمين في عيد الفطير اليهودى[73]، وكان أهل الذمة يتبعون جنائز المسلمين[74]، ويذهبون إلى مقابرهم[75]

بلغت درجة التمازج هذه أن اتخذ أهل الذمة من جيرانهم المسلمين شهوداً يستندون إليهم في القضايا التي تتعلق بخصومات ضد إخوانهم اليهود[76]، كما مثلت عملية السلف والدين التي كانت تتم بين المسلمين وجيرانهم من أهل الذمة صورة من صور هذا التعايش والتمازج[77].

تجلت مظاهر التمازج الاجتماعي والتعايش بين المسلمين وأهل الذمة في الزواج والمصاهرة، حيث تشير المصادر إلى نكاح المسلمين من نساء أهل الذمة[78]، ويبدو أن شيوع ذلك كان وراء اهتمام كتب السجلات والوثائق بصيغ عقود نكاح الكتابية والاقرار بأن "عقد نكاح الكتابية كعقد نكاح المسلمة"[79]، كما صدرت التشريعات والفتاوى الفقهية التي تنظم عملية الزواج من الكتابيات[80].وظهر التأثير الإسلامي واضحاً في عقود الزواج أهل الذمة مثل تقسيم عملية الدفع إلى

مقدم يدفع للزوجة عند العقد ومؤخر في حالة الترمل أو الطلاق[81]، كما تماثلت عقود زواج اليهود مع عقود الزواج الإسلامية فيما يخص اشتمالها على شروط تتعلق بعدم اتخاذ الزوج زوجة أخرى على زوجته أو التسري عليها، أو السفر بها دون رضاها[82]، مما حدا بفقهاء المالكية إلى الفتوى بأنه يكره أن يعقد "نكاح أهل الكتاب على شروط المسلمين"[83].كما طبق النظام الإسلامي على عقود الزواج اليهودية بأن كانت تكتب وثيقتان للزواج الأولى يهودية والثانية إسلامية[84].

شكل الزي وجهاً آخر للتعايش المشترك بين المسلمين وأهل الذمة، فقد سئل الفقيه الأندلسي أبو بكر بن العربي عن رجل "يُعَمَّمُ ويتختَّم ويركب السروج على فاره الدواب، ويقعد في حانوته من غير غيار ولا زنار، ويمشي كذلك في الأسواق بغير غيار يعرف به، بل بأفضل زيِّ كبار المسلمين وأحسنه"[85]. كما تشبهت النساء اليهوديات بلباس المسلمات إلى حد بعيد حيث لم يكن لهن زي يعرفن به من المسلمات[86]، وهو ما أكدته وثائق الجنيزة[87].ولعل في فتاوى الفقهاء بضرورة إلزام أهل الذمة لا سيما في الأمصار الكبار بتغيير " أطرافهم أو اتخاذ علم يتميزون به"، وأنه يمنع عليهم " ركوب الخيل بالسروج، والزيّ بما هو من زيِّ المسلمين، أو بما هو من أئمة، وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين، كالشكلة* في حقِّ الرجال، والجلجل في حقِ النساء"[88]ما يؤكد على أن الواقع كان خلاف ذلك، وأن الهدف من ذلك إنما هو تمييز أهل الذمة "لاختلاطهم بالمسلمين في تصرفاتهم ومخاطباتهم وخصومتهم وبياعاتهم"[89].وفي المقابل تأثر المسلمون بلباس أهل الذمة، فتشير المصادر إلى علي بن مرديش أمير شرق الأندلس إبان العصر المرابطي والذي "مال إلى اتخاذ زي الروم"، ويبدو أنه كان أمراً شائعاً حتى أن المقري[90] ذكر أنه كان كثيراً ما يتزيا أمراء وأجناد الأندلس "بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم ..كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم"

كان الطعام مظهرا آخر من مظاهر المشاركة بين المسلمين وأهل الذمة، فقد كان اليهود يقدمون للمسلمين الفطير المحشو بقطع الدجاج، والهريسة المصنوعة من الدقيق واللحم المقطع[91]،

وتجلى تأثر الأندلسيين باليهود في مجال الطعام في شيوع ألوان خاصة من الأطعمة تنسب إليهم منها: "لون من فروج يهوديّ"[92]، "ولون يهودي محشو مدفون"[93]، و"لون من حجلة يهودي"[94]، وتشير احدى الروايات إلى تلبية المسلمين دعوات أهل الذمة لتناول الأطعمة معهم[95].

ربطت علاقات مودة وصداقة بين مسلمي الأندلس وأهل الذمة، فحين صدرت الأوامر بالقبض على الفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري بعد حادثة الربض، نجح في الهروب والاختفاء عند صديق له يهودي لمدة عام[96]، وكان ابن حزم الظاهري صديقاً للطبيب اليهودي إسماعيل بن يونس ودائماً ما كان يزوره في دكانه بالمرية[97]، وكان الفقيه أبو الفضل بن الدباغ صديقاً للوزير حسداي بن يوسف[98] وامتدح صاعد الأندلسي[99] اسحاق بن قسطار اليهودي وذكر أنه كان يجالسه كثيراً، كما سئل ابن سهل عن رجل مسلم من أعيان قرطبة يدعى أبو الخير كان له صديق نصراني يأكل معه[100]، ويذكر ابن سعيد أنه كان صديقاً لإبراهيم بن سهل الاسرائيلي وكانا يتنزهان سوياً إلى مرج الفضة باشبيلية وكانا يتشاركان الشعر[101].لذلك حق لبيرنت[102] القول بأن هذا العصر شهد "تسامح ديني وسياسي كبير وظهر تعاون وثيق بين علماء ينتمون إلى أجناس وأديان مختلفة". وبلغت تلك الصداقة من المتانة والثقة والاطمئنان أن المسلمين كانوا يحملون أصدقائهم من أهل الذمة رسائل غاية في الخصوصية ليقوموا بتوصيلها للمرسلة إليهم[103].

انعكس هذا الذوبان في النسيج الاجتماعي في مشاركة مسلمي المغرب الأدنى لليهود في معظم احتفالاتهم الدينية، وهي مشاركة روحية أفرزتها قرون عديدة من التعايش رغم المحاذير الدينية التي كانت تطلقها أفواه بعض الفقهاء الذين اعتبروا مشاركة اليهود في أعيادهم بدعة[104]، وجرت عادة اليهود على توزيع الفطير على جيرانهم المسلمين في عيد الفطير اليهودي[105]، كما تكشف وثائق الجنيزة عن زيارات قام بها اليهود إلى جيرانهم وشركائهم المسلمين وتهنئتهم في أيام المواسم والأعياد[106]، وأكد ابن خاقان[107] أن "قرع النواقيس يبهج أهل قرطبة".

ثمة نصوص تكشف عن علاقات عاطفية جمعت بين المسلمين ونساء أهل الذمة، حيث كان يتردد الشباب المسلم على الكنائس لرؤية عشيقاتهم النصرانيات[108]، كما يشير ابن بسام إلى ابن الحداد النميري الوادي آشي (ت480هـ/1087م) الذي هام حباً بصبية نصرانية " ذهبت بلبه كل مذهب، وركب إليها أصعب مركب، فصرف نحوها وجه رضاه، وحكمها في رأيه وهواه؛ وكان يسميها " نويرة " كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمن أحبوه، وتغيير اسم من علقوه"[109]، وحفل شعره الغزلي فيها بالمصطلحات النصرانية كالتثليث والإنجيل، والمسيح، والقس والصلبان والرهبان والنساك والكنائس والعيسويات والصوامع والبيعات والفصح[110]، وإيماناً منه بدين حبيبته لم يتردد في أن يقص قصة غرامه على القس عساه يزوجه بها وينقذه من الموت المحتم[111].

تمتع أهل الذمة بحرية العبادة، وسمح لهم ببناء دور عبادتهم ومؤسساتهم الدينية، واحترمت عقائدهم ومقدساتهم الدينية، فقد كان لليهود بالحواضر الأندلسية بيع[112] وشنوعات[113] نذكر منها الشنوعة التي كانت بحاضرة قرطبة[114]، و"بيعة سبت أخلج" بقرطبة[115]. ويشير ابن بسام[116]إلى ما انتشر في بلاد الأندلس من "كنائس وحانات"، ففضلاً عن قرطبة التي وجد بها عدة كنائس من بينها الكنيسة العظمة[117]، تناثرت بالأندلس "كنيسة روبية"[118] و"كنيسة أولية"[119] و"كنيسة الماء"[120] و"كنيسة الغراب"[121]، و"كنيسة الأسرى"[122]، وغيرها من الكنائس وأديار الرهبان المتناثرة بالبوادي والقرى والأرياف[123]. ورغم فتوى فقهاء الأندلس بمنع "إحداث أهل الذمة من اليهود والنصارى كنائس ولا شنوغات في مدائن الإسلام ولا بين ظهرانيهم"[124]، سُمح لأهل الذمة بإنشاء دور عبادات جديدة في الأماكن التي ترتفع فيها كثافتهم السكانية[125]، والاستفادة مما حبس عليها من الممتلكات والأراضي[126]، ولعل في افتخار المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي[127] بأنه لم تبن في عصر دولة الموحدين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، ما يدعو إلى القول بأنهم أبطلوا امراً كان معتاداً لدى السلطات التي حكمت بلاد الأندلس قبلهم. ولم يقتصر الأمر على البناء بل تميزت دور العبادة

بالإتقان والتنميق، فقد تميزت كنائس النصارى بـ «النواقيس... العالية وصروحها المتعالية"[128]، كما أفتى الطرطوشي[129] بمخالفة اليهود والنصارى الذين أمعنوا في زخرفة وتزيين دور عبادتهم.

ترك المسلمون لأهل الذمة تنظيماتهم الدينية والادارية والقضائية[130]، فقد ترك للنصارى نظام "القماسة"[131] الذي كان يتولى إدارته رجل عرف باسم "زعيم عجم الذمة"[132]، أو " قومس العجم[133] ، وينتخبه النصارى ليكون مسئولاً عن كل ما يتصل بأمورهم[134]، ومكلفاً من السلطة بجمع الجزية المفروضة وتقديمها نيابة عنهم[135]، وتعطي المصادر أسماء من تولى القماسة مثل : ابن القلاس[136]، و"أرطباس قومس الأندلس"[137]. وفضلاً عن هذا "القومس الأعظم"[138]، الذي كان مستقره بالكنيسة المعظمة بقرطبة[139] كان هناك قواميس صغار موزعين على كافة مدن الأندلس[140].وسُمح لأهل الذمة بالتأليف في شرائعهم وأحكام دينهم[141]، واشتغل بعضهم بصناعة المنطق[142]والعدد[143]والطب[144]والهندسة[145] "وسائر علوم الفلسفة"[146]، كما سمح ليهود اشبيلية بتكوين مكتبة خاصة جمعوا فيها الكتب والمؤلفات اليهودية من مختلف الأصقاع[147]

كما أُفردت لأهل الذمة محاكم خاصة تابعة لهيئة قضاتهم تعمل وفق تشريعاتهم بمساعدة الموثقين والعدول والوكلاء[148]، وهو ما تلح على تأكيده وثائق الجنيزة، التي كشفت أن غالبية القضايا المدنية كانت تنظر أمام محاكم يهودية[149]. كما استجاب الفقهاء إلى رغبة أهل الذمة في التقاضي فيما بينهم أمام القضاء الإسلامي[150]، شريطة موافقة رؤسائهم[151]، لا سيما في الحالات التي يثبت فيها أحد طرفي الخصومة أن القاضي على عداوة معه أو مع عائلته[152]، وهو ما حدا بالفقهاء إلى إلزام القاضي بعقد مجلس القضاء في رحبة المسجد "ليصل إليه اليهودي والحائض"[153]، وأن يجعل لهم يوما حسب أعدادهم [154]، ويشير ابن حزم[155]إلى الرسائل القانونية التي اعتمدها أهل الذمة في الأندلس في أحكامهم من تأليف البطاركة والقساوسة. كما وضع الفقهاء المسلمون المساطر القضائية الواجب اتباعها حال ورود قضية على هيئة اسلامية وأحد طرفي النزاع فيها من أهل الذمة[156].

كما كان لأهل الذمة مقابرهم الخاصة بهم تمشياً مع عقائدهم وتقاليدهم في دفن موتاهم، فقد كان بقرطبة "مقبرة اليهود" [157]، بل سمح لهم بإقامة مقبرة أخرى جديدة قرب مقبرة أم سلمة الاسلامية[158]، وكان بطرطوشة مقبرة لليهود تقع بالقرب من سور المدينة[159] وبمالقة مقبرة في الجزء الشرقي من المدينة[160] ومقبرة بماردة قرب وادي البرجس[161]

نالت حقوق أهل الذمة الدينية والمدنية احترام الحكام والمتنفذين، الذين لم يترددوا في الضرب على أيدي من حاول المساس بها، فقد أقدم علي بن يوسف بن تاشفين على عزل عامل غرناطة عمر بن ينالة عندما حضر لبلاطه مجموعة من نصارى المدينة يشتكون له ظلم عاملها لهم وتعديه على حقوقهم الدينية والمدنية[162]، كما لم يتوان القضاة في رد حقوق أهل الذمة التي اغتصبها منهم مسلمون دون وجه حق[163]، ونشير هنا إلى نازلة تحمل بين طياتها الطابع الانساني للقضاء الأندلسي تجاه أهل الذمة، فقد ماتت أم وتركت صبيتين مسلمتين وجدة أمهما نصرانية، وجدة الأب مسلمة، ووقع النزاع بينهما حول الحضانة، فجاءت الفتوى بأن الأولى بالحضانة الجدة "النصرانية وهي أحق من الجدة للأب وإن كانت مسلمة"[164].كما أفتى الفقهاء بأن المسلم يعاقب إن كسر آنية بها خمر لذمي[165].وكان عدل القضاة وانصافهم لأهل الذمة وراء إلحاح بعضهم على الاحتكام للقضاة المسلمين[166]، وهو ما كان يحدث خلافاً بين طرفي النزاع[167]، بل بلغت درجة احترام السلطة الاسلامية لحقوق أهل الذمة الدينية أن منح موظفوهم إجازات في أيام تعبدهم وأعيادهم الدينية[168].

كان من تجليات التسامح مع أهل الذمة بالأندلس فتح المجال أمامهم لتولي المناصب والوظائف، كالسفارة[169] ، والكتابة[170]، والوزارة[171]، وولاية المدن[172]، ونخص بالذكر الطبيب يحيى بن اسحاق الذي تولى في عهد عبد الرحمن الناصر "الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس وكان له من أمير المؤمنين الناصر محل كبير"[173]، وابن المرعزي النصراني الاشبيلي الذي نال حظوة في دولة المعتمد بن عباد[174]، واسماعيل بن نغدلة "وقد أصبح هذا اليهودي لحبوس على وزرائه، وكتابته،

وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة"[175]، وعين على بن يوسف بن تاشفين اليهودي سليمان بن المعلم طبيباً خاصاً له، وكان يحمل لقب الوزير الفخري، وكان هو والطبيب اليهودي إبراهيم بن كامينال وكيلين ماليين للدولة يعملان في مجال جمع الجزية المفروضة على اليهود، وقد أتيح لابن كامينال أن يكون وسيطاً قوياً لدى السلطة في حل مشاكل بني جلدته ، كما عمل على ترسيخ مصالحهم بقوة[176]، كما اتخذ من النصارى حرساً خاصاً له[177]، وكان لعمر بن علي بن يوسف كاتب يهودي، وقد عينه في هذا المنصب بالرغم من أنه كان مكروهاً لمسلمي غرناطة[178]. ولعل ما يؤكد على تقلد أهل الذمة مناصب ووظائف الدولة المرابطية تلك الرسالة التي بعث بها تاشفين بن علي إلى القضاة والفقهاء يأمرهم بعدم إسناد وظائف الدولة لأهل الذمة[179]. ونظراً لما ناله بعض أهل الذمة من قرب لدى السلطة، فقد لعب بعضهم أدواراً سياسة خطيرة، مثل اغتيال خصوم السلطة[180]، واستغلال فترات الفتن وضعف السلطة والاستقلال ببعض الولايات[181].

الراجح أن التسامح الديني الذي أبداه مسلمو الأندلس تجاه أهل الذمة، والسلوكات الحضارية التي تعاملوا بها معهم، حملت هؤلاء على ردود أفعال ايجابية، كان من أهمها حبس بعض أملاكهم لصالح المساجد والإنفاق على طلاب العلم وفقراء المسلمين[182]. بل لم يتردد بعضهم عن الإقبال على الإسلام واعتناقه، يقول ابن حزم[183]"شاهدنا من النصارى واليهود طوائف لا يحصى عددهم أسلموا وحسن إسلامهم"، وهكذا تتواتر التفاصيل عمن كان "يهودياً فأسلم"[184]، وعمن كان "نصرانياً فأسلم"[185]، وعن "رجل كان على دين النصرانية، فأسلم"[186]، و"غلام من النصارى يريد الاسلام"[187]، وعمن عرض الاسلام على "نصرانية ..فأسلمت"[188] وعمن "أسلم عبده النصراني"[189]، وعن "الذين أسلموا من أهل الذمة بإشبيلية"[190]. ولم يتوان عن ذلك حتى علماء أهل الذمة من أمثال أبي عمر يوسف بن صديق الذي تولّى قضاء اليهود في قرطبة من 430-439هـ=1047-1083م، وكان إسلامه في نهاية عصر المرابطين، وفي أواخرِ أيام حياته[191]. وتحتفظ كتب الوثائق والسجلات بفيض من "عقود إسلام أهل الكفر"[192]، التي أكدت صيغتها أن

المرء أسلم "طائعاً مناً على نفسه وماله غير مكروه ولا خائف أمراً ولا متوقعاً شيئاً"[193]، وإمعاناً في التسامح لم يعامل من أسلم وأراد الرجوع إلى دينه معاملة المرتد[194].

كذلك كان من نتائج المعاملة الطيبة والتسامح الذي تعامل به أهل الذمة بالأندلس أن أقبلوا على تعلم العربية والكتابة بها فمن المعروف أن "يهود الأندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية"[195]، ومنهم من "أحكم علم لسان العرب وبلغ الرتبة العليا في البلاغة"[196]، حتى قيل بأن الأدب قد انصرف في أهل الأندلس "كالغريزة حتى في صبيانهم ويهودهم"[197]، وتتواتر الاشارات عن "شعراء اليهود"[198]، وأدبائهم[199]، ووشاحيهم[200]. ومنذ منتصف القرن العاشر، وحتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي شهد الأدب اليهودي بالأندلس فترة نموه، ونضجه، وازدهاره نتيجة تأثره بالأدب العربي لا سيما في مجال الشعر[201].كما انتشرت اللغة العربية في أوساط المستعربين وظلوا يستعملونها حتى انتهاء الحكم الإسلامي بالأندلس[202]، ونستأنس هنا بترجمة ابن عبد الملك[203] للفقيه أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبدة حيث ذكر أنه "كان له مملوك من أبناء الروم قد علمه الكتابة فكان يكتب عنه كل ما يؤلف ويصدر عنه من نظم أو نثر".

صفوة القول: إن بلاد الأندلس مثلت خلال الحكم الإسلامي بوتقة انصهرت فيها عناصر السكان على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ودياناتهم على أساس وحدة المواطنة والانتماء، مما جعلها مثلاً صادقاً للتعايش والتسامح بين المسلمين وأهل الذمة، سواء على مستوى التعايش الاقتصادي-الاجتماعي وتبادل العلاقات والتأثير والتأثر، أو على مستوى احترام العقائد والمقدسات وصيانة دور العبادة، أو على مستوى المشاركة الفكرية والعلمية. مما يدحض تلك التخريجات التي نعتت الحكم الإسلامي بالتعصب والاضطهاد لأهل الذمة.

ورغم ذلك لا ندعي خلو تلك الفترة من مظاهر اضطهاد وتعدي لكنها كانت في الغالب الأعم موجهة ضد اليهود كردة لتهجمهم على المعتقدات الاسلامية وخيانتهم للمسلمين وتخابرهم مع

نصارى الشمال لمهاجمة المدن الأندلسية، فعلى سبيل المثال كانت ثورة المسلمين ضد يهود غرناطة وقتلهم لهم وانتهاب ديارهم عام 459 هـ/1066م كان ردة فعل لما قاسوه من جور وظلم خلال فترة وزارة ابن نغدلة وولده اسماعيل[204]، وما اشتهرا به من التهجم على القرآن وتعاليم الإسلام واضطهاد العلماء والفقهاء ونفيهم من البلاد[205]وسعيهما لإقامة دولة يهودية على حساب الحكم الإسلامي[206]، وكان عقاب اليهود ونفيهم من الأندلس عام 520هـ/ 1126م بسبب خيانتهم للمسلمين وتواطؤهم مع نصارى الأسبان لغزو غرناطة[207]، كما شاركوا معهم في غزو بلنسية[208]، وقاتلوا بجانبهم في معركة الزلاقة [209]، كما قاتلوا ضد المسلمين في معركة أقليش الشهيرة[210]، وهو ما حدا بالشعراء للتحريض على طردهم من البلاد[211]، وفي عام 529هـ قام اليهود بقتل مسلم ومثلوا بجثته "فاستطال المسلمون على اليهود، فنهبت أموالهم، وهدمت ديارهم وذلك بقرطبة"[212].ويبدو أن تلك الفترات هي التي شهدت عمليات التعدي على دور عبادات اليهود والنصارى[213]، حتى بات يمدح السلطان بأنه "هادم الكنائس والبيع"[214].

الهوامش:

1. انظر على سبيل المثال: عبد العظيم المطعني: مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجا وسيرة، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، 1996، ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط5، القاهرة، 1994م.

2 عن الدلالة اللغوية لهذا اللفظ انظر: الزمخشرى: أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج1، ص689.

3هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تونس، 1980، ص124،

،Nirenberg (D): «What can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?", Central Conference of American Rabbis, 2002,pp.18-20.

4 عنان: دولة الاسلام في الاندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ج1، 1997م، ص65.

5 انظر على سبيل المثال: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, vol. 1, Leyde, Brill, 1881m3e ed,p.48, Béraud-Villars: Les Touaregs au pays du Cid : Les invasions almoravides en Espagne aux XIe et XIIe siècles ,paris,

1946,p.195, Henri Terrasse: L'Espagne du Moyen-Age, civilisation et arts ,paris,1912,p.102.

6 عن موقف فقهاء الأندلس المتشدد تجاه أهل الذمة انظر: ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 2002م ، ص628، ابن عبدون: رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955، ص43-49، القرافى: الذخيرة في الفقه المالكى، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م، ج8، ص 20، ج13، ص 343، الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والاندلس والمغرب، تحقيق: مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج2، ص255-258، ج11، ص112، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2012م، ج1، ص223.

7 تابع تلك القيود عند حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي– أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971، ص ص 190-200، زبيدة عطا: يهود العالم العربي دعوى الاضطهاد، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2004، ص ص23-35.

8 القرافي: أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب، د.ت، ج3، ص14.

9 ابن سهل: م س، ص84.

.10Nirenberg: op.cit ,p.22

11Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain, Philadelphia, 1979,2,p.285,Stillman M.A : "The Jew in The Medieval Islamic city", in Jews of Medieval Islam: Community, Society, & Identity: Proceedings of an International Conference Held by the Institute of Jewish Studies, University of London, 1995,pp.183-184,Paul Johnson : a History of the Jews , Harper and Row, New York,1987, p.178, Juan Vernet Ginés: La Cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente, Ariel, 1978 ,p.37.

12ابن حيان: المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، نشر: الأب لشور انطونية، باريس، 1973م، ص68.

13 ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ، ج1، ص21.

14 الخشني: قضاة قرطبة، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، ط2، القاهرة، 1989م، ص140.

15 ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: **حسين** مؤنس، دار المعارف، ط2، القاهرة 1985م، ج2، ص413.

16 مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط1، .1981م، ص21-22.

17ابن رشد: مسائله، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1993م، ج2، ص1265، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ج 2، ص12.

18 ابن حيان: م.س، ص93، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، ط1، بيروت 1989م، م2 ص571-572.

19 العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، د.ت، ص87، 88.

20 ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة1955، ج1، ص151-152، النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر: إ. ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري، القاهرة 1948م، ص56-57.

21 ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، عنى بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة 1988م، ق1، ص127.

22 الإدريسي، م.س، م2، ص555، 743.

23 السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، ط1، بيروت 1963، ص37-38 ، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص498.

24 المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1997م، ، م4، ص130.

25 ابن عذاري: م.س، جـ4، ص39-40.

26 ابن سعيد الأندلسي، م.س، جـ1، ص336.

27 المقري: م.س، م3، ص529.

28 ابن سعيد الاندلسي: م.س، جـ 1، ص105.

29 ابن سهل: م.س، ص628.

30Encyclopaedia Judaica, vol.14, P.1201.

31 العذري: م.س، ص35، 42.

32 الادريسي: م.س، ج2، ص571.

33 ابن الخطيب: م.س، ج3، ص405.

34 ابن عذاري: م.س، جـ3، ص261.

35 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 1991، ص242.

36 مجهول: ذكر بلاد الأندلس، نشر: لويس مولينا، مدريد، 1981م.، ص50.

37Encyclopaedia Judaica, vol.15, P.1200.

38 ابن رشد: م.س، ج2، ص863.

39 Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain,Philadelphia, 1979,vol.1, P.337.

40 البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2002م.، ج1، ص 633.

41 الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، حققها ونشرها: محمد بن شريفة، ق1، 1975م، ص216.

.42 Ashtor: op.cit, vol.1 , P.27

43ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1981، م1، ص418؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، الرباط، دار المنصور، 1973م، ص24.

44 ابن سهل: م.س، ص594، ابن رشد: م.س، ج2، ص1143، 1265 .

45حيث جاء في أمثال العامة "من فتح حانوت للتجار يبيع من يهود ونصارى". الزجالي: م.س، ج1، ص246.

46 S.D. Gotein, Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton University, Press, 1973,vol.1, P. 51-55,279-280,

47 Ashtor: op.cit, vol.1, P.326-327.

48 الادريسي: م.س، م2، ص571 - 572.

49 جوايتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط1، 1980.، ص238.

50 نفسه، ص218.

51 نفسه، ص238.

52 مثل قولهم" سير مع اليهود، وخلي الجيران شهود" وقولهم " كل طعام اليهودي، ونعس ف فراش النصراني".مأمون المرينى: اليهود فى الأمثال المغربية، مجلة فكر ونقد، ع 35،

53الطرطوشي: سراج الملوك، مصر، 1872م، ص150.

54الادريسي: م.س، ج2، ص 571.

55 الونشريسى: م.س، ج8، ص437

56 ابن سهل: م.س، ص104 .

57 ابن رشد: م.س، ج1، ص530.

58م.س، ص150.

59 ابن سهل: م.س، ص493.

Ashtor: op.cit, vol.3,p.5960

61 جوايتاين : م.س، ص151.

62 الجرسيفي: رسالة في الحسبة، نشرت ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م، ص122، 151.

63 البرزلي: م.س، ج2، ص19.

64 القرافي : م.س، ج5، ص 397.

65 الونشريسي: م.س، ج11، ص 301.

66 سحنون وآخرون: المدونة الكبري تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج2، ص 94.

67 ابن رشد: م.س، ج2، ص863 .

68ابن رشد: م.س، ج1، ص530.

69 الونشريسى: ج7، ص52

70 Ashtor: op.cit, vol.1, P.320

71 العبادي: "الأعياد في مملكة غرناطة"، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية، مدريد، م15، 1970، ص140، .

72ابن عبدون: م.س، ص 48، ابن حجر: لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الاعلمى للمطبوعات، بيروت، ط3 1986، ج1، ص 133.

73 البرزلي: م.س، ج3، ص 573.

74 ابن عبد الملك: م.س، ج1، ص316.

75ابن سهل: م.س، ص626.

76 الونشريسى: م.س، ج10، ص56 .

77 زبيدة عطا: م.س، ص181.

78 الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م ، ص274.

79 الجزيري: المقصد المحمود في تلخيص العقود، تحقيق ودراسة فايز بن مرزوق السلمي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، 1433هـ.، ص33.

80 القرافي: م.س، ج4، ص331، 340.

81 احمد جلاء ادريس : التأثير الإسلامي في الفكر الديني اليهودي، الإسكندرية، د.ت، ص 116.

82 *Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962, p. 12*. وعن ورود مثل هذه الشروط في عقود الزواج الإسلامية انظر ابن العطار: الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين المجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، 1973، ص ص 7، 15.

83 *البرزلي: م.س، ج2، ص293.*

84 محمد شكري سرور: نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية، دار الفكر العربي، ، القاهرة، 1978-1979، ص218-219.

85الونشريسي: م.س، ج2، ص254.

86 البرزلي: م.س، ج2، ص ص، 42، 44.

87 Goitein A Mediterranean society; the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza University of California Press, 1967-,4,p.191.

88 الجرسيقي: م.س، ص122.

89 البرزلي: م.س، ج2، ص42.

90 م.س، ج1، ص223.

91 Ashtor : op.cit,vol,3,p.158.

92 مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، "صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م9، 10، مدريد، 1961-1962م، ص68

93 نفسه، ص74.

94 نفسه، ص70

95 الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، ج12، ص97.

96 ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار النشر للجماعيين، 1975، ص75-77، المقري: م.س، ج2، ص639.

97 ابن حزم الأندلسي: رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ1، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1401هـ-1980م، ص114.

98 العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، دار نهضة مصر، ق4، جـ2، ص353-354.

99 طبقات الأمم، نشر: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثولوكية للآباء اليسوعيين، بيروت ، 1912م ، ص89.

100 ابن سهل: م.س، ص617.

101 المقري، م.س، م2، ص307.

102 Vernet: op,cit,p.37

103ابن بسام: م.س، م1، ص161، ص364.

104 ابن حجر: م.س، ج1، ص 133.

105 الونشريسى: م.س، ج11، ص111 .

106 جوايتاين: م.س ، ص 238.

107 مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983 م، ص21.

108 ابن بسام: م.س، م2، ص705-707.

109 ابن بسام: م.س، م2، ص693.

110 انظر أبياته عند ابن بسام: م.س، م2، ص ص 705-705.

111 ابن بسام: م.س، م2، ص706.

112ابن أبي اصيبعة: م.س، ص485.

113ابن سهل: م.س، ص493، 628.

114ابن سهل: م.س، ص493.

115ابن أبي اصيبعة: م.س، ص485.

116 ابن بسام: م.س، م1، ص259.

117 ابن خاقان: م.س، ص194.

118ابن القوطية: م.س، ص37.

119نفسه، ص80.

120نفسه، ص89.

121 ابن بسام: م.س، ج1، ص 550.

122 المقري: م.س، ج1، ص263.

123ابن سهل: م.س، ص509، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ج2، ص47، ابن بسام: م.س، ج1، ص259.

124 الونشريسى: م.س، ج2، ص ص233، 246.ثم تابع نقاشا طويلا للمسالة ص ص 220-246.

125 *Goitein S.D.: A Mediterranean Society,2,pp.289-293.*

126 ابن سهل: م.س، ص595، الادريسي: م.س، ج2، ص544، الونشريسي: م.س، ج7، ص65.

127 المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العلمى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1368هـ ، ص 305.

128 المقري: م.س، ج6، ص371.

129الحوادث والبدع، تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، ط3، 1998 م، ص105.

Altamira(R): Crevea: Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola Barcelona 130 1900, T. I. P. 217

131ابن القوطية: م.س، ص61.

132ابن الخطيب: م.س، ج1، ص20..

133 ابن سهل : م.س، ص509

134ابن سهل: م.س، ص508.

135 ابن الخطيب: م.س، ج1، ص20.

136 ابن عذاري: م.س، ج4، ص71.

137 ابن الخطيب: م.س، ج1، ص20

138 ابن الخطيب: م.س، ج4، ص22.

139 المقري: م.س، ج1، ص520.

140 ابن الخطيب: م.س، ج2، ص59.

141ابن ابي اصيبعة: م.س، ص498. .

142 صاعد الأندلسي: م.س، ص89.

143ابن أبي اصيبعة: م.س، ص499.

144 المقري: م.س، ج3، ص528..

145ابن أبي اصيبعة: م.س، ص499.

146 نفسه، ص491.

147 Ashtor : op.cit,vol.3, P.170.

148 ابن سهل: م.س، ص 462، 508.

149 جوايتاين: م.س، ص194 .

150 الونشريسى: م.س، ج10، ص ص56 ، 129.

151 ابن فرحون: تبصرة الحكام فى أصول الاقضية ومناهج الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1301هـ.، ج1، ص68.

152 الونشريسى: م.س، ج10، ص ص 128-129 .

153 القرافي: م.س، ج10، ص60

154 ابن فرحون: م.س، ج1، ص 28.

155ابن حزم: الملل، ج2، ص4.

156 الونشريسي: م.س، ج2، ص258.

157 ابن بشكول: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1955 م، ج2، ص462. ابن حيان القرطبي، أبو مروان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1965 م، ص 92.

.158 Ashtor : op.cit,vol.3, P.117

159 Ashtor : op.cit,vol.1, P.343.

160 Encyclopaedia Judaica, vol.11, P.817.

. 161 Ashtor : op.cit,vol.1, P.353

162 ابن عذاري: م.س، ج4، ص77.

163 النباهي: م.س، ص56-57.

164ابن سهل: م.س، ص227.

165 ابن عبد الرؤوف: م.س، ص95.

166 الونشريسي: م.س، ج10، ص156.

167 الونشريسي: م.س، ج10، ص128-130.

168ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، مكتبة الملك فيصل، الرياض، 2003م، ص138.

169 المقري: م.س، ج3، ص125، ج4، ص358.

170 ابن عذاري: م.س، ج4، ص77.

171 الضبي: م.س، ص 345 ابن سعيد الأندلسي: م.س، ج2، ص441.

172ابن بسام: م.س، ج4، ص562.

173ابن أبي اصيبعة: م.س، ص488.

174 المقري: م.س، ج3، ص522.

175 ابن عذاري: م.س، ج3، ص264.

176 Encyclopaedia Judaica, vol..11, P.208

177ابن عذاري: م.س، ج4، ص102.

178ابن عذاري: م.س، جـ4، ص77 .

179 حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، 520-540هـ=1126-1145م، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1954م، م6، ع3، رسالة رقم1، ص113.

180 ابن عذاري: م.س، ج4، ص76-77.

181 ابن الأبار: المقتضب من تحفة القادم، تحقيق ابراهيم الابياري، د.ط، 1903م، ص130.

182 البرزلي: م.سج5، ص ص 443، 445.

183 ابن حزم: الملل، ج3، ص114.

184المقري: م.س، ج3، ص393.

185المقري: م.س، ج3، ص527.

186ابن رشد: م.س، ج2، ص1294.

187ابن سهل: م.س، ص682.

188ابن سهل: م.س، ص223.

189ابن سهل: م.س، ص341.

190 الونشريسي: م.س، ج8، ص62.

191 Encyclopaedia Judaica, vol.5, P.215

192 الجزيري: م.س، ص ص 596-600.

193 الجزيري: م.س، ص ص 596..

194 ابن سهل: م.س ص622.

195المقري: م.س، ج3، ص525

196ابن بسام: م.س، ج5، ص458.

197 المقري: م.س، ج3، ص381.

198المقري: م.س، ج3، ص522

199ابن عذاري: م.س، ج3، ص264.

200المقري: م.س، ج3، ص522.

201 انظر تفصيلاً لذلك عند : محمد فتحي البغدادي: المؤثرات العربية في شعر يهود الأندلس، ضمن أعمال ندوة اللغات والترجمة: الواقع والمأمول، كلية اللغات والترجمة، جامعة الامام، الرياض.

202بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1945، ص488.

203م.س، ج1، ص421.

204 ابن بسام: م.س، م2، ص766-767؛ ق2، م2، ص562، المقري: م.س، م4، ص322.

205ابن سعيد الاندلسي: م.س، ج2، ص114، ابن عذاري: م.س ، ج3، ص264.

206 ابن عذاري: م.س، ج3، ص266.

207المقري: م.س، ج1، ص25.

208 ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص422. ابن عذاري: م.س، ج4، ص41.

209 عبد الواحد المراكشي: م.س، ص134. .

210 Encyclopaedia Judaica, vol VOL.15, P.1200.

211 يعقوبي الحسين: "قصائد غير منشورة، في الاستصراخ والإصراخ"، مجلة دراسات أندلسية، ع5، 1411هـ-1990م، ص80.

212 ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق: محمود علي مكي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، د.ت، ص217.

213 المقري: م.س، ج3، ص303.

214 المقري: م.س، ج4، ص387.

مصادر المياه والنشاط الفلاحي في واحات المغرب الأوسط

"وارجلان نموذجا"

الأستاذ إلياس حاج عيسى، جامعة تيارت

ملخص:

ساهمت واحة وارجلان بدور فعال في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، وبرز دورها أكثرها من خلال موقعها الاستراتيجي كحلقة وصل بين إقليمي افريقية والمغرب الأوسط من جهة، وبين بلاد السودان من جهة أخرى. هذا الموقع سمح لها بربط شبكة من الطرق التجارية في اتجاهات مختلفة. وما كان لوارجلان أن تضطلع بهذا الدور الخارجي لولا الاهتمام الذي حظي به مجال المياه بها وطرق استخراجها، ثم تأمينها، كما أن العملية ليست يسيرة بالنسبة لمنطقة صحراوية إذ المياه الجوفية هي المصدر الوحيد لتأمين هذا العنصر الحيوي.

نحاول من خلال هذه الورقات أن نكتشف الثروة المائية التي تزخر بها واحة وارجلان، والجهد المبذول في استخراجها من خلال حفر الآبار أو ما يعبر عنه بالعيون في عرف المنطقة، ثم نتحدث عن تنظيف هذه العيون من طرف الغطاسة، وهي حرفة خطيرة قد تؤدي إلى هلاك صاحبها. والعنصر الآخر هو تقسيم مياه العيون للزراعة مما يؤكد على قيمة الماء في الواحات. والحديث عن العيون يستدعي الحديث عن الزراعة، من خلال ثلاثة أبعاد، تتمثل في اهتمام السكان بهذه الحرفة، والمنتجات الزراعية التي كانت تنتجها الواحة والتمر أهمها، وأخيرا الحديث عن العلاقة التي كانت تربط صاحب الأرض بالعامل فيها، وهو الذي عرف بالخمّاس وهو لفظ ظل راسخا في عرف الواحاتيين لقرون، يعبرون من خلاله عن الفلاح حتى ولو كان أجيراً.

Abstract

The oasis “ouarejlan” has contributed to active role during the Islamic Maghreb History in general. It has also emerged thanks to its strategic location as a link between “Ifriquia” regional. Besides, “central Maghreb” on the one hand, and between the countries of Sudan On the other hand. This site allowed her to link a network of trade routes in different directions.

And it played this role of external and attention given to water them and ways to extract the field, and then secure them. The process is not easy for the desert area as groundwater is the only source to secure this vital element.

Then we try through these papers to discover water resources that abound in the "ouarejlan" oasis and the effort to be extracted by drilling wells of the region for and then we talk about cleaning the wells of the diver party, a serious craft may lead to the destruction of its owner.

The other element is a division of spring water for agriculture which confirms the value of water in the oases. And talk about the wells calls to talk about agriculture, through three dimensions, it is in the interest of the population in this craft, and agricultural products that were produced by Oasis, dates the most important.

Finally, we talk about the relationship between the owner of the land factor which, who knew as "Khamas", this term remained in the oasis for centuries, crossing through it from the farmer, even if salaried employees.

يعتبر الماء عصب الحياة وعمادها، فبه تستمر الحياة على الأرض، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء:30)، وإذا كانت للمياه هذه المكانة فإنها في المناطق الصحراوية تحتل أهمية قصوى في حياة الإنسان والحيوان والنبات بصفة عامة، حيث تتوقف حياتهم واستقرارهم ومختلف نشاطاتهم على هذه المادة الحيوية، لذلك كان استغلالها والإفادة منها عن طريق تخزينها، وإدامة جريانها بطرق وأساليب مختلفة أمرا ضروريا غاية في الأهمية، وهذا ما فعله سكان الصحراء منذ أمد بعيد، خدمة منهم لدوام حياتهم المعيشية، وهذا ما سوف نوضحه من خلال استعراض الجوانب الآتية:

أ.مصادر المياه

1.المياه الجوفية

تقع وارجلان في منطقة تميل نحو الشرق مما ساعدها على استقبال ترسبات مياه وادي مِيَّةْ، وواد إِيغارْغارْ اللذان ينبعان من الجنوب الشرقي، ومن العناصر التي ساهمت في تميز وارجلان بتوفرها على مخزون هائل من المياه الجوفية رافدان آخران هما: واد مْزابْ، وواد النْسَا، وهما ينبعان من الشرق أيضا. فمدينة وارجلان بواحاتها الكثيرة والوديان التي ذكرناها آنفا، وخاصة وادي

مية[1] بالإضافة إلى موقعها الجغرافي، جعل منها قصرا صحراويا يشرف على واحات كثيرة من النخيل.[2]

استطاع الأهالي استغلال هذه الثروة المائية الباطنية، فقد استخرجوها بتقنيات محدّدة سوف نذكرها لاحقا، وبرزت على سطح الأرض على شكل عيون متفجرة، وهي قديمة بالمنطقة تعود إلى ما قبل الميلاد، مما جعلها تعرف عند أهل المنطقة بعيون ذات القرنين،[3] ولا يوجد لها مثيل في بلاد المغرب إلا في هذه المنطقة ومناطق أخرى، على غرار أريغ وتوات وتيكورارين.[4]

وصفت إحدى المصادر التاريخية محيط وارجلان في الفترة الوسيطة بالقول: "من قرية محروز إلى قرية عين البغل، ومن جبل العباد حتى قرية إفران"، كانت توجد 325 قرية وعدد هائل من الآبار يقدر عددها بـ: 1051 بئر.[5] كما أن التنقيبات الأثرية الحديثة والتي كانت تحت إشراف الباحثة الفرنسية "مارجريت فان برشم" في سدراتة[6] جعلتها تكتشف شبكة كثيفة من السواقي كانت تستخدم في ري واحات النخيل والمزارع الممتدة من سدراتة إلى وارجلان ونواحي أبعد منها. هذا النوع من الاكتشافات أيّد روايات ساقتها مصادر تاريخية، تفيد أن الماء كان متوفرا بسدراته، وأنه استعمل لسقي واحات النخيل في وارجلان، وواحات أخرى تقع على بعد أميال من سدراته.[7]

لقد كان استغلال المياه الباطنية يعتمد على الجهد البشري الشاق، فالمنطقة صحراوية جرداء، وهي لا تتوفر على أودية دائمة الجريان، والأمطار قليلة التساقط مما يعرض المنطقة إلى جفاف دائم، ويتضاعف مشكل قلة المياه في منطقة وارجلان من منطلق أن واحاتها بعيدة عن منبع الآبار مما حتم على العاملين اعتماد تقنية جديدة، تمكن من حفر الآبار أولا، ثم مدّ السواقي ثانيا، وتوزيعها بالعدل بين أصحاب الأجنة والبساتين. ومن المشاكل التي تعترض وارجلان أن نوعية تربتها رملية، مما يدفع بالعمال القائمين على حفر الآبار بالحفر إلى أعماق كبيرة.[8] وهو عمل فيه مشقة بالإضافة أنه يشكل تهديداً لمن يباشره.

تشير الدراسات أن الهاربين من تاهرت إلى منطقة ورجلان اختاروا جهة سدراته التي تبعد عن مدينة وارجلان بحوالي 14 كلم، وأن من بين الأسباب التي جعلتهم يختارون هذا الموقع، احتواؤه على بئر ارتوازية حفرت على عمق 60 متراً، ولسعة هذه البئر أطلق عليها اسم "بحر

الطوفان"[9] وربما كانت هذه العين هي التي عرفت باسم عين الصفا، والتي تشير إليها المصادر بأنها من أهم عيون منطقة وارجلان، خاصة أنها تقع بالقرب من سدراته، ولها ثلاثة مصارف هي: مصرف أولاد إبراهيم بن عيسى، مصرف أولاد عيسى بن أحمد، مصرف أولاد بن الشيخ. بالإضافة إلى عين ثانية بناحية يفرن تعرف باسم عين القبائل، ومصارفها ثلاثة هي الأخرى، وهي: مصرف أولاد عيسى بن نوح، مصرف أولاد عيسى بن إبراهيم، مصرف أولاد عيسى بن سليمان.[10]

لكن الكثير من تلك العيون والمصارف والسواقي تعرضت للتخريب، شأنها شأن قصور وقرى وارجلان التي تعرضت هي الأخرى للتخريب في فترات تاريخية متعاقبة، خصوصا بعد الهجوم الذي قاده يحي بن اسحاق بن غانية على المنطقة سنة 624 هـ/1227 م.[11] بالإضافة إلى أسباب أخرى، إذ ذهب ناصر الدين سعيدوني إلى القول بأن قدوم القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب ابتداءً من منتصف القرن 5هـ/11م قد حمل معه انكماشا عمرانيا وتقهقرا اقتصاديا نتج أساسا عن إهمال البدو لاستغلال مصادر المياه،[12] واهتمامهم بالرعي أكثر.

و للاستدلال أكثر على الوضع الذي كانت عليه منطقة وارجلان نورد ملاحظات للباحث الفرنسي ألان رومي « Alain Romey» إذ يقول: "ومن خلال الحديث عن كثرة النخيل والسكان و القرى من إفران إلى جبل العباد، لا نرى اليوم سوى كثبان رملية، خاصة حول سدراته وانقوسة، ونجد عددا كبيرا من الأطلال المتناثرة لتجمعات سكانية، وقنوات مائية، وجذور النخيل. هذه الآثار تعطينا تصورا تقريبيا عن المناطق التي كانت واحات وقرى، وآبارا، وقصورا إن وارجلان تدين بوجودها، إلى ثروتها المائية الباطنية، فهي التي كانت أساس ازدهار المدينة والمنطقة."[13]

2/ حفر الآبـار

يرتبط ازدهار وارجلان في العصر الوسيط بمدى قدرة السكان على استغلال المياه الجوفية والمحافظة عليها والتحكم في تقنياتها، وقد رفعوا التحدي في هذا المجال على الرغم ممّا شهدته المنطقة في فترات تاريخية عرفت فيها مظاهر من التراجع العمراني والانكماش الاقتصادي

كان سببه كما أشرنا إهمال استغلال مصادر المياه والجهل بطرق استعمالها. فما هي التقنيات التي اتبعها الأهالي للوصول إلى مصادر المياه؟

إن استخراج المياه من باطن الأرض في هذه المنطقة تتم بطريقة لا يوجد مثلها إلا في واحات المغرب الإسلامي، بحيث أن البئر تحفر عميقة جدا، ولأن الأرض رملية فإن جوانب البئر تربط بجذوع النخل، [14] حتى تمنع تسرب الرمال إلى قاع البئر، إلى أن يصل العاملون المكلفون بالحفر إلى طبقة صلبة فيتحول الحفر عندئذ إلى نحت بالفؤوس والمعاول، وتتم العملية بحذر شديد لأن العاملين على الحفر يكونون في تلك المرحلة قريبين من مستوى المياه، وعندما يصبح سمك تلك الكتلة الصخرية أكثر رقة، يصعد العامل المكلف بالحفر إلى أعلى البئر، ويكتفي برمي قطعة من حديد إلى قاع البئر فتنكسر تلك الطبقة المتبقية فينبعث الماء صاعدا إلى الأعلى، فيمتلئ البئر ويجري الماء على وجه الأرض.[15] ولا تتم هذه العملية دون مخاطر على الإنسان الذي يقوم بعملية الحفر، فربما أساء العامل تقدير سمك الكتلة الصخرية الذي يجب أن يتركه قبل الصعود، سيتفاجئ باندفاع الماء وهو في قاع البئر، وإذا كان بطيء الحركة فإن المياه ستحاصره، وربما ينتهي به الأمر إلى الغرق.

وفي رحلة العياشي رصدٌ لمختلف مظاهر استخراج المياه وتخزينها في المجتمعات الواحاتية التي مرّ بها، حيث وقف على أجهزة الفجاجير[16] في مناطق توات وتيكورارين، وتحدث عن مظهر طبيعي لتخزين المياه في المناطق السهبية والصحراوية، يدعى "القَلْتْ،"[17] وهي عبارة عن مستنقعات صغيرة تحتفظ بالمياه لفترة من الزمن بعد جفاف الوديان، وفي وصفه لحالة وارجلان، قال: "ومن غرائب هذه البلدة، استخراج عيون الماء غزيرة بحفر الآبار، فيحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض، فينقرونه فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا، ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا فإن لم يتدارك الحافر بالجدف أغرقه الماء."[18]

يختلف عمق الآبار في محيط وارجلان من منطقة لأخرى، فلقد ذكرنا أن عمق عين الصفا تصل الى 60 متر، وقدر العياشي معدل آبار أخرى ب:50 قامة. وفي جبل كريمة بئر يقدر عمقه بثمانين مترا،[19] أما عن طريقة القياس، فهي تتم بطريقة بسيطة وتقليدية، وذلك بقياس

مسافة الطريق التي يسيرها الحيوان (جمل أو بغل أو حمار) على اليابسة، وهو يقوم بجر الحبل الذي يُربَطُ في آخره دلو يملئ الماء من البئر.[20] لكن يبدو أن كثرة الفقارات التي عرفتها وارجلان قد أثّرت سِلباً على الثروة المائية، وانعكست على بعض مظاهرها، على غرار دفن الآبار. وهي من النوازل التي اعترضت فقهاء المنطقة، لذلك كانوا يلزمون أي عرش من أعراش قصر وارجلان، وهم بني سيسين، أو بني واقين، أو بني إبراهيم، أنه متى عُثِر على عين مدفونة تحت الأرض، فإذا كانت بأرض الشيوع فإن العرش يلتزم بترميمها، ثم يستفيد منها بالتساوي، أما إذا اكتشفها أحد داخل جنانه فإنه يخبر العرش الذي ينتمي إليه، فإن وجدوا لها مالكا فإنه يتولاّها قبل غيره، ويتفق مع العرش في خدمتها على نفقتهم فإن لم يجدوا لها مالكا، فهي لصاحب الجنان. هذا ما يتعلق بطريقة حفر الآبار في منطقة وارجلان. وقد ظلت هذه الطريقة مُتبعة إلى وقت قريب، ولم تتوقف إلاّ باستحداث الطرق والتقنيات الحديثة التي أدخلها المستعمر الفرنسي إلى المنطقة في مطلع القرن العشرين ميلادي.[21]

3/ الغطاسة وتنظيف العيون

تمتلئ الآبار والعيون في وارجلان عادة بالأتربة والأوساخ بالنظر إلى طبيعة المنطقة الرملية، فتحتاج إلى التنظيف والكنس، والذي يتصدر لهذا العمل تصيبه مشقة كبيرة.[22] والرجال الذين يقومون بهذه المهمة يسمون الغَطّاسة، وهم يشكلون فئة حرفية قائمة بذاتها، حيث يقومون بالغطس داخل البئر لتنقيتها وهي حرفة تقع في ورجلان على رجال وديار معروفة اكتسبوا خبرات وتجارب من جراء الحماية الطويلة لهذه الآبار بالعمل على استخراج ما علق بها من أوساخ وأتربة، وتوارثت تلك العائلات هذه المهنة مند قرون إلى غاية بداية القرن العشرين للميلاد، خلف عن سلف.

فالعيون تندفن تدريجيا كلما قدمت وامتد بها الزمن فتنغلق فتحاتها ويضعف جريانها شيئا فشيئا حتى يكون جريانها ضعيفا، في هذه الحالة يتفق ملاك العين مع الغطّاسة بمبلغ يتفقون عليه في المسجد الكبير ثم يشرعون في عملهم. أمّا عن كيفية إجراء عملية التنظيف فتتم بربط قفة في حبل يُدلى به إلى قاع البئر، وفي حبل آخر يُربط فيه حجر كبير، يُدلى به كذلك إلى قاع البئر، فأما القُفّة فلكي يملأها الغطاس بالأتربة والأوساخ، وأما حبل الحجر فهو لنزول الغطاس

وصعوده وأثناء قيامه بالعملية يجعل الحجر بين رجليه ويحرص أن لا ينفلت منه حتى لا يتيه تحت جوف البئر، مما قد يعقد من مهمة صعوده، وربما ينتهي به الأمر في هذه الحالة إلى الغرق والهلاك. وعند وصوله إلى قاع البئر يملأ القفة بالأتربة والأوساخ، ويكون قد مكث في الماء مدة زمنية تمتد من 5 إلى 10 دقائق وبعد صعوده يسحبون القفة ويفرغونها ولا يعاود الغطّاس النزول إلا في اليوم الموالي، وهكذا حتى تصفى العين من الأتربة.[23]

يعتبر عمل الغطاسة مهمة شاقة جدا وخطيرة في نفس الوقت، تؤدي في بعض الأحيان إلى هلاك الغطّاس. لذلك كانت بعض الآبار تترك من غير تنقية لصعوبة العمل بها فيكون مصيرها الاندثار.[24] ونذكر أن وارجلان ظلت محافظة على الحرفة إلى بدايات ق 14هـ/20 م، وكان مؤرخ ورقلة "الشيخ أعزام" صاحب "غصن البان" معاصرا لما تبقى من ممارسات في شأنها، إذا علق عليها قائلا: "والآن كادت هذه الوظيفة تتلاشى في هذا الوطن لأن الكبار انقرضوا واما أولادهم صارت عندهم هذه الخدمة ساقطة وشيئا يحط من شرفهم."[25] في ختام هذا العنصر ومن خلال تتبع وصف المصادر والمراجع لحرفة الغطس في العيون، نستنتج أنها ظلت محافظة على أصالتها طيلة قرون، دون أن تتعرض لتغيير جذري، إذ يمكن الاستدلال بأوصاف الدرجيني (ق 7 هـ)، والعياشي (ق 11 هـ)، وأعزام (ق 14 هـ)، الذين قدموا لنا أوصافاً متشابهة.[26]

4/ تقسيم ماء العين

عرفنا أن منطقة وارجلان اشتهرت بتوفرها على عشرات العيون وأن بعض تلك العيون كانت بعيدة عن البساتين، مما حتّم على القائمين على تنظيم الموارد المائية العمل على إيصال مياه العيون إلى البساتين من خلال شبكة كثيفة من السواقي، لا تزال بعض آثارها ماثلة إلى اليوم في أطلال سدراتة خاصة. وإذا كان أهل وارجلان قد استعملوا جهدهم العضلي في حفر وإعادة تهيئة العيون ومد السواقي فإنهم كذلك اجتهدوا في إيجاد طريقة مثلى لتوزيع مياه الآبار بين أصحاب البساتين بطريقة عادلة. وعليه سنقوم بشرح طريقة التقسيم، من خلال بعض النماذج ملتزمين التبسيط قدر المستطاع.

يستغرق توزيع المياه على بساتين وارجلان كلها مدة زمنية أقصاها أربعة عشر يوما، واليوم الواحد في العرف الاقتصادي لأهل ورجلان يبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها. أمّا الفترة

الممتدة من غروب الشمس إلى طلوع شمس اليوم الموالي هو اليوم الثاني. كما يقسم اليوم الواحد إلى وحدات قياس تساوي 120 خروبة، والخروبة الواحدة تحتوي على 100 دانق، الخروبة والدانق هي وحدات لقياس كمية الماء. يكون مجموع ماء العين في أربعة عشر يوما 1680 خروبة. أما نصيب كل بستان من الماء فهو مختلف على حسب اتساع كل بستان، فبعض البساتين لها يوم كامل وبعضها نصف يوم، والبعض الآخر ثمن يوم، وبعضها سبعة خراريب ونصف، وبعضها ثلاثة خراريب وخمسة وسبعون دائقا، وهناك من له خروبة والبعض خروبتان، والبعض نصف خروبة. ولكل صنف من هذه الأصناف أوقات معلومة ومقدرة عند أصحاب البساتين ومن يشرف على عملية التقسيم.[27]

تم استحداث عيون جديدة في وارجلان، وأصبحت العيون الجديدة تختلف عن العيون القديمة في وقت الفصل بين يوم وآخر، بمعنى أن العيون القديمة كان بداية وقتها طلوع الفجر، أما الجديدة فبداية وقتها هو عند شروق الشمس. هذا الاختلاف جعل بعض الفلاحين يغيرون من وقت تصريف المياه. فأحيانا يبدلونه عند انتصاف الليل، وتارة قبل ذلك وأحيانا بعده. كل هذا على حساب بساتين أخرى. مما أدى إلى اتفاق أعيان وأعراش البلد على إبطال الفرق بين العيون القديمة والجديدة، وجعل بداية تصريف العين موحدة، وهي طلوع الشمس ويعرف هذا التوقيت في عرف البلد بماء الصبح.

***كيفية تبديل المياه**

نقدم هنا بعض الأمثلة التي تساعدنا أكثر على فهم آلية توزيع مياه العين كل حسب حصته. فإذا كان الفلاح عنده مائة وعشرون خروبة، هذا يعني أن له يوم كامل من السقي، كأن يكون يوم الجمعة مثلا، فيبدل الماء في يوم الجمعة الأولى من طلوع الشمس الى غروبها، وتسمى خروبة بيضاء؛ لأن حصته بالسقي كانت بالنهار، وفي الجمعة الثانية يبدل من غروب الشمس الى طلوعها، وتسمى خروبة سوداء، لأن حصته هذه المرة كانت بالليل. وإذا كان له ستون خروبة، يعني نصف اليوم في الجمعة، يبدل هذا الفلاح في الجمعة الأولى من الصبح إلى الزوال، وفي الجمعة الثانية لا يكون له نصيب من الماء، وفي الجمعة الثالثة يبدل من الزوال الى الغروب، وفي الرابعة يبدل الليل كله، أي من غروب الشمس الى طلوعها، فيجتمع له نصفان، فيعوّض

الجمعة التي لم يسق فيها، وسبب هذا الاستثناء أن الليل لا يقسم في عرف أهل وارجلان. والملاحظ أنه كلما نقص نصيب بستان من البساتين زاد ذلك في تعقيد عملية التقسيم.[28] وهناك من البساتين من لها خروبات بيض فقط، بمعنى أن وقت السقي يكون بالنهار فقط.

ب. الفلاحـة

ارتبطت الفلاحة في واحة وارجلان ارتباطا وثيقا بمدى وفرة المياه الجوفية[29] التي ارتبطت هي الأخرى بمدى قدرة الأهالي على التحكم في استغلالها، وهو مبدأ تشترك فيه جميع واحات المغرب الأوسط.

1. اهتمام الأهالي بالزراعة

كانت منطقة وارجلان آهلة بالسكان وهذا على امتداد محورين، الأول يمتد من قرية محروز إلى قرية عين البغل، والمحور الثاني يمتد من جبل العباد إلى قرية إفران، وهي منطقة تضم حسب بعض المصادر 325 قرية و1051 بئر لسقي الأجنة والنخيل.[30] لكن المصادر القديمة لا تسعفنا بمعلومات حول عدد سكان المنطقة، وجل الإحصائيات المتوفرة هي حديثة.[31] ومع ذلك فهي مفيدة في وضع تصور تقريبي لكثافة السكان في المنطقة رغم البعد الزمني عن الحقبة مدار البحث، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن مؤرخوا الاقتصاد يقدرون أن أي تجمع سكاني بلغ عدد سكانه 3000 نسمة[32] يحتاج إلى عشر مناطق ريفية خصبة، أي مساحة 85 كلم2، هذه المساحات هي التي تمد السكان بالحد الأدنى من المواد الغذائية، حتى لا يبقى هؤلاء مهددون في معيشتهم. أما الحديث عن التجارة الكبرى أو الخارجية فلا يمكن الاعتماد عليها في تموين المدن إلاّ بصفة جزئية، بحيث أن وسائل النقل تقليدية وبطيئة والمسافات بعيدة، أو أنها استثنائية تشمل مدنا محفوظة[33] بفعل عوامل دينية سياسية، اقتصادية، تساعدها في استقطاب عدد أكبر من التجار. وهو مثال ينطبق على بعض المدن الكبيرة مثل مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبغداد، ودمشق، والقاهرة، والقسطنطينية، والبندقية، وروما، وغيرها من المدن التي تتمتع بقدر أكبر من الأهمية الاقتصادية.

إذا كان الإنتاج الفلاحي ضعيفا خلال القرون، الثاني والثالث والرابع للهجرة، وتأثيره في الحياة الاقتصادية والتطور العمراني ثانويا، فإن النمو الديمغرافي وكثرة الهجرات إلى منطقة

وارجلان، وارتفاع القدرة الشرائية لدى بعض الفئات الاجتماعية، وظهور طبقة من الأغنياء والمياسير،[34] كلها عوامل ساهمت أكثر في العناية بالفلاحة مع تحسين استغلال أمثل لمياه العيون وتطوير زراعة البستنة.[35] هذه العناية ظهرت في وارجلان وفي واحات أخرى.

بالإضافة إلى العوامل السابقة، تعتبر تجارة القوافل عاملاً إضافيا دفع بالسكان إلى الاهتمام بالزراعة، حيث ساهمت في جلب رؤوس أموال إضافية إلى وارجلان، والمتمثلة أساسا في مخزون الذهب، بالإضافة إلى جلب اليد العاملة الرخيصة ممثلة في عبيد السودان. هذين العاملين انعكسا بشكل كبير وايجابي على نمو وتطوير ووفرة الإنتاج الزراعي في واحة وارجلان ومعظم واحات المغرب.[36] لكن ما هي المنتجات الزراعية التي كان يوفرها فلاحوا وارجلان، وهل هي مختلفة ومتنوعة، وما هي الكميات المنتجة التي يستطيع من خلالها تجار وارجلان تصديرها إلى البلاد التي تذهب إليها قوافلهم؟ أم أن الاهتمام لم يكن يتجاوز حدّ الاستهلاك المحلي، وبالتالي تحقيق نسبة من الاستقلال الذاتي في المواد الغذائية، من دون انتظار ما تجود به القوافل التجارية.

هذه التساؤلات سنحاول أن نجيب عنها من خلال إبراز أهم المنتجات التي كانت تجود بها أرض وارجلان، والتمييز بين المنتوج الرئيسي والمنتوج الثانوي. في هذا السياق يقدم لنا ناصر الدين سعيدوني إحصاءً حديثا لعدد النخيل في وارجلان، وهو مهم جدا كونه يساعدنا على أخذ تصور حول الموارد الزراعية في واحة وارجلان في القرون السابقة. ففي سنة 1881م كان عدد نخيل منطقة وارجلان ونواحيها حوالي 436.252 نخلة، في وقت كان فيه عدد سكان المدينة والقصور المجاورة لها حوالي 4331 نسمة؛[37] أي بمعدل 100 نخلة لكل فرد، فهو إذاً وبلا شك عدد كبير.

2. المنتجات الزراعية

أ–التمور

لا تشير المصادر القديمة، الإغريقية والرومانية إلى واحات النخيل الشاسعة في بلاد المغرب عموما، وتلك الموجودة في منطقة وارجلان على الأخص، في حين كتبت المؤلفات العربية والإسلامية عن واحات النخيل في بلاد المغرب بشكل كثيف لدرجة يصعب معها الانسياق وراء الآراء التي تحدثت عن انتقال زراعة النخيل من المشرق إلى المغرب. وهم يرون أن أصل منبتها

كان في بلاد المشرق، وقد يكون الذي أتى بها إلى بلاد المغرب المهاجرون المسلمون الأوائل في القرن السادس الميلادي. [38]

إن ما ساعد على غرس النخيل في منطقة وارجلان، وجعلها من أكثر واحات بلاد المغرب كثافة -على غرار واحة بسكرة- عاملان اثنان هما: أ-توفر المنطقة على طبقة هائلة من المياه الجوفية. ب-المعرفة الواسعة للسكان بتقنيات غرس النخيل. [39]

تزرع النخيل في وارجلان وفي كل واحات بلاد المغرب بطريقتين: الأولى هي الإكثار بطريقة النوى، وهي طريقة لا تستعمل بكثرة بسبب كثرة عيوبها، إذ تكون نسبة الجودة ضعيفة جدا، كما أن نسبة النخيل المذكر يكون مرتفعا، قد يصل إلى النصف من مجموع ما يتم زرعه من النوى، ويجبر الفلاح الاعتناء بجميع الفسائل حتى تكبر، إذ من الصعب التفريق بين النخيل من جنس الذكر والأنثى قبل مرحلة التزهير. [40] الثانية هي الإكثار بالفسائل. [41] وهي عبارة عن نخيلات صغيرة يتم قطعها من جوانب نخلة كبيرة تكاثرت حولها (النخلة الأم)، وهي تعرف في واحات المغرب الأوسط باسم "المشان".

كما تتم عملية تلقيح النخيل (التأبير) وفق طريقتين: الأولى تكون طبيعية، وبسمى بالتلقيح الهوائي عن طريق الرياح وبعض الحشرات المتنقلة بين أشجار النخيل، [42] أي دون تدخل الإنسان، بحيث أن الرياح أثناء هبوبها في فترة اللقاح تقوم بنقل اللقاح من النخلة التي هي من جنس الذكر إلى النخلة التي هي من جنس الأنثى. والملاحظ أن هذا النوع من التأبير يكون في المناطق التي يكثر فيها النخيل من جنس الذكر، كما تقتصر أحياناً على النخيل ذات العلو المرتفع لصعوبة ارتقائها من طرف الانسان، وتكون الغلات في مثل هذه الحالات ضعيفة، إلا في بعض الأصناف. والثانية يكون التأبير بتدخل الانسان، وذلك بأن يصعد الفلاح بنفسه إلى أعلى النخلة الذكر ليأخذ مادة اللقاح من عراجينها ثم يصعد مرة ثانية إلى النخلة من جنس الأنثى ليضع مادة اللقاح وسط العراجين ويقوم بربطها بالسعف، وعندما يكبر حجم العراجين يصعد الفلاح مرة أخرى لتنظيمها وجعلها متدلية إلى الأسفل بشكل منتظم. تبدأ النخلة في العطاء والإنتاج تدريجيا في هذه الحالة وذلك ابتداء من السنة الرابعة أو السادسة من عمرها، ويبلغ الإنتاج ذروته عندما تبلغ النخلة عمر 15 سنة. [43] وتعتبر وارجلان من أكثر الواحات

الصحراوية كثافة من حيث عدد نخيلها وكذا جودة تمورها. ويؤكد هذا الرأي قول ياقوت الحموي عن وارجلان بأنها "كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر، كثيرة النخل والخيرات."[44] كما نجد في مصادر أخرى ما يشير إلى القيمة الاقتصادية للنخيل في تاريخ وارجلان. منها ما كتبه أبو زكرياء في سيره عن أبي نوح سعيد بن زنغيل، عند فراره إلى وارجلان بعد فشل ثورته على الفاطميين، حيث "أكرمه أهله وحفظوه وعظموا درجته وأحسنوا القيام به فملأ له الشيخ صالح جنون بيتا إلى السقف بالتمر. وأجرى عليه مائدة بكرة وأخرى عشية."[45]

وفي الدرجيني حادثة أخرى تبين لنا الحضور الدائم للتمر في موائد الوارجلانيين، فقال: "حدثني بعض العزابة عن الشيخ عبد الله عن علي قال خرجت من أربغ أريد وارجلان في جماعة من العزابة فسلكنا على تلال منزل الشيخ عبد الله بن يحي، قال فخرج إلى العزابة فسلم عليهم، وأنزلهم للضيافة. فلما دخلنا موضعه قدم لنا تمرا كبيسا معسلا ولبنا عجيبا ...ثم دخلت عليه فصادفته على مرضخة وبين يديه حشف أحرش يابس وكوز ماء، وكلما رفع حشفه رضخها وأزال نواتها وأكلها وأتبعها بجرعة ماء من الكوز، وفضّ النواة لعلف الغنم، فقلت له ما هذا يا شيخ؟ هلا أكلت من التمر الذي أطعمتنا منه؟ فقال يا بني إن من أكل خيار ماله فقد أكل دم وجهه، وذلك مدخر لأمثالكم، وإن الذي بين يدي مع العافية كثير."[46]

حادثة ثالثة نستخرجها من سير أبي زكرياء، تبين أن التمر هو بالنسبة لأهل وارجلان ثروة لا تقدر بثمن، يبدو ذلك جليا من خلال رسالة بعث بها أحد مشائخ وارجلان هو ابو صالح جنون بن يمريان، إلى ابن عم له كان مقيما بأحد مناطق المغرب وهو يدعوه ليقدم إليه ويهجر وارجلان: "يا ابن عمي إيتني، فإنك قمت في أرض الفقر، فإن عندنا أرضا كريمة قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا. فأجابه أبو صالح: يا ابن عمي ايتني، فأن عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا."[47] والجواب فيه قناعة أبي صالح أن منابت النخل أغنى من منابت القمح. وفي نفس السياق يفيدنا الوسياني صاحب السير أن بن يمريان كان حذقا في عمل النخيل، من إزالة الكرانيف والجريد اليابس وتنقية قلبها من الحشف المتساقط عليها، ومن نسيج العنكبوت.[48] وظلت واحات وارجلان شامخة بنفس الكثافة طيلة قرون من الزمان، فهذا العياشي يصف لنا المدينة في مطلع العصر الحديث أثناء رحلته في القرن الحادي عشر للهجرة،

السابع عشر للميلاد، بقوله: " وتراءى لنا نخل وارقلا كأنه سحابة رطباء أو ناقة عجفاء، يتقطع السراب دونه وكثير من الناس لا يفهمونه."[49]

من خلال هذه النصوص التاريخية، نستنتج أن أشجار النخيل كانت تزرع على نطاق واسع في وارجلان، كيف لا وعدد النخيل في منطقة وارجلان حسب إحصائيات حديثة -كنا أشرنا إليها من قبل- بلغت حوالي 252 436 في حين أن عدد السكان كان حوالي 4331 نسمة فقط. وهو يمثل متوسط مائة نخلة لكل فرد، وهي نسبة مرتفعة، يستنتج من خلالها ثراء المدينة باعتبار أن حيازة النخيل في مدن الواحات من المقاييس المحدّدة للثروة.

ولا زالت عادة سكان الواحات الاهتمام بالنخيل، حتى أنه قلما تجد عائلة ليس لديها بستان أو جنان فيه عدد معين من النخيل، وهي ظاهرة لازالت متوارثة في الواحات الجزائرية. فوارجلان بالتأكيد كانت تنتج التمور بكميات كبيرة تتجاوز بها الاستهلاك المحلي وتصدره لمملكة سنغاي، على عهد الآسيقيين الذين كانوا يستوردون كميات كبيرة منها، وخاصة من وارجلان، وقد كان لسكان سنغاي ولع به لجودته، وعندما تَقِلّ القوافل الآتية من وارجلان والمحملة بالتمور، فإن الكميات القليلة المتبقية في أسواق سنغاي لا تباع بالميزان وإنما بعدد الحبات. فالتمور إذاً كانت من الأحمال الثقيلة والكبيرة التي كانت تجلب إلى مملكة سنغاي من واحات المغرب، وخاصة من وارجلان وتقرت وتوات.[50] وتستخدم كمادة تجارية تكون عوائدها كبيرة على اقتصاد المنطقة. ويستدلّ ناصر الدين سعيدوني على التأثير الإيجابي لاستغلال الموارد المائية، ولمنتوج التمور على رفاهية السكان في عهود مختلفة بقوله: "ودليل الإزدهار المرتبط بحسن استخدام المياه الجوفية أن سكان ورقلة كانوا يدفعون لحاكمهم ضريبة 150 ألف دقة ذهبية، كما أن حاكم ورقلة كان قادرا على الإنفاق على حامية من 1000 فارس، في وقت كان فيه التمر أهم منتوج."[51] لكن ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي قل الاهتمام بمصادر المياه وتهيئتها، من جراء الاضطرابات والفتن التي عرفتها وارجلان في تلك الحقبة، فتحول الكثير من الفلاحين إلى الرعي، وتحولت بالتالي الكثير من واحات النخيل إلى أرض بور بفعل الإهمال والفتن.[52]

منتجات أخرى: تختلف الدراسات في تحديد نوعية المواد الزراعية التي كانت تنتجها وربما تصدرها وارجلان ماعدا التمر طبعا، فيذهب معظمها إلى القول أن الفلاحة في وارجلان كانت تتمثل أساسا في غرس النخيل. أما زراعة بعض المنتجات الأخرى فهو بهدف الاستهلاك المحلي لأنها تقتصر على المساحات المروية من الواحات، فهو يمثل اقتصاد هامشي يتماشى مع ظروف وأوضاع المنطقة الصحراوية، ويكون الهدف من هذا النوع من الاقتصاد هو سدّ حاجيات السكان أساسا.[53] في حين أن هناك من الدارسين من يرى أن وارجلان اشتهرت إلى جانب كثرة نخيلها بكثرة أشجار الزيتون فيها.[54] ومفهوم الكثرة هنا يفيد على الأرجح، الإنتاج الذي يزيد على الاستهلاك المحلي. كما يرى محمود إسماعيل أن ازدهار الزراعة في واحة وارجلان اعتمادا على مياه الآبار كان نتيجته اشتهار المنطقة بأشجار النخيل والزيتون وزراعة الحبوب، ويصفها من هذا الجانب قائلا: "أما وارجلان فمدينة صغيرة لكنها متحضرة، اشتهرت بوفرة نخيلها وغلاتها وغصت بالأسواق والتجار." [55]

وهناك واقعة أخرى ذكرها أبو زكريا في سيره حول حصار الفاطميين لمدينة وارجلان وهروب سكانها إلى جبل كريمة الواقع خارج وارجلان للتحصّن به، وفيما يشبه السرد الأسطوري، قال أنهم وضعوا كميات كبيرة من الزيت في قصاع والجمال تقترب منها وهي تبدوا من بعيد للفاطميين المحاصِرين وكأنها تشرب ماءً، فظن المحاصِرون أن مع السكان ماء كثير، فرأوا أن يفكوا الحصار عنهم.[56] ففي حالة صدق أبي زكرياء، يكون أهل وارجلان يتوفرون على كميات كبيرة على الزيت والزيتون. ونختم بشهادة أخرى لعثمان الكعّاك يقول فيها: "كانت كل المدن الرستمية في عمران وخصب تحيط بها الجنات والمغارس، وتكون بفحوصها المزارع."[57]

لقد عرفت المنطقة محاصيل أخرى عديدة، ولكنها موجهة للاستهلاك المحلي، منها الأشجار المثمرة، على غرار البرتقال، الليمون، الرمان، العنب، المشمش.[58] هذا النوع من المحاصيل يستلزم السقاية والمتابعة الدائمة، عكس النخيل التي تعتمد على جذورها الطويلة، وربما تستغني النخلة عن السقاية إذا توفرت المياه الجوفية في مستوى قريب من السطح. كما أن النخيل معروف بمقاومته النسبية للملوحة. لكن عندما تشتد نسبة الملوحة وتصل إلى مستويات مرتفعة، كأن تصل نسبة الكلور إلى 4 غرام في اللتر، فإن أشجار النخيل تصبح عاجزة عن

الإنتاج. ومع ذلك فالنخيل يحتاج للسقي صيفا، مرّة في الأسبوع على الأقل. أمّا الأشجار المثمرة التي تحدثنا عنها فهي غالبا ما تزرع بين النخيل حتى تستفيد من ظلها أيام الحر الشديد وهي تحتاج إلى السقاية بكميات كبيرة في فصل الصيف، عكس فصل الشتاء حيث تسقى فيه مرة أو مرتين في الشهر. وتمتاز الأشجار في أنها شديدة الحساسية في مواجهة ظاهرة الملوحة، حيث يتغير لون أوراقها إلى الأصفر، وتتوقف عن الإنتاج، وإذا لم يسارع بعلاجها يكون مصيرها الحتمي الموت.[59]

أما بالنسبة للحبوب فإن الفلاحين يزرعونه مرتين في السنة. مرّة في الشتاء وأخرى في الصيف، وفي هذا الفصل يزرع القمح بين النخيل حتى لا يتضرر من أشعة الشمس الحارقة، بينما تكون المساحة المزروعة في فصل الشتاء أكبر. وما يلاحظ على زراعة الحبوب والشعير أنها تتطلب كميات كبيرة من الماء، على عكس النخيل والأشجار المثمرة، خاصة في فصل الصيف. كما يزرع الفلاحون خضرا موسمية بعضها خاص بفصل الشتاء وآخر خاص بفصل الصيف. ففي فصل الشتاء يزرعون مثلا: البصل، الثوم، الجزر، الخس، الفول، اللفت. أمّا التي تزرع في فصل الصيف فمنها: القرع، البطيخ المحلي، الطماطم، الفلفل، الباذنجان، الشمّام.
وتسقى الخضر الشتوية مرتين أو ثلاثة مرات في الأسبوع، في حين أن الصيفية تسقى يوم بيوم، وأحيانا يوميا.[60] وللاستدلال أكثر على نوعية المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها وارجلان، ينفرد الإدريسي بذكر مادة الحنطة.[61] كما يعتقد أحد الباحثين أن وارجلان كانت غنية بزراعة النخيل وأشجار الزيتون، بالإضافة إلى بعض الفواكه. وما نلاحظه في الختام أن سكان الواحات ورغم كثرة التأثيرات الحديثة، فلا يزالون يولون الاهتمام لأجنتهم وبساتينهم وواحاتهم، تجدها مزينة بمختلف الخضر الشتوية والصيفية، تحيطها بها وتحميها النخيل وأشجار البرتقال والليمون والرمان والعنب. هذا المنظر تجده يتكرر في واحات وارجلان، توات، تيكورارين، وفي سائر واحات بلاد المغرب.

3/ نظام الخماسة

اشتق مصطلح الخماسة من لفظ "الخمس"، وخمس الشيء هو جزء من خمسة أجزاء، وهو في العرف الاقتصادي لسكان الواحات يعني أن العامل الذي يشتغل في أرض غيره يأخذ

خمس الإنتاج كمقابل للمجهود الذي يبذله في خدمة الأرض. فهو إذاً يختلف عن نظام الأجرة. وهذا أعزام يصف بقايا هذا النظام بوارجلان في الفترة المعاصرة بالقول: "والخماسة بهذا الوطن كانت من المهن الشريفة، والغالب يتولاها من هو فقير وليس له ما يكفيه من المؤنة له ولعياله، ومعناها أخد الخمس، وقد كانت الخماسة بالخمس في التمر."[62] فنظام الخماسة إذاً عبارة عن عقد يقّيد العلاقة بين مالك الأرض والخماس[63] وفق شروط معينة، بعضها يقع على عاتق المالك، وهي مجمل الأعمال الكبيرة مثل:

- جلب الأسمدة إلى أرضه بوسائله ودفع أجرها.
- أن يهتم بنفسه بعملية الغطاسة كاتفاقه مع الغطاسين وإعطاؤهم أجرهم.

أما شروط المالك على الخماس فهي أن يكمل ما بقي لخدمة الأرض وهي أعمال تتمثل فيما يلي: - نقل الأسمدة إلى مكان زرع الأشجار، والخضر والفواكه.

- تسييج البستان ويكون غالبا بجريد النخيل
- الاهتمام بأمور السقاية
- الاهتمام بتأبير النخيل وتنقيتها في الأوقات الخاصة بها.
- قطع التمر ونقله إلى البلد أو كذلك الحطب.[64]
- حراسة البستان من اللصوص والمفسدين، ومن الحيوانات البرية.

بعد هذا الاتفاق، يستفيد الفلاح من خمس الإنتاج كما أسلفنا. وفي كثير من الأحيان يتبرع صاحب الأرض للخماس بجزء من حصته، خاصة إذا كان الإنتاج ضعيفا بفعل عامل من العوامل، أو أن يكون المالك من ذوي الفضل. ونعود لصاحب غصن البان لكي نرى تقييمه لهذا النظام فيقول: " وبهذه المهنة كان الناس في غاية الرفاهية والإفادة والعمران، فلما خلف من بعدهم خلف، ألفوا خدمة الحاضر بالأجرة اليومية، صاروا يسافرون ... وبهذا فقد فسد النظام وخلت البلاد، وبقيت تلك الأراضي الخصبة قاعا صفصفا."[65] أمّا تقييمنا فهو مختلف، إذ أن الأرض ليست ملكا للخمّاس، وأن هذا الأخير لا يستثمر فيها بمال أو تجهيز معين، لكن بالمقابل فهو يضحي بجهده ووقته، ولا يبدو أنه يجني في الأخير الشيء الكثير، إلا أن يدفع الفقر عن نفسه وعن عياله، وإن لم يكن كذلك، فما هو السبب الذي يجعل الأبناء يتخلون عن مهنة

الآباء. كما أن المحاصيل الزراعية في الصحراء كانت تتعرض أحيانا إلى التلف والفساد قبل جنيها، نتيجة قساوة الظروف الطبيعية، بالإضافة إلى العامل البشري، من خلال الفتن التي عرفتها المنطقة عبر السنين. هذه العوامل إذا لم يستوعبها المالك كان الخماس أكبر المتضررين. والنوازل في هذا المجال تؤكد سوء العلاقة بين المالك والخمّاس، ونظام الخماسة لا يوفر الرفاهية للجميع، بل ربما يساهم بشكل أو بآخر في الظلم الاجتماعي.

الهوامش:

1- سعيدوني (ناصر الدين)، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405ه/1985م، ص. 224

2- سعيدوني ، نفس المرجع ، ص. 225

3- يبدو أن استخدام العبارة كان مجازا، للتأكيد على مدى قدم هذه العيون.

4- أعزام (باباحمو إبراهيم بن صالح)، غصن البان في تاريخ وارجلان، (كراس مكتوب بخط اليد)، ص .88

[5]- لو افترضنا المبالغة في العدد، إلا أنه يفيد الكثرة. مجهول، تاريخ وارجلان، مخطوط، صورة طبق الأصل، ورقة/01

6- مارغريت فان برشم "Margueritte Van Berchem"، باحثة فرنسية قامت بالعديد من الحفريات حول سدراتة.

7 - رشيد بوروبية ، مدن مندثرة ، سلسلة فن و ثقافة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر1402ه/1981م، ص.45

8 – بوعصبانة (عمر سليمان)، معالم الحضارة الاسلامية بوارجلان، رسالة ماجيستير، معهد أصول الدين، جامعة الجزائر، 1412ه/1992م، ص .165

9 - بوروبية ، المرجع السابق، ص .45

10- مسعود مزهودي ، الاباضية في المغرب الأوسط ، جمعية التراث، القرارة- الجزائر، 1416ه/1996م، ص.128

11- بوعصبانة، المرجع السابق، ص.167

[12]- سعيدوني ، المرجع السابق ، ص . 242

[13]-Alain Romey,Histoire mémoire et societes, editions l'harmattan/awal, Paris/France, p.03

[14]- بوعصبانة ، المرجع السابق ، ص.166

15- أعزام ، المرجع السابق ، ص.91

16- طريقة للسقي تستعمل الى اليوم في منطقة توات و تيقورارين "أدرار و تيميمون"،تعرف باسم "الفقارة".

[17]-مصطلح "القلتة" لا يزال استعماله شائعا عندنا في الجزائر في منطقة السهوب والصحراء بالقرب من الواحات، وهي تفيد نفس المعنى المشار إليه في المتن، أي البرك التي تتجمع فيها مياه الأمطار، بل إننا نجد تجمعات سكانية أخذت اسمها من المنطقة التي تكثر فيها هذه الظاهرة.

18- بالحميسي (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1401ه/1981م، ص. 87

19- بوعصبانة ، المرجع السابق ، ص . 166

20- عرفت واحات المغرب هده الطريقة في جلب المياه من الآبار البعيدة،ولم يستغن عنها الفلاحون الا حديثا ،بعد ظهور المحركات الكهربائية.

21- أعزام ، المرجع السابق ، ص .92

22- بالحميسي ، المرجع السابق ، ص . 88

[23]- أعزام ، المرجع السابق ، ص . 94

[24]- بالحميسي ، المرجع السابق ، ص . 88

[25]- أعزام ، المرجع نفسه ، ص . 94

26- هذا الانقلاب الجذري عرفته كل واحات المغرب، إنما العيب ليس في ترك الأساليب التقليدية، و الأخذ بالتقنيات الحديثة. بل في عدم تدوين التقنيات القديمة بكل تفاصيلها ،ولحسن الحظ أن الروايات الشفوية احتفظت لنا بمعلومات قيمة في مجال الري و الفلاحة.

27- أعزام ، المرجع السابق ، ص . 95

[28]- أعزام ، المرجع السابق ، ص . 96

29- محمود اسماعيل عبد الرزاق ، الخوارج في بلاد المغرب ، الطبعة الثانية ، سنة 1406هـ/1985 ، ص 275.

[30]- Alain Romey, op.cit, P.16

31- **كان عدد سكان ورجلان سنة** 1881 م ، حوالي 4331 نسمة ، و بالنظر الى كون المنطقة عرفت زوال الكثير من القرى ، فلا يعقل أن يكون عدد سكن المنطقة في الفترة الوسيطة أقل من هذا العدد، بل ربما كان أكثر من هذا العدد بكثير .أنظر – سعيدوني ، المرجع السابق ، ص. 244

32- نتصور أن وارجلان ، و ما يحيط بها من قرى كثيرة ، معنية بهذا المقياس الاقتصادي .

33- الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامي (الحياة الإقتصادية والإجتماعية)،(ق3و4هـ/9و10م)، **الدار التونسية للنشر، تونس**1978م، ص. 35

34 – الادريسي (أبو عبد الله محمد الشريف) (ت.548هـ/1153م)، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح: محمد حاج صادوق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص.160

[35]- بالحميسي ، المرجع السابق ، ص.36

36- **قويدر بشار ،** تجارة القوافل و آثارها ، مجلة: طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث، مطابع قرفي، باتنة-الجزائر، 2001م، ص. 17

37- سعيدوني ، المرجع السابق ، ص . 244

38- بن عميرة (محمد)، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1404هـ/1984م، ص27.

[39]- ALAIN ROMEY, HISTOIRE TOPONYMIE ET TRADITION ORALE D’UNE OASIS ARABO-BERBERE: N’GOUSSA.CENTRE D’ETUDES MAGHREBINES 1973-1974, P.21.

[40]- بربندي عبد الرحمان، شجرة النخيل زراعتها وأهميتها الآفات الحشرية والمرضية، دار رسلان، دمشق- سورية، 2014 م، ص 28-.29

41- عادة ما تلد النخلة بمجرد بداية نموها، شجيرات أخرى من النخيل وتحيط بالجذع الأم، هذه الأشجار الصغيرة تفصل عن أمها لتزرع من جديد.

[42]- بربندي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 29.

[43]- Alain Romey, op.cit, p.22

[44]-الحموي ياقوت "شهاب الدين أبي عبد الله"، معجم البلدان، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت- لبنان، 1397 ه/ 1977 م، ص 371

42- أبو زكريا ، (يحي بن أبي بكر)، (ت.471ه)، سير الأئمة وأخبارهم، تح: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399ه/1979م، ص. 155

43- الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد) (ت.670ه)، طبقات المشائخ بالمغرب، ج02، تح: طلاي ابراهيم، (د.ن)، (د.م)، (د.ت)، ص507-508.

44- الدرجيني ، المصدر السابق، ج2، ص.343

45- أبو الربيع الوسياني، سير مشايخ المغرب، تحقيق وتعليق:إسماعيل العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985م، ص.

46- بالحميسي ، المرجع السابق ، ص. 83

47- عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الآسيقيين(1493-1591م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، (د.ت)، ص. 177

48- سعيدوني ، المرجع السابق ، ص . 243

49- سعيدوني ، نفس المرجع، ص . 243

50- سعيدوني ، نفسه ، ص . 244

51- بوعصبانة ، المرجع السابق ، ص . 164

52- محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ص . 275

53- أبو زكرياء ، مصدر سابق ، ص . 113.

54- عثمان الكعاك ، موجز التاريخ العام للجزائر، دار الغرب الإسلامي ، ط01، بيروت لبنان ،2003 م، ص.123

[58]- ALAIN ROMEY, HISTOIRE TOPONEMY, P. 25

56- إن ارتفاع نسبة الملوحة في التربة يؤثر سلبا على المحاصيل الزراعية عموما، و في وارجلان تتعقد المشكلة لأن المنطقة أصبحت تشهد ظاهرة تصاعد المياه الجوفية.

[60] - ALAIN ROMEY, OP.CIT, P.25

58- الإدريسي ، المصدر السابق ، ص .160

59- أعزام ، المرجع السابق ، ص. 97

60- نتيجة تأثير هذا المصطلح على العرف الجماعي لسكان الواحات الصحراوية، فقد ظل الناس إلى وقت قريب يرددون هذا الاسم ويطلقونه على الفلاح الذي يشتغل في أرضهم كأجير يومي.

62- تقع البساتين خارج أسوار البلدة ، و تقدر المسافة أحيانا بين القصور وواحات النخيل بعدة كيلومترات .

63- أعزام ، المرجع السابق ، ص . 98

الرحلة العلمية وأهميتها

في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد (ت:482هـ/1364م)

الأستاذة الطيب بوجمعة نعيمة، جامعة تيارت

الملخص:

خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك، وكانت الرحلة من الوسائل التي مكنت الإنسان من إفراغ هذه الرغبة. لقد تعددت الرحلات وتنوعت أشكالها ودوافعها، ولكن تبقى المسألة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوافع الرحالة نفسه، وعليه يمكن اعتبار الرحلة من أكثر المجالات التي تزيد الإنسان معرفة وثقافة، ومن هذا المنطلق تعتبر الرحلة العلمية من أهم أنواع الرحلات التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية. وكانت الرحلة في حياة ابن مرزوق الحفيد مهمة جدا، لأنها ساهمت في صقل شخصيته، إذ يعد موسوعة علمية متنوعة، فقد نهل من علوم كثيرة وأجاد فنونا عديدة، ونتيجة لذلك ظهر نبوغه في علوم عديدة ومتنوعة، فقد شق كغيره من العلماء الأفذاذ طريق العلم بكل حماسة ومثابرة، رغبة منه في تحصيل القدر الكافي من العلوم والمعارف، وساهمت الرحلة العلمية في هذا البناء والتكوين الفكري والثقافي.

ومن خلال هذا البحث "**الرحلة العلمية وأهميتها في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد (ت:482هـ/1364م)**"، سنحاول تسليط الضوء على الكيفية التي ساهمت فيها الرحلة في استجماعه لعلومه والأماكن التي قصدها في رحلاته لاسيما وأن الرحلة العلمية هي أكبر برهان على بلوغ علمائنا العظام مكانة تعكس علو الهمة وسمو القصد، وشرف الغاية والوسيلة لطلب العلم، وهي وإن اعتبرناها إحدى أنواع الرحلات فهي أشرفها وأكثرها قيمة وغاية يترقي إليها الإنسان في حياته، كيف لا وهي الرحلة التي تجمع طلبة العلم بعلماء عصرهم فيتزودون منهم العلم والقيم.

God created man as a lover of movement and mobility, providing him with the mind as a support for that reason. The journey was one of the means that enabled man to offload this desire. Journeys were numerous and took a variety of

forms and motives, yet the issue remains closely linked to the travelers' reasons themselves. Thus, the journey could be considered as the important areas which add more knowledge and culture to man. In this sense, the scientific journey is one of the most important journeys known by the Arab-Islamic civilization.

This journey was very important in the life of Ibn Marzouq El-Hafid, because it contributed to the refinement of his character, as Ibn Marzouk is considered as a variety of scientific encyclopedia. He learnt from many sciences, mastered many arts, and as a result his genius appeared in many and varied sciences. Like his fellow scientists, he inclined to the road of knowledge with enthusiasm and perseverance with the desire to obtain enough science and knowledge. His scientific journey contributed in this construction and intellectual and cultural configuration.

Through this research work, **"The scientific journey and its importance in the march of Ibn Marzouk"**, we will try to shed light on how the journey contributed to his collection of his knowledge as well as the places he used to go, especially since the scientific journey is the biggest proof of the achievement of our eminent scientists a position which reflects the high vigor and purpose, and the honor of desire and means of the seeking of knowledge; which, if we consider it one of the kinds of trips, it is the most noble and valuable man need to progress in his life. It is the journey that gathers science students and scholars of the times to take from them knowledge and values.

الكلمات المفتاحية: The scientific journey, Ibn Marzouk, scientists,Tlemcen.

مقدمة:

خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك، وتشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا وغيرها أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل، ولم يكف عن التفكير فيما تضمنه العالم من الخلق والموجودات وفيما يحمله من الكنوز والخيرات، لذا تعددت الرحلات وتنوعت أشكالها ودوافعها ولكن تبقى المسألة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوافع الرحالة نفسه[1]. وهنا نستعين بما قاله المسعودي: "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه"[2]، وعليه يمكن اعتبار الرحلة من أكثر المجالات التي تزيد الإنسان معرفة وثقافة[3]. ومن هذا المنطلق، كانت الرحلة في حياة ابن مرزوق الحفيد

(ت:842هـ/1364م) مهمة جدا، لأنها ساهمت في صقل شخصيته، إذ يعد عَالمُنا موسوعة علمية متنوعة فقد نهل من علوم كثيرة وأجاد فنونا عديدة، فكان كما وصفته إحدى كتب التراجم: "آية في تحقيق العلوم والإطلاع المفرط على النقول والقيام الأكمل على الفنون بأسرها"[4]. ونتيجة ذلك ظهر نبوغه في علوم عديدة ومتنوعة؛ وهذا التميز جاء من كون الزاد العلمي له –كما سنرى–متعدد المناهل والروافد، فقد كان كغيره من العلماء الأفذاذ قد شق طريق العلم بكل حماسة ومثابرة، رغبة منه في تحصيل القدر الكافي من العلوم والمعارف.

ومن خلال هذا البحث"**أهمية الرحلة العلمية في حياة ابن مرزوق الحفيد**" سنحاول تسليط الضوء على الكيفية التي ساهمت فيها الرحلة العلمية في استجماعه لعلومه والأماكن التي قصدها في رحلاته، لاسيما وأن الرحلة العلمية هي أكبر برهان على بلوغ علمائنا العظام مكانة تعكس علو الهمة وسمو القصد، وشرف الغاية والوسيلة لطلب العلم، وهي وإن اعتبرناها إحدى أنواع الرحلات فهي أشرفها وأكثرها قيمة وغاية يترقي إليها الإنسان في حياته، كيف لا، وهي الرحلة التي تجمع طلبة العلم بعلماء عصرهم فيتزودون منهم العلم والقيم.

1– الرحلة بين المفهوم والغاية:

لقد تميز الرحالة العرب المسلمين بكثرة رحلاتهم، وترجع أهمية هذه الظاهرة الحضارية إلى أنها من الممارسات التي أكد عليها الدين الإسلامي، والذي طالب معتنقيه بالرحلة في سبيل العلم والمعرفة،فالإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقي إلا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة، فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية[5]. ومن هنا، كان لابد من دراسة مفهوم الرحلة واستيضاح مفهومها اللغوي واستخدامها الاصطلاحي والغاية والدوافع التي حركت لها.

من الناحية اللغوية الرحلة جاءت من أصل "رَحَل"، والرَحْلُ هو مركب للبعير والناقة. والرحل: منزل الرجل ومسكنه وبيته، وارْتَحَلَ البعير رحلة، سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: "ارتحل القوم عن المكان ارتحالا"[6]. أما الرِحلة: اسم للارتحال والمسير، وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرحلة: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده. يقال رَحَلَ الرجل: إذا سار، وقوم رُحل: أي يَرْتَحِلُونَ كثيرا[7]. والرحلة تعني الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا[8].

أما اصطلاحا لم يتفق الباحثون على مفهوم جامع لاصطلاح الرحلة، فالمؤرخون يرونه جزءا من علم التاريخ، والجغرافيون يدخلونه ضمن علم الجغرافية، فيما يعده دارسي الأدب مصدرا من مصادر التاريخ للأدب، بمعنى أن كلا يراه حسب توجهه واختصاصه، ولعل هذه المفاهيم مجتمعة تُكون المعنى العام لاصطلاح الرحلة[9]. وحتى لو أخذنا بمعنى أن الرحلة في بعض أشكالها فن أدبي له مميزاته وخصائصه واستقلاله، ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا القول خلو كتب الرحلات من كل المعارف التاريخية والجغرافية[10].

وعليه كانت الرحلة عونا كبيرا للمؤرخ والجغرافي معا، ولعل من بين أهمية الرحلة هو صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع، هذا علاوة على ما وسعته الرحلة من أفق ومدارك كل من الجغرافي والمؤرخ بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام، ولم تقتصر أهميتها على الجانبين التاريخي والجغرافي، بل كان لها شأن في الأدب والفلسفة وغيرها من المجالات المعرفية الأخرى[11]. وهذا يجعلنا في نهاية المطاف نقول أن الرحلة هي مجال شامل لمختلف أنواع العلوم والفنون، فهي فن مختلط لا يجمع شتاته سوى صاحب الرحلة[12].

وفيما يخص الدوافع التي حركت أهل المغرب الإسلامي للقيام بالرحلة، فهي متعددة من طلب العلم، وحج بيت الله الحرام، وحب الاستكشاف والسفارة والدافع الاقتصادي فضلا عن الدافع الشخصي[13]. ولكن، يمكننا تحديد سببين رئيسيين للقيام بها، وهما: الأول التزامهم بأوامر الباري عز وجل الذي يحثهم على طلب العلم، فقد جعله واجبا على بعضهم، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[14]. والتزامهم بوصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأن ذلك واجب ديني، وهذا يعني أنه واجب على كل مسلم أن يطلبه، وأن يسعى إليهويناله أيا كان مصدره ومكان تواجده، ومن هنا فإن الرحلة هي من أول السبل لطلب العلم، ومن هنا نجد أن الدافع العلمي مرتبط بالدافع الديني فالدين نفسه يدعو إلى العلم والمعرفة[15].

والعامل الثاني أن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين أداء فريضة الحج، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[16].

ونتيجة ذلك، كان المغاربة يتسابقون لأداء الركن الخامس من الإسلام وفي طريقهم إلى مكة لأداء الفريضة، كانوا يغتنمون الفرصة فيزورون مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة في طريقهم وكانوا يستفيدون ويفيدون[17].

أما عن أنواع الرحلات فقد تنوعت تنوعا كبيرا، فمنها: الرحلة العلمية والتي سنتطرق إليها فيما بعد، أما الدينية نعني بها رحلة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، والرحلات الاستكشافية، الاستطلاعية والسفارية وغيرها من الأنواع[18].

2- أهمية الرحلة في شخصية طالب العلم:

كانت مسألة طلب العلم بالنسبة للمسلمين حافزا نحو العبادة والتقرب إلى الله طلبا للرضا ودلالة على الإيمان، وهو الذي يقول في محكم كتابه: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[19]، وإن المرء ليعجب لما يحدثنا به التاريخ عن العلماء المسلمين من أنباء رحلاتهم المضنية التي قاموا بها من أجل العلم رغم مشقة السفر وتباعد المسافات، فيجتازون العقبات ويستهينون بالصعوبات في سبيل العلم، لا يطمحون من وراء ذلك إلى جاه أو وظيفة ولا يطمعون في دنيا يصيبونها، وكان ديدنهم الفائدة العامة ومنفعة الجميع فضلا عن مرضاة الباري عز وجل.

إن التأكيد على الرحلة العلمية وأهميتها وتأثيرها على العالم وطالب العلم من قبل العلماء العرب المسلمين نجد لها صدى في أحاديثهم، فهذا الإمام ابن صلاح في كتابه علوم الحديث يقول: "إذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده فليرحل إلى غيره". وهذا تأكيد واضح على أهمية الرحلة في حياة طالبي العلم في ذلك الوقت وحتى الآن هي ضرورية. وقد وصل التشكيك في قدرة العالم في حال عدم سفره وانتقاله في طلب العلم، ما قاله يحيى بن معين: "أربعة لا تؤنس منهم رشدا: حارس الدرب ومنادي القاضي وابن المحدث ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث"[20].

لقد شكلت الرحلة العلمية أحد المميزات التي اصطبغ بها طالب العلم إذ غدت أمراً لابد منه من أجل اكتساب الفوائد عبر لقاء من هم أكثر علما والأخذ منهم، ومن هنا يتضح لنا من أن الرحلة مسألة ضرورية في الارتقاء بقدرات العالم ودفعه إلى الأمام، وفي هذا الصدد كتب ابن خلدون يقول: "الرحلة لابد منها في طلب العلم، ولقاء المشيخة مزيد من كمال في التعلم، والسبب في ذلك

أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما ورسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"(21). على العموم إن للرحلة العلمية فوائد عديدة تعكس أهميتها وتأثيرها في شخصية طالب العلم، وتظهر مدى ضرورة القيام بها، ويمكن تحديدها في الآتي:

أ. التمكن من الجوانب العلمية.

ب. نشر العلم الذي تحصل عليه العالم.

ت. اتساع الثقافة العامة.

ث. تنمية الفضائل وتكاملها في النفس.

ج. كسب صداقات جديدة تساهم في تعزيز القدرات والأفق.

3- جوانب من حياة ابن مرزوق الحفيد:

عرف عن ابن مرزوق الحفيد على أحد من أبرز الشخصيات التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، هذه الشخصية التي تركت أثرا وتأثيرا في الحياة الثقافية والعلمية في البلاد عموما والحاضرة تلمسان تحديدا، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني(22)، ويكنى بـ"أبي عبد الله"، ويقال له"الحفيد" تمييزاً له عن جده شمس الدين محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب (ت:781هـ) نظرا لتشابه اسميهما وكنيتيهما.

وذكر عالمنا أن تاريخ ميلاده هو ليلة الاثنين 14 ربيع الأول 766هـ/1364م في مدينة تلمسان التي نشأ فيها(23)، ولا تتوفر معلومات كثيرة عن حياته الأولى، ولكن علينا أن نتذكر من أنه نشأ في بيت علم ومعرفة وصلاح ودين، وما كان سائد آنذاك فالأب العالم هو ألصق بابنه وأول أساتذته احتكاكا به، ولكننا نجد أن ابن مرزوق كان أكثر حظا من غيره إذ لم يكن الأب وحده عالما وإنما الأسرة بأكملها فالجد من أعلم أعلام تلمسان والمغرب الإسلامي كافة والعم كذلك، وهذا ما ساهم على ما يبدو لي في نبوغه منذ الصغر، وهنا نستعين بما قاله البلوي بهذا الخصوص حين قال: "وهو يروي عن جده لأبيه السيد الخطيب نفع الله به جميع مروياته بالإجازة العامة له من

صغره ويروي عنه أيضا بوساطة أبيه وعمه"[24]. إذن فقد أخذ علومه الأولى عن عائلته، حفظ القرآن الكريم ودرسه على أبيه وجده، كما تتلمذ أيضا على يد عمه محمد وعلى يد بعض شيوخ تلمسان[25]، ثم تلا القرآن الكريم بقراءة ورش عن نافع على يد شيخه عثمان الزروالي، فكان كما وصفه المقري: "آية في تحقيق العلوم والاطلاع المفرط على النقول والقيام التام على الفنون بأسرها"[26].

أما عن صفاته وأخلاقه فقد اتفق المترجمون على أنه كان يتوفر على صفات عالية ونادرة تدل على النبوغ والعبقرية والملكات الفكرية، وأنه كان على هامش كبير من التواضع وحسن الخلق، وجمال الطبع وأنس المعاصرة وعلو الهمة، ومن بين بعض من صفاته خشية الله عز وجل وهي من أولى الصفات التي أكد عليها الإسلام، فإن خشية الله هي التي تجعل العالم يؤدي ما يجب عليه، وكلما كانت خشيته أكمل صار إخلاصه أعظم وصار أداؤه للأمانة أكمل، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾[27]، كما امتاز بأخلاقه فكانت مثالا يحتذى بها وهو ما نستخلصه مما كتبه المقري عنه: "وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم فكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم يأخذ في البكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب"[28]. ويعلق التنبكتي على تمسك عالمنا بدينه وحرصه عليه حين يقول: "سيف الله على ذوي البدع ممن عظم نعمة الله به على خلقه"[29]، وهذا ما يؤكده الآجري كصفة من صفات العالم وأخلاقه حين يقول: "فمن صفات العالم أن يكون لله شاكرا وله ذاكراً دائم الذكر بحلاوة حب المذكور منعم قلبه بمناجاة الرحمن يعد نفسه من شدة اجتهاده خاطئا مذنبا ومع الدؤوب على حسن العمل مقصرا"[30]. وتتجلى صفات الشكر وحسن العمل في الصورة التي ذكرها القلصادي حين قال: "كان من رجال الدنيا والآخرة وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة"[31].

كما عرف بالتواضع وفي هذا الصدد كتب القلصادي في رحلته يصف تواضع شيخه قائلا: "الشيخ الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي حل كنف العلم والعلاء"[32]. وعرف أيضا بصبره وبحب الناس لمجالسته والاستماع

إليه، إذ تشير المصادر إلى ذلك وفي هذا يقول المقري: "وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية، واشتهر ذكره في البلاد فكان بذكره تطرز المجالس، وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس مشوقة إلى ما يحكى عنه"(33)، وهذا الحب راجع بطبيعة الحال إلى تواضعه وإنصافه وقوله للحق مهما كانت عواقبه.

ومن خلال ما سبق لم يكن عالمنا إلا نموذجا لفضائل الأعمال والصورة المثلى للعالم الحقيقي، الذي لا غرض له من العلم إلا خدمة الناس والتقرب به زلفى إلى الله عز وجل ليس أكثر، وهذا يظهر لنا بعد المسافة الفاصلة بين شيخنا ومضمون حديث المصطفى: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليهِ فَهُوَ فِي النَّار"(34).

كما كان واحدا من الأئمة الذين يفزع إليهم في الفتوى بدليل ما نقله لنا الونشريسي والمازوني في نوازلهما، فقد ورد لدى الونشريسي: "شيخا الفتوى بتلمسان سيدي محمد بن مرزوق وسيدي أبو الفضل قاسم العقباني رحمهما الله ورضي عنهما"(35)، وصرح المازوني في مقدمة نوازله بمصادر فتاويه التي اعتمدها، فقال: "واقتصرت في جميع ذلك على أجوبة المتأخرين من علماء تونس وبجاية والجزائر وأشياخنا التلمسانيين كشيخي ومفيدي شيخ الإسلام علم الأعلام العارف بالقواعد والمباني سيدي أبو الفضل قاسم العقباني وشيخي الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ذي التواليف العجيبة والفوائد الغريبة مستوفي المطالب والتحقيق سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق"(36).

ومهما يكن من أمر فإن عالمنا لم يتول وظائف رسمية لأن مبلغ همه كان تحصيل العلم والمعرفة وتلقينهما لطلابه عن طريق التدريس والإفتاء والتأليف، كما كان مشاركا في حل النزاعات والمشاكل الحاصلة في مجتمعه فكان يتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان واليد، وهو ما نستشفه من قول الونشريسي: "وقد تصدى لتغيير ذلك وشدة النكير فيه شيخ شيوخنا الشيخ المحصل أبو عبد الله سيدي محمد بن مرزوق بَرّد الله ضجعته وأسكنه جنته، فانقطعت تلك المفاسد من تلمسان طول حياته رحمه الله ثم عادت بموته رحمه الله بل زادت"(37).

ولكن من المؤكد وإن لم تكن الإشارات واضحة فيها أنه قد شغل مناصب في مجال التعليم، وعمله في هذا المجال لم يكن في تلمسان وحدها وإنما نشط في كل مكان ذهب إليه، أما بالنسبة للخطبة فجل من حقق مخطوطاته من الباحثين المعاصرين نفوا أن يكون عالمنا قد تولى الخطبة وأن

صفة "فارس المنابر والكراسي" أطلقت عليه تشريفا له وفقط، ولكن العكس تماما فالمصدر الوحيد الذي يؤكد على أنه كان خطيبا وإماما بمسجد العباد هو ما ذكره لنا تلميذه المُجاري في سياق حديثه عن أخذه بعض العلوم عن شيخه الحفيد أنه تولى منصب إمام وخطيب إماما للمصلين في مسجد منشر الجلد وخطيبا في مسجد العباد، حيث كتب يقول: "قرأت عليه جميع مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل للإمام أبي عمرو بن الحاجب ثم أعدت قراءته إلى الأحكام قراءة تفهم وتحقيق ونظر وتدقيق في المرتين، قرأت أكثره بمسجده بمنشر الجلد وباقيه بمسجد خطبته بالعباد"[38]، وهو ما تؤكده لنا النصوص الواردة في كتب التراجم.

وبعد حياة حافلة بالبحث والتأليف والدرس توفي عالمنا مساء يوم الخميس 14 شعبان 842هـ/1364م . وأكد هذا التاريخ تلميذه القلصادي إذ شهد وفاته وحضر جنازته فهو ممن لازمه في آخر سنوات حياته وذلك عن عمر ناهز الست والسبعين سنة، وصُلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة ودفن بالروضة غربي المسجد في جنازة مهيبة حضرها السلطان وكبار رجال الدولة والعلماء، ذكر هذا المشهد بالقول: "كانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه لم أر مثلها فيما قبل، جمعنا الله وإياه في دار كرامته وأسف الناس لفقده وآخر بيتين سمع منه قبل موته:

إنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُم   فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمُ بِسَفْكِ دَمِي"[39].

4- رحلاته العلمية:

لم تكن التركيبة الشخصية لعالمنا من خلال دراستنا لها ترضى بالقليل أو المحدود من العلوم والمعارف، إذ حرص منذ نعومة أظافره على طلب العلم والتتلمذ على يد كبار العلماء، كيف لا وهو سليل أسرة لها صيتها وسمعتها العلمية. ومن هنا كانت الأسرة هي المدرسة الأولى التي اغترف منها حب العلم والتعلم، إذ كان جده ابن مرزوق الخطيب في مقدمة من غرس فيه حب العلم فضلا عن والده وعمه، وبعد ذلك انتقل إلى رحاب مدينة تلمسان يتنقل بين مدارسها ومساجدها سعيا وراء كل ما هو مفيد وصالح من العلوم في شتى المجالات ومن هنا فإن مصادر ثقافته كانت متنوعة وكثيرة جمعها عبر مسيرة طويلة من الجهد والعمل الدؤوب.وإذا قمنا بإحصاء العلوم والفنون التي درسها عن شيوخه والتي درسها هو فيما بعد ، توصلنا إلى أنه كان في إمكانه أن يأخذ كل العلوم التي كانت

متداولة في زمانه في مدارس ومجالس العالم الإسلامي، وهي العلوم التي كان يدرسها أشياخه ونرجح أنه أخذ عنهم أكثرها، وإذا كانت الدلائل تنقصنا لإثبات تعلم بعضها، فإن علمه الواسع وشهرته وسعة اطلاعه التي أبداها في ما كتب وقال تدعونا للاعتقاد بأنه أخذ أكبر قدر من كل هذه العلوم التي كانت متداولة في تلمسان وحتى خارجها.

ولقد حرص مثل بقية علماء عصره على الاجتهاد في السفر من أجل طلب العلم والاستزادة من معارف وعلوم الآخرين، لاسيما وأنه تحصل على ما يمكن تحصيله من العلوم والمعارف في مدينته تلمسان، وأخذت نفسه تتوق إلى المزيد من العلم، فامتدت خطواته العلمية الرصينة إلى أمصار العلم الأخرى في العالم الإسلامي، فانتقل ما بين مدن المغرب والمشرق الإسلاميين، فساهم ذلك في تنوع ثقافته وتعدد معارفه وتنوعها بين علوم الحديث والفقه والبلاغة وغيرها من الميادين الأخرى، وهذا ما جعل أبو الفرج بن أبي يحي الشريف التلمساني يقول عنه: "هو شيخنا الإمام العالم العلم جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا راسخ القدم"(40).

أ- رحلاته إلى تونس:

كانت تونس المقصد الأول في مسيرته العلمية خارج تلمسان، وفيها تلقى علوم القرآن كالتفسير والفقه وأصوله وغيرها من علوم القرآن على أيدي علماء أجلاء كالإمام ابن عرفة وأبي العباس القصار وغيرهم من الشيوخ(41). ويشير المقري إلى حادثة تعكس علو كعبه وسمو منزلته، قائلا: "لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان، فأجابهم إلى ذلك وعينوا له محل البدء فطالع فيه، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك وهو قوله تعالى ﴿**فمثله كمثل الكلب**﴾ (42) وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به، فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة وساقها أحسن مساق، وأنشد عليها الشواهد وجلب الحكايات، حتى عد من ذلك جملة ثم قال في آخرها: فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله، غير أن فيه واحدة ذميمة، وهي إنكاره الضيف، ثم افترق المجلس، وأخبرني أنه أطال في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر"(43). ومن خلال هذه الرواية نستنتج من أن ابن مرزوق الحفيد، كانت له المقدرة والعلم على الرد والإجابة مهما كانت طبيعة السؤال أو

الموضوع، فضلا عن قدرته في استرجاع معارفه وعلومه حينما يكون ذلك ضروريا وهذا ما يذكرنا بفوائد الرحلة.

ومن الأمور التي حدثت خلال رحلته إلى تونس وتدل دلاله واضحة على شهرته وانتشار أخباره خارج حدود مدينة تلمسان حادثة لقائه بالشيخ ابن عرفه، إذ يذكر المقري[44] الحادثة بالقول: "ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال: حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفه رحمة الله تعالى أول مجلس حضرته فقرأ ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ**﴾[45] فجرى بيننا مذاكرات رائقة وأبحاث حسنة فائقة، منها أنه قال: قرئ (يعشو) بالرفع و(نقيض) بالجزم، ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته وذكر أن في النسخة خللاً وذكر بعض ذلك الكلام، فاهتديت إلى تمامه فقلت: يا سيدي، معنى ما ذكره أن جزم (نقيض) بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظة لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة، فوافق رحمه الله تعالى وفرح- كما أن الأنصاف كان طبعه- وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط، فقلت: نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو (الذي يأتيني فله درهم) من ذلك، فنازعوني في ذلك، وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل، فقلت: قال ابن مالك فيما يشبه المسألة: وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط، وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

كَذَاكَ الَذِي يَبْغِي عَلى النَاسِ ظَالِمًا   تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِب مَا صَنَعْ

فجاء الشاهد موافقا للحال" [46].

ويذكر ابن غازي في مختصره بعد الحديث الذي دار بينهما بخصوص ما سلف من أن ابن عرفه عرف أن محدثه هو ابن مرزوق الحفيد، حيث كتب يقول: "فقال ابن عرفه: فأنت إذن أبو عبد الله بن مرزوق، قال: نعم، فرحب به"[47]، ويذكر المقري من أن ابن عرفه قد قام بواجب الضيافة نحو ابن مرزوق، حين قال: "أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انقضى المجلس"[48]، وعلى ما يبدو أن هذه الحادثة ربطت بين الاثنين علاقة صداقة ومرافقة امتدت لوقت طويل كان من أبرز ملامحها هو قيامهما بالحج معا.

ومن خلال الإشارات التي ترد في كتب التراجم والتواريخ نجد أن ابن مرزوق الحفيد كان دائم الحركة والتواصل مع مشايخ تونس وخلالها يتبادل الآراء ويزيد في علمه ويعلمهم مما علم، ومن هذه الروايات ما أشار إليه ابن عرفة عن محاورة على مائدة الطعام بين عالمنا وقاضي الجماعة يعقوب بن أبي القاسم الزعبي وهذا نصها: "وقد ذكر لي عن الشيخين العالمين أبي عبد الله محمد بن مرزوق والشيخ قاضي الجماعة الزعبي رحمهما الله تعالى أنهما اجتمعا في وليمة، وسئلا عن رجل رأى مصحفا في نجاسة، وكان على غيره طهارة، فهل يجب عليه فورا أخذها ولابد من تيممه؟، فقال القاضي المذكور: يجري ذلك على من انتبه في المسجد قد احتلم، فقيل: يجب عليه فورا الخروج، وقيل يتيمم، فرد عليه الشيخ الآخر -يقصد ابن مرزوق الحفيد- بأن هذه الصورة أشد فيجب فورا إخلاصه من المفسدة، لأنه إن تركه اختيارا كان ردة، بخلاف بقائه جنبا في المسجد، فإنه لا يعد ردة وهو ظاهر والله سبحانه يرحم الجميع بمنه وفضله"(49).

ومن شيوخه في هذه الرحلة يبرز اسم الشيخ أبو العباس الأزدي التونسي النحوي القصار، وصرح ابن مرزوق الحفيد بالأخذ عنه في شرحه على البردة ووصفه بالقول: "الشيخ الفقيه الإمام الأستاذ النحوي اللغوي الأعرف الحافظ المتقن الرواية الصالح العارف"(50). وكذا الشيخ أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني نزيل تونس ومفتيها وفقيهها وحافظها وإمامها بالجامع الأعظم، ومن أبرز شيوخه ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي شيخ الإسلام بالمغرب وإمام تونس وعالمها وخطيبها أخذ عنه وحج معه سنة 790هـ هو ذكر بداية لقائه معه في كتابه "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة"(51).

ب- رحلته إلى فاس:

وبعدها شد الرحال إلى المغرب الأقصى تحديدا إلى الحاضرة فاس، وفيها اعتكف ولقي بها علماء بارزين من بينهم أبي عبد الله محمد بن علي بن حياتي الغافقي الغرناطي الفاسي النحوي، وأبي سالم اليزناسي قاضي الجماعة في مدينة فاس ومفتيها أخذ عنه الفقه وتعلم منه أمور الإفتاء بالشكل الذي جعله مميزا فيما وقد أثنى عليه كثيرا، كما تتلمذ على يد أبي محمد عبد الله بن عمر الوانغيلي الفاسي الضرير المفتي وأجازه بما له من المصنفات والمرويات، ومن شيوخه أيضا أبو زيد بن صالح المكودي الفاسي، والعلامة المحقق الدارس أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد المصمودي.

ومن علماء الأندلس الذين أخذ عنهم في فاس يبرز اسم الشيخ أبي عبد الله الحفار الأنصاري محدث الأندلس أخذ عنه بفاس وأجازه، والشيخ أبو عبد الله بن علاق حافظ الأندلس ومفتيها ومحدثها(52).

ج- رحلاته للمشرق الاسلامي:

وبعد رحلتي تونس وفاس عاد ابن مرزوق الحفيد إلى موطنه تلمسان بعدما اكتسب علوماً عديدة، وعلى ما يبدو فإن رغبة الرحلة في طلب العلم رغم ذلك ظلت تراوده، فقرر الذهاب إلى بلاد المشرق الإسلامي فكانت أولى محطاته بلاد مصر أين التقى فيها بنخبة من العلماء المصريين وغيرهم، فأخذ عن العديد منهم أبو البقاء تقي الدين بن حاتم المصري، وأبي اليمن عز الدين الربعي ابن الكويك الدمشقي والدماميني بهاء الدين الإسكندراني المخزومي أخذ عنه الموطأ برواية يحي بن يحي الليثي، وأبي عبد الله شمس الدين الغماري المالكي المحدث الرواية أخذ عنه ووصفه بأنه آخر النحاة بالديار المصرية، والحافظ أبي الفضل زين الدين الكردي العراقي المصري محدث الديار المصرية، وابن الكويك الربعي التكريتي أخذ عنه في القاهرة في رحلة حجه الثاني فحدثه بجملة من مصنفاته وأجازه، أما الفيروز آبادي فلازمه وأخذ عنه علوم العربية، وقرينه الحافظ ابن حجر العسقلاني لقيه بالقاهرة وشاركه في كثير من الشيوخ وسمع كل منهما من الآخر وأخذ عنه الحفيد قطعة من شرح البخاري.

وبعد ما أخذ كفايته من العلوم في مصر قرر التوجه إلى الحجاز وتحديدا إلى مكة المكرمة رفقة شيخه الإمام ابن عرفة من أجل أداء فريضة الحج وكان ذلك بين سنتي 790هـ و792هـ، ولقي بها عددا من العلماء والشيوخ الأجلاء من أمثال نور الدين العقيلي، كما لازم المحب ابن هشام ودرس على يديه أصول اللغة العربية وآدابها، وروى صحيح البخاري على الشيخ ابن الصديق، ثم عاد إلى وطنه ليتولى مهمة الإقراء والتدريس بتلمسان(53).

وفي سنة 819هـ عاد عالمنا مرة أخرى إلى الحجاز لأداء فريضة الحج للمرة الثانية، وهناك على حصل على إجازات من علماء أندلسيين أمثال محمد بن الجوزي، وأبي القاسم بن الخشاب، وابن عبد الله محمد القيحاطي، والمحدث بن علي والحافظ ابن علاق(54)، وبعدها رجع إلى تلمسان حاملا معه تراثا علميا ضخما خلاصة تنقلاته ورحلاته واحتكاكه بغيره من علماء عصره ببلادي

المغرب والمشرق الإسلاميين، وبهذا غدا بحرا في مختلف العلوم خاصة الشرعية منها، فاشتهر ذكره في البلاد وصار يدعى بـ"شيخ الإسلام وعالم الدنيا".

الخاتمة:

1. أصبحت الرحلة على اختلاف أنواعها عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي، فرحل الناس لزيارة الأماكن المقدسة ولقوا في سبيل ذلك الكثير من المشاق والصعوبات، ورحل آخرون في طلب العلم وتحملوا مثلما تحمل غيرهم، ورحل فريق آخر في سبيل الاتجار حيث اتسعت الأسواق الإسلامية، وهناك من دفعه حب الاستطلاع إلى الترحال وليس همه إلا إشباع فضوله المعرفي بالإضافة إلى الساعين في سبيل الرزق وكسب العيش.

2. غدت الرحلة العلمية ظاهرة حضارية، وترجع أهميتها إلى أنها من الممارسات التي أكد عليها الدين الإسلامي، والذي طالب معتنقيه بالرحلة في سبيل العلم والمعرفة هذا ما ميز العلماء العرب المسلمين بكثرة رحلاتهم سعيا وراء كل شي جديد.

3. أظهر لنا البحث من أن شخصية علمية مثل ابن مرزوق الحفيد لم تكف بما جاد الله عز وجل عليها من معرفة وإنما سعت في الأرض من أجل طلب العلم والمعرفة، وهو تطبيقا إلى سنة الدين الإسلامي من سنة حسنة في طلب العلم والسفر من أجله.

4. كانت الرحلة عند ابن مرزوق الحفيد متعددة الاتجاهات ومتنوعة المصادر، حينما تنقل في بلاده المغرب الإسلامي، وبعدها شد الرحال إلى بلاد المشرق الإسلامي، وهناك فاد واستفاد مما كان موجودا.

5. كانت الرحلة العلمية من أهم وسائل الاتصال والتواصل بين العلماء في العصر الإسلامي، وهي التي فتحت آفاقا واسعة أمام العلماء وطلبة العلم في الاستفادة من جهود وقدرات الآخرين.

الهوامش:

---

[1]-فؤاد قنديل، **أدب الرحلة في التراث العربي**. مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، ط2، 2002، ص ص:17-21.

[2]-المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تح: محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط4، 1964، ج: 1، ص: 9.

[3]- حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**. عالم المعرفة، الكويت، ط1989،1، ص: 86،17.

[4]- التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**. تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1989م، ج:1، ص:500.

[5]- حسين محمد فهيم، المرجع السابق، ص:82.

[6]- ابن منظور، **لسان العرب**. دار صادر، بيروت، د.ت.ن، مج: 11، ص:274،280.

[7]-الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**. تح: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إ: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005، ص:1005.

[8]-عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، **الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها**. الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1996،1، ص:15.

[9]-نوال عبد الرحمن الشوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري**. دار المامون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص ص:52-53.

[10]-بكاري عبد القادر، "الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري رحلة أبو راس الناصري نموذجا"، مجلة عصور الجديدة، ع:19-20، 2015، وهران، ص:215.

[11]-حسين محمد فهيم، المرجع السابق، ص:87.

[12]-بكاري عبد القادر، المرجع السابق، ص:215.

[13]-نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص:25،51.

[14]-سورة التوبة، الآية: 122.

[15]-نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص:33-34.

[16]-سورة الحج، الآية:27.

[17]-نوال عبد الرحمن، المرجع السابق، ص:34.

[18]-عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، المرجع السابق، ص ص:22-42.

[19]-سورة الزمر، الآية: 9.

[20]-الشهرورزي أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، **علوم الحديث لابن صلاح**. تح شر: نور الدين عتر، د.ت.ط، د.ط، ص:246

[21]-ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**. ض: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2001، ص ص:744-745.

[22]-ابن مريم أبي عبد الله محمد المليتي المديوني التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**. تح: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ط1، 1908، ص:202. السخاوي شمس الدين، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. بيروت، دار الجيل، ط1، د.ت.ن، ج:7، ص:50. القرافي بدر الدين، **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**.تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص:154. المُجاري أبي عبد الله محمد الأندلسي.**برنامج المُجاري**. تح: محمد أبو الأجفان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1982، ص:134. الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، **فهرست الفهارس**

والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. تح: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982، ج:1، ص:524. المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت.ن، ج:5، ص ص:421-422. الشوكاني محمد بن علي، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي. د.ت.ن، ج:2، ص:119.

[23]- ابن مرزوق الحفيد، **إظهار صدق المودة في شرح البردة**. د تح: محمد فلاق، الجزائر، موفم للنشر، ط1، 2011، ج:1، ص:23.

[24]- البلوي أبو جعفر أحمد بن علي الوادي آشي، **ثبت البلوي**. د تح: عبد الله العمراني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983، ص:294.

[25]- ينظر الدراسة الواردة في: ابن مرزوق الحفيد، **المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل**.در تح: جيلالي عشير وآخرين، الجزائر، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، ط1، 2012، ج:1، ص:58.

[26]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:421.

[27]-سورة فاطر، الآية:28.

[28]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:452.

[29]-التنبكتي، المصدر السابق، ص:136.

[30]-الآجري أبو بكر محمد بن الحسن، **أخلاق العلماء**. مر تع: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الرياض، دار الإفتاء والدعوة والإرشاد، ط1، 1978، ص:66.

[31]- القلصادي أبو الحسن علي، **رحلة القلصادي**.د تح: محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، ط1،2011، ص: 102.

[32]- المصدر نفسه، ص ص: 100-102.

[33]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:425.

[34]-الترمذي، **سنن الترمذي**. كتاب العلم باب فيمن يطل بعلمه للدنيا، رقم: 2654.

[35]-الونشريسي أبو العباس يحي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**. تح: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط،1980، ج:2، ص:402.

[36]-المازوني أبو زكرياء يحي بن موسى التلمساني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**. تح قندوز ماحي، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2012، ج:1، ص:200.

[37]-الونشريسي، المصدر السابق، ج:2، ص:472.

[38]-البخاري، المصدر السابق، ص:135.

[39]- القلصادي، المصدر السابق، ص:102. الونشريسي أحمد بن يحي، **وفيات الونشريسي**. تح: محمد بن يوسف القاضي، القاهرة، شركة نوابغ الفكر، ط1، 2009، ص:89. التنبكتي أحمد بابا، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**. د تح: محمد مطيع، مراكش، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2000، ج:2، ص ص:140-141.

[40]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:423.

[41]-ابن مريم، المصدر السابق، ص:204.

[42]-قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، سورة الأعراف، الآية:176.

[43]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:433.

[44]-ترد هذه الحادثة لدى ابن غازي وأبي عبد الله محمد بن محمد الأندلسي الوزير، ولكنها تختلف قليلا عنها من حيث المضمون للمقارنة ينظر: ابن غازي المكناسي، **التعليل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناس**. تح: محمد الزاهي، الدار البيضاء، ط1979،1، مطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص ص:61-62.الوزير أبي عبد الله محمد بن محمد الأندلسي، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تونس، مطبعة الدولة التونسية،1287هـ، ط1، ص ص:329-330.

[45]-سورة الزخرف، الآية:36.

[46]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:431.

[47]-ابن غازي، المصدر السابق، ص:61.

[48]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:432.

[49]- الرصاع أبو عبد الله محمد الأنصاري، **شرح حدود ابن عرفه -الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفه الوافي-**. تح: محمد أبي الأجفان والطاهر المعموري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1993،1، ق:2، ص:635.

[50]-ابن مرزوق الحفيد، **إظهار صدق المودة**، ج:1، ص:33.

[51]-ابن مرزوق الحفيد، **المنزع النبيل**، ج:1، ص:30.

[52]-المقري، المصدر السابق، مج:5، ص:428.

[53]-القرافي، المصدر السابق، ص:64.

[54]-ابن مرزوق الحفيد، **المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية**. تح: مجاهدي صباح، أطروحة دكتوراه علوم غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2015، ص:28.

مسالك التّواصل التّجارية والثّقافية بالمغرب الإسلامي

خلال العصر المرابطي

الأستاذ طاهير عبد الكريم، جامعة الشلف

ملخص :كان من نتائج قيام دولة المرابطين بالمغرب الاسلامي خلال القرن الخامس الهجري تلك الوحدة السياسية، المذهبية والإقتصادية التي جمعت بلاد المغرب بالأندلس والتي امتدت الى بلاد السودان الغربي، وكان لهذا التوّحد أثر عظيم على أطراف الدّولة المرابطية من خلال تلاقي مؤثرات ثقافية مختلفة، أندلسية، مغربية، وصحراوية سودانية. الأمر الذي ساهم في نشأة صلات ثقافية وثيقة بينهما، أدّت المسالك التّجارية خلالها دورا مهما في نشر وانتقال مختلف هذه التّأثيرات. فكيف كان للطرق التجارية دور في خلق صلات ثقافية بين أطراف الدّولة المرابطية ؟

Abstract :

One of the results of the of Almoravid's polity in the Islamic Maghreb during the fifth century Ah ,those political unity. Doctrinical,and economic, that brought the country of Maghreb in andalousia, and spread to the west of sudan, and it had a great influences on autism, through the convergence of different cultural influences, andalusian, maghribin, and of Desert, that contributed to the emergence of a close cultural links among them, commercial tract that played an important in the transmission of these various influences. so how was the trade routes role in creating cultural links set forth the parties to the Almoravid's polity ?

الكلمات المفتاحية: الأندلس، بلاد المغرب، السودان الغربي، المرابطون، المسالك التجارية، المراكز الثقافية.

Key worths : Andalousia - land of Maghreb - west of sudan - Almoravides - commercial tract - Cultural Centers.

تذكر المصادر التّاريخية، أنّ مجال صحراء صنهاجة اللّثام شهد انطلاق حركة دينية خلال القرن 5هـ/ 11م، عُرفت بالحركة المرابطية، والتي حققت نجاحا دينيا وسياسيا كبيرا، مما جعلها تبسط نفوذها الديني والسياسي على المغرب والأندلس، فضلا عن معاقلها الصحراوية، وبذلك أقامت الدّولة المرابطية امبراطورية مالكية المذهب، كان لها نفوذ سياسي قوي في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

عاشت بلاد المغرب قبل قيام الدّولة المرابطيّة، حالة فوضى سياسية، غلب عليها التّناحر بين الإمارات الزناتية، ولم تكن الأندلس أفضل حالا، إذ شهدت تمزقا وتفرقا وضعفا، لكنّ المرابطين استطاعوا التّغلب على هذا الوضع، توحيد قبائل المغرب، والسيطرة على الأندلس، وأقاموا وحدة سياسية بين بلاد العدوتين، وفرضوا سيطرتهم وسلطانهم على أرجاء هذه البلاد[1]، وأشاعوا الإستقرار والأمن والطمأنينة، خاصّة في عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد علي بن يوسف[2]، كما أصبح المغرب الأوسط لأوّل مرّة في تاريخه أيّام المرابطين منطقة موحدّة، يشكل ولاية مقرها تلمسان، وعلى رأسها أحد أمراء المرابطين، ممّا وضع حدّا للصراعات الّتي كانت قائمة بين مختلف القبائل المتواجدة فيها، وأبعد عنها أطماع بني زيري وبني حمّاد، وبذلك عمّ الأمن بلاد المغرب الأوسط، وانتشر فيها الرخاء، وخطت خطوات عديدة نحو الازدهار، وبخاصة بعد تأسيس مدينة تلمسان الجديدة "تاجرارت"[3].

1) تأثيرات الوحدة السياسية على الحركة الثقافية والتجارية للدّولة المرابطية

تمخض عن حالة الإستقرار التي أشاعها المرابطون نموّ الحركة الفكرية، حيث اطلع أمراء المرابطين على التّطور الفكري في مدن الأندلس المختلفة، ممّا دفعهم للاستفادة منها في بلاد المغرب، فرحبّوا بالعلماء والأدباء والصّناع الأندلسيين، وأغدقوا عليهم الصّلات[4]. واستفادت المدن المغربية من هذا النزوح، حيث تحوّلت إلى مراكز علميّة نشيطة، مثل فاس وسبتة، أمّا مراكش عاصمة المرابطين، فكانت قبلة للعلماء الأندلسيين للخدمة في البلاط المرابطي[5].

ومن نتائج الوحدة السّياسية خلال هذه الفترة بين المغرب والأندلس، ذلك الانفتاح الفكري الأندلسي على بلاد المغرب، الّذي أدّى إلى تدّفق الثّقافات الأندلسية المتّنوعة دون قيود على ذلك، فأثمرت ثورة ثقافية بالمغرب وأحدثت صلة وثيقة بين الأندلس والمغرب[6].

ومن النّاحية الدينية كان قيّام دولة المرابطين نصرا للمذهب المالكي في المغرب، وتأكيدا لدور علماء المالكية، ذلك أنّ هذه الدّولة نشأت على أساس الإصلاح الدّيني، المتمثل في عقيدة أهل السنّة والفقه المالكي، فحاربت البدع، ورسّخت المذهب المالكي في سائر أنحاء الدّولة المرابطية[7]، واعتمدته قاعدة أساسية ترتكز عليها الدّولة في سياستها[8]. وكان المذهب المالكي هو السائد في الأندلس كذلك[9]، إذ أنّ ضمّ الأندلس للمرابطين أحدث وحدة مذهبية، وساهم في ازدهار العلوم الدّينية، خاصّة أنّ علماء المذهب من الأندلس قد لقوا ترحيبا وتكريما، ورعاية من الأمراء المرابطين، الّذين لم يكن يقرب منهم إلاّ من عنيّ بعلم الفروع- فروع مذهب مالك- [10]، وصارت المدن المغربية مراكز لدراسة المذهب المالكي، وتخريج العلماء المالكيين ومن هذه المراكز مدينة تلمسان التي كانت دار للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك[11]، وأنجبت بلاد المغرب الكثير من علماء المالكية، منهم القاضي عيّاض بن موسى اليحصبي السّبتي المالكي[12]، الذي اعتبر إمام المالكية وقدوتهم، وجامع مذهب الإمام مالك، وشارح أقواله والمدافع عنه[13].

وبالموازاة مع التّطورات السياسية والفكرية والمذهبية التي شهدتها الدّولة اهتم المرابطون بتطوير بالوضع الإقتصادي، رغبة منهم في ازدهار البلاد ومواكبتها للتّطورات الّتي كانت ترد عليها خصوصا بعد ضم المغرب والأندلس سياسيا، ومدّ الجسور بينهما، إذ تذكر المصادر أنّ المرابطين عند فتح مدينة فاس سنة 462 هـ/1061م، عملوا على تطوير اقتصادها، وبناء الحمّامات، والفنادق، والأرحاء على الأودية، رغبة في رواج اقتصادها وتحريك عجلته، ويصف الإدريسي مدينة مكناس كما شاهدها في عهد المرابطين، ويبين مدى اعتناء المرابطين بترويج الإقتصاد، حيث ذكر أنّها كانت تتكون من مجموعة أحياء متقاربة، وتمتاز بخصوبتها وعيونها الدافقة، وكانت تنتج القمح والعنب والزيتون والفواكه، وغراساتها منتظمة يتصل بعضها ببعض[14].

كان لحالة الإستقرار السّياسي والإقتصادي الذي شهدته دولة المرابطين في عصر يوسف بن تاشفين، وعصر ولده علي بن يوسف الأثر الكبير في ظهور أهمية التجارة وازدهارها، ولاشك أنّ

اعتناء التّجار بهذا الميدان يعود إلى إلغاء الدّولة المرابطية للضرائب الفادحة والمكوس على التّجارة والمتاجر، مما ساعد على استفحال ظاهرة التّجارة وامتهانها من العديد من شرائح المجتمع المغربي الأندلسي الّذي كان يتكون من مجتمع العامّة من التّجار والصّناع والحرفيين والمزارعين، فأدّى ذلك إلى تدعيم العلاقات بين مختلف أطراف الدّولة المرابطية أنذاك، وازدهار الحركة التّجاريّة فيها خصوصا التّجارة مع بلاد السّودان الغربي جنوب الصّحراء [15]، فكان لذلك أثر فعّال في تغلغل الإسلام في مختلف أنحاء الدّولة، وانتشار اللّغة العربية في المدن والمراكز التّجاريّة[16].

ونتيجة لحالة الإستقرار هذه، وحرص الأمراء المرابطين على النّهوض بالأوضاع الإقتصادية، تدفقت الأموال على عاصمة الدّولة المرابطية، واتّجه النّاس إلى توجيه أبنائهم للتّعليم، وإلى وقف الأوقاف لتعليم الصبيان، فكان لهذا أثره في نهضة العلوم[17]، وتهيئة المناخ العلمي الذي يدرس فيه الطّلبة، ويجعلهم يقبلون على البحث والتّحصيل[18]، مستفيدين من توافد علماء، وأدباء الأندلس على بلاد المغرب، أومن خلال الارتحال لطلب العلم إلى الأندلس.

2) المسالك التّجارية المرابطية :

أ) الطرق التجارية بين أطراف الدّولة المرابطية

بعد إخضاع المرابطين لأقاليم المغرب في ظل سلطة مركزية واحدة، صار المغرب الأقصى معبرا لتجارة الجنوب نحو الأندلس، فانتظمت القوافل التّجارية إلى جنوب الصحراء والقادمة منها. حيث أصبح "في الإمكان أن تنتقل القوافل من أقصى السودان إلى أقصى الأندلس"[19]، عبر شبكة من الطرق التجاريّة التي كان لها دور حيوي في التبادلات التجارية، وانطلاقا ممّا سجله أبو عبيد البكري، الجغرافي الأندلسي، في وصفه الدّقيق لمجمل الطّرق والمسالك التّجارية العابرة للصحراء، يمكن تقسيم المسالك التّجارية التي كانت تعبر أراضي الدّولة المرابطية إلى المحاور التالية[20]:

المحورالأوّل، يخص المغرب الأقصى وفيه أربعة مسارات حول مراكش، ونحو فاس، وعبر سهول الأطلس، وباتجاه مضيق جبل طارق.

أمّا بالنسبة للمحورالثاني فيتركز بالأندلس الّتي كانت تحت حكم المرابطين، وفيها ثلاثة مسارات يمتد الأوّل منها من مضيق جبل طارق إلى غرب الأندلس، ويمر الثاني عبر الوادي الكبير والهضاب، ويتجه المسار الثالث نحو شرق الأندلس[21].

يمتّد المحور الأوّل عبر السهول المنبسطة عند أقدام جبال الأطلس منطلقاً من أغمات أو من مراكش، يخترق تادلا متوجهاً نحو مكناس وفاس حتى يصل إلى موانىء سبتة، والقصر الصغير، وطنجة، وكان هذا المحور في عهد المرابطين طريق القوافل التجارية التي كانت تربط إفريقيا جنوبي الصحراء بساحل البحر الأبيض المتوسط عبر طريق سجلماسة التي كانت بمثابة رأس الجسر لتجارة اعتمدت على الذهب الإفريقي[22]، وبذلك نلاحظ أنّ هذا المحور طريق تجاري رئيسي بين الأطراف الكبرى للدّولة المرابطية، السودان الغربي ، المغرب الأقصى، الأندلس.

وأمّا المحور الثّاني، فيعبر السّهول الأطلسية وينحرف اتجاه الموانىء مثل سلا، ويتابع مساره بعد ذلك نحو القصر الكبير، النّقطة التي تربط طنجة وموانىء المتوسط مع شبكة مسالك فاس[23]، ومعنى ذلك أنّ هذا الطريق ذا أهمية تجارية واقتصادية هامّة لأنه يربط المغرب الأقصى بطرق تجارية مهمة لاتقل أهميّة عن الطريق المؤدي إلى الصحراء.

تنتهي المسالك التّجارية المرابطية بشمال المغرب الأقصى، من خلال وجود مجموعة من الموانئ الرئيسية بسواحل البحر المتوسط، لترتبط بعد ذلك عن طريق البحر بالمحور التجاري الخاص بالأندلس، حيث تبدأ بعد ذلك مسالك تجارية انطلاقاً من الجزيرة الخضراء، باتجاه الأطراف المختلفة لأراضي الأندلس.

يتواصل النشاط التجاري للمرابطين عبر موانئ ضفتي البحر المتوسط الرابطة بين المغرب والأندلس، فقد ساهمت الحاجة إلى تزويد مدن الأندلس بالحبوب والمواشي وغيرها من المواد الخام، في مضاعفة التبادل عن طريق البحر، بين موانىء المغرب المتوسطية والأطلسية، وموانىء جنوب الأندلس[24]، كالجزيرة الخضراء، أركش، وشريش، لتصل بعد ذلك إلى مدينة إشبيلية، أكبر مراكز الأندلس[25]. وأمّا الطّريق الرئيسية للاتصال ما بين الوادي الكبير وهضاب قشتالة، فهي المسار التّاريخي لتحرّك الجيوش في ذهابها وإيابها الذي يبدأ في قرمونة[26]، ويدخل إستجة ليصل بعد ذلك إلى قرطبة، ويخترق ضواحيها صعوداً إلى أعالي الوادي الكبير عابراً أرجونة، وأندوجر، وجيّان، ويمضي

قدماً إلى قلعة بني سعيد، وبياسة، وابذة وغيرها، ومن جهة أخرى تتشعّب من مضيق جبل طارق طريق مهمة جداً بالنسبة إلى المرابطين في دخولهم إلى بلاد الأندلس، وهي تتجّه نحو الشرق والشّمال فيعبر الجزء الأوّل منها مدن، رونده، مالقة، غرناطة، وألمرية، التي كانت – حسب الإدريسي– مدينة الأندلس الرئيسية في عهد المرابطين، ويتابع فرعها الآخر باتجاه ما سماه المسلمون شرق الأندلس، إلى منطقة انتشرت فيها الحواضر والقلاع والموانئ لتبلغ بلنسية، المركز التجاري المزدهر على ساحل البحر الأبيض المتوسط ذا الكثافة السكانية الكبرى في تلك المرحلة . وأخيرا تقترب الطريق من الحدود الشّرقية والشّمالية لما كان يعرف في الأندلس ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر: جزر البليار في المتوسط كحدود بحرية، ونحو الدّاخل مدينة قونقة الّتي كانت وسيطاً بين مراكز السّلطة في هضبة المنجى وشرق الأندلس[27].

ب) المراكز التّجارية المرابطية الكبرى

– المراكز التجارية بالسودان الغربي

على امتداد الطّرق التجارية برزت العديد من المراكز التّجارية التي كان لها دور حيوي في تنشيط الحياة التجارية وتقوية الصلات الإقتصادية بين المغرب وبلاد السّودان الغربي.

تعتبر أودغشت من المحطات التجارية الهامة لقوافل الصحراء، وكان بها أنواع التجارة من الحبوب والفاكهة، التي ترد عليها من بلاد المغرب، وكانت تتاجر في الأقمشة الحريرية الموشاة التي يدفع ثمنها تبرا[28]. وإلى جانب هذه المدينة ازدهرت مدينة جنى[29]في عهد المرابطين بسب تأمين الطرق التّجارية، وانتشار الأمن ، وامتازت هذه المدينة بسعتها وبأنّها سوق عظيمة من أسواق المسلمين، يلتقي فيها التّجار من جميع البلاد[30]، ويتم فيها مبادلة الملح بالذهب، إضافة إلى أنّها منطقة غنية بالثروات السمكية والحيوانية، ولاسيما القطن الذي يشتريه تجار المغرب لتصديره إلى أروبا، مقابل أواني نحاسية وأسلحة وغيرها من السلع[31]. وفي آخر القرن الخامس الهجري سنة 490هـ /1109م، وفي عهد الأمير يوسف بن تاشفين أنشئت مدينة تمبكت التي أصبحت بعد

ذلك من أهم المراكز التّجارية في غرب إفريقيا، حيث كان أهلها بدوا يرعون الأغنام، ويعيشون على التّرحال، وبعدها استقر بهم المقام بسب استقرار المرابطين، وأضحت هذه المدينة سوقا هامّا يؤمها التّجار، والقوافل[32]، لأنّها أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من المغرب، وهي حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وجاء ازدهارها كذلك بسبب تجارة المرور، ولا سيما تجارة الذهب والملح[33].

ويسود الاعتقاد أن جملة هذه المسالك التجارية الرابطة ما بين ضفتي الصحراء، لم تشهد تطوّرا متوازيا ومتزامنا، وإنّما كانت البداية مع الطريق المنطلق من سجلماسة ووادي درعة في اتجاه آدرار، والذي ينتهي عند أودغشت، ثم ينطلق منها في اتجاه الجنوب الشرقي، الطريق الذي يصلها بعاصمة غانة القديمة على بعد ستّة أيّام ، كما يصلها بما يوجد خلفها من أراضي خصبة على ضفاف نهر السنغال[34].

– المراكز التجارية ببلاد المغرب الأقصى والأوسط

في بلاد المغرب الأوسط والأقصى ازدهرت عديد من المراكز التجارية إمّا لموقعها الجغرافي أولكونها ممرّ، أو سوق تجارية للقوافل التجارية.

تعتبر سجلماسة بأقصى جنوب المغرب الأقصى أهم المراكز التجارية، مستفيدة من الأسواق النشيطة على امتداد حوض وادي درعة الغني بمواده الفلاحية، والتي شكلت دعامة اقتصادية قوية للمدينة، وبذلك باتت عبارة عن مستودع للسلع الرائجة في التّجارة الصحراوية مما أهّلها لأن تستقطب القوافل القادمة من شمال بلاد المغرب في انتظار انطلاقها نحو بلاد السودان، ومن جهة أخرى كانت مركزا لتلقي تجارات السودان وتصديره إلى مدن بلاد المغرب[35].

أمّا مراكش فتأتي في مقدمة المراكز التجارية الّتي حظيت باهتمام التّجار، وأتتها التّجارات من كل مكان، وصارت مركزا للتّجارة الدّاخلية بين مدن الشمال والجنوب، وساعد على ازدهارهذه المدينة اعتبارها عاصمة للدّولة المرابطية واهتمام ولاة الأمر بعمارتها والبناء فيها[36].

وأمدّنا الإدريسي بوصف مهمّ للطرق التي كانت تقطعها القوافل من وإلى مدينة فاس رابطة شرق البلاد بجنوبها، فكان هناك طريق يربط بين تلمسان ومدينة سجلماسة تتوسطه مدينة فاس، حيث كانت تسير القوافل من تلمسان إلى فاس، ومن فاس إلى صفرو إلى تادلة وأغمات إلى

درعة ثمّ إلى سجلماسة[37]، ويصف الإدريسي طريقا أخر يربط فاس بسجلماسة وهو طريق فاس – صفرو إلى قلعة مهدي إلى تادلة ثمّ إلى وادى شعب الصفا حيث يشق هذا الجبل الكبير إلى جنوبه ومن هناك إلى سجلماسة[38]، ويقول الإدريسي أنّ فاس كانت قطبا ومدارا لمدن المغرب الأقصى[39].

ويذكر عبد الواحد المراكشي طريقا أخر يربط بين مدن المغرب من أقصى الشرق إلى الجنوب تقع عليه مدينة فاس، وهو طريق سلكه المسافرون في تلك الحقبة يربط تلمسان بفاس ومراكش بسجلماسة[40]،كما كانت فاس حلقة وصل رئيسية بين مختلف أطراف بلاد المغرب والأندلس، حيث توثقت العلاقات التّجارية بين فاس والأندلس بفضل عدد من الموانئ المطلة على البحر المتوسط، التي أدت دورا تجاريا كبيرا في ظل حماية الأسطول المرابطي، ومن هذه الموانئ ميناء مدينة سبتة التي كانت تزخر بالحركة التّجارية[41]،أمّا ميناء مدينة سلا فيمكن اعتباره أهم الموانئ الأطلسية، والذي كان يستقبل السفن المختلفة، **"وفي مقدمتها السفن الأندلسية ومنها مراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس، يقلعون منها ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل إشبيلية يقصدونها، ويتجهزون منها بالطّعام على سائر بلاد الأندلس الساحليّة"**[42].

وبالمغرب الأوسط شكلت تلمسان قاعدة تجارية ذات أهمية كبيرة، حيث كان ينطلق منها: المسلك التجاري القاصد منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر، مرورا بواحات كورارة وتوات، ثم المسلك المغذي للمراكز التجارية بحوض البحر الأبيض المتوسط خاصة منها ألمرية بالأندلس، فضلا عن المسلك الغربي المتوجه نحو مكناسة مرورا بفاس، والذي يصل إلى غاية تادلة ثمّ أغمات ودرعة وسجلماسة[43].

– المراكز التجارية الأندلسية

ساعد على نمو التّجارة الخارجية وازدهارها في عصر المرابطين نمو البحرية من خلال بناء أسطول إسلامي ضخم[44]، وترتب على ذلك ازدياد نشاط حركة الملاحة ونمو كثير من الموانئ مثل مرسية، دانية، ألمرية، بل عرفت كثير من المدن الدّاخلية نشاطا ملحوظا.

اعتبرت ألمرية الميناء الرئيسي في الأندلس الذي تقصده السفن من سائر الأقطار، فانعكس هذا الرخاء على المدينة، **"ولم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا ، ولاأتجر منهم في أصناف**

التجارات تصريفا و ادخارا"[45]، فقد كانت المدينة ملتقى للتجارة[46] [47]، ولأهمية ألمرية وضع المرابطون أسطولهم على أهبة الاستعداد لحماية السفن التّجارية التي ترد على ميناء المدينة، حيث كانت تربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة، فكانت السفن تنتقل مابين ثغور ألمرية وثغور المغرب[48].

وبسبب ما أصابته ألمرية من تقدم تجاري، واتخاذ المرابطين مدينة غرناطة قاعدة لهم في الأندلس، ازدهرت الحياة التّجارية لهذه المدينة، ومن المدن الدّاخلية التي ازدهرت في عصر المرابطين مدينة قرطبة حيث استعادت مجدها ورونقها، وصارت قاعدة بلاد الأندلس وأمّ مدنها، وكان تُجارها مسرة لهم أموالا كثيرة، وتجارات واسعة، كما ازدهرت مدن أندلسية أخرى واسترجعت مركزها الحضاري والإقتصادي، مثل إشبيلية التي نشطت بها الحركة التّجارية من بيع وشراء، وتكدست الثروات في أيدي أهلها، كما شملت الحركة التجارية مدن لبلة، وبلنسية، ومرسية، وغيرها من مدن الأندلس .

3) المراكز الثّقافية المرابطية :

أ) المراكز الثّقافية ببلاد السودان الغربي:

إلى جانب دورها التّجاري لعبت المدن دورا ثقافيا مهمّا، وظهرت مدن بلاد السودان الغربي كمراكز ثقافية هامّة، فكان لمدينة أودغشت دور كبيرا في نشر الإسلام في منطقة السودان، وكانت من المراكز الأولى التي انبعث منها هذا الدّين إلى رحاب السودان، في ركاب المرابطين الذين أحكموا السّيطرة عليها بقيادة عبد الله بن ياسين، ومنها انطلقت موجات من الدعاة إلى بلاد السودان لنشر تعاليم الإسلام، وكانت هذه المدينة زاهرة، فيها مساجدة كثيرة آهلة، وكان بهذه المساجد مجموعة من المعلمين لتعليم القران الكريم، والسنة، وتعاليم الإسلام، كما كثرت بها المدارس لتعليم الأطفال[49].

أمّا تمبكت فكانت مركزا فكريا وثقافيا مهمّا، اجتمع فيها العلماء من جميع الأجناس والألوان[50]، وهي مأوى العلماء و العبّادين، ومألف الأولياء، والزاهدين، وملتقى الفلك، والسّيار، فجعلوها خزانة متاعهم، وزرعهم إلى أن صارت مسلكا للمالكين في ذهابهم ورجوعهم[51]، وكان

مسجدها الجامع يضم نخبة من الفقهاء، والعلماء أكثرهم من قبيلة جدالة[52]، حيث وجد بها الطلاّب التشجيع والرعاية[53]، فأخذوا العلم عن علمائها[54]. كان فقهاء وعلماء تمبكت كثيرا مايقيمون بفاس ومراكش، يعلمون، ويتعلمون[55]، كما أنّ المدينة كانت مقصد علماء وفقهاء من بلاد المغرب، والأندلس، وكافة بلاد السودان[56]، فكانت منارة العلم في السودان، سكنها الأخيار من العلماء، الصالحين، وذوي الأموال من كل قبيلة، ومن كل بلاد[57].

ووفد إلى مدينة جنى طلاب العلم والفقهاء من قبائل وبلاد شتّى حيث كانوا يجلسون حول العلماء، وعاشت المدينة بذلك حياة علميّة مزدهرة[58].

ب) المراكز الثقافية ببلاد المغرب :

يجمع المؤرخون على أنّ مدارس المغرب تفوقت تفوقا واضحا[59] ، ومن أهم هذه المدارس مدرسة فاس التي بلغت في عهد المرابطين " **من الغبطة و الرفاهيّة والدعة مالم تألفه مدينة من مدن المغرب**"[60]، فكانت من أعظم المراكز الثقافية المرابطية، خاصّة بعد فقدان مدينتا قرطبة والقيروان أهميتهما العلميّة، بسبب الحروب التنصيرية بالأندلس، وهجرة قبائل بني هلال إلى إفريقية، قصدها العلماء من الأندلس وأفريقية لتلّقي علوم التّفسير والحديث والفقه والأصول، وعلم الآلة والفلك والطبّ والهندسة، وشهدت هذه المدينة في عهد المرابطين نهضة علميّة كبيرة[61].

أمّا مدينة مراكش فكان لها دور ثقافي مهم كعاصمة للدّولة المرابطيّة وأصبحت مركزا علميّا مشهورا بالمغرب الأقصى، يقصدها طلاّب العلم من مختلف مدن المغرب الإسلامي، وهو ماجعلها ملتقى علماء بلاد المغرب وعلماء السّودان الغربي والأندلس[62].

– المراكز الثقافية الأندلسية :

كانت كل مدن الأندلس كبراها و صغراها مراكز ثقافية[63]، حيث استفادت من حالة الإستقرار التي بثها المرابطون، ومن أهم المراكز الثقافية الأندلسية قرطبة، إشبيلية، مرسية، بلنسية، ألمرية، دانية، طرطوشة، شاطبة، سرقسطة، غرناطة، بطليوس، وشلب وغيرها.

تعتبر قرطبة أهم هذه المراكز بوصفها قاعدة المرابطين بالأندلس، يرتحل إليها طلاب العلم من الأندلس والمغرب، لتوسطها للأندلس، وشهرة علمائها وأدبائها[64]، وهي أكثر مدن الأندلس كتبا وأشدّ النّاس اعتناءا بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من ألات التعيين والرّئاسة[65]، أمّا إشبيلية

فارتفع ذكرها كمركز من مراكز الأدب والفن والموسيقى والطرب، وازدهارها العلمي في عهد المرابطين هو استمرار لما تحقق من تطور فكري في عهد المعتمد ابن عباد[66]. أمّا غرناطة فكانت من مراكز العلم التي اجتمعت فيها العلوم الفقهية، والفلسفية، الصوفية، وكثر بها التأليف في كتب الفقه، وكان من أئمة علمائها الذين يُشّد الرحال إليه الفقيه علي بن محمد بن عبد الرحمان بن الضحاك ويعرف بابن البقري[67]. واشتهرت دانية بالقراءات، وحافظت على مركزها العلمي في عهد المرابطين، فكان يحج إليها الطلاب من جميع أنحاء الأندلس للأخذ على قرائها المشهورين[68]. وبالنسبة لألمرية فهي مدينة الصوفية والعلوم الفقهية، لعبت دورا مهما في تطور العلوم الدّينية، كما اشتهرت بعدد كبير من علمائها ومفسريها ومتصوفيها، ومنهم أبو العباس بن العريف، الذي قصده أهل الزهد في الأندلس، وبذلك أصبحت من أهم المراكز الروحيّة[69].أمّا مدن الشرق في الأندلس مثل مرسية وبلنسية دانية وشاطبة وجزر ميورقة[70]، فكانت لها نفس الاتجاهات الفكرية لمدينة ألمرية، ولعبت هذه المدن دورا رئيسيا في ازدهار العلوم الإسلامية، وكانت سرقسطة من المراكز المهمة التي ازدهرت فيها علوم الفلك، والطّب، والفلسفة[71].

4) انتقال المؤثرات الثقافية بين أطراف الدولة المرابطية

رغم الامتداد الواسع للدّولة المرابطية إلاّ أنّ هذه الدّولة قد ازدهرت ثقافيا في كامل ربوعها وفي أطرافها الثلاث بلاد السودان الغربي، وبلاد المغرب، والأندلس، وإذا كان الأندلس قد شهد ازدهارا ثقافيا سابقا لعهد المرابطين فإنّه لايمكن إنكار ماقام به المرابطون من تحويل ذلك الإشعاع الثّقافي الأندلسي إلى بلاد المغرب، بل يمكن الجزم أنّه تخطى إقليم الصحراء، حتّى وصل إلى بلاد السودان، حيث الحضارة الزنجية البكر.

نتيجة توحيد المرابطين بين الأقاليم المختلفة، وسيطرتهم على الطرق التّجارية، واستتباب الأمن داخل الدّولة وعبر هذه الطرق، التي امتدّت من أقصى شمال بلاد المغرب إلى مناطق الذهب بالسودان، ازدهرت الحركة التجاريّة، ونشطت قوافل المسلمين بين الشمال والسودان **و" كانت أيامهم ايّام دعة، ورفاهيّة ورخاء متصل، وعافية وأمن**"[72]، ومع التّجارة جاءت الأفكاروالتعاليم الإسلامية، وأصبحت المراكز التّجاريّة مراكزا للدعوة والفكر الإسلامي، فكان التّجار ورجال العلم

من الطلبة والدعاة يحضرون معهم الأفكار المتحضرة عن الحكومات الإسلامية خاصّة في النواحي الإداريّة، فعملوا كمترجمين ونسّاخ ووزراء للماليّة لمعظم حكام ممالك السودان[73].

كان التّجار ذو مكانة هامّة لدى الملوك الوثنيين،حيث جمع هؤلاء سواءا كانوا عربا أوبربرا بين بيع تجارتهم وبين نشرالدّعوة، فقد كانت التّجارة وحدها تصل التّاجر بصلة وثيقة ومباشرة بأولئك الّذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وحينما تزدهر التجارة تنشط الهجرة، وتنشا التجمعات الإسلامية الجديدة، التي ازدهرت بوجود المدارس لتعليم المسلمين[74].

ساهمت التّجارة بشكل كبير في نشر الأفكار، والثّقافات التي حملها التّجار،والمسافرون من العلماء والطّلاب عبر الصحراء، فبجانب نشرهم للإسلام، قام التّجار بنشر اللّغة العربية وهي لغة القرآن والتّجارة[75]، وبذلك انتشرت اللّغة العربية في السّودان إلى أن أصبحت لغة التخاطب بين معظم القبائل، ويعتبر ذلك تقدما من النّاحية الحضارية، إذ صحب ذلك ظهور صناعات متقدمة ونقل أهل المغرب كثيرا من كتب النّحو والصّرف إلى بلاد السودان الغربي، وأقبل الطلبة السّودانيون عليها بشغف، وبعد مدّة تكونت طبقة من الفقهاء السّودانيين الذين يتقنون اللّغة العربية، لغة الدّين والثّقافة والتّجارة تولّت مهمة التّعليم[76]، وقام التّجار بتعميق العلاقات التّجارية ،فأنشأوا المدارس لتعليم القرآن، وأقاموا المساجد وإلى جانب مزاولتهم للنشاط الإقتصادي، فإنّهم مارسوا نشاطا تعليميا كذلك، ، فتكونت المدارس التي كانت تقليدا للمدارس التي كان المرابطون قد بنوها بعد توسعهم في الجهاد فكانت تلحق بكل زاوية من زوايا الفرق المذهبية، الدّينية، مدرسة لتعليم الأطفال، وكل شيخ من الفقهاء تتلمذ على يديه عدد كبير من أهل البلاد، وهؤلاء بدورهم أخذ العلم عنهم عدد أخر من التّابعين[77].

يمكن اعتبار مدينة مراكش حلقة الوصل الأساسية بين أطراف الدّولة المرابطية، حيث لعبت دورا أساسيا في انتقال المؤثرات الثقافية التي بنيت عليها الدّولة، فقد كانت عاصمة هذا الملك الشاسع، ومقرا للسلطان، وكعبة القصاد، وفد إليها العلماء من كلّ فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء، فينالوا رغدهم وعطاءهم، وقصدها من كل علم فحوله، حتّى أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم[78].

ومع أنّ المؤثرات الأندلسية كانت موجودة في المغرب قبل عهد المرابطين، إلاّ أنّها لم تكن تتعدّى الإقليم الشّمالي، الذي انتشرت فيه المدن، ذات الماضي المجيد في الحضارة الإسلامية مثل فاس، ولا تكاد تتخطى النّطاق إلى الجنوب، فلم يكن هناك تعاون أو اتفاق بين إقليم السهول، و إقليم الصحراء، وأصبح هذا التباين بين قسمي المغرب الأقصى، عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية، و بين أن تعمّ كامل البلاد[79] .

لكنّ هذه المؤثرات الراقية والمتقدمة وجدت من يشجعها من المرابطين والسودانيين، ويأخذ يدها، ويشد أزرها[80]، فقد استطاعت المؤثرات الأندلسية، والمغربية أن تتخطى جبال درن في الجنوب، موغلة في إقليم الصحراء، حتّى وصلت إلى السودان، وأدَّت الصحراء الكبرى في تاريخ إفريقيا الغربية ما لم يؤدِّه المحيط الأطلسي من الأدوار الحضارية الهامة، فقد كانت مسارب الصحراء إلى غربي إفريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى إفريقيا جنوب الصحراء عموما وإفريقيا الغربية بصورة أخص، ولم تكن الصحراء تشكل عائقا دون الإتصال الحضاري المثمر بين الإقليمين، وكانت الأسس المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة، وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع[81].

وكان للتأثيرات الأندلسية صداها في السودان الغربي، ويظهر ذلك شواهد القبور التي وجدت في عهد المرابطين في منطقة النيجر الأوسط، منقوشة بالعربية والإسبانية[82]، ويظهر هذا التأثير في قصور ملوك غانا التي زينت بضروب من النقوشات والأدهان، وشمسيات الزجاج، وكان بنيان هذا القصر سنة 510هـ[83] /1116م . غير أنّ التأثيرات القادمة من بلاد المغرب كانت أكثر وضوحا لأنّ الإسلام حمل معه إلى بلاد السودان الغربي ثقافته، فملبسهم أصبح شبيها بلباس أهل المغرب، جلباب ودراريع، بلا تفريج، وكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية صرفة، وحتّى طريقة الكتابة تأثرت بالطّابع المغربي، بل كانت تدرس نفس المناهج المغربية[84]، كما ظهر تأثر السودان بتعاليم إبن ياسين المتشددة في الدّين، وأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود[85]. وبذلك شكلت الدولة المرابطية وحدة ثقافية مترامية الأطراف.

خاتمة:

إنّ الوحدة السياسية التي تشكلت بين المغرب والأندلس وبلاد السودان في عصر المرابطين أدت إلى توحيد تاريخهما وحضارتهما، وأصبحا وطنا واحدا يتبادل سكانه المنافع والمصالح، وسكن بعضهم إلى بعض، وتقاربوا، وكان اتصالهم مؤثرا في جميع نواحي الحياة، غير إنّ انتقال التأثيرات الحضارية من منطقة إلى أخرى يجعلها تتعرض لدرجات من التّغيير تختلف قوة وضعفا باختلاف ظروف الأخرين، أوبحسب الجوار الجغرافي والقرب أوالبعد عن مناطق التأثير، فكانت بلاد المغرب أكثر تأثرا بالأندلس، الأمر الذي يجعل التأثيرات الأندلسية في بلاد المغرب أكثر وضوحا وأقرب ما تكون إلى أشكالها الأصلية، أمّا المجال الصّحراوي لدولة المرابطين فقلت فيه حدّة هذه التّأثيرات الحضارية، وبذلك يمكن القول إنّ المسالك التجارية كانت تنفت الروح في باقي العلاقات الأخرى من كل نوع، فالعنصر الحاسم الذي أثّر في التّطور الإجتماعي والحضاري في بلاد المغرب والسودان، هو العامل التجاري، فإليه ينسب كثير من المؤرخين ما عرفته أقاليم السودان من ازدهار حضاري وتطوّر سياسي واقتصادي، وذلك لما أتحته القوافل من فرص الاطلاع على العادات والمعطيات الحضارية المتنوعة.

الهوامش:

---

[1]- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر 1980، ص 443 .

2- حسن علي حسن، المرجع نفسه ، ص 450.

3- حسن علي حسن، المرجع نفسه ، ص 445 .

4- حسن علي حسن ، المرجع نفسه ، ص 445 .

5- محمد إبلاغ ، "الرياضيات في الأندلس مابين القرنين 3 و 9 (10و15م) "، السّجل العلمي لندوة قرون من التّقلبات و العطاءات ، القسم الثالث ، ط 1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامّة ، الرياض ، 1417هـ / 1996م ، ص 44،45.

6- حسن علي حسن ، المرجع السابق، ص 445.

7- عبد الحميد حاجيات ، "التحولات الفكرية غي عهد المرابطين" ، مجلة كليّة الأداب ، العدد الأوّل ، جامعة تلمسان ، نوفمبر 2000 ، ص 103.

8- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط ، 1972، ص 154.

9- كان أهل الأندلس يتبعون المذهب المالكي ويقرأون القرآن على طريقة نافع ، وكانوا يزعمون أنهم لا يعرفون سوى القرآن وموطأ مالك وأنهم إذا عثروا على شافعي أو حنفي كانوا يطردونه وإذا أمسكوا بأحد المعتزلة أو الشيعة كانوا أحيانا يقتلونه ، ينظر: أبو عبد الله بن محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ط2 ، دار صادر ، بيروت ، دت ، ص 236.

10- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص 154، عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح ، محمد سعيد العريان ، القاهرة ، 1963، ص 172.

11- أبو عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د ت ، ص77.

12- هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عبد الله اليحصبي ، أصل أهله من الأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب و استقر بسبتة ، ولد سنة 476ه/1083م ، كان محدثا وفقيها وعالما باللغة و النحو ، دخل في طاعة المرابطين فأكرموه ورفعوا منزلته ، توفي سنة 544ه/1149م ، ينظر أحمد بن محمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عيّاض ، ج1 ، ضبط وتحقيق ، ابراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة ، 1308ه/1939 م ، ص 23.

13- حسن علي حسن، المرجع السابق ، ص 465.

14- الشريف الإدريسي المغرب و أرض السودان ومصر و الأندلس ، مطبعة ليدن ، 1863م ، ص 77 .

15- تشمل بلاد السودان الغربي حوض النيجر، وغر غانا و المجرى الأعلى لنهر الفولتا ، والحوض الأوسط لنهر النيجر، فتحي زغروت ، العلاقات بين الأمويين الفاطميين في الأندلس و الشّمال الإفريقي 300ه-350ه ، ط1 ، دار التّوزيع و النّشر الإسلاميّة ، القاهرة ، 2006 ، ص 169.

16- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق ، ص 103.

17- ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل و التكملة لكتابي الموصول بالصلة ، السفر الأول ، القسم الأوّل ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1964 ، ص ص 239- 240.

18- حسن علي حسن، المرجع السابق ، ص 443.

19- كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، الإسكندرية ، 1991م ، ص 7.

20- اختلف المؤرخون في بدايات هذه الطرق ونهاياتها، وركز بعضهم على بعضها دون غيرها، البكري، المصدر السابق ، ص 163 164 ، ابن خلدون، تاريخ بن خلدون المسمى ديوان المبتدأ و الخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر ،ج6، مر: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع ، بيروت، 2000 ،ج7 ، ص 119 .

21- البكري، المصدر السابق ، ص 158.

22- البكري، المصدر نفسه ، ص 158 .

23- البكري، المصدر نفسه ، ص 103.

24- البكري، المصدر نفسه ، ص 103.

25- البكري، المصدر نفسه ، ص 82.

26- بلدة صغيرة في الأندلس بالقرب من إشبيلية ، في الشمال الشرقي منها ، على حوض نهر الوادي الكبير ، ينظر محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح : إحسان عباس ط2 ، دار صادر ، بيروت 1975 ، ص 158.

27- البكري، المصدر السابق ، ص 164.

28- البكري، المصدر نفسه ، ص 158 .

29- أسست هذه المدينة على نهر النّيجر الأعلى في منتصف القرن الثاني من الهجرة النبويّة الشريفة حوالي سنة 800م ، أسلم أميرها أواخر القرن الخامس الهجري ، وحذت حذوه الرعيّة ، وتمّ إسلامها في نهاية القرن السادس الهجري ، ينظر عبد الرحمان بن عامر السعدي ، تاريخ السودان ، نشره هوداس ، أنجي ، باريس 1898م، ص ص 11 ، 12.

30- البكري، المصدر نفسه ، ص ص 12 ، 13.

31- المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تجارة القوافل ودوره ةاالحضارؤي حتّى نهاية القرن التاسع عشر . 1404هـ-1984م ، إشراف أحمد ابراهيم دياب ، معهد البحوث و الدراسات الغربية ، ص 84.

32- حسن أحمد محمود ، دور العرب في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد 14 ، سنة 1968 ، ص 68.

33- المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، المرجع السابق ، ص 82.

34- ومما سجّله الجغرافي والمؤرخ **اليعقوبي** حوالي عام 890م عن أحوال هذا المسلك، قوله:" ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد أرض السودان من سائر بطون السودان يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلّهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم ولا يلبسون قمصانا إنّما يتشحون بثيابهم ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام ثم يصير إلى بلد يقال له غسط – أودغشت- وهو وادٍ عامر فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة."

35- المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، المرجع السابق ، ص 78. اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 257.

36- حسن علي حسن، المرجع السابق ، ص 269.

37- الشريف الإدريسي، المصدر السابق ، ص 81.

38- الشريف الإدريسي، المصدر نفسه، ص 76.

39- الشريف الإدريسي، المصدر نفسه، ص79.

40- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص 42.

41- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب ، ج2 ، تح : شوقي ضيف ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1955 ، ص 54.

42- الشريف الإدريسي، المصدر السابق ، ص 73.

43- الشريف الإدريسي، المصدر نفسه، ص 81.

44- عصمت عبد اللطيف دندش ، دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا ، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1988 ، ص 196.

45- الشريف الإدريسي، المصدر السابق ، ص 563.

46- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق ، ص 385.

47- البكري، المصدر السابق ، ص 15.

48- السيد عبد العزيز سالم ، قاعدة الأسطول الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 1984 ، ص 89.

49- البكري، المصدر نفسه ، ص 158 .

50-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع نفسه ، ص 163.

51- عبد الرحمان بن عامر السعدي، المصدر السابق ، ص 21 .

52- عبد الرحمان بن عامر السعدي، المصدر نفسه ، ص 21.

53- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق، ص 163.

54- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع نفسه ، ص 163.

55- عبد الرحمان بن عامر السعدي، المصدر السابق، ص 11.

56- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق، ص 163.

57- عبد الرحمان بن عامر السعدي، المصدر السابق، ص21.

58- عبد الرحمان بن عامر السعدي، المصدر نفسه، ص 11.

59- حسن أحمد محمود، قيّام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، مصر، د ت، ص 431.

60- عليّ الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تح عبد الوهاب ابن منصور ، ط2 ، المطبعة الملكية، الرباط ، 1991 ، ص 33.

61- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، 2001 ، ص 269.

62- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق ، ص100.

63- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 111.

64- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج1 ، تح : إحسان عباس ،دار صادر، بيروت، دت 1988، ج1 ، ص 153 ، 154.

65- المصدر نفسه ، ج1 ، ص 155.

66- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق ، ص 384.

67- كان فقيها محدثا متكلما له تواليف كثيرة منها كتابه " السداد في شرح الإرشاد " وكتاب " مدارك الحقائق في أصول الفقهى " ، وله رسالتان في التصوف، المرجع نفسه ، ص 384.

68- ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، م 1 ، قسم 4 ،تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1997 ، ق3 ، م1 ، ص 23.

69- عصمت عبد اللّطيف دندش ، المرجع السابق ، ص 385 .

70- هي جزيرة يابسة وطولها عشرة فراسخ وعرضها ثمانية ، ومنها تجلب الملح و الخشب إلى بلاد إفريقية ، وهي جزيرة كثيرة الثمار و الزرع ، ينظر ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ، كتاب الجغرافية ، تح : محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، برسعيد ، د ت ، ص 128.

71- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق ، ص 385.

72- ابن أبي زرع، المصدر السابق ، ص 167 .

73- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق ، ص 155.

74- عصمت، المرجع نفسه ، ص 156.

75- المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، المرجع السابق ، ص ص 95 96.

76- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق، ص 168 .

77- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع نفسه، ص 156.

78- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 227.

79- عصمت عبد اللّطيف دندش، المرجع السابق ، ص 143.

80- ابن أبي زرع، المصدر السابق ، ص 167 .

81- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق ، ص70.

82- عصمت عبد الّطيف دندش، المرجع السابق ، ص147.

83- الشريف الإدريسي، المصدر السابق ، ص 6.

84- القاضي عياض ، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تح : محمد بن تاويت الطنجي ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الرباط، ص 112 .

85- عصمت عبد الّطيف دندش، المرجع السابق ، ص167.

في الذكرى الثالثة لرحيل العلامة أبو القاسم سعد الله

رسالة جوابية إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله[1]

الدكتور عبد الحق شرف، جامعة تيارت

ملخص:

تعد المراسلات الديوانية أو الإخوانية وحتى الأدبية، مصدرا مهما لكتابة التاريخ. وقد شاع هذا الفن قديما وحديثا على حدٍّ سواء، فأبدع فيه من اشتغل به مُرسِلا أم مُرسَلاً إليه.

وفي هذا الصدد ارتأينا أن نقدم لباحثينا وقرائنا إحدى الرسائل التي كان لنا شرف تبادلها مع المؤرخ الكبير، رائد المدرسة التاريخية الجزائرية الحديثة، الفقيد الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.

Abstract: The diwaniya or brotherly correspondence, even the literary one, is an important source of history. This art has become widespread both in the past and in the modern times.

In this regard, we decided to present to our researchers and readers one of the letters that we had the privilege of sharing with the great historian, the pioneer of the modern Algerian historical school, the Professor Abu Al-Qasim Saadullah, might God have mercy upon him.

مقدمة: على الرغم من مرور تسع سنوات على رسالة المرحوم الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله إليّ، فإن وقعها بقي متجذّرا في نفسي، وذكراها عالقة في ذهني. مازلتُ أتذكّر جيدا يوم أهديته نسخة من مذكرتي للماجستير بعنوان: "**العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895 حياته وآثاره**"[2]. وكان قد حملها إليه مشكورا من معهد الحضارة الإسلامية بوهران وقتها؛ الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي الذي كان يتولى حينها رئاسة المجلس العلمي للمركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، بالأبيار.

لقد كانت هذه المناسبة بحق من أسعد الفترات في حياتي العلمية، خاصة وأن الموضوع الذي بحثت فيه وكتبت عنه بحثا كاملا، سبق وكتب عنه المرحوم الدكتور سعد الله مقالة بمجلة الثقافة[3] تحت عنوان: "**مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر**"، وفي الكثير من المحطات في تاريخ الجزائر الثقافي؛ وكذا الجزء الثاني من كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. فقلت حينها في قرارة نفسي: إنّ أحسن ما يُهدى للأستاذ سعد الله هو هذا البحث، علّه يكون ثمرة من الثمار اليانعة التي رعاها –رحمه الله– حتى أصبحت جاهزة للقطف.

ومهما كانت الملاحظات والنصائح التي قدمها لي رحمه الله مشكورا، فإنني أقول وبكل فخر واعتزاز: إنه كان حليما رفيقا، نِعْمَ الناقد، ونِعمَ الموجّه. لقد استطاع بملاحظاته تلك أن يسبر أغواري، وأن يقف على مكمن الخلل في بحثي، فقدم لي خير دواء وخير نصيحة، كانا لي خير سند في إتمام مشاريعي المستقبلية خاصة أبحاثي في الدكتوراه، والتي استمرت مدة خمس سنوات كاملة كلّها بحث وتنقيب في فكر المشرفي ودراسة لآثاره.

إنني اليوم وبين يدي هاته الكلمات التي أخلّد بها ذكرى أستاذي المرحوم الدكتور سعد الله، أقف وقفة إجلال وإكبار لكل مؤرخي الجزائر، في كل ربع من ربوعها الطاهرة، وأخص بالذكر منهم شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد المجيد بن نعمية، الذي أفنى أزهى فترات العمر في تكوين حاملي لواء العلم والمعرفة ببلادنا، فله منا خالص الشكر والثناء.

ثم إنّ ما أتمناه اليوم وبعد مرور ثلاث سنوات على وفاة العلامة الدكتور أبو القاسم سعد الله، –والذي لا زلت أحسّ بحنين كبير إليه كلما قرأت رسالته إليّ، وإلى نصائحه الرشيدة– أن أقدر على العمل بنصيحته؛ وتحقيق أمنيته لما خاطبني قائلا: "أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان".

وإنني إذ أقول ذلك، فإنّ ما كُتِب؛ كُتب كلّه بقلب مفتوح، وحب لا محدود أكنه له –رحمه الله– لذا فأنا متأكد أنه وحيث يوجد الآن في عالم البرزخ، سيبلغه ثواب أعماله كلّها، والتي خدم بها الإنسانية، بل وتفانى في ذلك أيّما تفانٍ.

وقد لا يسع المجال هاهنا للتعليق على الرسالة كاملة، لكن أهم ما يقال عنها: هو أنها حوت إشارات مهمة عن حياة المشرفي، وعن مصادر ترجمتها، وهي في الحقيقة تدخل ضمن الاجتهادات الشخصية للدكتور سعد الله خلال جمعه لمادة كتابه تاريخ الجزائر الثقافي. وأضع هذه الرسالة اليوم بين يدي القراء والباحثين علّها تكون جزءا من البناء التاريخي الوطني.

رحم الله أستاذنا وشيخنا الدكتور سعد الله، وإلى جنات الخلود إن شاء الله آمين.

د/ عبد الحق شرف، جامعة تيارت، الجزائر

ليلة 13ديسمبر 2016

والآن أترك القارئ الكريم وأدعه بين يدي الرسالة؛ لتحكي له في صمت قصة الوصية الخالدة من الشيخ المربّي الدكتور سعد السعود –رحمه الله– علّها تكون نبراسا نستنير به في حياتنا العلمية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عبد الحق شرف، وهران. السلام عليكم، وبعد:

أشكركم على إهدائي نسخة من مذكرتكم للماجستير عن (**العربي المشرفي وآثاره**). وقد تصفحتها باهتمام، لأن سيرة ومؤلفات المشرفي سبق لي التعرض إليها ودراسة بعضها.

وفي الحال اعتقدت أن صاحب المذكرة يكون قد سافر إلى المغرب واطلع على أرشيفه وعلى مؤلفات أخرى للمشرفي، ولكني وجدت صاحب المذكرة اقتصر على ما في الجزائر وما قرأه هنا وهناك عن هذه الشخصية المتنوعة الإنتاج.

المذكرة عبارة عن حشد للمعلومات وجمع لآثار المشرفي، وحتى هذه العملية غير كاملة. لأن المشرفي كان أيضا يتردد على الجزائر، وكانت له صلات ببعض المستشرقين الفرنسيين يستفيدون منه لمعرفة أحوال المغرب قبل الحماية. وقد نوّه المشرفي على العموم بأعمال فرنسا في الجزائر وفضل معاملتها للعلماء، ورجال الدين على معاملة السلطات المغربية لعلماء المغرب ورجال الدين هناك. ومن الذين كانوا يطلبون منه الكتابة عن الجزائر والمغرب: روني باصيه، عميد الدراسات الأدبية في المدرسة العليا بالجزائر. وقد كتب عنه وعن معاصره التونسي (محمد بيرم الخامس)، المستشرق هنري بيريز وقارن بينهما في الحكم على عمل فرنسا في الجزائر، فأحدهما (المشرفي) معجب، والآخر (بيرم) منتقد.

وأنت لم تذهب إلى المغرب فيما يبدو، ولكنك لم تذهب أيضا إلى ما هو أقرب وأسهل في الوصول إليه مثل زاوية الهامل أو البشير ضيف لتطّلع مثلا على ما هناك في عين المكان من مؤلفات المشرفي ولو كانت مصورة.

وبودي أن تعرف أن كتاب (ذخيرة الأواخر) قد حققه تحقيقا جزئيا طيبا الأستاذ عبد المنعم القاسمي، وهو من زاوية الهامل (بوسعادة) وأستاذ في جامعة ورقلة. ولا أدري إذا كان نشر تحقيقه أم لا.

هناك أمور قد توقعك في إشكال إن هي بقيت في المذكرة على حالها: مثلا تقول عن بني شقران (ص90 هامش4) أنهم قبيلة بالمغرب الأقصى. وأين قبيلة بني شقران الجزائرية؟ ألست تتحدث عن بني شقران في منطقة معسكر؟

إنه لا يسعني إلاّ شكرك على التنويه بمساهمتي عن المشرفي. وقد جمعت معلوماتي عنه أثناء (رحلتي إلى المغرب) التي لعلك اطلعت عليها، ولم أذهب إلى المغرب من أجل المشرفي ولكن من أجل جمع مادة لكتابي تاريخ الجزائر الثقافي، لذلك بقيت أمور عن المشرفي لم يسعن الوقت للاطلاع عليها. وكتاباته غنية بالملاحظات والآراء عن المجتمعين الجزائري والمغربي في القرن التاسع عشر، وهو رجل خَبِرَ الحياة وأعيان الناس في البلدين، ولم يكن رجلا عاديا مهمشا رغم شكراه من أهل فاس.

أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان.

وفقنا الله جميعا للعمل العلمي، والسلام أ.د/ أبو القاسم سعد الله 2008/07/21

جوابنا على رسالة الدكتور أبو القاسم سعد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه والتابعين:

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، تحية طيبة وبعد:

وصلنا مكتوبكم الأخير، والمتضمن الملاحظات المتعلقة بمذكرة الماجستير حول "العربي المشرفي وآثاره".

ولا أخفيكم أستاذي الكريم، أنني سعدت كثيرا للتوجيهات والملاحظات المقدمة حول هذا العمل. إلا أنني سأوضح بعض الأمور، والتي ربما ذكرت أغلبها بين طيي المذكرة، لكنني سأبيّنها بالتفصيل في هذا الرسالة.

لم نعتمد على ما هو موجود في الجزائر فقط في إنجاز المذكرة، بل إن المتوفر في الجزائر لهو نزر قليل جدا لا يكف لإنجاز بحث من هذا القبيل. ولذلك استعنت بنسبة كبيرة جدا فاقت الثلثين بدراسات مغربية، وكذا تقارير الأرشيف المغربي وخاصة التقرير الذي نشره ميشو بلير سنة 1907 ضمن الأرشيف المغربي.

كما أنه بودي أن أخبركم أستاذي الفاضل أن هذا العمل لم يكن بالإمكان إتمامه لولا اعتمادي على ما ذُكر سابقا، خاصة في الفصل الثاني منه الذي بذلت فيه قصارى الجهد، واعتمدت فيه على مادة مصدرية لم تنشر بعد –فيما أعلم– خاصة مخطوطات المشرفي نفسه التي جلبتها من المغرب وهي كالتالي:

ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن: وهو مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 5310.

ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية، تحت رقم: 2956.

رحلة إلى نواحي فاس: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية، تحت رقم: 1246.

الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الحعسوس سيء الظن الكنسوس: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية[4].

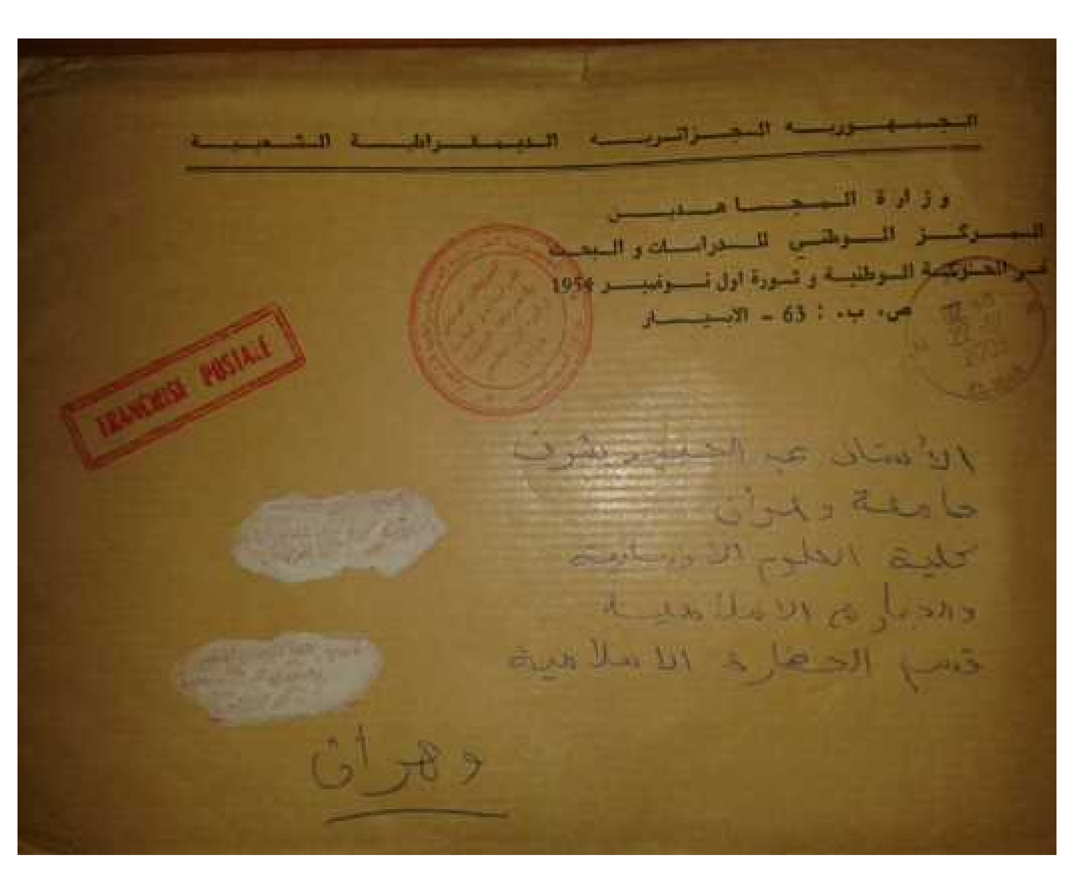
ثم إن هذه المخطوطات لم يتسن لنا الحصول عليها إلا بعد عناء كبير، وكلّفتنا الكثير. إلا أننا وبتوفيق من الله تعالى، ثم بإعانة من بعض الأساتذة من الجزائر والمغرب تمكنا من الحصول عليها؛ ونذكر منهم: الأستاذ الدكتور بن نعمية عبد المجيد، والأستاذ الدكتور خليفي عبد القادر من جامعة وهران. والدكتور حسن الصادقي من معهد الدراسات الأفريقية، والدكتور عمر أفا جامعة محمد الخامس بالرباط.

وقد اجتهدنا ما أمكننا للحصول على مخطوطات المشرفي الموجودة بالجزائر، وبخاصة زاوية الهامل. واتصلنا في هذا الإطار بالأستاذ عبد المنعم القاسي الذي ذُكر في جوابكم الأخير، وقد زوّدنا مشكورا جدا بالتحقيق الذي قام به حول مخطوط الذخيرة المذكور في الجواب. لكن الذي وصلني من الأستاذ عبد المنعم القاسمي التحقيق الخاص بقسم الجزائر فقط. ومادام التحقيق لم يكن قد نُشر وقتها، بات لزاما علينا الاعتماد على النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها من المغرب، خاصة بعد أن طلبتَ النسخة المخطوطة كاملة من المحقق، لكنه اعتذر بعدم توفرها عنده كاملة، وهو ما جعلني أصرف النظر عن الزاوية الهاملية بعد أن تأكدت أن لا وجود لمخطوطات المشرفي بها، بعد اطلاعي على فهرستها المنشورة سنة 2006 ضمن مطبوعات دار الغرب الإسلامي، وكذا سؤال القيّمين عليها.

وأما ما تعلق بالإشكال المذكور في الرسالة حول بني شقران (صفحة 90 هامش4) من المذكرة. فإن المعلومة على ما يبدو صحيحة، والمقصود بها هو قبيلة بني شقرون المغربية، وليس قبيلة بني شقران بمنطقة معسكر. أما قبيلة بني شقرون فهي قبيلة مغربية بالأطلس المتوسط بالمغرب الأقصى[5]، وقد أثبتناها كتابة ببني شقرون، وليس بني شقران.

وفي الأخير، أجدد شكري لكم، وأدعو الله تعالى أن يمدّ في عمركم ويبارك فيه، لكي نستفيد من توجيهاتكم وتسديداتكم العلمية.

أ/عبد الحق شرف، وهران 2008/7/29



غلاف الرسالة الموجهة إلينا من طرف المرحوم الدكتور سعد الله وعليها الختم والتاريخ

النص الأصلي لرسالة الدكتور أبو القاسم سعد الله وعليها توقيعه الشخصي في الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عبد الحق شرف، وهران

السلام عليكم، وبعد

أشكركم على إهدائي نسخة من مذكرتكم للماجستير عن (العربي المشرفي وآثاره). وقد تصفحتها باهتمام لأن سيرة ومؤلفاة المشرفي سبق لي التعرض إليها ودراسة بعضها.

وفي الحال اعتقدت أن صاحب المذكرة يكون قد سافر إلى المغرب واطلع على أرشيفه وعلى مؤلفات أخرى للمشرفي، ولكني وجدت صاحب المذكرة اقتصر على ما في الجزائر وما قرأه هنا وهناك عن هذه الشخصية المتنوعة الإنتاج.

المذكرة عبارة عن حشد للمعلومات وجمع لآثار المشرفي. وحتى هذه العملية غير كاملة. لأن المشرفي كان أيضا يتردد على الجزائر، وكانت له صلات ببعض المستشرقين الفرنسيين يستفيدون منه لمعرفة أحوال المغرب قبل الحماية. وقد نوه المشرفي على العموم بأعمال فرنسا في الجزائر وفضل معاملتها للعلماء ورجال الدين على معاملة السلطات المغربية لعلماء المغرب ورجال الدين هناك. ومن الذين كانوا يطلبون منه الكتابة عن الجزائر والمغرب: روني باصيه، عميد الدراسات الأدبية في المدرسة العليا بالجزائر. وقد كتب عنه وعن معاصره التونسي (محمد بيرم الخامس): المستشرق هنري بيريز وقارن بينهما في الحكم على عمل فرنسا في الجزائر، فأحدهما(المشرفي) معجب، والآخر (بيرم) منتقد.

وأنت لم تذهب إلى المغرب فيما يبدو، ولكنك لم تذهب أيضا حتى إلى ما هو أقرب وأسهل في الوصول إليه مثل زاوية الهامل أو البشير ضيف لتطلع مثلا على ما هناك في عين المكان من مؤلفات المشرفي، ولو كانت مصورة.

وبودي أن تعرف أن كتاب (ذخيرة الأواخر) قد حققه تحقيقا جزئيا طيبا الأستاذ عبد المنعم القاسمي، وهو من زاوية الهامل (بوسعادة) وأستاذ في جامعة ورقلة. ولا أدري إذا كان قد نشر تحقيقه أم لا.

هناك أمور قد توقعك في إشكال إن هي بقيت في المذكرة على حالها: مثلا تقول عن بني شقران (ص 90 هامش 4) أنهم قبيلة بالمغرب الأقصى. وأين قبيلة بني شقران الجزائرية؟ ألست تتحدث عن بني شقران في منطقة معسكر؟

إنه لا يسعني إلا شكرك على التنويه بمساهمتي عن المشرفي. وقد جمعت معلوماتي عنه أثناء (رحلتي إلى المغرب) التي لعلك اطلعت عليها، ولم أذهب إلى المغرب من أجل المشرفي ولكن من أجل جمع مادة لكتابي تاريخ الجزائر الثقافي. لذلك بقيت أمور عن المشرفي لم يسعن الوقت للاطلاع عليها. وكتاباته غنية بالملاحظات والآراء عن المجتمعين الجزائري والمغربي في القرن التاسع عشر. وهو رجل خبر الحياة وأعيان الناس في البلدين، ولم يكن رجلا عاديا مهمشا رغم شكواه من أهل فاس.

أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان.

وفقنا الله جميعا للعمل العلمي، والسلام.

أ.د/ أبو القاسم سعد الله

2008/07/21

الهوامش:

1- الرسالة أرسلت من طرفنا إلى الأستاذ سعد الله سنة 2008، وتعميما للفائدة أردنا نشرها تخليدا لذكراه.

2- نوقشت هذه المذكرة يوم 27جوان2007 بكلية الحضارة الإسلامية جامعة وهران، ونلت بها شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية بتقدير حسن جدا. وكانت لجنة المناقشة متكونة من السادة الأساتذة: أ.د. بن معمر محمد من جامعة وهران رئيسا- أ.د. بن نعمية عبد المجيد من جامعة وهران مشرفا ومقررا- د. بوجمعة جهيدة من جامعة وهران مناقشا- د. بوعصبانة سليمان لقمان عمر من جامعة وهران مناقشا.

3- عدد 75، سنة 13، 1983م.

4- هذا المخطوط حققته إلى نهاية الترجمة الرابعة في إطار التحضير لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة وهران. وقد نوقشت الأطروحة يوم 11جوان2012 وحصلت بها على شهادة الدكتوراه في التخصص المذكور بتقدير مشرف جدا. وقد كانت لجنة المناقشة مكونة من: أ.د. بن معمر محمد من جامعة وهران رئيسا – أ.د. بن نعمية عبد المجيد من جامعة وهران مشرفا ومقررا – أ.د. بوجمعة جهيدة من جامعة وهران مناقشا – أ.د. حساني مختار من جامعة الجزائر 2 مناقشا – د. عدة بن داهة من جامعة معسكر مناقشا – د. شخوم سعدي من جامعة بلعباس مناقشا.

5- **قبيلة بنو شقرون:** تحدها شمالا قبيلة زيان، وغربا تادلة، وجنوبا آيت سيري. راجع: مصطفى المشرفي، الحلل البهية، ج2، ص: 167.

مساهمة النساء في الأوقاف بمدينة الجزائر العثمانية
على ضوء وثائق المحاكم الشرعية
(927-1246هـ/ 1520-1830م)

الدكتور محمد زاهي، جامعة تيارت

تعتبر الأوقاف (الأحباس) من أهم الأعمال الخيرية التي عرفها المجتمع الجزائري الإسلامي، يكون فيها الواقف مدفوعا بحبه للخير والتقرب إلى الله. وهذا ما دفع عدداً كبيراً من المجتمع الجزائري في الفترة العثمانية إلى تحبيس أملاكهم من دور وحوانيت وأراضي زراعية لصالح النفع العام لمجتمعهم بكل طواعية واختيارية، وهذا ما تؤكده وثائق المحاكم الشرعية.

كان للنساء دورٌ كبير في المساهمة في الاوقاف[1] اشتركت فيها فئات مختلفة يمثلون أزواج وبنات وأقارب الفئة العسكرية والإدارية للطبقة الحاكمة التركية، ونساء وبنات العلماء والحرفيين والتجار، ونساء أخريات لا نعرف عنهنّ سوى عطائهم الخيري[2]. وتؤكد الوثائق الشرعية أن عددا كبيرا من بنات وأزواج وأقارب الفئة العسكرية والإدارية، كانت تساهم في الأوقاف، بالإضافة إلى نساء الفئات الأخرى[3].

أ. المساهمة المبكرة للنساء في الأوقاف:

ساهمت النساء في وقت مبكر في الوقف في مدينة الجزائر أثناء الفترة العثمانية، كخديجة بنت عبد السلام التي أوقفت بستاناً يقع بفحص محبر خارج باب عزون، وقفاً أهلياً ثم يعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين في سنة 1556م[4].

– وفاطمة بنت المرحوم الأرجوني الأندلسي التي حبست حانوت سنة 1008هـ/1599م وقفا أهليا ثم يعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[5].

– والولية حليمة ابنة غانم التي حبست جنة وقفا أهليا ثم تعود لصالح الحرمين الشريفين في سنة 1050هـ/1641م[6].

– وزكية ابنة مراد التي حبست جنة بعين الربط ناحية باب عزون سنة 1067هـ/1657م وقفا أهليا، ثم تعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[7].

– والولية آمنة التي حبست 3/4 الحانوت بمدينة الجزائر وقفاً أهليا سنة 1070هـ/1661م، ثم يعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[8].

– مريم ابنة الحاج مصطفى التي حبست جميع الدار باب البحر حبساً أهلياً في سنة 1073هـ/1663م ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[9].

– والولية خديجة ابنة المرحوم حمودة طبجي جميع العلوي في سوق البرادعية بناحية باب عزون في 1075هـ/1665م وقفاً أهلياً، ثم يعود لصالح الحرمين الشريفين[10].

– وعائشة المدعوة عويشة ابنة الحاج رمضان التي حبست دار أسفل عين الحمراء بمدينة الجزائر في 1081هـ/1671م، وقفاً أهلياً، ثم لصالح الحرمين الشريفين[11].

والجدول التالي يوضح لنا مدى مساهمة النساء الجزائريات في وقت مبكر في الأوقاف بمدينة الجزائر العثمانية من سنة 964هـ/1556م إلى سنة 1081هـ/1671م.

العلبة والوثيقة	التاريخ	اسم المحبس	نوعية الملك	المكان
	964هـ/1556م	خديجة بنت عبد السلام	بستان	بفحص مجبر خارج باب عزون
ع1/10 و37	1008هـ/1600م	فاطمة بنت المرحوم الأرجوني	حانوت	مدينة الجزائر
ع1/5 و71	1050هـ/1641م	الولية حليمة بنت غانم	جنة	الناحية الغربية لمدينة الجزائر
ع 2/37 و41	1067هـ/1657م	زكية بنت مراد	جنة	عين الربط بباب عزون
ع 1/10	1070هـ/1660م	الولية آمنة	3/4	مدينة الجزائر

و19			الحانوت	
ع 1/4 و22	1073هـ/1663م	مريم بنت الحاج مصطفى	دار	باب البحر بمدينة الجزائر
ع 1/5 و33	1081هـ/1671م	عائشة بنت الحاج رمضان	دار	أسفل عين الحمراء بباب عزون

ب. الأوقاف الأهلية المخصصة من طرف الرجال لصالح النساء:

تعرضت بعض الوثائق الشرعية لعدد من الآباء الذين كانوا يقو مون بحصر الانتفاع بالوقف في الذكور دون الإناث، وهذا ما تؤكده الوثائق التالية:

– تحبيس العربي بن البركة جميع الأرض على ولده وإخوته وعلى عاقبهم من الذكور دون الإناث وقفاً أهلياً في سنة 1227هـ/1812م[12].

– تحبيس الفلاق بن ثقار النسيمي جميع الدار على أولاده الذكور فقط دون الإناث حبساً أهلياً في سنة 1218هـ/1803م[13].

لكنه ظهر لنا بعد الاعتماد على الوثائق الموجودة بين أيدينا، أنه ليس كل الآباء كانت لهم نفس فكرة الحرص على إبقاء استغلال الوقف بحصر الانتفاع بالوقف في الذكور دون الإناث، حيث أكدت لنا النصوص الوقفية أن عددا كبيرا من الآباء قد ألزم في شروط الوقف، على أن تشمل منافع الوقف الذكور والإناث على السواء. كتحبيس الحاج خليل للانكشاري بن ثمان الشطر من الدار في حومة كوشة علي بمدينة الجزائر حبساً أهلياً على أولاده الذكور والإناث على سواء، وكان ذلك في سنة 1111هـ/1699م[14].

ولكننا نجد أن النساء كانوا أكثر عدلاً بين الذكور والإناث، كتحبيس الولية مريم ابنة السيد محمد القليعي لجميع الغرس بضواحي مدينة الجزائر، حبساً أهلياً "على أولادها الموجودين الآن، وهم محمد وحسن وعمر وراضية، وعلى ما يتزايد لها بعد أن قدر الله بذلك

من ذكور وإناث، على أن يكون حظ الذكر والأنثى في ذلك سواء لا مزية واحد على الآخر"[15]، في سنة 1108هـ/1696م.

وتطلعنا العديد من الوثائق الشرعية أن بعض الآباء كانوا أكثر رحمة ومحبة لبناتهم، فقاموا بتحبيس أملاكهم على بناتهم وحتى على حفيداتهم، كتحبيس الحاج محمد بلكباشي ابن عمر التركي الدار بحومة حارة الجنان على مقربة من دار الشويهد باب الوادي، حبساً أهلياً على "ابنته فاطمة الموجودة الآن وعلى من سيولد له بقية عمره"، في سنة 1134هـ/1721م[16].

– وتحبيس محمد شاوش جميع الدار الموجودة في حارة السلاوي بين السور والستارة على نفسه ثم على بناته في سنة 1109هـ/1698م[17].

– وتحبيس الحاج علي آغا ابن السيد المرحوم محمد بن علي حبساً أهلياً على ابنته آسيا ونفسه جميع الدار بحومة الولي الصالح السيد رمضان داخل مدينة الجزائر في سنة 1093هـ/1682م[18].

– وتحبيس الأب حانوتين على ابنته حنيفة ثم على ذريتها في سنة 1195هـ/1780م[19].

– وتحبيس محمد الضرير على ابنته الولية آمنة في سنة 1153هـ/1730م[20].

يمكن أن نستنتج من خلال الوثائق أن هؤلاء الآباء كانوا أشد حرصاً على مستقبل بناتهم خاصة منهم غير المتزوجات، والمطلقات، والأرامل، والذين يعانون من إعاقة معينة في محنتهم.

استفادت أيضا المرأة كثيراً من أوقاف الأزواج، فبعض الرجال اعترافاً منهم بالجميل، قاموا بتحبيس أملاكهم لصالح زوجاتهم، كتحبيس المعظم لكبير آغا بن يوسف التركي جميع الدار على زوجته، مقدار ثمن واحد والباقي على الأولاد، في سنة 1102هـ/1690م[21].

– وتحبيس المكرم محمد يلداش بن حسن شطر من الحوش حبساً أهلياً على زوجته الولية نفسة ابنة الحاج مصطفى والشطر الآخر على ولده أحمد، في سنة 1161هـ/1748م[22].

– وتحبيس المكرم عبد القادر المزوار جميع الجنة بفحص بني مسوس، حبساً أهلياً على ابنته نفيسة وعلى زوجه الولية آمنة مدة كونها أيم فإن تزوجت أو ماتت تعود حصتها للأولاد في سنة 1169هـ/1755م[23].

– وتحبيس الحاج محمد الكبابطي ابن محمد الأندلسي جميع الدار بعلويها واصطبلها بمدينة الجزائر، حبساً أهلياً على ابنته فاطمة وزوجه عائشة ابنة محمد على أن يكون لزوجه المذكورة ثمناً واحداً مدة حياتها وبعد وفاتها يلحق بالحبس المذكور على أبناء ابنته، في سنة 1167هـ/1753م[24].

والجدول التالي يوضح الأوقاف الأهلية المخصصة من طرف الرجال لصالح النساء، من سنة 1093هـ/1682م الى سنة1227هـ/1812م

العلبة والوثيقة	التاريخ	اسم المحبس	نوعية الملك	المكان
ع 2/27 و62	1093هـ/1682م	الحاج علي آغا	دار	حومة الوالي الصالح سيدي رمضان داخل المدينة
ع 2/27 و77	1102هـ/1690م	آغا ابن يوسف	ثمن من الدار	داخل مدينة الجزائر
ع 2/37 و 1	1108هـ/1696م	الولية مريم ابنة السيد محمد القليعي	غرس	ضواحي مدينة الجزائر
ع 1/48 و51	1109هـ/1698م	محمد شاوش	دار	حارة السيلاوي داخل المدينة
ع 1/13 و53	1111هـ/1699م	الحاج خليل الانكشاري ابن عثمان	شطر من الدار	داخل مدينة الجزائر
ع 50 و4	1134هـ/1721م	الحاج محمد بلكباشي ابن عمر التركي	دار	حارة الجنان بباب الوادي
ع 1/5 و29	1153هـ/1730م	محمد الضرير	/	داخل المدينة

ع 2/26 و8	1161هـ/1748م	محمد يلداش ابن حسن	شطر/ من الحوش	خارج مدينة الجزائر
ع 1/5 و5	1167هـ/1753م	الحاج محمد الكبابطي ابن محمد الأندلسي	دار بعلويها واصطبلها	داخل مدينة الجزائر
ع 2/37 و17	1169هـ/1755م	عبد القادر المزوار	الجنة	بفحص بني مسوس خارج المدينة
ع 1/10 و33	1195هـ/1780م	الأب	حانوتين	داخل مدينة الجزائر
ع 1/5 و10	1218هـ/1803م	الفلاق ابن تقار النسيمي	دار	داخل مدينة الجزائر
ع 1/5 و8	1227هـ/1812م	العربي ابن البركة	أرض	خارج مدينة الجزائر

ج. مكانة المرأة ومساهمتها في الأوقاف:

1. مشاركة النساء الأزواج في إنشاء أوقاف أهلية:

اشتركت العديد من النساء مع أزواجهم في تحبيس أملاكهم أوقافاً أهلية، يستفيد منها أبنائهم أولا ثم تعود بعد انقراض عقبهم إلى فقراء الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، كتحبيس عويشة ابنة علي وزوجها القايد حسين عبد الله عتيق المنعم الذين حبسا جميع الدار باصطبلها وعلويها، في حومة البطحاء ناحية باب عزون، في سنة 1072هـ/1662م، وقفاً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين[25].

– واشتراك مريم ابنة الحاج مع زوجها علي آغا عبد الله عرف ببوجيل الذين حبسا دار بحومة السبوعة مجاورة لدار الحجاج باب عزون، سنة 1098هـ/1687م حبساً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[26].

– واشتراك آمنة بنت إبراهيم وزوجها حسين الذين حبسا جميع الدار بحومة عين عبد الله العلج مجاورة لدار بنت القاضي بالقصبة حبساً أهلياً 1108هـ/1697م ثم تعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[27].

– واشتراك الولية فاطمة بنت محمد وزوجها مصطفى بن السليمات التركي وربيبه زوج الولية قامير بنت محمد، الذين قاموا بتحبيس جنة بمدينة الجزائر وقفاً أهلياً، في سنة 1129هـ/1717م لصالح فقراء الحرمين الشريفين[28].

– واشتراك جميلة وأمها جنات وزوجها مصطفى خوجة الذين حبسا جميع العلوي للدار المجاورة لحمام حمزة خوجة بمدينة الجزائر، في سنة 1133هـ/1721م وقفاً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[29].

– واشتراك الولية راضية مع زوجها الحاج محمد الانكشاري الحرار ابن حسين الذين حبسا دار في زنقة ابن فارس أسفل ضريح الشيخ بوقدور، حبساً أهلياً سنة 1142هـ/1730م ثم تعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[30].

– واشتراك الولية فاطمة ابنة السيد عبد الرحمن وزوجها المرحوم يوسف رايس بن علي في تحبيس دار بمدينة الجزائر، في سنة 1177هـ/1764م ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[31].

– اشتراك فاطمة بنت ساعد وزوجها حسين يلداش ابن أحمد التركي، بتحبيس الشطر العلوي لدار الملاصقة للمسجد الموجود بسقيفة الشرشالي قرب خربة ابن ميمون أسفل القصبة القديمة داخل مدينة الجزائر، في سنة 1171هـ/1758م حبساً أهلياً ثم تعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين ولصالح المسجد الأعظم[32].

– واشتراك الولية خديجة بنت إبراهيم مع زوجها المعظم مصطفى بلوكباشي بن رمضان التركي جميع الدار حباً أهلياً، في سنة 1114هـ/1702م ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[33].

والجدول التالي يوضح لنا مشاركة النساء الجزائريات أزواجهم في إنشاء أوقاف أهلية من سنة 1108هـ/ 1697م إلى سنة 1177هـ/1764م

العلبة والوثيقة	التاريخ	اسم المحبس	نوعية الملك	المكان
ع 1/7 و26	1072هـ/1662م	عويشة وزوجها القايد حسين	الدار والاصطبل	حومة البطحاء ناحية باب عزون
ع 1/10 و56	1098هـ/1687م	مريم مع زوجها	دار	حومة السبوعة بباب عزون
ع 2/7 و21	1108هـ/1697م	آمنة وزوجها حسين	دار	حومة عين عبد الله بالقصبة
ع 1/13 و20	1114هـ/1702م	الولية خديجة وزوجها مصطفى بلوكباشي	دار	مدينة الجزائر
ع 1/5 و46	1129هـ/1717م	الولية فاطمة وزوجها مصطفى	جنة	مدينة الجزائر
ع 1/10 و51	1133هـ/1721م	جميلة وأمها وزوجها مصطفى خوجة	دار	مجاورة لحمام حمزة خوجة بمدينة الجزائر
ع 1/5 و39	1142هـ/1730م	الولية راضية وزوجها الحاج محمد الانكشاري	دار	زنقة ابن فارس بمدينة الجزائر
ع 2/27 و17	1171هـ/1758م	فاطمة ابنة ساعد وزوجها حسين يلداش	العلوي لدار	الملاصقة لمسجد سقيفة الشرشالي أسفل القصبة
ع 1/5 و14	1177هـ/1764م	الولية فاطمة وزوجها يوسف رايس	دار	مدينة الجزائر

2- مشاركة النساء الآباء والأبناء وأبناء الإخوة في إنشاء أوقاف أهلية:

اشتركت بعض النساء مع الأب والابن وحتى مع ابن الأخ في تحبيس أملاكهم، مما يدل على حرص النساء على الوقف، وعلى حبها المفرط للأعمال الخيرية من بذل وعطاء وإحسان، كاشتراك جنات مع أبيها السيد علي بن عبد الله السيبي بتحبيس جميع الدار في حومة خربة ميمون وبمقربة من عين عبد الله العلج بالقصبة في سنة 1218هـ/1804م حبساً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[34].

– اشتراك كل من السيد أحمد وابنته دار بالقرب من المسجد المعروف خضر باشا بمدينة الجزائر في 1097هـ/1686م وقفاً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[35].

– واشتراك الولية برومة مع أبنائها محمد الفزاز وأحمد أولاد الحاج محمد الميلي بتحبيس حانوت بسوق اللوح بفحص بوزريعة في 1180هـ/1767م ثم لصالح الحرمين الشريفين[36].

– واشتراك الولية قامير مع ابن أخيها مصطفى الإنكشاري ابن محمود ابن حميدة جميع الدويرة قرب الحمامات حبساً أهلياً في 1153هـ/1741م ثم لصالح الحرمين الشريفين[37].

والجدول التالي يوضح لنا مدى مشاركة النساء الآباء والأبناء وأبناء الإخوة في إنشاء أوقاف أهلية من سنة 1097هـ/1686م إلى سنة1218هـ/1804م

العلبة والوثيقة	التاريخ	اسم المحبس	نوعية الملك	المكان
ع 1/10 و40	1097هـ/1686م	السيد أحمد وابنته	دار	بالقرب من مسجد خضر باشا بمدينة الجزائر
ع1/7 و15	1153هـ/1741م	الولية قامير مع ابن أخيها	الدويرة	قرب الحمامات بمدينة الجزائر
ع 28 و21	1180هـ/1767م	الولية برومة مع أبنائها	حانوت	بسوق اللوح بفحص بوزريعة
ع2/7 و23	1218هـ/1804م	جنات مع أبيها	الدار	حومة خربة ميمون بالقصبة

3- مشاركة النساء البنات والأخوات في إنشاء أوقاف أهلية:

اشتركت أيضاً بعض النساء مع بناتها وأخواتها في تحبيس أملاكهم، وهو دليل على حب المرأة للإحسان والعطاء والبذل، ودليل على مكانة المرأة الاجتماعية ووضعيتها المالية، ودليل واضح على حرصها على مستقبل أفراد عائلتها خاصة البنات منهم من الفتيات غير الراشدات والأرامل والمطلقات والمعوقين من الإناث والذكور، كاشتراك الولية قامير ابنة يوسف وابنتها بتحبيس شطر الدار في أعلى الحمامات بباب الجزيرة، في سنة 1130هـ/1718م وقفاً أهلياً ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[38].

- واشتراك الولية يمونة ابنة أحمد آغا وابنتها أم الحسن بتحبيس شطر الدار في زنقة ابن فارس، حبساً أهلياً في سنة 1158هـ/1746م ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[39].
- واشتراك نفيسة وأختها أمينة بتحبيس جميع الدار بمدينة الجزائر، حبساً أهلياً في سنة 1135هـ/1723م ثم لصالح الحرمين الشريفين[40].
- واشتراك يمونة وابنتها دوما بتحبيس جميع الاصطبل والأغراس والجنات قرب الجامع المعلق سند الجبل بمدينة الجزائر في سنة 1168هـ/1765م، حبساً أهلياً ثم لصالح الحرمين الشريفين[41].
- واشتراك يمونة ابنة سليمان وابنتها عزيزة بتحبيس جنتين بفحص بئر مراد رايس سنة 1180هـ/1767م، حبساً أهلياً ثم لصالح الحرمين الشريفين[42].
- واشتراك الولية مريم وأنيسة ابنتا محمد القليعي بتحبيس جنة بفحص عناصر بني موسى خارج باب عزون، في سنة 1194هـ/1780م حبساً أهلياً ثم لصالح الحرمين الشريفين[43].

والجدول التالي يوضح مشاركة النساء والبنات والأخوات في إنشاء أوقاف أهلية من سنة 1130هـ/1718م إلى سنة 1194هـ/1780م

العلبة والوثيقة	التاريخ	اسم المحبس	نوعية الملك	المكان
ع 1/7 و32	1130هـ/1718م	الولية قامير وابنتها	شطر من الدار	بباب الجزيرة
ع 1/9 و42	1135هـ/1723م	نفيسة وأختها أمينة	دار	بفحص بني موسى خارج باب عزون
ع 2/6 و42	1158هـ/1746م	يمونة وابنتها أم الحسن	شطر من الدار	زنقة ابن فارس داخل مدينة الجزائر
ع 1/10 و6	1168هـ/1765م	يمونة وابنتها دوما	الاصطبل والأغراس والجنات	قرب الجامع المعلق بمدينة الجزائر
ع 3 و44	1180هـ/1767م	يمونة ابنة سليمان وابنتها عزيزة	جنتين	بفحص بئر مراد رايس
ع 37/ و6	1194هـ/1780م	الولية مريم وأختها أنيسة	جنة	فحص بني موسى خارج باب عزون

4- إنشاء أوقاف خاصة بالبنات والحفيدات:

حرصت المرأة بمدينة الجزائر على مساعدة ومساندة بناتها وحفيداتها خاصة منهم الذين هم بحاجة إلى ذلك، كتحبيس عائشة على ابنتها حليمة وعلى ذرية ابنتها وعقبها جميع البلاد، حبساً أهلياً في سنة 1148هـ/1736م، ثم تعود لصالح الحرمين الشريفين[44].

– وتحبيس يمونة لجميع الجنة بعين الربط الملاصقة لرقعة البايلك الشهيرة وبرقعة المفتي خارج باب عزون، حبساً أهلياً على ابنة ابنتها وهي الولية نفوسة ابنة السيد الحاج محمد بوضربة سنة 1200هـ/ 1786م، ثم تعود لصالح الحرمين الشريفين[45].

د. نماذج من النساء الأكثر بذلا وعطاء في الفترة العثمانية:

كشفت لنا العقود الشرعية أن بعض النساء كانت أكثر بذلاً وعطاءاً في مجال الوقف، من خلال المساهمة في تحبيس العديد من الأوقاف، ومن بين النساء التي اشتهرت في نظرنا في تحبيس أملاكها، وحسب ما تؤكده النصوص الوقفية مثل: فاطمة ابنة ساعد من العنصر الأندلسي التي ساهمت في العديد من الأوقاف، فقد اشتركت مع زوجها حسين يلداش بن أحمد التركي في أوائل جمادى الثاني من سنة 1171هـ/1758م، وذلك بتحبيس العلوي "الدار اللاصق بالمسجد الكاين بسقيفة الشرشالي قرب خربة بن ميمون أسفل القصبة القديمة داخل الجزائر المحروسة" حبساً أهلياً[46]. وفي سنة 1201هـ/1787م بعدما تقدم بها العمر وبعد مرور 29 سنة من التحبيس الأول، قامت بتحبيس ثاني تمثل في جميع الدار بحومة العزارة بباب عزون وقفاً أهلياً ثم يعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[47].

إن اختلاف أماكن الأملاك المحبسة الموجودة بالقصبة والأخرى بباب عزون دليل على عنى هذه المرأة والثروة الكبيرة التي كانت تملكها، علما أن هذه المرأة كانت تنتمي لعائلة ساعد الأندلسية المشهورة بغناها وثروتها في الفترة العثمانية.

كما اشتهرت نساء أخريات بالبذل والعطاء من بينهن مريم ابنة السيد محمد القلعي، التي حبست جميع الغرس (جنة) في بني مسوس بالباب الجديد على نفسها أولاً ثم على أبنائها محمد وحسن وعمر وراضية، وعلى ما يتزايد لها بعد أن قدر الله بذلك من ذكور وإناث، وبعد انقراض عقبها تعود لفقراء الحرمين الشريفين، وتم ذلك في سنة 1180هـ/1767م[48]. وبعد مرور 13 سنة وبالتحديد في سنة 1194هـ/1780م، قامت مريم ابنة السيد محمد القلعي مع أختها بتحبيس جنة بفحص عناصر بني مسوس خارج باب عزون حبساً أهلياً ثم تعود لصالح فقراء الحرمين الشريفين[49].

إن التحبيس الأول والثاني لهذه المرأة دليل على حب هذه السيدة للبذل والعطاء والإحسان على أبنائها أولاً، ومن جهة أخرى الوقف على فقراء الحرمين الشريفين، ونجدها في التحبيس الثاني قد شجعت أختها أنيسة على الوقف.

كما عرفت نساء أخريات بكثرة البذل والعطاء، فقد اشتركت كل من يمونة وابنتها دوما بتحبيس جميع الاصطبل والأغراس والجنات قرب الجامع المعلق سند الجبل بمدينة الجزائر وقفاً أهلياً في سنة 1168هـ/1755م[50].

– كما قامت الولية خديجة ابنة الحاج محمد خوجة بتحبيس بناء وساحة ومخزن بفحص بني مسوس خارج باب الجديد، وقفاً أهلياً في سنة 1179هـ/1766م ثم لصالح فقراء الحرمين الشريفين[51].

– وقامت خديجة ابنة المرحوم أحمد ابن ربيعة بتحبيس جميع دار العمل والكوشة والحانوت الموجودة بالقرب من دار العمل بمدينة الجزائر، وقفاً أهليا في سنة 1182هـ/1769م ثم لصالح الحرمين الشريفين[52].

– كما قامت الولية نفوسة بتحبيس أملاك عديدة تتمثل في دار وملك واصطبلات، في حومة سيدي علي الفاسي مجاورة لدار فرج علي بمدينة الجزائر، وقفاً أهلياً في سنة 1185هـ/1772م ثم لصالح الحرمين الشريفين[53].

– وقامت راضية ابنة موسى بتحبيس أملاك عديدة تتمثل في الأرض والأجنة المسماة بارحة وحوض لكريف، وجميع حوض بالزبوجة، والحوض الأبيض برأس العين بكوشة الحشابتة بمدينة الجزائر، في سنة 1234هـ/1819م[54].

ويظهر من خلال كل هذه الوثائق الشرعية مدى دور المرأة في الوقف، ومكانتها في مجتمع الجزائر من خلال تحبيس الأملاك التي تملكها هي شخصياً، ومدى حب المرأة للخير والإحسان والبر، من خلال ما كانت تتمتع به من شخصية مالية ووضعية اجتماعية مميزة، خاصة بالنسبة للنساء التي تنتمي إلى الطبقة الحاكمة، وأسر أصحاب الوظائف الاقتصادية من العنصر الأندلسي، وسكان الحضر من الجزائريين، والأسر التي تنتمي إلى الوظائف الدينية

كبنات العلماء، وهذا الأمر سمح للعديد من النساء بوقف أملاكهن، كما حرصت البعض منهنّ على الانتفاع بمردود أوقافهنّ.

الهوامش:

---

[1] - Hoexter, (Miriam), «En dowcements, rules and Community, Wakfal-Haremeyn in Ottoman Algiers », Leiden/Bull, 1981, p 11.

[2] - Deguilhen, Randi, « Approche méthodologique d’un fonds de Wakfs deux registres de sari à XI siècle », in Le Wakf dans l’espace islamique, IFEAD, 1995, p 65.

[3] – فتيحة، الواليش، "النساء والسلطة القضائية " من خلال عقود الأحباس في مدينة الجزائر خلال القرنين 17 و18م، العدد الخاص، مجلة سيرتا، مارس 2000، ص ص 25- 30.

[4] – عائشة، غطاس، "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر"، أعمال ندوة الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسات إنسانية، عدد خاص، 2002، ص 127.

[5] – الارشيف الوطني الجزائري، سجلات المحاكم الشرعية، العلبة 1/10 الوتيقة 37.

[6] – س م ش، ع1/5 و71.

[7] – نفسه، ع 2/37 و41.

[8] – نفسه، ع1/10 و23.

[9] – نفسه، ع1/4 و22.

[10] – نفسه، ع2/10 و19.

[11] – نفسه، ع1/5 و33.

[12] – نفسه، ع1/5 و8.

[13] – نفسه، ع1/5 و10.

[14] – نفسه، ع1/13 و53.

[15] – نفسه، ع 2/37 و1.

[16] – نفسه، ع 50 و4.

[17] – نفسه، ع 1/48 و51.

[18] – نفسه، ع 2/27 و62.

[19] – نفسه، ع1/10 و33.

[20] – نفسه، ع 1/5 و29.

[21] – نفسه، ع 2/27 و77.

[22] – نفسه، ع 2/26 و8.

[23] – نفسه، ع 2/37 و17.

[24] – نفسه، ع 1/5 و5.
[25] – نفسه، ع 11/7 و26.
[26] – نفسه، ع1/10 و56.
[27] – نفسه، ع2/7 و21.
[28] – نفسه، ع 2/5 و46.
[29] – نفسه، ع 1/10 و51.
[30] – نفسه، ع 2/6 و39.
[31] – نفسه، ع 2/5 و14.
[32] – نفسه، ع 2/27 و17.
[33] – نفسه، ع2/13 و20.
[34] – نفسه، ع2/7 و23.
[35] – نفسه، ع 1/10 و40
[36] – نفسه، ع 38 و21.
[37] – نفسه، ع 1/7 و32.
[38] – نفسه، ع1/7 و32.
[39] – نفسه، ع 1/9 و42.
[40] – نفسه، ع2/6 و42.
[41] – نفسه، ع 1/10، و6.
[42] – نفسه، ع 1/3 و44.
[43] – نفسه، ع 2/37 و6.
[44] – نفسه، ع 1/5 و17.
[45] – نفسه، ع 2/37 و44.
[46] – نفسه، ع 2/7 و17.
[47] – نفسه، ع 1/9 و11.
[48] – نفسه، ع 2/37 و1.
[49] – نفسه، ع 2/37 و6.
[50] – نفسه، ع 1/10 و6.
[51] – نفسه، ع 2/37 و19.
[52] – نفسه، ع 1/10 و38.
[53] – نفسه، ع 38 و44.
[54] – نفسه، ع1/5 و 75.

المشرق العربي تحت الحكم العثماني

الأستاذ محمد بوسلامة، جامعة تيارت

1- المشرق العربي قبل التوسع العثماني:

كان سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، عام 258 م على يد المغول، مرحلة ركود في بعض أجزاء من العالم العربي الإسلامي. وبرغم الهجمات التي تعرّض لها المشرق العربي، إلا أن تأثيرات هذا الغزو المباشر عليه اقتصرت على العراق الّذي ضُمّ إلى الدولة المغولية [1]، أن لسقوط بغداد آثار سيّئة على مصير منطقة المشرق العربي، و أبرز هذه الآثار، فقدان هذه المنطقة لوحدتها السياسية، ذلك السلاح الّذي واجهت به مختلف التحديات والتعديات التي جابهتها داخليا وخارجيًا [2] ، وهكذا أصبح المشرق العربي مجزّءاً إلى إمارات ودويلات متناحرة جعلت منها مطمعًا لكل طامع ، ولذا مع منتصف القرن الثلاث عشر، ظهرت على مسرح الأحداث دولة استطاعت أن تعيد للمشرق العربي والإسلامي مكانته التاريخية والحضارية وهي دولة المماليك [3]، حيث أننا نجد أن الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة تعترف وتقرّ بالدور والأهمية الكبرى التي لعبتها دولة المماليك في تطوّر أحداث المشرق العربي وتبرز ذلك في:

- نجاح المماليك في إنقاذ المشرق من الخطر المغولي، وأنه لولا اتّحاد بلاد الشام ومصر في ذلك الوقت ما أمكن تحقيق الانتصار على المغول.

- كما تزعّم المماليك العالم الإسلامي لفترة من الزمن خاصة بعد استقدام الخليفة العباسي إلى مصر، وبذلك انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة وبقيت مصر مركز الخلافة الإسلامية ومحط أنظار المسلمين [4].

لقد حاول المغول التوسّع على حساب بلاد الشام بعدما سقطت عاصمة الخلافة العباسية بغداد. إلا أن سلطان المماليك في مصر قطز، خرج على رأس جيش إلى الصالحية لملاقاة المغول. والتقى الجمعان في معركة عين جالوت عام 1260م، انهزم على إثرها المغول وفرّ جيشهم أمام ضربات المماليك الّذين طاردوهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام إلى ما وراء الفرات [5]. إن الوحدة

التي تحقّقت بين مصر والشام، عقب عين جالوت، مكّنت المماليك من الوقوف بالمرصاد لأية محاولة من المغول، وهكذا أصبحت سلطنة المماليك في مصر أكبر قوة في المنطقة، عملت على حماية مصر وسوريا من أعظم خطر ظل يهدّد العالم العربي الإسلامي في ذلك الوقت [6].

لقد انتقلت زعامة العالم العربي الإسلامي إلى مصر والشام بعد أن ضاع العراق في يد المغول. وما زاد في أهمية مصر، انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر بيبرس [7] (1260-1277م) الّذي استقدم أحد أبناء البيت العباسي وبايعه بالخلافة فلُقّب "بالمستنصر بالله" وقام هذا الأخير بتقليد السلطان المملوكي "بالديار المصرية، والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية". وهكذا استمرت مصر حتى الفتح العثماني عام 1517 كقاعدة للخلافة الإسلامية ومحطّ أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها [8] .

يجمع كثير من المؤرخين على أن عوامل انحطاط دولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر تعود إلى:

- فقدانها صفة الدولة العسكرية بعد ابتعاد الجيش عن ميادين المعارك منذ معركة عين جالوت واهتمامهم بالصّناعة والتّجارة.
- انتشار الفساد الإداري وشراء المناصب وكثرة الظلم والقمع.
- ضعف الخلفاء العباسيين الّذين أصبحوا تحت سيطرة حكام المماليك.
- وقوفهم عاجزين أمام تحدّيات البرتغاليين والصفويين الشيعة.
- انتشار محبّة العثمانيين بين الطّبقات الشعبية وحتى بين المماليك أنفسهم الّذين تحوّل بعضهم إلى مؤيّد ومناصر للعثمانيين، مما هدّد أسس دولة المماليك.
- تخبّط دولة المماليك في الأزمة الاقتصادية بعد تحوّل الطرق التجارية، مما أرغمها على البحث عن مصادر أخرى فلم تجد إلا فرض الضرائب، مما ولد سخطًا لدى الأوساط الشعبية [9].

كانت التجارة ذات أهمية بالغة بالنسبة لمصر خاصة التجارة بين أوربا والشرق الأقصى مرورًا بالشرق الأوسط، حيث كانت تجارة التوابل والحرير تنقل عبر طريقين يمران بالمنطقة العربية يسمى أحدهما طريق الحرير والآخر طريق التوابل 10. وفي عام 1498م وصل فاسكو دي ڤاما البرتغالي إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ليظهر طريق آخر لا يمر عبر

الأراضي العربية. وبعد عودته إلى لشبونة ومعه حمولة من التوابل، أوجد طريقًا آخر إلى الشرق الأقصى، يمتاز بتكاليف قليلة وأنه أكثر أمانًا من الطريق العابر للمشرق العربي[11]. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت البرتغال منافسًا حقيقيا وخطيرا لدولة المماليك في توزيع التجارة الشرقية على دول أوربا. ووصل بهم الأمر أن هدّدوا السفن المصرية المتوجّهة إلى الهند، حتى أنهم سيطروا على الممرات والمضائق إلى البحر الأحمر، كما تعرّضت السفن العربية لهجوم الأسطول البرتغالي في مياه المحيط الهندي [12] .

في عام 1509 أحرز البرتغاليون نصرًا حاسمًا على الحملة البحرية التي أرسلها سلطان المماليك الغوري [13] في موقعة "ديو". وكانت هذه الموقعة الانطلاقة للانتصارات البرتغالية والسيطرة الحقيقية على التجارة الشرقية حتى منتصف القرن 17م [14].

لقد أقام البرتغاليون قواعد عسكرية بحرية وبرية لإغلاق المعابر المؤدّية إلى الخليج العربي عبر مضيق هرمز وممر عدن لإغلاق طريق البحر الأحمر إلى مصر[15] . لقد تحوّلت التجارة العالمية من البحر الأحمر ومصر إلى جنوب إفريقيا ولم تعد مصر مركزًا رئيسيًا للتجارة العابرة وانتقل مركز التجارة من الإسكندرية إلى لشبونة. وهكذا، أخذت طاقة مصر الاقتصادية تتدهور وأدى ذلك إلى ضعف قوتها العسكرية والسياسية، مما مكّن العثمانيين من هزيمتها عام 1517م، وانتهى الأمر بخضوع العالم العربي إلى السيطرة العثمانية باستثناء المغرب الأقصى ومنطقة نجد بقلب شبه الجزيرة العربية لوعورة المنطقة طبيعيًا وتضاريسيًا.

وبذلك فقد العرب في مطلع القرن السادس عشر كيانهم الدولي الخاص، وتحدّدت علاقتهم مع بقية دول العالم عن طريق الدولة العثمانية [16].

2- التوسّع العثماني في البلاد العربية:

كان لظهور الصفويين الشيعة في إقليم الأناضول العثماني بالنسبة للعثمانيين، من الأخطار التي تهدّد سلامة الدولة العثمانية السنية. ولذلك بدأ الاحتكاك بين الطرفين، كانت فيه الغلبة في كثير من الأحيان لصالح العثمانيين. كما وجدت قبائل الحدود من التركمان، الّذين كان العثمانيون يحاولون إخضاعهم لسيطرتهم في الشاه إسماعيل الصفوي، حاميًا وزعيمًا تهوي إليه نفوسهم أكثر من هواهم للسلطان العثماني، رمز المذهب السني [17]. إن تبني الدولة الصفوية للمذهب الشيعي،

وسعيها بكل الطرق إلى نشره خارج حدود إيران، من العوامل التي أثارت حفيظة العثمانيين وعزمهم على وضع حد لطموحات هذه الدولة، التي استطاعت أن تحتلّ مدينة كوتاهية ومحاصرة بورصة في الأناضول، مما جعل العثمانيين يعتمدون على سياسة الاضطهاد الديني ضد الشيعة المقيمين في بلادهم[18]. يعدّ وصول سليم الأول [19] إلى سدة الحكم، بداية تصادم حقيقي بين العثمانيين والشيعة خاصة عندما افتك السلطان سليم من شيخ الإسلام "صاري حوريز" وهو أعلى مرجع ديني في الإمبراطورية بفتوى تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية وتبيح ذبحهم وقتلهم.

وكان لسليم ما أراد حيث أضفت هذه الفتوى الشرعية على دخول سليم الحرب[20]. اشتعلت نار الحرب بين الطرفين عام 1514 شمال تبريز –عاصمة الصفويين–في موقعة تسمى جالديران. وكانت النتيجة، انتصار القوة العثمانية وانكسار الصفويين، ودخل السلطان سليم الأول مدينة تبريز مؤيَّدًا ومرحّبًا به من قِبل سكان المدينة، واعتبروه محرّرهم من الضغط الشيعي[21].

من نتائج هذه الحرب، انضمام منطقة ديار بكر والمدن الشرقية في الأناضول إلى الدولة العثمانية وكذا شمال العراق لتفتح بقية هذه المنطقة في عهد سليمان القانوني[22]، كما استفاد العثمانيون أيضًا من الجانب الاقتصادي والاستراتيجي. فأما الشق الأول، تمثّل في سيطرتهم على الطرق التجارية في اتّجاه الشرق، أما الشق الثاني، فيكمن في تحوّل هضبة الأناضول إلى سد يحمي الحدود الشرقية العثمانية[23].

كما يعدّ التوسّع العثماني في البلاد العربية، في بداية القرن السادس عشر، نتيجة من نتائج الصراع السياسي والمذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية. حيث كان ظهور هذه الأخيرة على مسرح الأحداث، سببًا من أسباب تحوّل وجهة العثمانيين من الغرب إلى الشرق. إذ اعتبرت ظهور الصفويين خطرا على المنطقة العربية[24]، وتفطّن إلى نواياهم وأطماعهم لها، مما استوجب عليه الشروع في الزحف على البلاد العربية، فاستولى على المناطق المتأخّمة لدولة المماليك. وبذلك يبدأ الصراع بين العثمانيين وسلطنة المماليك في مصر بقيادة السلطان قانصوة الغوري[25].

لقد كان السلطان سليم الأول مدفوعا نحو فتح بلاد الشام من أجل منع وصول المد الصفوي الشيعي إلى البلاد العربية. ومن ناحية أخرى تلك الاتّصالات التي كشفها العثمانيون بين الصفويين والمماليك، والتي كان الهدف منها الحيلولة دون سقوط المنطقة بيد العثمانيين. ويرى المؤرّخ

"ابن أبي السرور البكري" في كتابه "الكواكب السائرة في أخبار مصر" "أنه عام 1516م، توجّه الجيش المملوكي من القاهرة إلى الحدود الشمالية السورية هو السبب المباشر في نشوب معركة مرج دابق"[26]. التقى الطرفان بهذه الموقعة، وانهزم فيها السلطان الغوري وقتل. والسبب في ذلك حدوث خلاف في صفوف جيشه المؤلف من المماليك، إلى جانب ذلك عدم التوازن في القوى بين الطرفين. بعد هذه المعركة، توسّع سليم على عدّة مدن منها: حمص، دمشق وحماه، وخرج السكان حاملين المصاحف والأعلام، مرحّبين بالفاتحين، حتى أن الخطيب أضاف في خطبته عبارة "خادم الحرمين الشريفين" [27].

بعد مقتل السلطان قانصوة الغوري في معركة مرج دابق، وصل الخبر إلى مماليك مصر، أين انتخبوا طومان باي [28] سلطاناً عليهم يتولى الدفاع عن سلطنة المماليك في مصر، إلا أن طومان رفض هذا المنصب في البداية لعدّة أسباب أهمها، الانقسامات التي كانت بين المماليك، وكذلك الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي كانت تعيشها مصر[29]. في هذه الأثناء تقدّم الجيش العثماني نحو مصر، مستوليًا على المدن التي كانت في طريقه منها غزة. ووصل الجيش إلى حدود القاهرة، أين التقى الطرفان عام 1517م بالريدانية، أين انهزم جيش المماليك وتفرّق. فدخل السلطان سليم القاهرة بعدما فتحت أبوابها أمام العثمانيين المنتصرين [30]. وبما أن المماليك يعرفون مداخل ومخارج المدينة، نشبت حرب داخل مدينة القاهرة، حقّق فيها المماليك انتصارات عديدة، إلا أنهم انكسروا في النهاية وانهزموا ولجأ السلطان طومان باي إلى الجنوب بإحدى القبائل البدوية من أجل تنظيم المقاومة، إلا أن هذه القبيلة خافت من بطش العثمانيين، فسلّمته لهم [31]. وبعدما وقع طومان باي في الأسر، أراد السلطان الإبقاء على حياته لما رأى فيه من ذكاء وفطنة وشجاعة، إلا أن هناك من أوغر صدر السلطان عليه فأمر بشنقه. وهكذا دخلت مصر تحت الحكم العثماني في شهر أفريل عام 1517م. كما أمر بعدم التعرّض للمماليك في وظائفهم وأموالهم من أجل الاستفادة منهم في إدارة البلاد [32]. بعد أن أصبحت مصر تحت النفوذ العثماني، توجّهت أنظارهم نحو البلاد العربية الأخرى المجاورة منها منطقة الحجاز وبلاد اليمن والعراق. فبالنسبة للحجاز، فقد دخل تحت السيادة العثمانية سلميا، حيث أعلن شريف مكة ولأنه للعثمانيين من خلال إرسال ابنه بمفاتيح الحرمين الشريفين، فأجازه العثمانيون بتفويض منهم بحكم الحجاز[33]. لقد ترتّب على بسط السيادة العثمانية

على إقليم الحجاز، ظهور العثمانيين في البحر الأحمر وحمايته من الخطر البرتغالي الزاحف على المحيط الهندي. ويرى كثير من المؤرّخين أن التوسّع العثماني على الحجاز واليمن كان سببه وجود الخطر البرتغالي والتهديد المباشر للأماكن المقدّسة خاصة وللعالم العربي والإسلامي عامة [34].

كان التوسّع على إقليم اليمن سلميا في بداية الأمر، إلا أن نزاعًا وقع بين المماليك على حكم اليمن. وخوّفًا من استغلال البرتغال لهذا الانشقاق، سارعت الدولة العثمانية إلى إرسال حملة بقيادة سليمان باشا الخادم عام 1538م لفض النزاع. إلا أن التوتر عاد من جديد بين اليمنيين والعثمانيين، نتج عنه خروج العثمانيين من صنعاء وعدن عام 1636م[35] .

أما فيما يخص العراق، فقد أصبح جزءًا منه تحت النفوذ العثماني منذ معركة جالديران عام 1514 بين العثمانيين والصفويين، وضمت المناطق الشمالية في عهد السلطان سليم الأول وبقيت الأجزاء الأخرى تحت السيطرة الصفوية إلى أن جاء عهد سليمان القانوني، الّذي تزعّم حملة واتّجه بها صوب بغداد عام 1534، وضمّها إلى النفوذ العثماني [36]. ثم اتّجه نحو الجنوب، أين قام بزيارة قبور أئمة الشيعة لكسب تعاطفهم. وفي هذه الأثناء، قدّم حاكم البصرة مفتاح المدينة، لتصبح هذه الأخيرة تابعة للنفوذ العثماني. وأصبح العراق بشماله وجنوبه خاضعًا للدولة العثمانية، إلا أن المنطقة شهدت اضطرابات وثورات لم تتوقّف بسبب الوجود الصفوي، الّذي حاول استرجاع نفوذه. إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ليعود العراق في الأخير للسيادة العثمانية عام 1847 نهائيًا حتى الحرب العالمية الأولى [37].

3- الأوضاع السياسية:

يتّفق الكثير من المؤرّخين الّذين اهتموا بتاريخ الدولة العثمانية على وصف الحكم العثماني في البلاد العربية على أنه كان حكما سطحيا، ولم تصل إلى تجذير وترسيخ حكمها بشكل قوي في هذه البلاد، ويُرجع الكثير من الدارسين ذلك إلى تمسّك العثمانيين الشديد بمبدأ المحافظة على النظم[38] الّتي وجدوها أمامهم في المناطق التي توسّعوا فيها واقتصارهم على إدخال بعض التعديلات التي كانوا يرونها تحقق السيادة العثمانية [39].

وكانت تقتصر وظيفة الدولة لدى العثمانيين على تأمين الحماية لممتلكاتها من الأطماع الخارجية، حيث تقع هذه المهمة على عاتق المؤسسة العسكرية، والمهمة الثانية جمع الضرائب،

والمهمة الثالثة تمثّلت في حل المشاكل والخصومات بين الناس. أما ما يخص المهام الأخرى غير تلك المذكورة، فكانت تلقى على عاتق الطوائف[40] والمؤسسات الاجتماعية والدّينية، إلى جانب ذلك استعانت الدولة العثمانية ببعض الأسر المحليّة والشخصيات الدينية والأعيان والوجهاء، لإدارة شؤون ولاياتها ورعاية مصالحها. وقد وجدت تعاونًا من هؤلاء الوسطاء، حتى أن في أحيان كثيرة، شهدت هذه الفعاليات تنافسا كبيراً فيما بينها لتقديم خدماتها للدولة العثمانية، وفي المقابل اعترفت الدولة بهم وقدّمت لهم امتيازات [41]. على عكس ذلك، لم ترد الدولة العثمانية إدخال تغييرات في نظم الحكم والإدارة في البلاد العربية بل كانت تودّ فقط ضمان ولائها ونفوذها في المنطقة. ومن أجل ذلك حرصت على اتّباع أسلوب سياسي ضدّ القوى المحليّة وتجريدها من قوّتها، كما اعتمدت على مبدأ فرق تسد الّذي يقوم على إثارة الضغائن والأحقاد والصّراعات بين هذه القوى حتى تضعف ولا تقدر على تهديد السيادة العثمانية على مناطق النفوذ [42].

يجمع المؤرّخون على أن عدم وجود سياسة واضحة ومحدّدة داخل مناطق نفوذ الدولة العثمانية في البلاد العربية، كان من نقاط الضعف الرئيسية في الحكم العثماني، وما شهده القرن الثامن عشر من اضطرابات واختلالات داخل سلطة الدولة العثمانية، إلا دليل على ضعفها في تسيير الشؤون العامة والخاصة، كما لم تستطع عثمنة البلاد العربية وإذابتها في بوتقة الإمبراطورية العثمانية[43].

كما يوجد تصوّر آخر لسيطرة الدولة العثمانية، يكمن في كون الحكم كان عسكريًا، ويعود السبب إلى أن النزعة العسكرية لم تكن نزعة طارئة بل كانت نزعة أصيلة ومتجذّرة، وأن المؤسسة العسكرية لعبت دوراً بارزًا عبر مختلف فترات تاريخ الدولة العثمانية. إذ جعلت كافة المناصب الحكومية تدار من قِبل العسكريين، إذ أن هؤلاء كانوا بعيدين كل البعد عن الرعيّة. ولذلك، كانت النتيجة الحتمية هي حدوث انفصال وقطيعة بين الحكّام والرّعيّ [44]. ويرى المؤرّخ "عبد العزيز الشناوي" في السياسة العثمانية للبلاد العربية: "أن هذه الأخيرة كان لها آثار سيّئة في الحكم، حيث تميّزت بسوء التسيير الإداري واتّساع الهوة بين الحكام والرعيّة واعتمادها على النظم القديمة التي أدّت إلى تأخّر العالم العربي وتخلفه. كما شاعت أيضًا ميزة الاستعلاء التي حالت دون انصهار وإدماج

الشعوب التي كانت تحت النفوذ العثماني". ويقول أيضًا: "أن لولا الصلة الدينية، ما كان هناك ارتباط ولكان التباعد تامًا وشاسعًا"[45].

وفي الأخير ورغم هذه المميّزات السلبية في الحكم العثماني للبلاد العربية، لا ينكر أحد الإيجابيات التي تميّز بها، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر، حالة المجتمع العربي تحت النفوذ العثماني واستمتاعه بالاستقرار السياسي ولو نسبيا، وكذا استعادته لوحدته السياسية وترسيخ مبدأ التضامن الإسلامي بين العالم العربي والدولة العثمانية خلال فترة الحروب التي شاركوا فيها إلى جانب الإمبراطورية [46].

الأوضاع الاقتصادية:

شهدت التّجارة العربية في العهد العثماني ازدهاراً وتطوّراً كبيرين نتيجة إلغائها للقيود الجمركية الّتي كانت تعيق الأفراد في أداء نشاطهم الاقتصادي. وكانت النتيجة هي استمرار التبادل الاقتصادي والتجاري بين المناطق العربية الإسلامية[47]. ولقد وجدت التجارة التشجيع الدّائم من قِبل السلطة المركزية، ويظهر الاهتمام العثماني بها من خلال العناية الفائقة التي أولتها للطرق التجارية من خلال بناء الخانات 48 لخدمة القوافل وتوفير الحماية العسكرية براً وبحراً، وتخفيض الرسوم الجمركية ومنح الامتيازات والتسهيلات لتنشيط الجانب التجاري[49]. لقد اهتمّت الدولة بالجانب التجاري، حيث وضعته في مقدّمة اهتماماتها. إذ كانت تجنّد كل إمكانياتها المادّية والبشرية والمعنوية لإنجاحها. وقد كانت السلطة المركزية تشدّد على الولاة توفير كل الشروط الضرورية المتاحة لإنجاحها دون أية قلائل أو اضطرابات، كما عملت على تحسين الحصون والقلاع التي تحمي طرق القوافل، وزادت عن ذلك تخصيص نسبة من ميزانيات الولايات لتمويل القوافل بما تحتاج [50]. وتظهر آثار السياسة العثمانية وتطوّر التجارة في البلاد العربية إلى عودة النشاط الاقتصادي إلى الأسواق العربية منذ القرن السادس عشر بسبب تعفّن الأوضاع السياسية والأمنية للمنطقة قبل هذا التاريخ، والأكثر من ذلك، ظهور وكالات تجارية متخصّصة، أصبحت فيما بعد منظمات تجارية تتبع أساليب مختلفة في التعامل التجاري [51].

أما فيما يخص النشاط الصناعي، فقد ارتبط بنظام الطوائف التي كانت عبارة عن هيئات مستقلة ذات تنظيم خاص يَنْظَمُّ إليها كل من يمارس الصناعة أو التجارة. وهي عبارة عن تنظيمات

اجتماعية شعبية ضمّت إليها أصحاب الصنائع في المدن الإسلامية، وتتّصف هذه الطوائف بضوابط أخلاقية رفيعة، وتذكر بعض المصادر أن ظهور الطوائف كان قبل التوسّع العثماني على البلاد العربية[52].

لقد أبقت الدولة العثمانية على هذه التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية دون المساس بها، ورأت أن هذا التنظيم يسهّل عليها تسيير شؤون المجتمعات العربية؛ كما اعتبرته نظامًا يعمل على تماسك المجتمع وصموده وتربية الناس وتهذيبهم والترفيه عنهم. أما عن النظام الداخلي للطوائف، فكانوا يتّبعون نظامًا واحدًا رغم تعدّد الأصناف، وكانت كل صناعة تتركز في حي خاص.

ووجدت شوارع تحمل اسم الصنعة أو الحرفة كحي الدبّاغين، حي النحّاسين، حي الجزّارين، وحي الحدّادين...وغيرها [53]. وكانت أهم المصنوعات الرائجة خلال الحكم العثماني للبلاد العربية المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية؛ وأهم المناطق: (العراق، سوريا ومصر)، إلى جانب صناعة الزيوت والصابون والشمع، بالإضافة إلى حرفة النقش على الخشب وعلى المعادن. وكانت تعتمد الصناعة العربية على المواد الأولية التي كانت تستورد من أوربا إلا أنها اعتمدت على أساليب تقليدية وبدائية وعلى الجهد العضلي [54]. ومع بداية القرن التاسع عشر، وبسبب غزو الصناعات الأوربية للأسواق العربية، بدأت الصناعة العربية تفقد بريقها وقوّتها؛ ويرى بعض المؤرّخين المعاصرين "أن العثمانيين حتى وهم في عز القوة وأحسن الأحوال، كانوا متخلّفين كثيراً عن معاصريهم من الأوربيين فيما يتعلّق بالمسائل الاقتصادية، ويرجع ذلك إلى تخلّف الفكر الاقتصادي وانعدام أي محاولة جادّة لتطوير قوى الإنتاج، وعدم انتهاج سياسات تجارية واضحة المعالم"[55].

أما النشاط الزراعي، فقد أخذ حظّه من اللامبالاة من قِبل السلطة الحاكمة نتيجة الاضطرابات السياسية والعسكرية التي اجتاحت البلاد العربية في العهد العثماني، التي لم تعطيها الاهتمام والعناية اللازمة؛ وذلك بسبب عوامل ومؤثّرات كثيرة أثّرت على النشاط الزراعي، وأهمّها نظام الإقطاع الّذي استخدمته السلطة العثمانية كأداة في تقوية السيادة العثمانية [56].

وتميّزت الزراعة في هذه الفترة بكونها زراعة اكتفائية نتيجة تلك الأفكار التي كانت سائدة والمتمثّلة في الاكتفاء بالقليل، رغم أن البلاد العربية توفّرت على كل الشروط اللازمة والإمكانيات لأي تطوّر اقتصادي كما شهدته أوربا، ويرجع كثير من المؤرّخين ذلك إلى طبيعة النظام العثماني السائد [57] .

إلى جانب ذلك هناك ميزة أخرى تتمثّل في كثرة الضرائب وتنوّعها على الفلاحين والمزارعين، إذ كانت هناك ضرائب مفروضة على الأرض، وضرائب على المحاصيل والحيوانات والأسواق الفلاحية؛ واختلفت هذه الضرائب من منطقة إلى أخرى، وذلك حسب الحكام وطريقة تسييرهم لشؤون هذا القطاع [58]. ومن العوامل التي ساهمت أيضًا في تدهور حالة الزراعة والمزارع والمزارعين، تتمثّل في تنصّل الدولة من مسؤولية توفير الحماية الضرورية للفلاح من جشع الإقطاعيين والباشاوات، وكذا تعرّض المزارع إلى غزوات القبائل البدوية دوريًا حسب العوامل الطبيعية والمناخية؛ والعامل الآخر الّذي لا يقل أهمية عن العوامل السابقة هو دور اليهود في استغلال عوز الفلاح المادي، إذ راحوا يشجعونه على الاقتراض بفوائد كبيرة فيصبح الفلاح غير قادر على تسديدها، مما يعرّض أملاكه وأرضه إلى المصادرة [59].

ومجمل القول فيما يخص هذا الجانب، أي الأوضاع الاقتصادية للبلاد العربية في العهد العثماني، نلخّصها في جملة واحدة وهي، أنها تأرجحت بين الأحسن في بعض النشاطات والأسوأ في نشاطات أخرى مما تولّدت عنه أزمات اقتصادية عان منها المشرق العربي وسائر البلاد العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية.

الأوضاع الثقافية و العلمية:

لقد خضع المشرق العربي منذ القرن العاشر هجري (16م) للخلافة العثمانية، وبرز به خلال هذا العهد العديد من الحواضر العلمية والثقافية، في مقدمتها مدينة القاهرة بمصر ومكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وبلاد الشام [60].

وتأتي القاهرة على رأس الحواضر العلمية المذكورة، فقد تنوّعت المراكز العلمية بها وحفلت بالعديد من المدارس، كالمدرسة الأشرفية، المدرسة الصرغتمشية [61] والمدرسة الصلاحية [62].

كما وجد بها العديد من الزوايا التي كانت الدراسات فيها تميل للاتّجاهات الصوفية، بالإضافة إلى الدراسات الإسلامية العامة، ومن أهمها: زاوية الخضري والزاوية القريبة من المشهد الحسيني، والزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة [63].

وكانت أكثر مساجد مصر مراكز فكر وإشعاع، جلس بها العلماء وتحلق حولهم الطلاب، واكتسبت بعض هذه المساجد شهرة في مجال التعليم منها: جامع عمرو، جامع شيخون ومسجد الإمام الشافعي بالإضافة إلى جامع المشهد الحسيني [64].

أما الجامع الأزهر[65] بالقاهرة، فقد احتلّ الصدارة في مصر بل وفي العالم الإسلامي. ومن أسباب احتلاله لهذه المكانة، انقراض الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، ووقوعه في مكان يتوسّط العالم الإسلامي، وقربه من الحجاز، بالإضافة إلى أهمية مصر الاقتصادية. ولهذا اجتمع به عدد كبير من العلماء الوافدين عليه من مناطق مختلفة بالمجاورين[66]. وقد كان بعض هؤلاء المجاورين يقيمون بالقرب منه، في حين يقيم البعض الآخر داخله، وينقسمون إلى طوائف، لكل منها حارة ورواق خاص بها[67]. ومن أقدم الأروقة التي شهدها الأزهر رواق المغاربة، وهو رواق كبير مخصّص لأهل المغرب الإسلامي. وقد أصبح الرّواق بمثابة مؤسسة ثقافية واجتماعية تقدّم خدمات لأبناء المغرب الإسلامي.

كانت مكة والمدينة المنوّرة مركزين مهمّين من مراكز العلم في الدولة الإسلامية، وقد دبّ النشاط في الحركة العلمية بهما نتيجة ازدياد عدد العلماء الّذين طاب لهم مجاورة بيت الله الحرام. وقد كان المسجد الحرام أهم المراكز العلمية والتعليمية في الحرمين الشريفين لتعدد حلقات الدروس به، والتي كان يعقدها مشايخ من أجلّة علماء الحرم، وآخرين وافدين عليه من مختلف مناطق العالم الإسلامي للحج والمجاورة [68].

أما مدينة دمشق، فقد اشتهرت بجامعها الأموي [69] الّذي تعدّدت به حلقات الدروس. كما وجد بها عدد كبير من المدارس، حيث قدّر بِ 159 مدرسة، بعضها مخصص لتدريس القرآن الكريم والآخر للحديث الشريف، وبعضها للمذاهب الفقهية وغيرها من العلوم[70].

كما وجدت بالمشرق العديد من المدارس والزوايا والمساجد التي قامت بمهمة التعليم، غير أنّها لم ترق إلى مستوى المراكز العلمية التي حفلت بها الحواضر الثلاثة السالفة الذكر، فبعضها كان بيت المقدس ونابلس وحلب[71].

هذا وبالرغم من تنوّع مراكز الثقافة التي ازدهرت بها حلقات الدروس العليا بالمشرق، فقد وصفت الحياة الفكرية والعلمية به بالتراجع أيام العثمانيين، وأوعز "عبد القادر عطا "ذلك إلى تحوّل

القسطنطينية إلى عاصمة الدولة، ومركز ومحور ارتكاز في العالم الإسلامي، وبالتالي مركز النشاط العلمي والثقافي في الدولة التي تتكلّم اللغة التركية [72].

كما حمّل "عمار هلال" العثمانيين مسؤولية إصابة العالم العربي الإسلامي بالضعف الثقافي والحضاري، معتبراً القرن العاشر الهجري أول مرحلة من مراحل التقهقر الّذي مسّ جميع النواحي، وفي مقدّمتها العلوم وأصحابها وهي الظاهرة التي استمرت حسب رأيه طيلة العهد العثماني [73].

وهكذا فقد أجمعت آراء هؤلاء الباحثين على اتّسام الحركة العلمية والأدبية بالرّكود خلال العهد العثماني. ولكن علينا أن نميّز بين نوعين من العلوم: العلوم العقلية التي أصابها تدهور كبير واختفت في بعض المناطق، والعلوم النقلية التي عرفت تراجعًا محسوسًا عما كانت عليه في العهود السابقة، رغم أننا نجد العصر يعجّ بالمحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرّخين. ولا ينكر أحد أن هذا العصر قد أنجب العديد من العلماء الأفذاذ المدرسين في مختلف العلوم النقلية خاصة العلوم الإسلامية [74].

الهوامش:

1 - عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي (1516-1923) (دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1994)، ص22.

2 -غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288-1916)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص53.

3 -نفسه، ص53.

4 -غربي الغالي: نفسه، ص53.

5 - عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص23.

6 - عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص23.

7- الظاهر بيبرس: يقال أنه من أصل تركي بيع في صغره في سوق الرقيق. ويقال أن الّذي اشتراه هو الصالح أيوب والي حماة أعتقه لما رأى فيه من حسن الخلق و الأخلاق. تقلّد مناصب عدّة في الحكم و أصبح للمماليك قوة خاصة بعد مقتل آخر سلاطين بني أيوب. واجه في عصره خطران: خطر الصليبية وخطر المغول. التقى بالمغول في موقعة عين جالوت وكان النصر للمماليك. وبالتالي تبوّأ مكانة عظيمة في حكم دولة المماليك التي ستحكم مصر والشام لفترة طويلة. توفي سنة 1277م بعد مرض عضال.

8 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص23.

9 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص54-55.

10 - عمر عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص24.

11 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص25.

12 - نفسه، ص26.

13- هو السلطان أبو النصر قانصوة بن عبد الله الجركسي المشهور بالغوري نسبة إلى طبقة الغور بمصر. تربع على العرش مدة 15 سنة. كان ذا رأي و فطنة، كثير الدهاء. اهتم بالعمران وبناء المدارس والمساجد، كما رمّم بعض أروقة المسجد الحرام. خاض حرباً ضد السلطان سليم في موقعة مرج دابق، كانت النهاية فيها لصالح سليم بعد مكيدة من خير بك و الغزالي و هما من جماعته و ضرب رأسه و قتل .

14 - نفسه، ص26.

15 - نفسه، ص27.

16- نفسه، ص27.

17- عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص68.

18 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص56.

19 - سليم خان بن عثمان: تاسع ملوك بني عثمان، ولد سنة 872هـ، تولى الحكم في سن 46 سنة. كان ملكا قاهرًا و سلطاناً جبّارًا، قوي البطش، شديد اليقظة، يحب المطالعة و أخبار الملوك. توسّعت الدولة العثمانية في عهده على مناطق عديدة في العالم العربي.

20 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص57.

21 - نفسه، ص57.

22 - سليمان القانوني بن السلطان سليم خان الحادي عشر، من ملوك بني عثمان: ولد سنة 900هـ و تولى الحكم سنة 926هـ بعد وفاة أبيه. يذكر عليه أنه كان سلطاناً سعيدًا، رؤوفًا، صادقًا، لا يعرف الغل و الخداع، لا يعرف المكر و النفاق. يذكر أيضًا أنه شارك في أربعة عشر غزوة، انتصر في معظمها. اهتم بالعلم، فبنى أربعة مدارس، أشهرها المدرسة الكائنة بمرجة بدمشق. توفي سنة 974هـ.

23 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص57.

24 - عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص69.

25 - نفس المرجع، ص71.

26 - مرج دابق: موقعه التقى فيها جيش سليم العثماني و سلطان المماليك قانصوة الغوري و هي واقعة شمال حلب.

27 - محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلمية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ص192.

28 - هو سيف الدين طومان باي: كان من أعيان المماليك. بويع بالسلطة بعد خلع جان بلاط. كوّن جيشًا، و خاض حرب الشوارع ضد الجيش العثماني. حقق انتصارات، إلا أنه سقط في الأسر و قام السلطان سليم بإعدامه شنقًا.

29 - عمر عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص79.

30 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص63.

31 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص80.

32 - غربي الغالي: نفسه، ص63.

33 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص97.

34 - نفسه، ص95.

35 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص65.

36 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص66.

37- عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص94.

38- هذا الأسلوب شائع عند العثمانيين، و هو عدم التغيّر في الحياة العامة و الشؤون الداخلية للمناطق التي أصبحت تحت نفوذهم، و الجزائر، على سبيل المثال. لم يقم العثمانيون بتغييرات جذرية بل تركوا الشؤون الداخلية لأهل المنطقة.

39 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص66.

40 - أصبحت لهذه الطوائف في العهد العثماني مكانة عظيمة، و هذا بفضل الدور السياسي والاقتصادي و الاجتماعي الّذي أعطي لها. و ازدادت بذلك تمسّك الشعوب بها، حيث أصبحت الحصن المنيع الّذي تحتمي به الشعوب من بطش الحكّام.

41 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص67.

42 - نفسه، ص68.

43 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص69.

44 - نفسه، ص70.

45 - نفسه، ص71.

46 - نفسه، ص72.

47 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص99، نقلا عن الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث، ليلى الصباغ.

48 - جمع خان، عبارة عن نزل يأوي إليه التجار للمبيت و الاستراحة من مشاق السفر، و الخان عبارة عن بناء في وسطه ساحة كبيرة مربعة تسمى الحوش.

49 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص99.

50 - نفس المرجع، ص99.

51 - نفسه، ص100.

52 - نفسه، ص106.

53 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص107.

54 - نفسه، ص109.

55 - نفسه، ص110.

56 - نفسه، ص111.

57 - غربي الغالي: المرجع نفسه، ص118.

58 - نفسه، ص121.

59 - نفسه، ص223.

60 - لزغم فوزية: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، الفصل 3، ص155، نقلا عن عبد القادر أحمد عطا: التصوّف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي.

61 - هي مدرسة صرغتمش المعروفة بجامع صرغتمش، الّذي أنشأه سيف الدّين صرغتمش الناصري في سنة (757هـ-1256م).

62 - بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (572هـ-1271م)، و جعل التدريس و النّظر بها للشيخ نجم الدّين الجنوشاني، و رتب له راتبًا. و هي مجاورة لضريح الإمام الشافعي. و قد كان التدريس بها مشروطًا لأعلم علماء الشافعية.

63 - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص-ص348-351.

64 - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص-ص348-351.

65 - بناه القائد جوهر الكاتب الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي بعدما اختط الإسكندرية، وكان بناءه في شهر رمضان من سنة (361هـ-972م). و بدأت به حلقات دروس الفقه الشافعي في (365هـ- 975م). وكان قاضي القضاة أبو الحسن علي بن نعمان أول من جلس للتدريس به للسيوطي.

66 - يسمى العلماء و الطلاب "بالمجاورين" لسكناهم بجوار الأزهر. و نفس المصطلح يطلق على المقيمين بجوار المسجد الحرام.

67 - الحارة عبارة عن حجرات يضع فيها المجاورون متاعهم، و الرواق هو الفضاء الواقع بين العمودين، وكان يقرأ فيه الدرس لجماعات صغيرة، و تقام فيه الأذكار. و يتبع تقسيم الأروقة تارة التقسيم الجنسي، و تارة التقسيم المذهبي– جومييه.

68 - هذا ما يستخلص من كتب تراجم الرجال في العهد العثماني، بحيث نجد أن عددًا كبيراً من العلماء من مختلف مناطق العالم الإسلامي قد جاوروا و درسوا به، و منهم عدد من علماء الجزائر كالشيخ عيسى الثعالبي و الشيخ أحمد المقري...و غيرهم.

69 - بني الجامع الأموي في سنة (88هـ-658م) من طرف الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. مكان كنيسة ماريو حنا. البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام بيروت ط1.

70 - عبد الرحمن بن صالح: تاريخ التعليم في مكة، ص66.

71 - عبد القادر أحمد عطا: التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس، ص62.

72 - عبد القادر أحمد عطا: التصوّف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس، ص62، نقلا عن جمال الدين الشيال.

73 - عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص- ص292-293.

74 - من الانتقادات الموجّهة إلى هذا العصر في العلوم الإسلامية، إغلاق باب الاجتهاد واقتصار المؤلّفين على الشروح و الحواشي، و الاختصارات و التعليقات.

من أعلام من النضال السياسي في منطقة الظهرة

بن علي بوقرط

الدكتورة فاطمة حباش، جامعة تيارت

الملخص:

عرفت منطقة الظهرة كإطار جغرافي بوجودها الحضاري. إذ تعاقبت عليها حضارات منذ العهد القديم، على رأسها الحضارة الرومانية، لتمتد بعدها مع فترة الفتح الإسلامي، حيث عرفت وعايشت ميلاد دول إسلامية، كان منها المرينيون. واستمر هذا التواجد الحضاري إلى غاية الفترة الحديثة، خاصة مع التواجد العثماني في الجزائر، حيث احتضنت أول عاصمة لبايلك الغرب " مازونة"، وتواصل حضورها الجغرافي عند احتضانها للموقف الأول للجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي: أولا مع الأمير عبد القادر، حيث أصبحت جزءا من دولته. لتشهد بعدها ميلاد ثورة دينية جمعت أغلب أتباع الطرق الصوفية تحت قيادة الشريف بومعزة.

إلا أن هذا الحضور السياسي لمنطقة الظهرة لم يقتصر على الجانب الجغرافي، بل تعداه إلى العنصر البشري من خلال المواقف الثورية لقبائلها التي ساندت المقاومة العسكرية ضد الوجود الفرنسي طيلة فترة القرن 19، ليستمر موقف سكانها المناهض خلال القرن 20 سياسيا، وذلك بالزعامات السياسة التي أنجبتها وفرضت حضورها في النضال السياسي ونشاط الحركة الوطنية، منهم **بن علي بوقرط**، زعيم الشيوعيين الجزائريين الأوائل، الذي برز بطموحه السياسي وترجمه بانضمامه إلى التيار الشيوعي، تميز بمواقفه المناهضة للإدارة الاستعمارية، أولا عبر الصحافة، وثانيا عبر الجمعيات النقابية الفرنسية ذات التوجه اليساري. فعانى الاضطهاد والتعسف الاستعماري، وحتى التهميش من زملائه داخل الحزب الشيوعي الجزائري.

وللتعريف بهذه الشخصية النضالية، جاءت هذه الورقة البحثية لتتطرق لأهم مواقفها السياسية من مختلف الأحداث التي عايشتها طيلة مسارها النضالي.

Abstract:

Dahra was known as a geographical area by its civilized existence. Since the ancient past, it knew successive civilizations, especially the Romanian civilization. Then during the period of Islamic conquest, this area saw the birth of some Islamic states, as Marinids. This civilization continued up to the modern period, especially with the Ottoman presence in Algeria, where “Mazouna” was the first capital of Pielke West. By time, it was continuing its geographical presence when hosting the first attitude of the Algerians against the French occupation: the first was with Emir Abdelkader as it became a part from his State. Then it witnessed the birth of a religious revolution that gathered most of the followers of the Sufi orders under the leadership of Sharif Boumaza.

However, this political presence for Dahra was not limited by the geographical side, it exceeded the human element through revolutionary reactions of tribes that supported the military resistance against the French presence during the 19th century, till the 20th century, when its inhabitants continued their struggle politically, through the birth of political leaders who imposed their presence in the political struggle and the national movement activity, among of them, **Ben Ali Boukart**, the leader of the first Algerian communists, who emerged as the political ambition that was translated by joining the Communist party , he was marked for his anti-colonial administration, through the press, and the left-leaning French trade union associations. Therefore, he was suffering from the colonial oppression and abuse, and even the marginalization of his colleagues within the Algerian Communist Party.
So, this paper came in order to identify this political leader, dealing with his important political attitudes towards various events that he lived and knew throughout his struggle process.

تمهيد:

إذا كان القرن 19 من جهة تميز بالمد الاستعماري والاستيطان الفرنسي تجاه المناطق الهضابية والصحراوية بعد الحملة العسكرية على مدينة الجزائر 1830، ومن جهة أخرى تميز بالمقاومة العسكرية من خلال الثورات الشعبية التي تزعمتها مختلف القبائل والعشائر تحت راية الجهاد المقدس، فإن القرن 20 ميزه ميلاد الوعي السياسي وتبلوره لدى الجزائيين خاصة فئة المثقفين وإصرارهم على مواصلة النضال بأسلوب جديد، والشروع في المقاومة السياسية عن طريق إرسال

العرائض والشكاوى احتجاجا على التعسف والتسلط الاستعماري في حق الجزائريين والاستعانة بالصحافة لفضح جرائم المعمرين.

هذا التوجه الجديد في النضال الجزائري أوجدته الظروف أهمها الحركة الإصلاحية التي عرفها المشرق العربي، والتي تعرف عليها الجزائريون بفضل رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة، وزيارة بعض المصلحين للجزائر أمثال محمد عبده. وساهم في هذا الوعي كذلك انتشار الأفكار الليبرالية واتساع نشاط اليساريين الأوربيين خاصة الشيوعيين عبر مختلف المستعمرات والدعوة إلى مبادئ الأممية الشيوعية الهادفة إلى مساندة حركات التحرر وحرية الشعوب، وبالطبع من بين الذين تأثروا بهذا الحراك السياسي واستفادوا منه لوضع اللبنات الأولى للحركة الوطنية مع مطلع العشرينات إلى جانب الأمير خالد، نجد بن علي بوقرط أحد أعلام السياسة والفكر المناهض للاستعمار، وبموقفه ودوره الوطني أوجد لمدينة مازونة ومنطقة الظهرة عموما دورا في النضال السياسي بعدما عرفت عبر مختلف العصور التاريخية كمركز للإشعاع الحضاري وذاع صيتها. ولمعالجة الموضوع انطلقنا من إشكالية مفادها: " **إلى أي مدى يمكن اعتبار بن علي بوقرط مناضلا شيوعيا، قد أعطى إضافة نوعية للنضال السياسي الجزائري خلال القرن العشرين؟ وماذا عن الموقف الفرنسي من نضاله؟**"

1_ نشأته:

هو بن علي بوقرط بن أحمد ولد الحاج أحمد ولد الحاج محمد ولد مصطفى ولد أحمد بوقرط، أمه عائشة قرين، من مواليد دوار القصبة بمازونة[1] إحدى ملحقات البلدية المختلطة رونو Renault، وهي بمثابة المركز الاستعماري لمنطقة الظهرة تأسس سنة 1873، استقر به المعمرون الذي استقدموا من الألزاس على إثر حرب بروسيا[2]، وهي تابعة إلى دائرة مستغانم. ولد حسب ما ورد في السجل المدني لبلدية سيدي أمحمد بن علي وكذلك حسب تقرير الشرطة الاستعمارية في 4 فيفري 1904 [3] في وسط عائلة مكونة من عشرة أفراد كان هو أولهم[4]. اشتغل والده لفترة قصيرة شاوش بالبلدية لتمكنه من اللغة الفرنسية، لكن سرعان ما تخلى عن منصبه بعدما رفض تنفيذ الأوامر التعسفية في حق أبناء منطقته، وقرر فتح محل لبيع المواد الغذائية[5].

زاول تعليمه الأول بمسقط رأسه، حيث التحق بالمدرسة الابتدائية بمازونة بعدما تعذر عليه الالتحاق بمدرسة الذكور برونو لعدم وجود أماكن[6]، ليلتحق بعدها بتلمسان لمزاولة الدراسة التكميلية بمدرسة Décieux بمنحة مدرسية تقدر ب50 فرنك، كان يدفع منها 20 فرنكا للإيواء والباقي للأكل والملبس، فهو يذكر في مذكراته أنه أصر على إتمام دراسته بالرغم من الظروف المادية الصعبة التي كان يعيشها بتلمسان[7]. تميز بالنجابة والذكاء الشديد مما أهله للالتحاق بمدرسة المعلمين ببوزريعة، غير أن ميوله للشيوعية منعه من الالتحاق بها واضطر إلى العودة إلى مسقط رأسه مؤقتا واشتغل إلى جانب والده في دكان الحلويات[8].

بصفة عامة يمكن القول إنه تميز بثقافة واسعة بفضل ما اكتسبه أولا من المدارس، وثانيا من الرحلات التي قام بها نحو فرنسا والتي مكنته من اكتساب ثقافة متنوعة خاصة الثقافة الفرنسية أين تشبع بأفكار الفلاسفة كديكارت وغيرهم، إضافة إلى المدة التي قضاها لمدة عامين (1933_1934) بموسكو بجامعة الشرق لدراسة الاقتصاد السياسي الماركسي اللنيني[9].

2_المسار النضالي:

المرحلة الأولى: ميلاد الممارسة السياسية (1924–1927)

بدأ اهتمام بن علي بوقرط بالسياسة يتوطد في مرحلة الشباب، وعمره لا يتعدى العشرين سنة، من خلال الاطلاع على نشاط جماعة النخبة ونضالها[10]، فقد كان على اطلاع ومتابعة دائمة لصحيفة "الإقدام" لسان حال الأمير خالد والتي كان يقرأها وهو لايزال تلميذا بتلمسان، كان يحصل عليها من ابن منطقته بوراس بن دردوش الذي كان رقيب أول في الجيش الفرنسي آنذاك بالرغم من التعليمات الادارية التي تمنع العسكريين من الخوض في السياسة، كان يشتريها بانتظام ويقرأها سرا ثم يعطيها لبن علي بوقرط، واستمر هذا الأخير في شرائها لوحده كل سبت من مصروفه الخاص بعد تسريح بن دردوش من الجيش[11]. إلى جانب جرائد أخرى كان يطلع عليها بشغف على رأسها جريدة "النضال الاجتماعي" لسان حال اتحادية الحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر، وكذا

جريدة "الإسلام" و" الراشدي"[12] لصادق دندان[13]. والواقع أن هذه الجرائد والصحافة عموما كانت بمثابة الوسائل الأولى للنضال السياسي للجزائريين بعد فشلهم في الجانب العسكري.

ويبدو أن الحركة الشيوعية كانت أسبق الحركات السياسية لإيجاد نواة تنظيم قاعدية عبر الجزائر في شكل فيدراليات موزعة في مناطق مختلفة أهمها فيدرالية سيدي بلعباس التي كانت أكثر نشاطا، ومن هنا فلا نستبعد أثر هذه الحركة السياسية في جذب الشباب الجزائري منهم بن علي الذي أثر فيه خطاب المترشح الشيوعي النقابي Mazoyer سنة 1924 [14]، والذي نادى بضرورة استقلال المستعمرات، ومساندة سوريا ودعم عبد الكريم الخطابي في ثورته، كما دعى الشباب إلى ضرورة الانخراط في رابطة الشبيبة الشيوعية، وفعلا انبهر بوقرط كشاب واندفع بوعيه السياسي مباشرة إلى الانضمام إليها[15]، وأكد وجوده وانخراطه من خلال الرسائل التي كان يبعث بها إلى صحيفة النضال الاجتماعي بتوقيع اسم مستعار " الشاب الأحمر"، حيث كان يندد من خلالها بالتعسف الاستعماري والتجاوزات التي تحدث على مستوى البلدية المختلطة رنو Renault وفي حق سكان الظهرة عموما [16].

بعد الانخراط بدأ موقفه السياسي يشتد ويبرز بقوة ضد السلطات الاستعمارية علنا في العديد من المرات أشهرها تزامن مع مناسبة عيد الفطر سنة 1924، أين اعتدى رجال الدرك بالبلدية على كوكب نسائي كان يزور ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني[17]، الأمر الذي استهجنه بوقرط ودفعه إلى إرسال رسائل استنكار واحتجاج إلى كل من عامل عمالة وهران، وقائد الدرك بالناحية إضافة إلى رسائل أخرى بعثها إلى الصحيفتين المفضلتين لديه " الإقدام" و" النضال الاجتماعي"[18].

إذن عمدت السلطات الاستعمارية المدنية والعسكرية كرد فعل على حماسه واندفاعه إلى اتهامه بمعاداة فرنسا ومعاقبته أولا بتأديبه من قبل حاكم القرية المدعو بن سديرة ورجال الدرك حيث اخضع للتعذيب الشديد من أجل الاعتذار لكنه رفض، وثانيا حرمانه من الالتحاق بمدرسة المعلمين ببوزريعة خلال الموسم الدراسي 1924_1925 بالرغم من تفوقه ونجاحه في المسابقة[19]، وقد أعلم من قبل مدير المدرسة أن أمر عدم تسجيله صادر من السلطات العليا[20]. هنا إذن كانت خيبة أمل

الشاب بن علي كبيرة وزادت نقمته على الاستعمار مباشرة وغطرسته في البلاد خاصة بعد محاولاته العديدة لتقديم طلبات عمل بمختلف الإدارات العمومية على مستوى البريد والمواصلات والسكة الحديدية، لكن دون جدوى عقابا على موقفه السياسي، لهذا قرر الاشتغال بالتجارة ومساعدة والده في الدكان[21].

اكتمل الانتقام الاستعماري عندما استدعي للخدمة العسكرية والتحق بها في 1925/10/1 وبقي حتى1927/10/1 [22]، بثكنات عمالة وهران حيث لمس مظاهر المعاناة والمأساة للأهالي في ظل النظام الاستعماري، وفي هذا الصدد يقول " ....إن الثكنة هي المكان المثالي للوعي بالعنصرية المنتظمة التي يمارسها هذا النظام، فقد كان الجنود الأوربيون يأكلون في المطاعم ويلبسون الجديد من الأزياء العسكرية، بينما الأهالي يأكلون في العراء ويكتفون باللباس المستعمل من الدفعات السابقة، وكان هناك تمايز في الرتب والمنح كذلك، فهو يذكر انه كان يدرب ضباط اوربيين، تحصلوا بعد فترة انتهاء التدريب على رتبة رقيب بينما هو المدرب بقي مجرد قائم مقام أو رقيب"[23].

المرحلة الثانية: الانتماء الشيوعي(1927_1936)

تعتبر هذه المرحلة بالنسبة لبن علي بوقرط بمثابة الركيزة الحقيقية في العمل السياسي داخل الحزب الشيوعي الفرنسي، فهو بعد أدائه للخدمة العسكرية حاول مواصلة تعليمه لكن دون جدوى، فاللعنة الأولى وموقف الإدارة الاستعمارية منه ظلت تلاحقه وأغلقت أمامه كل الأبواب مما دفعه إلى الهجرة والسفر نحو فرنسا سنة 1927 فاستقر بشمالها بمنطقة أولونو Aulnoye لمدة سنتين، حيث عمل بقطاع المناجم والتعدين[24]، وفي أواخر 1929 قرر التوجه إلى باريس رفقة قريبه عيسى بن حراث فاستقر بسان دوني Saint Denis واشتغل بالسباكة ليلتحق بعدها بمصنع Otofax[25]. وهناك كانت له الفرصة الذهبية لدخول العمل السياسي بشكل قوي، فدخل في اتصالات مع المناضلين والنقابيين المؤسسين لنجم شمال إفريقيا منهم معروف محمد، وعمار إيماش، عبد القادر الجيلاني، أوسيدهم بوشافة[26]، إضافة إلى سياسيين من هيئات فرنسية يسارية على رأسها الحزب الشيوعي الفرنسي والكنفيدرالية العامة للشغل[27].

وتوج عمله السياسي بباريس بإرساله في نهاية 1929 كممثل وحيد عن نجم شمال إفريقيا لحضور المؤتمر العالمي للرابطة المناهضة للإمبريالية والاستعمار المنعقد بفرانكفورت، فكانت له الفرصة للالتقاء بممثلين عن مختلف المستعمرات من الصين، أندونيسيا، الهند الصينية، ماليزيا، سوريا، إضافة إلى بعض ممثلي الحركات الأوربية المناهضة للاستعمار، وبعض الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين الأحرار المساندين لحركات التحرر، فاستفاد من تجاربهم وأفكارهم النضالية والتحررية. وفي نفس الوقت تقدم بإلقاء كلمة أمام المؤتمرين شرح فيها وضعية الجزائر والجزائريين المزرية تحت نير النظام الاستعماري، واصفا التجاوزات والتعسفات المختلفة في حق الجزائر بقمة الاستبداد والجور، كما أكد على إرادة الشعب الجزائري في محاربة الامبريالية ومواصلة النضال لنيل الحرية واستقلال الوطن. كان لتدخله وقع كبير على المؤتمرين الذين صفقوا له بحرارة عقب إنهاء كلمته، كما حصل على تهنئة خاصة من الشيوعي كورمورون Cormoron، وأشادت الصحافة الألمانية بخطابه ومحتواه القوي[28].

مباشرة بعد انضمامه تدرج في المناصب فعين على رأس فرع الجزائر للجنة المستعمرات التابعة للحزب[29]، كما أنه ساهم بباريس في تأسيس صحيفة "العمل" كرد على صحيفة "الأمة" لسان حال نجم شمال إفريقيا، وهنا نلمس بداية التحول في التحالف بين الوطنيين والشيوعيين إلى مواجهة مكشوفة بعدما قرر النجم الخروج عن الوصاية الشيوعية والانفصال عنها بعدما عارضت فكرة الوطنية المطالبة بالاستقلال بحجة أن برنامج نجم شمال إفريقيا السياسي غير ملائم للشعب الجزائري المتنوع في الأجناس من عرب وقبائل وميزابيين، وفكرة الاستقلال لا يمكن تحقيقها مع هذه الأجناس لعدم كفاءتها وعجزها فكريا[30]، وفي هذا الصدد يذكر في كتابه أنفاس الظهرة أنه حاول التقليل من المواجهة بنوع من التنسيق بين الوطنيين والشيوعيين لكن اعترض طريقه عقبتان: الأولى تعصب مصالي الحاج ومريدية، والثانية موقف قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي من الوطنية الجزائرية التي يعتبرها كأحد مظاهر الانحراف البرجوازي – وهو موقف كل اليساريين –[31] الذين كان مبدأهم عموما يقضي بضرورة التمييز بين الاستعمار الرأسمالي والاستعمار المرتبط بالنظام الاشتراكي على أساس الأول هو استعمار برجوازي مرادف للغزو الدموي والنهب والافلاس الفكري والأخلاقي، ولا يمكن من خلاله تحرر الشعوب إلا إذا انتصرت الحركة العمالية، ومن هنا نفهم أن نضالهم كان

مناهضا للوطنية والانتفاضة والتوجه نحو سياسة الاصلاحات كالسعي إلى تسهيل تمثيلهم في كل المجالس، وتوحيد الطبقة الشغيلة بين الأهالي والفرنسيين في النضال من أجل الرقي الاجتماعي، ووجوب تحقيق إصلاحات اقتصادية واجتماعية.

أصبح بوقرط عضو نشيطا داخل الحزب الشيوعي الفرنسي بعد عودته من الجزائر في 1931 [32]، وتعيينه في جويلية 1932، مسؤولا عن الوساطة بين عمال شمال إفريقيا[33]. وتبعا للإخلاص والتفاني اللذان أبدهما للحركة الشيوعية العالمية والحزب الشيوعي الفرنسي تم ترشيحه سنة 1933 لقضاء فترة تكوينية وتدريبية بموسكو، فأمضى حوالي 18 شهرا في دراسة الاقتصاد السياسي الماركسي اللينيني، ليعود بعدها إلى الجزائر للمساهمة في توطيد دعائم الحركة الشيوعية بها[34].

لكن عودته من موسكو إلى الجزائر جلبت له المتاعب وأثار رجوعه انتباه إدارة الاحتلال التي بدأت تتبع خطواته وتحركاته في تقارير سرية أدت في نهاية المطاف إلى إيقافه في 29 سبتمبر 1934 وحبسه لمدة أربعة أشهر بسجن بربروس بتهمة القيام بأعمال مشبوهة وتخريبية، وقدم للمحاكمة[35]، أين حاول الدفاع عن نفسه والرد على التهم المنسوبة حسب ما ورد في كتابه "....إن رئيس الجلسة سألني بعد تلاوة محضر الاتهام إذا كان لدي ما أقوله، فقدمت عرضا فندت فيه كل التهم المنسوبة إلي ومنددا في نفس الوقت بمظالم النظام الاستعماري، الأمر الذي أزعج الشخصيات الحاضرة بصفة عامة، وفي نفس الوقت أبدوا اهتماما ملحوظا بالجانب الخاص برفض معاداة فرنسا....لقد بينت أن ثقافتي الفرنسية المشبعة بأفكار ديكارت والكتاب الموسوعيين ومحرري إعلان حقوق الإنسان والمواطن وما قرأت في كتابات هيجو ومونتيسكو وجان جاك روسو ....إلخ، كل ذلك قد أضفى علي كنزا فكريا أعتز به وبالتالي لا يمكن لي أن أكون معاديا لفرنسا...."[36].

إذن نجد أن الاستعطاف الثقافي الذي اعتمده لإنقاذ نفسه لم يفده، ووضع في إقامة جبرية ببني عباس بالجنوب الغربي وتسجيله في مختلف تقارير الشرطة السرية " بالرجل الخطير"[37]، فقد كان رمزا للشيوعيين الذين اضطهدوا من طرف الحكومة العامة، ولم يطلق سراحه إلا في 20 ماي 1936 بعد وصول الجبهة الشعبية للسلطة[38]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن إطلاق سراحه كان تحت

تأثير نضال مستميت وشديد للمناضلين الشيوعين جزائرين وأوربين، فقد سخروا الصحافة والاجتماعات والمؤتمرات للتنديد بالظلم الممارس في حق بن علي بوقرط، وكيف وضع في إقامة جبرية بالجنوب الغربي " بني عباس"، فقط لأنه دافع عن كرامة الانسان وحريته، فقد اعترفوا كلهم بدون استثناء بأنه رمز " المناضل باسم الانسانية والسلم"[39].

حضي باستقبال شعبي ضخم بعد إطلاق سراحه وفور وصوله بمحطة القطار بوهران، أين قدمت مختلف الشرائح العمالية من عمال الموانئ والسكك الحديدية وأعوان البريد والمواصلات والأشغال العمومية والحرفيين والتجار وغيرهم حاملين لافتات وهاتفين بشعارات منها " تحيا الجبهة الشعبية" و" من أجل الخبز والحرية والسلم" و" يحي بن علي بوقرط". ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل استمر التعبير عن الفرحة بحريته عبر مختلف المؤتمرات الجهوية للحزب بمختلف المدن منها سيدي بلعباس، تلمسان، باريقو(المحمدية)، مستشهدين بتضحياته وبطولاته ضد الامبريالية والفاشية وسعيه الدائم والحثيث لتحقيق العدالة الاجتماعية للفرد وحرية الانسان، ونبذه للتمييز العرقي بين الأوربيين والمسلمين.

المرحلة الثالثة: القيادة الشيوعية بالجزائر (1936_1940)

بوصول الجبهة الشعبية إلى الحكم تجددت أمال الشيوعيين وعلى رأسهم بن علي بوقرط حيث أصبح من القيادات الشيوعية البارزة، وزادت شعبيته بين المناضلين والطبقة العمالية التي ناضلت طويلا لإطلاق سراحه عبر مختلف المناسبات والمؤتمرات منددين بالتعسف الممارس ضده ومشيدين بوطنيته ونضاله السياسي، واستقبلته بالهتافات بعد تحريره في التجمعات الوطنية[40]، وانفتح له المجال من جديد لممارسة السياسة ودشنها بالمشاركة في المؤتمر الاسلامي المنعقد في 7 جوان 1936 بقاعة الماجيستك بالعاصمة، بحضور كل التيارات السياسية كل من جمعية العلماء وفيدرالية النواب المسلمين، الشيوعيين والاشتراكيين، والمرابطين والعلماء الرسميين والشباب والفلاحين والكشافة، بينما غاب النجم عن المؤتمر لتحفظه عن إلحاق الجزائر بفرنسا، وهذا لمناقشة مشروع بلوم فيوليت، الذي جاء بمجموعة من الاصلاحات في مقدمتها ما يتعلق بمنح الجنسية الفرنسية لبعض

المثقفين الجزائريين بدون التخلي عن الأحوال الشخصية، وكذا احترام حقوق باقي الجزائريين بالعيش وفق تعاليم القرآن ونصوص شريعته، إضافة إلى إلغاء قانون الأهالي[41].

استقبل بحفاوة كبيرة من قبل المؤتمرين والحاضرين عموما، كما تم الترحيب به شخصيا من قبل رئيس المؤتمر محمد بن جلول[42]، والذي استدعاه إلى المنصة لإلقاء كلمة، وفعلا صعد إلى المنصة وسط تصفيقات حارة للحاضرين، فشكر القائمين على هذه المبادرة الجيدة التي جمعت كل الأطياف السياسية على اختلاف توجهاتها، ودعا إلى ضرورة الوحدة والعمل لصالح الشعب[43]، كما عبر بصراحة عن رأيه في مشروع بلوم فيوليت فرحب بما يحمله من إصلاحات التي اعتبرها امتيازات - من منطلق أنه يحسب على النخبة ذات الثقافة الفرنسية الداعية للإدماج -، كما أنه فرصة لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين العمال، ويفتح المجال للمسلمين للحصول على حقوقهم السياسية على رأسها حق الانتخاب، كما يأمل في نفس الوقت بأن تكون الحكومة عند وعدها وتنفذ الاصلاحات[44]، وعبر عن ذلك في مقال نشره في صحيفة النضال الاجتماعي يوم 1936/8/16 بأنه " الأمل الوحيد للشعب"[45].

إلى جانب حضوره للمؤتمر كان ضمن وفد الجبهة الشعبية عندما سافر وفد المؤتمر حاملا كراسة المطالب إلى الحكومة الفرنسية والبرلمان والرأي العام الفرنسي[46]، على أساس وحسب ما ذكره في مذكراته أن الشيوعيين كان لهم مساهمة كبيرة في بلورة المطالب بقيادة جان برنان الذي ركز على عنصر التحسين الاجتماعي للعمال، واحترام ملكية الحرفيين والصناع الصغار.[47]

لم يقتصر نشاطه على المناسبات الوطنية بل كان عنصرا ومناضلا فعالا للحزب الشيوعي، فقد شارك في المؤتمر التأسيسي الذي عقده الحزب في أكتوبر 1936 بالجزائر، أين تقدم بخطاب استعرض فيه أهداف الشيوعية بالجزائر. وتوج بانتخاب اللجنة المركزية والمكتب السياسي[48]، كما عين أول أمين عام للحزب الشيوعي الجزائري بعد تأسيسه سنة 1936، وأصبح ناطقه الرسمي وتوسع نشاطه أكثر حيث أعلن في خطاب ألقاه أمام اللجنة المركزية في 23 جويلية 1937 رأيه بصراحة في مشروع بلوم فيوليت وتساءل إذا كان سيطبق وتتحقق الاصلاحات بعد الموافقة عليه،

كما تعرض في نفس الخطاب لحزب الشعب الجزائري واعتبره امتدادا طبيعيا لنجم شمال إفريقيا ينادي بالوطنية[49].

توج أمانته للحزب بالجزائر بتنظيم الندوات واللقاءات المحلية بمختلف المناطق والمدن أين يلتقي بالمناضلين والعمال، ومن أهمها زيارته إلى سيدي بلعباس، وبريقو، وتلمسان، وفي كل مرة يحضر للخطاب يستقبل بالهتاف واصفين إياه بالبطل الذي عانى الاستبداد ببني عباس بسبب أفكاره التحررية ومناداته بالمساواة والحرية ونضاله ضد الرأسمالية والفاشية ونصرة الطبقات العمالية الكادحة [50].

كان يستعرض في خطبه كل مره تنديده الدائم ضد الامبريالية والتمييز الطبقي الذي يعانيه العمال مع الملاك الكبار وتحديدا المعمرين الذين يعيشون على حساب عمالهم. كان دائما يشير بأنه ليس ضد فرنسا التي تنادي بالحرية والمساواة وتسعى إلى السلم بين الشعوب، وإنما هو عدو للإمبريالية ومشروعها الاستعماري بالجزائر[51]، وهذا في الواقع المبدأ العام للأحزاب اليسارية سواء الحزب الاشتراكي أو الحزب الشيوعي على أساس أنهم ليس ضد الاستعمار كفكر وإنما ضد الاستعمار برعاية إمبريالية[52]. طالب بضرورة احترام الملكية الصغيرة والحرفيين، وأكد على نبذ التعصب والتمييز العرقي والديني بين العمال عربا وفرنسيين وإسرائيليين وإسبان ووجوب تمتعهم بكل حقوقهم في الحياة.[53]

بقي بن علي بوقرط في منصبه كأمين عام حتى بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1939، أين جند للمشاركة في الحرب، وعلى إثر ذلك وبتدبير وتخطيط من الأوربيين بالحزب الشيوعي الجزائري وبإيعاز من أعوانهم بالحزب الشيوعي الفرنسي فقد منصبه الذي وجده مشغولا بعد عودته[54] بتعيين عمار أوزقان[55]. اتهم بالانحراف الوطني البرجوازي والخيانة خاصة بعدما أبدى موقفا من المعاهدة التي انعقدت بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي في 25 أوت 1939، وقد سمحت للرايخ الثالث باحتلال بولونيا دون تحرك الجار الكبير الاتحاد السوفياتي، فهو أدان المعاهدة لأنها تسير في الاتجاه المعاكس الذي تدعو إليه الشيوعية في موسكو وعبر عن ذلك بالتفصيل في رسالته المفتوحة إلى رئيس الحكومة وهو لايزال مجند في الحرب حيث انتقد الاتحاد السوفياتي باعتباره العقر

الذي تربت فيه الشيوعية وتلقى بها بوقرط مبادئها الداعية للمساواة والعدالة الاجتماعية والحرية، واصفا موقفها بالخيانة العظمى وانحراف عن خط ستالين[56].

وبعزله الرسمي اشتدت انتقاداته ضد زملائه السابقين، وكانت أولى انتقاداته حول استقلال الجزائر حيث يقول: " إن المدرسة الابتدائية للحزب الشيوعي الجزائري في غضون الحرب العالمية الثانية شعارها كان اللغو حول الاستقلال المزعوم، حيث يرى بعض ألا مسؤولين يرفعون شعار الاستقلال التام للجزائر كجواب عن كل شيء أليس هذا محض ديماغوجية؟ فليس من الممكن أن تعيش الجزائر مستقلة"[57].

المرحلة الرابعة: الانقلاب عن الشيوعية (1945_1954)

إن كل الانتقادات التي وجهها بن علي بوقرط تؤكد عن خروجه من دائرة الشيوعية، لكن هذا الارتداد ولد له بداية مأساة جديدة، حيث حاول الشيوعيون الأوربيون في الجزائر أن يفرضوا عليه حصارا خانقا حتى لا يكسب ثقة الحركات السياسية التي حاول التقرب منها، فهي تعاملت معه كمتعاون فني ليس إلا: رجل صاحب تجربة نضالية وسياسية يمكن الاستفادة منها لا أكثر ولا أقل.[58]

وأول حركة تعاملت معه بهذا المنطق هي حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بقيادة فرحات عباس[59]، فهو تطوع إلى جانب مناضلي هذا الحزب في حملة انتخابات المجلس التأسيسي الفرنسي في جوان 1946، وأصبح منهم، ويقول في هذا الصدد: " ...لقد وضعت تجربتي السياسية في خدمة البيان مكرسا نفسي لتنظيم هذه الحركة غير المتجانسة في شكل حزب مقبول وكتلة متجانسة قادرة على النضال بفعالية..."[60].

ولكن قبل أن يتعامل رسميا وبشكل علني مع حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري كانت له تجربة مع دعاة الاستقلال حيث اتصل بعد تسريحه من الجيش وابتعاده عن الشيوعيين

في1941 ببعض مناضلي حزب الشعب الجزائري المحظور منهم مخلوفي، طالب محمد، عبد الحميد سيدي علي، والأستاذ سيدي أحمد، وتعاون معهم سياسيا سرا، حيث توج عمله بالمشاركة في مجال الصحافة والكتابة في صحيفة "العمل الجزائري" السرية التي انطلقت في فيفري 1944، واستمرت في الصدور حيث كانت تصدرها جماعة محمد طالب التي أبعدت من الحزب بسبب اتصالها بالألمان[61].

ما انفك الشيوعيون يناصبونه العداء بتكثيف حملتهم عليه والكيد له لدى بعض العناصر السياسية التي لم تكن ترتاح للتعاون معه، وهنا نجد بوقرط يعيب موقف فرحات عباس الذي لم يسانده أمام هجمات الشيوعيين عليه، وما لبث هذا الموقف غير المشجع من المسؤول الأول في حزب البيان أن خيب أمله، وجعله يشعر أن الاستمرار في مساعدة هذا الحزب أصبح منافيا لكرامته. وهكذا ابتعد عن حركة البيان بعد أن دمر جسور العودة إلى الحركة الشيوعية. وعلى إثر حوادث 8 ماي 1945 اعتقل في بوزريعة رفقة بول حسين، محمد خيضر، أحمد محساس ثم أطلق سراحه[62]، ولابد من الاشارة إلى أنه كان يحمل الحزب الشيوعي الفرنسي مسؤولية المجازر التي حدثت 8 ماي 1945 [63].

استمر في ميدان الصحافة وساهم عبر الكتابة بصحيفة "الجزائر الحرة" لسان حال حركة انتصار للحريات الديمقراطية بعد الانضمام إليها، متناولا شخصيات من شمال إفريقيا عبر التاريخ، وهذا إلى غاية 1954 [64]، وفي 1957 ألقي عليه القبض ليختار بعدها المنفى والعيش بفرنسا طيلة فترة الثورة التحريرية، ليعود بعد الاستقلال وبقي بالعاصمة حتى وافته المنية في 1983 على إثر سكته قلبية[65].

إلى جانب نضاله السياسي فقد ترك آثارا مكتوبة وهي عبارة عن مذكرات شخصية سرد فيها أم المحطات في حياته، والتي كان لها تأثير في مسيرته النضالية، ألف كتابة باللغة الفرنسية بعنوان "Le Souffle du Dahra" ما يقابلها باللغة العربية " أنفاس الظهرة"، صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر برعاية من عائلته سنة 1986، وهو من الحجم المتوسط عدد صفاحاته 178 صفحة.

يحتوي هذا الكتاب على قيمة علمية هامة، بحيث يمكن تصنيفه ضمن المصادر التاريخية لكتابة تاريخ الجزائر لكن من الدرجة الثانية باعتبارها مذكرات وهذا بالرغم من الأخطاء. فهو يعطي صورة عامة عن بداية النضال السياسي وميلاد الحركة الوطنية الجزائرية وعن دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا سياسيا وكيف استغلوا الحراك السياسي لليسار الفرنسي فنشطوا سياسيا وانتظموا في تيارات مختلفة، إضافة إلى دور الحزب الشيوعي الفرنسي في النضال وموقفه المتحفظ من مبدأ الوطنية التي أبدها الجزائريون المنتمون إليه.

كما أن محتوى المذكرات لم يقتصر على الحركة الوطنية، بل تعداه إلى احتواء معلومات عن السياسة الاستعمارية والاضطهاد والتعسف الممارس في حق سكان بلدية رونو على يد الإداريين الفرنسيين وأعوانهم من الجزائريين، إضافة إلى التمييز في التعليم والتجنيد، كما أعطى صورة عن المجتمع الجزائري وعادات وتقاليد سكان مازونة ونشاطهم الاقتصادي، مما يفيدنا في كتابة التاريخ المحلي للمناطق.

الخاتمة:

من هذه المحطات النضالية في حياة بن علي بوقرط نراه يتمتع بحس وطني كبير بالرغم من أنه يحسب على الاندماجيين، والدليل التغيير والموقف الذي أبداه من الشيوعيين بعد انقلابهم عن مبادئهم التي تربى عليها سياسيا، بحيث فضل التصريح العلني بخطئها وانتقادها علنا والخروج عنهم والتقرب من التيارات الوطنية ومواصلة النضال وهذا في حد ذاته اعتدال وقناعة بالوطنية.

الهوامش:

1_ شهادة الميلاد الصادرة عن مصلحة الحالة المدنية لبلدية سيدي أمحمد بن علي بولاية غليزان يوم 31/07/ 2016.

2_ تأسس المركز الاستيطاني رونو (سيدي أمحمد بن علي حاليا) سنة 1873، واستقر فيه الأوربيون القادمون من منطقة الألزاس واللورين على إثر حرب بروسيا 1870.

3_ نفس شهادة الميلاد.

-CAOM. 5I/13. Préfecture d’Oran. Bulletin des renseignements. Oran 11/9/1939

4_ Benjamin Stora. Dictionnaire biographique des militants nationales Algériens (1926-1954). L'harmattan. Paris. P.341.

5_ Benali Boukort. Le Soufle du Dahra. Entreprise nationale du livre. Alger. 1986. P. 11.

6_ Ibid. P. 12./ - Achour Cheurfi. Mémoire algérienne. Edition Dahlab. Alger. P. 96.

7_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341./ - Benali Boukort. Op. Cit. P. 12.

8_ Ibid. P. 12.

9_ محمد عباس. رواد الوطنية. دار هومة. الجزائر. 2009. ص. 404.

10_ تضم جماعة النخبة الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والفرنسية كالمترجمين، القضاة، المحامين، الصحفيين، التجار، ...إلخ، من أهم مطالبهم: المساواة في التمثيل النيابي في المجالس المحلية والبرلمان الفرنسي، وفي الحقوق السياسية الأخرى، المساواة في الضرائب وفرص العمل. ينظر: عبدالوهاب بن خليف. تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال. دار طليطلة. الجزائر. 2009. ص ص 114-115.

11_ Benali Boukort. Op. Cit. P. 11.

12_ جريدة الإسلام هي من الصحف الأولى التي ناضل عبرها الجزائريون سياسيا وعبروا عن سخطهم ومعاناتهم من التعسف الاستعماري، أصدرها الصادق دندان باللغة الفرنسية سنة 1912، وفي 1913 أصدر نسخة بالعربية. أما جريدة الراشدي فمديرها الحاج عمار. ينظر: محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية (1847-1954). دار الغرب الإسلامي. الجزائر. 2007. ص 71، ص87.

13_ Benali Boukort. Op. Cit. P.30.

14_ Benjamin Stora. Op. Cit. P.341.

15_ Benali Boukort. Op. Cit. P.30.

16_ Ibid. PP. 30-31.

17_ عرف سكان مازونة بعادة قديمة وهي إحياء سبعة أيام متوالية بعد عيد الفطر مباشرة لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين الموجودين بالمنطقة، أين تتم اللقاءات الجماعية بين النسوة والمسامرة بينهن، ناهيك عن تنشيط الحركة التجارية، وبقيت هذه العادة قائمة حتى بعد الاستقلال لكن بدأت تزول وتركت تدريجيا.

18_ Ibid. P. 32.

19_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 403.

20_ Ibid. P. 33.

21_ Ibid. P. 33.

22_ CAOM. 5I/13. Préfecteur d'Oran. Bulletin des renseignements. Oran 11/9/1939.

23_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 403.

24_ Benali Boukort. Op. Cit. PP. 36-37./ - Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341./ - Mahfoud Keddache. Histoire de nationalisme Algérien. Tome1. ANAL. Alger. 1993. P. 326.

25_ Benali Boukort. Op. Cit. P. 38.

26_ عمار إيماش هو من مواليد قرية أربعاء بني يراثن، هاجر إلى فرنسا واشتغل بالمعطرة، انضم إلى نجم شمال إفريقيا سنة 1931، وشغل منصب سكرتير عام مؤقت سنة 1933، كما تولى رئاسة تحرير جريدة الأمة، عرف عنه بأنه خطيب وصحفي متميز وقدير، له عدة كتابات للتعريف بالنجم وسياسته منها ما هو منشور في " الجزائر في مفترق الطرق"، تعرض للسجن بفرنسا في نهاية سنة 1935 وحكم عليه بستة أشهر إلى غاية جوان 1936، اختلف مع زملائه فاعتزل السياسة ولم يشارك في تأسيس حزب الشعب الجزائري، عاد إلى الجزائر في 1950، وتوفي في 1953.

الجيلاني محمد السعيد: هو من مواليد 1886/9/6 بدوار أومالو هاجر إلى فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى فاشتغل بتجارة الجلود، تحمس كثيرا لتأسيس النجم وكان عضوا بلجنته المركزية سنة 1926، وعضو اللجنة الادارية الرئيسية للنجم سنة 1934، مسير جريدة الأمة، ساهم في تأسيس حزب الشعب الجزائري سنة 1937، عين عضو في فيدرالية الحزب بفرنسا سنة 1939، امتاز بالخطابة باللغة الفرنسية وقوة الاقناع، توفي سنة 1955.

معروف محمد أوعلي: هو من مواليد 1895/2/23 بواد الفضة بالأصنام (الشلف)، ينتمي إلى عائلة فلاحية، هاجر إلى فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى واستقر بباريس أين انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، كان عضو في لجنة المستعمرات سنة 1924، عضو اللجنة المركزية للنجم سنة 1926، وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري سنة 1946. ينظر: عبد الحميد زوزو. الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين (1914-1939). ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2007. ص ص59، 60، 64، 65/ 27_ Benali Boukort. Op. Cit. P. 38./_ Benjamin Stora. Op. Cit. PP. 57 ,58,66,

28_ Benali Boukort. Op. Cit. P. 39-40.

29_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

30_ بالرغم من أن نجم شمال إفريقيا تأسس تحت وصاية الشيوعيين وعطف اليساريين الفرنسيين والأوربيين وكل المنظمات المعادية للاستعمار، ولكن ولأن الهدف الحقيقي للنجميين هو تحقيق الاستقلال الشامل فقد اختلفوا معهم خاصة بعد ما تقرر في المؤتمر السادس للكومنترن سنة 1928 بأن يجعل نجم أفريقيا الشمالية خاضعا للحزب الشيوعي الفرنسي وبأن يسعى هذا الأخير لمنع النجم من أن يصبح منظمة وطنية وجعله فقط منظمة تابعة محاربة الإمبريالية الفرنسية في شمال إفريقيا تحت راية الشيوعية العالمية وليس راية

الوطنية، لكن النجم أصر على مبدأ الوطنية بالرغم من المضايقة والمعاداة من قبل الكولون عن اليمين والشيوعيين عن اليسار وأعلن ذلك صراحة منذ مؤتمر بروكسل المنعقد بين 10 و15 فيفري 1927 والتأكيد على حق الجزائر في الاستقلال. ينظر أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج2. دار الغرب الاسلامي. لبنان. 1992. ص. 373، ص ص 377، 378./ _ محفوظ قداش. تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (1919-1939). ج1. دار الأمة. الجزائر. 2012. ص ص. 204، 205.

31_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 404.

32_ بعد هجرته لفرنسا وفي زيارته الأولى لمسقط رأسه سنة 1930 حاول بن علي بوقرط نقل ما اكتسبه من أفكار سياسية ومحاولة بعث الوعي السياسي والحماس للنضال بين أبناء منطقته، تأسيس تنظيم سياسي مصغر مكون من ستة أعضاء، ارتفع عددهم إلى عشرين شخصا، وكان مقره في بالمركز في مبنى تعود ملكيته إلى بتشالي سيدي علي أحد ملاك مديونة، الذي عرف بحماسه الوطني ودعمه لأي نشاط نضالي لذا منحهم غرفة بالمبني مجانا لمزاولة عملهم السياسي، لكن التنظيم لم يستمر بسبب المضايقات الاستعمارية، فهو استدعي شخصيا من قبل العون الإداري السيد Avinat للاستفسار حول نشاطه وأهداف التنظيم، وانتهت المتابعة بحل التنظيم وعودته إلى فرنسا. ينظر: - Benali Boukort. Op. Cit. P. 42.

33_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

34_ Benali Boukort. Op. Cit. PP. 49,50,51.

35_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

36_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 405.

37_ CAOM. 5I/13. Prefecteur d’Oran. Bulletin de renseignements. Oran 11/9/1939

38_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

39_ CAOM. 5I/13. prefecteur d’Oran. Rapport. Sidi Bel abbes. 7/12/1936.

40_ CAOM. 5I/13. Police Municipal. Réunion publique communiste Benali Boukort. Telmcen 28/11/1936.

41_ من أهم المطالب التي اتفق حولها أعضاء المؤتمر الاسلامي نجد: إلغاء القوانين الاستثنائية وفي مقدمتها قانون الأهالي، ومنح الجزائريين جميع الحقوق السياسية مثل الفرنسيين منها حق التمثيل النيابي في كل المجالس وخاصة البرلمان الفرنسي، إضافة إلى المطالبة بتوحيد الهيئة الانتخابية، رد الاعتبار للغة العربية وجعلها لغة رسمية إلى جانب اللغة الفرنسية، حرية التعليم والصحافة بالعربية، المحافظة على الحالة الشخصية والاسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشرعية وفق القانون الاسلامي، إضافة إلى فصل الدين عن الدولة، إعادة أموال الوقف للمسلمين، المطالبة بالمساواة في الرتب والأجرة والكفاءة، توزيع إعانات الميزانية الجزائرية على الفلاحة والصناعة والتجارة، تكوين جمعيات وتعاونيات فلاحية، التخلي على حرية الملكية وتوزيع أراضي البور على صغار الفلاحين والعمال، إلغاء قانون الغابات. ينظر: محفوظ قداش. المرجع السابق. ص ص. 567-568. /أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية

(1930-1945). ج3. دار الغرب الإسلامي. لبنان. 1992. ص ص 157-158./ شارل أندري جوليان. إفريقيا الشمالية تسير. دار القومية للنشر. تونس. 1976. ص 153.

42_ محمد بن جلول ولد سنة 1896، هو من خريجي المدرسة الفرنسية ومن دعاة الاندماج سياسيا، رئيس فيدرالية المنتخبين المسلمين (1927-1938)، وكان الرجل الأول في السياسة حتى 1936، حيث كان من المشرفين الرئيسيين في تنظيم المؤتمر الاسلامي، أفل نجمه بعد فشل المؤتمر وانقسام الفيدرالية سنة 1938، فأسس حزبه الاتحاد الفرنسي الاسلامي الجزائري وفق مبادئه الاندماجية. بعد 1945 كان عضوا في الجمعية الوطنية .ينظر: محمد حربي. الثورة الجزائرية " سنوات المخاض". موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2006. ص.183.

43_ Benali Boukort. Op. Cit. PP. 60, 61.

44_ CAOM. 5I/151. Département d’Oran. Commissariat de police de Perrégaux. N=2865. Réunion communiste. Rapport spécial. 2/12/1936.

45_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

46_ Benali Boukort. Op. Cit. PP. 61, 62.

47_ CAOM. 5I/151. Département d’Oran. Commissariat de police de Perrégaux. N=2865. Réunion communiste. Rapport spécial. 2/12/1936.

48_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 401.

49_ Jaques jurquet. La révolution nationale Algérienne. Edition du centenaire. Paris. 1974. PP. 559, 560.

50_ CAOM. 5I/151. Département d’Oran. Commissariat de police de Perrégaux. N=2865. Réunion communiste. Rapport spécial. 2/12/1936.

51_ Ibid.

52_ فاطمة حباش. الحزب الاشتراكي " الرجال والمواقف من مطالب الجزائريين" (1939- 1954). عمل غير منشور في إطار مشروع البحث الوطني PNR. 2011. ص. 62.

53_ CAOM. 5I/151. Département d’Oran. Commissariat de police de Perrégaux. N=2865. Réunion communiste. Rapport spécial. 2/12/1936.

54_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 409.

55_ عمار أوزقان: (1910-1980): ولد بالعزازقة بالقبائل الكبرى، بدأ نشاطه السياسي منذ العشرينات وهو موظف بالبريد، شغل عدة مناصب نقابية، انضم إلى الحزب الشيوعي الجزائري وانتخب سكريتيرا للحزب من 1943 إلى 1948، كان من رواد تحرير المرأة ودعاة مجتمع متعدد الأجناس. تقرب من جمعية العلماء المسلمين وساهم في تحرير جريدة الشاب المسلم التي كان يسيرها

أحمد الطالب الابراهيمي. التحق بالثورة سنة 1955، وكان محرر لبيان مؤتمر الصومام 1956، اعتقل في جانفي 1958، بعد الاستقلال عين وزيرا للزراعة (1962-1963)، ثم وزيرا للسياحة ومديرا لمجلة الثورة الافريقية (1964-1965). ينظر محمد حربي. المرجع السابق. ص.185.

56_ CAOM. 5I/13. Dans une lettre adréssé au gouverneur générale l'ex communiste Benali Boukort rejette les doctrines de la III internationale. Oran Républicain 13/ 1/ 1940.

57_ محمد عباس. المرجع السابق. ص. 413.

58_ نفسه. ص 413، ص 415.

59_ ينتسب فرحات عباس إلى الطبقة البرجوازية الريفية الجزائرية، فهو ابن قايد، من مواليد الطاهير سنة 1899، الحالة الميسورة للعائلة سمحت له بالالتحاق بالمدرسة ومواصلة تعليمه حتى المراحل العليا ويلتحق بكلية الطب بالعاصمة ويتحصل منها على شهادة في تخصص الصيدلة سنة 1932. كان مولعا بالسياسة وشغوفا متتبعا لكل شؤون بني وطنه وما يحدث لهم مع هذا التواجد الأجنبي.

بدأ حياته السياسية منذ العشرينات ضمن تيار الإندماجيين، فكان رفيقا للدكتور بن جلول في فيدرالية النواب المسلمين الجزائريين إلى غاية 1937، ثم انفصل عنه بعد فشل المؤتمر الاسلامي ومشروع بلوم فيوليت، ويواصل نضاله لوحده بتأسيس حزب الاتحاد الديمقراطي الشعبي الجزائري سنة 1938، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية كان من المؤيدين لفرنسا وتطوع في الجيش الفرنسي.

بعدما لمس التعسف وعدم المساواة بين الجنود ومعاملتهم كأهالي رغم أنهم إلى جانب فرنسا في حربها، قرر إنهاء تطوعه والعودة إلى الممارسة السياسية، وفعلا حقق خلال هذه الفترة قفزة نوعية بالتحالف الذي عقده مع العلماء والاستقلاليين في بيان 1943 وملحقه ثم في أحباب البيان والحرية سنة 1944، ليعود ويظهر بمفرده بعد العفو السياسي ويؤسس حزبه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري سنة 1946 وشارك في الحياة السياسية بالدخول في الانتخابات، لكن سياسة التزوير التي اعتمدتها الادارة الاستعمارية جعلت نشاطه يدور في حلقة مفرغة ولم يعد النضال بأسلوبه السياسي مجديا وتجاوزته الظروف، إلى غاية اندلاع الثورة في 1 نوفمبر 1954، وعلى إثر اتصال مناضلي الحركة الوطنية بجبهة التحرير الوطني والانضمام إليها نجد فرحات دخل في اتصالات بعبان رمضان منذ 1955، لينضم بعدها سنة 1956 وعين عضوا في المجلس الوطني للثورة ثم عضو لجنة التنسيق والتنفيذ، وفي 1958 أصبح رئيسا لأول حكومة جزائرية إلى غاية 1961.ينظر:حميد عبد القادر. فرحات عباس" رجل الجمهورية". دار المعرفة. الجزائر. 2007. ص ص11، 320.

60_ Benali Boukort. Op. Cit. PP. 61, 62.

61_ Ibid. P. 89./ _ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341.

62_ محمد خيضر من مواليد 1912/3/13 بمدينة الجزائر في وسط أسرة بسكرية، هو أحد مناضلي التيار الاستقلالي من ثلاثينات القرن 20، انتخب نائبا عن الجزائر سنة 1946، التجأ إلى القاهرة في 1951 بعد أن رفض تسليم نفسه إلى السلطات الاستعمارية على إثر أحداث المنظمة الخاصة وعملية بريد وهران، تعرض للاعتقال بعد حادثة الاختطاف سنة 1956، كان عضو المجلس الوطني للثورة، كان إلى جانب بن بلة في أزمة صيف 1962.

أحمد محساس من مواليد بودواو سنة 1923، انضم إلى حزب الشعب الجزائري في بلكور، عضو اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية (1946-1947)، يعين في قيادة التنظيم المسلح المنظمة الخاصة سنة 1948، يتعرض للاعتقال عام 1950، ويتمكن من الفرار إلى فرنسا سنة 1952، يشارك في تحرير جريدة الجزائر الحرة، عضو ممثل جبهة التحرير الوطني بفيدرالية فرنسا 1955، وزير الفلاحة 1963 .ينظر: محمد حربي. المرجع السابق. ص ص 193، 194.

شاول حسن: من مواليد 1917/12/17 بسكيكدة، انضم إلى نجم شمال إفريقيا وهو تلميذ بالثانوية سنة 1936، مشرف ومسير فرع حزب الشعب الجزائري (1936-1939)، عضو اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1946 ثم أمين عام سنة 1951، ممثل لجبهة التحرير الوطني بالبلدان الاسلامية بآسيا سنة 1956.ينظر:

_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 290.

63_ محمد عباس. المرجع السابق. ص ص. 414،415.

64_ Benjamin Stora. Op. Cit. P. 341. _ نفسه. ص. 416./

65_ لقاء مع بوقرط حميدة الأخ الأصغر لبن علي سنة 2000 على الساعة 15:00 مساء ببلدية سيدي أمحمد بن علي (Renault).

جرائم الاستعمار الفرنسي بين واقع الجريمة وتحديات الثورة الجزائرية

الاستاذ بوترعة علي، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة إشراف الأستاذ الدكتور فغرور دحو، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

ملخص المقال:

ان الظروف التي مر بها الشعب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، من أحلك الفترات في تاريخ هذا الشعب الابي الذي عاني الويلات من الاستدمار الفرنسي، والذي استعمل كل الوسائل من اجل ارضاخه، فاستعمل التعذيب والسجن والتنكيل، ولما تجدي نفعا، فانتقل الى وسائل جديدة، من اجل السيطرة، فجاء بالأسلاك الشائكة، والتجارب النووية، كل ذلك من تدبير جنرالاته، ولكن الثورة ومن ورائها الشعب، استطاعت ان تتغلب على أعتى قوة في العالم آنذاك.

الكلمات المفتاحية: جرائم–الأسلاك الشائكة –التجارب النووية–الألغام–المعتقلات –السجون –التعذيب –الإعدام –القنبلة النووية –الاسلحة النووية

Abstract

The conditions experienced by the Algerian people during the colonial period, of the darkest periods in the history of this proud people, who have suffered the scourge of genocide the Algerian people, who used every means in order to, So it was used torture, imprisonment, and when going to work, go to the new methods, in order to control, came barbed wire and nuclear tests, all of the management of his generals, but the revolution and the people behind them, she was able to overcome the mightiest power in the world at the time.

key words: Crimes- barbed wire-nuclear -mine-detention -prison -bomb nuclear –death- Nuclear tests- nuclear weapons.

مقدمة:

شهد العالم على مر التاريخ أشهر الجرائم وحشية وضراوة، التي ارتكبت بحق الإنسانية والتي أسفرت عن مآسي وكوارث يعجز أكبر المتشائمين تعبيراً عن وصفها، وقد حاول المجتمع الدولي تداركها ومنع تكرارها عن طريق إيجاد وسائل الغرض منها حماية الإنسان عبر منحه الأمن والعدالة.

قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ سورة قريش. كما أن موضوع الجرائم الدولية هو من الموضوعات ذات الأهمية البالغة، وذلك نظرا لما احدثته تلك الجرائم من آثار خطيرة تمس المصالح والقيم الجوهرية والتي لطالما حرص المجتمع الدولي على حمايتها وعدم المساس بها . فهي تتضمن اعتداء صارخا على المصالح الحيوية التي يكفل لها القانون الدولي الجنائي وكذا القانون الدولي الإنساني حماية خاصة.

وانطلاقا من الأهمية القصوى التي يمثلها مستوى المعرفة التاريخية كدرع قوي في وجه ثقافة النسيان أو مدرسة التحريف والتزييف في آن واحد فإن الكتابة التاريخية العلمية تمثل في هذا السياق أبرز رافد يمكنه إثراء وإنعاش مستوى المعرفة التاريخية خاصة في مواضيع ذات ارتباط وثيق بالتاريخ الوطني خصوصا إذا تعلق الأمر بفترات حاسمة ومصيرية في تاريخ الجزائر المعاصر وأقصد بذلك مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وسأحاول في هذا المقال تسليط الضوء على قضايا متعددة مرتبطة بموضوع شامل يعنى بالبحث في مسائل جرائم الحرب والوسائل المستعملة فيها، من مجازر وتعذيب ومعتقلات، وسجون، وإعدام، وأسلاك شائكة، وتجارب نووية، غير أن هذه الجرائم ساهمت في صناعة القرار الدبلوماسي للجزائر والانتصارات في المحافل الدولية خلال سنوات الثورة التحريرية والوقوف عند الظروف والإمكانيات التي سخرتها قيادة الثورة لتأمين هذا النوع من العمليات السياسية والدبلوماسية.

انتفاضة 8ماي 1945: من الواضح ان المركز الرئيسي للاضطرابات يقع بين سطيف والبحر، عند جبال البابور، تلك الارض الوحشية التي تبرز النتوءات العظيمة لأطلال كويكول (جميلة حاليا) القديمة، التي تتجاوز قممها الفي متر قاطعة الى شطرين المضايق الهاوية "لمعبر الموت "، ان هذه المنطقة الصعبة المداخل تقطنها القبائل البربرية الجافية والبائسة، والتي تظهر عداوتها المضمرة دوريا، في شكل هجومات معزولة. وكل ما يمثل التأثير الاوروبي في هذا الجانب من الطرق العظيمة، لا يعدو بعض المحطات الغابية ومراكز صغيرة للاستعمار متباعدة وغير كثيفة".

ان لجنة التحقيق التي عينها الوالي العام قد تساءلت هي نفسها لماذا كان المتظاهرون في بعض المناطق قد تفرقوا بهدوء، فهل ذلك يعود الى مهارة وطاقة بعض الاداريين الفرنسيين الذين

حقق كثير منهم علاقات جيدة مع رعاياهم المسلمين؟ او هل كان بعض الزعماء السياسيين المسلمين أكثر اعتدالا من البعض الاخر؟ او لعلهم راوا ان الوقت لم يكن قد نضج بعد؟ او هل كانت بعض القرى والقبائل تميل عادة الى السلم أكثر من غيرها؟ او انها كانت خائفة من رؤية الجنود بعتادهم العصري؟ ان اللجنة اكتفت بذكر الاحتمالات فقط، كما انها لم تستطع ان تكتشف من الذي اعطى الاوامر في عدد قليل من المزارعين الصغار في بعض المنازل وحيث لم يقع اي حادث منذ ست واربعين سنة، قد نهبت واحرقت تحت صرخة "الجهاد" [1].

وسائل الاستعمار:

إن كثير من الناس يعتقدون أن الثورة الجزائرية قد كانت فقط في الجبال والمدن من خلال المعارك والكمائن والاشتباكات والعمليات الفدائية[2]، بل هناك جوانب أخرى خفية من كفاح الشعب الجزائري الأبي داخل السجون والمعتقلات والمحتشدات. ولقد بادرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عند اندلاع ثورة التحرير إلى إنشاء المعتقلات، وألقت فيها بالمناضلين الجزائريين والوطنيين، ومختلف الفئات من اجل عزلهم عن الثورة كي لا يلتحقوا بها أو يوفروا لها الدعم والسند

1-**التعذيب**: لقد تنوعت وتعددت أنواع التعذيب الذي مورس في حق الشعب الجزائري منذ أن أحكمت فرنسا سيطرتها أعلى اغلب الأماكن الجزائرية، وبذلك مارست أبشع أساليب التعذيب والتنكيل بالشعب-الأعزل الذي قاومها مدة مئة وخمسة وعشرين سنة، فأحكمت عليه الخناق بكل الأساليب والوسائل لاحتواء الشعب والأرض، واعتبارها قطعة فرنسية لا تتجزأ منها، وقد مارست أنواعا شتى من التعذيب منها الجسدي والنفسي وغير ذلك، وقد كانت تمارسها بكل قوة وعنف وتفنن.

-التعذيب الجسدي: ويتمثل في الاتي:

أ-الضرب: فالضرب يعتبر أحد أنواع التعذيب التي مارسها جلادو السلطات الاستعمارية في حق الشعب الجزائري باعتبارها الطريقة المثلى والسهلة لتعذيب هذا الشعب لاستجوابه وهي أولى الطرق للاستجواب عند الجلادون وأمتعها بالنسبة لهم.

ب–الكهرباء: فالكهرباء هي كذلك أحد أنواع التعذيب التي كانت تمارس في حق المساجين، فهو تفنن ودراسة واحد أنواع التعذيب الجدية لإقرار والاعتراف بكل ما قام به المسجون أو المشتبه به، وما لم يقم به كذلك وما يقال له بان يقول، لان هذا النوع له إثر كبير على الأجهزة العصبية والدماغية للإنسان، فما بال من يجعل له هذه الآلات والأدوات لتعذيبه وخاصة عند وضعها في أماكن حساسة من جسم الرجل أو المرأة.

ج–الماء والصابون: يعتبر الماء أحد أنواع الاستنطاق والتعذيب، ويستخدم على ثلاث مراحل أولها يتم إدخال الماء إلى البطن مما يحدث آلام حادة تفقد الشخص على قدرة المواصلة والصمت وربما يؤدي إلى الغثيان، وثانيها يتم إدخاله في مغسل أثناء الليل عندما يكون الجو باردا، وثالثها يتم ربطه في لوحة طويلة ثم يقلب إلى الأسفل حتى يغطس رأسه في المغسل لمدة زمنية، ثم يرجع إلى الأعلى، وتتكرر العملية لمرات حتى يعترف[3].

د–الحرق بالنار: وتستعمل هذه الطريقة لانتزاع الأسرار بالقوة وتمر على عدة مراحل إشعال آلة اللحام، بعد ضبطها على درجة إذابة الرصاص($327°$)، ثم توجه إلى الصدر أو البطن ليحترق به متوسط سمك جلد الإنسان ثم تقرب الفوهة شيئا فشيئا مع طلب الاعتراف بالتهم المنسوبة إلى السجين حتى ولو لم يرتكبها ثم تعاد العملية في أماكن أخرى للجسم أما الطريقة الثانية فهي عملية تسلية حيث يوضع السجين في زنزانة يكون فيها الجنود يتلهون بالسجائر ثم يكون مكان الإطفاء في جسده، وإذا يكشف لك احد الذين تعرضوا لذلك يشمئز قلبك من المشهد.

هـ–تسليط الكلاب على السجناء و–الحديد والزجاج: تدق المسامير في أجسام المعتقلين – الحبل: –الجوع والعطش:

التعذيب النفسي: إن هذا النوع من التعذيب له اثر كبير على شخصية المسجون [4]، فمنهم من يكون إيمانه ضعيف ولا يطيق الصبر، وهذا المسجون يعتبر الأسهل عند الجند الفرنسيين في الإقرار عكس الذي يكون قوي العزيمة مؤمنا بالقضية، وهذا النوع يستخدم عند ضباط بسيكولوجيين للإجبار على الاعتراف بالوسائل النفسية[5]، أو يتخلى هذا المسجون (الضعيف) عن مبادئه ويصبح

عميلا للقوات الفرنسية فيصبح دليلا أو مرشدا لها أثناء عملية التمشيط، وتلجا هذه العملية إلى تحطيم نفسية الشعب الجزائري، ومن أمثال هذه الحرب النفسية أن يؤتوا بزوجة المسجون أو إحدى بناته ثم يمارس عليها الجنس تحت أنظاره مما يؤدي إلى انهياره[6].

–التفقير والتجويع –الاستيطان: –الإبادة الجماعية: génocide –التنصير: انها الصلاحيات المطلقة في التعذيب والقتل دون مراقبة أو حساب، وهذه الحقوق متعت الفرنسي في الجيش بالتفنن في التعذيب والقتل بأبشع الأساليب وافضعها[7]. **المعتقلات:**

ا/ . **المعتقلات المدنية**:وهي التي تختص بشؤون المعتقلين المدنيين.

ب/ . المعتقلات العسكرية:وهي التي خصصت للمجاهدين الذين تم إلقاء القبض عليهم اثر المعارك التي كانوا يخوضونها ضدهم،وفي اغلب الأحيان كانا جلادوه عناصر الجيش الفرنسي، يعد موت الأسير بعد اعتقاله انتقاما لموتاهم.[8]

2–أهم المعتقلات أثناء الثورة:

1) –معتقل **قصر الطير**: يقع هذا المعتقل بالقرب من عين ولمان بولاية سطيف وهو خاص بالمجاهدين الأسرى

2)–**معتقل الجرف**: يقع هذا المعتقل شرق مدينة مسيلة محاذيا للطريق الرابط بين بريكة ومسيلة[9] **3_معتقل بوسوي [الضاية]**: أطلق هذا الاسم على معتقل جبال الضاية تخليدا لمآثر فرنسا ويقع هذا المعتقل الذي سمي باسمه جنوب سيدي بلعباس في دائرة [تلاغ]

4_ معتقل افلو: يقع في ولاية الاغواط وقد خصصت فرنسا في البداية لقادة الحركات السياسية والإصلاحية.

5_ معتقل سان لوي (ارزيو): وهذا المعتقل يقع شرق مدينة وهران واغلب من به نقلوا من الجرف وعين وسارة ولا يقل أهمية عن معتقل بوسوي والجرف.

6_معتقل اركول: يقع هذا المعتقل شرق مدينة وهران ويكاد يكون بصيقا بها وهو معتقل لتعذيب البدني والنفسي ومحطة للمرور بحيث كلما جيء بمعتقل من ارزيو أو افلو الجرف أو سيدي الشحمي أو من المعتقلات الصغرى من مراكز التجمع أو من الذين قضوا حياتهم في سجن لامبير، تازولت أو البرواقية أو وهران أو سجن الكدية بقسنطينة أو سجن عنابة إلا ويمرون بهم عليه تعذيبا وتهديدا وترهيبا واغلبهم من الأسبان لا يسلم من أذاهم أي احد من المعتقلين وأحيانا يضطر مسؤولهم للقيام بالحيلولة دون التنكيل ببعض الشخصيات العلمية خوفا من تسرب الأخبار للصحافة العالمية.

7_ معتقل سيدي الشحمي: يقع جنوب شرقي مدينة وهران وقد ملئ في البداية بالذين نقلوا من معتقل (بوسوي) و(الجرف) وغيرها من المعتقلات الصغرى التي تعتبر مراكز للتجمع المؤقت.

9–معتقل لودي: ويقع غرب مدينة المدية وكان مركزا ومصطافا لعمال السكة الحديدية في فترة الاحتلال الفرنسي، وفي عام 1958م فتحته فرنسا للشيوعيين الأوروبيين ثم ضمت إليهم الشيوعيين الجزائريين وقد نقلتهم من معتقل (لودي) أن يتعهدوا بعدم تأييد الثورة في المستقبل، كما تفرض عليهم الرحيل إلى فرنسا.

10– معتقل الدويرة: يقع في متيجة، أنشا سنة 1958م للذين خرجوا من المعتقلات والسجون ومارسوا العمل مع الثورة من جديد والقي القبض عليهم مرة أخرى، وجيء بهم الى هذا المعتقل للتكفير عما قاموا به نحو الثورة.

11. معتقل الشلال: تم فتحه استنادا لقانون الطوارئ في 03 افريل 1955م بالمكان المسمى العجيلة وهو معروف بتسمية "فيلاج بالشلال" ويقع جنوب مدينة المسيلة على بعد 10كلم يحده من الشمال الطريق الوطني الرئيسي الذي يؤدي إلى عين الحجل والجزائر العاصمة ويعتبر من أقدم المعتقلات وأبشعها تعذيبا. كما فرضت قانون حالة الطوارئ[10]، في البلاد عام 1955 ومن أبرز العوامل التي أدت إلى إنشائه:

1. فك الروابط الأسرية للعائلات الثورية، وعزلها عن بعضها البعض.

2. قرب هذه المراكز المستحدثة من الثكنات العسكرية تجعل منها دروعا أمامية للعمليات العسكرية التي يقوم بها المجاهدون وتحقيق الأمن لجنودها.[11]

3. قمع الروح الوطنية لدى الجزائريين ومحاولة والقضاء على لهيب الثورة والحد العسكري والسياسي اللذان أصبحا يسيران بخطى ثابتة نحو الاستقلال.

4. العمل على بعث التفرقة السياسية بين المنتمين إلى جهة وجيش التحرير الوطني وغير المنضويين تحت لوائها وأثارت الثغرات بين أبناء النبيذ للقضاء غلى الوحدة ومنع الشعب من الالتفاف حول جيش التحرير الوطني[12].

السجون: وقد بلغ عدد السجون في بداية الثورة قرابة 26 سجنا، ثم نمت وكثرت مع انتشار الثورة منها: سجن بسكرة وسجنان بكل من ورقلة وغرداية والاغواط، ثم سجن أدرار وتيميمون، رقان،تمنراست،و عين صالح، وسجنان بمتليلي، وثلاثة بكل من المسيلة وبوسعادة، سجن الجلفة، ومسعد،تاعظميت،و توقرت[13].

أهم السجون أثناء الثورة:

ا-**سجن بربروس**: الذي هو معروف اليوم باسم سجن"سركاجي" وهو سجن مدني في أعالي القصبة.

ب-سجن بسكرة: السجن المدني ببسكرة، بني سنة 1884م، ويقع أمام المحكمة القديمة في نهج محمد رحيم بالقرب من تمثال لافيجري سابقا.

وهناك مراجع تقول انه تم إحصاء عدد المعتقلين في أوائل الثورة إلى حوالي 400000 معتقل، وعدد المساجين الذين حكم عليهم حوالي 40000 في الجزائر، و15000 بفرنسا [14].

وهذه الاعتقالات والمحاكمات الصورية جاءت على إثر إصدار العدالة الفرنسية صلاحيات واسعة لقضاتها في محاكمة الجزائريين محاكمة صورية بعد إذاقتهم ألوان العذاب من طرف الشرطة أو

الدرك أو الجيش، ولفقت ضدهم تهم مختلفة مع حرمانهم من زيارة أقربائهم. ولقد وضعنا هذا الجدول ليبين تفاوت المحاكمات وعدد المحكوم عليهم بصفة عامة في فترة (1955-1962) م[15].

السنوات	1955	1956	1957	1958	1959	1960	1961	1962
المحاكمات	56	53	186	226	148	138	81	41
المحكوم عليهم بالسجن	/	/	/	997	756	613	364	99
الإعدام	/	/	/	152	107	120	120	08

مما يمكن أن تستنتجه من الجدول هو أن عدد المحاكمات ازداد خاصة في السنتين 1957-1958 م، وهو الوقت الذي اشتدت فيه الثورة التحريرية وخاصة معركة الجزائر.

جرائم الاغتصاب وتقييد الحريات: انه لمن المتفق عليه أن الأفعال الجنسية المشروعة، هي التي تتم في إطار العلاقة الزوجية، والأفعال التي تتم خارج هذه العلاقة تعتبر غير مشروعة، ويعتبر فعل الاغتصاب من أخطر الأفعال الشنيعة التي تخدش شرف وعرض الإنسان، وتشكل تهديدا كبيرا على جسمه وحريته الجنسية. وهنا لابد من تدخل القانون، الذي يحدد الأفعال الجنسية المشروعة وغير المشروعة، وفقا لمقتضيات حماية المجتمع، والنظام العام والآداب العامة.

حقول الألغام وآثارها السلبية علة المجتمع الجزائري:

أولا: أنواع الألغام

1) الالغام المضادة للافراد: الانسان، وقد استعملت النماذج التالية:"APDV/59 APID/51، وقد تم زرع 4056241لغم من نوع"APID/51" ابتداءا من 21 نوفمبر 1957الى 20 مارس 1958[16].

2) **الالغام المضيئة**: تشتعل بمجرد قطع الاسلاك من طرف جيش التحرير الوطني لتنطلق شرارات مضيئة في السماء[17].

3) **السياج المكهرب**: يضم خمسة اسلاك شائكة موضوعة فوق بعضها البعض ومفصولة عن بعضها بعوال، وقد عزز السياج من الاعلى بشبكة من الاسلاك الشائكة[18].

4) **الاسلاك الشائكة**: عرضها اربعة امتار اقيمت خلف الخط المكهرب على بعد ثلاثة امتار بعد الطريق المعبد مباشرة، تمتد الخنادق وللاثارة فانها تتصل ببعضها البعض عن طريق ممرات ارضية، وعلى غرار ذلك اقامت الادارة الاستعمارية المراكز العسكرية حول الخنادق بغرض توفير وضمان الامن والسلامة للقائمين على الحراسة.

فقد كانت القوات الاستعمارية المتمركزة في الجزائر، قد بلغت حتى فاتح جويلية1959 اكثر من 612.390 رجل كانت موزعة كالتالي: القوات البرية: 392.500 رجل. القوات البحرية: 10.900رجل. القوات الجوية: 310.500 رجل.قوات الدرك: 13.100رجل. قوات وحدات المقاطعة: 78.500رجل.قوات الحركة: 39.850رجل. فرق المخزن: 18.520رجل. الدفاع الذاتي: 18.810رجل.

وكانت هذه القوات موزعة عبر القطر الجزائري كله بحيث انتشرت101.000 على الناحية الغربية، و128.500 على الناحية الشرقية، 128.500 على الناحية الوسطى و26.000 كلفوا بمهام اخرى عبر الوطن.

وعلى اساس هذه القوات المذكورة نفذت فرنسا مخططاتها العسكرية ضد الثورة، واعتمدت بالخصوص على فرقها العسكرية بوحدات الصاعقة، ووحدات الاحتياط العامة[19].

الجريمة النووية: الوجه الأبشع للاستعمار الفرنسي في الجزائر

السلاح النووي هو سلاح تدمير فتاك، يستخدم عمليات التفاعل النووي، يعتمد في قوته التدميرية على عملية الانشطار النووي او الاندماج النووي[20]، ونتيجة لهذه العملية تكون قوة انفجار قنبلة نووية صغيرة اكبر بكثير من قوة انفجار أضخم القنابل التقليدية، حيث أن بإمكان قنبلة نووية

واحدة تدمير أو إلحاق أضرار فادحة بمدينة بكاملها. لذا تعتبر الأسلحة النووية أسلحة دمار شامل ويخضع تصنيعها واستعمالها إلى ضوابط دولية حرجة ويمثل السعي نحو امتلاكها هدفا تسعى إليه كل الدول. [21]

لقد اختارت الحكومة الفرنسية لاجراء تجاربها النووية والزمان والمكان بعناية، فقد كانت تجد في دخول النادي النووي ولو على حساب مبادئ ثورتها الانسانية، خاصة اذا عرفنا انها خرجت منهزمة في اكثر من حرب ووجدت نفسها متاخرة عن الدول العظمى بعد تفجير الولايات المتحدة الامريكية لاول قنبلة نووية في 6 اوت 1945 ثم الاتحاد السوفياتي سنة 1949 وانجلترا سنة 1957. وكان على فرنسا تسخر كامل امكانياتها للانضمام لهذا النادي في اقرب الاجال. [22]

ولذلك اقرت حكومة شارل ديغول آنذاك تاسيس"محافظة الطاقة النووية الفرنسية" في اكتوبر 1945، والتي شرعت في تجميع الدراسات العلمية والامكانيات التقنية لصنع القنبلة النووية، ومع حلول سنة 1955 اصبح بإمكان فرنسا تحقيق حلمها فاسندت للجنرال "بوشالي" تجسيد المشروع ولما تولى الجنرال ديغول السلطة ازداد الاهتمام بهذا المشروع الذي اعتبره مشروعا حيويا واستراتيجيا لفرنسا، وخطط لان يتم تفجير اول قنبلة تجريبية بداية سنة 1960[23]. على امل ان يكون في ذلك رسالة للقوى الدولية حتى لا تفرض حلولها على فرنسا وللفرنسيين الذين يضعون ثقة مفرطة في رئيسهم وللثوار الجزائريين الذين يتخذون السياسة الفرنسية ومشاريعها في حل القضية الجزائرية.

لقد جاء اختيار الصحراء الجزائرية مختبرا لتفجير اول قنبلة نووية فرنسية لاسباب عديدة، اذ تاكدت ضرورة ان منطقة الاختبار بعيدة عن الانظار وغير ملفتة للانتباه ومؤهلة طبيعيا وجغرافيا لاجراء هذه التجارب،[24] وعليه رشح الخبراء الفرنسيون منطقتان مؤهلتان لذلك وهما بولينزيا والصحراء الجزائرية، لكن بعد الاولى عن الوكن الام (فرنسا) من جهة وفقرها للموارد الطبيعية والبشرية الكفيلة بتجسيد المشروع والمساعدة على اقامة صناعات ومجمعات عسكرية من جهة اخرى جعل الاختيار يقع على الجزائر، وبذلك تم تحديد منطقة رقان التي تبعد عن اقليم توات ب 100كم. وعين ايكر شمال تمنراست كاماكن مناسبة لتجسيد المشروع النووي الفرنسي[25].

قاعدة رقان: وقع الاختيار على منطقة حمودية التي تبعد عن رقانب65كم كقاعدة اساسية لمراقبة

اجراء التجارب النووية، وذلك في جوان سنة 1957 واوكلت مهمة بناء منشآتها الرئيسية الى الفرقة الثانية التابعة للجيش الفرنسي[26].

و لم تكد الاشغال تنتهي حتى اصبحت القاعدة تضم اكثر من عشرة الاف عامل من بينهم3500 جزائري جيء بمعظمهم من مراكز الاعتقال، او من المناطق السكنية القريبة وشغلوا في اعمال السخرة[27]. سميت القاعدة النووية الفرنسية "بالمركز الصحراوي للتجارب النووية العسكرية" وهي مقسمة الى قسمين: المصالح التقنية والادارية والمطار العسكري برقان، والقيادة العسكرية مقرها حمودية والتي كلفت بالاشراف المباشر على العمليات واجراء الاختبارات التقنية ورصد الاشعاعات، باعتبار ان التفجيرات كانت سطحية. [28]

قرر الخبراء الفرنسيون البحث عن مكان امن تمكن طبوغرافيته من التطبيقات السلمية للانفجارات النووية بالباطنية فوقع الاختيار على منطقة الاهقار الجبلية وبالضبط في تاكرومية قرب عين امقل جنوب عين ايكر اين تم حفر ما يقارب الثمانية انفاق في الفترة الممتدة بين 1961-1962 حيث شهد معظمها تفجيرات نووية كان اولها في السداسي الاول من سنة 1961 اي في الذكرى الاولى 4 لتفجيرات رقان لتليها تفجيرات اخرى استمرت الى ما بعد استقلال الجزائر، حيث تم حفر عدة انفاق جديدة تحضيرا لتجربة "مونيك"[29].

وبعد انتهاء فرنسا من انجاز قاعدة رقان وتجهيزها بكل الوسائل التقنية والفنية الازمة، وبعد ان توصل الخبراء الفرنسيون الى صناعة اول قنبلة نووية في مختبرات ومصانع "بروبارلوشاتل" تمت عملية نقلها الى قاعدة رقان النووية لاجراء اول عملية تفجير في تاريخ فرنسا العسكري. [30]

وفي 13 فيفري من سنة 1960 وخلال الساعات الاولى منه كانت القنبلة قد نصبت في اعلى برج معدني يفوق طوله 100م، وقد حاصرتها اثنتا عشر كاميرا مراقبة لتصوير الحدث والتقاط صور الانفجار الناجم عن الاشعاع الحراري[31] تمت عملية "اليربوع الازرق" على الساعة السابعة بتوقيت الجزائر بحضور ضباط عسكريين ورجال ساميين في الحكومة الفرنسية يتقدمهم وزير الدفاع انذاك بيار مسمر الذي طار على جناح السرعة الى باريس ليخبر الجنرال ديغول بنجاح التجربة،

وقد بارك هذا الاخير في مؤتمر صحفي ما اسماه انجازا فرنسيا، وقدمت خلال المؤتمر اولى الصور حول العملية بحضور ازيد من 300.

وقد حي الجنرال ديغول الشعب الفرنسي والحكومة، وبخاصة القائمين على العمل، واعتبر ذلك انجازا كبيرا لفرنسا[32]. يضمن لها الامن ويفتح لها المزيد من التقدم العسكري النووي، ويفك عقدة النقص التي لازمتها الى غاية تلك اللحظة.

استيقظ سكان منطقة رقان الواقعة بالجنوب الغربي الجزائري صباح يوم 13 فيفري 1960 على الساعة السابعة وأربع دقائق على وقع انفجار ضخم ومريعا الذي جعل من سكان الجزائر حقلا للتجارب النووية وتحويل اكثر 42 الف مواطن من منطقة رقان ومجاهدين.

ففي صبيحة هذا اليوم المشهود، تمت عملية التفجير تحت اسم اليربوع "الازرق"، تيمنا بلون الكيان الصهيوني واول لون من العلم الفرنسي، هذا التفجير الذي سجل بالصوت والصورة بعد الكلمة التي القاها ديغول في نقطة التفجير بحموديا (65 كلم عن رقان المدينة)، قبل التفجير بساعة واحدة فقط، وتم نقل الشريط مباشرة من رقان الى باريس ليعرض في النشرة الاخبارية المتلفزة على الساعة الثامنة من نفس اليوم بعد عرضه على الرقابة. [33]

نجحت فرنسا واسرائيل في تجاربهما النووية المشتركة وهما تدركان حق الادراك ان سكان هذه المنطقة سيعانون لفترة تزيد عن 4500سنة من وقع اشعاعات نووية لا تبقى ولا تذر ولا تفرق بين نبات وحيوان وانسان او حجر. [34]

-كانت اول قنبلة نووية سطحية بقوة ثلاثة اضعاف قنبلة هيروشيما باليابان عام 1945.

-تلتها قنبلة "اليربوع الابيض"، "اليربوع الاحمر" حسب ترتيب الالوان الثلاثة للعلم الفرنسي لتختتم التجارب الاستعمارية النووية بمنطقة حموديا رقان بالقنبلة الرابعة والاخيرة التي سميت"باليربوع الاخضر"، وهذا في 25 ابريل 1961.

وهذا الجدول يوضح حسب تصريحات السلطات الاستعمارية التجارب النووية التي تمت في منطقة رقان والأهداف المتوخات منها .[35]

الترتيب	اسم التجربة	التاريخ	قوة القنبلة كيلو/طن	الأهداف
01	اليربوع الأزرق	1960/02/13	70.60	عسكرية
02	اليربوع الأبيض	1960/04/01	أقل من 20	عسكرية
03	اليربوع الأحمر	1960/04/27	أقل من 20	عسكرية
04	اليربوع الأخضر	1961/04/25	أكثر من 20	عسكرية

وفي معرض ردها عن حملات الشجب حاولت الدبلوماسية الفرنسية الدفاع عن موقفها بمبررات واهية، فقد صرح "جيل موش" مندوب فرنسا الدائم لدى هيئة الامم المتحدة يوما 1960/11/05، ان بلاده اجتهدت في اختيار موقع التجارب النووية مدعيا ان رقان لا توجد بها الا تجمعات سكانية ضعيفة لا تؤخذ بعين الاعتبار [36]، فهل الى هذه الدرجة يمكن الاستهتار بارواح الناس؟ وباي حق سمحت فرنسا لنفسها بتلويث منطقة واسعة وان سلمنا بانها غير مؤهلة؟ .

وعلى الرغم من الاستياء الذي ابداه الراي العام المحب للسلم فان فرنسا لم تابه لذلك، وواصلت تجاربها في المنطقة نفسها التي شهدت ثلاث عمليات اخرى، سميت الاولى اليربوع الابيض، والثانية اليربوع الاحمر والثالثة اليربوع الاخضر وذلك في 01افريل 1960 و27 افريل 1960و 25 افريل 1961 على التوالي. وقد بلغ مجموع قوتها مجتمعة 60 كلطن، لتبلغ قوة الطاقة التي تم تفجيرها في رقان ومحيطها ما يقارب 130 كيلو طن كقابل ثلاثة عشرة عملية تفجير بقوة 370كيلو طن بقاعدة عين أيكر بتمنراست[37].

آثار ومخلفات التجارب النووية الفرنسية على الجزائر.

لم تقتصر الابادة التي انتهجها الجيش الفرنسي على القتل الجماعي بالطرق التقليدية، بل تطور الامر الى حد استعمال العلم والتقدم التكنولوجي في خدمة الاغراض الدنيئة. وهذا في اطار مشروعها الذي يطلق عليه اسم التنظيم الصناعي الافريقي هذا الاخير الذي تهدف فرنسا من خلاله الى انشاء مناطق لاجراء تجاربها النووية في القارة الافريقية ونظرا لكون الصحراء تكتسي موقعا استراتيجيا مهما لعملية التجارب النووية، فقد اقامت فرنسا مراكز نووية بالصحراء اهمها: منطقة رقان وذلك لاجراء تجاربها النووية، والتي تم خلالها استخدام مجموعة من اسرى مجاهدي المنطقة المنظورين تحت لواء جبهة التحرير الوطني ومجموعة من المدنيين القاطنين بالمنطقة كفئران تجارب لتفجيراتها النووية.

إن الزائر اليوم لمدينة رقان وقرية الحمدية التابعة لها[38]، ومنطقة أينكر بالهقار [39]يقف على خطورة الاشعاعات الناجمة عن النفايات النووية التي خلفتها 17 تجربة اجراها الفرنسيون هناك ما بين 13 فيفري 1960و 16 نوفمبر 1966، وتسببت بمقتل 42 الف جزائري واصابة آلاف الاخرين بإشعاعات، واضرار كبيرة مست البيئة والسكان.[40]هذا دون احصاء التجارب التكميلية التي لم ترد في تقرير وزارة الدفاع الفرنسية الذي نشر في شهر فيفري 2007 عقب المنتدى الذي انعقد بالجزائر العاصمة.[41]

وفي الاطار يكشف تقرير خبرة اعدته الوكالة الدولية للطاقة الذرية في سنة 1999 والذي نشر سنة 2005 ان المناطق المحيطة بالنقاط الصفر لرقان من بينها 40 منطقة بقرية الحمودية وعين اينكر مازالت لحد الان متضررو بسبب الاشعاعات المعتبرة[42]. ويشير "عمار منصوري" الباحث في الهندسة النووية، الى ان الجيش الفرنسي في تفجيراته التي حملت مسميات اليربوع: (الأبيض ثم الأحمر [43]ثم الاخضر ثم الازرق)، استخدم فيها الاف من ابناء منطقة رقان وعناصر من اللفيف الاجنبي كفئران تجارب، اضافة الى الحيوانات والحشرات والطيور وحتى بذور نباتات لم تسلم من هذه التجارب، وكان يتم ربط الضحايا لساعات مبكرة قبل كل عملية تفجير، ولقد اتت التجارب على الاخضر واليابس، وكانت بذلك اشد وطاة على سكان الجهة الجنوبية مخلفة آلاف العائلات في مناخ ملوث بالإشعاعات[44]. كما يلفت منصوري الى ان قوة القصف النووي بلغت آنذاك 30كيلو

طن، ورغم انقضاء عشرات السنين على تلك التجارب النووية، الا أن قطر المنطقة المحيطة، لا يزال مشعا بصفة حادة ما دفع السلطات لحظر الدخول اليها، كما ان المساحات التي استهدفها الاشعاع كانت شاسعة واكبر من المتوقع ومتداخلة التاثيرات، في صورة ما اكدته ابحاث بشان مادة البلوتونيوم الاكثر تسميما وتلويثا، وما يتصل بانتشار امراض العيون وتراجع الولادات وعقم الاشجار جراء الاشعاعات التي ستبقى تاثيراتها لوقت طويل ويمكنها ان تنتقل الى اجيال قادمة.

من جهته، كشف المدير السابق للمحافظة الفرنسية للطاقة الذرية، البروفيسور "ايف روكارد" في مذكراته ان:" كل الاجراءات التي كنا نامل تطبيقها في اللحظة صفر فيما يتعلق بقنبلة 13 فيفري 1960 المسماة بـ"اليربوع الازرق"، باءت بالفشل..... سحابة مشحونة بعناصر مشعة نتجت عن هذه التجربة الاولى وصلت الى غاية نيامي وكان نشاطها الاشعاعي اكثر بـــ 100000 مرة من معدلها، وتم تسجيل تساقط امطار سوداء في 16 فيفري بجنوب البرتغال، ثم في اليوم الموالي في اليابان، هذه الامطار كانت تحمل نشاطا اشعاعيا اكبر بـــ 29 مرة من معدلها".[45]

ويؤكد الباحث الفرنسي المتخصص في التجارب النووية الفرنسية، برينو باريلو ان سلطات الاستعمار الفرنسية استخدمت 42 الف جزائري بينهم اسرى من جيش التحرير الجزائري " فئران تجارب" في تفجيرات متعددة في عام 1960 ما يمثل اقسى صورة للإبادة والهمجية، ويعض هذه المقولة تصرح غاستون موريزو، احد قدماء الجنود الفرنسيين الذي كان حاضرا بموقع تفجير اول قنبلة نووية فرنسية في الصحراء الجزائرية بتاريخ13 فيفري 1960 قائلا، " لقد استعملنا سكان المنطقة كفئران مخابر خلال اولى التجارب النووية الفرنسية برقان"[46] هذا فضلا عن مخاطر بيئية تمتد لمساحة 600 كلم مربع، فيما تسببت النفايات وبقايا التفجير في ابادة 60الف جزائري بين 1960 الى 1966، ومن أخطر ما كشف عنه ان فرنسا استعملت الجزائريين في التجارب النووية دون ان تقوم اصلا بأرشفة أو حفظ هويات الضحايا، خارقة بذلك كل قواعد الحرب وحقوق الإنسان، وبالتالي لم يعد امام السلطات حاليا اي امكانية للتعرف على الكثير من الضحايا. كما ان الجيش الفرنسي غادر قواعده في صحراء تاركا آلاف الأطنان والمعدات المشعة تحت الرمال لتقضي على الإنسان والحيوان والبيئة وآثارها ستمتد لعدة قرون أخرى.[47]

وفي هذا الإطار يقول أحد الضحايا الفرنسيين هو اليوم متقاعد، [48]" :كنت برقان سنة 1962 بوحدة النقل للاتصالات ومقارنة بكل ما شاهدته وما اعلمه اليوم، اجد انهم سخروا منا نحن الجنود البسطاء، وهذا ما يجعلني أشعر بمرارة شديدة اتجاه فرنسا[49]".

الخاتمة:

ان الجرائم الفرنسية المرتكبة ضد الشعب الجزائري وارضه ومياهه. جرائم لن ينساها التاريخ العالمي ولا الجغرافيا، لا الزمان ولا المكان، وتبقى فرنسا وحدها تتحمل هذه المسؤولية، ان قوانينها المفبركة من اجل تعويض ضحايا هذه الجريمة ما هو الا صوت سياسي، ومعركة لربح الوقت، فالتاريخ لا ينس يا فرنسا، فكل ضحية تظهر من جديد هي اعتراف بان هناك جريمة ارتكبت على هذه الارض الطاهرة.

الهوامش:

1- جريدة (لا ديباش دي كونستنتين)، 18مايو، 1945. ص.

2- رافائيلا برانش،التعذيب وممارسات الجيش الفرنسي اثناء ثورة التحرير الجزائرية،، سلسلة المترجمات، امدوكال للنشر :2010تر: احمد بن محمد بكلي، 55-56.

3- بيير هنري سيمون: ضد التعذيب في الجزائر، دار العلم للملايين،بيروت، 1957، ص 51.

4- بوعلام نجادي: المرجع السابق، الصفحة 151.

5- بيير هنري سيمون: المرجع السابق، ص 21.

6- نصر الله فريد: المرجع السابق، ص 46.

7-يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 192.

8منظمة المجاهدين،تاريخ الجزائر"1962/1830"قرص مضغوط.

9- محمد الطاهر عزوي، ذكريات المعتقلين، المصدر السابق، ص 216.

10 - حالة الطوارئ،حالة استثنائية تفرض خلالها إجراءات وقوانين صارمة قصد التحكم في الوضع الطارئ.، ثم فرضها بأمر من الوزير المقيم جاك سوستال في مارس 1955في محاولة للحد من نشاط الثورة [أخذت من رسالة الماجيستر لبلقاسم صحراوي،معتقل قصر الطير،1962،1956][رسالة الماجيستر].معهد الآداب والعلوم الاجتماعية.جامعة باتنة،2006، 2005م.ص.142

11- كمال بيرم،"المعتقلات ومراكز التجمع لمنطقة المسيلة" مداخلة ألقيت في الملتقى الدولي الأول حول الثورة [1954-1962]جامعة باتنة 4-5 ديسمبر.ص.123

12-بلقاسم صحراوي،معتقل قصر الطير [1956-1962] رسالة الماجيستر معهد العلوم والآداب والعلوم الاجتماعية،جامعة باتنة 2006-2005.ص.154.

13- التقرير الجهوي لولايات الجنوب المقدم إلى الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، الترحيل الجماعي وتهديم القرى والمداشر"السجون المدنية العسكرية"،الجزء الأول،المجلد الثاني،قصر الأمم من 8الى 10ماي 1984، ص 226.

14- الجنيدي خليفة، حوار حول الثورة، طبع المؤسسة الوطنية للرعاية، (د ب)، (د ط)، 1986، ج3، ص88 .

15- محمود مجاود، "سياسة التعذيب الاستعمارية إبان الثورة التحريرية وتداعيتها المعاصرة"، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، 2006، ص 108.

16- جمال قندل، خطا شال وموريس وتأثيراتهما على الثورة الجزائرية 1957-1962، دار سيدي الخير للكتاب الجزائري،2009،ص،102.

17- الطيب بن نادر، الجزائر منارة التاريخ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008 ص 185.

18- جمال قندل، المرجع السابق ص144.

19- نفس المرجع السابق،يوسف مناصرية، ص 176.

20- التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1945، الجزائر، 1998، ص ص 21-22.

21- المرجع نفسه، ص 21-22.

22-التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1945، الجزائر، 1998، ص ص: 21-22.

23- المرجع نفسه، ص ص: 22-23.

24- أنظر ما اوردناه في كتابنا: مقالتي عبد اله وآخرون: الثورة التحريرية في أقاليم توات، منشورات مديرية المجاهدين لولاية أدرار، ص ص 105-106.

25-انظر ما اوردناه في كتابنا: مقلاتي عبد الاله واخرون: الثورة التحريرية في اقاليم توات، منشورات مديرية المجاهدين لولاية ادرار، ص 105، 106.

26- جريدة المجاهد 18 فيفري 1960، ص 5.

27- انظر شهادة الشاي قويدر ومناني محمد اللذين حضرا التفجير الاول وعملا في تهيئة قاعدة رقان في: التجارب النووية الفرنسية، مرجع سابق، ص 201.

28-أنظر الطيب ديهكال: بلدية عين مقل واقع التجارب النووية الفرنسية وخلفياتها في منطقة عين ايكر، مطبوعات وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، 2004،ص ص 91-93.

29- انظر الطيب ديهكال: بلدية عين مقل واقع التجارب النووية الفرنسية وخلفياتها في منطقة عين ايكر، مطبوعات وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، 2004، ص-ص، 91،93.

30-نفس المرجع، ص 95.

31- اعتمدنا في نقل هذه الشهادة على ما قراته ارملة الجند فرانسيس باردو السيدة سيلفيتياردو من مذكرات زوجها وقد ادلت بذلك في "شريط وثائقي" حول التجارب النووية الفرنسية بالصحراء الجزائرية وهو تحت عنوان 1996 وقد Les apprentis sorcier وقد اخرجه andre gazut.

32 - pierre messmer , les apprentis sorciers, opcit.

33-عبد القادر فكاير، التفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر والمواقف الوطنية منها، مجلة المصادر، ع 15.

34-المرجع نفسه، مجلة المصادر، ع 15.

- المرجع السابق، عبد القادر فكاير، مجلة المصادر، ع .15 35

36 Les apprentis sorciers , op.cit.

37- حول التجارب النووية الفرنسية وقوتها وتواريخها برقان وعين ايكر من 1960-1966 انظر الجدول المرفق في كتاب التجارب النووية- مرجع سابق، ص 40.

38- تبعد قرية الحمودية مسافة 65كم عم مدينة رقان والتي بدورها تبعد مسافة 150كم عن مقر ولاية أدرار.

39- تبعد قرية الهقار مسافة 150كم عن مقر ولاية تمنراست.

40- ا/كامل الشيرازي: التجارب النووية بالصحراء الجزائرية، مقال نشر على الموقع: www.hazemsakeek.com بتاريخ 2012/01/06.

41- مليكة أيت عميرات،" التجارب النووية بالصحراء الانعكاسات الصحية والبيئية "، مجلة الجيش، العدد 533، ديسمبر2007، وزارة الدفاع الجزائرية، ص: 30.

42- ا/ مليكة ايت عميرات: مرجع سابق، ص:30.

43- أطلقت هذه التسميات بهذا الترتيب كناية عن الألوان في العلم الفرنسي.

44- نقل بتصرف انظر: ا/ كامل الشيرازي: التجارب النووية بالصحراء الجزائرية، مقال نشر على الموقع: www.hazemsakeek.com بتاريخ: 2012/01/06.

45- ا/مليكة آيت عميرات: مرجع سابق، ص: 30.

46- شكلت هذه الشهادة المؤلمة موضوع فيلم وثائقي طويل بعنوان "اليربوع الازرق" للمخرج جمال وهاب الذي عرض "لأول مرة " مساء يوم الاثنين 2009/08/03 بباريس بحضور جمهور غفير من بينهم العديد من البرلمانيين الفرنسيين.

47- رياض معزوزي: الاشعاعت النووية الفرنسية في الجزائر ستؤثر على البيئة الى ما بعد 24الف سنة قادمة المجلة العلمية أهرام- الجزائر، بتاريخ، 2012/01/07 على الموقع: www.ahramag.com

48- جلولي بن جلول: الذكرى الـ51 لتفجيرات رقان بشاعة مستعمر، جريدة الجمهورية، الجزائر، على الموقع بتاريخ: 2012/01/07، www.eldjoumhouria.dz.

49- الموقع نفسه.

الهيئة التنفيذية المؤقتة في مواجهة مشكل منظمة الجيش السري (OAS) بالجزائر (مارس-جوان 1962)

الدكتورة حمري ليلى، جامعة تيارت

الملخص:

عندما انتهت المفاوضات الجزائرية الفرنسية في مارس 1962 توجت مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية باتفاقيات سميت اتفاقيات ايفيان، وقد تقرر خلالها طريقة تسيير الجزائر في المرحلة الانتقالية من 19 مارس إلى غاية إجراء الاستفتاء وتكوين أول حكومة جزائرية رسمية، بحيث أسندت مهمة تسيير الجزائر إلى هيئة تنفيذية ترأسها فارس عبد الرحمان وعين فيها مجموعة من الشخصيات الجزائرية والفرنسية.

ونظرا لصعوبة المرحلة وكثرة مشاكلها دخل أعضاء الهيئة في حوار مع منظمة الجيش السري في 18 ماي، وكان فارس من بادر بالحوار من جهة الجزائريين، وبرزت مجموعة من الأسماء الجزائرية والفرنسية في هذه الاتصالات التي انتهت باتفاق شفوي أوقفت بموجبه منظمة الجيش السري عمليات التخريب والتدمير في الجزائر خاصة العاصمة. وفي الأخير كانت لهذا الاتفاق انعكاسات ونتائج سلبية خصوصا على الشخصيات الجزائرية التي شجعت حدوثه.

الملخص بالإنجليزية:

When the negotiations Algerian- Frensh ended in march 1962, They resulted an ageements named the Evian agreements, and the negociators decided to establishing a temporary executive for guarantee the passage of Algeria frome revolution period to independence periode and the negotiators designed Fares Abderrahmane the president with many personalities Algerian and French.

The period was complicated because of problems, for this the members of temporary executive enter in communications with Organization of secret army(OAS) on may 18th , and Fares was the first which participe in the conversations which resulting in a verbal agreement, so that the killing and destruction stopped in the capital of Algeria.

Finally the agreement has had a many reflections especially towards Algerian personalities which encouraged the conversations.

مقدمة:

اندلعت الثورة التحريرية في نوفمبر 1954 فصنعت مسارا جديدا للأحداث والتاريخ الجزائري عموما وأفرزت أسماء كثيرة ساهمت بأدوار مهمة لصالح إنهاء المأساة الجزائرية مثل مرحلة ما بعد وقف إطلاق النار التي تعتبر فترة حاسمة وحساسة من تاريخ الثورة بسبب المشاكل التي خلفتها الحقبة الاستعمارية، فظهر رجال تمكنوا من اجتيازها ومواجهة مشاكلها بكل شجاعة خصوصا ما تعلق بمشكلة منظمة الجيش السري، فمن هم الرجال الذين برزوا في هذه الفترة؟ وما هو الدور الذي قاموا به لمواجهة منظمة الجيش السري؟

1- تعيين الهيئة التنفيذية المؤقتة وبداية مواجهتها للمشاكل:

وصلت المفاوضات إلى مرحلتها الأخيرة مع بداية 1962 بعد أن باءت اللقاءات السابقة بالفشل بسبب تباعد وجهات النظر والاختلاف حول قضايا أساسية طرحها الطرفان الفرنسي والجزائري ولكن في مفاوضات ايفيان الثانية مارس 1962، وخرج الطرفان باتفاقيات ثنائية وشملت هذه الأخيرة عدة مواضيع أهمها: هيئة تنفيذية مؤقتة وقف إطلاق النار- إنشاء هيئة تنفيذية مؤقتة لتسيير الجزائر- استفتاء تقرير المصير- تسوية المسائل العسكرية- الضمانات الخاصة للأوروبيين المقيمين بالجزائر- التعاون الاقتصادي والمالي والتقني واستغلال ثروات الصحراء وقد رتبت الاتفاقيات على شكل مواد داخل أبواب وفصول.

بالنسبة للهيئة التنفيذية المؤقتة فقد وردت في الفصل الأول من الإقرار العام تحت عنوان تنظيم السلطات العامة خلال المرحلة الانتقالية وضمانات استفتاء تقرير المصير وهي مكلفة بما يلي:

- ضمان تسيير الشؤون العمومية الجزائرية.

- تسيير الإدارة الجزائرية وإلحاق جزائريين بوظائف في مختلف الفروع الإدارية –الحفاظ على الأمن العام بواسطة مصالح الشرطة وقوة حفظ الأمن تكون تابعة لسلطتها.

- تحضير وإجراء استفتاء تقرير المصير.

- وتقوم الهيئة بتنفيذ أولى القرارات في المجال الاجتماعي والاقتصادي وغيرها وهذا لكي يعود الشعب الجزائري إلى حياته العادية، كما عليها ان تطلب بعد شهرين من تعيينها والتحاقها بمكان عملها، تحديد تاريخ الاستفتاء[1].

وبالتالي فإن المهمة التي كلفت بها الهيئة التنفيذية المؤقتة حسب الاتفاقيات هي تسيير شؤون الجزائر قبل الاستفتاء ثم تسليم كل السلطات لأول حكومة جزائرية رسمية. كانت تشكيلة الهيئة التنفيذية المؤقتة كالآتي:

-الرئيس: فارس عبد الرحمان

-النائب: روجي روث (Roger Roth)

-مسئول الشؤون العامة: مصطفاي شوقي

- مسئول الشؤون الاقتصادية: بلعيد عبد السلام

- مسئول الزراعة: الشيخ محمد

- مسئول الشؤون الإدارية: شنتوف عبد الرزاق

- مسؤول النظام العام: الحصار عبد القادر

- مسئول الشؤون الاجتماعية: بومدين حميدو

- مسئول الشؤون الثقافية: البيوض محمد

- مسئول البريد:تفتيفة محمود

- مسئول الشؤون المالية: جون مانوني (Jean Mannoni)

- مسئول الأشغال العمومية: شارل كوينغ (Charles Koenig)[2].

بمجرد وصول فارس رئيس الهيئة التنفيذية إلى مقر الهيئة روشي نوار-بومرداس حاليا-توجه بخطاب إلى الجزائريين والفرنسيين ونفس الشيء قام به المفوض السامي كريستيان فوشي (Christian Fouchet)، وهذا أظهر النظرة المشتركة لديهما وتكررت مظاهر التفاهم والانسجام في عمل الهيئة والمفوضية السامية من أجل الوصول إلى نتيجة مشتركة.

فمجموع المشاكل التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة كانت أخطر وأصعب من أن تتمكن الهيئة من حلها منفردة داخل المدن، في المناطق الريفية وعلى الحدود، وقد عبر رئيس الهيئة فارس عن قلقه من الصعوبات التي اعترضت الهيئة وذكر أن وضعية 130 سنة لا يمكن تغييرها في مدة قصيرة [3].

الأمر الذي استدعى تضافر جهود كل الهيئات المسئولة آنذاك: الهيئة التنفيذية المؤقتة، المفوضية السامية، القيادة العامة بروشي نوار، السلطات المحلية ومسئولي المناطق، وكانت الحكومة الجزائرية المؤقتة على علم بما يجري، نفس الشيء بالنسبة للحكومة الفرنسية عن طريق المفوض السامي.

ومن المهام التي كلف بها أعضاء الهيئة التنفيذية هي تحضير مخطط استعجالي من طرف حميدو بومدين بمساعدة المصالح الفلاحية لإرسال المساعدات الأولية من أغذية وأدوية للاجئين الجزائريين العائدين وقام مصطفاي شوقي بمراقبة الإدارة وضمان الاتصالات المباشرة مع مسئولي كل ولاية ونظم فارس ونائبه روجي روث الاتصالات مع الأوروبيين الغرف الثلاث الخاصة بالنظام في مدينة الجزائر، وهران وقسنطينة أما عبد السلام بلعيد وبن تفتيفة والحصار عبد القادر فتكفلوا بتنظيم السلطة المحلية، شبكات المعلومات والحصول من الحكومة المؤقتة على أمر إرسال أعضاء من فدرالية جبهة التحرير بفرنسا لدعم مفوضيات الشرطة خاصة في العاصمة[4].

لقد كانت الحاجة كبيرة إلى شغل الفراغ الذي أحدثه مغادرة الموظفين الأوروبيين وتردد بعضهم إما خوفا من منظمة الجيش السري أو تضامنا معها، لهذا كان تصور رئيس الهيئة وآخرون معه أبعد من الالتحاق بالوظيفة فقد كان في إرجاع الثقة للأوروبيين وطرح فكرة التفاهم والمصالحة مع الجزائريين لحل المشكل نهائيا فاستغل أكثر من مناسبة لطرح الفكرة على الفئتين لكن دون جدوى[5].

بالرغم من تعهد الفرنسيين للجزائريين في نهاية مفاوضات إيفيان بالقضاء على المنظمة إلا ان العمليات استمرت على اعتبار أن السبب من وجودها كان الوقوف ضد منح الاستقلال للجزائر ومعارضة سياسة دوغول (Charles De Gaulle) تجاه القضية الجزائرية وحماية مصالح الأوروبيين وبقائهم في الجزائر وهذا الموقف ظهر منذ الانقلاب الفاشل للضباط العسكريين الفرنسيين بالجزائر على السلطة في فرنسا يوم 22 أفريل 1961 وقبلها بشهور تأسست منظمة الجيش السري في 11 فيفري 1961.

ولم يؤثر حدث تأسيس المنظمة على تطور القضية الجزائرية لذلك كان قرار وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 دافعا لتكثيف هذه العمليات وانتهاج سياسة الأرض المحروقة بالتدمير والتقتيل الطي شمل كل الأماكن حتى المستشفيات خلال شهور مارس، أفريل وماي وفق خطة إما الاعتراف بالمنظمة أو تدمير كل شيء قبل رحيل الأوروبيين-الأرجل السوداء[6]-.

كانت مساعي رئيس الهيئة فارس من أجل التعقل وإقرار الأمن بهدف تجنب أي مواجهة قد تقع بين الجزائريين ومنظمة الجيش السري لكن الرائد عز الدين-رابح زراري- قرر يوم 14 ماي الرد على عملياتها فخطط ونفذ عمليات على مستوى 17 منطقة على حدود الأحياء التي يقطنها الأوروبيون داخل مدينة الجزائر نتج عنها سقوط عدة قتلى وجرحى معظمهم من الأوروبيين فانعكس عن العملية ردود أفعال بشعة من طرف المنظمة حيث سجلت عملية اغتيال كل 10 دقائق[7].

عارض مسئولو الولايات والحكومة المؤقتة الجزائرية قرار عزالدين لأنها كانت تدرك صعوبة الوضع، نفس الشيء بالنسبة لفارس فقد توجه في ثاني يوم من العملية إلى مقر قيادة منطقة الجزائر المستقلة (ZZA) عبر عن غضبه من تصرف مسئوليها ووصفه بالمغامرة [8].

وحقق الرائد عزالدين من هذه العملية نتيجة وهي الاستجابة لبعض المطالب التي قدمها إلى الهيئة التنفيذية والمفوضية السامية بخصوص إطلاق سراح بعض المناضلين الذين قبض عليهم في عملية تفتيش واقتراح لقاء يجمع مسئولي العاصمة، السلطات المحلية، مفوض الشرطة والقائد العام بالعاصمة من أجل دراسة جميع المشاكل الموجودة على مستوى العاصمة [9].

2- رئيس الهيئة التنفيذية يدخل في حوار مع منظمة الجيش السري:

جرى اتصال بين أعضاء المنظمة والجزائريين من الهيئة التنفيذية وجمع في البداية جون جاك سوزيني (Jean-Jacques Susini) وهو من المدافعين عن فكرة الجزائر الفرنسية وشارك في انقلاب 13 ماي 1958 ثم انقلاب 22 أفريل 1961 كما شارك في تأسيس منظمة الجيش السري لذلك أصبح المسئول عن النشاط السياسي والنفسي داخل المنظمة ثم مسئولا عليها بعد ألقاء القبض على صالان- المسئول السابق للمنظمة- واجتمعت عدة أسباب وراء فتح الحوار [10] مع فارس لأنه كان الخيار الثالث للمنظمة بعد تجريب خيار الإبقاء على الجزائر فرنسية ثم خيار تطبيق سياسة الأرض المحروقة التي تسببت في الأذى للجميع[11].

فبعد الإعلان عن وقف إطلاق النار تغيرت الظروف لغير صالح المنظمة فهي لم تكن طرفا في المفاوضات الأخيرة ولن تكون كذلك في بناء الجزائر المستقلة كما يبدو من الأحداث وكل ما وقع من تخريب وتقتيل حسب ضدها فثقة الأرجل السوداء بها تراجعت وازدادت هجرتهم نحو فرنسا وبعد إدراكهم لفداحة ما ارتكبوه حاولوا التقرب من فارس وكريستيان فوشي كما ذكر الرائد عز الدين في كتابه [12].

بالإضافة لخسارة المنظمة لأهم مسئوليها بعد إلقاء القبض عليهم، مثل: صالان (Raoul Salan)وجوهو (Edmond Jouhaud) السبب الذي وضع سوزيني كأهم مسئول عليها آنذاك واتخاذه مبادرة إجراء الاتصالات لفتح الحوار مع جبهة التحرير، وهو أراد من وراء ذلك لعب دور مهم كرجل سياسة ومع تحيد تاريخ الاستفتاء قد تفوت الفرصة الأخيرة خاصة وأنه بدأ يسعى لضمان مكان لنفسه وللأرجل السوداء بالجزائر المستقلة كونه يختلف عن الضباط الفرنسيين لأنه أحد أفراد من الأرجل السوداء ولد ونشأ في الجزائر [13].

ووقع اختيار سوزيني على فارس لأسباب فإما رآه ممثلا للجبهة يمكن الدخول معه في حوار أو لأنه كان يعرف ميزاته [14] ليتحول اتجاهه ويضع أمامه مشروعه[15].

وبعث سوزيني لفارس شارل بوجار (Charles Baujard) واتفقت أغلب المراجع التي تناولت الفكرة على أن فارس قبل الاقتراح من أجل توقيف التقتيل ومصالحة الأوروبيين مع الجزائريين ومنع أي مواجهة بينهما ورأى بعضهم أنه فكر في مستقبله السياسي بالجزائر الناشئة[16].

هناك من وصف فارس في هذا الموقف بالتعقل والحكمة واستغلال كل مؤهلاته وجاذبيته ودبلوماسيته وحنكته السياسية التي اكتسبها خلال مراحل حياته السابقة لأجل مشروع الحوار وفكر حينها في إمكانية الحصول على موافقة جزء من الحكومة المؤقتة الجزائرية من بينهم عبد الحفيظ بوصوف وكريم بلقاسم[17]، في نفس الوقت استغلال سلطته على الولايات ومنطقة الجزائر المستقلة[18]، لأن هذا فعلا ما يحتاج إليه وما يتوقعه منه الطرف الآخر.

وتوجه فارس يوم 18 ماي إلى العلمة ظهرا مع سائقه فوجد سوزيني مع آخرين في انتظارهن وطال الحديث فشمل مواضيع كثيرة مثل العفو-الأوروبيون هم جزائريون-الاستقلال-الهيئة الموحدة-الإصلاح الفلاحي-أنصار المنظمة هم ثوريون ويطالبون بالضمانات والمشاركة في السلطة وكذا مصالح الشرطة[19].

وفي مذكراته قال أن الضمانات المطلوبة من طرف سوزيني هي موجودة في اتفاقيات إيفيان التي وافق عليها الفرنسيون عن طريق الاستفتاء الشعبي ونفس الشيء بالنسبة لمسئولي جبهة التحرير، لهذا لا جدوى من الصراع لأن أعمال المنظمة التخريبية لن تمنع إجراء الاستفتاء.

وتعرض الحديث إلى مسألة التمثيل فمن جانب سوزيني أكد أنه يمثل المنظمة فطلب منه فارس إصدار أمر بوقف إطلاق النار وطمأنه بقرب إطلاع الجبهة على اللقاء ومضمونه، كما حاول شرح سلطته على جزء هام من الجزائر بفضل علاقته الحسنة مع مسئولي الولاية الثالثة، الرابعة ومنطقة الجزائر المستقلة وتدخله في حل مشكلة العناصر المصالية التي أرادت تسليم نفسها خلال تلك الأيام، وبأنه يلقى الدعم من الجبهة بذكر عدة شخصيات معروفة فبدا كلام فارس حينها مراوغا، لكن سوزيني كان في حاجة لأن يصدقه ويشعر بالرضا من أجل إخراج المنظمة من المأزق[20].

وتم تحرير نص مشترك تضمن نقاط منها: مشروع العفو عن كل عناصر المنظمة مشاركة الأوروبيين في السلطة المحلية، تنظيم مختلط للشرطة بين الجزائريين والأوروبيين وكذلك الإدارة بالعاصمة ووهران. وانتهى اللقاء بالاتفاق على أن يظل سريا.

واتصل سوزيني بفارس وأبلغه بوجود متفجرات في إحدى البنايات بروشي نوار واعترف بالجمهورية الجزائرية[21]. وحاول الأخير الاتصال بمسئولي الجبهة في تونس وكلف أحدهم بإيصاله إلى سعد دحلب، لكن هذا الأخير وجد أعضاء قيادة الجبهة في طرابلس لعقد المؤتمر السادس للمجلس الوطني للثورة[22]، واستغل فارس الفرصة في محاولة نشر فكرة الحوار بين الأوروبيين والجزائريين خصوصا من يعرفون لغة المسدس بمساعدة الصحفي ألان جاكوب (Alain Jacob) الذي وصف الفكرة بالغريبة وصعبة التحقيق[23].

ومع ذلك لم يخبر زملائه في الهيئة التنفيذية على الخصوص مصطفاي شوقي الذي عينه بن يوسف بن خدة ممثلا للجبهة داخل الهيئة، فهو حاول الإيصال مباشرة بتونس وطرح فكرة التحاور على شكل اقتراح ليعرف ردود الأفعال المختلفة ويعود سبب التكتم إلى الطابع السياسي للمسألة التي أقحم نفسه فيها، وهذا الدور لم يخول للهيئة حسب اتفاقيات إيفيان بالإضافة إلى طلب شوقي مصطفاي من البداية إبعاد الهيئة عن أي مشكلة سياسية، وبالتالي فمجرد طرح القضية كان سيخلق سوء تفاهم بينهما، وهذا ما أكدته شهادة مصطفاي حيث قال: لو أن فارس استشار أعضاء الهيئة لتغير مجرى الأحداث[24].

مرت أيام ولم يحدث شيء، ولمعرفة كل طرف في الحوار ما ينوي الآخر القيام به تواجدت على الساحة وساطة تمثلت في جاك شوفاليي (Jacques Chevalier) وجون ماري تيني (J M Tiné)[25]. وسعى تيني وكريستيان فوشي لنفس الغرض بتوجههما إلى باريس يوم 22 ماي وأخذ موافقة الحكومة، وانظم إليهما شوفاليي، وقدم دوغول توصياته لفوشي بتدخل شوفاليي وتسهيل مهمة فارس، لكن بشرط أن لا تظهر الحكومة الفرنسية في الصورة[26].

بعدها التقى شوفاليي وتيني بسوزيني يوم 26 ماي وطلب منه الأول التفاهم مع الجزائريين وعدم الاهتمام بأمر الضباط الفرنسيين، فأعلن سوزيني عبر الإذاعة بعد هذا اللقاء عن فكرة الوطن الحقيقي الذي هو وطن الآباء ولا سلام إلا لمن يعتبرون إفريقيا وطنا حقيقيا لهم فعليهم أن يتفاهموا ويجعلوا الجزائر القوة الأولى في إفريقيا[27]. وما تم تجاهله أن مقاليد الأمور لم تعد في يد الأرجل السوداء بل في يد قيادة جبهة التحرير التي كانت منشغلة في جلسات مؤتمر طرابلس من أجل رسم صورة الجزائر بعد الاستقلال، فتبقى أفكار شوفاليي التي تبناها سوزيني مجرد أحلام وكلام عابر ليس له تأثير.

ثم التقى شوفاليي بفارس وعرف نتيجة الاتصال الأول مع مسئولي الجبهة في تونس وأحضر له نصا للإطلاع عليه[28]، لكن فارس رفض وأكد على ما اتفق عليه في ايفيان كمرجع أساسي لذا فوجود تصريح شفوي يكون كافيا للاتفاق وتمسك باتفاقيات أيفيان لأنه حتى ذلك الوقت لم يحظ بموافقة الجبهة وأكد لمحدثيه أنه يضمن الدعم والمساندة كما أظهر اعتماده على وساطتهما للوصول إلى نتيجة، فاقتنع شوفاليي وتيني بكلامه لأن حججه بدت دقيقة ومقنعة[29].

كان نص الاقتراحات الذي تم تحضيره بعيدا عن الواقع الذي يفرض نفسه على الجميع، وأهم ما جاء فيه: وجود نظام يتضمن مجلسين مستقلين–منع وجود الحزب الشيوعي الجزائري بمعنى بقاء الجزائر في المعسكر الغربي الليبرالي–لغتان رسميتان، وهما: العربية والفرنسية–تشكيل وحدات عسكرية أروبية–تأخير تاريخ الاستفتاء وتأسيس مجلس وطني يضم أعضاء من الحكومة المؤقتة وثلاثة من المنظمة. في المقابل حضر فارس نصا أكثر موضوعية وتطابقا مع اتفاقيات ايفيان لأنه من غير المسموح الخروج عن إطارها، ووضح أن الجبهة سترفض وجود قوة عسكرية قد لا تسيطر عليها، ورفض كذلك تشكيل مجلس وطني، أما باقي المقترحات فتكيف حسب اتفاقيات ايفيان[30].

بعد اطلاع سوزيني على نص فارس بدا له ذلك كتراجع عما صدر منه خلال لقاء العلمة فنعته بشتى الأوصاف غي اللائقة، خصوصا وأسمع تكذيب مصطفاي لوجود اتصال بين المنظمة والجبهة، وأن هذه الأخيرة ترفض أي محاولة لفعل ذلك، نفس الشيء قام به فارس، السبب الذي أثار غضب سوزيني، وتصريحات مصطفاي التي جاءت بعد انتشار خبر الاتصالات عبر إرسال إذاعي للمنظمة إيميسو بيرات (Emission pirate) يوم 28 ماي وعبر الصحافة يومي 30 و31 ماي في جريدة

لوموند (Le monde) وضعت فارس في موقف حرج اضطره للتكذيب والإنكار بسبب عدم وجود تفويض من الجبهة وجهل باقي أعضاء الهيئة التنفيذية لهذه الاتصالات ولمحاولة الحفاظ على سرية اللقاءات حتى لا تنقطع، وبالرغم من ذلك قال لشوفاليي أنه سيتم الاتفاق قبل 3 جوان[31].

فعلى اي أساس وعد رئيس الهيئة بذلك؟ وهل التزم بوعده؟ في الوقت الذي تأكد فيه رفض ممثل الجبهة مصطفاي شوقي للحوار وبشكل علني.

في يوم 31 ماي أعلن عن هدنة بأمر من سوزيني فبقي على فارس الخروج بنتيجة خلال اللقاء الثاني الذي تحدد يوم 01 جوان في البرج–مقر إقامة شوفاليي–وأبرز من حضره فارس من الهيئة وسوزيني وغارد (Gardes) من المنظمة وشوفاليي وتيني كوسيطين، ووضع فارس أمام الجميع اقتراحاته، وذكر في كتابه أن المحادثات كانت طويلة ومضطربة حول نفس المواضيع وما استجد هو اقتراح غارد حول العلم، فرفض فارس الفكرة لأن أي دولة مستقلة في رأيه تملك علما واحدا[32].

وافترق المجتمعون على أساس موافقة الطرفين على وثيقة فارس المنسوخة عن اتفاقيات ايفيان مع ثلاث نقاط جديدة، وهي: العفو عن جميع الأعمال الرتكبة قبل يوم الاستفتاء، إدماج الوحدات الأوروبية في قوات حفظ الأمن وتوسيع الضمانات الممنوحة للأوروبيين، وأهم قرار خرج به هو تمديد الهدنة إلى 02 جوان، ووصف اللقاء بالإيجابي [33].

إذا أهم النتائج المحققة في هذه الجولة هو إقناع سوزيني بالعدول عن نصه المقترح وكذلك الحصول على هدنة مؤقتة في انتظار رد قيادة جبهة التحرير الوطني من تونس.

وفي الغد استدعي فارس من طرف مصطفاي شوقي لعقد اجتماع عاجل فغرف حينها أن شوفاليي قد أخبره باتصالاته مع سوزيني، وخلال الاجتماع سأله عن موضوع الاتصالات الموجودة وسفر مبعوثه– واسمه بوطالب[34]– إلى تونس، فأعلمه بلقائه مع سوزيني بصفة رئيس الهيئة متحملا كل المسئولية في ذلك لأن الهدف من ورائها هو مصلحة البلاد، فتعرض للوم وغضب مصطفاي، وحسب رواية عبد السلام بلعيد فإن مصطفاي لام فارس لأنه تجاوزهم وأقحمهم في قضية سياسية، ولأن رد

قيادة الجبهة في تونس عاد برفض كل ما عرض عليهم من طرف مسئولي المنظمة، أصبح من واجبه التصرف منفردا مع المنظمة.

ما يلاحظ عن الاجتماع هو الاختلاف في تحديد تاريخه والأشخاص الذين حضروه، فكتاب Les accords d'Evian لرضا مالك ذكر وقوعه قبل لقاء فارس الثاني مع أعضاء المنظمة، والأخذ بهذا الرأي يعني أن مصطفاي علم باتصالات فارس قبل 01 جوان الأمر الذي أكده عبد السلام بلعيد، وبالتالي فإن التكذيب الذي حدث لم يكن مع جهل تام بالموضوع "...فيظهر مصطفاي ليكذب الخبر خاصة بعد اعتراض الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية..." فهو كان يعلم بأمر الرسالة التي بعثها فارس إلى تونس عن طريق عبد السلام بلعيد الذي كان في تونس وعاد بالخبر والرد معا، فكان رد فعل مصطفاي هو إرجاء كل شيء لحين انعقاد اجتماع أعضاء الهيئة وولم يشر إلى التاريخ.

وذكر كتاب رضا مالك وقوع الأحداث في أفريل وماي وأن عبد السلام بلعيد هو الذي حمل الرسالة من فارس إلى بن يوسف بن خدة ورجع بارد إلى مصطفاي، وأثناء الاجتماع وضح مصطفاي لفارس رفض الحكومة المؤقتة وأكد على توقيف اتصالاته مع سوزيني، لكن فارس عاود الكرة سرا فأخبر الوسيطين شوفاليي وتيني مصطفاي بالأمر، وكأن فارس هنا تحدى زملاءه والحكومة المؤقتة وتجاهل ردود أفعالهم.

وضمن كتاب L'accord FLN- OAS لفرناند كريراس (Fernand Carreras) ورد سير الأحداث بشكل غريب، حيث أنه خلال اجتماع أعضاء الهيئة اعترف فارس باتصالاته... وشعر شوفاليي وتيني أنهما وقعا في الفخ...ثم شاركا في لقاء 01 جوان الذي كان ناجحا إن صح التعبير، ففارس بعدما كان مترددا قبل اللقاء، تحدث بكل ارتياح بالرغم من تهديد سوزيني بعودة المنظمة إلى نشاطها،يضمن لهم مجيء سعد دحلب بتصريح من مسئولي الجبهة، وكل من بن يوسف بن خدة، امحمد يزيد وآخرون يشجعونه من أجل المواصلة، وكريم بلقاسم المتواجد بمنطقة القبائل حدثه عبر الهاتف حول ضرورة مشاركة الفئتين، وأكثر من ذلك فإنه يضمن العفو عن عناصر المنظمة، ولو تطلب الأمر لقاء شخصيا مع دوغول، وسانده في هذه الفكرة ياسف سعدي. وهذه الرواية تثبت أنه لم يكن يعرف رد الحكومة المؤقتة.

وعندما يتم تحديد لقاء آخر يوم 04 جوان لم يحضر، ووجده شوفاليي بصدد البحث عن مخرج سريع لالتزامات لا يستطيع الوفاء بها، وأخبره برفض الحكومة المؤقتة للحوار مع المنظمة، لكن بعد الحاج شوفاليي حضر يوم 05 جوان مساء كان سيترأس اجتماعا طارئا دعا إليه مصطفاي في الصباح، وكان لقاء 05 جوان فاشلا[35]. إذا من الروايات المراجع الثلاثة دون التطرق لشهادة فارس، يمكن استنتاج ما يلي:

- عبد السلام بلعيد أشار إلى اجتماع واحد دون ذكر التاريخ، حيث اعترف فيه فارس باتصالاته وعرف رفض الجميع لها.

- مصادر معلومات كتاب رضا مالك غير موجودة باستثناء لقائه مع شوقي مصطفاي يوم 15 ماي 1991 الذي ذكر له خبر تكذيبه للاتصالات على جريدة لوموند في أوائل أفريل لذا فروايته تبدو ضعيفة.

- ورد في كتاب فرناند كريراس ذكر اجتماعين: الأول في 29 ماي الذي اعترف فيه فارس باتصالاته وحضره شوفاليي وتيني، والثاني العاجل يوم 05 جوان صباحا الذي دعا لعقده مصطفاي، لكن معرفته برد الحكومة كان قبل هذا اليوم. ولوحظ من خلال حديث فارس أنه ضمن جانب أسماء معروفة في الجبهة، وظهر عليه الكثير من التفاؤل في الوقت الذي كان يعرف فيه رفض زملائه لهذه الاتصالات، فهل كان يعني هذا أنه تجاهلهم تماما؟ والغريب أنه ذكر وجود كريم بلقاسم في الجزائر في الوقت الذي أكدت فيه المراجع دخوله يوم 10 جوان وتوجهه بعدها إلى بلاد القبائل، وكلام فارس لو ورد على سبيل المراوغة فإنه لا يصل إلى درجة خلق الأحداث.

ومصادر كتاب كريراس اقتصرت على شهادة شوفاليي، والمتمعن في كل رواياته يجد أن الكاتب قدمه وكأنه الوحيد الذي حرص حينها على إنجاح المفاوضات وتمديد الهدنة وتحقيق السلم في الجزائر. طبعا هذا لا يعني التشكيك في كل معلومات الكتاب ولكن على الأقل توضع علامة الاستفهام أمام العديد منها.

فيكون من المرجح وقوع اجتماع أعضاء الهيئة التنفيذية بعد اللقاء الثاني الذي جمع فارس بأعضاء المنظمة، ومن غير المستبعد أن شوفاليي هو الذي أخبر مصطفاي باللقاء، وهذا الأخير كان يعلم بموضوع الاتصالات مسبقا، لذا طلب عقد اجتماع عاجل لأعضاء الهيئة، وخلاله أخبر فارس زملاءه بكل ما حدث، وفي المقابل أخبروه برد الحكومة على رسالته ورفضها للحوار مع المنظمة. فأصبح وحيدا بدون تمثيل وبمواجهة مسئولي المنظمة الذين كانوا ينتظرون تصريحا من الحكومة المؤقتة لعقد الاتفاق النهائي.

وبعد علم الجميع أصبح من الصعب على رئيس الهيئة المواصلة، فأصبح حينها في موقف حرج بسبب عدم قدرته على الوفاء بوعوده التي أصبحت مستحيلة، فحاول الإفلات منها بالتأكيد على العبارة التي ستطرح يوم الاستفتاء، لأنها المخرج الوحيد من جميع المشاكل، لكن سوزيني هدد وتوعد بعودة سياسة الأرض المحروقة التي حضر لها بتلغيم منشآت هامة أعلنت عنها المنظمة في إرسال لها عبر ايميسيو بيرات (Emission pirate) في نفس الليلة، وطلب منه ضمانات من أحد أعضاء الحكومة المؤقتة، كشرط لاستمرار الحوار[36]. وطرح اللقاء الثالث مشكل التمثيل الذي كان يفتقده رئيس الهيئة في جبهة التحرير الوطني.

وانفرد كتاب فرناند كريراس برواية تهديد سوزيني لفارس بكشف كل الاتفاقات الممضاة معه عبر الصحافة، وطلب أعضاء المنظمة من شوفاليي التوجه إلى تونس للاتصال بالحكومة المؤقتة، وكادت ممثلية تتكون من تيني، شوفاليي وفارس أن تتوجه إلى تونس بعد قبول الجبهة إستقبالها[37]

فأصبح دور مصطفاي هو الاتصال مجددا بأعضاء الحكومة المؤقتة ومحاولة إقناعهم بتغيير موقفهم حيال هذه المسألة، فعلق عبد السلام على ذلك بقوله أنه كان لابد على الحكومة من أخذ الوضعية التي فرضتها المنظمة بعين الاعتبار لتغيير أسلوبها محتجة بعدم تمكنها من السيطرة عليها، وخشية كذلك من حدوث مواجهة جيش التحرير الوطني للحكومة الفرنسية، وبهدف عدم إعطاء حجة للجيش الفرنسي للتدخل [38].

3– موقف جبهة التحرير الوطني من الحوار الجاري:

وفي يوم 07 جوان انقطعت الهدنة وطالت أعمال المنظمة المراكز العلمية والإدارية في نفس الوقت توجه كل من فارس، مصطفاي وبن تفتيفه إلى طرابلس، وأخبر فارس تيني وشوفاليي بأمر هذه الممثلية عند لقائهما في روشي نوار، وفسر كتاب L'accord FLN-OAS تصرف فارس بأنه تخوف من ذكر شوفاليي لمحادثاته مع سوزيني[39]. وعلى افتراض أن الرواية صحيحة، فكل ما تم هو ثلاثة لقاءات، اثنان انتهيا بعقد اتفاق لم يحصل بعد على موافقة الجبهة، وهذا ما كان يدركه مسئولو المنظمة جيدا، أما اللقاء الثالث والفاشل فقد أوصل الحوار إلى طريق مسدود بسبب غياب طرف يمثل الجبهة، يعني أنه لم يحصل ما يستدعي التخوف لأن ما حدث قد يفسر على سبيل المراوغة والمحافظة على استمرار الاتصال.

وفي طرابلس حيث كان ينعقد المؤتمر السادس للمجلس الوطني للثورة من 25 ماي حتى 07 جوان حاول الثلاثة الحصول على تصريح من الجبهة، هذه الأخيرة التي كان لديها الدافع لإزالة المنظمة من الجزائر خاصة وأن المفاوضين الفرنسيين في إيفيان حملوها مسؤولية هجرة الأوربيين الجماعية، بعدما وضعوا لهم كل الضمانات اللازمة[40]، فرفض مسئولوها أي اتصال بهم بعد إطلاعهم على رسالة فارس[41].

وقد تعرض المشاركون في المؤتمر للموضوع خلال جلسة 02 جوان واتخذوا قرار تحضير وثيقة سياسية توضيحية لكل عمليات المنظمة التخريبية وعرضها خلال انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة[42]، فكان الموقف جماعيا إتباعا لمبدأ قيادة الثورة، الأمر الذي أكده غادر لسوزيني عند تحليله لمسألة المفاوضات الجارية وإلى ما ستؤول إليه[43].

مسئولو العاصمة كما ذكر الرائد عز الدين لم يعطوا موافقتهم لفارس، فهو من وجهة نظره ليست لديه أي صلاحية من الجبهة، ونقده بشكل مباشر وتعرض لوضعه وأفكاره قبل الثورة كما نقد المحادثات التي كانت بينه وبين سوزيني[44].

فأصبح من الواضح أن مسئولي جبهة التحرير الوطني رفضوا هذه المحادثات، لكن الأحداث الواقعة آنذاك كانت تسير نحو اتجاه الاختلاف والتفرقة بسبب الانقسام الذي وقع أثناء جلسات المؤتمر وعدم

وجود التفاهم، مما أثر فيما بعد على مواقفهم اتجاه نفس المسألة.وبمجرد وصول الثلاثة وجدوا أن الحكومة المؤقتة قد انقسمت وفارس ذكر أنهم التقوا بمحمدي سعيد وبن بلة اللذين تفاجآ ونهاهم الأخير عن التورط في أي اتفاق كتابي، لكن بالإمكان وضع صيغة شفوية لذلك ووافقه محمدي السعيد في كلامه. وفي رواية أخرى التقوا أولا ببن بلة وخيضر الذين لم يقدما إجابة واضحة.

في نفس اليوم توجهت ممثلية الثلاثة إلى تونس لأن أغلبية أعضاء الحكومة المؤقتة تواجدوا بها، والتقى فارس ومصطفاي ببن خده بن يوسف الذي قال أنه ترك الباب مفتوحا، وهذا يتطابق تماما مع كلام فارس حيث ذكرهم أنهم في الميدان، وعليهم التصرف لما فيه مصلحة البلاد. أما كريم بلقاسم فقد كان ضد فكرة استمرار المجازر، وحدثت مساء 08 جوان موافقة كل من عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال لأنهما كانا من رأي كريم بلقاسم، بوضياف هو الآخر كان من المؤيدين[45]. تعرضوا لمقترحات المنظمة خلال الحديث عن الوضعية المأساوية التي فرضتها المنظمة[46] وعين بن خده بن يوسف مصطفاي كممثل الجبهة للتفاوض، وبعث كريم بلقاسم مع المجموعة لتقديم الدعم لها.

فباستثناء بن خدة الذي صرح شخصيا عن موقفه، ودخول كريم بلقاسم مع الممثلية إلى الجزائر من أجل دعمها، فانه لم تتأكد الموافقة بشكل قطعي عند البقية، ولكن هذا لا يمنع التعرض لها. فلماذا هذا التغيير في المواقف عند بعض أعضاء الحكومة المؤقتة؟

في هذه الحالة يمكن وضع بعض الأسباب المفترضة، كإيقاف المجازر، واسترجاع الأمن في المدن، وإجراء الاستفتاء في ظروف مستقرة وهي ضمن الدوافع التي أقحمت فارس ثم مصطفاي في الحوار، أو ربما كما قال غارد في تحليله لسوزيني على أنه سيكون اتفاق مع مصطفاي الذي لن يلتزم بشيء على مسؤوليته لأنه لن يكون اتفاق جماعي، وما سيتم لاغ سواء كان وعدا أو وثيقة، وفي الأخير يحدث الاتفاق من أجل ربح الوقت بسبب اقتراب موعد الاستفتاء، ولأن الاتصال سيكون مع مجموعة الجبهة في الهيئة كما قال عبد السلام بلعيد فباستطاعتهم القيام بذلك لأن المنظمة تبقى من مستواهم[47]. أو لأن الشرط الموضوع هو الالتزام بما ورد في اتفاقيات ايفيان، مع الوصول لاتفاق شفوي فحسب. ويلاحظ أن فارس ردد العبارة الأخيرة في لقاءاته مع سوزيني.

وسواء كان الدافع هذا أو ذاك، فقد تحمل مصطفاي ومعه فارس مسؤولية تحقيق اتفاق نهائي مع منظمة الجيش السري، والدعم حينها تمثل في اصطحاب كريم بلقاسم بوزنه التاريخي ومركزه الحساس داخل قيادة الجبهة.

4- اتفاق جبهة التحرير الوطني مع O.A.S وانعكساته المختلفة:

أثناء فترة غياب أعضاء الهيئة الثلاثة، توجه كريستيان فوشي إلى باريس لأخذ موافقة دوغول على استمرار المحادثات ، وحين عودة الممثلية الى الجزائر يوم 10 جوان طلب مصطفاي مقابلة الوسيطين لمعرفة مختلف مطالب المنظمة مجددا، وبعد كتابة نص الاتفاق اطلع عليه سوزيني يوم 13 جوان عن طريق تيني وشوفاليي، لكن ما استجد أحدث اضطرابا في الاتصالات حيث صرح بن خدة بن يوسف في خطاب يوم 13 جوان على أن الحكومة ترفض إعطاء ضمانات إضافية للأوروبيين غير التي حددتها اتفاقيات ايفيان، فتدخل كريم بلقاسم وذكرت عدة مراجع لقاءه بكريستيان فوشي يوم 14 جوان مساء، بحضور فارس ومصطفاي ليؤكد له على التفويض الذي تحصل عليه ، وما يلاحظ غياب تفاصيل الأحداث في كتاب فارس باستثناء لقاءه مع الوسطين يوم 12 جوان لتحديد تاريخ اللقاء النهائي يوم 17 جوان[48]، لكن هذا الأخير وقع يوم 15 بوجود مصطفاي، فارس، سوسيني، تيني ، شوفاليي وآخرون في مكان مغاير للمرات السابقة.

بعد موافقة مسئولي المنظمة على الصيغة النهائية للنص يعلن عنه يوم 17 جوان من طرف مصطفاي أولا عبر الإذاعة والتلفزة، ثم سوزيني في المساء عبر إرسالهم الخاص لإعلام الجميع بحدوث اتفاق بين الجبهة والمنظمة على توقيف التقتيل والتخريب. وأهم ما جاء في نص الاتفاق هو إدخال الأوروبيين في قوات حفظ الأمن، وعد بالعفو عن الأعمال المرتكبة قبل الاستفتاء وذكر المنظمة كطرف حدث معه الاتفاق[49].

لقد اختلفت المواقف اتجاه هذا الاتفاق فمسئولو منظمة الجيش السري خارج العاصمة أنكروه واعتبروا أن لا قيمة لاتفاق شفوي خاصة بعد 02 جويلية[50]، واستمر التخريب والتقتيل في عنابة

ووهران إلى أن بدأوا في الانسحاب الواحد بعد الآخر، ولم تتوقف هجرة الأوروبيين الجماعية نحو فرنسا ليحكم على إحدى الغايات لهذا الاتفاق بالفشل.

وظهرت ردود فعل مختلفة من أسماء كثيرة في قيادة الجبهة منهم أحمد بن بلة، محمد خيضر، محمدي السعيد، رابح بيطاط وحسين آيت أحمد فهؤلاء أنكروا الاتفاق ونقدوه بشدة عبر تصريحاتهم، وقد تصرف مسؤولوا الولاية الرابعة بعنف اتجاه مجموعة الجبهة في هيئة التنفيذ المؤقتة، إذ قاموا بشق نص الاتفاق وبعثوا بجزء منه إلى روشي نوار وكتبوا عليه فارس = باوداي BAO DAI [51]. الرائد عز الدين هو الآخر وصف الاتفاق بالأكذوبة. وموقفه هذا كان معروفا من البداية فانعكس الاتفاق بشكل سلبي على المشاركين في عقده أو المساندين لهم، ما دفع بمجموعة الجبهة داخل الهيئة وعلى رأسهم مصطفاي إلى تقديم الاستقالة يوم 27 جوان خاصة، بعد تصريح بن خدة[52]. لكن عبد االسلام بلعيد قال بأنه لم يفهم كلامه على سبيل الإنكار لهذا بقي وشجع ذلك فارس على عدم الاستقالة.

بالنسبة للجماعة التي ساندت، فلقد سبقت الإشارة إلى الانقسام الذي وقع بين أعضاء القيادة، وبالتالي فستتسع الهوة بين المنقسمين، وكان كريم بلقاسم يعلم جيدا خطورة موقفه لأنه بمثابة انتحار سياسي، وخطأ سيستغل من طرف خصومه كما ذكر لبن خذة قبل دخول الجزائر[53].

ما وقع انعكس على فارس أيضا، جعل بعض مسئولي الجبهة–جماعة بن بلة –على إطلاع مستمر بما يجري داخل مكتب فارس[54]. وهذا دليل على عدم الثقة، خاصة وأن هؤلاء كانوا بصدد تكوين المجموعة التي ستصل إلى السلطة فكانوا بحاجة إلى من يهيأ لهم الأرضية في الجزائر، فكان من ضمن مهام الهيئة التنفيذية التحضير لدخول قيادة الثورة وتسليم السلطة إلى أول حكومة جزائرية رسمية بعد إجراء الاستفتاء وإعلان نتائجه.

وبالتالي أصبحت مهمة فارس وأعضاء الهيئة التالية هي التحضير لاستفتاء تقرير المصير الذي أعلن عن إجرائه في أواخر شهر أفريل [55].

إن مبادرة رئيس هيئة التنفيذ المؤقتة وزملائه في فتح حوار بين الجزائريين ومنظمة الجيش السري تعتبر من الإسهامات التي يجب الوقوف عندها لأنها مبادرة ايجابية انتهت بعقد اتفاق كانت غايته وقف التقتيل والتخريب والتدمير الذي عانى منه الجزائريون بالدرجة الأولى، وساعدت كذلك على إجراء استفتاء تقرير المصير في تاريخه المحدد يوم 1 جويلية 1962.

الهوامش:

1-Les Accords d'Evian, septembre 1962, pp 3-5.

2-Farés(Abderrahmane), La cruelle vérité l'Algérie de 1945 à l'indépendance, Plan, Paris, 1982.

3- طالع وقارن جريدة Le Monde خاصة العددين: 19- 04- 1962و 05- 05- 1962 و Tricot (Bernard), Les sentiers de la paix : Algérie 1958- 1962, Plan, Paris,1972, p319.

4- قارن: Farés (Abderrahmane), op cit, pp 100- 105 و Le Monde, 27- 04- 1962.

5- طالع: Le Monde, 21- 04- 1962 et 28- 04- 1962et Peyrefitte (Alain), C'était De Gaulle, Fayard, Paris, 1994, p 138.

6- الأرجل السوداء أو الأقدام السوداء هي التسمية التي أطلقت على الأوروبيين المستوطنين بالجزائر ومنهم من يقول سكان شمال إفريقيا والتسمية اكتسبوها بسبب ارتدائهم للأحذية السوداء أو ربما نظرا لسواد أرجلهم نتيجة استخدامها في عصر العنب لصنع النبيذ. طالع: (الأقدام السوداء) ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

7- طالع وقارن: Farés (Abderrahmane), op cit, p 112 et Azzedine(Commandant), Et Alger ne brula pas, ENAG, ALGER, 1997, p 161 et p 194 et pp 207- 208. Et L'année politique1962, presses Universitaires de France, Paris, 1963p 286.

8- قارن: Azzedine(Commandant), op cit, pp 206- 207 et Courrière (Yves), Les feux des désespoir 1960- 1962 des barricades à l'abime, Fayard, Paris, 1988, p 630.

9- طالع: Azzedine(cdt), p 208 et Farés (Abder), op cit, p113- 115.

10- حدثت عدة محاولات لإجراء اتصالات بين منظمة الجيش السري ومسئولي جبهة التحرير الوطني لكن من دون نتائج طالع: Aziz (Philippe), Le drame de l'Algérie Française l'agonie et la mort, Collection histoire No1, Editions Vernoy, p 162 et l'année politique 1962, p 290.

11- L'année politique 1962, pp289- 290.

12- Azzedine (cdt), op cit, p 257.

13- طالع: Courrière (Yves), op cit, p 633 et Carreras(Fernand), L'accord FLN- OAS des négociations secrètes aux cessez- le feu, Préface de Jacques Chevalier, Robert Laffont,

Paris, 1967, p 54 et Aziz (Philippe), op cit, p 162 et Jacob(Alain), D'une Algérie à l'autre, Bernard Grasset, Paris, 1963, pp 226-0227.

14- فارس عبد الرحمان ولد في 30 جانفي 1911بمدينة آقبو،تاب تعليمه في آقبو ثم بجاية وبعدها قسنطينة، واستطاع متابعة محاضرات في القانون بجامعة الجزائر. شارك في مسابقات في القانون ليصبح محضرا قضائيا ثم كاتب عدل وفي النهاية حصل على صفة أو لقب أول موثق مسلم. وحول نشاطه السياسي شارك في الانتخابات ضمن قائمة الاشتراكيين سنة 1945 ثم كمرشح مستقل في انتخابات المجالس العامة منذ 1945 وانتخابات الجمعية الجزائرية منذ 1948 إلى غاية 1955 حيث استقال ليدخل في اقتراح مجموعة 61 من اجل دعم الثورة التحريرية. وخلال مرحلة الثورة شارك في مهام لصالح فدرالية جبهة التحرير بفرنسا منذ 1958 إلى غاية 1961 حيث ألقي عليه القبض بعد مظاهرات أكتوبر 1961، وتم تعيينه على رأس الهيئة التنفيذية المؤقتة مباشرة بعد خروجه من السجن. طالع: حمري(ليلى)، عبد الرحمان فارس 1911- 1991 مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور مهديد، جامعة وهران، 2006، 159 صفحة.

15- لمعرفة أسباب اختيار سوزيني لفارس يمكن الرجوع إلى: Martinez (Morland Barangé), Histoire de l'organisation de l'armée secrète, Julliard, Paris,1964, p 484 et Carreras (Fernand), op cit, p 52.

16- طالع وقارن: Farés (Abder), op cit, p 118 et Nora (Pierre), OAS parle, René Julliard, France, 1964, p 284 et Martinez (M.B),op cit, p 485 et Azzedine (cdt), op cit, p 286 et Nora (Pierre), op cit, p 284 et Carreras (Fernand), op cit, p 55.

17- Courrière (Yves), op cit, p 634.

18- Nora (Pierre), op cit, p 285.

s (Abder), op cit, pp 118- 119.é**19**- Far

20- قارن بين الروايات المختلفة في: Farés (Abder), op cit, p118,p 120 et L'année politique 1962, pp 289- 290 et Carreras (Fernand), op cit, pp 56- 57.

21- Henissart (Paul), La dernière année de l'Algérie Française, Les combattants du crépuscule, Grasset, Paris, 1970, p 438.

22- Farés (Abder), op cit, p 121.

23- Jacob (Alain), op cit, pp 216- 218.

24- شهادة شفوية لشوقي مصطفاي، مأخوذة عن شريط سمعي بصري تم بثه على التلفزيون الجزائري يوم 50- 04- 2005 ويوم 06- 07- 2005 تحت عنوان شهادات للتاريخ (C'était l'OAS)و الذي أعده علي فاتح عيادي.

25- Farés (Abder), op cit, pp 122- 123.

26- Alleg (Henri), Laguerre d'Algérie, T3, Temps Actuels, Paris, 1981, p 413.

27- L'année politique 1962, pp 290- 291.

28- النص الذي أحضره شوفاليي قامت لجنة من المنظمة بكتابته.أنظر: Nora (Pierre), op cit, p 302 et Martinez (M B), op cit, pp 485- 486.

29– قارن: Farés (Abder), op cit, pp 122- 123 et Henissart (Paul), op cit, pp440- 441.

30– L'année politique 1962, p 291.

31- طالع وقارن: Lancélot (Marie Thérèse), Organisation Armée secrète chronologie et documents choisis, Fondation nationale des sciences politiques, collection (centre d'études de la politique Française), Paris, 1963, p 78 et Le monde 30- 05- 1962 et L'année politique 1962, 292.

32– Farés (Abder), op cit, 123.

33– Courrière (Yves), op cit, p 634.

34– قال عبد السلام بلعيد أن محمودي زيتوني هو مبعوث فارس إلى تونس. قارن: Farés (Abder), op cit, p 121 et Benoune (Mahfoud- El kenz Ali), LE hasard et l'histoire entretien avec Belaid Abdessalam, T1, ENAG, Alger, 1990, p 209.

35- للإطلاع على تفاصيل أكثر يمكن الرجوع إلى: Farés (Abder), op cit, p124 et Benoune (Mahfoud- El kenz Ali), op cit, pp 209- 210 et Carreras (Fernand), op cit, p 80 et p 88 et pp92- 112 et pp 133- 134 et Malek (Redha), Les accords d'Evian histoire des négociations secrètes 1956- 1962, Edition Dahleb, Alger, 1995, p 255.

36– L'année politique 1962, p 263.

37– Carreras (Fernand), op cit, pp 150- 151 et p 159.

38– Benoune (Mahfoud- El kenz Ali), op cit, p 210 et p 107.

39– Carreras (Fernand), op cit, p 161.

40– Rioux (Sous direction de Jean Pierre), La guerre d'Algérie histoire d'une déchirure, Découvertes Gallimard, France, p 488.

41– Benoune (Mahfoud- El kenz Ali), op cit, p 215.

42– Centre des Archives nationales, microfiche 52, « les résultats de la séance du 02 juin 1962 »

43– قارن: Carreras (Fernand), op cit, pp 210- 212 et Nora (Pierre), op cit, pp 288- 290.

44-Azzedine (cdt), op cit, pp 284- 286.

45- حول ردود الأفعال المستجدة لمسئولي الجبهة على ممثلية الهيئة حول مسألة التفاوض مع المنظمة، واختلاف الروايات فيها، يمكن الإطلاع على: شهادة شفوية لبن يوسف بن خدة خلال لقاء شخصي معه يوم 01- 08- 2002 و Farés (Abder), op cit, pp 125- 126 et Benoune (M- Elkenz A), op cit, p 211 et Hamdani (Amar),Krime Belkacem le lion des djebels, ed Ballaud, Paris, 1973, p 254.

46- شهادة شوقي مصطفاي المذكورة سابقا.

47- وصف بلعيد عبد السلام الحدث بتلطيخ اليدين بالأوساخ، طالع: Benoune (M- Elkenz A), op cit, p 213.

48– Farés (Abder), op cit, p 127.

49– Carreras (Fernand), op cit, p 225.

50– Nora (Pierre), op cit, p 299.

51– بورقعة (الرائد سي لخضر)، مذكرات الرائد سي لخضر بورقعة شاهد على اغتيال الثورة، دار الحكمة للترجمة والطبع، الجزائر، 1990، ص ص 99- 100.

52– Harbi (Mohamed), Les archives de la révolution, Préface de Charles Robert Ageron, ed Jeune Afrique, Paris, 1981, p 341.

53– Hamdani (Amar), op cit, pp 253- 254.

54– طالع: حربي (محمد)، الجزائر 1954- 1962 جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر:كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية دار الكلمة للنشر، 1983، ص 300 و Leca (Jean- Jean Claude Vatin), L'Algérie politique Institution et regime, Presses de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1975, p 84.

55– Farés (Abder), op cit, pp 130- 132.

التعذيب الاستعماري خلال ثورة التحرير (1954-1962)

منطقة سيدي بلعباس أنموذجا

الدكتور كركب عبد الحق، جامعة تيارت

ملخص: إن التكلم عن الثورة التحريرية واسترجاع شريط الذكريات، تعني الرجوع بذاكرة الأمة المكافحة إلى حقبة ظلماء من عمر أجيال الشعب، لتفنيد مزاعم الاستعمار الذي ادعى أنه جاء لبناء الجزائر وزرع الحضارة بل عاث في الأرض فسادا متخطيا بأعماله الدنيئة كل القيم والأعراف والأخلاق، ونستشف من مسيرته بأرض الجزائر جرائمه الوحشية الهادفة إلى الانصياع والانسلاخ عن حضارتهم وتاريخهم.

ومن المؤكد أن ممارسة التعذيب في الجزائر لم تكن محدودة أي ناجمة عن تصرفات فردية، إنما كانت جزءا من النظام الاستعماري ومن صلاحيات الأجهزة المختصة التي أنشأتها السلطات الفرنسية في الجزائر.

إن جرائم فرنسا ضد الثورة بمنطقة سيدي بلعباس، والمتضمن سرد الحقيقة عن سياسة التعذيب الاستعمارية، وانتشار مراكز التعذيب التابعة للجيش الفرنسي وزرعها لضباط المخابرات على التراب الوطني وبمنطقة سيدي بلعباس كأنها خلايا سرطان في الجسم تهدف إلى إنهاك وتحطيم معنويات الشعب الجزائري لكن دون جدوى، وتداعياتها مع شهادات العصر في ذكر الحقيقة للرأي العام عن فضاعة التعذيب والجرائم التي عايشها الشعب الجزائري، والتي كانت متشعبة عبر الزمكنة، والتي لا يمكن حصرها لا في الجزائر ككل ولا بمنطقة سيدي بلعباس.

فعن سياسة الإجرام الفرنسي الممنهج في منطقة سيدي بلعباس، ومعاناة سكانها بمختلف شرائحه الاجتماعية والتي يندى لها الجبين، وتقشعر لها الأبدان، فحاولت تشخيص الصورة الحقيقية، وتسليط الضوء على نماذج من هذه الجرائم التي وقعت بين سنة 1954 إلى 1962 بالمنطقة وعرضت نماذج حية عما عايشه سكان المنطقة من هوس آلة التعذيب الفرنسية، ولأبشع الجرائم الفردية والكثيرة المتراكمة في أرجاء منطقة سيدي بلعباس، والردود الانتقامية لفرنسا ضد نشاط الثورة لمراكز تتكلم عبر زمن التاريخ عن فضاعة معاناة الألم لما قاساه الموقوفون كمشهد تاريخي عن جرائم

فرنسا وعن جملة الممارسات المنافية للأخلاق والأعراف الدولية والتي أباحت بكل برودة دم ممارسة القهر داخل أسوارها بأبشع التصرفات الشنيعة، لكن إرادة الشعب كانت أصلب وأقوى، وإيمانهم القوي بعدالة القضية كان عاملا من عوامل الثبات والانتصار.

Abstract :

Talking about the Algerian revolution means back to the dark period of the history of generations In order to refute the allegations of colonialism, which he brought civilization to Algeria.Indeed he brought ruin and destruction and crimes indicate his actions outrageous .there was a policy of torture and there were specialized devices in torture in Algeria.

The policy of torture in Sidi Bel Abbes region aimed at killing the peoples will, but without result. the France crimes in Sidi Bel Abbes were planned , so I tried to explain this torture models from 1954 to 1962 période and the French occupation crimes in the region .

The torture policy was Awesome but the will of the people will was so strong and so solid, and the Algerians faith in victory are the real cause to defeat the enemy.

الكلمات المفتاحية باللغة الانجليزية:

The policy of torture -colonialisme Torture- Sidi Bel Abbes city- the Algerian revolution

لتبيان الحقيقة التاريخية عن فضاعة وبشاعة جرائم السلطات الاستعمارية بمنطقة سيدي بلعباس ضد الثورة، وما لقيه رجالاتها المتعاطفون، المناصرون، والمجاهدون من ويلات المعاناة بمراكز التعذيب والمعتقلات ما يندى له الجبين وتذرف له العين دموعا لا يمحيها الزمن، فأردت من خلال هذه الدراسة الواقعية تشخيص الصورة الحقيقية، وتسليط الضوء على نماذج من هذه الجرائم التي وقعت بين سنة 1954 إلى 1962.

إن مسلسل الجرائم والإبادة في حق الإنسانية والشعب الجزائري خاصة لم تهدأ بل تواصلت منذ أن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي أرض الجزائر لأكثر من قرن والربع واشتدت ضراوة من حقبة لأخرى ومن مقاومة لأخرى حتى موجة التحرير التي بدأت شعلتها متقدة في الفاتح نوفمبر الذي غيرت مجرى الحياة وبه سطع فجر الحرية، فقد خضبت جرائم فرنسا بدماء الشهداء رفا وبندا في

ساح الفداء، وفي المناطق الجزائرية وعبر ربوع الوطن(1)، هذه هي حقيقة الاستعمار وما عاناه الشعب الجزائري الذي لم يدخر جهدا في الدفاع عن حقوقه المسلوبة، ولم يأت الاستقلال الوطني إلا ليضع حدا لقافلة الشهداء.

أولا: سياسة التعذيب الاستعمارية وتداعياتها المعاصرة

كسحت فرنسا في سنة 1830 ببراثنها وجيوشها كل جميل أتت عل الأخضر واليابس دمرت الأحلام وهامات الرجال وحطت بالسؤدد وبكل صيحة رجل وامرأة في بوتقة النسيان والقهر، نكلت بكل تغريدة للحرية قطعت الألسنة، شوهت وطمست الشخصية الأبية في الجزائر عامة، فكان القائد **سانت أرنو**(**Saint Arnaud**) يقر في مذكراته لحرب الإبادة الوحشية التي شنها ضد الشعب الجزائري: "**كنا نبيد كل شيء، نقتل السكان نحرق و ندمر المساكن و الأشجار**"(2).

إن جنرالات فرنسا كل من: **مونتانياك** (**Montagnac**)**الدوق دوروفبقو** (**Ducderovigo**)، **وبيجو**(**Bugeaud**)، **وبيليسي** (**Pelissier**)، في عمليات الحرق والنهب للأراضي في جوان 1845، وسانت أرنو الاعتقال والحجز وراء الجدر دون تهمة أو سبب معين، و **رادون**(**Randon**)، والجنرال **لامورسيير**(**Lamoriciere**) وغيرهم الكثير، تبقى أسماؤهم ترن كحجرة عثرة في تاريخ حرب الجزائر وفرنسا مما سببته من رعب وألم، وقتل، وإبادة للبشر والحيوان والنبات، ومن جملة الاعترافات المخطوطة في شكل رسائل كتبها الجنرالات منها ما أورده **كافينياك** (**Cavegnac**) إلى خطيبته أنه يستريح نفسيا ويبعد الأفكار السوداء عن نفسه بقطع رؤوس العرب، ورسالة مشؤومة أخرى مع الجنرال مونتينياك جاء فيها: "... **هكذا كيف يجب القيام بالحرب للعرب: قتل كل الرجال عمرهم حتى 15سنوات، ثم أخذ النساء، وكل الأطفال ووضعهم في مراكب بحرية وإرسالهم إلى جزر الماركيز أو غيرها وباختصار إبادة كل من يدب لدى أرجلنا مثل الكلاب**"(3) و كانت وجهة نظر **أليكس دو طوكفيل** (**Alex De Tocville**)،مؤيدة لرؤى القادة والساسة الفرنسيين ولزميله الجنرال "**لامورسيار**" المحبذين للقوة والإجرام عن طريق القتل الجماعي الممنهج، فكان يفضل الضغط على العرب في مختلف تدخلاته وإبادتهم أو قنصهم مع إحراق الزرع وبث الهلع في نفوس السكان، وجاء في مقولته مايلي: "**بما أننا**

قبلنا هذا العنف الكبير والمتمثل في الغزو، أعتقد أنه لا ينبغي أن نتراجع دون أعمال العنف الجزئية التي هي ضرورة مطلقة لتكريسها"(4).

إن جرائم فرنسا لم تبدأ سنة 1957 مع الجنرال **بول أوساريس**(**PaulOssaris**)، الذي أباد خلال سنتي 55-57 أكثر من 3024 سجين اختفت من مجموع 24000 سجين بالجزائر العاصمة، فأجاب بعبارة مهذبة شهيرة وببرودة أعصاب: "**أنهم قتلوا**"(**5**)،أو **مارسال بيجار** (**Marcel Bigeard**) أو **صالان راوول**(**Salan Raoul**) أو جاك ماسو (**Jacques Massu**) أو **ايدموند جوهو**(**EdmondDjouhaud**)، بل تعدتها إلى أبعد مما يتحمله الزمن من فضاعة وهول المشاهد الإجرامية التي يندى لها جبين التاريخ، فقائمة السفاحين طويلة وعريضة تتضمن كل من**موريس بابون** (**Maurice Papon**) و **ديغول** (**Degaulle**) و**ميشال دوبري** (**Michel Debre**)و**روجي فري** (**RugieFrei**)(6)**وهنري بورجو**(**Hanri Bourgeau**) وغيرهم من الجنرالات الفرنسيين الذين قادوا عمليات الإبادة في حق الشعب الجزائري(7) إن سياسة المجازر الاستعمارية المتبعة من قبل الإدارة الفرنسية كانت حجر الزاوية والأسس التي رفعت بها قوامها وأظهر من خلالها كيانها الاستعماري.

منذ تفجير الثورة الجزائرية تصاعدت وتيرة اللجوء إلى الاستخدام المفرط من قبل الحكومة الفرنسية في زيادة التعذيب(8)وجعلها وسيلة مباشرة للقمع وتكميما للحناجر الرافضة للعبودية وتكبيلا للعزائم، فقد سئل الفيلسوف الفرنسي"**فرانسيس جونسون**" (**Francise Jensen**) المناصر لحرب التحرير الجزائرية والرافض لجرائم فرنسا في الجزائر، هل هي جرائم ضد الإنسانية ؟ أجاب مفحما، فقال: "**كان من المفروض أن يكون السؤال هو: هل الاستعمار الفرنسي في الجزائر جريمة ضد الإنسانية أم لا ؟**.

أقول أن الاستعمار الفرنسي في حد ذاته جريمة ضد الإنسانية فما بالكم بالجرائم الأخرى، ومما سبق نستخلص أن الجيش الفرنسي حين استعمر الجزائر وارتكب جرائمه بدون رحمة محاولا الانتقام من الثورة والشعب وسعى إلى تحييده عنها، أراد قتل روح الكفاح فيه،بل كان العكس

فكانت الجماجم سلما دفعت بالشعب إلى الالتفاف حول الثورة و الذود عنها حتى كان النصر مؤزرا في 05 جويلية 1962.

ثانيا: بشاعة الإجرام الفرنسي بمنطقة سيدي بلعباس:

نتيجة لاحتدام واشتداد وقع العمليات العسكرية التي قادها أشاوس رجال جيش التحرير الوطني في منطقة سيدي بلعباس وأمام هذا الصد المنيع لجأت فرنسا إلى إنشاء مراكز للتعذيب تعتبر بؤر للقهر والاضطهاد لتطبق من خلالها أساليبها القمعية،و الوحشية بكل شراسة وعدوانية ، هدفها اعتماد أسلوب الاستنطاق كوسيلة لردع كل طاقة رافضة للتواجد الاستعماري وأيضا بغرض انتزاع الاعترافات كرها من الأشخاص الموقوفين من قبل أجهزة الأمن الفرنسية، وكانت أغلب هذه المراكز تنشط في سرية متناهية ومحجوبة عن الأنظار الدولية ودون رقابة(9).ورغم اختلاف مسمياتها من سجون، معتقلات، إلى مراكز التعذيب، أوجدت كلها لهدف أسمى وهو إضعاف وإفشال الثورة التحريرية و السعي منها إلى تجفيف عقول ساساتها وقاداتها لكسر معنوياتهم بغية فظع الصلة الوطنية بين الثورة ومسانديها ومجاهديها وبث سياسة الترويع لكسر شوكة العزيمة النضالية، لكن دون جدوى لا الرصاص ولا الحديد ثبط من عزائم الرجال فكان النصر مظفرا بعد جهد جهيد.

ألف الجيش الفرنسي منذ بداية الثورة التحريرية، وعقب كل هزيمة يتلقى من خلالها الضربات الموجعة من قبل الثوار عقب نهاية كل معركة أو اشتباك أو كمين، يسارع إلى القرى والمداشر ليصب جام غضبه على الدروع البشرية نساء – أطفالا – وشيوخا، موجها لهم انتقامه اللاذع فيبيدهم تارة، ويسبي ويعذب وينتهك من الشرف تارة أخرى، مخلفا وراءه الرعب والهلع، فكان المستعمر يكن في نفسه الخوف والغل مجبولا فيه يرى في كل مواطن أو مواطنة كبيرا كان أم صغيرا على أنه عدوّا له حاملا البندقية لابد من تصفيته أو الانتقام منه(10).

صور من القمع والتعذيب بدوار بني تالة شرق مدينة سفيزف بمنطقة سيدي بلعباس:

ارتكب العدو مجازر عدة ضد المدنيين العزل، منها ما وقع مساء يوم الاثنين 16 مارس1957 أين قام ضباط الفيلق 129 بقيادة الكولونيل **كاستيني** (**Castiny**)، والنقيب **مارث** (**Marthe**) رئيس المركز العسكري لمزرعة **بيران** (**Perrain**) بعملية تمشيط واسعة النطاق حيث جرح من طرف المحافظ السياسي المختار السقاط المراحي وعلى إثر ذلك قام الملازم

لوفافر (**Lefavre**) بالانتقام من المدنيين العزل وكلهم فلاحين وعددهم عشرون شخصا في مزرعة المعمر **لافورق لوسيان** (**LucienLaforgue**)، وهذا بأمر من السفاح المقدم **هول** .(**Haul**)

عن الواقعة نورد شهادة حية للأجيال والتاريخ على لسان أحد المجاهدين الستة الذين نجو من الموت الزآم، حيث يسرد بطلاقة المجاهد "**بتخيسي مخيسي**" قائلا: "زارتنا من يوم الاثنين فصيلة من المجاهدين تتكون من 12 فردا بقيادة "سي زغلول" أين قضوا الليلة عندنا بالدوار فقدمنا لهم العناية اللازمة والمساعدة الممكنة من أكل وشرب ولباس وكل ما يحتاجونه من مستلزمات، وفي اليوم الموالي يوم الثلاثاء وهو يوم السوق الأسبوعي لمدينة سفيزف ذهبنا إلى التسوق لشراء بعض الحاجيات لتزويد المجاهدين بالمؤونة، وحين عودتنا إلى الدوار وجدنا المجاهدين قد تحولوا عن منزلنا إلى منزل "بوسطلة لحسن"، وبحلول الساعة الثانية ظهرا قدمت إلى الدوار فرقة من الجيش الفرنسي مدعومة بالدرك الفرنسي في سرية تامة، وعلى رأسهم "شانسين" من المكتب الثاني، فباغتوا المكلف بالحراسة "شايب الذراع عبد القادر" الذي حين رأى دورية المستعمر فر هاربا دونما يبلغ المجاهدين بقدومهم، فحاصر الجيش الفرنسي القرية، و بدأ في إطلاق النار الكثيف، فتبادل المجاهدون وعساكر العدو رمي الرصاص، فأصيب أحد ضباطهم من رتبة عقيد بجروح بليغة، واستشهد منا مجاهدان اثنان، وتمكن المجاهدون من الانسحاب بأعجوبة إلى الغابة المجاورة للقرية، وبعد ذلك بدأ الجيش الفرنسي في مداهمة السكان وإخراجهم من مساكنهم، وفي تلك اللحظة أمرني عسكري فرنسي بحمل أحد الشهداء فوق سيارة مصفحة، وبحلول الساعة الحادية عشر ليلا أخرجونا من ديارنا، ليذهبوا بنا إلى المعصرة الكبيرة للخمور التابعة للمعمرلافورق لوسيان، ثم أدخلنا في الزنفور – قبو لتركيز وتخمير المشروبات الكحولية– وبدأوا في تعذيبنا، ثم قاموا بتفتيشنا ونهبوا كل ما كنا نملكه من نقود وأشياء أخرى، وتركونا هناك بعدما أشعلوا لنا السجائر، ثم أغلقوا عنا كل الأبواب وجميع المنافذ لإعاقة التنفس، وفي يوم الأربعاء وعلى الساعة التاسعة صباحا، فتحوا الأبواب، فوجدونا نحن الستة فاقدين للوعي، أما بقيتنا وعددهم عشرون قد توفوا اختناقا " رحمهم الله، ويضيف المجاهد: "بتخيسي مخيسي" في شهادته قائلا: "أنهم أخذونا نحن الستة: رمضان الجيلالي، صارنو بن يحي، لقجع جلول، سايح بقدور، بولسيس حنيفي، ومحمد زياني بعد أن تأكدوا من نجاتنا إلى المكتب

الثاني، ثم إلى مزرعة بيري أين تم استنطاقنا بوحشية، ليستمر هذا المسلسل كل أربعة أيام، فمكثنا هنالك مدة عشرين يوما تحت التعذيب الوحشي والاستنطاق وفي الأخير تم إطلاق سراحنا"[(11)].

الشهداء العشرون (20) رحمهم الله فهم كالأتي:

- بوصطلة عبد القادر، بوصطلة المختار، بوصطلة العربي، بوسطلة محمد ولد أحمد، بوصطلة لحسن، قدوس محمد ولد الحاج، بن علي، مصطفى، وسيراس بن قدور ولد محمد، بلاحة ولد لخضر، بولسيس بغدادي ولد عيسى، بولسيس جلول ولد عيسى، سمون عيسى، سمون البودالي ولد عيسى، بن زيان العربي ولد جلول، صارنو محمد ولد يوسف، بورخيسي الحبيب ولد الطاهر، مروك محمد، كحلة لحسن علي، لحسن بن سهلة ولد العربي[(12)].

وبشرق مدينة سيدي بلعباس بوادي سفيون:

ارتكبت الفرقة العسكرية الفرنسية مجازر مروعة في حق المدنيين العزل هدفها بث وزرع الرعب وانتهاج سياسة التخويف و الحرب النفسية في نفوس الشعب الجزائري، فقامت كل من الفرقة (**RI129ème**)، والفرقة الثانية بقيادة الكولونيل **بيجار** بجرائم حرب عن طريق حشر 150 مائة وخمسون شخصا داخل بئر بمزرعة المعمر **كومي** (**COMY**)، دون غذاء أو هواء،وتتواصل عمليات التعذيب الجماعي بإلقاء مائة وثلاثون 130 شخصا آخر داخل بئر بمزرعة **كولي** (**COLY**)، مع محو عائلتين عن الوجود وحرمانهما من الحياة وهما عائلتي سماعيلي والمتكونة من 20 فردا، وبن عيسى والمتكونة من 14 فردا[(13)].

وبنواحي مدينة سيدي بلعباس بقرية تلموني:

دون رحمة أو مراعاة للنفس البشرية الإنسانية تقع كارثة أخرى أبطالها ضباط الفرقة الثالثة عشر (**DI13ème**) أين قاموا برمي مئات من المدنيين العزل في آبار مهجورة بحاسي "**مردوم**" بقرية "**تلموني**" وحاسي "**السنايسة**" ونذكر منهم:

- بن عبد الله ميمون ولد الحاج بوعلام، تومي ولد الشفار، جرود ولد حميده، بومدين، بن ديدة بلعباس، بهلول عبد القادر، بويجرة دحو، بوقاسمية الجيلالي، سكران الحبيب، ويسي المكي، درار سعيد، مكي ولد الشيخ، آيت هني مزروق ومول...، والقائمة طويلة لا تعد ولا تحصى من المخنوقين[(14)] رحمهم الله.

إلى جانب هذا الصورة البشعة لزبانية الجيش الفرنسي في حق السكان، سجل التاريخ في ذاكرته الحية التي لا تمحي أبدا للأجيال، شهداء آخرون عذبوا وتم رميهم بالعشرات، في الآبار وحولت هذه الحفر إلى مقابر جماعية يغطي بها المستعمر آثار جرائمه.

أضاف المستعمر سوادا في سجله الحربي ففي ببلدية تلموني أيضا وبالضبط عند دوار الحساسنة حوصر المجاهد "**سلاك الطاهر ولد قايد**" بمنزله من طرف الجيش الفرنسي التابع لفرقة (**129RIème**) ليؤسر ويستنطق ويعذب ثم يرمى به إلى كلاب الجيش لينهش لحمه حيا حتى الموت دون رحمة.

وبنواحي مدينة سيدي بلعباس عين تالة بسفيزف: أحرق الشهيد "**إملول أحمد ولد قادة**" حيا دون رحمة(**15**).

وبنواحي مدينة سيدي بلعباس ببلدية تنيرة، وشيطوان، وابن باديس عشرون–20–كيلومتر عن قرية رأس الماء(**16**).

كلها جرائم دفع فاتورتها هذا الشعب الأعزل الذي رفض العبودية والقهر، ولم يستسلم أبدا.

بنواحي العونيات وعين تادميت: سجل قتل جماعي في حق سكانها حيث بلغ عدد القتلى 40 شهيدا(**17**) رحمهم الله.

وآبار أخرى دفنت فيها رفاة أجساد الشهداء في كل من:في حاسي أولاد بن عبد الله بالقرب من ترابل ــرجم دموش حالياــ وحاسي أولاد ناصر وبحاسي أولاد أمبارك، حيث كان اللفيف الأجنبي والخيالة التاسعة تحكمان مراكز متقدمة، وكلما كثرت الآبار كثرت الإعدامات الغير الشرعية ودون محاكمة ، وكثرت معها الجرائم ضد البشرية وكثر أيضا معها النفي للبشرية اتجاه أرض المستعمر. (**18**)

بثكنة بودانس ــبلدية بلعربي حالياــ:أزهقت العديد من أرواح المجاهدين والقادة أمثال "**سي الفيصل محمودي**" الذي أسر وهو جريح ومبتور الذراع أثناء اشتباك وقع مع العدو فبدلا من القيام بمعالجته يجهز عليه ويقتله في قبو دون مراعاة للأعراف الدولية أو المعاهدات، وفي نفس الثكنة تم

إعدام كل من الرقيب "**عبد النعيم معطي**" و "**سي منصور**" و"**جنان يحي**" بدون رحمة ولا شفقة. (19)

في ليلة 14جانفي1957 اختطف "**بلعربي عبد القادر**" رفقة شقيقه "**الشيخ**" نظرا لمواقفهما البطولية والثورية ضد المحتل وبدون محاكمة[20]، ليغتالا جنبا إلى جنب وغدرا من طرف ضباط تحت قيادة السفاح **شيبان**(**Chuppin**).

وجريمة أخرى تقشعر لها الأبدان اقترفها جنود اللفيف الأجنبي، في حق أربع أرواح أبيدت من خلالها عائلة **ميرادي** حرقا ودون مراعاة للأخلاق أو الرحمة، ضف إلى قوافل قرابين الحرية جوان من سنة 1957[21]، وتتواصل الآلة الاستعمارية حصد الأرواح الشابةقد أحرق المجاهد قلال عبد القادر بالقرب من غابة دوار المهادة التابعة لبلدية بلعربي.

بالموازاة مع هذه العينة من سجل الجرائم ضد الإنسانية في حق الشهداء بمنطقة سيدي بلعباس، عكفت الآلة الاستعمارية إلى استئصال كل نبض وطني عن طريق اقتفاء آثار الثوريين والوطنيين بمساعدة الخونة والعملاء لتضييق الخناق عليهم ومتابعتهم وتعذيبهم واغتيالهم ضنا منها ناجحة في إجهاض أحلام التحرر لكن هيهات، فاهتمت بدراسة معمقة لفكر المجاهدين والسياسيين والوطنيين غرضها الولوج إلى عقولهم لضربهم، ومن بين هذه الشرائح نذكر على سبيل المثال لا الحصر رجالات رصعت دماؤها صدر الحرية وشاحا ودرعا للوطن المفدى ومنهم:

- الأستاذ الشهيد "**سيد أحمد إنال**"الذي حوصر من طرف الجيش الفرنسي بمكتب القيادة في مركز تاجموت بالقرب من مولاي سليسن يوم 21 أكتوبر1956 بدار إمبارك، وخلال اشتباك ضاري جرح "**الشهيد**"، فتم القبض عليه وأخذ سجينا، وبعد التعرف على هويته بدأ الاستجواب معه مباشرة، ثم سرعان ما تحول إلى استنطاق وتعذيب قاس، تحت إشراف النقيب **فانسان** (**Vincent**) من فرقة المشاة السابعة (**7 Emeri**) بأولاد ميمون، فصمد الشهيد دونما أن يصرخ ألما ، وعندما ارتبك الجلاد الضابط من أجوبة السجين وانبهر لصبره وتركيزه، بدأ بفقء عينيه ثم رشه بالبنزين وتم حرقه حيا[22].

وها هي ذي العدالة السماوية ففي نفس المكان اغتيل النقيب فانسان من قبل الثوار، بمضي أربعة أشهر فقط بنواحي مولاي سليسن.

- كما تم سجن الأديب "**الحبيب بناسي محمد**"في 15 ديسمبر 1956 بالقرب من بدوار تابع لدائرة تلاغ بولاية سيدي بلعباس، وبعد إخضاعه للتعذيب الوحشي، وأمام صموده فلم تفلح الآلة الاستعمارية إلى انتزاع الاعترافات قامت بحرقه حيا(23)، وأمام الجمهور، بسبب وطنيته الثائرة الرافضة لتواجد العدو الفرنسي.

ونواصل سرد بعض الحالات من سجل الجرائم الفردية الشائعة والشنيعة في مدينة سيدي بلعباس في حق الشهداء كحالة "**لخضر بن صغير**"و"**لالوت بلعباس**"، اللذين عذبا حتى الموت.

فهما نموذج حي وصارخ متميز لأبشع الجرائم الفردية والكثيرة المتراكمة في أرجاء التراب الوطني، وبمنطقة سيدي بلعباس كعينة فكانا من مساندي الثورة كل في مجاله كتزويدها بالأدوية والأدوات الطبية والدراهم وبمساندة نسوة وأرامل المجاهدين والشهداء على حد سواء.

أوقف الشهيد "**لخضر بن صغير**" نهاية سنة 1958، وحول وأودع إلى متفنني التعذيب بمعمل المصبرات والزيوت لفارو بطريق معسكر بسيدي بلعباس لدى الفرق العملاتية للحماية (**DOP**) هؤلاء الجلادون مختصون في ممارسة التعذيب بصفة منظمة وقد تم تكليفهم بهذه الطرق دون شفقة، يعاملون الأجساد والأرواح كأنها جماد لا حياة فيه، فبعد أن تعرض الشهيد لكل أشكال التعذيب، كسرت رجله وفقئت إحدى عينيه، ثم رمي بأحد آبار قرية تلموني لإخفاء الجثث(24).

إن سياسة الإبادة الفردية والجماعية التي انتهجتها فرنسا ضد الإطارات الجزائرية قاعدة أساسية في حربها ضد الجزائر كان هدفها تجهيل الشعب وتركته ينغمس في ظلمات الجهل دون تنوير ليسهل عليها استعباده، فقد سارعت إلى اقتطاف رأس كل مناضل أو مجاهد أو كل من تظهر عليه علامات النبوغ التحرري، إلى توقيفه دون جريمة ومحاكمة عادلة إلى تعذيبه والتنكيل به وإبادته دون تعيين القبر له لقهر عقيدة الحرية لديه.

من الأمثلة عن ذلك نذكر ما وقع للشهيد "**لالوت بلعباس**" الذي تم توقيفه بعد اعترافات تم الحصول عليها تحت ضغط التعذيب من زميله الشهيد "**سقال شعيب**" ليقر فوقف عنه التنكيل، فاعتقل وزج به في ثكنة اللفيف الأجنبي بسيدي بلعباس فأشرف الملازم **دوغالدر** (**Degueladre**) من اللفيف سجله الحالك كسفاح لرجالات الثورة المنضوي تحت

(**OAS**) في الكومندوس دالتا، أدار رحى الاستجواب و الذي حاولا جاهدا أن ينتزع من الرجل الشهيد الاعترافات دون جدوى متململا تارة في تلعثمه وتارة أخرى يقشر أظافره من الغيظ، فعمد الجلاد على تعذيبه باستعمال الكهرباء في الأماكن الحساسة إلى تعليقه رأسا على عقب وبعد توالي موجة من مراحل العذاب المرير بصق عليه وضربه بأخمس البندقية ليهشم جمجمته، فلم ينكسر ولم يدلي بمعلومات للعدو عن مخططات الثورة ولم يبح بأسرارها لتزهق روحه الطاهر إلى بارئها رحمه الله(25).

موعد آخر لتاريخ الثورة المجيد المتواصل في ضخ الدماء من قوافل الشهداء لتترعرع شجرة الحرية، فهذا أحد أعيان مدينة سيدي بلعباس وضحاياها الشهيد "**فرعون محمد**" المدعو **بخالد**، وكان مستشار بلدي، ونائب رئيس البلدية تم اغتياله في أوت 1958، ببرودة أمام باب داره، لا لشيء سوى أنه وطني ثوري ومعارضته الشديد للانخراط في لجنة للإنقاذ العمومي، وقد تم توجيه أصابع الاتهام إلى اليد الحمراء، كما كان قتله له معنى سياسي، وفي اليوم الموالي وعقب موت والده التحق ابنه "**ميلود فرعون**" بالجبل حيث استشهد والسلاح بيده(26).

من أشكال التعذيب أيضا والجرائم الوحشية التي تقشعر من أهواله الأبدان هو ما حصل في بلدية -مارسي لاكومب سفيزف حاليا-وما تعرض إليه كل من"**بوهند يحي**"، و"**بوخلدة عبد القادر**" و"**لعرباوي أحمد**"(27)، وعائلته، وآخرون كثر، وكعينة نموذجية لما عايشته جل العائلات الجزائرية التي ثارت ولطمت الاستعمار في ثغره نورد كشهادة تاريخية عن عائلة "**لعرباوي أحمد**" الذي عانى الأمرين التعذيب و القتل، فقد ألقي القبض عليه يوم 10مارس1957 على الساعة العاشرة صباحا من طرف الجنود الفرنسيين بمنطقة تدعى "الفرعة" الواقعة بين-سفيزف وبوحنفية- وأخذ عنوة ومكبلا إلى المكتب الثاني أين عذب واستنطق، وبعيد الظهيرة أخذه العساكر وعلى رأسهم "**شانسيس**" إلى منطقة تدعى "غابة إسطنبول" بنواحي مدينة بوحنيفية، وبكل وحشية قطعت أذنيه وأنفه وهو يتألم، ليرمى بالرصاص ويسقط شهيدا في ميدان الشرف وعمره لا يتجاوز 29 عاما، وقد أحظر الجلادون شهداء على الواقعة لحوالي 25 شخصا ليبثوا الفزع والهوان في أنفسهم، لكن ككل مرة هيهات هيهات، ومن بين الحضور المجاهدان"**شباني عبد القادر**"، و"**دكاني أحمد**"(28) رحمهما الله.

في سياق الشهادة استرسل نجل الشهيد السيد عرباوي يحي وتساءل "**لماذا لم يحاول أحد من الحضور مساعدة والده وتخليصه من الجنود الفرنسيين"**، فقيل له: "**بأنهم فضلوا تضحية بشخص واحد بذلا من أن يقتل سكان منطقة إسطنبول بكاملها**"وهذا سجية اتصف بها الاستعمار الفرنسي قيامه بإبادة جماعية-كما ذكرت آنفا- وبعيد الاستقلال سعى ابنه جاهدا للعثور على قبر والده ولكن دون جدوى، فترك الحزن آثاره وتجاعيده كأثلام خطوط زرع لا يمحوها الزمن، فلم تسلم لهم الجثة الطاهرة بل تركت لوعة النوى عليها آثار أيدي الجلادين الفرنسيين في أنفسهم شاهدة كتاريخ لا يضمحل ولا يطمس أبدا، فوالدته وافتها المنية حرقة وشوقا على فقدانها الشهيد البطل، ولا أولاده يحي، ماما، الطيب تناسوه، ولا زوجته البالغة آنذاك 23 عاما تناست الروح والجسد، فككل ليلة عاود الجلادون زيارتها عند ساعة الصفر لينغصوا ويقوظوا عليهم العيش بسلام، فسلطت عليهم جريمة الحياء بخلع الملابس وتجريدهم من تاج الوقار وبتحريش الكلاب البوليسية المدربة لتنهش لحم الأم أمام أنظار أولادها ودون مراعاة للأعراف الدولية أو لحقوق الإنسان فلم يكل المستعمر الغاشم عن أفعاله، وهم في غبطة وفرح السادية الاستعمارية، علهم جراء التذليل النفسي البوح بكلمة عن الثورة، لكن هيهات، صبرت العائلة الثورية متجلدة محتسبة عند الله الفرج والثواب، والتطلع ليوم أفضل بالاستقلال.(29)

التحق الشهيد "**لعرباوي أحمد**"، ويسجل في قائمة قوافل الشهداء اللذين لم يعرف مدفنهم، ولكن ذاكرة التاريخ لم تنساهم ولا الأماكن التي زهقت فيها أرواحهم، فهم شهداء بلا قبور، ويحرر اسمه بمعية زملائه كأمثال: **"زيدور محمد قاسم"** و**"عراس رقية"**، و**"بوهند يحي"** و**"بوخلدة عبد القادر"**(30).

هي عينات ورذاذ عاتم في العلبة السوداء للجرائم التي اقترفتها فرنسا ضد شعب صرح «نعم للحرية"، أوردتها أمام الرأي العالمي كأنها حالات انعزالية فردية شاذة حتى تتنصل من معاقبة الأجيال والتاريخ وشهداء العصور، لما اقترفته من أحزان في صفحات لن تطوى ولن تحرف أبدا.

ثالثا: مراكز التعذيبالفرنسي بمنطقة سيدي بلعباس:

ليكمكم الإستدمار الأفواه المطالبة بالحرية والأرواح التواقة للعيش الكريم سعى جاهدا منذ أن وطئت أقدامه التراب الوطني إلى اعتماد سياسة القهر والإرهاب فقد شهدت منطقة سيدي بلعباس أبشع الصور من الظلم، واعتمد سياسة التعذيب كإستراتيجية أساسية للقضاء على الثورة عن طريق إنشاء المحتشدات ومختلف مراكز التعذيب وخاصة ضد المساجين، بابتكار أساليب تحدث الألم والصدمات الجسدية و النفسية حتى الموت وقد خصص و أنشأ و استحدث الاستعمار الفرنسي مجموعة من مراكز التعذيب على مستوى منطقة سيدي بلعباس على سبيل المثال لا الحصر: "**مركز بولحية**" يكنى نسبة إلى ضابط دو جنسية اسبانية من ضباط اللفيف الأجنبي، يقع هذا المركز في الحي الشعبي حي الريح، و إذا نجى الأسير فيه من الموت فإنه لا ينجو من العاهات الجسدية المستدامة، "**السجن المدني بمدينة سيدي بلعباس**" فكان المساجين يحولون إليه بعد محاكمتهم على الأعمال المنسوبة إليهم، فيسلط عليهم أبشع أنواع التعذيب ويعاملون معاملة لا تمت للإنسانية بصلة، "**السجن المدني بحي القرابة**" أنشأ هذا السجن وكان تحت إشراف عناصر اللفيف الأجنبي والذين كانوا فيه يعتبرون خطر على أمن السلطات الفرنسية، وهناك مركز آخر لا يقل بشاعة و لا يتصوره عقل و يعجز أي لسان عن التعبير عنه هو "**مركز ثكنة فيينو**" التي ذاق فيها المناضلون العباسيون الويلات، أنشأ سنة 1861 في وسط مدينة سيدي بلعباس، و أوكلت مهمة الإشراف لضباط كبار أمثال الكولونيل "**قاردي**" (**Gardy**) والكولونيل "**توماس**" (**Tomass**) [31].

ومن أشهر مراكز التعذيب على مستوى منطقة سيدي بلعباس نجد:

- **مراكز التعذيب (بدائرة تلاغ)**
- **مركز التعذيببوسوي (بلدية الضاية)**
- **مركز التعذيب بمزرعة بوحلوفة (بدائرة تنيرة)**
- **مركز التعذيب بمعصرة الزيتون (بمدينة سيدي بلعباس)**
- **مركز التعذيب ببلدية بلعربي (بودانس سابقا)**
- **مركتز التعذيب بمعصرة الخمور (بسفيزف)**
- **مركز التعذيب دار المحابيس (دائرة رأس الماء)**
- **مركز التعذيب ببوشبكة (بوخنفيس)**

هذا ما خلفته الحكومة الاستعمارية من شواهد وأطلال كشهود عيان عن جهنمية وفظاعة هذه المحلات ونورد منها على سبيل المثال لا الحصر:

- **مراكز التعذيب (بدائرة تلاغ):**

إن التاريخ لن يمحى، لا الذاكرة، ولا الزمن، ولا الآلام، فالأطلال التي خلفتها الأماكن الجهنمية بدائرة تلاغ من مراكز للتعذيب، لشواهد عيان على الوحشية الحيوانية التي استعملتها كمطية لصد جحافل الرجال من المجاهدين و الوطنيين لكسر شوكة الثورة ونذكر منها: مركز الانتقاء والترحل بمزاورو، والذي تأسس سنة 1955 في معصرة للخمور لأحد المعمرين **كامبو** (**Cambot**)رئيس بلدية تلاغ آنذاك، يديرها أحد أبناء المعمرين برتبة صف ضابط يدعى **جون فان جون** (**JeanVan Jean**) والمعروف باسم "**شايب الرأس**"، الذي أوكلت إليه مهمة تعذيب وقتل كل مجاهد يعتقل فيه، وأطلق على هذا المركز اسم المكتب الأول (**Premier Bureau**)، مجهز بحفرة خصصت للتعذيب وزنزانات ضيقة يرمى فيها المجاهدون الأسرى والمناضلين أجسادا كأنها أكوام من لحم مكبلة الأيدي من الخلف بالأصفاد والسلاسل حتى الأرجل حتى لا يطيق الكائن الحي من الحراك أو القيام بحاجاته الطبيعية، فقد عوملت هذه الزمرة بعنف شديد ودوم رحمة أثناء عمليات الاستنطاق مرامها سحب أي اعتراف ولو كان غير حقيقي عن مخططات الثورة و المجاهدين، باعتماد أبشع وأقبح الوسائل منها الكهرباء مثلا... ووضع خرقة على الأفواه ثم تمرير الماء عليها ليختنق الشخص خلال العملية ... وكانت آثار القيود من خيش الحبال وغرز الأصفاد وندوب السياط لخير مدافع أمام محكمة الحق المنصفة لما لقيه الثوار في سبيل تحقيق الحرية[32].

فكان هذا المعتقل الرئيسي الذي تدار فيه عمليات الاستنطاق الكبرى كلما كان المعتقل أو المأسور ذو قيمة، وتعتبر همزة الوصل بين المعتقلات الأخرى إذ شارك في عمليات التعذيب و التحقيق بعض من الخونة الجزائريين، و المرضى نفسيا من أبناء الكولون، وعقب نهاية كل عملية استنطاق يقسم إلى ثلاثة أقسام منهم من يلقى حتفه بعد التعذيب ويرمى في الآبار و الغابات، والقسم الثاني ينقل إلى المحاكم الفرنسية، أما القسم الثالث فيزج به للقيام بأعمال السخرة و الشاقة كبناء الثكنات والسجون للاستعمار.

فهذا المعتقل الجهنمي كان يضم أربعة أبراج للحراسة و المراقبة على كل واحدة كشاف من نور ساطع يمسح المنطقة ليلا ليكشف كل حراك، وله مدخلان: الباب الأول خاص بالجيش الفرنسي، والباب الثاني مخصص لدخول السجناء، كما كان يحوي على نافذة واحدة حجمها 40 سمكا فقط،وهي مخصصة لزيارات الأهالي مرة واحدة في الأسبوع لمدة لا تتجاوز الخمس دقائق، شريطة أن يكون السجين قد مر على كل مراحل التعذيب والاستنطاق واندملت آثار التعذيب عن جسده حتى يرخص لأهله وذويه زيارته، أما الحياة بداخلها فأقل ما يمكن ذكره عنها أنها مأساوية و كارثية جدا ولا يمكن للإنسان العاقل تصورها. (33)

ومركز آخر معد للتعذيب ببلدية تلاغ والمسمى بالمكتب الثاني (**DeuxièmeBureau**) تأسس سنة 1957 فكان أصل منشئه معمل تجاري ملك لليهودي المسمى **خلفون**(**Khalfoun**) يقع تحت قيادة الملازم الأول من القبعات الحمراء (**Les Berets Rouges**)،له مدخل واحد فقط، وبوسطه توجد طاولة كبيرة تبلغ متران 02م طولا ومتر01م عرضا، وهي مثبتة في الأرض وغير قابلة للنقل أو للحمل ولها أربعة أغلال يقيد فيها السجناء من اليدين والرجلين، وبمدخله ركبت لوحة خشبية معلق عليها كل التعذيب من خناجر وأدوات كهربائية...، وبعد نهاية كل عملية تعذيب يرمى السجناء في حوض من المياه الملوثة بالصابون مما تسمح للجراثيم باقتحام الأجساد، فأغلبهم يموت جراء المرض و التعذيب ويتم رميهم ليلا في الآبار المهجورة و في مغارات الجبال والكهوف والوديان. ومركز آخر للتعذيب **بمزرعة شيل بجو**(**Fermr Chile Bijeu**) الواقعة بطريق الضاية لدائرة تلاغ، كان يوجد بها ثكنة عسكرية يشرف عليها ضابط برتبة نقيب، وحسب شهادات ممن ذاقوا مرارة هذا المركز أنه من كان يدخلها ويثبت انتماءه للثورة ومساندته إياها لا يعود ليخرج منها فيقتل ويرمى في بئر عميقة مجاورة للثكنة. (34)

نعتقد أن مراكز التعذيب هي قطرة من ويل العذاب الذي لقيه الصامدون الرافضون للعبودية والقهر من الآلة الاستعمارية الفرنسية، فبجماجم الشهداء سطع نجم الحرية، ولا أحد يتصور مشهد المعاناة إلا من عايشها، هوان، قلق نفسي، ألم روحي وجسدي، فراق الأحبة، مقبرة

للأحياء، وهم مفخرة الأجيال، التاريخ كان ولا يزال وصمة عار على المغتصب بيد أنه أنصف الرجال ممن دافعوا عن الوطن ورصع ووشح أسماءهم في سجل التاريخ والخالدين.

رابعا: نماذج وشهادات عن سياسة التعذيب الاستعماري بمنطقة سيدي بلعباس

بعد أن استعرضنا الأعمال الوحشية التي قام بها الجيش الفرنسي ضد السكان المدنيين وضد المجاهدين في مراكز التعذيب والتي كانت منتشرة عبر تراب منطقة سيدي بلعباس، محاولا العدو الفرنسي من خلالها خنق كل صوت يؤمن بالثورة أو يحتضنها، وأصبحت كاستراتيجية ومنهجية لديه للحد من قوة الثورة مبرهنا على شراسة جيش الاحتلال.

ونحاول الآن أن نعطي صورا حية عن تلك الأعمال الشنيعة كنموذج من عشرات المئات لحالات التعذيب التي شهدها سكان هذه المنطقة شأنها شأن بقية المناطق الأخرى من الجزائر.

- **شهادة المجاهد قندوسي عبد الله يقول**(35):

وعن الحياة المزرية و المعاناة داخل المركز نستشهد بالشاهد العيان ممن عايشوا الظلم داخله، وهو المجاهد "**قندوسي عبد الله**" الذي أسر في هذا المركز لمدة سنة كاملة من 1957 إلى 1958 وحول ما تعرض له قال ما يلي: "لقد دخلت مركز القصبة لبوخنفيس وتعرضت لأبشع أنواع التعذيب ومن بينها التعذيب بالماء حيث بعد تقييدي من يدايا ورجلايا فلا أستطيع المقاومة بعدها يأتون بأنبوب من المطاط ويصلونه بين الحنفية وبين فمي ثم يرسلون الماء حتى امتلأ جوفي وكدت أختنق ليقوموا في نفس الوقت بركلي وضربي من كل جهة، ليخرج الماء من كل منافذ جسمي"، وأحيانا كان التعذيب بواسطة الكهرباء، وعن هذه الكيفية يضيف قائلا: "لقد تم إيصال التيار الكهربائي بالأجزاء الحساسة من جسمي حتى كدت في بعض الأحيان أن أفقد صوابي ووعيي من جراء هذا الأسلوب من التعذيب"، ومن أشنع وسائل التعذيب كذلك التي تعرض لها المجاهد قندوسي هي إرغامه على أكل عشرون كيلوغرام من البصل يقول في هذا الصدد: " في صباح إحدى الأيام قام بعض الجلادون بتكبيلي من كل جهة ليحضروا بعدها أكياس من البصل وأرغموني بالقوة على ابتلاعها وإلا سوف أقتل مباشرة، فكان علي إلا أن أمتثل لأمرهم وواصلت أكل البصل من الساعة التاسعة صباحا إلى غاية الخامسة مساءا حينها انفجرت معدتي مما اضطر بهم نقلي إلى المستشفى-حساني عبد القادر حاليا-ومكث فيه شهرا كاملا ليعودوا بي إلى المركز ثانية وبعدها تم

تعرضي إلى اعتداء من طرف جنود الاستعمار مما أجبرت على القيام بعملية جراحية، إلى أن تم بعدها إطلاق سراحي لعدم ثبوت الأدلة الكافية"، ويضيف ذات المتحدث أن الاستعمار لم يكتفي بتسليط هذا العذاب فقط بل شمل شتى أنواعه أثناء الاستنطاق والتي لا تقل خطورة وبشاعة كسابقاتها.

- **شهادة الفدائية داني الكبير سعدية (المدعوة محجوبة)** [36]:

المجاهدة الفذة أطال الله في عمرها وبعد إيعاز أمر من الملازم "**سي عبد الكريم**" مفاده ضرورة التوجه إلى حي سيدي ياسين بقلب مدينة سيدي بلعباس بغية جلب مسدس أسطواني كان مخبأ في بيت أحد المناضلين ونقله إلى ذات الفوج الفدائي للقيام بعملية نوعية ضد عساكر فرنسا، وفي طريق المجاهدة وبعد وشاية من أخد الخائنات تم القبض عليها من طرف النقيب "**بونس**" (**Pons**) ليتم نقلها إلى معصرة الزيتون بطريق معسكر ليسلط عليها عذاب جهنمي مدة 10 أيام متتالية لتمكث بالمركز مدة ستة (06) أشهر عذبت الكهرباء والضرب بالسوط وإغمارها بالماء .

وعن شهادتها الحية تؤكد:" أنها حينما كانت تدق الساعة منتصف الليل:" تقول كنت أخرج بمعية المقبوض عليهم ويتم تعذيبنا داخل قبو من طرف "مينوس"، ويؤتى بسرير ويتم بسط جسدي عليه، وأكبل من يدايا ورجلايا، ويقومون بكي جسدي كله باستعمال آلة الصعق الكهربائية دونما أن أتفوه بكلمة سر عن المجاهدين رغم معرفتي بجميع الأسرار الثورية ، وأمام عنادي وصبري يتم استعمال الماء المتواجد بالقبو عن طريق توصيل خرطوم ماء بالحنفية ويدخل في فمي وأرغم على الشرب دون أن آخذ أنفاسي ،حتى يغمى علي وبعد استعادتي لوعي أتحسس خروج الماء من أنفي، ثم يؤتى بطبيب المركز ليتفحصني ويعاين مؤشراتي الجيوية والجسدية ليبقيني الجلاد متيقضة، ويطرح سؤالا على الطبيب: أهل هي مقاومة للعذاب أهل بها حياة ؟ ...".

وتسترسل المجاهدة شاردة الذهن مغرورة العينين تذرف دما تارة وزخاة من الذكريات تارة أخرى، والتي كانت سنها حين ذاك قاصرة نحيلة الجسد، وتمتلك عزيمة قوية لا تكل أبدا.

وبعد ما أن كل الجلاد **بونس** من تسليط العذاب الأليم على المجاهدة نودي وأوتي بالجلاد **قودينو** (**Godino**) ليوجه لها وابل من العذاب ليلقم مسدسه ويضعه على رأسها ويهددها بطلق النار لكنها لم تأبه وصبرت وتحدته قائلة هلم نفذ وأطلق فإيماني باستقلال الجزائر قوي وأنكم

سترحلون عن وطننا، فاستشاط العدو وهم في تسليط أعتى العذاب على المجاهدة وتفوه أمامه **بونس** ليؤزه على شحذ ضغينته وهي تسمع حديثهما قائلا له: "إذا ما استطعت أن تفتك منها بمعلومة أو تبوح لك الأسيرة بسر عن الثورة ستكافئ ويتم ترقيتك في الرتبة الأعلى"، ولكنها كسرت إرادتهما وتجلدت ولم تتفوه بكلمة تخص المجاهدين أو الثورة، فأمر الجلاد بستة (06) من معاونيه من الخونة بإخراجها وقتلها في مقبرة المولى عبد القادر، فأمرها الجلاد **مينوس (MUNOS)**بترك رسالة أو وصية لوالديها فرفضت، أصر وألح للمرة الثانية على طلبه لكن رفضت متعنتة لأمره، فقال لها: "**الحياة ستنتهي معك**..." فعقدوا العزم على تنفيذ مأربهم ، وحينما هموا لإركابها على متن سيارة **جيب (Jeep)** لتنفيذ أمر القتل، حل عليهم قائد اللفيف الأجنبي **ميدون (Midon)** فأمر بإعادتها إلى زنزانتها كونها قاصرة وأنه في غنى عن تحقيق في ذات الشأن ظف إلى تقيده في نظره بمعاهدة جينيف المتعلقة بحماية ومعاملة الأسرى، وأمر الجلاد **بونس** باستكمال الملف ومعاملتها بلطف ومحاكمتها دون قتلها، وإن لم ينصاع لأمره سيتصل إذا تطلب الحال بالجنرال ديغول عن قضيتها، فهاب الجلادون منه وأعادوها، وحولت إلى **مزرعة بارج(Ferme Berge)** بمخرج حي ماكوني بسيدي بلعباس، ليتم التحفظ عليها مدة أسبوع، لتحول مرة أخرى إلى سجن وسط المدينة، ولكن آمر السجن هاب ورفض استقبال الفدائية " **محجوبة** "، لتحول مرة ثالثة إلى معتقل النساء **تيفيشون** بمدينة تيبازة دونما أن يتم تعذيبها مدة بقائها به حتى تاريخ وقف إطلاق النار بمضي أسبوع، وسرحت منه يوم 24 مارس 1962، لتتجه بمعرفة سكان مدينة البليدة ولتركبا القطار المتجه إلى مدينة سيدي بلعباس بمعية رفيقاتها **عاشور** المدعوة **جميلة** من المعتقل لتصلا إليها نهارا وهي خالية من المارة، فأوجست المجاهدة في نفسها خيفة ووقفت تتحسس الأمر، كيف لا وهي المجاهدة الفطنة ذات الباع في البطولة والإقدام، لتمشي بمعية رفيقتها على مشطي رجليهما في ترقب وحذر على طول طريق السكة الحديدية لتدخلا معا المنزل العائلي الخاص بالمجاهدة، وبعد استبيان واستقصاء عرفت أن **منظمة الجيش السري** تنفذ القتل و الاغتيال الجماعي للمواطنين، ولم تكل فحركتها وطنيتها واتجهت إلى حي القرابة الشعبي بالمناضلين **بحمام بن شيحة،** فطالبت الجمع بالدفاع والانتفاض ضد (م.ج.س)، قيل لها أن السلاح شحيح، وأنه متواجد بمدينة تلمسان عند القائد "**سيناصر**"، فبادرت بمعية جندي لجيش التحرير الوطني للإتيان به، فأعلمها القائد أن قطع

السلاح متواجدة بحمام بوحجر لدى أحد المناضلين فسلمها وثيقة "**أمر بمهمة**" كون السلاح ذو قيمة فنية وقتالية عالية، للتعريف عن نفسها وليسمح لها بنقل وجلب السلاح إلى مدينة سيد بلعباس، وأكملت المهمة بنجاح وتم تدعيم الثورة و المجاهدين بالسلاح، وبقيت المجاهدة في إسعاف المرضى بالمدرسة تحت إمرة الطبيب "**سي صابر**" حتى نيل الحرية و الاستقلال.

الهوامش:

1. سعدي (بزيان)، **"جرائم فرنسا في الجزائر من بيجو الى أوساريس"**، دار هومه، الجزائر، 2009، ص 13.
2. الصديق (محمد الصالح)، "**كيف ننسى و هذه جرائمهم**"، دار هومة، الجزائر، 2009، ص200، **أنظر كذالك:**

- البقيرات (عبد القادر)، "**جرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر خلال فترة الاحتلال-جريمة التعذيب-**"، الملتقى الدولي حول: **الممارسات القمعية والسياسات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر (1830_1962)**،غير منشور، وهران يومي: 4 و 5 ماي 2015.

3. القورصو (مليكة)، "**الجزائر 1954-1962 التعذيب في ميزان النقاش**"، منشورات دحلب 2013، ص ص (51،49).
4. بونو (ايف)،" **مجازر استعمارية_الجمهورية الرابعة_1944-1950"وكبح جماح المستعمرات الفرنسية"**، ترجمة: العيد دوان، منشورات لاديكوفيرت وسيروس، باريس، 2013، ص ص (182،181).
5. فرجاس (جاك)، "**جرائم الدولة_الكوميديا القضائية_**"قراءة وتعليق "موسى زمولي"، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2013، ص 73.
6. سعدي (بزيان)، **"جرائم فرنسا في الجزائر من بيجو الى أوساريس"**، المرجع السابق، ص ص (15،14).
7. سعدي (بزيان)، **صفحة ظالمة ومظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسي، مجلة أول نوفمبر**، العدد 172، ديسمبر 2008 الموافق لـ ذي الحجة 1429هـ، ص ص (35،29) .
8. **مفهوم التعذيب**: يقصد به على العموم الآلام الجسدية و الذهنية التي يلحقها أعوان السلطة بالأفراد بصفة منظمة أو غير منظمة، دون سبب ظاهر من تلقاء أنفسهم أو بناء على أوامر السلطة الإدارية أو السياسية أو كلاهما معا، ويتضمن التعذيب عدة أشكال وأنواع وهو على درجات مختلفة و هو في الأساس يتشكل على نوعين: تعذيب نفسي وآخر جسدي، **حول موضوع طرق ووسائل التعذيب الفرنسي في ثورة التحرير الوطني الجزائري يرجى العودة إلى:**

- قنطاري(محمد)، "من **بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي**"، حقائق ووثائق، دراسات، تحقيقات وشهادات، تقديم: فخامة رئيس الجمهورية المجاهد عبد العزيز بوتفليقة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 161 وما بعدها.

9. بلعبدي (عابد)، "السجون والمعتقلات والمحتشدات إبان الثورة التحريرية، المركز الوطني للدراسات، ص23.
10. الصديق(محمد الصالح)، المرجع السابق، ص 202.
11. **مجلة أضواء التاريخية**، العدد الثالث، "**سجل جرائم ضد الإنسانية في سفيزف**"، مديرية المجاهدين لولاية سيدي بلعباس، مصلحة المحافظة على التراث التاريخي والثقافي، ص ص (12،11).
12. نهاري (علي)، "**من جرائم الجيش الفرنسي في بعض مناطق الولاية الخامسة خلال الثورة الجزائرية**"، الطبعة الأولى، 1432/2010، مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ص ص (16،14).
13. بلبوري (سيد أحمد)، "**محطات تاريخية لناحية سيدي بلعباس إبان الثورة الجزائرية**"، **الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830/1962**،جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، ص ص (141، 149).
14. نهاري (علي)، المرجع السابق، ص21.

15. بلبوري (سيد أحمد)، "**محطات تاريخية لناحية سيدي بلعباس إبان الثورة الجزائرية**"، المرجع السابق، ص ص(141، 149).

16. نجادي (بوعلام)، "**الجلادون 1830–1962**"، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات ANEP، ص ص (270،271)، **أنظر الحصة** التي نشطها الأستاذ الباحث "بوعلام نجادي" بمقر إذاعة سيدي بلعباس حول جرائم فرنسا في منطقة سيدي بلعباس، بمناسبة إحياء ذكرى السادسة والأربعين لاسترجاع السيادة الوطنية.

17. اللجنة الولائية للاحتفال بذكرى 37 لعيد النصر–تلاغ– **مديرية المجاهدين**، ص 19.

18. أرشيف بلدية رأس الماء، هذه الأخيرة تبعد عن مقر ولاية سيدي بلعباس بـ 100كلم.

19. ننهاري (علي)، المرجع السابق، ص 31.

20. نفسه، ص 15.

21.- AINAD TABET(Redouane), « **Histoire D'Algérie, Sidi Bel Abbés De La Colonisation A La Guerre De Libération En Zone 5 Wilaya V (1830-1962)**», Avec La Collaboration De TAYEB NEHARI, Officier De L'A.L.N, ANP, Edition, Alger1999,P 300.

22. نهاري (علي)، "**من جرائم الجيش الفرنسي في بعض مناطق الولاية الخامسة خلال الثورة الجزائرية**"، المرجع السابق، ص ص (27،28).

23. نفسه، ص ص (26،27)، **أنظر كذلك**:

- AINAD TABET (Redouane), Op.Cit, PP(300,301).

24. AINAD TABET (Redouane), Op.Cit, PP (292,293).

25. Ibid,P 292.

26. Ibid,P 302.

27. **مقابلة مسجلة** مع لعرباوي يحي–ابن الشهيد–مدير ثانوية حسيني حسين بمدينة سيدي بلعباس يوم **2010/04/18**.

28. منشورات –مطوية خاصة بالمؤسسة ونبذة عن الشهيد.– من إصدار المتوسطة التي تحمل اسمه ببلدية سفيزف تخليدا للشهيد رحمه الله.

29. كما أنه بعد اليوم الموالي لإلقاء القبض عليه بتاريخ 11 مارس 1957 حرر محضر قضائي كتب فيه أن لعرباوي أحمد يوم إلقاء القبض عليه كان بحوزته كيس فيه 12 جوز من الأحذية بمختلف المقاييس وسلاح ذو معيار9 ملمتر، حيث تم إرسال محضرين قضائيين آخرين أحدهما إلى رئيس دائرة سيدي بلعباس والثاني إلى قاضي بلدية مارسي لاكومب، **مقابلة مسجلة** مع لعرباوي يحي–ابن الشهيد المقابلة المسجلة السابقة.

30. نفس المقابلة المسجلة السابقة.

31. أرشيف متحف المجاهد عبد القادر بومليك بسيدي بلعباس.

32. **مجلة أضواء**، العدد الثالث2000، نشرة إعلامية تاريخية فصلية تصدر عن مديرية المجاهدين لولاية سيدي بلعباس، مصلحة المحافظة على التراث التاريخي والثقافي، ص34.

33. منشورات مديرية المجاهدين والمكتب الولائي للمنظمة الوطنية للمجاهدين لولاية سيدي بلعباس، "**استمارات خاصة بالأحداث التاريخية والعسكرية–لدائرة تلاغ–**، ص ص (03،05).

34. نفسه، ص 03.

35. **مقابلة مسجلة مع** قندوسي عبد الله،التحق بالثورة عام 1956كمناضلفي ج.ت.و ثم كمسؤول عن جمع الاشتراكات في الخلية ثم في الفوج ثم في العرش ثم في الفرع، القسمة الأولى، الناحية الأولى،في المنطقة الخامسة،يوم 09جوان2009، بمقر بلدية لمطار.

36. **مقابلة مع داني الكبير سعدية:** من الفدائيات اللواتي لعبن دورا فعالا أثناء الثورة بمنطقة سيدي بلعباس، بتاريخ: **2015/12/23** و**2016/02/14** بمقر سكناها بمدينة سيدي بلعباس، أطال الله في عمرها.

مهمة الفلسفة إزاء المجتمع والتقنية والكائن

قراءة في حوار مارتن هيدغر وريتشارد فيسر*

الدكتور لكحل فيصل، جامعة تيارت

الملخص: يبحث المقال في الحوار الذي أجراه ريتشارد فيسر مع مارتن هيدغر فيما يخص الفلسفة والمجتمع والكائن أي في دور الفلسفة اتجاه المجتمع والكائن، لأن التساؤل عن ماهية الفلسفة لا يتحدد من داخل الفلسفة كبحث في المعرفة والوجود والقيم وإنما في مهمتها ودورها الحضاري، في مجال الإنسان والمجتمع والمتغيرات العلمية والتقنية والتكنولوجية التي أثرت في الوجود الإنساني المعاصر.

The following article deals with the dialogue conducted by Richard Visser with Martin Heidegger concerning philosophy, society and the object, in other words, the role of philosophy towards community trend and the object, because the question of what philosophy is, is not determined from within philosophy as research in the knowledge and existence and values, but in its mission and role in civilization in the field of human, society and scientific, technical and technological variables that have affected the contemporary human existence.

الكلمات المفتاحية : التقنية Technology المجتمع society الكائن The object الوجود Being الفلسفة Philosophy .

مقدمة:

إن النص الذي نحن بصدد مناقشته وتحليل مضامينه عبارة عن حوار أجراه "ريتشارد فيسر" مع "مارتن هيدغر" في إحدى قنوات التلفزة الألمانية ونشر في إطار مؤلف جماعي تحت إشراف ريتشارد فيسر عن دار النشر Karl Alber، فرايبورج ميونيخ 1970، ص: 67-77. وهو نص يتكلم فيه هيدغر عن موضوعات ومسائل متباعدة عن بعضها البعض نسبيا، لأنه لم يكن نصا منضما بشكل كاف، ينتقل فيه المحاور من السؤال حول مهمة الفلسفة عامة ودورها بالنسبة

للإنسان والمجتمع والكائن والكينونة بعامة إلى التساؤل حول وظيفة الفلسفة بالنسبة للجامعة ثم بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى، ليربط المحاور كل هته الأسئلة من خلال بيان علاقتها بفلسفة هيدغر الأنطولوجية، محاولا أن يجد إجابة عنها من مسار الفكر الهيدغري ذاته. ويبدو من خلال الحوار أن هيدغر غالبا ما يوجه السؤال الذي يطرح عليه من طرف ريتشارد فيسر إلى سؤال آخر يتلاءم مع طبيعة الأسئلة الجذرية التي تطرحها فلسفته، ولكن على الرغم من تباين الموضوعات التي شكلت مضامين الحوار إلا أن هناك هدفا مشتركا يحكم كل إجابات هيدغر، يظهر ذلك من خلال تركيزه على علاقة الفلسفة بمتغيرات العصر العلمية والتقنية التي أثرت بدورها على الوجود الإنساني المعاصر ومن ثم على مآله ومصيره. إن أهمية تحليل مضامين وحيثيات هذا الحوار هي بيان وجهة نظر فلسفة هيدغر إزاء متغيرات العصر، لا سيما أن الحوار كان في سنة 1970 (أي قبل ستة سنوات من وفاة هيدغر)، وبالتالي معرفة إن كانت مواقف هيدغر الفلسفية إزاء الكائن الكينونة، الإنسان، المجتمع، العلم التقنية... قد تغيرت في آخر مساره الفكري أم انها بقيت متمسكة بالمسار الأنطولوجي نفسه الذي طرح في مؤلف "الكينونة والزمان"[1] منذ 1927؟ إن السؤال الهادي في قراءة ومناقشة مضامين وموضوعات هذا الحوار الفلسفي بين فيسر وهيدغر هو بيان المهام المناطة بالفلسفة أمام متغيرات العصر في مجال الإنسان، المجتمع، العلم، التقنية التكنولوجيا، التي أثرت بدورها على الدزاين الإنسي المعاصر؟

يبدأ فيسر سؤاله لمارتن هيدغر حول المهمة الاجتماعية للفلسفة في الوقت الحاضر؟ بمعنى ماذا يمكن أن تقدم الفلسفة للإنسان والمجتمع والعلم، وكذا مدى مساهمتها في تغيير الأنماط التقليدية فيما يخص إصلاح المجتمع والجامعة.

إنَّ جواب هيدغر دقيق وحاسم، وهو الجواب نفسه الذي أقره منذ أربعين عاما في محاضرته الافتتاحية بجامعة فرايبورج 1929، إنه من الصعب جدا تحديد مهمة واضحة للفلسفة ازاء الانسان والمجتمع والعلم والكائن، لأن تفرعات العلوم ومجالات بحثها يجعل من الصعب القبض عليها وفق ما يحدد لنا مهام الفلسفة ازاء كل منها، "إن كل مفكر يفكر فقط في فكرة واحدة. وهذا ما يميز كذلك بشكل أساسي الفكر عن العلوم، إن الباحث der Forscher يحتاج دائما إلى اكتشافات وأفكار جديدة وإلا وقع العلم في الكساد Stocken والخطأ. أما المفكر فيحتاج فقط

إلى فكرة واحدة، والصعوبة التي تواجه المفكر هي أن يحتفظ جيدا festhalten بهذه الفكرة الوحيدة والواحدة باعتبارها الشيء الوحيد الذي ينبغي التفكير فيه حسب رأيه"[2]، إن المفكر يتوجه صوب خط أفقي محاولا بحث الفكرة التي يريد الكشف عنها، إذ كلما أوغل المفكر أو الفيلسوف في البحث والسؤال عن حقيقة وماهية هذه الفكرة كلما حقق غاية ومهمة الفلسفة، بينما في مجال العلوم فإن الأمر يختلف اختلافا جذريا، لأن الباحث في العلم مطالب دوما بالوصول إلى أفكار جديدة إزاء العلم موضوع البحث، فمثلا لو اكتفى الفيزيائي في موضوع بحثه بالمعطيات الفيزيائية الكلاسيكة لتوقف البحث في الفيزياء ولم تصل إلى ما وصلت إليه اليوم من أفكار جديدة حول الذرة والنيترون والبروتون والإلكترون وعالم الميكروفيزياء وغيرها، وبالتالي ما كان للفيزياء الحديثة والمعاصرة أن تقوم لها قائمة لولا تجاوز التفسيرات الفيزيائية الكلاسيكية. "ولنتأمل لحظة ما يعنيه القول بأن عصرا من عصور التاريخ يتميز بكونه "عصرا ذريا" إن الطاقة الذرية التي اكتشفتها العلوم وأطلقتها من عاقلها قد تمثلت، كأنما هي القوة التي يجب أن تحدد مجرى التاريخ. والحق أن العلوم لا تكون إلا إذا تقدمتها الفلسفة"[3]، إن نظريات العلم متغيرة على حسب تغير معطياته، فهو دائما في مساره يسعى إلى اكتشاف النتائج الجديدة التي تبقى صادقة فقط ما لم تأتي نتائج أخرى تكذبها، وهكذا فإن مسار العلم تراكمي يحتاج دائما إلى الأفكار الجديدة التي تحفظه من الكساد والخطاء.

ولكن "ومع ذلك فإننا في هذه العلوم جميعا، وإذا تتبعنا مقاصدها الخاصة بها تماما –نكون دائما على صلة "بالموجود نفسه". ومن وجهة نظر هذه العلوم لا يتمتع ميدان من ميادينها –على وجه الدقة– بأية "أولوية" على غيره من الميادين، فالطبيعة لا تأتي "قبل" التاريخ، أو العكس. وليس في المناهج التي تتناول الأشياء منهج يعلو على سائر المناهج"[4]، يبحث العلم الشيء نفسه، أي أنه يبحث في الظواهر محاولا إيجاد تفسير مناسب لها يقترح هيدغر تعريفا للعلم الحديث كنظرية للواقع[5]، غير أن العلم كنظرية لا يعدو أن يبحث إلا في ظاهرية الظاهرة، أما السؤال عن الظاهرة نفسها فهو من مهام الفلسفة، يبدو أن أفق العلم ينسد أمام انفتاح السؤال الفلسفي، و"إن السؤال هو تقوى (خشوع) الفكر"[6]، لأن مهمة الفلسفة الحقة تبدأ حين ينتهي العلم إلى نتائجه بعد صياغة الفروض والتجريب والوصول إلى القوانين، ينتهي العلم إلى أفق مسدود "العلم لا يتحرك في بعد الفلسفة،

ولكنه مع ذلك متوقف دون أن يعرف.... مثلا: تتحرك الفيزياء في إطار مفاهيم الزمان والمكان والحرية. ولكن العلم كعلم لا يمكن أن يحسم في تحديد الحركة المكان والزمان. إن العلم إذاً لا يفكر أنه لا يستطيع بتاتا بواسطة مناهجه بهذا المعنى. لا يمكنني مثلا أن أقول ما هي الفيزياء بواسطة مناهج فيزيائية، إنني لا أستطيع أن أفكر ما هي الفيزياء إلا بكيفية السؤال الفلسفي"[7].

بيد أنَّ مهمة الفلسفة ازاء العلوم، تتطلب من الفكر أن يكون عمليا بالمعنى الذي يؤثر في واقع الانسان وتطوره الاجتماعي والحضاري، بل أن الفكر النظري وحده غير كاف البتة ما لم تعمل العلوم من تلقاء ذاتها على أن تكون عملية في متناول غايات الانسان وأهدافه العملية. "إن ميادين المعرفة ينفصل بعضها عن البعض الأخر بمسافات متباعدة، والطريقة التي يعالج بها كل علم من علومنا موضوعه تختلف اختلافا جوهريا عن طريقة غيره من العلوم. غير أن هذا الحشد المتناثر من المناهج العلمية لا يدين اليوم بأنساقه لغير التنظيم الفني للجامعات والكليات، ولا يحتفظ بأى معنى من خلال الغايات العملية التي يستهدفها المتخصصون. وعلى العكس من ذلك نجد أن جذور العلوم في أساسها الجوهري قد ذوت واضمحلت"[8]، إن ما يميز المعرفة المعاصرة هو تعدد موضوعاتها وتفرعها داخل العلم الواحد، وتبعا لذلك تتعدد وتتغير مناهجها على تبع تغير وتفرع موضوعاتها، سواء في مجال الفيزياء أو البيولوجيا أو التقنية أو التكنولوجيا أو غيرها، غير أن موضوعات ومناهج العلوم بقيت على الرغم من موضوعيتها وأهدافها العملية عاجزة عن معرفة حقيقة الظواهر التي تبحثها، "غير أن الصفة التي يمتاز بها العلم ترجع إلى أنه يترك —عامدا أو متعمدا– الكلمة الأخيرة للشيء ذاته، وللشيء وحده. وحين يتمسك العلم بما في الأشياء من مادية صرفة، فإنه يخضع للموجود بحيث يترك له وله وحده — أن يكشف عن نفسه"[9]، لا يمكن للعلم أن يفكر نفسه كعلم، وبالتالي فإن نتائجه ليست متوقفة عليه بشكل مطلق، العلم يعتمد على تفسير وتأويل الظواهر، إن الكلمة الأولى والأخيرة بالنسبة للاكتشافات العلمية إنما ترجع إلى الظواهر لا يستطيع العلم أن يقول أي حقيقة خارج الظواهر، إن العلم يخضع للموجود في كليته، بيد أن الفلسفة بمعناها الحق في نظر هيدغر هي تجاوز للموجود من حيث هو موجود والاهتمام بالوجود ذاته. إذ "منذ المنعطف الذي طرأ على فكر هيدغر ابتداء من سنة 1930 أضحى التفكير في الوجود بعيدا عن

كل تصور لفهم الوجود، حيث توجه هيدغر مباشرة إلى التفكير في الوجود أو في حقيقة الوجود انطلاقا من الوجود ذاته"[10]، ليس للفلسفة مهمة اجتماعية واضحة بالمعنى الذي يجعل من العلوم في خدمة الإنسان، لذلك كانت اجابة هيدغر عن سؤال فيسر حول المهمة الاجتماعية للفلسفة بالنفي "لا يمكن الحديث عن مهمة اجتماعية بهذا المعنى"[11].

ذلك أن تطور المجتمع الحديث في نظر هيدغر لم ينفصل عن مبدأ الذاتية، بل أنه كما يقول "ليس سوى صيغة مطلقة للذاتية"[12]، إن معايير قيام المجتمع الغربي الحديث قد تحددت سلفا وفق مبدأ الذاتية[**]الذي وضع رونيه ديكارت مبدأه النظري، حينما اعتبر أن الانسان سيدا للطبيعة ومالكا لها، وأن الذات الإنسانية هي اليقين المطلق الذي لا يطاله الشك، "إن الذاتية Subjektivitat : Subjectivité، تعني ما يجعل الذات ذاتا وهيدجر يرى أن ما يميز التاريخ الغربي الحديث هو أن الذات أصبحت مركزا يتحدد على ضوئه ما يجب أن يعتبر كائنا وما لا يجب أن يعتبر كذلك. والذات قد تؤول بأشكال مختلفة: مثلا كوعي ترنسندنتالي، كجسد كعرق كمجتمع الخ"[13]. إن المجتمع الحديث لا يعدو أن يكون سوى صورة متمثلة لما تقره الذات العارفة سلفا التي تحولت مع ايمانويل كانط الى مبدأ للقيم الاخلاقية ومع فريديريك هيغل الى مبدأ للتاريخ، إن المجتمع بمفهومه العام ليس سوى تلك المعارف والقيم التي تسقطها الذات في علاقاتها مع الذوات الأخرى، وبالتالي فمن غير الممكن الكلام عن مجتمع يمكنه أن يتنصل تماما من حاكمية مبدأ الذاتية.

إن ظهور العلم بمعناه الحق تم مع الحداثة الغربية[***]، وذلك منذ أن حدد ديكارت معالم الحداثة الغربية برمتها حينما اعتبر الذات الإنسانية مبدأ للمعرفة والوجود، "الميتافيزيقا الحديثة بدأت مع ديكارت من خلال تعريف الحقيقة كيقين"[14]، فالذات هي المرجع في الحكم على الموضوعات وتحديد معايير الحقيقة واليقين، "لم يوجد العلم كبحث إلا حينما أصبحت الحقيقة يقينا للتمثل وتحدد الموجد لأول مرة كموضوع له في ميتافيزيقا "ديكارت". فعنوان الكتاب الرئيسي لهذا الأخير "تأملات في الفلسفة الأولى" (بريتي فيلوصوفيا) هو المفهوم الأرسطو طاليسي لما سيسمى فيما بعد بـ: "الميتافيزيقا". والميتافيزيقا الحديثة بكاملها، بما فيها ميتافيزيقا "نيتشه"، سوف لن تحيد عن هذا

التأويل للموجود وللحقيقة الذي أقامه "ديكارت"[15]، إن العلم بمعناه الحديث لم ينفصل عن الميتافيزيقا، بل أن النظريات العلمية الحديثة التي استندت على المعايير الموضوعية في بناء أحكامها ونتائجها بقيت تستمد أصولها ومبادئها من الذات الإنسانية التي كانت المرجع الأول والأخير في الحكم على صدق وصحة يقينيات العلم، ولئن اعتقد الفلاسفة التجريبيون والوضعيون على أنهم تجاوزوا الميتافيزيقا من خلال تحرير المعارف الحسية والموضوعية من الافتراض المسبق لأحكام الذات، إلا أن الذات بقيت المرجع الأخير في تأكيد موضوعية المعرفة والوجود معا. إن الاختلاف بين فلاسفة العصر الحديث حول أولوية وأسبقية المعرفة والوجود بين (ذات/ موضوع)، انتهي في الأخير مع كانط وهيجل إلى تأكيد أولوية الذات وأسبقيتها المعرفية والأونطولوجية ومع فريديريك نيتشه في إرادة القوة ومع إدموند هوسرل في الذاتية المتعالية، ومن هنا تحددت حسب هيدغر أطوار التشكل والاكتمال لميتافيزيقا الحداثة الغربية في نسق الذات.

إن السؤال حول مهمة الفلسفة بالشكل العملي يقتضي التغيير في نمط التفكير الفلسفي ذاته، لأنه لا يمكن تغيير الانسان والمجتمع إلا اذا غير الفكر تصوراته، لذلك نجد هيدغر في قراءته لمقولة كارل ماركس "لم يقم الفلاسفة إلا بتأويل العالم بكيفيات مختلفة، في حين أن المهم هو تغييره"[16]، يرى أن كارل ماركس ذاته من خلال قوله هذا استند الى تأويل معين للعالم في مطالبته بتغيير العالم، ذلك أن "تغيير العالم يفترض تغيرا في تصور العالم انه لا يمكن الوصول الى تصور للعالم إلا اذا تم تأويله على نحو كاف"[17]. لا يمكن الكلام بشكل مطلق عن تغير في المجتمع، العلم، الكائن، الكينونة. على النحو الذي يمكن من خلاله التخلص من مشكلات العصر لأن الفلسفة بهذا الشكل ليست سوى تأويل للعصر، اذ لا يمكنها أن تخلص العالم من مشكلاته وأزماته. إنها لا تعدو سوى أن تقدم صورة لما هو عليه هذا العصر، انها مجرد تأويل له فقط.

لقد عرف عن فلسفة هيدغر أنها فلسفة توغلت في سؤال الانطولوجيا الأساسية التي حددها مؤلف "الكينونة والزمان" 1927، وهي الانشغال بسؤال الكينونة من خلال تقويض صرح الميتافيزيقا الغربية، إن همها الأكبر تجاوز/ تقويض الميتافيزيقا الغربية في سبيل الكشف عن سؤال الكينونة، وبالتالي إهمال سؤال الإنسان والمجتمع والقيم، يقول فيسر سائلا لهيدغر "واضح أن كل

شيء يتعلق حسبكم بتقويض الذاتية، وليس بما يتم التركيز عليه اليوم: ما هو انتربولوجي ومتمركز على الإنسان، ليس بالتصور الذي يرى أن الانسان يكون بفضل المعرفة التي لديه عن نفسه والفعل الذي يقوم به قد أدرك ماهيته. بدل ذلك توجهون الانسان الى الانتباه الى تجربة الدزاين"[18]، كثيرٌ هي الاتهامات التي وجهت لفكر هيدغر من مثل أن فلسفته لا علاقة لها بالإنسان والمجتمع وأنها ضحت بالإنسان والمجتمع في سبيل سؤال الكينونة، في سؤال فيسر لمارتن هيدغر "كيف يمكن أن تصير فلسفتكم اليوم فعالة في مجتمع مشخص له مهامه وهمومه المتعددة، متاعبه وألآمه؟"[19]، يؤكد هيدغر أنه لا خلاص من سؤال الكينونة، لأن أي سؤال حول ماهية الانسان يفترض ويستدعي ضَرورةً سؤال الكينونة، إن منطلق مؤلف "الكينونة والزمان" هو كيف أن الميتافيزيقا الغربية نسيت سؤال الكينونة واهتمت بسؤال الكائن****، يبن هيدغر أن هذا النسيان ليس له معنى سلبي، وإنما هو مصير الميتافيزيقا الغربية ذاتها، إذ بعد ما كانت الكينونة منفتحة ومنكشفة في عهد الإغريق الأول أضحت منذ افلاطون والى غاية العلم والتقنية الحديثة اختفاء وانسحابا واحتجابا ولا تكشفا. "إن ما هو مستهدف من خلال السؤال عن "الوجود والزمن" هو اللامفكر فيه لذلك لا يعدّ هذا اللامفكر فيه في الميتافيزيقا نقصا فيها"[20]، إن الميتافيزيقا قدر الغرب وهي تكشف عن نفسها في التاريخ الغربي من خلال تمثلها النسقي في كل عصر من العصور، ولكن البراديم هو نفسه إن الروح الأفلاطوني والذات الحديثة وإرادة القوة وغيرها من المبادئ النسقية للحداثة تجد اكتمالها في التقنية بما هي عهد الاكتمال النسقي للميتافيزيقا،لقد بلغت الميتافيزيقا ذروتها في التقنية بما هي التجلي الأكثر خطورة لها، إذ "ولئن كان البعض يعتقد من خارج الطرح الهيدغري، بأنَّ العلم والتقنية قد تجاوزا الميتافيزيقا، بالعكس من ذلك تعد التقنية عهد اكتمال واستتمام للميتافيزيقا الغربية، فالتقنية تستند على أحكام ومواقف ميتافيزيقية شكلتها الحداثة الغربية، حداثة ميتافيزيقا الذاتية"[21]، إن التقنية هي التجلي الأخير لميتافيزيقا الذاتية.

يقول هيدغر "ماهية التقنية ليست شيئا تقنيا"[22]، بل هي ميتافيزيقا، وما هو ميتافيزيقي في التقنية هو كونها حجبت الوجود الطبيعي للإنسان ودفعته إلى الارتباط بعالم معد بشكل إصطناعي ومتحكم فيه بشكل آلي وبالتالي سلبت من الإنسان حريته ووجوده الطبيعي الحر، "وهكذا فإن

ماهية التقنية ليست البتة تقنية (أو شأنا تقنيا) وهكذا لم ندرك أبدا صلتنا بماهية التقنية، ما دمنا نقتصر على تصور التقنية وعلى ممارستها، على التكيف معها أو الهروب منها، نبقى في كل شيء مقيدين بالتقنية ومحرومين من الحرية"[23]، إن التقنية تسيج الإنسان في عالم من التفاؤلية المصطنعة التي توهمه أنه بإمكانه التنبؤ بمستقبله والتحكم فيه بشكل آلي، بيد أن هذا الافتراض لا أساس له من الصحة، لأن هناك في مقابل التفاؤولية التي تخدرنا بها نتائج التقنية –التي تبدو أنها في صالح الإنسان– تشاؤومية مبطنة تكمن في النتائج الكارثية للتقنية، تلك التي قادت الإنسانية إلى حروب عالمية وإلى دمار كارثي للإنسان في وجوده. في سؤال فيسر حول كلام هيدغر عن مخاطر التقنية التي سيطرت على الانسان وتحكمت فيه بقوله "ماذا تقصدون حينما تتحدثون ثانيا عن خطر أكبر من خطر القنبلة الذرية هو قانون التقنية"[24]، يعترض هيدغر رافضا لسوء فهم كلامه وعدم تأويله بشكل مناسب قائلا "لست ضد التقنية، لم أقل أبدا شيئا ضد التقنية ولا ضد ما يسمى شيطانا في التقنية، ولكن أحاول أن أفهم ماهية التقنية"[25]، إن ما ينبه عن خطورته هو استخدام التقنية ضد الإنسان. ذلك أن التقنية حينما تبلغ ذروتها كبيوفيزياء فإنها تصبح قادرة على صنع الإنسان وبالتالي تعفي الانسان الطبيعي من مهامه وتتجاوزه وتتحكم فيه وتجعله أكثر تناه من ذاته.

إن هيدغر لا يرفض التقنية من خلال تبني مواقف أخلاقية أو دينية أو مواقف إنسانية محضة كما يلجئ إلى ذلك رجال الأخلاق والدين، وإنما هو يحذر من نتائجها السلبية التي سهلت للإنسانية سبل الحرب والدمار وجعلت إبادة الإنسانية أمرا وشيكا. "يبدو أن هيدغر قد تأمل تجربتي الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة ليخلص أن تلك الأهوال المريعة للحرب كانت زوبعة في فنجان التقنية التي لم تكشف بعد عن كل ماهيتها الميتافيزيقية"[26]، إن معنى خطورة التقنية هو أنها تجعل من فكر الإنسان مجرد فكر حسابي، بل أن التقنية تعفي الإنسان من التفكير الأصيل ومن الانشغال بكينونته الحقة[*****]، كما أن التقنية تعفي الإنسان من الشغل والعمل وتجعله إتكاليا معتمدا عليها في كل أموره ومنقاد لها وخاضعا لنتائجها، إن التقنية الحديثة توجهت صوب الكائن وتجاهلت الكينونة ولم تراعي لها حسابا، وبالتالي أفرغت الانسان من إنسانيته، لأن الإنسانية أضحت تحيا في عالم الكائن ورضت به واطمأنت له، بيد أن هذه الطمأنينة ظرفية زمانية لا عمل

عليها، لأن التقنية وإن كانت تحفظ للإنسان عالما جديد، عالما رقميا وحسابيا جديدا إلا أن نتائجها السلبية تخترق وجوده وتهدد مصيره.

يبدو أن هيدغر لا يدعو إلى رفض التقنية رفضا قطعيا وجذريا، ولا هو يدعو إلى امتداح التقنية والإشادة بها لأنه من جهة لا يمكن تجاهل مكاسب التقنية بالنسبة للإنسان، حيث سهلت له سبل وجوده في العالم، ولكن من جهة أخرى لا ينبغي مع هذا أن يصبح الإنسان منقادا إلى التقنية ومرتبطا بها أشد الارتباط، بحيث لا يمكن أن يعيش وجوده ولا أن يستمر بدونها. إن هيدغر يحتفظ هنا بالموقف الوسط حيث أنه لا يغالي بالدفاع عن التقنية والإشادة بمحاسنها، كما أنه لا ينكرها أو يرفضها بشكل مطلق، لأنه لو اجتمعت الإنسانية جمعاء من أجل إيقاف التقنية نهائيا ومنعها عن الإنسان فإنها لن تفلح في ذلك،"التقنية في ماهيتها قدر تاريخ حقيقة الوجود"[27]، إن الإنسان المعاصر انخرط بدون وعي منه في التقنية وأصبح منقادا لها، بحيث تصعب حياته بدونها وتتحول إلى عناء وجهد زائد يفقد الإنسان سكينته وطمأنينته التي اعتاد عليها بفعل تأثير التقنية. ولكن هذا لا يعني معه أن نقبل بالتقنية بدون قول كلمة "لا" وبدون رسم حدود في العلاقة معها. "لاشيء تقني في ماهية التقنية: ولهذا ينبغي أن يجري التفكير الأساسي حول التقنية والشرح الحاسم معها في مجال يكون، من جهة، على صلة قرابة مع ماهية التقنية ويكون من جهة أخرى مختلفا عنها بشكل عميق. الفن هو هذا المجال. ويكون كذلك عندما لا ينغلق تأمل الفنان من جانبه على هذه الكوكبة من الحقيقة التي ترمي إليها أسئلتنا"[28].

يدعو هيدغر بالعودة إلى الأصل إلى الطبيعة مثلما كان عليه الفكر الإغريقي الطبيعي الأول الذي كان براءً كل البراء من التقنية ومن الإتكالية، حيث كان يُنظَر إلى الإنسان وإلى قيمة وجوده من حيث هو عمل وشغل فعال يمكنه بذاته أن يحول الطبيعة إلى صالح وجوده، دونما توسط الوسائل التقنية التي يعتمدها إنسان العصر.

خاتمة:

إن النتيجة التي يمكن أن نخلص إليها من خلال تحليلنا لحوار مارتن هيدغر مع فيسر فيما يخص مهمة الفلسفة إزاء المجتمع والتقنية والكائن، هو أن الإنسان لا زال لم يفكر بعد في المآل الذي يمكن أن يؤول إليه المستقبل لاسيما وأن التقنية قد اكتسحت الوجود الإنساني وأفرغته من كل

امتلاء للكينونة. يدعونا هيدغر من هذا المنطلق إلى محاولة إعمال الفكر في الجوانب اللا مفكر فيها بشكل جدي، في الإنسان والتقنية والكائن والمجتمع، "إن الشيء المفكر فيه أكثر من غيره هو أننا لا نفكر بعد، دائما ليس بعد، على الرغم من أن وضع العالم يدعو باستمرار إلى التفكير فيه، يبدو أن ما تتطلبه هذه الظاهرة بالأحرى من الإنسان هو بالتأكيد أن يعمل handelt وأن يعمل فعلا دون تأخير، عوض أن يتحدث في المحاضرات والملتقيات... ونتيجة لهذا فإن هناك نقصا في الفعل وليس أبدا في التفكير"[29]. ينبغي على إنسان العصر أن يوجه تفكيره صوب العمل والفعل، لأن إمكانية التفكير لا تكفي لوحدها إذا لم يعمل الإنسان من تلقاء نفسه على توجيه الفكر نحو التفكير في العالم في مصير الإنسان والمجتمع، التفكير في اللامفكر فيه في التقنية والكائن، يقول هيدغر" لا أحد يعرف كيف سيكون مصير التفكير، سبق أن تكلمت سنة 1964 تحت عنوان نهاية الفلسفة ومهمة التفكير في محاضرة لم القها أنا نفسي وقدمت في ترجمتها الفرنسية، أنني أميز بين الفلسفة، أي الميتافيزيقا والتفكير كما أفهمه"[30].

إن التفكير في مهمة الفلسفة إزاء متغيرات العصر يفرض على الفكر التخلص من رواسب الميتافيزيقا التي بلغت ذروة اكتمالها في التقنية كاشفة عن كل إمكاناتها، يقول هيدغر في نهاية حواره مع فيسر كلمة سبق أن كتبها هاين ريش فون كلاسيت، -تأكيدا منه على مسؤولية التفكير في مستقبل الإنسانية- "انحني أمام ذلك الذي ليس هنا بعد، وانحني أمام روحه قبل قدومه بألف عام"[31]، إن التفكير هو المهمة العاجلة بالنسبة للجيل اللاحق من الفكر.

الهوامش:

*-يقول إسماعيل المصدق في تقديمه لترجمة هذا الحوار "نقدم فيما يلي ترجمة للحوار الذي أجراه ريتشارد فيسر مع هايدجر لفائدة إحدى قنوات التلفزة الألمانية ونشر في إطار مؤلف جماعي تحت إشراف ريتشارد فيسر عن دار النشر Karl Alber، فرايبورج، ميونيخ 1970، ص: 67-77... والحوار يتناول قضايا هامة مثل: الفلسفة والمجتمع والفلسفة والتقنية، والفلسفة والكائن الخ". ينظر تقديم الترجمة، -"حوار مع مارتن هايدجر الفلسفة والمجتمع والتقنية والكائن"، أجرى الحوار: ريتشارد فيسر R.Wisser ترجمه عن الألمانية: إسماعيل المصدق، ضمن: "مجلة فكر ونقد مجلة ثقافية فكرية" المدير الإداري: محمد إبراهيم بوعلو، المدير ورئيس التحرير المسؤول: محمد عابد الجابري، سكرتير التحرير: عبد السلام بنعبد العالي، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

- أنظر العدد الخاص بالمجلة 23 (13) نوفمبر 1999. الموجود ضمن عدة أعداد أخرى على الرابط التالي:

-أول زيارة يوم 2013/12/02. على الساعة http://www.aljabriabed.net/n23_15musadaq.htm
23:00. -أخر زيارة كانت على الرابط التالي:http://www.dafatiri.com/vb/showthread.php?t=32550
2016/10/02. على الساعة 12:28. (100 عدد من مجلة "فكر ونقد").

1- مارتن هيدغر، "الكينونة والزمان"، ترجمة وتقديم وتعليق: د.فتحي المسكيني، مراجعة: إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1 2012.

2- مارتن هيدغر، "ماذا يعني التفكير؟"، ترجمة نادية بونفقة، تقديم الدكتور: عبد الرحمان بوقاف، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر 2008، ص70.

3- مارتن هيدغر، "ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هلدرلين وماهية الشعر"، ترجمة: فؤاد كامل ومحمود رجب، وراجعه على الأصل الألماني وقدم له: عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د-س)، (د-ط)، ص54، ص55.

4- المصدر نفسه، ص102.

5-AlainBoutot" :Heidegger."pressesuniversitaires de France. 3 edition.1995:p86

6- هيدغر مارتن، "الفلسفة في مواجهة العلم والتقنية"، ترجمة، فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة السورية دمشق، 1998، ص92

7-أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

8- مارتن هيدغر، "ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هلدرلين وماهية الشعر"، مصدر سابق، ص102.

9-المصدر نفسه، ص103.

10- إن المنعطف في فكر هيدغر ليس تغييرا عن وجهة نظر الكينونة والزمان، للمزيد من الإطلاع حول هذه الفكرة ينظر:

- Alain Boutot" :Heidegger."presses universitaires de France. 3 edition.1995:p 43

11-أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

12- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

**-"وكلمة: "ذات" هذه (Subjectum) يجب أن نفهمها في الحقيقة كترجمة للكلمة الإغريقية: (أبيخيمينون) التي تعني: ما هو ممتد أمام.. أي ما هو بمثابة عمق يجمع ويسند إليه.. (كل شيء). وهذه الدلالة الميتافيزيقية لمفهوم الذات، ليس لها في البداية أي علاقة خاصة بالإنسان، وأكثر من ذلك بالـ(أنا)"، أنظر في هذا الصدد:- هيدغر مارتن، "التقنية، الحقيقة الوجود"، ترجمة، محمد سبيلا، عبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، 1995 ص159.

13-أنظر في هذا شرح المترجم: "إسماعيل المصدق"، هامش رقم -01-

***-ماهية العلم الحديث تكمن في مبدأ ترييض الطبيعة، ظهرت لأول مرة في تاريخ الفكر سنة 1623، لأن غاليلي قال بأن الطبية مكتوبة بحروف رياضية، أنظر في هذا الصدد:

- Alain Boutot" :Heidegger."pressesuniversitaires de France. 3 edition.1995:p85

p74.-Ibid14

15- هيدغر مارتن، "التقنية، الحقيقة، الوجود"، مصدر سابق، ص156

16- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

17- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

18-أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

19-أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

****- هذا لأن "الميتافيزيقا تعرف كحقيقة لكليانية الموجود"، ينظر:

-Martin heidegger. "Nietzche 2". traduit de lGallimard .Pour la traduction fronsaise.1971. p64

20- مارتن هيدغر، "ماذا يعني التفكير؟"، مصدر سابق، ص110.

21- لكحل فيصل، "إشكالية تأسيس الدزاين في أنطولوجيا مارتن هيدغر"، دار كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، ط1، 2011 ص93.

22 - Jean Beaueret ."Dialogueavec Heidegger".Les Edition De Minuit 7.rue Bernard-palissy-75006 Paris.1973. p172.

23- هيدغر مارتن، "الفلسفة في مواجهة العلم والتقنية"، مصدر سابق، ص61.

24- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

25- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

26-إسماعيل مهنانة، "الوجود والحداثة، هيدغر في مناظرة العقل الحديث"، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، ط1، 2012 ص117

*****- إن هيدغر "بقدر ما يعود إلى التقنية ويستفسر حول موضوعاتها فإنّ الحنين دوما يقذف به إلى سؤال الأساس "سؤال الكينونة"، للمزيد من الإطلاع ينظر:

- لكحل فيصل، "إشكالية تأسيس الدزاين في أنطولوجيا مارتن هيدغر"، مرجع سابق، ص98.

27 - Jean Beaufret."Dialogueavec Heidegger".Les Edition De Minuit 7.rue Bernard-palissy-75006 Paris.1973 .p170

28- هيدغر مارتن، "الفلسفة في مواجهة العلم والتقنية"، مصدر سابق، ص92.

29- مارتن هيدغر، "ماذا يعني التفكير؟"، مصدر سابق، ص35.

30-أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

31- أنظر: "مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية"، العدد 23(13) نوفمبر 1999.

تشظيات روح الحضارة الانسانية في الاسلام

ونموذج مدارس الطب والفلسفة

الأستاذ رمضاني حسين، جامعة تيارت

ملخص المقال:

تمثل مسألة روح الحضارة الانسانية، أهم مسألة تناولها المفكرون العرب في الفترة الراهنة، إذ يشكل هذا المستوى من البحث بؤرة توتر فكري بين مختلف الأطياف الفكرية التي تسعى الى تحديد جملة الخصائص التي تميز هذه الروح في الفكر الاسلام سواء من جانبه الديني أو الفلسفي. حيث يمكن استقطاب أهم الخصائص التي تمتع بها علمائنا الأوائل في اطار الكشف الضمني عن طبيعة الوعي بالذات الذي لازم المراحل الأولى لنقل تراث الحضارات الكبرى التي كانت رائدة حين بدء انتشاره وفرض سلطان الدولة الاسلامية على أرجاء واسعة من بلاد تلك الحضارات، زيادة عن ذلك يعتبر القرآن أساس تطور تلك الروح السمحة التي نادى بها الاسلام في سبيل رقي الانسانية على أسس خالصة من الحرية والمساواة. كما يعبر علم الكلام القديم عن تشظيات هذه الاشكالية من خلال الخوض في مجال الطبيعيات الذي كان أهم مرجعية استند عليها الفكر الكلامي لبحث مقتضيات الوجود الانساني دينا ودنيا.

الكلمات المفتاحية: الروح، الحضارة، القرآن، الاستدلال، الطاقة، التجريبية، الغيب، العقل، التوحيد، المعتزلة، الرازي، الايمان، المادي، الالهي، الطبيعيات.

مقدمة

إن مجرد إلقاء نظرة فاحصة لتاريخ الحضارة الإسلامية، تجعلنا لا نتوانى عن الافتخار بمجدنا، وماضي أجدادنا قيد انملة. إذ لا يمكن تجاهل ما حققته حضارتنا من منجزات علمية وفكرية رائعة، لا تزال تشهد لها الانسانية الى يومنا هذا، حيث لا يزال يتبادر الى اسماعنا اعترافات عدد لا بأس به، من أعظم المستشرقين المعاصرين. والذي يؤكد جلهم فضل الاسلام والمسلمين في تطور الانسانية جمعاء.

فدون شك لا تزال الدلائل التاريخية تحيل الباحثين المعاصرين – فترة بعد فترة –، الى حقيقة ما توصل اليه المسلمون الأوائل؛ من تطور علمي في مجال الطبيعيات. مما يدعو الباحث العربي اليوم، الى وجوب تكريم علمائنا السلف على الأقل بالعودة الى تفحص تراثهم العلمي والفلسفي من جديد. واعادة احياء العلوم التي خبروها، على ضوء ما توصلت اليه الأبحاث المعاصرة من نتائج علمية مستجدة، أو أسئلة فلسفية راهينية، إذ لا يزال يتراءى على مسامعنا صدق عدد من أطاريحهم الفلسفية والعلمية. والتي بقي بعضها حسب المختصين، لسبب ما مجهولا، وبعضها الآخر موضوعا في طي النسيان، بسبب تواري روح الحضارة الانسانية خلف غيابات التقليد الاعمى الناجز عن سد باب الاجتهاد.

إن روح الحضارة الانسانية في الاسلام، أخذت دافعا تحرري، بمجرد أن بدأ المسلمون بنقل وترجمة التراث القديم. وذلك في اطار وجوب طلب العلم، الذي أمر به الدين الحنيف، إذ لم يكن هناك بد، من أن يجتهدوا في تطوير تلك المعارف التي أثروها عن الأمم السابقة، بناءً على ذلك الواجب الإيماني. وذلك باستيعاب جملة المعارف العلمية والعملية، التي تمكن مجتمعهم المتنامي سكانيا وثقافيا، من العيش في كنف الحياة الراقية التي يكفلها الاسلام عقيدة وشرعاً. فهذه الروح إنما هي في الاساس مجموع القيم الإنسانية، قيم تجعل الحضارة الاسلامية على قمة هرم الحضارات البشرية منذ بدء الخليقة والى الآن. فقد جسدت حضارة المسلمين حقيقة، ما يمكن اعتباره مطلبا أساسيا للدعوة التي تنادي بالإنسان الخليفة.

1– روح الحضارة الاسلامية في نظر بعض المستشرقين:

لعل الباحث الذي يكد في تقليب نفائس التراث الاسلامي، لا يزال بدوره يقتنع مرة بعد مرة أن نجم حضارتنا لم يأفل بعد في سماء الانسانية. فما سجله المستشرق المعاصر جورج سارتون (George Sarton)[1]. في مؤلَّفه الضخْم (مدخل إلى تاريخ العلم)، يمثل شهادة صريحة لعالم نصف الحضارة في عصرها الوسيط خاصة الحضارة الاسلامية. حيث أشاد بعظمة وازدهار هذه الحضارة، بين الفترة الممتدة من عام (132هـ/750م) إلى عام (493 هـ/ 1100م)، والتي شكلت تعاقُبًا متصلاً لتطور الفلسفة والعلوم عند المسلمين. يقول المستشرق جورج سارتون معرباً

بشأن علمائنا، "إن العرب الذين نعتبرهم عباقرة الشرق في القرون الوسطى مآثرة عظمى على الانسانية " [2].

فمن القرن الثاني للهجرة، بدءً بخالد بن يزيد الأمير الكيميائي، المتضلع في أمور الطب والكيمياء[3]. والى القرن الثالث هجري مع العالم جابر بن حيَّان (120 هـ / 736 م – 210 هـ/ 826 م)، والخوارزمي الجغرافي (164 هـ / 780 م – 232 هـ / 848 م)، والكندي (185هـ / 801 م – 252 هـ / 867 م) وثابت بن القرة الحراني (221 هـ / 835 م – 286 هـ / 900 م)؛ صاحب كتاب: (حساب الاهلة، ورسالة في سنة الشمس) وغيرهم[4] كان الفكر الانساني عند المسلمين، يرتقي عاليا في أفق حضارة العصور الوسطى.

حيث يشير سارتون حسب هذه الدراسة التاريخية لتطور العلوم عند المسلمين، بكل نزاهة وموضوعية. الى ان تاريخ العلم عند العرب، شق طريقه في الحضارة الاسلامية بخطى عملاقة. فمرورا بالبتاني (240 هـ / 854 م – 317 هـ / 929 م)، ووصولا الى الرازي (240 هـ / 854 م – 313هـ / 915م). كانت الحضارة الاسلامية تدفع بالإنسانية قدما، نحو التقدم والرقي والازدهار، في شتى ميادين العلم والعمل.

ومن المعروف عند الباحثين المعاصرين، خاصة الذين تعرفوا على التراث الاسلامي عن كثب، أن نسبة هؤلاء الى الاسلام أكثر منطقية من نسبتهم الى الأيديولوجية العربية. حيث يكاد يجمع أغلبهم، أن انتماء هؤلاء العلماء والفلاسفة الى حاضرة الاسلام أمر لا اختلاف فيه، رغم أن أغلبهم حسب ما يؤكد كثير من الباحثين كانوا ينحدرون من أصول غير عربية. بل إن تاريخ التراجم والسير، يثبت لنا أن معظم هؤلاء، قد ولد وترعرع في اقاليم أعجمية بعيدة عن بلاد العرب، الا أن هؤلاء العلماء انضوا أغلبهم، تحت راية الاسلام إما إيمانا أو انتماءً، أو ولاءً [5].

ولو أن هناك جدلاً خفيا، بقي محتدما الى وقت قريب حول هذه المسألة، بل لا يزال قائما بين العديد من الباحثين والمستشرقين. خاصة وأننا لا نستطيع الوقوف على امكانية صريحة، لتحديد دوافع هذا الاختلاف الذي يشيرون اليه ويقولون به. ومع ذلك تدعو هذه المسألة الباحثين العرب الى تقصي حقيقة هذا الخلاف والى القول بأن ثمة ما يقال بصدد إيمان بعضهم، وانتماء بعضهم

الآخر (!؟). إذ لا تزال تبين لنا بعض الدراسات الغربية والعربية، اختلاف المواقف حول سير هؤلاء العلماء [6].

غير أن ما يمكن الوقوف عنده هنا، هو أن هؤلاء العلماء والحكماء المسلمين، قد ترّفعوا بالحكمة والعلم عن كل لون وجنس وعرق. فطلبوا غاية الانسانية التي دعا إليها الاسلام، غاية كونية اقتضت منهم الجمع بين شرف العلم ومقاصد الدين.

2- دور الاسلام والمسلمين في تطور الحضارة

لابد لفيلسوف الحضارة أن يكون مدركا لأهمية الدين، ودوره الرئيسي في قيام وانهيار الحضارات. إذ لا يمكنه البتة التنكر الى الدور الذي تلعبه الأفكار والمعتقدات في تطور الحضارات والأمم قاطبة فـ: "بالنظر الى مختلف الأنساق الثقافية والمجتمعية، يتأكد انه لم يسبق أن انتظم وجود بشري، دون بلورة رؤية دينية أو رؤية فلسفية ميتافيزيقية ينهض عليها ذاك الوجود. الامر الذي يبين أن الانسان لا يستطيع أن يعيش في الوجود، دون ان يستفهم عن معناه ويفكر في مدلوله، ويبحث عن الكنه الذي يثوي خلف أعراضه "[7].

إن ظلال الاسلام التي عاش في كنفها علمائنا، ليست إلا تعبيرا تصويريا يدل على تلك الروح الخالصة التي فاضت عن جوهر الدين، وهي روح التسامح الخالص التي سادت بين المسلمين وغير المسلمين. وربما تعود مسألة تفاعل الانسان المسلم مع محيطه الحضاري الجديد، الى كون هذه الروح كانت تدفع به الى السعي والاجتهاد بين لا نهائية الوجود المطلق، ونهائية الموجود النسبي. ولعل ذلك يعود الى خصوصية الاسلام كدين في حد ذاته والى الدور الذي قام به هذا الدين الرباني، في بعث كبرى الافكار العقائدية والعلمية في تاريخ الانسانية. وذلك منذ أن كان في مهده الأول، يقول ابراهيم العاتي في وصف دقيق لهذه الروح الانسانية الربانية والتي تجلت بوضوح في الثقافة السائدة إبان عصر العباسي الأول.

"إن ثقافة هذا العصر -في الواقع -كانت مزيجاً من ثقافات الفرس والهند واليونان وغيرهم (...)، ملتقية بطبيعة الحال مع الروح الاسلامية التي تشكل المنبع والإطار " [8].

ولئن كان هناك امكانية لتصور مدى تطور المسلمين في ميادين العلوم، إبان القرنين الثالث والرابع هجريين. فإننا بالضرورة مدعوون لتمثل الحضارة، على ان جسمها يتركب من جملة العلوم

والآداب والفنون التي تدعمها واعتبار الدين جوهر قيامها وروح انبعاثها. وعليه فالخصوصيات والمقومات التي تحملها حضارة الاسلام في ذاتها تجعلنا على العموم، ندرك قيمة ما قدمه علمائنا الأوائل من مجهودات علمية وفكرية، من شأنها أن تفتح للمسلمين طريق السؤدد والازدهار.

على هذا الأساس، ينقلنا المفكر عبد الرحمن مرحبا الى حقيقة بينة، مفادها أن للإسلام دور جوهري في تطور حياة الأمة الاسلامية. حيث يقول: " من المعلوم أن الاسلام لم ينتشر في فراغ، فالأمم التي اعتنقته ودانت به أو على الأقل تلك التي دخلت في ربقته، وخضعت لسلطانه أمم عريقة؛ عرفت حضارات شتى وثقافات متنوعة ومرت بتجارب وخبرات مادية، وروحية متعددة " [9].

لقد كان يتم نشر العلوم بين العامة من المسلمين، على غرة الحراك الحضاري الناجز عن الفتح الإسلامي في كل بلاد كان يفتحها المسلمون، وبالموازاة مع انفتاح الخلفاء والامراء والولاة، على أنماط ثقافية جديدة من الآداب والفنون وطرق تدبير السياسات الاجتماعية والاقتصادية. إذ يمكن الاشارة في هذا السياق، الى التأكيد الذي قدمه الدكتور محمود زقزوق في معرض تقديمه لكتاب: (دور الاسلام في تطور الفكر الفلسفي).

والمتمثل في أهمية المبادئ السمحة التي أقرها الاسلام، والتي أدت بطبيعة الحال الى تنوير المسلمين. حيث قام المفكر بالدفاع عن هذه الاطروحة من منطلق البعد الانساني، المتعالي عن كل عرقية أو قومية أو ايديولوجية. يقول في معرض أطروحته: " لقد تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان صقلا ذاته المفكرة، استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر. وقد كان لهذا الموقف الصريح للإسلام اتجاه العقل، أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية " [10].

من هنا أمكننا الاعتراف، بأن المسلمين كانوا فعلا أجدر بالعلم والحكمة، وعلى قدر كبير من الاهتمام بهما. فما منعهم مانع عن طلب العلوم، ولا قيدهم قيد في استخلاصها، ولا نازعهم في ذلك نازع على تحصيلها ولا بعد مطلبهم فيها، وهم طالبوه وبالغوه بالاجتهاد. وما حزَّ في نفوسهم رغم ذلك، اختلاف الجنس، ولا افتراق العرق، فهم في غمرته أنداد وإخوة، لا واحدا منهم أفضل من الآخر الا بما يبلغه أحدهم في الحكمة. فيكون أرفعهم درجة بينهم أعلمهم في العلم والعمل. على هذا الأساس القيمي اشتدت الرغبة في طلب العلم والفلسفة واستعدت لهم الارادة في ذلك

لا لشيء الا لأنهم انضو تحت مظلة الاسلام كما سبق الذكر، والتي تكفل للإنسان كرامته وحياته وانسانيته.

إن ما يبدوا عليه العصر العباسي الأول من ازدهار اقتصادي، وتنوع اجتماعي وثقافي. والذي شهدت مآثره كتب الحضارة الاسلامية والعربية. لدليل واضح على أن ظهور العلماء والفلاسفة في هذا العصر، كان ناتجا عن تفاعل ديناميكي بين رؤية الانسان المسلم، المتبلورة بفعل الواقع الديني الناجز عن تاريخية الانسان المستخلف في الأرض وبين الغاية الانسانية في الوجود. وبالطبع فقد كان جمهور المسلمين عامة، كما يقول فهمي جدعان: " مطمئنا اطمئنانا خالصا بريئا، للإنجاز العظيم الذي حققه بزوغ الاسلام، كما كان مطمئنا الى التقدم اللانهائي الذي سيحرزه هذا الدين، على كل حال عن دين سواه "[11].

على العموم يتراءى لنا منذ البداية، أن هناك نتاج ثقافي ضخم، تمّ توطينه في حضارة الاسلام المتنامية أطرافها والمتسعة آفاقها، بفضل الموقف الصريح للإسلام ازاء العلم والمعرفة. حيث تظهر لنا مكانة الفكر الفلسفي للإسلام إذ يقدم لنا المستشرق دي بور (Dé bore) موقفه اتجاه هذا الفكر، باعتباره مظهرا من مظاهر الحضارة الاسلامية. يقول: " بالرغم من أننا لا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة، تستحق أن نسجلها لها –يقصد الفلسفة الإسلامية –، ومع هذا فنشأتها من الوجهة التاريخية، أكبر كثيراً من مجرد الوساطة بين الفلسفة القديمة والفلسفة المسيحية في القرون الوسطى "[12].

وقد نتج عن تلك الروح الديناميكية، عدة خطوط عقدية كانت في الاساس، تنحو في اتجاه توطيد أصل الايمان بالدين الجديد؛ وذلك وفق منهج رباني هو منهج التوحيد الاسلامي. ليتفق بعد ذلك جمهور المسلمين على ان مباحث علم الكلام الكبرى التي اهتمت بالتوحيد، إنما نشأت أولاً ضمن دائرة العقيدة الإسلامية. وأن هذا العلم هو الاساس المعرفي والقيمي للفكر الحضاري للمسلمين، حيث ارتكز على جانبين مهمين هما:

الجانب الأول تعلق بالبعد الالهي لعقيدة الاسلام، والذي يقوم على مقتضيات التوحيد. حيث يقوم هذا الجانب على بعث حركة دينية لها مبادئ اجتهادية عقلانية، لا تقصي عالم الغيب ولا يقصيها عالم الشهادة. إذ وفي وصف دقيق للمفكر عبد الرحمن بدوي، إزاء هذه الروح التي كانت

تقود الحركة الاجتهادية للدين الاسلامي. يقول فيها: " إنها الروح التي لا تقصي عالم الشهادة، ولا تقتصر على عالم الغيب في معرفة علل الموجودات والمعقولات " [13].

أما الجانب الثاني، فيتمثل في كون أن لعلم الكلام، دور تقني بالدرجة الأولى، إذ تجلى في الدفاع عن الدين والعقيدة الاسلامية، والبرهان عليهما بأدلة العقلية. ضد كل من يتنكر لذلك البعد الالهي المؤسس على التوحيد. فبمجرد أن بدأت حروب الردة أو قبل ذلك بقليل، حتى حمل المسلمون على عاتقهم مهمة الدفاع عن دعوتهم، بشتى وسائل الممكنة كالحوار والمناظرة والجدل. حيث كان عليهم أن يقارعوا الحجة بالحجة، لا يعوزهم في ذلك عجز ولا كلل، والواقع أن الشواهد التاريخية تثبت بشكل واضح. " أنه منذ اللحظة التي تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم" [14].

كما كان لهذه الجوانب كلها، دور في صد حركات الشعوبية، والنزعات العصبية المتنامية في العالم الاسلامي. بدءً من النصف الثاني من القرن الاول هجري " لأن هاتان النزعتان، أبعد ما يكونا عن الروح التقدمية للإسلام وغاياته الإنسانية، وأبعد ما تكونان عن مصالح القوى الاجتماعية الصاعدة، التي أخذ الإسلام بيدها " [15].

ثم لا شك أن الرجوع الى مصادر تراث الاسلام، تؤكد لنا أن ما أجمع عليه علمائنا الاوائل. من أن الفكر الاعتزالي فعلا كان من بين ابرز مظاهر الحركة الكلامية في الحضارة الاسلامية، التي دفعت بدورها على حد رأي كثير من مفكرينا المعاصرين، بعجلة تطور العلوم النظرية والتجريبية. ولكن دون تجاهل المهمة الرئيسية التي وجد لأجلها ذلك الحراك الكلامي أساسا، المتمثل في الدفاع عن عقيدة التوحيد.

إذ وبالعودة الى الدراسات التي تناولت مراحل تطور الكلام يمكننا أن نرصد أبرز تلك اللحظات الابستيمية، التي أسست ظاهرة علم الكلام باعتبارها ظاهرة ثقافية لها أبعادها الموضوعية والتاريخية. والتي لا تزال حسبهم تستدعي اعادة النظر في بنية علم الكلام القديم من جديد وفق منظور نقدي معاصر [16]. وربما يمكن توضيح هذا الحراك الفكري، بالعودة الى موقف محمد عابد الجابري من تطور العلوم عند المسلمين بناءً على نظرته التحليلية لبنية العقل العربي. حيث بيَّن مدى تبلور العقل البياني والبرهاني عبر مراحل ابستيمية رأى انها محددة زمنيا بجملة من الاحداث السياسية والثقافية.

حيث أشار الى لحظة واصل بن عطاء، ولحظة أبي الهذيل العلاف في مقابل لحظتي أبي الحسن الاشعري، وبعدها مرحلة المتأخرين، والتي تمثل معرفيا: " مرحلة توفيقية جاءت عكس طريقة المتقدمين، وقد تمحورت مسائل هذه المرحلة الإبستيمية، حول العلم، وحرية الاختيار في الفكر والفعل" [17].

وغني عن البيان أن المشتغلين بهذه العلوم، ومؤسسين لهذه الانماط المعرفية الجديدة في الحضارة الاسلامية. قد اتخذوا منذ البداية من القرآن منطلقا لآرائهم، وذلك من خلال استخدام الاساليب المنطقية والاستدلالية التي استلهمها أفاضلهم من النص الالهي (آيات القرآن). حيث قاموا بتوظيفها في أبحاثهم، بل وعلى اساسها كان يتمَّ رفض التقليد قالبا ومضمونا عند عامتهم من أهل السنة والشيعة. حتى أفسد المعتزلة والاشاعرة على أساسها اعتقاد المسلم المقلد، لما نبذه المسلمون من التسليم بالموروث دون تمحيص، ولا تقصي. وإنما التسليم والتعميم يكونان بما إقتضاه اعمال العقل في الأمور، بالنظر والاجتهاد في تأويل الدلالات جميعها. فإن كان في الوجوديات لزم الاعتبار والتدبير. وإن كانت في الالهيات، كان التأويل بما يلزم ثبوتها وتنزيهها وإطلاقها.

فلا يكون المسلم مسلما، حسب رواية لابن حزم الظاهري، الا إذا ألتزم القول، في وجوب معرفة الله بالعقل لا بالشرع. وذلك عند أهل السنة والجماعة وبالأخص المعتزلة [18].

وقد أكد الرازي الطبيب على غرار المعتزلة، أثر هذه اللازمة العقدية، التي تدعو لتكريم الانسان بالعقل. في ظل الضرورة الايمانية التي تلزمه التدبر في الخالق من جهة مخلوقاته، التي يترأسها هذا المخلوق (الانسان). يقول الرازي: " إنَّ العقل أعظم نعم الله، وانفع الاشياء، وأجداها علينا. حيث يذهب في كتابه الطب الروحاني الى ذكر فضل العقل، وأثرها على حكمة الانسان، يقول: فبالعقل فضلنا على الحيوان – غير الناطق – حتى ملكناها وسُسناَها وذلّلناها، وصرَفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا (...). وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا، ويحسن ويطيب به عيشنا، ونصل الى بغيتنا ومرادنا " [19].

من هنا، يتبين لنا الخط المعرفي الرابط بين الرازي وعلماء المعتزلة، حيث أن كلاهما، يجعل من العقل نبراسا للإيمان والحكمة. إذ لا يخرج أي منهما عن تفعيل العقلانية، داخل النسق العقدي

والمعرفي، لأن المهمة المناطة بالمسلمين هي: التحرك قدما نحو تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، على حد سواء.

2 – القرآن بين الاستدلال العقلي وأنطولوجيا العلم

كان جل اجتهاد المسلمين الأوائل في هذه المرحلة، نعني مرحلة بدء الاشتغال على موضوعات دقيق الكلام، التي يبدوا أنها بدت مساوقة لمبحث الجليل الذي يسمو بموضوع الالهيات. – حسب بعض المفكرين –كان هذا الاجتهاد في الأساس يتمحور حول مسألة إثبات مشروعية العقل والعقلانية، وذلك في ظل إباحة الشرع استعمال سلطان العقل؛ وتحكيمه في الشؤون الدينية والدنيوية تصريحا وتأويلا. من حيث أنه كان ينطلق من حقيقة ثابتة تندرج تحت مقولة أساسية، هي تكريم الانسان بالعقل، والتي ترد تصريحا في النص القرآني جملة وتفصيلا.

يقول الباري (ﷻ): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14)﴾ [20].

إن تكريم الانسان بملكة العقل، هو من قبيل بيان حدود امكاناته، فيما يخص إعمال النظر في الظواهر الغيبية. وتقدير نزوعه الدائم نحو حرية الاختيار، ومن ثمَّ توقيفه على غايات الجبر المطلق. فالنظر العقلي في صورته الدينية موقوف على لازمة عقدية بالدرجة الأولى؛ لا يتجاوز فيها حدود ما وجد له في الاساس [21].

إذن من دون شك، يدرك المسلمون جميعا، أن مركز التحريك الدائم للطاقة العقلية هو الوحي القرآني ومصادره التي لا تنضب. فالقرآن والحديث خلاصتا الوحي الالهي الذي جاء هداية للإنسان، قد وردا جملة عامة تأملا واستدلالا من جهة الخالق وعلاقته بالصفات، بغض النظر عن كونهما وردا تشريعا لعقيدة سماوية. كما وردا قياسا واستقراءً من جهة دعوة هذا المخلوق المرسل اليه الى ملاحظة الموجودات والمخلوقات الدالة على الإله الواحد. الى غير ذلك من الطاقات الفريدة، التي يزخر بها الوحي الالهي.

هذا ما يمكن اعتباره حسب أبي الوفا التفتازاني في كتابه: (الكون والانسان في الاسلام) أحد وجوه الاعجاز الفلسفي والعلمي في القرآن[22]. إذ يتجلى لنا موقف القرآن من مناهج البحث العقلية والحسية، واضحا وصريحا. ففي كل مرة يود العقل المتأمل أن يعود فيها الى النص القرآني، الا ويجد في رأينا ملاذه الأول والأخير، الذي يكشف من خلاله عن الحقائق الربانية المودعة في الوجود.

فلو أن المسلم يلقي نظرة تأملية فاحصة، الى آيات القرآن الكريم، لوجد نفسه أمام نص إلهي مفعم بالأوامر التي توجه العقل الانساني، نحو استخدام منهج متكامل يمكن من خلاله، البحث في الكون. وهو ما ذهب اليه الاستاذ صبحي الصالح، حين اورد لنا في مؤلفه السالف الذكر. أمثلة قرآنية ذات أهمية بالغة تتقصى الحقائق العلمية للكون، إذ كيف يخفى على المسلمين حسب رأيه؛ الحقيقة التي خص الباري سبحانه بها الانسان في كلامه المقدس. ففي عديد من المناسبات في آياته الكريمة، دلالات صريحة على وجوب استعمال العقل والتحكم في أنماط نشاطه؛ ومؤشرات استدلاله. فالباري (ﷻ) قد أولى عناية ظاهرة في وحيه، لهذه الأنواع من الاستدلالات العقلية[23].

زيادة على ذلك، لم تقتصر اساليب القرآن، على نوع واحد أو متوحد من الاستدلالات. فهو النص المنفتح إطلاقا على الظاهر الصريح، والتأويل الصحيح. لأن النص القرآني نافذة فيه الجواهر الالهية، متى كان الاعتقاد يقينا والإيمان وجدانا؛ والتدبر بالعقل برهانا، وبالقلب عرفانا، وفي جميع وجوه طاقة الانسان تفسيرا نصيا؛ أو تأويلا عقليا لمعاني القرآن. فالحق أثبت وأوجد في كتاب الله، والمثال ظاهر عند علمائنا الاوائل، إذ على سبيل الاشارة التي يقدمها لنا الاستاذ صبحي الصالح، في هذه العبارة الجزلة.

فقد أورد المفسرون عدة تفاسير استجلت حقائق الكون، وردت على شكل سياقات بنائية استدلالية في النص القرآني، والتي تدل في رأينا بشكل أو بآخر على أهمية وضرورة استعمال المسلم، مناهج الاستدلال والاستقراء. فنحن نجد على سبيل المثال، في أواخر سورة (يس) سياقا استنباطيا استقرائيا، فيما تعلق بإثبات عقيدة البعث والنشور في الاسلام. حيث نقتبس المثال التالي عن الاستاذ صبحي، الذي يقدم لنا دليلا عن الكيفية التي تمَّ من خلالها ادراج آيات السورة، وفق مقدمات منطقية، وضعت كسلسلة متعاقبة من المقدمات الطبيعية. والتي تنتهي في الأخير الى التسليم بعقيدة التوحيد من دون ارتياب وشك، حيث يأتي الأسلوب الاستقرائي حسب ما يبين

صبحي الصالح، مبينا عن نفسه في سياق قوله تعالى (ﷻ): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾[24].

من هنا يشير الاستاذ صبحي، الى أن هذا النص الالهي، يظهر لنا كيف تنتهي فيه عملية الاستدلال كطاقة كامنة في العقل الانساني. باعتبار أن هذه العمليات، هي أدوات للتعقل والتدبر في شؤون الخلق تصورا وتمثلاً. وأن الباري أودعها بالفطرة في الانسان ليكتسبها بالإعمال والتفكير. فقد دعا النص القرآني المسلم منذ الوهلة الأولى لكي يستخدم الاستقراء في حياته، وذلك تعزيزا لملكاته العقلية، ودعما لوجيستكيا لقدرته الفكرية على فحص حقائق الخلق في عالم الشهادة.

كما طالبه من خلال إعمال مناهج العقل التجريبية والنظرية، بالبحث عن اسئلة كثيرة. عن كيفية وجود هذه الخلائق (؟)، أو مما هي مركبة (؟)، أو هل تكونت عن مادة هي كالأجزاء أو الهباء (؟)، بل وأمره بالبحث أيضا عن الكيفية التي تطورت بها هذه المخلوقات (؟).

ولعله من هنا يتبدى لنا، فجر اكبر مشكلات علم الكلام القديم، وهي مشكلة اثبات حدوث العالم وما يقابلها من ابطال لقدمه. وهو ما يمكن أن نعتبره أحد الأسئلة، التي شغلت المسلمين كثيرا، سواء كان المشكل متعلق بالدقيق أو الجليل. حيث حاولوا إيجاد أجوبة انطلاقا من القرآن والحديث ذاتهما. حتى أن بعض المفكرين يرون أن مسألة الحدوث والقدم، كانت بمثابة المدخل المنهجي الى ميتافيزيقا علم الكلام القديم. لأن مفهوم القدم في علم الكلام منظور اليه بدلالة سبق الباري (الله) عن كل الأشياء والموجودات بالزمان والمكان.

فكان المتكلمون على هذا الأساس ينتصرون لحدوث العالم بشتى الأدلة والحجج، حيث اختاروا ما ارتضوه من البراهين التي استخرجوها من الخبر الديني، ومن تراث الأولين على حد سواء؛ ليعينهم على حل المشكلات التي اعترضتهم في هذا السياق. وعلى حد ما ذهب اليه ابراهيم مدكور: "فإن أوائل المسلمين، ذهبوا الى أبعد من هذا في بحثهم هذه المسألة. فقد جعلوا الطبيعيات مقدمة للإلهيات، ليضعوا بذلك أول لبنة للعلم الطبيعي على غير ما عرف عند اليونان "[25].

لقد ظلت الطبيعيات إذن منذ أمد غير بعيد، الوسط المتعين للإنسان المسلم حسب تصوره الذي يرثه شرعا ويعمل به، والمستوى المبدئي الذي ينطلق منه المتأمل في الخلق والمخلوقات. رغم لهاث الفكر الانساني وراء مستويات اعلى للوجود او المعرفة بالنسبة للفكر المتأمل؛ حيث ظل التنظير للطبيعيات أمر لا فكاك منه اطلاقا[26]. لهذا لا تزال تختلف حصائل هذا النشاط بدرجات متفاوتة أيما تفاوت، ليظل المطلب الاكبر، وجوب إلمام الفلاسفة والمفكرين بالمعارف الطبيعية، كما هي مطروحة في عصرهم، وحيث لم يستثنى المسلمون من كل هذا، خاصة وأننا ندرك أن تاريخ علم الكلام، كان خير شاهد على ذلك النشاط الفكري. أين غلب النظر في الفلسفة الطبيعية على فكر المعتزلة الأولين، كما يتضح من اثارهم على حد تعبير المفكر عبد الرحمن بدوي[27].

ومن الطريف أن القرآن الكريم، يزخر بدلائل توحي بطبيعة الذرية للعالم، بداية وانتهاءً بالكون وتركيبه المادي الجزيئي، كما يشير الى الضرورة القصوى التي تحكمه، إذ تشير القرائن القرآنية الى الغاية من تسخير كل هذا الكون للإنسان المسلم، رغم قيد الزمان والمكان. حتى يسبر حقائق الوجود المنبثق عن قدرة الخالق[28]. فقد أنبئ القرآن على سبيل المثال، الانسان بقطع ابعد مسافات بأقصر الاوقات، وانه سيركب طباق السماوات طبقا عن طبق. قال تعالى:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19)﴾[29].

وقد علق إمام المفسرين ابن جرير الطبري (ت 310هـ)، في الجزء الثلاثين، من تفسيره لهذه الآيات. بقوله: " سوف تركب أيها البشر سماء بعد سماء "[30].

إن الشعوب والامم التي انظمت تحت لواء الاسلام، مباشرة بعد الفتوح الكبرى. كانت فيما سبق عهدها بالإسلام قد عرفت مذاهب فكرية مادية، ذات طابع ذري. ولعل ذلك يعود الى ما ورثوه من أخبار وعلوم خبرتها المدارس القديمة، والتي تناولت موضوعات الطبيعة الحسية كأقرب ما تكون مباحثا أنطولوجية. فقد شغل التصور الذري تاريخيا فكر الانسان منذ زمن سحيق، رغم أنه ولا شك، لكل عصر تصوره الخاص لهذا الموضوع. حيث ظهر هذا التصور بداية في الفكر الهندي القديم، ثم في الفكر اليوناني، ليواصل الظهور في الفكر الاسلامي خاصة في القرن الرابع الهجري.

حتى صار البحث في فكرة الذرية حلقة، وخطوة أخرى من خطوات تقدم المعرفة الانسانية في مجال الطبيعيات.

فمن مدرسة أوائل الطبيعيين اليونان، ثم مدرسة الطبيعيين المتأخرين، وصولا الى مدرسة المشائين التي اتبعت أرسطو، وشيعته في الاسلام أمثال ابن سينا، ثم نصير الدين الطوسي، الشهير بشروحه لآراء الشيخ الرئيس، كان المذهب الذري يتقدم خطوة عقب خطوة، ليحتل في النهاية مكانا هاما في الأبحاث العلمية والفلسفية، بل وكان الاتجاه الذري المادي يشق طريقه بجسارة في العالم الاسلامي، عقيدة وشريعة[31].

وقد تزامن هذا التطور المطرد للمذهب المادي، مع ظهور عدة مدارس طبية وفلسفية في عصر العباسي الأول جراء التنوع الهائل للتيارات والمذاهب التي انتدها المسلمون بفعل النقل والترجمة، ومن جملتها هذا الاتجاه الذري. إذ يمكن أن نذكر أهم مدرستين طبيعيتين ظهرتا في القرن الثالث والرابع هجريين هما:

1) – المدرسة الاولى تكونت من علماء يوصفون بالعلمانيين، كالرازي الطبيب وأبي الريحان البيروني.

2) – مدرسة ثانية يطلق عليها بعض مفكرينا، امثال الدكتور احمد فاضل الطائي المدرسة الليبرالية ويمثلها أبو البركات هبة الله البغدادي [32].

إن تأييد المسلمين لنظرية الذرة أو الجوهر الفرد، كان متوقفا على مدى تبرير مشروعية البراهين الدينية. التي تزكي الالهيات بالدرجة الأولى، إذ من هنا كانت المسائل الطبيعية (كجوهر الفرد، حدوث العالم) الى حين الجبائي بمثابة مقدمات مقبولة في الفكر الكلامي الى حد بعيد، إذ نرى هذا الموقف منتشرا بوضوح في آراء ابي الهذيل العلاف، ومعمر، وهشام الفوطي.

ولعل ما أورده لنا الشهرستاني في (الملل والنحل)؛ وكذلك فخر الدين الرازي في (المباحث الشرقية) خير دليل على تبني علماء الكلام الآراء الذرية، لأجل الدفاع عن مسألة خلق العالم من عدم. رغم أن الأمر سيكون على النقيض من ذلك، بالنسبة لمكانة الطبيعيات في الفكر الاسلامي، خاصة مع فلاسفة الاسلام. إذ سنجد معارضة قوية، ونقد شديد في الكثير من النتائج التي توصل اليها المتكلمون، خاصة من طرف فلاسفة الاسلام الأفلاطونيين والمشائيين .

حيث كان هناك تقريبا، موقف موحد بين هؤلاء الفلاسفة الاسلاميين، يتضمن إبطال مذهب جوهر الفرد من حيث الجسمانية. وربما قد لا يختلف اثنان حول النتائج المحصل عليها، جراء النقاش

الطويل الذي دار بين المتكلمين والفلاسفة. لأن مذهب جوهر الفرد انطلاقا من عصر الكندي والطبيب الرازي مرورا بالفارابي وابن سينا وصولا الى الغزالي وابن رشد؛ كان محل اشتغال مهم، في ثنايا البحوث التي أثارها البحث الفلسفي في المناهج المتبعة في دراسة الطبيعيات. لهذا جاء تناولهم لنظرية الجوهر الفرد بشكل متفاوت، تصب كل امكانياتهم حول إمكانية وجود توافق نظري لفكرة الجوهر الفرد مع السياق العام لمشكلة الخلق من عدم. من ثمة بدأ النقد والتمحيص يطال النظريات الذرية القديمة. بل وعلى أساس منهجي محض، ناظر فلاسفتنا خصومهم اعتبارا من أن النظرية في حد ذاتها، لصق بميتافيزيقا العلم الالهي [33].

– خاتمة:

إن الاشكالية المحورية للطبيعيات في الفكر الاسلامي، ذات طابع عقدي مثلما هي ذات طابع علمي وفلسفي. لأنها تعنى بالدرجة الأولى، إدراك العلاقة بين الله (ﷻ) والانسان والعالم. والتي تتجلى بدورها في عدة أطروحات، كالقول: إن العلاقة بينهما علاقة إيجاد، وخلق من العدم، أو إحداث المحدث من مادة، وصورة قديمة [34]. لهذا بقيت الطبيعيات في علم الكلام القديم، تلعب دورا ثانويا في بناء الحقيقة، مما ادى في الأخير الى تصلب الوجود الحقيقي داخل منظومة مكانية تحددت مسبقا بتصورات المادة الاولى، التي كان عنها الكون كونا. غير أن التساؤلات المبدئية التي أفردها أوائل المسلمين في هذا السياق، كانت في الأساس محل نقاش مستعر بين أطياف هؤلاء المفكرين الأمر الذي أحال الفكر الفلسفي في الاسلام الى ضرورة افتراض منحى معرفي، تشكلت وفقه روح الفلسفة في الحضارة الاسلامية. من خلال ما يثيره السؤال حول الآراء الفلسفية التي أثارها فلاسفتنا على غرار الطبيب الرازي، والتي تمثل في نظر الباحثين مشهدا من مشاهد النزوع الحضاري، نحو الحرية والانسانية والكونية التي ينشدها العقل في الاسلام سواءً باعتباره آلة أو باعتباره قوة روحانية مودعة في الانسانية جمعاء.

الهوامش:

---

[1] – يعد المستشرق جورج سارتون المتوفي (1956 م). من ألمع الباحثين في تاريخ العلوم. وُلد جورج ألفريد ليون سارتون في غنت (Gand)، بلجيكا 31 أغسطس (1884). نال شهادة الدكتوراه في علم التاريخ عام (1911 م) من مدينة نفسها. وقد بدأ سارتون بنشر أبحاثه التاريخية العلمية في مجلتين وكان له الفضل في المشاركة بتأسيسهما في مدينة باريس، فصدرت الأولى منهما

باسم إيزيس (Isis) عام (1912 م)، وصدرت الثانية باسم أوزيريس (Osiris) عام (1936 م)، ثم نشر هذه الأفكار في مؤلفه المشهور (المدخل إلى تاريخ العلوم) (Introduction to the History of scince)، وذلك خلال الفترة الممتدة بين عامي (1929 – 1948 م). ينظر: مجلة التراث العربي– مقال– محمد زهير البابا، **تأثير الحضارتين واللغتين، اليونانية والسريانية في العلوم العربية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (تموز) – ربيع الأول، 1418هـ– 1998م، العدد: 71 – 72، ص 112– 113. وأيضا: سارتون جورج، **تاريخ العلم والإنسية الجديدة**، تر: إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية، دط، 1961، القاهرة، مصر، ص 05 – 09.

[2] – الشيخ حسين عادل محمد على، **مساهمة العرب في علوم الحياة**، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دط، 1979، ص 04.

[3] – عبد الرحمن حكمت نجيب، **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب**، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، ط4، العراق، 1975 ص 245.

[4] -كان ثابت بن القرة الحراني صيرفيا بحرّان، استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلد الروم لأنه رآه فصيحا. له عدة رسائل أهمها: كتاب (جوامع جالينوس في الادوية المفردة) ورسالته (في الجدري والحصبة) ينظر: ابن النديم، **الفهرست**، تح: سيد أيمن فؤاد، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، مج 02، لندن، 2009، ص 227.

[5] – يضع الدكتور البغدادي بيبليوغرافية موسعة لعلماء الاسلام انطلاقا من نهاية القرن الأول ومرورا بأعلام القرن الرابع مع أبي الوفاء البوزجاني (328 هـ / 940 – 388 هـ ./ 988 م)، والبيروني (351 هـ ./ 963 م – 440 هـ / 1048 م) وابن الهيثم (354 هـ ./ 975 م – 430 هـ/ 1051 م) والحاسب الكرخي (354 هـ / 975 م – 421 هـ/ 1042 م)، وابن سينا (371 هـ / 980 م – 428 هـ / 1032 م)، انتهاءً بعمر الخيام وابن زهر والشريف الادريسي في القرن الخامس، ثم البغدادي والقزويني والجلدكي بين القرنين الثامن والعاشر. ينظر: البغدادي محمد رضا، **تاريخ العلوم وفلسفة التربية العلمية**، دار الفكر العربي، مدينة نصر، مصر، ط 01، 2003، ص 64 – 79.

[6] – كان ثابت بن القرة الحراني صيرفيا بحرّان، استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلد الروم لأنه رآه فصيحا. له عدة رسائل أهمها: كتاب (جوامع جالينوس في الادوية المفردة) ورسالته (في الجدري والحصبة) ينظر: ابن النديم، **الفهرست**، المرجع السابق، ص 227.

[7] – بوعزة طيب، **تاريخ الفكر الفلسفي الغربي**، قراءة نقدية، في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 25 – 26.

[8] – يمكن القول أنَّ اكتساب الحضارة العربية الإسلامية، لوناً عالمياً في مجال المعرفي والحضاري خاصة في القرن الرابع الهجري (04هـ) كان نتاج عدة عوامل ثقافية واجتماعية تفاعلت فيما بينها. فقد اعتبر الدكتور ابراهيم العاتي، وثلة من مفكري العرب المعاصرين، هذا القرن قمة النضوج العقلي والرقي الحضاري عند المسلمين، نظراً لما تميز به من تفاعل ثقافي وحضاري. إذن لم يكن الاسلام دينا منغلقا، بل كان منفتحاً على كل وافد من الحضارات المجاورة. الخارج، مترصدا لكل جديد؛ وإن كان ابراهيم العاتي يرى أن هذا الجو المفعم بالنشاط والحيوية الذي تزامن مع حركة النقل والترجمة، قد صاحبها شيء من العنف والإكراه في بعض الاحيان. ينظر: العاتي ابراهيم، **الزمان في الفكر الاسلامي**، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 11 -19.

[9] – مرحبا محمد عبد الرحمن، **الجامع في تاريخ العلوم عند العرب**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 03، 1989، ص 196.

[10] – زقزوق محمود حمدي، **دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي**، مكتبة وهبة، عاصدين، قطر، ط01، 1984، ص 11.

[11] – جدعان فهمي، **أسس التقدم عند مفكري الاسلام**، دار الشروق، الاسكندرية، مصر، ط 03، 1988، ص 27.

[12] – دي بور ت. ج، **تاريخ الفلسفة في الاسلام**، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط 05، دس، ص 50.

[13] – بدوي عبد الرحمن وآخرون، **موسوعة الحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، ج 02، 1964، ص 539.

[14] – بدير عون فيصل، **علم الكلام ومدارسه**، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ط 02، الاسكندرية، مصر، د س، ص 19

[15] – بدوي عبد الرحمن، **موسوعة الحضارة**، المرجع السابق، ص 515.

[16] – غير أن ما يجب التنويه اليه والاشارة له، في هذا السياق، هو الطريقة التي يتناول بها علمائنا وفلاسفتنا الاوائل، والتي لا تخرج عن كونها لصيقة الى حد ما بمناهج علم الكلام. فما هو معروف لدى كثير من الدارسين المتخصصين، أن علم الكلام، يدرس وفق اسلوبين متباينين، حسب ما تذهب اليه الدكتورة يمنى ظريف الخولي. التي ترى أن: (الاسلوب الأول: يستند أساسا على نظرتنا لهذا العلم من زاوية الفرق التي كونته، بينما الاسلوب الثاني: فيستند الى النظر في ترتيب موضوعات علم الكلام. والتي تبدأ من التوحيد وتنتهي باللطائف الطبيعية، كالجسم والحركة والزمان والمكان، وكلها موضوعات تدخل في مجال العقل). ينظر: الخولي يمنى طريف، **الطبيعيات في علم الكلام من الماضي الى المستقبل**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر دط، 1995، ص 71.

[17] – يفتح الجابري دراسته الابستيمية لتراث العقدي، الذي خلفه علماء المسلمين، على عدة احتمالات نقدية تتعلق بخاصية كل لحظة زمنية. والتي شكلت فارقا أساسيا في تحديد البني القاعدية، التي شكلت النظريات الكلامية. فمثلا يرى: أنه ليس بصدد التعرض لدراسة الحقبة التي برز فيها الفخر الرازي، إذ يقول : (لن نتعرض لهذه الأخيرة – لحظة فخر الدين الرازي – لأنها تمثل مرحلة جديدة في علم الكلام بأسره، أطلق عليها ابن خلدون اسم " طريقة المتأخرين " تمييزاً لها عن طريقة المتقدمين، التي تشمل اللحظات الثلاث الأولى، وهي: اللحظة التي لم يدركها ابن رشد. وبالتالي فنقده لا ينطبق عليها، وإن كان انتقاده لابن سينا يصدق عليها، لكونها تأسست على المفاهيم التي وضعها هذا الأخير في إطار مسعاه، الذي يؤدي الى الجمع بين الدين والفلسفة). ينظر: الجابري محمد عابد، **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 01، بيروت، لبنان، 1998 ص 16.

[18] – يقول عبد الرحمن بدوي فيهم: (المعتزلة عقل هذه الأمة)، ويقول أيضا: (أما المعتزلة، فقد كانوا من الفرق الإسلامية التي تصدت للدفاع عن الإسلام ضد خصومه، بل واتخذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصوم). ينظر: بدوي عبد الرحمن، **موسوعة الحضارة الاسلامية**، المرجع السابق، ج 02، ص 505. وايضا: الصالح صبحي، **الاسلام ومستقبل الحضارة**، دار الشورى، ط 01، 1982، بيروت، لبنان، ص 31.

[19] – طوقان قدري حافظ، **مقام العقل عند العرب**، دار القدس للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص 111.

[20] – سورة العلق، رقم: ، الآيات 01، 02، 03، 04، 05، 06، 07، 08، 09، 10، 11، 12، 13، 14.

[21] – يقول صبحي صالح : (حتى الإنسان الأول – الأومو سابيان – قد مر عليه عشرات الألوف من السنين والأحقاب، وهو في تحركه البطيء المضني يتأمل ويطيل التأمل في نفسه، وفي الكون من حوله. حتى استطاع أن يكتشف قدرته العقلية، المجهزة بأضخم

الطاقات الكامنة في العلم، والتي تكمن في القدرة التأملية المتقدمة زمناً، قبل استنادها الى التجريبية التطبيقية المتأخرة حصولاً). ينظر: صالح صبحي، **الاسلام ومستقبل الحضارة**، المرجع السابق، ص 26.

[22] – القياس لغة : التقدير، يقال قست النعل بالنعل اذا قدرته وسويته، وهو: عبارة عن رد الشيء الى نظيره. وهو عند المناطقة قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر. ينظر: التفتازاني أبو الوفا الغنيمي، **الانسان والكون في الاسلام**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، دط، 1995، ص 35.

[23] – التفتازاني، **الانسان والكون في الاسلام**، المرجع نفسه، ص 25. وأيضاً: صالح صبحي، **الاسلام ومستقبل الحضارة**، المرجع السابق، ص 25.

[24] – سورة، يس، رقم 36، الآيتان 77 – 81.

[25] – كانت للمسلمين إضافات معتبرة في عدة مسائل كان لها علاقة بمشكلة الحدوث، حتى أنهم: (استطاعوا أن يبتكروا حلولا، لم يسبقهم أحد اليها. وهذا دليل واضح على أن هناك فلسفة إسلامية ذات خصائص مميزة، لها أصالتها ومبتكراتها في فكر المعتزلة). ينظر: مدكور ابراهيم، **في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه**، دار المعارف، القاهرة ، مصر، د ط، 2003، ص 26.

[26] – الطبيعيات هي: العالم، وهي: الخلق كله، وهو: كل ما احتواه بطن الفلك او هي: (كل موجود سوى الله تعالى، الأجسام كلها وأعراضها، وهو: عبارة عن كل شيء، ما سوى الله من الموجودات، لأنه يُعلم به الله من حيث أسمائه وصفاته، وقد زعم قائل بأن العالم متأخر عن الله، والله متقدم عليه ليس يخلو، إما أن يريد به أنه متقدم بالذات لا بالزمان، كتقدم الواحد على الاثنين، فإنه بالطبع، مع انه يجوز أن يكون معه في الوجود الزماني، وكتقدم العلة على المعلول، مثل تقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له ...). ينظر: الغزالي أبو حامد، **تهافت الفلاسفة**، تح: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة مصر، ط 08، ص 110.

[27] – بدوي عبد الرحمن ، **موسوعة الحضارة الاسلامية**، المرجع السابق، ج 02، ص 511.

[28] – أما حاضرا فلا يزال هذا الاتجاه يكتسي أهمية كبرى في الابحاث العلمية المعاصرة، فثبوت فكرة التركيب الذري للكون، حقيقة لا يزال يدعمها علم الفلك المعاصر، في اقوى فروضه العلمية. والتي لا تزال تقوم القائمة حولها بين العلماء في المحافل الدولية والمختبرات العالمية، حيث ينتصر علماء الغرب لأقرب الفروض التطبيقية التي تقر نتائجها (أن هذا الكون كان في بداية تاريخه، عبارة عن سحابة من غبار ذي تركيب كوني يشبه السديم. وأن هذا السديم تكون من ذرة مركبة من الكترون وبروتون، ينحلان الى كهارب موجبة وسالبة). وقد ظهرت بوادر اكتشاف إلكترون الذرة عام (1897)، ولم يكن وجود الذرة آنذاك يترك مجالا للشك، وكان جميع علماء الفيزياء متفقين، على انها تشكل المرحلة النهائية لتجزئ المادة. (والنتيجة النهائية، كما كانوا يقولون في أنفسهم، هي أن كل جسم يتألف من جسيمات لا متناهية في الصغر، هي الذرات لا يوجد بعدها شيء). والحال أنه في تلك السنة (1897) كان الفيزيائي (ج . ج تومسن)، يقوم باختبار بواسطة أنبوب كروكس، ويدرس فيه الاشعاع المهبطي. ثم أتم (جان بيران) التجربة، ليكتشف ان الاشعاع المهبطي يتألف في الواقع من جسيمات هي أصعر من الذرات، وليس قوامها المادة بل الكهرباء السالبة اطلقوا عليها اسم الكترونات). ينظر: روسو بيار، **من الذرة الى النجم**، سلسلة ماذا اعرف؟، تر: خليل الجر، المنشورات العربية، دط، دس، ص 15 – 16. وأيضاً صالح صبحي، **الاسلام ومستقبل الحضارة**، المرجع السابق، ص 33.

[29] – سورة، الانشقاق، رقم 84، الآيتين 16– 19.

[30] – صالح صبحي، **الاسلام ومستقبل الحضارة**، المرجع السابق، ص 41.

[31] – من رجال الفلسفة في القرن الخامس الهجري، والذين اهتموا بدراسة مسائل الطبيعيات. الفيلسوف المشهور أبو علي بن سيناء (ت 428هـ) وأبو الحسن علي بن رضوان المصري (ت 453 هـ)، وركن الدين بن قلج أرسلان (ت 600 هـ). ومن رجال القرن السادس الهجري، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي، المعروف بقاضي المارستان (ت 535 هـ) وشهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الحموي المقتول (ت 587 هـ) من مصنفاته: التلويحات في المنطق والحكمة. ينظر: الذهبي، **سيّر أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، بيروت، ط9، ج 21، 1413هـ، 1994، ص 211.

[32] – الطائي فاضل أحمد وآخرون، **موسوعة الحضارة الاسلامية العربية الاسلامية، علم الفيزيقا عند العرب**، دار الفارس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج 01، ط 01، 1995، ص 304

[33] – بدوي عبد الرحمن وآخرون، **موسوعة الحضارة الإسلامية**، المرجع السابق، ، ص 353.

[34] – يستعمل القرآن عددا من الأفعال مثل جعل، بنى، رفع، خلق ، مُدَّ، طحا، صور، نصب، سوَّى، وأرسى، وكذلك نجد في اسم الفاعل، الباري، الفاطر، الفاطر، الخالق. أما كلمة بديع، فإنها تتضمن معنى خاصا وتسترعي لذلك انتباها خاصا، أما الفعل خلق فهو يتكرر مرارا ولا سيما عند الحديث عن تكوين السموات والارض في ستة أيام، ويظهر هذا الفعل لأول مرة في القرآن الكريم، وذلك في سورة العلق. ينظر: الالوسي، **مشكلة الخلق**، المرجع السابق، ص 47.

الأنماط القيادية وعلاقتها بالولاء التنظيمي

لدى عمال ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت، الجزائر

الدكتور بن موسى سمير، جامعة تيارت

الملخص: تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على طبيعة العلاقة بين الأنماط القيادية ومستوى الولاء التنظيمي لدى عمال قسم الموارد البشرية التابع لديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت –الجزائر. ولتحقيق ذلك استخدم الباحث استبيان يقيس الأنماط القيادية المكون من ستة وعشرين (26) فقرة، والذي تضمن ثلاث أنماط قيادية (التسلطي، التسيبي، والديمقراطي). كما تم اقتباس سبعة عشر (17) فقرة من مقياس الين وماير للولاء التنظيمي. وقد طبقت الدراسة على موظفي قسم الموارد البشرية، والبالغ عددهم 130 عاملاً، تمت الدراسة على نحو ستون (60) موظفا اي بنسبة 46٪ من حجم المجتمع الأصلي، ومن أهم النتائج المحصل عليها:

– وجود إرتباط دال إحصائيا قدر بـ 0.477 عند مستوى الدلالة 0.01 بين النمط القيادي الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي لدى عمال قسم الموارد البشرية التابع لديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

– وجود إرتباط دال إحصائيا قدر بـ 0.527 عند مستوى الدلالة 0.01 بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي.

– وجود إرتباط دال إحصائيا قدر بـ 0.609 عند مستوى الدلالة 0.01 بين النمط القيادي التسيبي ومستوى الولاء التنظيمي.

– كما كشفت الدراسة أن أثر النمط القيادي التسيبي مرتفع مقارنة بكل من النمط القيادي التسلطي والديمقراطي.

وقد اقترحت الدراسة على ضرورة تكوين الإطارات القيادية في مجال العلوم النفسية، والاستفادة من تجارب المؤسسات الوطنية والدولية الناجحة في مجال إعداد واختيار القادة الأنسب من يملكون الكفاءة القيادية القادرة على أداء دورها التسييري وفق مبادئ العقلانية والواقعية والتوقعية، بحيث يُمكّنهم للارتقاء بالعنصر البشري لتحقيق مستوى عالي من الولاء التنظيمي.
الكلمات المفتاحية: القيادة، القيادة التسلطية، القيادة الديمقراطية، القيادة التسيبية، الولاء التنظيمي، ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

Abstract: This study aims to identify the nature of the relationship between leadership styles and level of loyalty among workers in the human resources department of the Office of Promotion and management of reale state in Tiaret - Algeria. To achieve this, the researcher used a questionnaire to measure leadership styles consisting of twenty-six (26) items, which included three styles of leadership. As was the quote of the yen Meyer tool and loyalty to the organization, it is composed of seventeen (17) issues distributed by three dimensions. The sample selected 60 workers including of an estimated number of 130 workers in total member of the Directorate of Human Resources workers of the Office of Promotion and management of the wilaya of Tiaret. The study sample was selected according to preview class, so that the use of descriptive and suitable approach with the nature of the study, and after statistical analysis using the Pearson correlation coefficients and the calculating of the averages and standard deviations, the study found the following results:

- There is a statistically significant relationship that was estimated at 0,477 at the 0.01 level between the democratic style of leadership and loyalty of workers to the organization the Human Resources Department of the Office of Property Management in Tiaret.

- There is a statistically significant relationship that was estimated at 0.527 at the 0.01 level between the authoritarian leadership style and the level of loyalty of workers to the organization of the Human Resources Department of the Office of Property Management in Tiaret.

- There is a statistically significant relationship that was estimated at 0.609 at the 0.01 level between the leadership style and what makes the level of loyalty of workers to the organization of the Human Resources department and the Office of Property Management in Tiaret. The study also revealed that the leadership style leaves do is the most common style in the study sample. The study suggests the need to set up psychological training for leadership, and benefit from the experience of national and international institutions through good leaders, choose

the most appropriate, with the capacity and leadership skills who is able to fulfill his role on the principles of rationality and realism and predictability, so that it helps to adapt to various emerging countries and can raise the human element in achieving a high degree of organizational loyalty positions.

Keywords: leadership, authoritarian leadership, democratic leadership, leadership let go, organizational loyalty,Office of Promotion and management of reale state in Tiaret.

مقدمـــة:

يشهد عصرنا الحالي تغيرات متسارعة في جميع مجالات الحياة، هذه التغيرات انعكست على المؤسسات من حيث حجمها وتركيبتها البشرية ووظائفها. وما يساعد هذه المؤسسات على استمراريتها وتحقيق أهدافها هو الإنسان باعتباره عنصر التغيير والتطوير في أي تنظيم سواء كان اقتصاديا أو اجتماعيا(6). وأي مؤسسة فهي بحاجة ضرورية لتكوين أفراد قادرين على النهوض بالمؤسسة والمحافظة عليها، ولتحقيق ذلك يجب ان تكون القيادة فعالة لأنها أهم عناصر النجاح في المنظمة، حيث توجه كافة الموارد نحو تحقيق الأهداف، وتحدد اتجاهاتهم وولائهم، إذ أن أي منظمة لا تستطيع ان تحقق أهدافها حتى لو توفرت لديها كافة الإمكانيات المادية في ظل نمط قيادي غير قادر على توجيه الموارد البشرية وتنظيمها وتنسيقها(10) ، تُعتبر القيادة مُتغير يُشكّل ويُحدّد طبيعة التفاعلات داخل الجماعات، يتمثل دورها في تنشيط واثارة أفكار العاملين وتجسيدها ويتضح ذلك من خلال التأثير والتأثر في اتجاهاتهم وسلوكهم ومدى مشاركتهم في تحقيق أهداف المؤسسة. فضلا عن ذلك فطبيعة القيادة لها أثر في تحديد بيئة العمل باعتبار أن مفهومها اليوم مبني على علاقات فردية وجماعية ترتكز على عدة عوامل من بينها الثقة والالتزام بالقيم الأخلاقية للعمل لكسب ولاء العاملين والارتقاء بالولاء التنظيمي وبالتالي نجد أن موضوع القيادة موضوع يثير اهتماما بالغا لدى الباحثين في تخصصات عدة من بينها العلوم الاقتصادية، الادارية، والعلوم الاجتماعية، ووفقا لذلك قمنا بهذه الدراسة.

إشكاليـــة الدراســة:

تواجه المجتمعات في الوقت الحالي تحولات وتحديات نتيجة التطور السريع في جميع المجالات، لذلك لابد على الدول أن تهيئ الاستراتيجيات المناسبة للتكيف مع المستجدات ومواجهة المشكلات المترتبة عنها كما يجب عليها أن تسعى جاهدة لمواكبة الركب الحضاري والتطور العلمي بما يسمح لها من تحقيق استقلاليتها وسيادتها وازدهارها.

كما أن المنظمات بدورها تواجه العديد من الرهانات سواء في بيئتها الداخلية أو الخارجية فالتنظيمات المعاصرة عرفت تطورا كبيرا نتيجة التطور التكنولوجي لدرجة أصبح من الصعب متابعة هذه التغيرات[27] ولتطور الدول وتقدمها وجب الاعتماد على المؤسسات الخدماتية نظرا لدورها في تحقيق جودة الحياة لمواطنيها. ويُعتبر ديوان تسيير وترقية السكن العقاري من بين أهم المؤسسات التي تقدم خدمة عمومية، والتي تقاس كفاءاتها بمقدار تحقيقها لما يتوقعه المجتمع منها، وحتى ترقى إلى مستوى التوقعات فهي بحاجة إلى العنصر البشري والمادي الكافي والمؤهل، وبنى تنظيمية مناسبة وسياسة مضبوطة ومواكبة للتطورات العلمية المستجدة في مختلف الميادين، وظروف عمل ملائمة. وتسعى هذه المؤسسات إلى تحقيق الجودة من خلال استخدام مجموعة من المدخلات البشرية التي تعتبر المحرك الاساسي والحيوي للأداء الذي يساعد في الرفع من مستوى الولاء التنظيمي[47]. وفي ذات السياق هدفت دراسة العمري (1990) إلى التعرف على الأنماط القيادية لرؤساء الأقسام في جامعة الملك سعود وعلاقتها بالولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريسية، وبيان أثر كل من المتغيرات المتمثلة في : درجة العلمية، والسن، والحالة الاجتماعية والدخل الشهري والخدمة والتي توصلت إلى أن النمط الديمقراطي هو النمط الأكثر شيوعا لدى عينة الدراسة من رؤساء الأقسام يليه التسيبي ثم النمط الأتوقراطي وأنه توجد علاقة سلبية معنوية ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي التسلطي والولاء التنظيمي وتوجد علاقة سلبية ايجابية ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي الديمقراطي والولاء التنظيمي، وأنه لا يوجد أثر ذات دلالة إحصائية للمتغيرات المستقلة ؛ الدخل الشهري، والسن، والخدمة في العمل الحالي، والدرجة العلمية، وعلى مستوى الولاء التنظيمي. ويعتبر الولاء التنظيمي المفتاح الأساسي للكشف عن مدى التجانس القائم بين الأفراد ومنظماتهم، فالأفراد ذوي الولاء المرتفع اتجاه منظماتهم هم الذين لديهم الاستعدادات المطلوبة للرفع وزيادة الجهد المبذول وإتقان أعمالهم ويسعون إلى الارتباط بالمنظمة التي ينتمون إليها.و قد بينت معظم الدراسات التي

أجريت في مجال الولاء التنظيمي أن أكثر الأفراد ولاء وانتماء لمؤسساتهم هم الذين تنخفض نسب غيابهم عن عملهم ويكون رضاهم الوظيفي في ارتفاع مستمر (8) .كما يؤكد الفارسي على أن المنظمات التي يوجد بها ولاء تنظيمي مرتفع تتميز بإنتاجية عالية وأداء مرتفع وفعالية تنظيمية أكثر من المنظمات التي يوجد بها ولاء الموظفين منخفض (42). ضعف الولاء للمنظمة يترتب عليه تحمل تكلفة الغياب والتسيب وهجرة الكفاءات . وعدم القدرة على الابتكار وانخفاض الانتاجية والالتزام بالعمل (12). وقد ذكر أوشي في دراسة له أن سعي المنظمات لكسب ولاء موظفيها أمر ضروري لما يترتب على الولاء من مكاسب بالنسبة للمنظمة تتمثل في رضاهم الوظيفي وزيادة قدرتهم عل الإبداع والإنتاجية، واحترامهم للأنظمة وقوانين العمل. لكن رغم ما ذكر سابقا لا يمكن الحصول على الولاء جاهز ويفرض بالإكراهات المختلفة بل إنه نتيجة لتفاعلات والعديد من العوامل والمتغيرات فهو ليس نظاما، بل هو نتيجة للعديد من النظم والسياسات والسلوكيات المتفاعلة، ويؤثر عليه العديد من المتغيرات (26) .

ومن خلال تقصي العديد من الدراسات العربية والأجنبية التي تناولت ظاهرة الولاء التنظيمي اتضح أن الولاء يتأثر بالكثير من العوامل والمتغيرات ولعل أبرزها النمط القيادي، حيث بينت دراسة بوعلاق نوال (2009) حول موضوع العوامل المؤثرة في الولاء التنظيمي لدى العاملين أن عامل القيادة يؤثر بدرجة عالية في الولاء التنظيمي. وأن النمط القيادي الفعال غالبا ما يؤثر على العاملين وسلوكهم وأداءهم بشكل كبير، كما ينعكس على روحهم المعنوية ورضاهم على العمل وولاءهم.

فالقائد الفعال هو الذي يُحدث ذلك التأثير الايجابي في المناخ لتنظيمي بوجه عام وفي الروح المعنوية للعاملين بوجه خاص إذ أن القادة الناجحين هم الطاقة المبدعة التي تدفع العاملين للمبادأة والمبادرة لبلوغ أهداف المؤسسة (39)و تعتبر القيادة في أي تنظيم من أكثر المهام تعقيدًا وتأثيراً على السلوك التنظيمي فهي تؤثر بشكل مباشر على دافعية الأفراد للأداء ورضاهم عن العمل ومحوراً رئيسيا للعلاقة بين الرؤساء والمرؤوسين، فالقائد الناجح يقدم لأفراد جميع الوسائل التي تشبع رغباتهم وتحقق حاجاتهم وكذلك يدافع عنهم فيحصل على ولائهم، ومن خلال عطاء المرؤوسين يكتسب

القائد شرعيته وسلطته كقائد [8]. ولكن بغض النظر عن النمط القيادي الذي يسلكه المدير فإنه تبقى أهمية إدراك المرؤوسين للنمط القيادي لمديرهم هي حجر زاوية، لأنه ليس المهم ما يمارسه المدير بل ما يدركه المرؤوسين لأن هذا الإدراك له الأثر القوي في سلوك الفرد وفي نوعية العمل الذي يؤديه[39]. ونظرا لأهمية الموضوع المتمثل في النمط القيادي من وجهة الموظفين وتأثير ذلك على ولائهم التنظيمي جاءت هذه الدراسة، خاصة مع ارتفاع التغيب ودوران العمل الغير صحي، والتي تعُتبر من بين أهم مصادر انخفاض مستوى الولاء التنظيمي. وعليه، بناء على ما ذكر أنفا طرح الباحث التساؤلات الأتية:

تساؤلات الدراسة:

- ماهو النمط القيادي السائد في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت؟

- هل توجد علاقة بين النمط القيادي الديمقراطي والولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت؟

- هل توجد علاقة بين النمط القيادي التسيبي والولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت؟

- هل توجد علاقة بين النمط القيادي التسلطي والولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت؟

2-**صياغة الفرضيات:** انطلاقا مما تم تناوله في إشكالية الدراسة، قمنا بصياغة الفرضيات على النحو الاتي:

الفرضية الأولى: توجد علاقة دالة إحصائيا بين النمط القيادي الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

الفرضية الثانية: توجد علاقة بين النمط القيادي التسيبي ومستوى الولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

الفرضية الثالثة: توجد علاقة بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي في ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

3-**دواعي اختيار الموضوع**: تتعدّد أسباب إختيار الموضوع إلى أسباب ذاتية وعلمية:

أولا-أسباب ذاتية: يعود اختيارنا لهذا الموضوع لعدة أسباب ذاتية نذكر منها:

- الرغبة والاهتمام الشخصي من خلال الاطلاع المعرفي والتقصي الميداني حول مواضيع ترتبط بالأنماط القيادية والولاء التنظيمي.

- التجارب المهنية والملاحظات العلمية بيّنت أن السلوك القيادي للمسؤول الجزائري يجعل ولاء موظفيه شبه منعدم، ولتقصي ذلك تمت الدراسة بمؤسسة التسيير العقاري بمدينة تيارت.

ثانيا-أسباب علمية: إثراء المكتبة الجامعية بمادة علمية تسهم في تطوير البحث العلمي التخصصي، وتقديم القيمة المضافة لتشخيص وحل المشاكل المرتبطة بممارسات المدراء والمسؤولين والموظفين والعلاقات المهنية داخل المؤسسات.

4-أهداف البحث: تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تسليط الضوء على النمط القيادي والتعرف عليه في ديوان الترقية والتسيير العقاري بمدينة تيارت.

- معرفة انعكاسات الأنماط القيادية الموجودة على سلوكيات الموظفين وولاءهم للمنظمة.

- التعرف على العلاقة بين مستوى الولاء التنظيمي والأنماط القيادية في المؤسسة من خلال تطبيق أدوات الدراسة.

5-حدود الدراسة: تمثلت في؛ الحدود الموضوعية: يتناول هذا الموضوع البحث عن العلاقة بين الأنماط القيادة ومستوى الولاء التنظيمي وعليه حدد المتغير المستقل في الأنماط القيادية والمتغير التابع المتمثل في الولاء التنظيمي؛ الحدود المكانية: ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت؛ الحدود الزمانية: اجريت الدراسة في شهر من نهاية شهر افريل الى نهاية شهر ماي الفين وخمس عشر. الحدود

البشرية: على عينة من مختلف الرتب بقسم الموارد البشرية ديوان الترقية والتسيير العقاري مدينة تيارت.

6-الدراسات السابقة التي تناولت الأنماط القيادية وعلاقاتها بالولاء التنظيمي:

أولا-دراسة الحربي (2001) الموسومة بـ علاقة الولاء التنظيمي بالنمط القيادي، دراسة تطبيقية على موظفي الجمارك في المنافذ الجمركية الجوية والبحرية والبرية في المملكة العربية السعودية. حيث هدفت الدراسة إلى:

-الكشف عن العلاقة بين الولاء التنظيمي والأسلوب القيادي المتبع في الجمارك .وتكون مجتمع الدراسة من المفردات الآتية :جميع الموظفين العاملين في جمارك مطار الملك خالد بالرياض (منفذ جوي(وبمحافظة جدة (منفذ بحري) وبالمنطقة الشمالية (منفذ بري) وقد بلغ إجمالي عدد مفردات مجتمع الدراسة (1771) موظفاً، وبالطريقة العشوائية الطبقية من كل منفذ تم أخذت عينة الدراسة التي بلغ عددها (628) موظفا. كما تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي لتحقيق أهداف الدراسة. وقد توصلت الدراسة إلى النتائج الاتية: النمط القيادي السائد في المنفذ البري هو النمط القيادي الديمقراطي يليه بدرجة اقل النمط القيادي الأوتوقراطي، بينما النمط القيادي السائد في المنفذ الجوي هو النمط القيادي الأوتوقراطي، بينما يسود في المنفذ البحري النمط القيادي الديمقراطي. ويتمتع موظفو الجمارك بمستوى عال من الولاء التنظيمي.

– إن استخدام النمط القيادي الديمقراطي يزيد من مستوى ولاء الموظفين في الجمارك كما أن استخدام النمط القيادي الأوتوقراطي يؤثر سلباً في مستوى الولاء التنظيمي لدى موظفي الجمارك. ولم يتبين وجود علاقات ذات دلالة إحصائية بين الولاء التنظيمي ومتغيرات (سنوات الخبرة والمؤهل العلمي). تتفق هذه الدراسة مع دراستنا في المنهج المستخدم وهو المنهج الوصفي، وكذلك في الهدف منها في فحص العلاقة بين النمط القيادي والولاء التنظيمي. وتختلف هذه الدراسة عن دراستنا في مجتمع الدراسة وبيئة التطبيق، وكذلك في نوع النمط القيادي المراد فحص علاقته بالولاء

التنظيمي، حيث هدفت هذه الدراسة إلى بيان طبيعة العلاقة بين النمط القيادي (ديمقراطي، أوتوقراطي).

ثانيا-دراسة العمري (1999): الموسومة بـ الولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريس والنمط القيادي لرؤساء الأقسام في جامعة الملك سعود؛ هدفت الدراسة إلى معرفة طبيعة العلاقة بين أنماط القيادة والولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك سعود، وكان مجتمع الدراسة مكوناً من جميع أعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك سعود، فيما بلغ إجمالي العينة(147) عضواً واستخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي المسحي وتم الاستعانة بالاستبانة كأداة لجمع البيانات. ومن أهم النتائج:

-وجود علاقة سلبية ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي التسيبي والولاء التنظيمي، كما توصلت الدراسة إلى وجود علاقة ايجابية ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي الديموقراطي والولاء التنظيمي .كما أظهرت نتائج هذه الدراسة أن أعضاء هيئة التدريس يدركون النمط القيادي المتبع في القسم، وتبين أيضاً أن أكثر الأنماط القيادية شيوعا في الوسط الجامعي هو النمط الديموقراطي؛ توفر مستوى عالٍ من الولاء التنظيمي لدى أعضاء هيئة التدريس .ولم يتبين وجود علاقات ذات دلالة إحصائية بين مستوى الولاء التنظيمي والمتغيرات الديموغرافية لأفراد مجتمع الدراسة.

ثالثا-دراسة هريو (2006): هدفت دراستها إلى الكشف عن النمط القيادي وعلاقته بالولاء التنظيمي لدى موظفي المؤسسة الناقلة للطاقة الكهربائية سونلغاز بعنابة، وقد انطلقت الباحثة في دراستها من مجموعة من التساؤلات الهامة تدور حول طبيعة النمط القيادي السائد في المؤسسة وعلاقته بالولاء التنظيمي لموظفيها تبعا لخصائصهم الشخصية (السن، الجنس، الحالة الاجتماعية، مدة الخدمة). وقد اعتمدت الباحثة على استبيان ضم 48 سؤال، مقسم وفق ثلاث محاور تبعا لمتغيرات الدراسة وقد طبق الاستبيان على75 موظف من الجنسين بنسبة 25 ٪ من مجتمع الدراسة، والتي مست كل من : الإطارات، المشرفين، والمنفذين. خلصت الباحثة إلى: وجود علاقة إيجابية قوية بين النمط القيادي الديمقراطي والولاء التنظيمي، في حين كشفت عن علاقة

سلبية بين النمط القيادي الأوتوقراطي والولاء التنظيمي، أما فيما يخص الفروق بين المتغيرات الشخصية والولاء التنظيمي فقد أسفرت النتائج على فروق ذات دلالة إحصائية بين الموظفين ما عدا متغير الجنس حيث دلت النتائج على عدم وجود اختلاف ذات دلالة إحصائية بين متغير الجنس والولاء التنظيمي لموظفي منظمة البحث.

رابعا-دراسة العوراني (2003): التي درست طبيعة العلاقة بين الولاء المهني والنمط القيادي لدى الإداريين في وزارات السلطة الوطنية الفلسطينية، وتوصلت هذه الدراسة إلى وجود علاقة ايجابية بين النمط القيادي الديمقراطي والولاء المهني.

خامسا-دراسة ألينا ستوفا Elena Stoeva (2006): التي بينت وجود علاقة ايجابية بين النمط الديمقراطي والولاء المعياري والعاطفي وعدم وجود علاقة بين النمط القيادي والولاء المستمر.

7-المنهج وأدوات الدراسة:

منهج الدراسة: تم الاعتماد على المنهج الوصفي، الذي يناسب طبيعة موضوع الدراسة.
مجتمع الدراسة: تكونت عينة الدراسة من عمال ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت باختلاف رتبهم الوظيفية من إطارات ومتحكمين ومنفذين، وحسب إحصائيات الديوان عام 2015 فإجمالي القوة العاملة هي 400 عامل، قد تم التعامل مع ستون (60) عاملا من مجموع مئة وثلاثون (130) عاملاً بنسبة قدرها 46.15 ٪، وقد تم تطبيق الدراسة مع قسم الموارد البشرية للسهولة والانسيابية في التعامل مع تركيبته البشرية، وفيما يخص اسلوب المعاينة قد تم استخدام اسلوب المعاينة العشوائية الطبقية.

مدة الدراسة: تمت الدراسة من الفترة الممتدة من 2015/04/26 إلى غاية 2015/05/27.

مصادر بناء أدوات الدراسة:

الاستبيان الأول؛ الأنماط القيادية: تم بناء الاستبيان وفق مصادر التالية: الاستفادة من المراجع التي تم تناولها من بينها كتاب الاتجاهات الحديثة للقيادة الادارية 1997، طاهر محمود كلالدة، والاستعانة بالدراسات التي تناولت هذا الموضوع، من بينها دراسة الراشدي 2010 أنماط القيادة وعلاقتها بالولاء التنظيمي للمعلمين في دولة الكويت. وقد تم إجراء مقابلات مع عمال بديوان الترقية والتسيير العقاري لولاية تيارت لإبداء ملاحظاتهم حول فقرات الاستبيان لإخراجه بشكل واضح ومناسب.

الإستبيان الثاني؛ الولاء التنظيمي: تم الإقتباس من مقياس الين وماير الذي قام بترجمته وإعداده "بدر محمد الجريسبي " في الموسم الجامعي 2011/2010 من جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية كلية الدراسات العليا، قسم العلوم الإدارية في إطار إعداد المذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإدارية مع إجراء بعض التعديلات لتكييفه مع ما يتناسب وموضوع الدراسة.

8-الخصائص السيكومترية لأداة الدراسة:

أ-الصدق:

استخدمنا صدق الاتساق الداخلي فيما يخص استبانة أنماط القيادة، تم التوصل الى:

أ-بُعد النمط القيادي الديمقراطي: وجدنا أن الفقرات (1-2-3-4-5-6) ارتباطاتها قدرت بين 0.36 إلى 0.80 دالة عند مستوى 0.01 وأن الفقرة السابعة (7) قدر ارتباطها بـ 0.43 دالة عند مستوى 0.05، يعني أن النمط القيادي الديمقراطي يتمتع بدرجة عالية من الصدق ويمكن تطبيقه في دراستنا.

ب-بُعد النمط القيادي التسلطي: وجدنا أن معامل الارتباط تراوح بين 0.28 إلى 0.73 دال عند مستوى 0.01، يعني أن النمط القيادي التسلطي يتمتع بدرجة عالية من الصدق ويمكن تطبيقه.

ج-بُعد النمط القيادي التسيبي : وجدنا أن معامل الارتباط تراوح بين 0.43 إلى 0.79 دال عند مستوى دلالة 0.01، يعني أن النمط القيادي التسيبي يتمتع بدرجة عالية من الصدق ويمكن تطبيقه.

وفيما يخص استبانة الولاء التنظيمي اخترنا معامل الصدق للاتساق الداخلي، وقد خلصنا الى ما يلي: لاحظنا أن معاملات الارتباط تراوحت بين 0.38 إلى 0.95، يعني أن استبيان الولاء بأبعاده (الولاء العاطفي، الولاء المستمر، الولاء الاخلاقي) صادق وصالح للتطبيق.

ب-ثبات أداة الدراسة: لقياس مدى ثبات أداة البحث تم استخدام معامل الثبات التجزئة النصفية.

خرجنا بالنتائج التالية: تبيّن لنا أن درجة ثبات البعد الأول (الانماط القيادية) 0.91، ودرجة ثبات البعد الثاني (الولاء التنظيمي) 0.86، وهي نسب ثبات عالية ومعاملاتها التصحيحية بسبيرمان براون للبعد الأول 0.93، وثبات البعد الثاني 0.86. وعليه فإن أداة الدراسة تستوفي شروط خاصيتي الصدق والثبات، وهي صالحة للتطبيق.

9-عرض ومناقشة النتائج الفرضيات:

مناقشة نتائج الفرضية الجزئية الأولى: التي مفادها وجود علاقة ارتباطية بين النمط القيادي الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي لدى عمال قسم الموارد البشرية بديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت.

تبيّن لنا أن قيمة معامل الارتباط بيرسون بين النمط القيادي الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي قدرت بـ 0.47 دالة عند مستوى دلالة 0.01 تؤكد بوجود علاقة ارتباطيه طردية متوسطة بين النمط القيادي الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي لدى عمال الترقية والتسيير العقاري في تيارت. تفسر هذه النتيجة على وجود تسيير وتدبير جيد وفعال من طرف القائد لكونه يتبع النمط القيادي الديمقراطي في علاقاته مع العمال، من خلال اتاحة فرص الحوار لخلق نشاط

وحيوية داخل المؤسسة، حيث ان أفضل تقدير لدى المرؤوسين يمثل في القيادة الفعالة، ولا يعني ذلك تقييد الإرادات ولا تثبيطها ولكن اكتشافها لجعلها تتوافق مع الأفعال المقررة لضمان نجاحها، فالقائد لا يستغل سلطات منصبه من أجل إصدار الأوامر والأحكام فقط بل يولد الرغبة الصادقة لدى المرؤوسين في الولاء التنظيمي العالي فهو يؤثر بشكل معنوي وإيجابي في الولاء التنظيمي، فالقائد الديمقراطي حريص دائما على مراعاة احتياجات مرؤوسيه إذ أن توزيع المسؤوليات والمهام بعدالة بين العاملين كل حسب قدراته وإمكاناته يشعرهم بتقدير الإدارة لهم وثقتها فيهم مما يزيد من عطائهم في جو من الألفة والمحبة. وتتفق دراستنا مع دراسة ماري بيدريت 2002 ، Pedrite ؛ التي بيّنت أثر النمط القيادي للمدربين في المدارس الكاثوليكية الأمريكية على ولاء المعلمين، وأظهرت النتائج أن هناك علاقة إيجابية دالة إحصائيا بين النمط القيادي الديمقراطي ودرجة الولاء التنظيمي. كما تتفق مع دراسة الخشالي 2003 الموسومة بـ أثر الأنماط القيادية لرؤساء الأقسام العلمية على الولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية الخاصة. التي خرجت بوجود علاقة دالة إحصائيا بين نمط القيادة الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي. واختلفت مع دراسة العمري 1999 الموسومة بـ الولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريس والنمط القيادي لرؤساء الأقسام في جامعة الملك سعود. التي أكدت على عدم وجود علاقة دالة إحصائيا بين نمط القيادة الديمقراطي ومستوى الولاء التنظيمي.

مناقشة نتائج الفرضية الثانية:

بيّنت النتائج أن قيمت معامل الارتباط بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي قدرت بـ 0.52 دالة عند مستوى دلالة 0.01 التي تؤكد على وجود علاقة ارتباطيه متوسطة بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي لدى عمال ديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت، وتفسر هذه النتيجة على أن القيادة التسلطية أعلى تأثيراً في بعض المواقف من القيادة الديمقراطية مثل الأزمات وفي وجود موظفون جدد يفتقدون للخبرة مما يصعب عليهم المبادرة واتخاذ القرارات الحاسمة التي تحتاج الى القائد المتمرس في مجال عمله .كما يستند هذا النمط من القيادة في الحالة التي يكون فيها الفرد لا يقوم بواجباته ومهامه ويتهرب من المسؤولية وهذه الصفات تهيئه

للانقياد والاعتماد على الغير وتجعله يعمل خوفا من الجزاء والعقاب، ولذا يحتاج إلى متابعة دقيقة ومراقبة مباشرة من رئيسه للتأكد من القيام بواجباته ومهامه، فالقائد يضطر إلى استخدام هذا الأسلوب في الحالات الطارئة التي يمر بها التنظيم والتي تتطلب الصارمة والانضباطية، إذ أن الموقف يتطلب هذا النوع من السلوك وإن التهاون فيه لا يخدم مصالح التنظيم والعاملين، والحالات التي يواجه فيها القائد بأنواع من المرؤوسين التي لا يتفاعل معهم إلى استخدام هذا الأسلوب، وفي الحالات التي تكون فيها طبيعة العمل متجانسة بحيث يكون جميع العمال خاضعين لتعليمات وقواعد محددة لتنفيذ العمل، والمرؤوسين يميلون إلى أن تكون السلطة عليهم على أساس انها الأسلوب المناسب لتنفيذ العمل فهم يتقبلون جميع الأوامر الصادرة ويخضعون للتعليمات الموجهة إليهم حيث أن أسلوب القيادة التسلطي يتماشى مع توجهات العاملين وهذا يؤثر إيجابا على مستوى الولاء التنظيمي باعتباره يأتي نتيجة التفاعلات بين الفرد والمنظمة كما يتأثر الولاء التنظيمي بالعديد من التغيرات، فهناك اهداف ذاتية من العمر وسنوات الخدمة، المستوى التعليمي، الحالة الاجتماعية، والحاجة للإنجاز. وهناك أبعاد تتعلق بالمصالح الشخصية للعمال كالأجر والحوافز. ومن خلال دراستنا اكتشفنا أن مستوى الولاء التنظيمي مرتفع نتيجة للبيئة الخارجية للعمل من حيث قلة فرص العمل المتاحة للموظف إلى جانب فرص التقدم والترقية الممكنة في مساره الوظيفي داخل المؤسسة، فكل من هذه المتغيرات وغيرها تؤثر في مستوى الولاء حيث يرى بيكر في نظرية الأخذ والعطاء أن الأفراد يُصبحون مقيدين بأنواع خاصة من السلوكات داخل المنظمات ذلك لأنهم اكتسبوا بعض المزايا والمكافآت خلال مسارهم المهني والتي تؤثر مباشرة على هذا السلوك، وبالتالي فإنهم يخشون من هدر تلك المزايا إذا تخلو عنه. تتوافق هذه النتيجة مع دراسة عبد العاطي الصيار وحسن إبراهيم سنة 1989 والتي توصلت الى وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي في المدرسة المتوسطة السعودية. وتتوافق هذه النتيجة أيضا مع دراسة ناصر محمد إبراهيم تحت عنوان أنماط القيادية في المؤسسات الصناعية وعلاقتها بالنمو المهني 2004. وأظهرت النتائج أن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي. وتتفق كذلك مع دراسة عبد الشملاني 1997 التي اقتصرت على الأنماط القيادية السائدة في الفكر الإداري. والتي توصلت أن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين

النمط القيادي التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي. بينما لا تتفق دراستنا مع ما توصل إليه الباحث محمد غازي 1998 والتي بينت أن النمط التسلطي هو الأقل ممارسة في المؤسسات. كما تختلف مع دراسة الفايدي 1987 التي أظهرت عدم وجود علاقة دالة إحصائية بين نمط القيادة التسلطي ومستوى الولاء التنظيمي.

مناقشة نتائج الفرضية الثالثة:

بيّنت النتائج أن قيمة معامل ارتباط بيرسون بين النمط القيادي التسيبي ومستوى الولاء التنظيمي قدرت بـ 0.609 عند مستوى دلالة 0.01 وهذا يعني وجود علاقة ارتباطية قوية بين النمط القيادي التسيبي ومستوى الولاء التنظيمي. تفسير هذه النتيجة أن النمط القيادي التسيبي شائع في مؤسسة ديوان الترقية والتسيير العقاري، حيث اتجه القائد إلى تفويض السلطة لمرؤوسيه على أوسع نطاق وميله لإسناد الواجبات إليهم بطريقة عامة غير محددة، يتيح لهم مزيد من الحرية والاستقلالية في ممارسة أعماله، ومن جهة أخرى يعتمد القائد على التعليمات العامة فيترك لمرؤوسيه حرية اتخاذ القرارات واصدار التعليمات ويتركهم يحددون أهدافهم في نطاق الأهداف العامة للتنظيم ويجيزون لأنفسهم حوافز العمل دون الرجوع الى القائد، وفي نطاق التمثل الاجتماعي الجزائري ففي الغالب لا يحبذ النمط التسلطي بالإضافة إلى عدم فهمه للنمط الديمقراطي نتيجة للاستقرار في قطاع العقار الذي يعيش غموض في المراسيم القانونية و التنظيمية والتسييرية، مما جعل الجزائر ورشة كبرى لم تنته بها الاشغال بالرغم من ارادة السلطات العليا في عملية الاسكان والاعمار من خلال المشروع الخماسي (2009-2015). ومن خلال دراستنا وملاحظتنا الميدانية لمهام وأنشطة منسقي المبحوثين فهي واضحة ومحددة بدقة ولا تقتضي التدخل فيها مقارنة بعمال الورشات التي تقتضي مراقبة وإشراف، كما وقد يعود سبب الولاء التنظيمي للعمال إلى الأعباء والمسؤوليات الاجتماعية التي تقع على عاتق الموظف الذي يحاول الحفاظ على وظيفته، كما يتأثر الولاء التنظيمي للموظف بالاعتبارات الشخصية كالرغبة في الاستقرار والثبات وعدم التنقل إلى وظائف جديدة بالإضافة إلى أن الفرد يكون قد قضى مدة خدمة طويلة في المؤسسة وارتبط ولائه بها. وعليه تتفق دراستنا مع دراسة حسان (1992) التي أسفرت على أن أكثر الأنماط شيوعا في المدارس المتوسطة

هو النمط الفوضوي. واتفقت ايضا مع دراسة المنيع (1997) التي اكدت على أن المدير في المدرسة الابتدائية يمارس الأسلوب القيادي التسيبي. وفي نفس الاتجاه اتفقت دراستنا مع دراسة ناصر محمد ابراهيم (2004) بعنوان أنماط القيادة في بعض المؤسسات الصناعية الخاصة وعلاقتها بالنمو المهني. والتي أسفرت النتائج عن وجود علاقة ارتباطية بين النمط القيادي التسيبي والولاء التنظيمي. واختلفت دراستنا مع دراسة محمد غازي (1984) التي هدفت لمعرفة النمط الإداري أكثر تفضيلا لدى المعلمين والتي بينت أن النمط التسيبي هو الأقل انتشارا في مدارس متوسطة مكة المكرمة. واختلفت دراستنا ايضا مع دراسة إكو باليس (2009) حيث أشارت لعدم وجود أثر النمط القيادي التسيبي على مستوى الولاء التنظيمي لدى المعلمين.

خاتمة: ترتبط القيادة بالولاء التنظيمي لعمال الموارد البشرية بديوان الترقية والتسيير العقاري بتيارت، كون الأنماط القيادية الديمقراطية، التسيبية، والتسلطية تؤثر سلبا أو إيجابا على ولاء المرؤوسين وعلى حبهم للعمل وإتقانهم لما يقومون بأداءه وانجازه، لأن الأنماط القيادية تختلف من فرد لآخر وهذا راجع إلى ادراكات واتجاهات وسلوكات وحتى الظروف الاجتماعية لكل فرد وطريقة تفاعله مع الأنماط القيادية المختلفة في ضوء علاقاته المهنية وطبيعة العمل في حد ذاته، ومساره المهني والثقافة التنظيمية السائدة في المؤسسة. ولهذا نوصي بوجوب الاعتماد على هذه الدراسات والاستفادة منها لتفعيل الأنماط القيادية التي تتناسب مع المواقف والاحداث والوضعيات المهنية. وأن تختار المؤسسات الأفراد الذين يتمتعون بقدرات شخصية قيادية من الاستقلالية والثقة بالنفس واليقضة والمرونة من أجل الوصول إلى أعلى مستويات الولاء للمرؤوسين وتحقيق أهداف المؤسسة خدمة للصالح العام.

الهوامش:

الجريس بدر محمد: علاقة المتغيرات الشخصية وأنماط القيادة بالالتزام التنظيمي والشعور بالعدالة التنظيمية في الوزارات الفلسطينية بقطاع غزة، فلسطين، 2010.

الرواشدة خلف سليمان: صناعة القرار المدرسي والشعور بالأمن والولاء التنظيمي، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 2007.

العجمي محمد حسن وحسن محمد حسان: الإدارة التربوية، الطبعة الأولى، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2007.

4-العورتاني مأمون عبد القادر أمير: العلاقة بين الولاء المهني والنمط القيادي لدى الإداريين في الوزارات الفلسطينية، دراسة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الإدارة التربوية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003 .

الغامدي سعيد بن محمد آل عاتق : النمط القيادي لمديري المدرسة وأثره على الإلتزام التنظيمي للمعلمين بالمدرسة الثانوية الحكومية بمحافظة جدة باستخدام نظرية الشبكة الإدارية، دراسة مكملة لنيل درجة ماجستير في الإدارة التربوية، جامعة أم القرى، السعودية، 2009.

الغيبوي ناصر سعدي ضيف الله : النمط القيادي وعلاقته بأداء الأطباء في المستشفيات العسكرية والمدنية، دراسة مقارنة بين مستشفى الملك فهد للحرس الوطني والمجمع الرياضي الطبي أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2003 .

القحطاني سالم بن حسن: القيادة الإدارية -التحول نحو نموذج القيادي العالمي-، الرياض، السعودية، 2001 .

الكنعان نواف : القيادة الإدارية، عمان، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1992 .

المنيف إبراهيم بن عبد الله: تطور الفكر المعاصر، الرياض، آفاق الإبداع للنشر والإعلام، السعودية، 1999.

النمر وسعود بن محمد وآخرون: الإدارة العامة الأسس والوظائف، الرياض، مطابع الفرزدق ،1997.

حسين سلامة عبد العظيم: الإدارة المدرسية والصفية المتميزة والطريق إلى المدرسة الفعالة، الطبعة الاولى، دار الفكر المطابع المركزية، الأردن، 2006.

ريجيو رونالدي ترجمة فارس حلمي : مدخل إلى علم النفس الصناعي والتنظيمي، الطبعة الأولى، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999 .

عبد الحفيظ مقدم : الإحصاء والقياس النفسي والتربوي، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.

عبد الوهاب علي محمد : الفعالية الإدارية ندوة المدير الفعال، معهد الإدارة العامة، الرياض، السعودية، 1980.

17- علاقي مدني عبد القادر : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية، دار جدة، جدة، السعودية،. 1998

غانم خاتم عبد الله علي: السمات الشخصية والولاء التنظيمي لدى معلمات المرحلة الأساسية في المدارس الحكومية في محافظة نابلس، دراسة مكملة لنيل درجة الماجستير في الإدارة التربوية ، فلسطين، 2005.

غياث بوفلجة: القيم الثقافية وفعالية التنظيمات، مخبر البحث في علم النفس وعلوم التربية، الطبعة الاولى، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، 2010.

16- قوراية أحمد: فن القيادة المرتكزة على منظور النفسي والإجتماعي والثقافي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007 .

كلاكده طاهر محمود : الإتجاهات الحديثة في القيادة الإدارية، عمان، دار زهران للطباعة والنشر، 1997 .

مصطفى أحمد السيد : إدارة السلوك التنظيمي، رؤية معاصرة، مصر، 1991.

ملكية لويس كامل : سيكولوجية الجماعات والقيادة، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989.

محمد عبد الفتاح: درجة الرضا الوظيفي لدى العاملين في المركز الجغرافي الأدنى بعمان، الأردن، 1992.

26. مكفس عبد المالك : نمط القيادة في الإدارة المدرسية وعلاقته بالرضا الوظيفي لأساتذة التعليم الثانوي، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في علوم التربية تخصص إدارة تربوية، جامعة باتنة، الجزائر، 2008- 2009 .

27. أبو العلا محمد صلاح الدين :ضغوط العمل وأثرها على الولاء التنظيمي، دراسة تطبيقية على المدراء العاملين في وزارة الداخلية في قطاع غزة، دراسة مكملة لنيل درجة الماجستير في إدارة الأعمال، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2009.

28. أبوندا سامية خميس: تحليل علاقة بعض المتغيرات الشخصية وأنماط القيادة بالالتزام التنظيمي والشعور بالعدالة، دراسة ميدانية في الوزارات الفلسطينية في قطاع غزة، رسالة مكملة لنيل درجة الماجستير في إدارة الأعمال، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين،2007.

29-الدوسري سعد بن عميقان سعد: ضغوط العمل وعلاقتها بالولاء التنظيمي في الأجهزة الأمنية، دراسة ميدانية على منسوبي شرطة المنطقة الشرقية، رسالة مكملة لنيل الماجستير في العلوم الإدارية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، 2005.

30-الرشيدي عبد الله بشير: أنماط القيادة في المرحلة المتوسطة في دولة الكويت وعلاقتها بالولاء التنظيمي للمعلمين من وجهة نظرهم، مذكرة لنيل درجة الماجستير في التربية، قسم الإدارة التربوية، كلية العلوم التربوية، جامعة الشرق الأوسط، 2010.

31-السعود راتب: أنماط السلوك الإداري لمديري المدارس الثانوية العامة في الأردن وفق لنظرية "وتنس ليكر" وعلاقتها بمستوى الولاء التنظيمي لمعلمي المدارس، المجلة الأردنية للعلوم الإدارية، الأردن، 2009.

32-الصغير محمد بن عبد الله: مدى استخدام ضباط الكليات العسكرية للأساليب القيادية لنموذج "هريس وبلانشارد"، دراسة تطبيقية على ضباط كلية الملك عبد العزيز الحربية، بحث مكمل لنيل درجة ماجستير في قسم العلوم الإدارية، جامعة نايف العربية العلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2004.

33-الفارسي سليمان: أثر سياسات التحفيز في الولاء التنظيمي بالمؤسسات العامة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الإقتصادية والقانونية، العدد الأول، 2011.

34-الكساني مراد محمد: أثر ضغوط الوظيفية على الولاء التنظيمي، دراسة حالة معلمي المدارس الحكومية في محافظ الزرقاء، جامعة آل البيت، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، الأردن، 2000.

35-الكلابي سعد عبد الله: نحو نموذج شامل في القيادة، دراسة نقدية لنظريات ومداخل القيادة الإدارية، الرياض :مركز البحوث كلية العلوم الإدارية، جامعة الملك سعود الطراونة، السعودية، 2000.

36-تحسين واللوزي سليمان: أنماط الإدارة في الأجهزة الحكومية، دراسة ميدانية في محافظات الجنوب في الأردن، 2003.

37-المخلافي أمل محمد سرحان: الأنماط القيادية لدى مديري المدارس الثانوية الحكومية والخاصة في مدينة صنعاء من وجهة نظر المعلمين وعلاقتهما برضاهم الوظيفي، رسالة مكملة لنيل درجة الماجستير في الإدارة التربوية، كلية العلوم التربوية، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، 2008.

38-المخلافي محمد سرحان خالد: أهمية الولاء التنظيمي والولاء المهني لدى أعضاء هيئة التدريس في جامعة صنعاء،كليات التربية، مجلة جامعة دمشق، المجلة 17، العدد الثاني، 2001.

39-حمدان دانا لطفي: العلاقة بين الحرية الأكاديمية والولاء التنظيمي لدى أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات الفلسطينية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الإدارة التربوية، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2008.

40-Gedrey , Christine R : leadership effectivens , a research Report Submitted to the Faculty in partial Ful fillement of the Graduation Requirement adrisor , Lt col Sharon , Alabana, Max Well air college , Air University.Harvard , Business Review, 1999 .

41-Koonfz, Harold : Management , London , McGraw-Hill Inc , 1980.

دراسة صدق وثبات اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2 (M.M.P.I.2):

دراسة ميدانية بمؤسسات التعليم الثانوي لولاية مستغانم

الطالبة بوشي شريفة، طالبة دكتوراه في القياس النفسي، جامعة مستغانم

الملخص:

هدفت الدراسة إلى دراسة الخصائص السيكومترية لاختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2، وتحديد الطرائق التي جرى استخدامها من أجل التحقق من صدق الاختبار وثباته، وقد جرى تطبيق هذا الاختبار على عينة مكونة من 300 مفحوص: 150 ذكور و150 إناث تم اختيارهم بطريقة عشوائية من بعض ثانويات ولاية مستغانم.

الكلمات المفتاحية: اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2، الصدق، الثبات.

Abstract:

The study aimed to study psychometric properties of Minnesota multiphasic personality inventory، and determine the methods were used to confirm the reliability and validity of the test. The test was conducted on a sample of 300 (150 males, and 150 females) who were randomly selected from some high schools in the wilaya of Mostaganem.

Key words: Minnesota multiphasic personality inventory2, Validity, Reliability.

مقدمـــــــة:

تعود أولى ملامح القياس النفسي بحسب أدبيات علم النفس إلى سنة 1879 بإنشاء ولهلم فونت مخبر في مدينة لايبزغ بألمانيا، حيث كان الهدف من وراء التجارب السيكوفيزيقية والتي تركزت على دراسة الإحساسات المختلفة من سمعية وبصرية ولمسية إلى الوصول إلى أوصاف أو قوانين عامة للسلوك " مثلا كيفية عمل أذن الإنسان ومخه معا في كيفية إدراك الصوت، مصدره، حدته.

أضف إلى ذلك الاختبارات التي ارتبطت بحركة القياس النفسي، وتعد المعالم الأولى لبروزها خلال القرن التاسع عشر عندما بدأ الاهتمام بمسألة التخلف العقلي إذ نجد الطبيب جان اسكرول السباق في هذا المجال.

ولم تتوقف حركة القياس النفسي عند هذا الحد بل تضاعف تطورها أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ برزت الحاجة أكثر لاستخدام اختبارات الذكاء لفرز المجندين وانتقاء القادة واستبعاد المتخلفين عقليا وتحويل منخفضي الذكاء إلى أعمال مناسبة. ومن أشهر الاختبارات المستعملة اختبار ألفا وبيتا. ولكنه قد تبين أن هناك مجموعة من المتغيرات غير العقلية التي تؤثر على الأداء العقلي للفرد وهي: ما تتصل بسمات الشخصية، لذلك ظهر اتجاه يعمل على قياس سمات الشخصية ويعمل على التميز بين الأفراد الأسوياء وغير الأسوياء، ومن الأسماء البارزة في هذا المجال روبرت وودرث الذي قدم قائمة لقياس الشخصية تضم 116 سؤال تتناول مجموعة من الاضطرابات ويقوم المفحوص بالإجابة (أسلوب التقرير الذاتي)، وقد استعملت هذه الصحيفة في التعرف على الجنود المضطربين نفسيا والذين مشاكلهم تؤثر على أدائهم. ولم يتوقف قياس الشخصية على صفيحة روبرت وودرث بل ظهرت عدة اختبارات نفسية لقياس الشخصية وهي اختبار الروشاخ، اختبار تفهم الموضوع، لتكون سنة 1942 تاريخ ظهور اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية الذي أعده كل هاثاواي وماكنلي والذي أحدث قفزة نوعية في حركة قياس الشخصية باعتباره يقدم بوضوح الصفحة النفسية للفرد من خلال مجوعة المقاييس المختلفة التي يضمها، ويتضمن الاختبار 550 فقرة تتناول جوانب مختلفة للشخصية ويقوم المفحوص بالإجابة عنها. وبعد فترة أي بعد مرور خمسين سنة من الطبعة الأولى للاختبار شهد المجتمع الأمريكي تغيرات شملت وبصورة أكثر دقة الثقافة الأمريكية ومن أجل الإجابة على حاجة إعادة التجديد تمت مراجعة فقرات اختبار M.M.P.I، إذ تم تغيير مجموعة من الفقرات وحذفت الفقرات غير مقبولة والتي لم تتماشى مع العصر وإضافة فقرات لجعل الاختبار يتلاءم مع الثقافة الجديدة للمجتمع الأمريكي، لتخلص عملية المراجعة إلى ميلاد M.M.P.I-2 من طرف Butcher James ، سنة 1989[1] والذي أصبح يضم 567 فقرة .

1. مشكلة البحث:

تحتل الاختبارات أو الروائز النفسية مكانة هامة في علم النفس المعاصر نظرا لاستعمالها الواسع في شتى مجالات الحياة لتشخيص النفسي، التشخيص التربوي، التوجيه والإرشاد، ولكن علينا أن نضع في الاعتبار أن الأخذ بنتائج الاختبار تتوقف على مدى صدق وثبات الرائز بالنسبة

للجمهور الذي صمم من أجله، فالإلحاح على توفير أفضل الاختبارات وإعدادها إعدادا ملائما دعا الباحثة لاختيار اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2 من أجل دراسة خصائصه السيكومترية والاستفادة منه في مجالات متعدد خاصة في مرحلة المراهقة التي تتميز بحدوث أزمات عديدة .

يعتبر اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه 2 والذي يعرف اختصارا بـ M.M.P.I2 من أشهر الاختبارات التقرير الذاتي وأكثرها استخداما في عملية التشخيص وتقويم التكيف العام للشخصية ، ويذكر (جنثر ، وجنثر) عن روجرز في عرضه لقائمة مينسوتا في الكتاب السنوي السابع للقياس العقلي أنه يصف المقياس بأنه كابوس سيكومتري ومع ذلك فان الكاتب نفسه في الجملة التالية يقول : «إنها أداة جديرة باستثمار علماء النفس المتخصصين لها، حتى تصبح أداة فعالة في استخدامها » [2]أما هاثاواي فيرى أن القائمة تمكننا من التوصل إلى كمية كبيرة من المعلومات في زمن قليل. وقد أثبت فعلا الاختبار حضوره في مستشفيات الطب العقلي، في مؤسسات الإصلاح و التأهيل من أجل دراسة الجوانب النفسية و الإكلينيكية للمجرم [3] التعليم حيث تم تطبيقه على عدد كبير من تلاميذ المدارس الإعدادية والثانوية بأمريكا تم تتبعهم لفترة لبيان من انحرف منهم ومن لم ينحرف. وقد أدت هذه الدراسة إلى استخراج متوسطات يمكن استغلالها في التنبؤ بانحراف تلاميذ المدارس[4]، في ضوء هذه المزايا التي يتصف بها هذا الاختبار، وحاجتنا إلى أداة مهمة في التشخيص في مرحلة عمرية جد حساسة تتميز بعدم الثبوت، ونظرا لاحتواء الاختبار على عدة مقاييس تشمل كل الاضطرابات النفسية والعقلية وحتى السمات النفسية قامت الباحثة بدراسة صدقه وثباته للاستفادة منه في التشخيص، والتنبؤ. وانطلق البحث من سؤالين مرتبطين بالاختبار، وعينة البحث: _ما قيم مؤشرات صدق اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2؟ _ما قيم مؤشرات ثبات اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2؟

2. أهمية البحث:

تتحدد أهمية البحث في النقاط التالية:

_أهمية الاختبارات النفسية في الكشف عن الجوانب الشخصية الشعورية واللاشعورية.

ـــتوفير أداة تشخيصية موضوعية تتوافر فيها شروط الصلاحية والموثوقية تلاءم البيئة الجزائرية، تقف عند حالات السواء والاضطراب والمرض لدى المراهق.

ـــأهمية اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه، والذي يعتبر من الاختبارات التي لقت رواجا واهتماما من قبل المشتغلين في ميدان الخدمة النفسية كل أنحاء العالم.

3. أهداف البحث:

تتلخص أهداف البحث في التعرف على الخصائص السيكومترية لاختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية الطبعة 2 على عينة من تلاميذ التعليم الثانوي.

4. مجتمع البحث وعينته:

تألف مجتمع الدراسة من تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي بولاية مستغانم للسنة الدراسية 2016/2015 وبلغ حجم مجتمع الدراسة (24958) تلميذ، (11991 ذكور و12967 إناث) موزعين على 43 ثانوية، وقد استقر الرأي على تطبيق البحث على ستة ثانويات من أجل الإلمام بالمناطق الجغرافية للولاية وهي: ثانوية بن زازة مصطفى خروبة، متقن أول نوفمبر1954مستغانم، ثانوية لطروش الجيلالي مزغران، ثانوية الأخوة عمار استيدية، ثانوية عبد الحق بن حمودة سيرات، ثانوية بختي بلقاسم خضرة.

5. عينة البحث:

تم اختيار عينة الدراسة بطريقة عشوائية عنقودية متعددة المراحل من تلاميذ المستويين الدراسيين الثانية والثالثة ثانوي الذين تتراوح أعمارهم مابين 16 سنة و18 سنة، وتم استبعاد تلاميذ الأولى ثانوي نظرا لان أغلبهم كان عمرهم في حدود 15 سنة. للعام الدراسي (2015 /2016) بحيث تمثل المجتمع الأصلي تمثيلا صادقا.

وقد تم اختيار العينة وفقا لهذه الطريقة حسب المراحل التالية:

ـــ المرحلة الأولى: تقسيم مؤسسات الولاية حسب الموقع الجغرافي المؤسسات التي تقع في وسط مدينة مستغانم، المؤسسات التي تقع قرب وسط مدينة مستغانم، المؤسسات التي تقع بعيدة عن وسط مدينة مستغانم.

ــ المرحلة الثانية: اختيار مؤسستين من كل منطقة وسط المدينة أي منطقة حضارية ثانوية بن زازة مصطفى خروبة، متقن أول نوفمبر1954، قريب من وسط المدينة ثانوية لطروش الجيلالي مزغران، ثانوية الأخوة عمار استيدية أي منطقة شبه حضارية، بعيدة عن وسط المدينة ثانوية عبد الحق بن حمودة سيرات ثانوية بختي بلقاسم خضرة أي منطقة ريفية.

ــ المرحلة الثالثة: تحديد عدد أفراد العينة المقدر بـ (360) تلميذ وتلميذة بالسنة الثانية والثالثة ثانوي (180 ذكور) و (180 إناث).

الجدول رقم (1): يوضح أسماء المؤسسات التي طبق فيها الاختبار وعدد التلاميذ الكلي وعدد التلاميذ المطبق عليهم الاختبار

المؤسسات	تعداد التلاميذ بالمؤسسة				
	مجموع الكلي	الذكور	الإناث	المجموع	النسبة
متقن أول نوفمبر 1954	350	119	115	234	%11,61
بن زازة مصطفى	556	146	193	339	%16,82
لطروش الجيلالي	996	234	372	606	%30,07
الإخوة عمار	440	108	139	247	%12,25
عبد الحق بن حمودة	745	260	219	479	%23,77
بختي بلقاسم	234	47	63	110	%5,45
المجموع	3321	914	1101	2015	

وقد تم اختيار 60 تلميذ وتلميذة (30 ذكور و30 إناث) من كل مؤسسة مذكورة سابقا بطريقة عشوائية ليكون حجم عينة الدراسة 360، وهم يشكلون 17,86 % من مجتمع الدراسة. أما السن فقد أخذ 120 فرد من كل من 16 سنة و17 سنة و18 سنة.

وبعد الانتهاء من مرحلة التطبيق قد تم استبعاد أوراق التلاميذ الذين لم تستكمل الاستجابة على الورقة أو الإجابة العشوائية بدون قراءة الأسئلة والتي قدر عددها بـ (40) من ثم أصبحت العينة مكونة من 320 تلميذ وتلميذة (150 ذكور) و(170 إناث)، وقد تم حذف (20) ورقة تحمل جنس الإناث، لتصبح العينة النهائية (300) تلميذ وتلميذة (150 ذكور) و(150 إناث).

6. منهج البحث:

جرى إتباع المنهج الوصفي في هذه الدراسة وهو أحد أساليب البحث العلمي، الذي حسب خاطر مصطفى أحمد هو " الطريقة المنتظمة لدراسة حقائق راهنة متعلقة بظاهرة أو موقف أو أفراد وأحداث أو أوضاع معينة بهدف اكتشاف حقائق جديدة أو التحقق من صحة حقائق قديمة وأثارها والعلاقة التي تتصل بها وتفسيرها وكشف الجوانب التي تحكمها"[5]، واستندنا على المنهج الوصفي من أجل دراسة الخصائص السيكومترية لاختبار مينسوتا المتعدد الأوجه 2 على تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي بولاية مستغانم والذين تتراوح أعمارهم ما بين (16 سنة و 18 سنة) دراسية وصفية تحليلية من خلال دراسة صدق وثبات الاختبار.

7. أدوات البحث:

اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه M.M.P.I 2–الذي هو اختصارا لـ Multiphasique Inventaire de personnalité du Minnesota، كان أداة البحث الأساسية باعتبار أن الاختبار نفسه هو موضوع الدراسة .، وقد اعتمدنا على الاختبار الذي تم تقنينة في الجزائر من طرف محمد أجراد سنة 2012.

هو اختبار قام بإعداده كل من Starke R. Hathaway أخصائي نفساني و Mckinley J.Chanley طبيب عقلي عصبي،مخصص للتقييم الإكلينيكي باعتباره يضم فقرات تغطي مدى واسع من الموضوعات التي تتناول جوانب عديدة من الشخصية (الصحية ، الأخلاقية ، الاتجاهات الجنسية ،الاتجاهات الدينية ،المخاوف ، الأسرة ،وما إليها) لتمكن من الكشف عن الاضطرابات النفسية و العقلية .

ويضم الاختبار أربعة مقاييس صدق هي مقياس لا أدري، مقياس الكذب، مقياس التواتر، مقياس التصحيح، وعشرة مقاييس إكلينيكية: توهم المرض، مقياس الاكتئاب، الهستيريا، الانحراف السيكوباتي، الذكورة –الأنوثة، البرانويا، السكاثينيا، الفصام، الهوس الخفيف، الانطواء الاجتماعي.

8. الدراسات السابقة:

1.8. التقنين الفرنسي لاختبارM.M .P.I.2 الذي تم إعداده من طرف: لجنة مؤسسة من طرف بيشو P.Pichot و برس J.Perse وأخصائيين من ECPAأول ترجمة ل 107 فقرة

جديدة و 67 فقرة مغيرة تم إعدادها من طرف أخصائيين مترجمين باللغتين، الفقرات الفرنسية المنحدرة من الصيغة الأولى تم دراستها بهدف تطوير و تبسيط الصياغة .[6]

2.8. التقنين الفرنسي لاختبارM.M .P.I–A الذي تم إعداده من طرف : James N. Butcher ,Carolyn L. Williams,John R . Graham وآخرون لجنة شكلت من طرف بيشو P.Pichotوأخصائيين من ECPA وذلك لترجمة وتكييف فقرات M.M.P.I-A أول ترجمة ل 58 فقرة جديدة و31 فقرة مغيرة تم إجرائها من طرف أخصائيين مترجمين ثنائي اللغة [7]

3.8. **دراسة محمد اجراد التي حملت عنوان تقنين (تعيير) اختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية – الطبعة الثانية – (M.M.P.I . 2) أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم النفس العيادي 2012 وكانت** إشكالية البحث هي: هل هناك إمكانية لتطبيق الاختبارات النفسية المعدة في بيئة أجنبية على البيئة الجزائرية وإذا لم يكن تطبيقها على البيئة الجزائرية ذا منفعة فهل يمكن تكييفها على البيئة الجزائرية وهل يمكن الوثوق بنتائجها بعد التكييف. [8]

9. إجراءات الدراسة ونتائجها: تتضمن الخطوات التي اتبعت من أجل دراسة الخصائص السيكومترية لاختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية 2 ما يلي:

1.9. الدراسة الاستطلاعية:

كانت الخطوة الأولى في تنفيذ البحث بتطبيق الاختبار على عينة استطلاعية مسحوبة بطريقة عشوائية من ثانويات ولاية مستغانم تكونت من 80 مفحوص (50 أنثى و30 ذكر) من تلاميذ السنة الثانية والثالثة ثانوي تتراوح أعمارهم من 16 إلى 18 سنة، وكان الهدف من هذه الدراسة:

- التعرف على مدى فهم واستيعاب المفحوصين لتعليمات الاختبار وفقراته.
- التعرف على مدى إمكانية تطبيق الاختبار في البيئة المدرسية.
- التعرف على الزمن الذي يستغرقه المفحوصين في الإجابة على الاختبار.

وكانت النتائج كالتالي:

- تعليمات الاختبار واضحة على العموم في حين كانت فقرات استوجب على الباحثة شرحها للمفحوصين

- هناك فقرات وردت بأزمنة الماضي في حين كان أن الاختبار يطلب من المفحوص التعبير عن مشاعره وخبراته في الحاضر فتم تغيرها.

الجدول رقم (2) يمثل الفقرات الأصلية بأرقامها والتغيرات التي لحقت بها

رقم الفقرة	الفقرة الأصلية	التغيرات التي لحقتها
160	كنت أحب المدرسة	أحب المدرسة
235	في القسم، كنت بطيء التعلم	في القسم، أنا بطيء التعلم
275	في المدرسة كنت أجد صعوبة في التحدث داخل القسم	في القسم أجد صعوبة في التحدث داخل القسم
422	كنت مولعا بالا ثارات القوية حين كنت شابا	أنا مولع بالا ثارات القوية

- تراوح زمن الأداء على الاختبار بمعدل ساعتان و15 دقيقة أي بمعدل 45 دقيقة في الحصة، باعتبار تم تقسيم الاختبار إلى ثلاث حصص حتى لا يشعر المفحوص بالملل والتعب.

2.9. **الدراسة الأساسية ونتائجها ومناقشتها:**

تم تطبيق الاختبار على عينة تضمنت 300 مفحوص 150 ذكر و150 أنثى مأخوذين من مناطق حضرية، شبه حضرية، ريفية، من السنة الثانية والثالثة ثانوي تراوحت أعمارهم من 16 سنة إلى 18 سنة.

أولا / صدق الاختبار حسب لنيدكوسن " أنه درجة الصحة التي نقيس بها ما نريد قياسه "[9] وقد تم التحقق من الصدق باستخدام:

1. **الصدق ألعاملي** : يستخدم التحليل ألعاملي بهدف التعرف إلى مجموعات البنود التي ترتبط بدرجة كبيرة بعضها مع بعض ولكن ترتبط بدرجة منخفضة أو لا ترتبط تماما مع مجموعات أخرى من البنود ، وهنا استخدمت الباحثة التحليل ألعاملي الاستكشافي بغية معرفة العوامل التي يتكون منها اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه 2 والتباين المشترك بين مقاييس الاختبار، كما يشير تشبع الاختبار على العامل هو في حقيقة الأمر معامل ارتباط الاختبار بالعامل حسب صفوت فرج أضف إلى ذلك الهدف من استخدام التحليل العاملي الاستكشافي الاعتماد على نفس الخطوات التي استخدمت كتاب الدليل لاختبار M.M.P.I.2، وقد تم إجراء التحليل ألعاملي

الاستكشافي لدرجات أفراد العينة على مقاييس الاختبار بطريقة المكونات الأساسية لهوتلنج والتدوير المتعامد للمحاور بطريقة الفاريماكس وقد نتج عن التحليل ما يلي:

جدول رقم (3) مصفوفات البناء ألعاملي لمقاييس الصدق والمقاييس الإكلينيكية لاختبار I.P.M.M.2:

المقاييس	قبل التدوير				بعد التدوير			
	العامل 1	**العامل 2**	**العامل3**	**العامل4**	**العامل 1**	**العامل 2**	**العامل3**	**العامل4**
الفصام	0,920				0,833			
التواتر	0,815				0,814			
الهوس الخفيف	0,493	0,542-		0,401	0,796			
البرانويا	0,796				0,745			
الانحراف السيكوباتي	0,755				0,711			
السيكاثينيا	0,896				0,703			0,484
الكذب	0,426-	0,465			0,606-			
التصحيح	0,627-		0,403		0,600-			0,585-
الهستيريا	0,508	0,550	0,516			0,919		
توهم المرض	0,700					0,764		
الاكتئاب	0,584	0,514				0,739		
الذكورة ـ الأنوثة الذكور		0,560-	0,690				0,977-	
الذكورة ـ الأنوثة الإناث	0,407	0,581	0,629-				0,964	
الانطواء الاجتماعي	0,493			0,733-				0,881
%التباين المفسر	42,48	15,86	12,22	8,39	31,50	19,80	14,62	13,02
%التباين الكلي	79,31				78,94			

يتضح من الجدول رقم (3) أن عدد العوامل المستخرجة هي أربعة عوامل:

✓ **العامل الأول سوء التكيف العام أو السيكوباتولوجي:** جمع بين مقاييس الفصام، التواتر، الهوس الخفيف، البرانويا، الانحراف السيكوباتي، السيكاثينيا تشبع ايجابي، وتشبع سلبي بالنسبة لمقياس الكذب

والتصحيح، وهو بالتالي عامل ثنائي القطب بجذر كامن (4,41) ونسبة تباين (31,50).

✓ **العامل الثاني الاضطرابات العصابية:** جمع بين مقاييس الهستيريا، توهم المرض، الاكتئاب تشبع ايجابي وهو عامل أحادي القطب وذلك بجذر كامن (2,77) ونسبة تباين (19,80).

✓ **العامل الثالث الذكورة ــ الأنوثة:** هذا العامل يفسر أساسا بمقياس الذكورة ــ الأنوثة الذكور تشبع سلبي ومقياس الذكورة ــ الإناث تشبع ايجابي وهو عامل ثنائي القطب بجذر كامن (2,04) ونسبة تباين (14,62).

✓ **العامل الرابع الانطواء والانبساط الاجتماعي:** هذا العامل يتكون من المقاييس التالية مقياس الانطواء الاجتماعي والسيكاثينيا تشبع ايجابي ومقياس التصحيح تشبع سلبي وهو عامل ثنائي القطب بجذر كامن (1,82) ونسبة تباين (13,02). وتتفق هذه النتيجة مع كل من نتيجة التقنين الفرنسي لاختبار M.M.P.I.2 التي توصلت إلى وجود أربعة عوامل تتشبع عليها المقاييس مع اختلاف في تشبع المقاييس على العوامل. (Mireille Gillet (Simon, Isabelle، ونتيجة التي توصل إليها التقنين الفرنسي. M.M.P.I.A) James N. Butcher ,Carolyn L. (Williams

2. تحليل الفقرات: "يستخدم تحليل الفقرات كإجراء إحصائي لعزل أنواع معينة من الفقرات أو حذفها وبخاصة تلك التي لا تضيف إلى الدرجة الكلية بما فيه كفاية "10ويتم ذلك من خلال حساب معاملات الارتباط بين كل فقرة والدرجة الكلية على المقياس، إذ تحذف الفقرات ذات الارتباطات المنخفضة. وقد أظهرت النتائج ما يلي:

مقاييس الصدق:

➢ **بالنسبة لمقياس الكذب:** تمتع جميع فقرات المقياس بمعاملات ارتباط دالة مع المقياس ككل عند مستوى 0,01 مما يؤكد تمتع المقياس بدرجة مرتفعة من الاتساق الداخلي في ضوء النظرية التقليدية للقياس.

➢ **بالنسبة لمقياس التواتر: اتضح** ارتباط الفقرات بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، حيث كانت معظم قيم معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) (18. 24. 30. 36 .42 .48 .54 .66. 72. 84. 96. 114. 138. 144. 150. 156. 162. 168. 180. 198. 216. 228 . 234. 240. 246. 252. 258. 264. 282. 288. 294. 300. 306. 312. 324. 336. 349. 355. 361. 6. 12. 78. 90 . 108. 126 .174. 192. 210. 330. 343) و (0,05) (60. 270. 276. 204) كما توجد فقرات لا ترتبط بالمقياس ككل (102. 120. 132. 186. 222. 318)

➢ **بالنسبة لمقياس التصحيح:** اتضح ارتباط الفقرات بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، حيث كانت معظم قيم معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) (83. 29 .37. 58. 76 .110. 116. 122 .127. 130. 136 .158. 167 .196. 213. 243. 267. 284. 290. 338. 339. 341. 346. 348. 356) وعند مستوى (0,05) (148) وتوجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي (157.171. 330. 365).

المقاييس الإكلينيكية:

➢ **مقياس توهم المرض: اتضح** أن ارتباط الفقرات بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، حيث كانت معظم قيم معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) (18. 28. 39. 53. 59. 97. 101. 111. 149. 175. 247. 2. 3. 10 .45. 47. 91. 117. 141. 143. 152. 164. 173. 176. 179. 208. 224. 249) وتوجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي (20.8. 57. 255).

➢ **مقياس الاكتئاب: اتضح** أن الفقرات التالية (5. 15. 18. 31. 38. 39. 73 .92. 127. 130. 146. 147. 170. 175. 215 .233. 2. 10. 43. 45. 49. 55. 68. 75. 95. 109 .140. 141. 142. 143. 148. 165. 212. 223. 226. 248. 260. 267 . 330) ترتبط بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا عند مستوى (0,01) أما الفقرات (46. 56. 33. 37. 189. 245. 260) ترتبط بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا عند مستوى (0,05)، في حين نجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي(5. 117. 181. 9. 20. 29. 76. 118. 134. 178. 188. 221. 238)

➢ **مقياس الهستيريا التحويلية:** معاملات الارتباط بين الفقرات والدرجة الكلية للمقياس الهستيريا التحويلية، بينت أن معظم قيم معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) (11. 18. 31. 39. 40. 44. 65. 101. 166. 172. 175. 218. 2. 3. 10. 14. 26. 45. 47. 58. 76. 81. 91. 95. 98. 110. 115. 125. 129. 141. 148. 152. 157. 159. 164. 173. 176. 179. 208.

224. 249) وعند مستوى (0,05)(7. 9. 185) وتوجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي (230. 8. 29. 116. 124. 135. 151. 161. 167. 193. 213. 241. 243. 253. 263. 265).

➢ **مقياس الانحراف السيكوباتي: معاملات** الارتباط بين الفقرات والمقياس ككل بينت ارتباط الفقرات التالية (17. 21. 22. 31. 32. 35. 42. 52. 54. 56. 71. 82. 89. 94. 99. 105. 113. 195. 202. 219. 225. 259. 264. 288 .12. 34. 79. 83. 95. 125. 157. 217. 226. 263. 266. 267) بمعاملات ارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) وعند مستوى(0,05) الفقرات (209. 261) في حين لم ترتبط الفقرات التالية بالمقياس ككل (9. 70. 122. 129. 143. 158. 160. 167. 171. 185. 214. 243) .

➢ **مقياس الذكورة ـ الأنوثة (الذكور): لاحظنا** أن أغلب الفقرات لا ترتبط مع الدرجات الكلية للمقياس وهي (25. 62. 80 .112. 119. 122. 128. 137. 166. 177. 191. 219. 236. 251. 256. 268. 271. 1. 19. 26. 69. 76. 86. 103. 104. 107. 120. 121. 133. 184. 193. 199. 201. 207. 231. 235. 257. 272) أما الفقرات التي ارتبطت بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، فهي (187.27.63. 197. 239. 254) عند مستوى (0,01) والفقرات (4. 64. 67. 74. 196. 205. 209 . 68. 132. 163. 194. 237) عند مستوى (0,05).

➢ **مقياس الذكورة ـ الأنوثة (الإناث)**: لاحظنا أن هناك الفقرات لا ترتبط مع الدرجات الكلية للمقياس وهي (25. 62. 177 .196. 1. 19. 68. 76. 86. 103. 104. 107. 132. 163. 184. 193. 194. 197. 201. 237. 239. 268. 272) أما الفقرات التي ارتبطت بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، فهي (4. 67. 80. 112. 119. 121. 122. 128. 187. 191. 205. 236. 251. 256. 27. 63. 133. 166. 207. 209. 235. 254. 257) عند مستوى (0,01) والفقرات (64. 74. 137. 219. 271 . 26 . 69. 120 .199. 231) عند مستوى (0,05).

➢ **مقياس البرانويا**: لاحظنا أن هناك الفقرات لا ترتبط مع الدرجات الكلية للمقياس وهي (81. 98. 104. 110. 244. 255. 283. 284. 286. 297. 315) أما الفقرات التي ارتبطت بالدرجة الكلية للمقياس ارتباطًا دالا إحصائيًا، فهي (16. 17. 22. 23. 24. 42. 99. 113. 138. 144. 146. 234. 259. 271. 277. 285. 305. 307. 333. 334. 336. 355. 361 95. 100. 266. 314) عند مستوى (0,01) والفقرات (145. 162) عند مستوى (0,05).

➢ **مقياس السيكاثينيا:** معاملات الارتباط بين الفقرات والدرجة الكلية للمقياس السيكاثينيا، كانت معظم قيم معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند مستوى (0,01) (11. 16 .23. 31. 38. 56. 65. 73. 82. 89. 94. 130. 147. 170. 175. 196. 218. 242. 273. 275. 277. 285. 289. 301. 302. 304. 308. 310. 313. 316. 317. 320. 325. 326. 327. 328. 329. 331. 109. 140. 165. 174. 293. 321) وتوجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي (309 .3. 9. 33).

➢ **مقياس الفصام:** لاحظنا أن أغلب الفقرات ذات معامل ارتباط دال إحصائيا عند مستوى (0,01) (16. 17. 21. 22. 23. 31. 32. 35. 38. 42. 44. 46. 48. 65. 85. 138. 145. 147. 168. 170. 180. 182. 190. 218. 221. 229. 233. 234. 247. 252. 256. 273. 274. 277. 287.281 .292 .296. 298. 299. 303. 307. 311. 316. 319. 320. 322. 323. 325. 329. 332. 333. 355. 12. 34. 106. 165. 177. 179. 278. 290. 343) وعند مستوى (0,05) (279. 90. 91. 192. 210. 295) ونجد فقرات لا ترتبط بالمقياس وهي (92. 166. 242. 268. 291. 6. 9. 255. 276. 280).

➢ **مقياس الهوس الخفيف:** أن أغلب الفقرات ارتبطت بالمقياس عند مستوى الدلالة (0,01) (15. 21. 23. 50. 55. 61. 85. 87. 98. 113. 122. 131. 145. 155. 168. 169. 182. 190. 200. 205. 206. 211. 212. 218. 220. 227. 229. 238. 242. 244. 248. 250. 253. 269. 100. 106.) وعند مستوى (0,05)(167. 263) أما الفقرات التي لم ترتبط بالمقياس (13. 88. 93. 107. 136. 154. 158. 242).

➢ **الانطواء الاجتماعي:** أن أغلب الفقرات ارتبطت بالمقياس عند مستوى الدلالة (0,01) (31. 56. 70. 100. 127. 135. 158. 167. 185. 215. 243. 251. 265. 275. 289. 296. 302. 308. 326. 337. 338. 347. 351. 357. 364. 367. 368. 369. 25. 49. 79. 86. 106. 112. 131. 189. 207. 209. 231. 237. 280. 321. 340. 342. 344. 353. 354. 359. 360. 370) وعند مستوى (0,05)(161. 284. 181. 267. 328. 345. 350) أما الفقرات التي لم ترتبط بالمقياس (104. 110. 348. 352. 32. 255. 262. 335. 358. 362. 363. 366) .

بالتدقيق مما سبق يتضح أن أغلب فقرات ارتبطت جوهريا بمقاييسها عند مستوى (0,001) وهو أعلى مستوى للدلالة الإحصائية، وعند مستوى (0,005) مما يشير إلى تجانس فقرات في المقاييس، ومن جهة أخرى وجدت بنود لم ترتبط بالمقاييس، وهذا يدل على عدم تجانسها مع بقية البنود.

3. صدق المقارنة الطرفية : ومنها مقارنة الأطراف في الاختبار : يقصد بمقارنة الأطراف في الاختبار" مقارنة درجات الثلث الأعلى بدرجات الثلث الأدنى في الاختبار، وتتم هذه المقارنة عن طريق حساب الدلالة الإحصائية للفرق بين المتوسطين، فإذا كانت هناك دلالة إحصائية واضحة للفرق بين متوسط الثلث الأعلى ومتوسط الثلث الأدنى يمكن القول بأن الاختبار صادق "[11]، بعد الحصول على درجات العينة وعددها (300) تم ترتيبها تصاعديا ثم استخدام اختبار "ت" لقياس دلالة الفروق بين مرتفعي الدرجة على المقاييس (27 % أعلى أي 81 فرد) ومنخفضي الدرجة على المقاييس (27 % أدنى 81 فرد) وقد استخدمت الباحثة هذه الطريقة للتعرف على قدرة المقاييس في التميز بين طرفي السواء والاضطراب التي يقيسها.

ثانيا /ثبات الاختبار: يعني الاستقرار في الحصول على النتائج بعد تكرير عملية القياس على نفس الفرد أو مجموعة أفراد من طرف نفس الأخصائي أو من طرف أخر أي أن الاختبار يتسم بالموثوقية ويمكن الاعتماد عليه. تم حساب الثبات على مستوى كل مقياس باستخدام طريقة الاتساق الداخلي بمعادلة ألفا لكرونباخ وطريقة إعادة الاختبار على عينة قدرت بـ 57 مفحوص 37 أنثى 20ذكور بعد مرور 3 أسابيع من أجراء الاختبار وخلصت النتائج إلى:

جدول رقم (4) يبين معامل الثبات عن طريق ألفا لكرونباخ وإعادة تطبيق الاختبار

المقاييس	معامل ألفا لكرونباخ α	إعادة تطبيق الاختبار	المقاييس	معامل ألفا لكرونباخ α	إعادة تطبيق الاختبار
الكذب	0,48	0,70	الذكورة ـالأنوثة(الذكور)	0,56	0,59
التواتر	0,78	0,72	الذكورة ـالأنوثة(الإناث)	0,22	
التصحيح	0,63	0,70	البرانويا	0,70	0,72
توهم المرض	0,72	0,69	السيكاثينيا	0,83	0,80
الاكتئاب	0,61	0,59	الفصام	0,85	0,79
الهستيريا	0,64	0,68	الهوس الخفيف	0,60	0,73
الانحراف السيكوباتي	0,65	0,73	الانطواء الاجتماعي	0,70	0,75

ويمكننا القول إن معاملات الثبات بطريقة ألفا لكرونباخ تعد مقبولة في بعض المقاييس في حين منخفضة في مقاييس أخرى مثل الذكورة ـ الأنوثة، الكذب ويرجع ذلك إلى أن المقياس تقيس عدة أجزاء أضف إلى ذلك أن العينة كانت متجانس من حيث السن والمستوى المعرفي، العادات والتقاليد، وبالتالي كانت درجاتهم على المقاييس متقاربة، حيث أن العلاقة بين قيم معامل ثبات المقاييس وتباينه علاقة طردية. وبالتالي أدى انخفاض تباين المقاييس إلى انخفاض قيمة معاملات الثبات الخاصة بهم. وتتفق هذه النتيجة مع ما توصل إليه James N. Butcher ، Carolyn L. William التي أظهرت نتائج دراسته للثبات أن الاختبار يتصف بمستوى مقبول من الثبات.

أما معاملات الثبات المستخرجة عن طريق إعادة الاختبار فكانت مرتفعة في مقاييس ومقبولة في أخرى ومنخفض نوعا ما في مقاييس أخرى مثل الاكتئاب و الذكورة و الأنوثة، ويفسر ذلك بالنسبة لمقياس الاكتئاب فالمقياس أصلا يقيس الاكتئاب الاستجابي الخارجي الأصل أكثر مما يقيس الاكتئاب العصابي لذلك فهو ليس سمة ثابتة بل استجابة لأسباب تتغير من وقت لأخر وتتحدد بالحالة المزاجية للفرد، بالنسبة لمقياس الذكورة ـ الأنوثة إشكالية تقبل الهوية في هذه المرحلة فمن مراهقة قابلة لأنوثتها إلى رافضة لها تحت ضغوطات المجتمع ووطأة المراقبة الأسرية، وتتفق هذه الدراسة مع ما توصل اليه (Butcher Carolyn L. Williams James N) التي أظهرت نتائج دراسته للثبات أن الاختبار يتصف بمستوى مقبول من الثبات.

خاتمة: توصلنا في دراسة صدق وثبات اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه M.M.P.I 2 من خلال تطبيقه على عينة من تلاميذ التعليم الثانوي، إلى النتائج التالية:

فيما يخص التحليل العاملي الاستكشافي: أظهرت بيانات البحث وجود أربعة عوامل تتشبع عليها مقاييس الاختبار وهي:

العامل الأول سوء التكيف العام أو السيكوباتولوجي: جمع بين مقاييس الفصام، التواتر، الهوس الخفيف، البرانويا، الانحراف السيكوباتي، السيكاثينيا تشبع ايجابي، وتشبع سلبي بالنسبة لمقياس الكذب والتصحيح.

العامل الثاني الاضطرابات العصابية: جمع بين مقاييس الهستيريا، توهم المرض، الاكتئاب تشبع ايجابي.

العامل الثالث الذكورة ـ الأنوثة: هذا العامل يفسر أساسا بمقياس الذكورة ـ الأنوثة الذكور تشبع سلبي ومقياس الذكورة ـ الإناث تشبع ايجابي.

العامل الرابع الانطواء والانبساط الاجتماعي: هذا العامل يتكون من المقاييس التالية مقياس الانطواء الاجتماعي و السيكاثينيا تشبع ايجابي ومقياس التصحيح تشبع سلبي.

_أما فيما يخص تحليل الفقرات فنجد أن أغلب الفقرات لديها ارتباط دال إحصائيا عند مستوى 0,001و 0,005 وهناك من لم ترتبط بها.

_بالنسبة للصدق التميزي فأن النتائج دلت على القدرة التشخيصية للاختبار.

_ تم التحقق من ثبات الاختبار باستخدام طريقة الاتساق الداخلي، وطريقة إعادة تطبيق الاختبار، وبينت النتائج على توفر مستوى مقبول من الثبات لأغلب المقاييس باستثناء مقياس الذكورة ـ الأنوثة، الكذب أما فيما يتعلق بالثبات عن طريق إعادة تطبيق الاختبار فقد أظهرت النتائج أن معامل الثبات بهذه الطريقة كان جيد لأغلب المقاييس باستثناء الذكورة ـ الأنوثة، الاكتئاب.

الهوامش:

---

1 Bisson, Thierry ; 1997 ; Le M.M.P.I Pratique et évolution d´un test de personnalité ; Presses universitaires de Grenoble

2 أحمد محمد عبد الخالق 2000، استخبارات الشخصية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط 3، ص 337.

3 حسين علي الغول 2008، علم النفس الجنائي ـ الإطار والمنهجية الجوانب النفسية والإكلينيكية للمجرم، دار الفكر العربي القاهرة، ط 3.

4 سعد جلال 2001، القياس النفسي ـ المقاييس والاختبارات، دار الفكر العربي . القاهرة . ب ط، ص 183.

5 مصطفى أحمد خاطر وآخرون 2001، البحث الاجتماعي في محيط الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ب ط، ص 276.

6 Mireille Simon, Isabelle Gillet, MMPI2, Les Editions du centre de Psychologie Appliquée Paris P 9.

7 Butcher James N, Williams Carolyn L, et autres, MMPI- A, Les Editions du centre de Psychologie Appliquée Paris P 11.

8 محمد اجراد 2012، تقنين (تعيير) اختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية – الطبعة الثانية(2 . M.M.P.I) أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم النفس العيادي.

9 بدر محمد ال أنصاري2000، قياس الشخصية، دار الكتاب الحديث، الكويت، ب ط، ص91.

10 بدر محمد الانصاري 2002، المرجع في المقاييس الشخصية ـ تقنين على المجتمع الكويتي ـ، دار الكتاب الحديث، القاهرة ب ط، ص 73

11 سعد عبد الرحمن 1998، القياس النفسي ـ النظرية والتطبيق ـ، دارا لفكر العربي ـ القاهرة ـ ط 3، ص 191.

دور الأمثال الشعبية

في التحسيس بالأمن

الأستاذ بن مشرنن نور الدين، جامعة تلمسان

ونحن نتناول بالدراسة والتحليل دور الأمثال الشعبية في التحسيس بالأمن يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند مدلول المصطلحين المثل والأمن. جاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: والمثل عبارة عن قول من شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم الصيف ضيعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك. [1]. أما الأمن فجاء في المعجم: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان، وتارة لما يؤمن عليه الإنسان نحو قوله تعالى: (وتخونوا أماناتكم) [2] [3]. وعليه فمقصودنا بمصطلح الأمن في هذه الدراسة هو الأمن يحمل هذه الدلالة الأصلية المعجمية، شاملا معها الاكتفاء المعيشي والاقتصادي والاستقرار الحياتي للمواطن، بحيث يشعر أن له ركائز ثابتة في مجتمعه تحفظ له وجوده وكيانه وتعلقه بأرضه ووطنه ودولته. فالاستقرار في حياة الفرد عامل ضروري وأساسي لحفظ توازنه العاطفي والنفساني والعقلي الذي يربطه بجذوره العائلية والثقافية والدينية وتقاليده الإنسانية، مع انفتاحه من موقع الواثق بنفسه على الحضارات والثقافات الأخرى ليرى ما فيها من محاسن ومساوئ، فيأخذ بالحسن ويبتعد عن السيء، متفاديا التحجر في المواقف، مبديا من المرونة ما يجعله رجل زمانه يساهم ويصنع حاضره ومستقبله بيده، مؤديا الأمانة لأقرانه وللأجيال الصاعدة.

ولا يخفى على أحد ما للأمثال الشعبية من أدوار إيجابية في شتى مجالات الحياة تقوم بها في كل الحضارات عبر الزمن، من اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وتاريخية وسياسية وعلمية وتربوية. ولعل أهم دور وأخطره للأمثال الشعبية في الراهن هو تحسيس أفراد المجتمع بالأمن وأهمية هذه القيمة الخلقية في استقرار كل شيء في الحياة على قاعدتها. لذا كان من الواجب أن نبرز هذا الدور وبوضوح، ويتمثل هذا أساسا في تناول بعض أمثالنا الشعبية بالدراسة والتحليل واستخلاص البعد الأمني الصريح من نص المثل.

ولكن قبل هذا يتعين علينا أن نوضح العوامل التي مكنت هذه الأمثال من لعب هذا الدور، فبنا إلى القول أنه ما من شك في أنه، إذا قلنا(أمنا) قلنا(قيما)، إذا اعتمد عليها المجتمع تمكن من ضبط شؤونه الحياتية، إذ تعرف:"القيم عادة بأنها مجموعة التصورات التي تدور حول المرغوب فيه وموضع استحسان داخل الجماعة..."[4] . وحتى يتسنى للأمثال الشعبية أن تكون رافدا من روافد الثقافة الأمنية، يتعين على الباحثين أن يتناولوها بالدراسة العلمية كي يميزوا بين ما هو بحق خادما للأمن وعاملا على استسبابه في ربوع الوطن[5].

وبعد تناولنا لمفهوم الأمن مع الإشارة إلى دور الأمثال الشعبية في استسبابه، نرى أنه من الفائدة العلمية أن نبسط الحديث للأمثال بالوصفة المجلية لقيمتها.

فالأمثال الشعبية هي ديوان المجتمعات تصور فيه التجارب والعادات والقيم والأخلاق بأنواعها وألوانها الاقتصادية والدينية والاجتماعية والثقافية والأمنية والتاريخية. فهي أشبه بالشعر ديوانا للعرب، فهي الموسوعة الحكيمة التي نرى فيها صورة المجتمعات والأمم الحقيقية في كل جانب من جوانب حياتها في الماضي والحاضر والمستقبل.

وهي موسوعة الحياة وسجل تاريخ وكتاب تراث فيه كل شيء ولا يمكن لمجتمع ما أن يستغني عن أمثاله الشعبية مهما كان الحال، لأنه يرى فيها شخصيته وكرامته وقوته وعزته وأصالته وتاريخه ومكانته بين مجتمعات العالم.

المتفحص في ذخيرة الأمثال الشعبية الجزائرية يجدها تحتوي على كنوز زاخرة وزاهرة تمس كل جوانب الحياة وميادينها. ولا غرابة فهي عصارة تجارب حياة المجتمع الجزائري عبر قرون متعاقبة وأزمنة متلاحقة. فهي إذن بمنزلة الحقائق العلمية التي لا تدع مجالا للشك ولا منفذا للريب. وقديما قالوا | : التجربة تسبق العلم. غير ان الشائع اليوم بين أفراد المجتمع الجزائري ذهنية الإهمال، أي إهمال الاهتمام بهذا الجزء المهم من التراث وإغفال معانيها (الأمثال الشعبية)، وفي حسبانهم عدم جدواها في في صناعة ثقافة المجتمع وترشيد سلوكه الاجتماعي والتربوي والأمني وكتابة تاريخه المجيد وغيره وكأنه المطلوب غير هذا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط، أي بين أفراد المجتمع، بل امتدت عدوى اللاهتمام واللامبالاة واللارعاية إلى المنظومة التربوية الجزائرية، حيث لوحظ فيها الغياب الطويل والعريض والعميق لنصوص الأمثال الشعبية الجزائرية. والسؤال هنا هو: لماذا لا

يحصل إدراج نماذج منها مختارة في مفردات المنهاج التربوي في كآفة مستويات التعليم بوطننا لترسيخ معاني الثقافة الأمنية أساسا وقاعدة، إذ من دون أمن لا نصنع شيئا في الحياة ولا نقدم رجلا فيها إلى الأمام. ولما كان للثقافة الأمنية هذا الثقل وهذا الوزن في استقرار حياة المجتمع، رأينا اختيار نماذج من الأمثال الشعبية الجزائرية ذات البعد التربوي الأمني للتعامل معها على منهج الوصف والتحليل والإسقاط على الواقع وقد وهي على المنوال التالي:

المثل الشعبي وصفا وتحليلا:

-1-(لبرة تكسي غيرها وهي عريانة): [6] هو مثل شعبي جزائري فيه معنى التضحية من اجل الغير وفيه معنى ايثار الغير على النفس. وكل من التضحية والإيثار هما خلقان كريمان ممدوحان من قمم الأخلاق الشريفة وكونهما يقودان إلى ربط أواصر أفراد المجتمع فهما يدفعان إلى صناعة استقرار في الحياة وفي الوقت نفسه يعملان على إشاعة الامن في المجتمع وغرس خلقه الفضيل بين أفراده في شتى أنواع العلاقات والاما ننتظر من غياب كل من التضحية والإيثار إلا التفكك والنزاع والصراع والعداوة التي تهدد أمن الأفراد واستقرار المجتمعات.

-2-(بليس قال ما يغلبني غير اللي يشاور)[7] وذلك لبيان أهمية المشورة في إنتاج سداد الرأي وصوابه المؤسس على المشورة طريق إلى تحقيق الأمن وتحصيل الاستقرار. وما هذه الفتن والنزاعات والصراعات والحروب واضطراب الأمن صنع الرأي المستبد الواحد المعادي للمشورة. فهو اذن مثل شعبي جزائري ذو بعد تربوي امني.

-3-(واحد عندي ولا عشرة عند الناس)[8] يضرب هذا المثل في التحذير ضمنيا من اقراض المال للغير الذي يقبض ولا يسدد لما يترتب عن ذلك من مشاكل ونزاعات وعداوات وصراعات وحروب تهز استقرار الفرد ومجتمعه وتذهب بأمن حياته. وفي التحذير هنا دعوة الى إشاعة خلق التربية الأمنية بين أفراد المجتمع الواحد. والمثل الشعبي هذا مفتوح في ضربه على كل المعاملات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية سواء أفرادا أو جماعات أو أمما وهكذا.

4-(واحد ما راح من واحد سالم)[9]- مثل شعبي يضرب في الاحتياط الغير من الإساءة للغير مع عدم استغراب إساءة الغير اليك ولو كنت محسنا إليهم إحسانا. ويقال المثل هذا في الصديقين والاخوين والجارين والقريبين يغدر أحدهما بالآخر وفي الاحتياط بعد تربوي امني يقود إلى إقرار

مصلحة الأمن والسلم بين الأفراد في العلاقات ويدفع مفسدة العداوة والصراع والنزاع بينهم وفي ذلك كله مقصد شريف وغاية نبيلة هي غرس خلق التربية الأمنية في أفراد المجتمعات في كل مستويات الحياة.

-5-(خذ طريق العافية ولو دايرة وبنت العم ولو بايرة)[10] في هذا المثل الشعبي معنيان تربويان أمنيان الأول يحث على تجنب الأشياء التي لا يحمد عقباها ولو كلف تجنبه عناء زائدا وشاقا ويقال أيضا في الحث على الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى الخصومات والمنازعات والصراعات والفتن.

مهما كان فالطريق الدائرة قد تكون اتعب لطولها لكنها هي أسلم وأأمن عاقبة وهذا في حد ذاته سلوك أخلاقي ذو بعد تربوي امني. والمعنى الثاني في المثل فيه تحبيب الزواج من القريبة لأنها تكون مجبرة على حفظ عرض زوجها وماله ونسبه الذي هو عرضها ومالها ونسبها. ..وفي ذلك مدعاة إلى تحقيق الأمن والسلم والتعايش الحسن والمعاشرة المعروفة بين أفراد الأسرة وعلى الرأس الزوج والزوجة، إذا هما أساس امن المجتمع واستقراره ويبدأ امن المجتمع عند علماء الانتروبولوجيا من امن الأسرة أساسا.

-6- **(خذ الرأي اللي يبكيك وما تخذش اللي يضحكك)[11]** في المثل الشعبي هذا حث على الأخذ بالنصيحة الحسنة من الغير، ولو كانت مرة ومؤلمة ومبكية لأن فيها أمنه واستقراره. وفي المثل أيضا تحذير من الأخذ بنصيحة العدو الحلوة والمضحكة والطريفة التي تحبذ له عمله السيئ وتزينه لان فيها تهديدا لأمنه واستقراره وهي سبيل ميسر إلى تهلكته في العاجل او الآجل.

والمثل يحمل بعدا تربويا أمنيا يسهل إسقاطه في الراهن على المنحرفين من الشباب والرجال والبنات والنساء والمبتلات بأمراض العصر من خمور وسفور ومخدرات واختلاس أموال ورذائل وغيرها

-7-(خوك خوك لا يغرك صاحب)[12] في هذا المثل الشعبي تحذير من معاداة الأخ الشقيق وتفضيل الصاحب عليه في الثقة والمعاملة لان ذلك يجر إلى عواقب غير محمودة ويكرس الزمن عليك لا أمنا في حياتك بكثرة المشاكل والإضرار واصطناع الشرور. .....الخ وكل هذا يصنع لك عدم الاستقرار في حياتك ليصبح الحذر والحيطة والخوف منهم صاحبك الذي لا يفارقك والتربية الأمنية تطلب تقريب الأخ الشقيق أو أحدا من الأقارب على الصاحب والصديق لان الأول يدوم والثاني يفارقك بعد ساعة أو يوم. مع لزوم الحيطة والفطنة في المعاملة مع القريب والبعيد علما أن التجربة

علمتنا أن هناك بعض الأقارب عقارب كما ان البعض الأقارب أطايب. وزيادة على هذا فان المثل الشعبي هذا يدعو إلى ربط أواصر المجتمع بدءا بأفراد الأسرة الواحدة وفي ذلك قوة وامن واستقرار.

-8-(اذا ضربت اوجع)[13] وهذا مثل شعبي جزائري يضرب في وجوب التعامل مع اللؤماء والسيئين من الناس بالغلطة التامة إذا تمردوا أو تمادوا في الأذى أو السوء لان الرفق بهم في هذه الحالة لا يفلح بل يزيد في طغيانهم ظنا منهم خوفكم منهم. وهذا ما يجعل دائرة الأمن بينكم وبينهم في اضطراب وتقلص وتبقى وكأنها فتيلة قنبلة سينفجر في أي لحظة من اللحظات فالتربية الأمنية توجب التعامل مع العدو العنيد بالغلطة لأنه بها يصل إلى إيقاف سوئه وأذاه فتأمن أنت والمجتمع من شره وفي ذلك الأمن والاستقرار. وقد جاء تأكيد هذا المعنى في القرآن الكريم لقوله تعالى:(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)(14).

-9-(الجار قبل الدار)[15] يضرب هذا المثل الشعبي في وجوب مدارسة المحيط والأرضية المرتبطة بالمشروع الذي تعزم بنائه فهي تسبق المقصود وذلك لضمان سلامة بنائه وأمنه بعد إنجازه. وليكن أي مشروع في حياة الإنسان. فقبل السفر وقبل الزواج لابد من حسن اختيار رفيق السفر وقبل اتخاذ أي قرار يخص الحياة لابد من مراعاة ظروفه كاملة وشاملة حتى لا ينقلب عليك فتجني منه شوكا ويتحول فرحك إلى حزن وندامة وينقلب الرفيق إلى خصيم مبين والجار إلى عار ودمار. وهو مثل شعبي قد يكون سببه ما حصل لإنسان اشترى بيتا أو بنى مسكنا ليقيم فيه ويسكن ولم تراع الظروف المحيطة بهذا البيت من جار إذا فوجئ بجار سوء أشبعه أذى ولم يتوقف فلما بلغ صبره حدا لا يطاق انفجر وخسر. والمعنى من المثل يصب عين خلق التربية الأمنية لان فيه حث على وجوب أخذ

الاحتياط. من ضرر قد يصاحبك طول حياتك إن لم تأخذ به وهو ضرر لا ينجو منه الحذر. والمثل أيضا يضرب في وجوب اختيار الجار الخلوق والأمين وحسن معاملته لما يوفر لك ذلك من امن وأمان واستقرار في حياتك وبيتك مع أولادك، فالجار باق معك زمن حياتك كلها كما أن المثل يحذر من مجاورة الجار السيئ لما يترتب عنه من أذى ساخط وشر مستطير ينسف الاستقرار ويذهب بالأمن وينذر بضر أليم مهدد للحياة والكيان والمثل بهذا الصيغة يصب في عين التربية الأمنية في

الحياة. وفي سياق هذا المعنى يصلح للمقام المثل الشعبي القائل: (الرفيق قبل الطريق) حيث يصلح للأطفال والتلاميذ درسا في عين التربية الأمنية التي تقود إلى ثقافة دفع المفسدة وجلب المصلحة كما يتوسع إلى كل شرائح المجتمع، يتوسع إلى كل شرائح المجتمع، يتوسع إلى المجتمعات والدول والأمم في سياساتها الخارجية.

-10- (اذا غابت السبوعة تستبع الضبوعة)[16]: وهو مثل يصب في عمق التربية الأمنية وأبعادها حيث يقال في الأراذل من الناس يعلون ويتحكمون في رقاب الناس بالظلم والتبجح والقهر والفساد والأذى ويقال في أمور الناس يتولاها من ليس أهلا لها وهم الأصاغر من الناس. والمثل يستعمل في الحياة الاجتماعية كما يستعمل في السياسة كما يوظف في الكسول وغير المبالي يعلو ذكره والذليل يعز وهو المثل العربي القائل :(ان البغاث بأرضنا يستنسر) كما يضرب للضعيف يصير قويا وإذا استسبعت الضبوعة غابت منهم الحكمة في الأخذ بمقاليد الأمور في شتى مجالات الحياة وإذا حصل وتحقق فانتظر الفتنة ذهب الأمن واختفى الاستقرار. والتربية الأمنية تصنع بيد الحكماء اما الفتنة والاستقرار فيصطنع بيد الأراذل اللؤماء.

-11-(السبع يزهر والحمار ملاقيه)[17]: هذا مثل يقال فيمن يقدم على أخطار محققة في الوقت الذي كان يجب عليه أن يتقيها ويبتعد عنها كل البعد لخطورتها ولما تحمله من أضرار كبيرة تمس من يقترب منها لا محالة كما يصاغ المثل للأطفال الذين يلعبون قرب مواقع الخطر والضرر والذين يخرجون للعب أثناء هبوب الرياح او نزول المطر او اشتداد الحر لأنهم بذلك يعرضون أنفسهم للضرر والخطر ويساق المثل أيضا في الرجل يدفعه الفضول إلى الذهاب إلى مكان المشادات والتشاجر والتراشق بالحجارة بين المتظاهرين والشرطة وغيرها من الأمثلة. فالحمار لغباوته يسمع زئير الأسد فلا يختفي بل يواصل سيره حتى ولو كان في الاتجاه الذي فيه الأسد. والمثل هذا يصب في عمق التربية الأمنية اذ يحث الأطفال والرجال والنساء بضرورة التحلي بالحس الأمني في الحياة ومن ذلك أن يكون كيسا حذرا فطنا في كل شيء وان يخلع رداء الغباوة وينزع ثوب البلاهة عنه انتزاعا وذلك بتجنبه مواضع الخطر أو أماكن الضر. قال تعالى (وخذوا حذركم)[(18)] وقال أيضا :(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)[19] .

-12-(عوم وعس حوايجك)[20] مثل جزائري شعبي يضرب في التحلي بالفطنة والكياسة في قضاء الأمور في الحياة ويقابل ذلك بمجانبة الغفلة وحماقة في تدبير الأمور وربما يكون مورد المثل إن إنسانا لغفلة سبح في بحيرة أو بحر تاركا أغراضه على شاطئه وعلى حين غفلة سرقت واختفت فلما انتهى عاد إليها فلم يجد شيئا وفي لحظة خسر كل شيء فجاءه احد الحكماء ناصحا له بقوله (عوم وعس حوايجك)والمثل يصلح ان يضرب في عمق التربية الأمنية للإنسان طفلا كان أو امرأة او رجلا ملفتا إياهم إلى ضرورة مصاحبة الحذر والحيطة والنباهة في كل الأمور دونما غفلة أو لا مبالاة وهو مثل جار وحي بين الأطفال في المدرسة والرجال والنساء في مختلف الأمكنة وتجمعات الأفراح بل حتى في المساجد التي تشكو من سرقة الأحذية حتى صار يقال لكل من دخلها على حذائه عس حوايجك، وهكذا. ..يصلح المثل في العديد من المواضع سواء كانت مواضع أفكار أو مواضع أحجار وهكذا...خصوصا ونحن في ظروف عامة غير مأمونة لذا صار مثلا ضروريا في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات

-13-(الخلطة بلطة والجرب يعدي)[21] مثل شعبي جزائري يضرب في التحذير من المخالطة المفتوحة مع الناس، والناس معادن كما فيهم الحكيم وهم قلة ففيهم اللئيم وهم كثرة وربما يتوجه التحذير رأسا من مخالطة الأراذل من الناس وذلك ينتج من مخالطتهم السلب للمال والتعرية والتوقيع في مواطن الضرر والسلب في قيم الأخلاق فكم من تلميذ كان نجيبا خلوقا مجتهدا ناجحا غير أن مخالطته الأشرار قلبت حاله من خير إلى شر فضاع وضيع وكم من شاب أصاب ثم خيب وخاب وكم من صالح انحرف وكم من طاهرة تحولت إلى بائرة وكم من مسكين صار سكينا وكم من مسؤول صار مغلول...وهكذا نسأل الله الثبات. كما ان المثل يستقي معناه وأبعاده من نصوص النبوة منها قوله صلى الله عليه وسلم (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل الطيب ونافح الكير)[22]

لذا يحسن ان يلقن التلميذ في المدرسة والبيت قبله هذا الخلق وقاية له من الضر وفي نفس السياق والمعنى والحال والمال يساق مثل شعبي قريب منه هو:(خلط روحك مع النخالة ينقبوك الدجاج). والمثل هو لغاية مجانبة مخالطة الأراذل والمرضى والأشرار من أفراد المجتمع

-**14**-(**خلطها تصفا**)[23] فهو مثل شعبي يحث على خلق الصراحة بالحق مهما كانت عواقبه ذلك إن كتمان الباطل قد يبقي المنازعات بين الأفراد في العائلة والمجتمع قائمة كالقنبلة قابلة للتفجر في أي وقت والكتمان للشر يبقيه قائما ضارا مهلكا في المجتمع فكان من الحكمة التصريح بالحق وان نتج عنه ضرر ولابد فخفيف وطفيف وسرعان ما تعود الأمور إلى نصابها ويصفى كل شيء ويضرب المثل أيضا في المريض الذي يصرح بمرضه وآلامه للطبيب حتى يخلصه منه وهكذا ولذلك قالوا: من كتم داءه قتله.

والمثل هذا هو من عين التربية الأمنية للأطفال والرجال والنساء في شتى السلوكات الاجتماعية كما يمكن توظيفه في المجتمعات التي تقهر شعوبها وتستبد في حكمها ولا تراعي حقوق الأفراد ولا الجماعات ولا القبائل بشتى ألوانها ومختلف أشكالها إذ السكوت على الحق في الأوضاع الظالمة يبقيها على ذلك ويزيدها ظلما. لذلك يصدق المثل على هذه الحال ثم يحصل بعدها العدل وتعود أمور المجتمع إلى طبيعتها وربما يحسن في هذا المقام صياغة المقولة الثابتة التالية :(موت على حق خيرمن حياة على باطل) والمثل العربي القائل:(المنية ولاالدنية).

-**15**-(**المومن بسلاحو**)[24] هذا مثل شعبي جار كثيرا على ألسنة الناس وخطاباتهم ويضرب في حث الإنسان أي كان مقامه وسنه ووظيفته على وجوب اخذ الاحتياط والحذر والتسلح إن اضطر الحال إلى ذلك اضطرارا خصوصا في أزمنة الاحتجاجات والمواجهات العمياء التي تأتي على الأخضر واليابس ويستغلها السفهاء للفساد والإفساد. يذهب معنى المثل إلى إصابة عمق التربية الأمنية للطفل والتلميذ فتقول له :(المومن بسلاحو) وأنت تطلب منه اخذ ملزمات المحفظة والمئزر كلها وهو بتوجه إلى المدرسة وتقولها له حاثا إياه على مراجعة دروسه دوما قبل دخوله الامتحان.

وتقولها له إذا كان مريضا حاثا إياه على تناول دوائه باستمراركما أوصاه الطبيب وتقولها له حاثا إياه على ارتداء معطفه ولبس قبعته في الظرف الممطر والبارد وقاية له من كل مكروه وتقولها له حاثا إياه على التزود بالطعام قبل الخروج إلى السفر الطويل الشاق وتقولها له حاثا إياه على الاجتهاد في طلب العلم والنجاح لان العلم سلاح المؤمن أي كان والمثل يبقى مفتوحا على جميع السلوكات التي تمثل الحيطة والأخذ بالأسباب عند جميع شرائح المجتمع.

16-(**المومن ما يكون حقود**)[25] وهو مثل يضرب لغاية الحث على نبذ الأحقاد والأذى بين الأفراد في المجتمع كما يدعو إلى خلق إصلاح ذات البين.. الذي من ورائه تحقيق الاستقرار وبسط الأمن بين أفراد الأسرة والمجتمع وهو يصب في وعاء التربية الأمنية لدى جميع شرائح المجتمع بدءا بالتلميذ –الطفل–في المدرسة إلى الشيخ الكبير في الحياة. وقد علمنا ما تثمره الأحقاد والكراهيات من ضرر في المجتمع وبين أفراده... فربما أوقدت الأحقاد نار الحرب بين الأشقاء ولربما قادت إلى التهلكة ولربما أوصلت إلى الموت. ..وهكذا

-**17**-(**انا نحفر لو في قبر مو وهو هارب لي بالفاس**)[26] وهذا مثل شعبي جار على ألسنة العامة من الناس وخاصتهم في المجتمع الجزائري يضرب في من تأتي لمساعدته فيعرقل عملك وهو ماينبئ على خير الأول وحماقة الثاني وشره. ومثل هذا السلوك قد يشوش الطريق في تحقيق الأمن والتعاون والتآخي والتآزر والاستقرار بين الأفراد في المجتمع إذ من جاء إليك بالخير فاشكره وتعاون معه بإخلاص لإنجازه والمثل كما ينصح بفعل الخير لغيره ينصح بوجوب استقبال الخير بالخير وينهى عن رد الحسنة بالسيئة لأنها ستكون طريقا إلى الجفاء والكراهية والقطيعة التي لا يستقر عليها وضع ولا يأمن لحلولها فرد ولا مجتمع ولا امة وقد يكون من عين التربية الأمنية للتلميذ والطفل أن نغرس فيهما خلق المساعدة للغير مع خلق وجوب الخير بالخير واستقبال الحسنة بحسنة خير منها وهكذا لقوله تعالى : (و إذا حييتم بتحية فحيو بأحسن منها أو ردوها)[(27)]

فبذلك الخلق يأمن الأفراد وتستقر مجتمعاتهم. وقد يساق في المعنى نفسه أو قريب منه المثل الشعبي القائل (انا باللقمة لفمو وهو بالمشهاب لعيني) وهو يضرب في المسيء إلى من يحسن إليه. والمثل هو في معنى ومقصد المثل العربي الفصيح القائل:(ياكل تمري ويعصي امري). (وياكل التمرة ويرجمني بالنوى) ويدخل في هذا السياق أيضا المثل الشعبي السائد:(ياكل في الغلة ويسب في الملة) وهكذا، وان كان هذا الأخير يتوجه رأسا إلى من يتذمرون ويلعنون البلد بخيراته التي ينعمون فيها على الدوام او يسبون وينكرون معروف البلد الذي علمهم ووظفهم وأمنهم في حياتهم ووفر لهم جميع حقوقهم. ويمكن صدها في ذات السياق ان نسرد مجموعة أمثال شعبية جزائرية يتوجه رأس مقصدها إلى غرس التربية الأمنية في المجتمع بالتصريح مرة وبالتلميح أخرى وهي كثيرة جدا لا يكفي

المقام لتحليلها فلربما يأتي ظرف موائم نجمعها للتحليل والاستنباط والاستعمال كمشروع فرقة بحث في علم الانتروبولوجيا إن شاء الله. وهذه بعض منها على التالي:

(اذا مات خوك ما تعز بن خوك)[28]

(اذا كنت زين استرروحك ملعين، واذا كنت شين استر روحك ملفضايح)[29]

(بلرض ولدتك أمك)[30]

(انا نقلك سيدي وانت فهم روحك)[31]

(الناس بالناس والناس بربي) [32]

-**(اليتيم لك ربي)** [33] في الشفقة والرحمة باليتيم عندما لا يجد نصيرا. ..وفي الفقير لا يجد مساندا فهو يبحث على هذه الأخلاق الحسنة كالتحلي بالشفقة والرحمة بالآخرين والسند والتعاون بين أفراد المجتمع وهو بذلك يقود إلى إقرار الأمن بين أفراد المجتمع لا محالة.

-**(انا مير وانت مير شكون يسوق الحمير)** [34] هو مثل شعبي يقال فيمن ترفع عن القيام بعمل زاعما انه ليس في مستواه فعلى الآخرين القيام به فهذا ليس من الأخلاق التي تبعث على الارتياح والاستقرار بل ربما زعزعت كيان الفرد في أمنه. فالمعنى الأساس يتوجه إلى وجوب العمل وقبول ا ي عمل مادام العمل شرف وكرامة الحياة كما أن رفض العمل والتعالي عليه مساس في العمق بخلق التربية الأمنية.

(بنت عمك ترفد همك)[35] يقال في تحبيذ الزواج بالقريبة والحث عليه لمن لم يجد لك، ذلك أن وراءه استقرار الأسرة وأمنها ودفع للمفسدة الأخلاقية وهو يسير في خط تعزيز التربية الأمنية لدى الأفراد في المجتمع لان الأصل في الزواج الأمن والصحة والاستقرار بكل معانيها وأبعادها.

(البنين يعرفوه الضروس)[36]مثل يضرب فيمن زعم انه أحسن إليك وأنت تعلم انه أساء إليك كما يقال في معاملة زائفة مغشوشة ومفضوحة. فهو يحذر منها وممن يتعامل بها دفعا لمفسدة وجلبا لاستقرار امن فهو يصب في عمق التربية الأمنية للأفراد والجماعات.

(البيوت يخلوها الزغاريت والا المساليت)[37] يضرب هذا المثل الجزائري في الرجل يلحقه الإفلاس لكثرة زواجه وطلاقه ويقال في ثروة أسرة أو مجتمع يبددها الأبناء الطالحون وهو مثل صالح

للمجتمعات التي يبددها أفرادها أموالها العامة لفسادهم. والمثل بهذا المعنى فيه تحذير من تبديد المال فيما لا فائدة ولا منفعة للفرد والأسرة والمجتمع وهذا يصب في عين التربية الأمنية في المجتمع.

-(**بات كلب تصبح راجل**)[38] يقال في الحث على اليقظة وحراسة المال والعرض والنفس وفي ذلك تحقيق للتربية الأمنية في الفرد والأسرة والمجتمع.

-(**اجبد ولا لوح الجلد**)[39] يقال في العائلة تكثر مطالبها بحيث لا يقدر رب العائلة عليها فتفتد العائلة استقرارها ويهتز أمنها وفي المثل حث رب العائلة على طلب المعقول من النفقة حتى يتحقق التوازن ويحكم الأمن والاستقرار.

-(**جا يداويها عماها**)[40]

-(**جا يربح صيدوبورابح**)[41] فيه الرجل يقع في ورطة لجشعه وطمعه فوقع فيما لا يحمد عقباه ففيه بذلك معنى من معاني التربية الأمنية.

-(**جا يطيب اتحرق**)[42]

-(**جا يتعلم الحسانة في روس اليتامى**) [43] يقال فيمن يعبث بأموال الضعفاء واليتامى ومن لا مدافع عنهم وهذا يقود حتما إلى اللامن أللاستقرار فهو يصب في عين التربية الأمنية من جهة المال.

-(**يجي في الكوزو ويقول لهم جوزو**) [44] يقال فيمن يدفع غيره للمخاطر بعد ان يحصن نفسه او من يستضعف الناس ولا يدفع شيئا من ماله.

والأمثال الشعبية الجزائرية في الموضوع أكثر من أن تحصى وقد اكتفينا بهذه النماذج متونا فحسب.

-(**جا القط يوري لبنو النط**).

-(**الحب الاعمى**).

-(**حتا يزيد نسموه سعيد**).

-(**الحاج موسى موسى الحاج**): يقال في تساوي الشيئين وبقاء الحال على حاله، ويقال أيضا عندما يعوض مسؤول قديم بمسؤول جديد من طينته وعجينته الفاسدة فهو يصب في عين التربية الأمنية بالمال.

-(**حدث الفاهم تستراح**).

-(احرز دينك يوم تختلط الاديان).

-(احصل يا لفاس في الراس خلي الخماس يشقى).

-(المحامية تغلب السبع).

-(الحنش ما يحفر غار ما يبات فيه).

-(الحاجة اللي تهمك وصي عليها راجل امك).

-(احييني اليوم واقتلني غدوة).

-(الحيا من الدين).

-(الخبر يجيبوه التوالى).

-(اخدم يصوردي وحاسب البطال).

-(اخدم على روحك تعجب الناس).

-(اخدم يا الشاقي للباقي).

-(اخدم يا صغري لكبري واخدم يا كبري لقبري).

-(خسر بقرة وبنتها).

-(اخسر وفارق).

-(خلي البير بغطاه).

-(خاين البيت مايتعس).

-(الخير امرا والشر امرا).

-(يدخل بالطول ويخرج بالعرض).

-(يدخل منا ويخرج منا كالحوتة).

-(الدنيا بالوجوه والاخرة بالفعايل).

-(الدار دار يونا الكلاب طردونا).

-(دير روحك مهبول تشبع كسور).

-(الذيب خش السوق).

-(راس مال الرجل كلمتو).

-(نوري لك النجوم في القايلة الحامية).

-(ربع نسا والقربة يابسة).

-(الروح روح الله والعود عود البايلك).

الخلاصة: هذا وان ما يستخلص من هذا العرض الوصفي التحليلي لهذه الباقة من النماذج في الأمثال الشعبية الجزائرية هو قليل من كثير، وهو أنه كما هي تكشف عن طبيعة المجتمع الجزائري في شخصيته وعقليته ونمط فكره ومستوى ذكائه. فإنها تكشف أيضا خصائصه التربوية، ومنها التربية الأمنية أساسا ورأسا، الأمر الذي يفيد مسالمة هذا الشعب الأبي وتوقه إلى الحياة الآمنة المستقرة، وبغضه منطق الحرب والعداء والظلم والاستعباد والقهر. وأنه ما شهر سلاحه إلا في وجه المستعمر الغاشم الذي استباح ماله وعرضه ودمه. كما أن مضمونها يردد الاستقرار ولا ازدهار ولا نماء ولا رقي لأمة أو حضارة إلا في رحاب تربية أمنية أمنة مؤمنة. ومن هنا يمكن رد الاعتبار لهذه المنظومة الذهبية في أدراجها ضمن مفردات منهاج التربية الوطنية لربط الأجيال بواقعهم وتجارب أسلافهم. وبالمناسبة يمكن إحصاء نسبة معتبرة من مدونة الأمثال الشعبية هي من معين الأمثال العربية الفصيحة كما أوردها الميداني في مجمع الأمثال، وفي هذا دلالات وعبر.

الهوامش:

1-معجم مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – ص 482- دار الكاتب العربي

2- الأنفال 27 (القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع، ط9، دار المعرفة، دمشق1428ه)

3- معجم مفردات القرآن الكريم - الراغب الأصفهاني –ص 21.

4- البناء النظري لعلم الاجتماع –نبل محمد توفيق السمالوطي –ج1 - دارالكتب الجامعية مصر

5-علم الاجتماع العام، أسسه وميادينه وموضوعاته –د صفوة الأخرس - ص 259- مطابع مؤسسة الوحدة العربية – 1981.

6-أمثال جزائرية-جمع وشرح وتعليق –عبد الحميد بن هدوقة-ص15-ط1992-

7- المرجع نفسه –ص16

8-المرجع نفسه –ص21

9 - المرجع نفسه –ص22

10- المرجع نفسه –ص23

11- المرجع نفسه –ص28

12-المرجع نفسه –ص55

13-المرجع نفسه –ص28
14- التحريم 09.
15-المرجع نفسه –ص55
16-المرجع نفسه –ص35
17-المرجع نفسه –ص31
18-المرجع نفسه –ص36
19-المرجع نفسه –ص36
20-المرجع نفسه –ص36
21-المرجع نفسه –ص37
22-حديث شريف مرفوع إلى رسول الله (ص) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. .
23-المرجع نفسه –ص49
24-المرجع نفسه –ص49
25-المرجع نفسه –ص51
26-المرجع نفسه –ص54
27- سورة النساء 86.
28-المرجع نفسه –ص56
29-المرجع نفسه –ص56
30-المرجع نفسه –ص56
31-المرجع نفسه –ص56
32-المرجع نفسه –ص70
33-لمرجع نفسه –ص56
34-لمرجع نفسه –ص56
35-المرجع نفسه –ص49
36-المرجع نفسه –ص49
37-المرجع نفسه –ص49
38-المرجع نفسه –ص34
39-المرجع نفسه –ص34
40-المرجع نفسه –ص51
41-المرجع نفسه –ص51
42-المرجع نفسه –ص51
43-المرجع نفسه –ص 51-52
44-المرجع نفسه- ص 52.

سمات القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة

دراسة ميدانية بالمؤسسة الوطنية لأجهزة القياس والمراقبة بالعلمة -سطيف

إلهام بولجنيب طالبة دكتوراه علم النفس العمل والتنظيم

إشراف: الأستاذ الدكتور مجاهدي الطاهر جامعة المسيلة

الملخص:

انطلاقا من أهمية القيادة كأحد متطلبات تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسات، جاءت هذه الدراسة الهادفة لتحديد أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة، التي اشتملت على عدد من السمات:(11) سمة عقلية، (11) سمة اجتماعية، (10) سمات جسمية، و(11) سمة انفعالية. وأسفرت نتائج الدراسة على أهمية توافر هذه السمات في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة مع وجود تباين في أهميتها.

Summary:

Proceeding from the importance of leadership as of the requirements to e adopt total quality management of institutions, this study aimed at determining the most important features that should be available in the commander under adopt total quality management which include. Number of attributes: (11) characteristic mentality, (11) social attribute, (10) the foregoing attributes, and (11) emotional attribute.

The results of the study on the Importance of the availability of these features in the commander under adopt total quality management with the results of the study on the Importance of these features in the commander under adopt total quality management with a discrepancy in importance.

Keywords: personality, commander, total quality management.

1-الإشكالية: انطلاقا من المنافسة الشديدة التي تميز العصر الحالي خاصة في المجال الاقتصادي، كان لزاما على المؤسسات وعلى رأسها المؤسسة الجزائرية التي تسعى إلى مواجهة هذا

التحدي والتصدي له، ضرورة إعادة النظر في منتجاتها والسعي إلى تجويدها، إدراكا لأهميتها في تحقيق رضا العميل وكسب رهان المنافسة، لكن تحقيق هذا لا يأتي من فراغ إلا من خلال تبني أسلوب إداري هادف يتمثل أساسا في إدارة الجودة الشاملة، الذي كان له الدور في نجاح العديد من الشركات بتبنيها له، وهذا من خلال تفعيله في أرض الواقع وتوفير كل متطلبات نجاحه خاصة فيما يتعلق بالقيادة المناسبة ذات قدرات وسمات خاصة (جسمية، عقلية، انفعالية واجتماعية) تمكنها من إحراز الجودة المرغوبة استنادا لما أكدته الأبحاث والدراسات أن امتلاك الشخص لمثل هذه السمات تؤهله لان يكون ناجحا في منصبه القيادي.

نظرا للدور المؤثر للقيادي في سير العمل بمجمله فان موضوعه قد تناولته أقلام الباحثين والمختصين من ميادين وفروع علمية عديدة وتوصلت معظم هذه الأعمال البحثية بنتائج كثيرة اختص البعض منها بخصائصه وصفاته الشخصية (الجسمية، العقلية، الانفعالية والاجتماعية)، وهذا لدورها البارز في قدرة القائد على أداء واجباته وتحمل مسؤولياته ومواكبة متطلبات العصر التي تفرض ضرورة تحقيق جودة المخرجات وإرضاء العميل، فأصبح هذا الموضوع قاسم مشترك لمختلف المؤسسات التي تسعى إلى البقاء والاستمرار وهذا من خلال تبني أسلوب إداري حديث كفيل بتحقيق ذلك هو إدارة الجودة الشاملة وتفعيله في ارض الواقع من خلال توفير كل متطلبات نجاحه خاصة فيما يتعلق بالكوادر الإدارية ذات سمات محددة وصفات خاصة، وفي هذا الإطار وضعت الشركات التي نجحت في تطبيق إدارة الجودة الشاملة مجموعة من الخصائص يفترض توافرها في من يشغل الوظيفة القيادية وهي: الإدراك القوي لهدف الفريق ودوره في عملية التحسين، الكفاءة في فهم المشكلات، الفهم بطرق اتخاذ القرار القيادي، أن يكون متفتح وأمين ، أن يمتلك مهارات اتصال عالية، وان تكون علاقاته قوية ويعرف كيف يتعامل مع المقاومة والمتناقضات وان تكون له قدرة على إدارة المجتمعات[(1)]. كما أظهرت بعض الدراسات صفات رئيسية لا غنى عنها للقائد لتكامل شخصيته وهي أن يتسم بالذكاء أكثر من مرؤوسيه، أن يتسم بطلاقة اللسان وسلامة التعبير، أن تكون له قوة الشخصية وحب تسلم مسؤولية القيادة، أن يتسم بسعة الأفق وعمق التفكير والاتزان العاطفي والنفسي والنضج العقلي والتحليل السليم للأمور[(2)].

ومما لا شك فيه أن مثل هذه السمات ستجعله قادرا على التحسين والتطوير بشكل مستمر ويوفر للمؤسسة نصيب من النجاح الذي يضمن بدوره بقاءها واستمرارها. ومن هذا المنطلق جاءت هذهالدراسة ليتم من خلالها تحديد أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة. وتحدد التساؤل الرئيسي للدراسة كالتالي:

- ما هي أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل يبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها؟

وانبثق عن هذا التساؤل جملة من التساؤلات الفرعية هي:

- ما هو تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية سمات القائد الجسمية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة؟

- ما هو تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية سمات القائد العقلية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة؟

- ما هو تقدير ا إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية سمات القائد الانفعالية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة؟

- ما هو تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية سمات القائد الاجتماعية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة؟

2-فرضيات الدراسة:

- **الفرضية العامة:**

أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل يبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها تتمثل في السمات الجسمية، السمات العقلية، السمات الانفعالية والاجتماعية.

- **الفرضيات الجزئية:**

- السمات العقلية تحتل درجة أهمية كبيرة جدا بالنسبة للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها.

- السمات الانفعالية تحتل درجة أهمية كبيرة بالنسبة للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها.

- السمات الاجتماعية تحتل درجة أهمية متوسطة بالنسبة للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها.

- السمات الجسمية تحتل درجة أهمية قليلة بالنسبة للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعية AMC من وجهة نظر إطاراتها.

3-أهداف الدراسة:

تتحدد أهداف الدراسة في النقاط التالية:

- تحديد أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة. الوصول إلى وضع قائمة حول أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

- الوصول إلى وضع قائمة حول أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

- ترتيب هذه السمات حسب الأهمية الخاصة لكل سمة ينبغي توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

4- مفاهيم الدراسة:

4-1-تعريف القائد: توجد عدة تعاريف تخص القائد لازالت تستخدم حتى الآن ومن بين التعاريف التي تم انتقائها والتي تتمحور ضمن موضوع الدراسة ما يلي:

– القائد هو الشخص الذي يمتلك من المهارة والخبرة والكفاءة والسلطة ما يمكنه من تطويع الآخرين وقيادتهم بالإقناع والرغبة وطيب الخاطر إلى ما يحقق الأهداف المرسومة والمصالح المأمولة(3).

– القائد هو الشخص الذي يتمتع بمجموعة من المهارات والقدرات تساعده في التأثير على الآخرين ودفعهم وحفزهم نحو تحقيق أهداف مشتركة (4).

– القائد هو إنسان له شخصية براقة، أو لديه كل المهارات، ولديه سمات شخصية خاصة ومواهب فردية، بعبارة أخرى يتم النظر إلى القيادة من حيث شخصية وقدرة القادة ويتم تعريفها على أنها شيء يمتلكه القائد فقط (5).

تعريف القائد إجرائيا: هو شخص له سمات خاصةتؤهله لمنصبه القيادي في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

2-4-تصنيف سمات القائد:

1-2-4 تصنيف عالم الإدارة الهندي تايجيTaji: قسم السمات الواجب توفرها في القائد إلى ثلاث مجموعات وهي:

– **سمات شخصية**: مثل الصحة، روح الصداقة، الذكاء، الأمانة، الحكم الصائب على الأمور.

– **سمات سياسية**: الحس السياسي، تحقيق الأهداف العليا في المجتمع.

– **سمات نظامية**: تعني الالتزام بأنظمة العمل واتخاذ القرارات الصائبة في حدود الأهداف المرسومة(6).

2-2-4 تصنيف دافت Daft: صنف السمات القيادية في ثلاث مجموعات وهي كالتالي:

– سمات جسمية: تشمل الحيوية، سلامة الجسم، الذكاء، المعرفة، طلاقة اللسان، النشاط.

– سمات شخصية: تضم الأصالة، الإبداع، السلوك الأخلاقي، دافع المسؤولية، الثقة بالنفس، الرغبة في التفوق، التوجه للمهمة، اليقظة.

– سمات اجتماعية: وتتكون من القدرة على التعاون، الشعبية، الهيبة والاحترام، الأمانة، اللياقة، الدبلوماسية، المساهمة الاجتماعية.

3-2-4 تصنيف حامد زهران: الذي قسم السمات القيادية إلى خمس مجموعات وهي:

– سمات جسمية، سمات عقلية، سمات انفعالية، سمات اجتماعية وسمات عامة(7).

وبناءا على هذا تم تحديد سمات القائد وفق التصنيف الإجرائي المتبع فيالدراسة كالتالي:

- **السمات الجسمية**: هي مجموع الخصائص التي تعبر عن الصحة الجسمية والسلامة العضوية واللياقة البدنية والمظهرية التي يتسم بها القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة

- **السمات العقلية**: هي السمات المرتبطة بالمستوى المعرفي والذهني للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة

- **السمات الانفعالية**: هي تلك الصفات ذات الصلة بالجانب الوجداني للقائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة

- **السمات الاجتماعية**: هي الخصال التي تعنى بالتفاعلات والعلاقات الاجتماعية التي تربط القائد بأتباعه وعملائه في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

4-3-السمات:

4-3-1-تعريف السمات: من بين التعاريف التي صيغت لمفهوم السمات الشخصية نجد:

- تعريف جوردن ألبورت G. Allport: هي تركيب نفسي له القدرة على أن يعيد المنبهات المتعددة إلى نوع من التساوي الوظيفي وإلى أن يعيد إصدار وتوجيه أشكال متكافئة ومتسقة من السلوك التكيفي والتعبيري(8).

– تعريف جيلفوردGuilford: هي أي جانب يمكن تمييزه وذو دوام نسبي وعلى أساسه يختلف الفرد عن غيره (9).

- تعريف ريموند كاتل R. Cattel: هي بنيان عقلي واستنتاجات نقوم بها من السلوك الملاحظ لتفسير وانتظام السلوك واتساق هذا السلوك، فالسمات هي صفات فطرية أو مكتسبة يمكن أن تلاحظ كالطول والوزن وسرعة المشي، وقد تكون نفسية ذاتية لا تلاحظ مباشرة من خارج الفرد كالمشاعر والرغبات والمخاوف والآراء والدوافع الكامنة (10).

- تعريف عبد المنعم حنفي: هي الصفة الجسمية أو العقلية أو الانفعالية أو الاجتماعية الفطرية منها أو المكتسبة، العامة أو الخاصة التي تستنتجها من سلوك الأفراد وتتصف هذه السمات بالدوام النسبي، ويشترك في الاتصاف بها مختلف الأفراد بدرجات متقاربة، فهي اختلاف في الدرجة وليس في النوع (11).

تعريف التعريف السمات إجرائيا: هي مجموع الصفات والخصائص الشخصية (الجسمية، العقلية، الانفعالية والاجتماعية) التي تجعل من يتسم بها من الأفراد يتميز عن غيره.

4-3-2-تصنيف السمات: من بين التصنيفات التي حددت السمات الشخصية نجد:

أولا: تصنيف ألبورت:

فرق بين ثلاث أنواع من السمات هي:

أ – حسب أهميتها:

– **سمات أصلية**: وهي السمات التي يعرف الفرد بها ويكون مشهورا من خلالها أو يخضع لتأثيرها وتسيطر على معظم أنماط سلوكه.

– **سمات مركزية**: وهي سمات بارزة وهي أكثر شيوعا وتمثل الميول التي تميز الفرد ويكون ظهورها بوضوح واستنتاجاتها بسهولة.

– **سمات ثانوية**: تتميز بأنها أقل حدوثا وتستدعي لأداء وظيفتها بصورة أقل من السمات المركزية في وصف شخصية الفرد(12).

ب –حسب عموميتها وفردانيتها:

– **سمات عامة مشتركة**: هي السمات التي توجد عند معظم الأشخاص نتيجة لوجود أنظمة ثقافية في المجتمع الواحد تؤدي إلى تكوينها، أي أنها تنتج بفعل المحددات الاجتماعية والثقافية، كما أنها موجودة عند عدد كبير من الناس وتتغير باستمرار.

– **سمات فردية**: سماها ألبورت: بالاستعدادات الشخصية، وتعني الخاصية الفردية أو السمة التي يمتلكها الشخص ولا يشاركه فيها الآخرون، ويؤكد على أهمية دراستها لأنها تعكس بدقة تركيب الشخصية في حين أن السمات المشتركة حسب وجهة نظره تعد حالة

مفروضة على الشخص بفعل منظومة القيم والمعايير الاجتماعية(13).

ج – تصنيف كاتل: صنف كاتل السمات الشخصية بوجه عام إلى ثلاث فئات وهي:

– **السمات الدينامية**: وهي السمات المفسرة للسلوك النزوعي وتتصل بإصدار الأفعال السلوكية وهي التي تتصل بالاتجاهات العقلية أو بالدافعية أو الميول (14).

– **السمات المزاجية**: وهي السمات المميزة للسلوك الوجداني أي الانفعال.

– **سمات القدرة**: وهي السمات المميزة للسلوك المعرفي فهي تتعلق بكيفية مواجهة الفرد لصعوبات الحياة (15).

د – تصنيف جلفورد: حدد السمات الشخصية في ثلاث فئات وهي:

– السمات الفسيولوجية، السمات السلوكية، السمات العقلية والمزاجية[16].

4-4-إدارة الجودة الشاملة:

4-4-1-تعريف إدارة الجودة الشاملة: يعتبر مصطلح إدارة الجودة الشاملة من المفاهيم الحديثة التي تباينت أفكار وآراء الباحثين حول مفهومهاوالذي انعكس على عدم اتفاقهم على وضع تعريف موحد وجامع لها، إلا أن هناك بعض التعاريف التي أظهرت تصورا عاما لها نذكر منها:

4-4-2-تعريف إدارة الجودة الشاملة حسب المعهد الفدرالي للجودة:

هي القيام بالعمل الصحيح من أول مرة مع الاعتماد على تقييم المستهلك في قياس مدى تحسين الأداء[17].

4-4-3-تعريف إدارة الجودة الشاملة حسب :Rity Carton هي مجموعة من الأدوات والطرق الكمية والطرق والمواد البشرية[18].

4-4-4-تعريف إدارة الجودة الشاملة حسب ادوارد ديمينغ: هي إشراك والتزام الإدارة العليا والموظف في ترشيد العمل عن طريق توفير ما يتوقعه العميل أو ما يفوق توقعاته[19].

4-4-5-تعريف إدارة الجودة الشاملة حسب ر.هودجاسR Hodgett: هي نظام تسيير يقوم على الموارد البشرية التي تهدف إلى التحسين المستمر في خدمة الزبون وبتكلفة منخفضة[20].

تعريف إدارة الجودة الشاملة إجرائيا: هي أسلوب إداري حديث تنتهجه المؤسسات الصناعية التي تهدف إلى تحقيق جودة المخرجات وكسب رضا العميل.

5-إجراءات الدراسة الميدانية:

5-1-منهج الدراسة:

إن اختيار منهج بحث لأي دراسة علمية يتوقف على طبيعة الموضوع وإشكالية وفرضيات الدراسة وبناءا على هذا تم تبني المنهج الوصفي كونه المنهج المناسب لطبيعة الدراسة وأهدافها والذي يهتم بوصف الظاهرة كما هي في الواقع من خلال وصف وتحديد أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

5-2-عينة الدراسة:

انطلاقا من موضوع الدراسة الذي يتمحور في محاولة تحديد أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة الصناعيةوبناءا على أن أهم ما تتميز به السمات الشخصية هو عدم القدرة على ملاحظتها بشكل مباشر وإنما يستدل عليها من خلال سلوكات الفرد وتصرفاته كان لزاما علينا تطبيق الدراسة على عينة من العمال تمثلوا أساسا في إطارات المؤسسة باعتبارهم الفئة الأكثر اتصالا وتعاملا بشكل مباشر مع قائد المؤسسة، وبهذا تم انتقاء هذه العينة بأسلوب المعاينة القصدية أو (الاختيار العمدي) حيث قدر عدد أفرادها بـ39 إطار.

5-3-أداة الدراسة:

تم استخدام الاستبيان للوصول إلى بيانات الدراسة حيث قامت الباحثة بناء قائمة من السمات في شكل استبانة مقسمة إلى أربعة محاور تم تكييفها استنادا على الدراسات السابقة التي عالجت مثل هذا الموضوع، وعلى الإطار النظري والتصنيف الخاص بسمات القائد لكل من دافت وحامد زهران (كما ذكر سابقا).

5-4-الدلالات السيكومترية لأداء الدراسة: للتأكد من صلاحية أداة الدراسة لابد من التأكد من صحة دلالاتها السيكومترية المتمثلة في:

5-4-1-دلالة صدق الاستبيان: لحساب صدق أداة الدراسة تم عرض الإستبانة في صورتها الأولية وقبل التطبيق النهائي على مجموعة من المحكمين تمثلوا في أساتذة جامعيين مختصين في علم النفس العمل والتنظيم وعلم النفس الإكلينيكي، وبناءا على آرائهم تم تعديل الاستبيان ووضعه في صورته النهائية. فأصبحت قائمة السمات المتضمنة لاستبيان الدراسة في صورتها النهائية مكونة من 43 سمة مقسمة إلى 04 محاور وكل محور ضم مجموعة من السمات موزعة كالتالي:

- **المحور الأول:** خاص بسمات القائد الجسمية ضم 10 سمات من 1 إلى 10.
- **المحور الثاني:** خاص بسمات القائد العقلية ضم 11 سمة من 11 إلى 21.
- **المحور الثالث:** خاص بسمات القائد الانفعالية ضم 11 سمة من22 إلى 32.
- **المحور الرابع:** خاص بسمات القائد الاجتماعية ضم 11سمة من 33 إلى43.

أما بدائل الإجابة التي انطوى عليها استبيان الدراسة فكان في خمسة بدائل وهي:

- **بديل مهمة بدرجة كبيرة جدا:** التقدير الكمي الممنوح لها خمسة درجات.
- **بديل مهمة بدرجة كبيرة:** التقدير الكمي الممنوح لها أربعة درجات.
- **بديل مهمة بدرجة متوسطة:** التقدير الكمي الممنوح لها ثلاث درجات.
- **بديل مهمة بدرجة قليلة:** التقدير الكمي الممنوح لها درجتين.
- **بديل مهمة بدرجة قليلة جدا:** التقدير الكمي الممنوح لها درجة واحدة

وبعد المعالجة تم التحصل على قيمة الصدق المساوية لـ 0.93 وهو ما يدل على أن أداة الدراسة استوفت خاصية الصدق.

5-4-2-دلالة ثبات الأداة:

للتأكد من ثبات الاستبيان تم حساب معامل Alpha Cronbach حيث قدر ب0.65 وهو ما يدل على أن أداة الدراسة استوفت خاصية الثبات.

5-5-أساليب المعالجة الإحصائية المتبعة في الدراسة: لمعالجة بيانات الدراسة تم اعتماد الأساليب الإحصائية التالية:

- الوسط المرجح للسمة الفرعية = مجموع التكرارات التي حصلت عليها السمات الفرعية / عدد المستجيبين.
- الوسط المرجح للسمة الرئيسية = مجموع التكرارات التي حصلت عليها السمات الرئيسية / عدد السمات × عدد المستجيبين.
- الوزن المئوي = الوسط المرجح × 100/ القيمة القصوى.

وتتحدد مستويات أوزان سمات استبانة الدراسة في:

- تحديد المدى = أعلى درجة – أقل درجة أي: 5-1=4
- تحديد طول الفقرة= المدى / مستويات الإستبانة أي 5/4=0.80

جدول رقم (01): يوضح تقدير الأوساط المرجحة والأوزان المئوية لدرجة أهمية السمة

درجة أهمية السمة	الوسط المرجح	الوزن المئوي

قليلة جدا	من 1 إلى أقل من 1.80	0.20- أقل من 0.36
قليلة	من 1.80 إلى أقل من 2.60	0.36- أقل من 0.52
متوسطة	من 2.60 إلى أقل من 3.40	0.52- أقل من 0.68
كبيرة	من 3.40 إلى أقل من 4.20	0.68- أقل من 0.84
كبيرة جدا	من 4.20 إلى أقل من 5	0.84- أقل من 100

6-عرض ومناقشة نتائج الدراسة:

6-1-عرض ومناقشة النتائج المتعلقة بتقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC لدرجة أهمية السمات الفرعية المتضمنة للسمة الرئيسة المتعلقة بسمات القائد الجسمية:

جدول رقم (02): يوضح تقدير إطارات المؤسسة الصناعيةAMC لسمات القائد الجسمية

السمات الجسمية	الوسط المرجع	الوزن المئوي
1- حيوي	4.43	88.6
2- يتمتع بسلامة الحواس	4.15	83
3- مظهره الخارجي يتناسب مع طبيعة وظيفته	2	40
4- يعاني من نقص البصر	1.23	24.6
5- يتميز باللياقة البدنية	4.20	84
6- يتمتع بالصحة الجسمية	4.48	89.6
7- يخلو من عيوب جسمية	4.64	92.8
8- يعاني من أمراض مزمنة	1.79	35.8
9- أنيق	4.64	92.8
10- يتميز بقوة إنصات عالية	4.25	85
التقدير الكلي لدرجة أهمية السمات الجسمية	3.58	71.6

يتضح لنا من خلال بيانات الجدول أن التقدير الكلي لدرجة أهمية سمات القائد الجسمية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة تحصل على وسط مرجح يقدر بـ 3.58 ووزن مئوي يقدر بـ

71.6 والذي يدل على أن السمات الجسمية ذات أهمية كبيرة هذا الذي يعكس دورها في قدرة القائد على إنجاز وظائفه بالمستوى المطلوب حيث أن القادة في وقتنا الحاضر هم أحوج الناس للصحة الجسمية واللياقة البدنية والطاقة العالية لأنهم مضطرون لبذل جهود ضخمة لمتابعة التطورات التكنولوجية والاقتصاديةوالاجتماعية التي تشهدها الإدارة الحديثة التي ينعكس أثرها على الدور القيادي الذي يؤدونه وهو ما أكدته نتائج بعض الدراسات التي تمت حديثا والتي شملت سمات أحد عشر مديرا يمثلون أكبر إحدى عشرة شركة أمريكية وأكثرها ربحا، أن أهم السمات المشتركة بينهم هي : تمتعهم باحتياطي من الطاقة الجسمية أعلى مما هو معتاد لدى معظم الناس. وأن هذه السمة تفسر سمة ثانية لاحظها الباحثون المشرفون على الدراسة عند أغلب المديرين الناجحين لشركات أخرى يعرفونها، وهي أن اندفاعهم نحو العمل والتزامهم بانجازه، كان يبدو من خلال الجهد المضني الذي كانوا يبذلونه، والذي كان يأخذ الكثير من وقتهم وطاقاتهم[21].

6-2-عرض ومناقشة النتائج المتعلقة بتقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية السمات الفرعية المتضمنة للسمة الرئيسية المتعلقة بسمات القائد العقلية.

جدول رقم (03): يوضح تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC لسمات القائد العقلية.

السمات العقلية	الوسط المرجح	الوزن المئوي
1- ذكي في مواجهة الأزمات	4.92	98.4
2- مبدع في معالجة المشكلات	4.79	95.8
3- يتميز باللباقة اللغوية	4.41	88.2
4- كفء في إدارة أعماله	4.79	95.8
5- مثابر	4.53	90.6
6- واسع الثقافة	4.51	90.2
7- طموح	4.64	92.8
8- منظم لأعماله	4.79	95.8
9- جريء في اتخاذ القرارات	4.30	86

10- يتنبأ بالأزمات الفجائية	4.48	89.6
11- ماهر في تحليل المواقف	4.48	89.6
التقدير الكلي لدرجة أهمية السمات العقلية	4.60	92

يتضح لنا من خلال بيانات الجدول أن التقدير الكلي لدرجة أهمية سمات القائد العقلية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة تحصل على وسط مرجح يقدر بـ 4.60 ووزن مئوي يقدر ب 92 وهذا يعني أن السمات العقلية ذات أهمية كبيرة جدا. وهو ما يؤكد ضرورتها بالنسبة لشاغل الوظيفة القيادية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة خاصة مع بدايات مراحل تطبيقها، كونها أصعب الفترات التي يسودها جو من عدم الاستقرار والتخوف والارتباك والمقاومة لما هو جديد ورفض قبول التغيير، هذا الذي يجعل عملية تطبيقها صعبة، والذي يفرض ضرورة إيجاد القيادة القادرة على المواجهة والتصدي لمثل هذه المعيقات والقادرة على نشر الثقافة والأفكار الصحيحة عن الفوائد التي يمكن جنيها بقبول التغيير التحسيني على المستوى الداخلي للمؤسسة،والمحلي وحتى العالمي،وبناءا على هذا يستلزم الأخذ بعين الاعتبار أهمية توافر السمات العقلية في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة كأحد المعايير والشروط في عملية انتقاء المرشحين لشغل المناصب القيادية من حيث كونهم أكثر تفوقا من ناحية الذكاء العام وأغنى ثقافة وأوسع معرفة والأسرع على التنبؤ بالأزمات، واتخاذ القرارات والأقدر على إبداع وابتكار ما يحقق رضا العميل والأفصح من حيث الطلاقة اللغوية وهو ما أكدته نتائج دراسة كارتر ونكسون سنة 1941م ص 12، التي توصلت إلى أن الطلاقة اللفظية والاستعداد الكتابي هما أحد العوامل التي تجعل من الشخص قائدا[22]. إضافةإلى ما أكدته نتائج الدراسات التي استهدفت الكشف عن السمات اللازمة للقيادة التي قامت بها جامعة أوهايو الأمريكية تحت إشراف الباحث "ستوجديل" أن سمة الذكاء تشكل السمة الثانية من السمات الوثيقة الصلة بنجاح القائد كما لاحظ أن القائد الإداري يكون في الغالب أكثر ذكاء من مرؤوسيه[23].

6-3-عرض ومناقشة النتائج المتعلقة بتقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC لدرجة أهمية السمات المتضمنة للسمة الرئيسية المتعلقة بسمات القائد الانفعالية.

جدول رقم (04) يوضح تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC لسمات القائد الانفعالية

السمات الانفعالية	الوسط المرجح	الوزن المئوي
1- يتحكم في انفعالاته	4.12	82.4
2- يثق بنفسه	4.51	90.2
3- متقلب المزاج	1.92	38.4
4- يتوتر في المواقف الصعبة	2.53	50.6
5- يتميز بالرزانة	4.02	80.4
6- يغضب من انتقادات مرؤوسيه له	2.10	42
7- يقلق بشدة على المستقبل	4.02	80.4
8- يفرح لنجاح مرؤوسيه في تحقيق الأهداف المسطرة	4.17	83.4
9- يتضايق من المشاكل الفجائية	3.41	68.2
10- يخفي غضبه عند خيبة أمله	3.51	70.2
11- أناني	0.84	16.8
التقدير الكلي للسمات الانفعالية	3.20	64

من خلال بيانات الجدول يتضح أن التقدير الكلي لدرجة أهمية سمات القائد الانفعالية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة تحصل على وسط مرجح يقدر بـ 3.20 ووزن مئوي يقدر بـ 64 والذي يدل على أن السمات الانفعالية ذات أهمية متوسطةوهو ما يفرض ضرورة تجنب القادة لبعض السمات كالأنانية مثلا التي تعيق تحقيق تماسك الجماعة وتحقيق الأهداف العامة للمؤسسة لأن القائد الذي يتصف بسمة الأنانية تمنعه من أن يرى شيئا إلا لمصلحته الخاصة، متناسيا مصالح الآخرين،ولا يهتم إلا بمنفعته وأهدافه الخاصة على حساب مرؤوسيه، وبهذا يكون من البديهي أن تكون راحة ورضا أتباعه أو عملائه قبل راحته لأن القائد الحقيق هو من يضع حاجات ورضا غيره في قمة سلم الأولويات انطلاقا من أن تحقيق رضا العميل الداخلي أو الخارجي هي أحد أهم الركائز التي تقوم عليها إدارة الجودة الشاملة، وفي مقابل ذلك يستلزمأنيتميز القائد ببعض السمات الأخرى كالرزانة، والاتزان والثقة بالنفس والقدرة على ضبطها فهي تمكنه من أن يستجيب بثبات للمثيرات المختلفة،

وعدم الخضوع للضغوط، كما تساعده على تقبل النقد من المرؤوسين دون انفعال وغضب وتجعله ميالا للتفاهم وتمكنه من مواجهة الأزمات متى ظهرت وتمنعه من الوقوع في الخطأ نتيجة التوتر والتسرع كما تمنعه من الانحياز عن الثبات والصواب الذي يعيقتحقيق الأهداف المنشودة.

6-4-عرض ومناقشة النتائج المتعلقة بتقديرات إطارات المؤسسة الصناعية AMCلدرجة أهمية السمات الفرعية المتضمنة للسمة الرئيسية المتعلقة بسمات القائد الاجتماعية.

جدول رقم 05 يوضح تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC لسمات القائد الاجتماعية

سمات اجتماعية	الوسط المرجح	الوسط المئوي
1- منصف في معاملة مرؤوسيه	4.41	88.2
2- صادق في وعوده لعملائه	4.53	90.6
3- يحترم كل مرؤوسيه	4.43	88.6
4- انطوائي	1.28	25.6
5- مهذب في تعامله مع من حوله	4.28	85.6
6- يثق في مرؤوسيه	4.17	83.4
7- يعمل بروح الفريق	4.64	92.8
8- متسامح مع من يخطئ في أداء عمله	3.20	64
9- يتفاعل مع أفراد جماعة العمل	4.51	90.2
10- رقيب على تماسك أعضاء جماعة العمل	4.58	91.6
11- متواضع	4.56	91.2
التقدير الكلي للسمات الاجتماعية	4.05	81

يتضح لنا من خلال بيانات الجدول أن التقدير الكلي لدرجة أهمية سمات القائد الاجتماعية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة تحصل على وسط مرجح يقدر بـ 4.05 ووزن مئوي يقدر بـ 81 والذي يدل على أن السمات الاجتماعية ذات أهمية كبيرة كونها من العوامل التي تشعر المرؤوسين بالراحة والاطمئنان والعناية والاهتمام باعتبارهم أهم عناصر الإنتاج، والمورد الرئيسي

والوحيد القادر على تحقيق الأهداف وتعزيز الموقع التنافسي للمؤسسة هذا من جهة، إضافةإلى أن اتسام القائد بالصدق والتسامح والإنصاف والتواضع... يجعله موضع احترام وتقدير من قبل مرؤوسيه وحتى عملائه . وبهذا يمكن القول أن من أهم التحديات التي تحقق نجاح تطبيق إدارة الجودة الشاملة بالمؤسسة هو خلق بيئة تنظيمية تسودها علاقة التعاون والمحبة والاحترام والعضوية والثقة بين كل من القائد وأتباعه والأخذ بمفهوم العمل الجماعي وروح الفريق وإدراك أهمية العنصر البشري بين مختلف الموارد المتاحة وأهمية الاستثمار الأمثل فيه باعتباره رأس مال لا يمكن الاستغناء عنه والطاقة المحركة لسير العمل بشكل خاص وتحقيق أهداف المؤسسة بشكل عام من خلال منحه بعض السلطات وتمكينه من الحصول على الثقة والحرية الكافية، لاستكمال أداء مهام معينة والعمل على إشراكه في اتخاذ بعض القرارات وحل المشكلات وتشجيعه على إبداء أرائه وأفكاره خاصة الإبداعية والجديدة منها لأن هذه الأخيرة هي من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها أي مؤسسة تحترم مبادئ إدارة الجودة الشاملة، وتسعى إلى تحقيق رضا زبائنها، في حين أن سمة الانطوائية هي من السمات الغير المهمة في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة لأنها تولد نوعا من عدم الثقة والوضوح والتواصل والحوار والانسجام بين القائد وأتباعه وهو ما يعكس متطلبات تطبيق إدارة الجودة والذي يعود سلبا على إمكانية تحقيق الأداء المطلوب والجودة المرغوبة والأهداف المسطرة لذا ينبغي أن يكون قائد المؤسسة انبساطيا ومنفتحا اجتماعية محافظا ... في ظل ما أكدته نتائج دراسة إيزنك سنة 1953[24].

خلاصة: في ضوء مناقشة نتائج الدراسة يمكن عرض أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة بناءا على التقدير الكلي لدرجة أهمية السمات الجسمية، العقلية، الانفعالية والاجتماعية للقائد في الجدول التالي:

جدول رقم 06يوضح أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة

السمات الرئيسية	أهم السمات الفرعية
السمات العقلية	الذكاء، الإبداع، اللباقة اللغوية، الكفاءة، المهارة، الجرأة، المثابرة، الطموح المعرفة والثقافة الواسعة، تنظيم العمل.
السمات الاجتماعية	الصدق، الاحترام، التسامح، التواضع، التفاعل، العمل بروح الفريق

السمات الجسمية	الحيوية، الصحة الجسمية، السلامة العضوية، اللياقة البدنية، المظ المناسب، الخلو من الأمراض والعيوب الجسمية
السمات الانفعالية	الثقة بالنفس، ضبط النفس، الاتزان الانفعالي، الرزانة، عدم المبالغة أوقا الفرح أو الحزن

خاتمة:

في ضوء ما توصلت نتائج دراستنا يمكن القول أن السمات الجسمية، العقلية، الانفعالية والاجتماعية هي أهم السمات الواجب توفرها في القائد في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة لكن بدرجات متفاوتة وهذا طبعا يتحدد حسب طبيعة كل نشاط وطبيعة هدف كل مؤسسة وهو ما أكدته نتائج تقدير إطارات المؤسسة الصناعية AMC بوجود إخلاف وتفاوت بين درجات أهمية مجموعة هذه السمات بالنسبة لشاغل الوظيفة القيادية في ظل تبني إدارة الجودة الشاملة.

الهوامش:

1 -مدحت محمد أبو النصر: قادة المستقبل القيادة المتميزة الجديدة، ط1، المجموعة العربية للتدريب والنشر،2012، ص179.

2 -عادل يوسف أبو غنيمة: علم النفس العسكري، ط1، دار الأكاديمية للعلوم، مصر،2012، ص.85

3-عادل يوسف أبو غنيمة: نفس المرجع، ص.65

4- علاء محمد سيد قنديل: القيادة الإدارية وإدارة الابتكار، ط1، دار الفكر، الأردن، 2010، ص.16

5- سلامة عبد العظيم حسين: تحديات القيادة الإدارية الفعالة، ط1، دار الفكر، لبنان، 2005، ص20 .

6- رشاد أحمد عبد اللطيف: طريقة تنظيم المجتمع، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2003،ص189 .

7- هاشم فوزي وآخرون: إدارة التعليم الجامعي، مفهوم حديث الفكر الإداري المعاصر، دار الوراق، الأردن، 2009، ص.176

8- عبد العلي الجسماني: علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية، ط1، الدار العربية للعلوم، لبنان، 1994، ص.246

9- أحمد محمد عبد الخالق: الأبعاد الأساسية للشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1998، ص.67

10- سامي محمد الختاتنة وآخرون: مبادئ علم النفس، دار المسيرة، الأردن،2010، ص.257

11- أحلام حسن محمود: سيكولوجية الشخصية، 2008، ص61 .

12- محمد جاسم العبيدي: علم النفس الشخصية، ط1، دار الثقافة، الأردن، 2011، ص.31

13- سامية حمزاوي: نمط شخصية (أ) ونمط شخصية (ب) وعلاقتهما بالضغط المهني، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة سطيف-2- 2013، ص.29

14- عبد المنعم الميلادي: الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2006، ص37

15- محمد جاسم العبيدي: مرجع سابق، ص.32

16- بن عبد الله فوزية: دراسة شخصية المدمن على المخدرات علىكاستجابة للصدمة النفسية، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة سطيف-2- ص25.

17- محسن بن نايف: إستراتيجية نظام الجودة في التعليم، ط1،مكتبة الملك فهد الوطنية،2007، ص16.

18- Jean Brilman : meilleur pratiques de management 2 emetriage , d'organisation. Paris 1998, p103 .

19- أحمد بن عيشاوي: إدارة لجودة الشاملة في المؤسسات الفندقية في الجزائر أطروحة دكتوراه في إدارة الأعمال، جامعة الجزائر، 2008، ص.07

20- Jean Brilman : Les meilleur pratiques de management ,Edition organisation.3 eme.édition Paris 2001, p217 .

21- نواف كنعان: القيادة الإدارية ، دار الثقافة، عمان ، 2006، ص.320

22- محمد السيد أو النيل: علم النفس الاجتماعي عربيا وعالميا، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، 2013، ص493.

23- Good (Cecil) : significant Research on leadership, personnel, vol :XXVII 1951,PP342-343.

24- إبراهيم الشافعي إبراهيم: علم النفس الاجتماعي ومشكلاته الاجتماعية المعاصرة، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 2000، ص161.

أزمة الثقافة عند المهاجرين الجزائريين بفرنسا عبر الأجيال الثلاثة

الأستاذ الدكتور بشير متيجة، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

الملخص: الهجرة هي الانتقال من البلد الأصلي للاستقرار في بلد آخر وهي حركة يتم من خلالها انتقال الأفراد والجماعات من وطنهم الأصلي إلى بلد جديد بما تسمح به ظروف الدول المستقبلة، وبما يخدم الأوضاع الاقتصادية، ومن أسباب الهجرة هو البحث عن مستوى معيشي أفضل وكذلك الهروب من الاضطهاد والفقر والحرب.

Migration is moving from the country of origin to stability in another country; it is a movement through which the mobility of individuals and groups from their country of origin to a new country is permitted under the conditions of receiving countries, and to serve the economic conditions. The main causes of migration are the search for better standard of living, as well as escaping from persecution and poverty and war.

الكلمات المفتاحية: الهجرة migration الوطنية National الأوضاع الإقتصادية Economic conditions، الثقافة the culture المجتمع the society الهوية الثقافية Cultural identity

تعريف الهجرة:

الهجرة هي الانتقال من البلد الأصلي للاستقرار في بلد آخر ويمكن أن نقول بأنها حركة سكانية يتم من خلالها انتقال الأفراد والجماعات من وطنهم الأصلي إلى بلد جديد يختارونه، وذلك لعدة أسباب بما تسمح به ظروف الدول المستقبلة، وبما يخدم الأوضاع الاقتصادية لكل من الدول المستقبلة ودول المنشأ، ومن أسباب الهجرة هو البحث عن مستوى معيشي أفضل وكذلك الهروب من الاضطهاد وانتشار المجاعات أو الحروب.

هجرة الجزائريين إلى فرنسا: تفيد الإحصائيات الرسمية الفرنسية بوجود "حركة هجرة فعلية" من الجزائر الى فرنسا في السنوات الأخيرة التي سبقت اندلا ع الحرب العالمية الأولى.

وقد صدر حديثا كتاب بعنوان "المهاجرون والتمييز العنصري" الجزائريون في فرنسا 1900-1962 للكاتب نيل ماك ماستر، ويعتبر هذا الكتاب أول دراسة شاملة تصدر باللغة الانجليزية حول أقدم هجرة سكانية وأكبرها من العالم الثالث نحو أوروبا.

هذه الدراسة تكشف بعمق العلاقة المتبادلة بين الاستعمار والهجرة، أحد أهداف هذا الكتاب هو مناقشة العمليات التي من خلالها أصبح الجزائريون هدفا للعنصرية والتمييز[1] والتي تعود إلى ما قبل حرب التحرير أي المرحلة المبكرة للاستعمار، فقد بدأ المجتمع الفرنسي يصنف المهاجرين الجزائريين بأنهم غرباء أو دخلاء وكان هذا التطور الاستعماري المبكر الذي نشأ في الفترة الممتدة مابين 1910-1920 قد أسس الجذور العميقة لأنماط الآراء المشوهة وللتهميش والتمييز العنصري الذي استمر ليترك بصماته العميقة في المجتمع الفرنسي وحديثا بدأ المختصون يدركون بأن وضع الأقليات في أوروبا لا يمكن فهمه بشكل جيد إلا بالرجوع إلى المرحلة الأولى من الاستعمار لكشف جذور التمييز العنصري والتهميش.

تاريخ الهجرة السكانية من الجزائر نحو فرنسا يقع إذن ضمن التفاعل المعقد بين عوامل الطرد والجذب، فالأولى نتيجة الاستيلاء واغتصاب الأراضي وانتشار المجاعة في الريف الجزائري المستعمر، والثانية تتمثل في الطلب المتزايد على القوى العاملة غير الماهرة لاستخدامها في الاقتصاد الفرنسي. فاستعمار فرنسا للجزائر كان له تأثير كبير على بنية المجتمع الجزائري التقليدي من خلال الاستيلاء على الأراضي الزراعية، وترحيل القبائل من أماكنها وتحطيم الصناعة الحرفية وفرض الضرائب الثقيلة وإفقار الفلاحين الذين كانوا عرضة للمرض والمجاعة، وبهذه الطريقة "أوجد النظام الاستعماري الفرنسي احتياطا كبيرا من اليد العاملة من المزارعين الفقراء الذين كانوا جاهزين للاستخدام بعد عام 1900 عندما واجه الاقتصاد الفرنسي نقصا فيها"[2]

كانت مرسيليا أول محطة للقادمين الجدد من الجزائر، ومنها سيتجهون نحو المناجم والهياكل الصناعية في باريس وفي الشمال الفرنسي ثم إلى قطاعات أخرى كالبناء والأشغال العمومية، وإلى وظائف أخرى يرفض الفرنسيون الشغل فيها.

ثقافة المقاومة:

المعروف أن المهاجرين الجزائريين في غالبيتهم ينحدرون من الجبال و الأرياف أين كانت الأمية متفشية في أوساطهم بشكل كبير، ويتميزون بثقافة ودين مغايرين ولم يسبق لهم أن تعرفوا على المدينة ومشاكلها من قبل فقد ينبهر معظمهم بشبكة النقل الداخلي والقطارات وقراءة خريطة المترو، فيشكل هذا النظام حالة ثقافية جديدة ليس من السهل التحكم فيها[3] ولم تكن عملية الاندماج والتأقلم مع الوضع الجديد أمرا بسيطا فالجموع المتدفقة من العائلات والعمال لم يكن لها اختيار سوى الإقامة في مجمعات أنشئت على أطراف المدن الكبرى بيوت قصديرية أو مساكن هشة، لا تتوفر فيها أدنى شروط الحياة، فأقل ما يقال عنها أن الحياة فيها جحيم.

بقي المهاجرون الجزائريون مهمشين في المجتمع الفرنسي رغم التاريخ الطويل لهجرتهم ويمكن أن يعزى ذلك إلى أنهم كانوا هدفا للعنصرية، وهناك جملة من العوامل ساعدت على تأكيد عزلة الجزائريين، فهم لم يبدأوا بعملية التواصل بالمجتمع الفرنسي عند وصولهم إلى فرنسا، بل كان لهم اتصال سابق بالفرنسيين في الجزائر لمدة طويلة وكرد فعل للسيطرة الاستعمارية التي اتسمت بالاستغلال والاضطهاد، بنى المهاجرون الجزائريون نطاقا من آليات الدفاع عن الهوية الوطنية تشمل إبقاء الحدود الاجتماعية والثقافية متميزة بشكل جذري مع المجتمع الفرنسي فعلى سبيل المثال الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيين كواحد من المؤشرات الأكثر حساسية للحفاظ على الهوية كان في الغالب غير موجود [4] وهناك عامل آخر ساعد على مقاومة الجالية الجزائرية للذوبان في المجتمع الفرنسي هو النمط الدوري للهجرة، حيث بقي الجزائريون يتحركون بشكل ثابت بين فرنسا وقراهم الأصلية في الجزائر ولم يعتبروا هجرتهم بالدائمة وظلوا يكررون لأبنائهم أن عودتهم إلى أرض الوطن أمر حتمي، واعتبرت فرنسا لمدة طويلة أن الهجرة هي ظاهرة مؤقتة لا يمكن التعامل معها إلا بالوسائل المؤقتة ففي سنة 1970 فقط تم القضاء على المجمعات القصديرية وترحيل العائلات إلى سكنات عبور ولم يقض بصفة نهائية على هذه السكنات إلا في سنة 1985.

إشكالية الاندماج الثقافي:

ظل الكثير من المهاجرين في حالة تفكير مستمرة بالعودة إلى أرض الوطن وبعضهم يعتقد أن هجرتهم طارئة وغير دائمة، وبهذا يبقى المهاجر في حالة صراع مع ثقافة البلد المستقبل حتى تتحقق عودته، بينما هناك من اتخذ القرار وحسم الأمر بالبقاء والاستقراء لأسباب عدة منها تفرع

العائلة وزواج الأبناء بأرض المهجر، والتفكير في مستقبل الأبناء الدراسي في المهجر أكثر ضمانا لما يحصلون عليه من فرص تعليمية ومساعدات دراسية.

الاختلاف بين الأجيال:

رغم تلاحم العائلات الجزائرية إلا أننا نلاحظ أن الهجرة تنقسم إلى ثلاث مستويات هي:

الجيل الأول: الذي يشعر بصعوبة الاندماج الثقافي نتيجة تشبعه بالهوية الثقافية للبلد الأصلي، حيث بقي مرتبطا مع البلد الأصلي والأسرة والقبيلة وكل ما يربطه بالوطن.

الجيل الثاني: يمثلون أبناء المهاجرين وهؤلاء يعيشون حالة مقارنة بين الثقافة الأصلية وثقافة بلد الإقامة ويكونون أكثر اقترابا من الثقافة الجديدة، لكن مع الأسف لا يأخذون من ثقافة البلد المستقبل إلا ما هو سطحي لا ينفعهم بشيء.

الجيل الثالث: يمثله الأطفال الذين ولدوا في بلد المهجر، وهؤلاء يكونون أكثر تمردًا على الثقافة الأصلية وثقافة البلد المستقبل، وهو ما يلخصه الكاتب الجزائري صياد عبد المالك في كتابه "الغياب المزدوج".

ويصبح تناول الثقافة الأصلية للمهاجرين وأبنائهم أكثر تعقدا ليس بسبب تعقد المفهوم نفسه وضخامة المهمة وإنما كذلك بسبب الغموض الذي تتصف به بعض المقاربات والافتراضات المنهجية والابستيمولوجية والإيديولوجية التي تقتضي استعمالها.

وهذا الاستدلال، إن كان صعبا على المهاجرين الراشدين فهو أصعب بالنسبة لأبنائهم ويعبر عن هذه الصعوبة معطى أساسيا في النقاش الذي يدور حول الهجرة والذي يتناول فيه الخطاب الذي يصنع الهوية كظاهرة ثقافية بينما يندرج في الواقع في مجال قائم على مكونات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، من هذا المنظور لا يهم إنتاج تعريف جيد "للثقافة الأصلية للمهاجرين" التي توضحها جميع الالتباسات التي يقوم عليها استعمالها وهكذا نجد أنفسنا أمام سلسلة من التساؤلات أكثر من سلسلة تعاريف وفي الأصل، "فان فرضية الارتباط الثقافي ترجع إلى نظرية الثقافة الأصلية والثقافة الثانية، وهي تستدعي مفهوم الازدواج الثقافي" وتحاول إخفاء الواقع الثقافي لأبناء المهاجرين وإذا طبقناها مثلا على الطفل الجزائري المغترب فإنها تبدو غير كافية وينجر

عن ذلك إذن سلسلة من الصعوبات وتعترضنا جملة من التساؤلات المعقدة، هل الطفل الجزائري المغترب مزدوج الثقافة؟

وإذا كان كذلك فما هو نوع الازدواج؟ وما هي الثقافة الأصلية؟ هل هي الثقافة الأصلية العائلية، أم تلك التي تدرس في حصص العربية؟ وما هي العلاقة بين الوضعيات، وعلاقة هذه الوضعيات بثقافة البلد المستقبل؟ هل هي أشكال مختلفة، لثقافات أم لمستويات ثقافية؟ وما هي علاقة الطفل بكل هذه المستويات؟

ويعد الخطاب حول الثقافة الأصلية لأبناء المهاجرين نفسه حبيسا لتناقض مزدوج لتحديد انتماء هؤلاء هل يمكن اعتماد البعد القانوني أم الاجتماعي أم التاريخي أم الثقافي؟ هل يمكن أن نتحدث عنهم كأنهم فرنسيون باعتبار أنهم ولدوا وتربوا بفرنسا، فهم فرنسيون من الناحية القانونية، بينما ليسوا فرنسيين ثقافيا إلا بصفة جزئية؟ وإلا هل يجب تماثلهم لآبائهم؟ وكيف يمكن أن يقترب هؤلاء الأطفال من ثقافة الآباء أكثر من ثقافة المجتمع الكلي الذين يعيشون فيه؟ أو ليس الحديث عن الثقافة الأصلية إلا ذريعة لإبقائهم في الهجرة والتغريب؟ ما هي إذن حدود الماضي الذي ينبغي الرجوع إليه في تعريف ثقافة الشباب المنحدر من الهجرة؟ ما هي حدوده مع الثقافتين، ثقافة الآباء وثقافة البلد المستقبل؟ ويصطدم أيضا الخطاب عن الثقافة الأصلية لهؤلاء الشباب، وليس بمشكلة أخرى، تتمثل في ظهور موقف جديد، هو موقف البحث عن الهوية، والمسلك لهؤلاء الشباب وليس إعادة النظر في النموذج الثقافي المسيطر الذي كان في الماضي هو الوحيد المقبول، وبالتالي تصبح المجابهة أكثر فأكثر مع النظامين[5] الثقافيين اللذين ينتمي إليهما الشباب وفي هذه الحال، هل هناك هيكلة عميقة للهوية الثقافية للشباب؟ وكيف يمكن تأقلمهم بعالمهم الغامض لأنه متعدد ومتناقض؟ وفي إطار تعليم اللغات والثقافات الأصلية هل هناك تغيير في كيفية تصور الهوية والثقافة لهؤلاء الشباب؟ وكيف يمكن أن تصدر مقارنة تأخذ بعين الاعتبار كل أبعاد الثقافة، في حين أن الوقائع الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي يعيشها الشباب في تغير؟

إن الثقافة والهوية هما من طبيعة دينامية متعددة، دينامية لأنه يستحيل أن تجد عنصرا ثقافيا تشارك فيه كل أعضاء مجتمع معين منذ نشأته، "إن الثقافات تنمو وتتغير، فهي تستبعد بعض

العناصر وتكسب أخرى خلال تاريخها، أما الهوية لا تثبت ولا تتم نهائيا كما يكون الأمر بالنسبة لنوع من ركيزة الشخصية أو أي شيْ جامد لا يتغير"[6]

إن الثقافة والهوية متعددتان، لأن مشكلة التنوع لا تطرح بالنسبة للثقافات في علاقاتها المتبادلة فقط، إنما يوجد في كل مجتمع تنوع داخلي، والتركيز على ثقافة واحدة ووحيدة كالتعلق بهوية واحدة ووحيدة فيما يخص هؤلاء الشباب، كما يحدث ذلك عموما، يفقد أكثر فأكثر من معناه؟ إن الهوية الثقافية للشباب المنحدر من الهجرة لا يمكن تصورها خارج الزمن والتغيير، ولا بعيدا عن الجاهات الدائمة بين الهويات المتقابلة وشبكات العلاقات التي تربط بينهما، ويندد الباحث ديفرو DEVREUX بخطورة تفوق هوية على كل الأخريات.

إن البعد التعددي لثقافة الشباب المنحدر من الهجرة لا ينبغي تصوره بصفة جامدة، لأنه ليس عبارة عن تكديس عناصر الثقافات المتقابلة (الثقافة العائلية وثقافة البلد المستقبل) وإنما هو نتيجة سيرورة ناشطة لهذه العلاقة، سواء أكان ذلك في المجابهة أو في التشابه، وعلى نطاق أعم.

وفي الحقيقة يواجه المهاجرون الجزائريون على اختلاف مستوياتهم صعوبات عدة في الاندماج مع مجتمع فرنسي يسمي نفسه بالمتحضر ويحمل شعار الأخوة والمساواة.

ومازال ينظر إلى هؤلاء المهاجرين بكثير من الريبة والقلق والعنصرية مما دفع أبناء المهاجرين إلى التمرد وضرب الحائط كل ما يصنفهم مع هذا المجتمع وراحوا يبحثون عن مجتمع مواز بديل كاختيارهم للغة الفارلون "verlan".

"**الفرلون**" le verlan لهجة قديمة كانت متداولة بين الأشرار " malfaiteurs"، اليوم أصبحت لغة الخطاب التي يستعملها شباب الضواحي والتي تميزهم عن غيرهم.

le verlan أصبح اليوم ظاهرة لها طابع اجتماعي لغوي حقيقي ، فمن جهة الخطاب نجد أن هذه اللهجة تتميز بالسهولة و الخروج عن المألوف و عدم التقيد بأية قواعد والاختصار في الجمل هذا عند شباب الطبقة الكادحة خاصة منهم المنحدرون من الهجرة، بالمقابل نجد المراهقين أبناء الطبقة البرجوازية لهم موقف مغاير من هذه اللهجة فهم يعتبرونها غير فرنسية، لهجة منحطة لا قيمة لها.

يبقى الفرلون" le verlan» يجذب أبناء المهاجرين وعند استعماله يشعرون بالتقليل من الموانع التي يفرضها المجتمع، وكأنهم وجدوا وسيلة تمكنهم من التعبير المغاير تجاه الكبار.

في السنوات الأخيرة انتشر الفرلون"le verlan" بشكل كبير في الضواحي الفقيرة الباريسية ويزداد توسعا في أوساط الجاليات المهاجرة.

الفرلون لعبة لغوية ام تميز شخصي:

قديما كان الفرلون مجرد تلاعب بالألفاظ، لكن اليوم أصبح ظاهرة اجتماعية لغوية حقيقية، فمن جهة اللغة "الفرلون" يظهر فعالية اللهجة لأنها تختصر الكلمات مقارنة بمعجم لهجات أخرى ، الفرلون لعبة معقدة يختفي وراء العبارات المقلوبة ذات الحروف البسيطة والمطاوعة والرهيبة تجعل الفرلون قابلا للابتكار، فهو يشتغل على كل إمكانيات اللغة المنطوقة للتشويش وجعل التعبير غير مفهوم، على غير العارفين بهذا النوع من اللهجة، بعض اللسانيين يؤكد على الاستعمال الهزلي "للفرلون" عند الشباب بدل استعماله كمعجم، مايسميه " bachman et basier" "سذاجة الترويض اللغوي."

في السنوات الأخيرة، انتشر الفرلون بشكل ملفت للانتباه، وأصبح يأخذ مكانا خارج التجمعات السكانية فانتشار هذا النوع من اللهجة بين الشباب المهاجر أصبح له قيمة تواصلية للتعبير عن تهميشهم، وعن شعورهم بالرفض من المجتمع، وكذلك عن تمسكهم بالهوية الفرنسية، هذه الخاصية تجعلهم يميلون إلى استعمال الفرلون للتموقع بين ثقافة أبائهم التي لا يمتلكونها وبين الثقافة الفرنسية التي مازالوا لم يندمجوا معها.

إن السمات الخاصة للفرلون تظهر في خصوصية استعماله، أولا المحتوى في حد ذاته، من يستعمل الفرلون، فهو يغير لغة الشارع، لغة الفناء، وأيضا هو أسلوب عنف يعبر عن الحياة اليومية التي تتميز أحيانا بالضوابط وأحيانا أخرى بالعنف فالألفاظ القبيحة هي العناصر المتداولة في التخاطب بين الشباب مع استثارة مستعملي الفرنسية السليمة كما يقول «godailler» صورة التماثل تصبح التعبير عن المأساة التي يعيشها الشباب المنحدر من الهجرة.

وحسب رشيد بقاق هناك ظاهرة مهمة في لغة الضواحي تتمثل في امتلاك الذكور هذه اللهجة دون البنات التي لا تتعامل مع هذا النوع من اللهجة ، هذا الاستعمال المطرد الذي ابتكره مستعملو

هذه اللهجة هذا ما يجعل (mela) يؤكد أنه لهجة الرجال اخترعوها ليتكلموا بها فيما بينهم ويعود رشيد بقاق ليؤكد هو الآخر بملاحظة مماثلة "فمن الناحية السيكولوجية ، نجد لغة شباب الضواحي، توظف كتعبير عن الرجولة، عالم لا تدخله النساء وأن اللغة الفرنسية العادية هي لغة الإناث، ونجد الكثير من الاجتماعيين اللغويين قد بينوا أهمية الجنس في الاستعمال.

بالنسبة لتنوع صورة التخاطب بالفرلون، حقيقة أن بعض المختصين ومنهم (mela) يشير إلى أن الفرلون ليس لغة تخاطب وحيدة ومتجانسة وتتغير من حي إلى أخر حسب التشكيلة السكانية ومن جهته أكد "goodailler" بأنه اللهجة الخاصة بكل جالية متحدثا عن البروز التاريخي لنوع من المعجم القاعدي الذي يوحد بين جميع الأحياء، فيشير إلى أن هناك نوعًا من التعابير تتغير من حي إلى أخر ، هذا الاختلاف هو نتيجة الانتماء الأصولي للمتكلمين، أما بالنسبة للباحث آيت سي سليمان فيلاحظ انه من الممكن أن نميز بين السمات المتشابهة التي تسمح بالتخاطب بين الشباب بلغة واحدة ولكن في الحقيقة هو مجموعة من الأصناف تبين كل واحدة منها في الاختلافات الموجودة بين أفواج الشباب، مع الإشارة أن أغلب الأحياء متعددة الجنسيات كما يؤكده Herve vieillard فنجد 82 جنسية تتعايش في مدينة سرسال وحدها على سبيل المثال كنموذج سكاني للجاليات المهاجرة التي تعيش في الضواحي الفرنسية.

ويمكن أن نقول أنه رغم حرص أساتذة اللغة الفرنسية الذين يبذلون جهدا لترسيخ اللغة الجميلة سواء قواعدها النحوية أو استعمالاتها الوظيفية، فانه لا يمكن أن نتجاهل أن هناك لغة فرنسية مستعملة في الحياة اليومية وخاصة في أوساط الشباب المنحدر من الهجرة.

فاختصار الكلمات أو تقليبها هي السمة التي يتميز بها "الفرلون".

فكلمة "فرلون" "verlan" تعني باختصار قلب الكلمة (ver-lan) أ+ب يتحول إلى ب+أ بمعنى (LANVER) أي معكوس، وهذه بعض النماذج من الكلمات المقلوبة:

-BIZARRE>ZARBI
-Laisse Tombé>Laisse béton
-Louche>chelou
-Femme>Meuf
-Je m'en fou>j'm'en ouf
-Fou>ouf
-FLIC>Keuf

-Arabe>BEURE
-NOIR>RENOI
-Français>CEFRON….

"الفرلون" وغيرها من اللهجات الأخرى، أصبحت في فرنسا عبارة عن لعبة لغوية تمثل موضوعات للتحاليل التي تعرفها القواعد النحوية، وكذلك صارت أساليب للمخاطبة والتعبير عادة ما يستثمر لأغراض فنية في الكثير من الأفلام والروايات، وليس من العجب إذا لاحظنا أن الموضوع مازال يغذي الأعمال اللغوية واهتمام المعاجم الحديثة (مثل godailler2001،1997) وتحليل الكلمات الدخيلة على اللغة الفرنسية من مختلف لهجات الجاليات المقيمة بفرنسا خاصة العربية منها.

الخلاصة: إن حالة الاندماج الثقافي تكشف عن وجود اتجاهين رئيسيين هما:

الاتجاه الأول: محاولة غلق الأبواب أمام المهاجرين وبالخصوص الجزائريين وعزلهم عن المجتمع وعدم إتاحة الفرص أمامهم وهذا يتجلى في مواقف الأحزاب المتشددة والشخصيات المتطرفة، وغيرهم ممن يعارضون وجود جزائريين على التراب الفرنسي، ويقفون حجر عثرة أمام نشاطاتهم، أو الممارسات الثقافية التي تهدف للتقارب والتفاعل مع ثقافة البلد المستقبل.

الاتجاه الثاني: هو اتجاه يدعو إلى التفاعل وإشراك المهاجرين في النشاطات المتنوعة، ولكن هنا تبرز مشاكل جديدة تتمثل في ضعف البرامج المخصصة للاندماج وقلة الدعم للمشاريع الثقافية المقدمة من طرف جمعيات المهاجرين مقارنة مع المشاريع الفرنسية التي تنصب في ذات التوجه ولابد من البحث عن أساليب جديدة ضمن التخطيط الثقافي للهجات المشرفة على الثقافة بما يستوعب نشاطات المهاجرين، إلا أن حجم النشاطات يبدو جد قليل مقارنة مع متطلبات الواقع، وأن تغير فرنسا سياستها تجاه الهجرة وان تتوقف على ممارسة العزل الثقافي والتعامل مع سكان الضواحي من المهاجرين وفق حالة التهميش، واعتبارهم مناطق غير مهمة، وأن تدرك إن المهاجرين لهم ثقافات متنوعة تكاد تتناقض إلى حد بعيد مع ثقافة بلد المهجر، ولذا لابد من الاعتراف بالهويات الثقافية والتعرف على خصوصيات المهاجرين بصورة علمية منظمة، بعيدا عن الاستيلاء عليها وقبولها وإتاحة الفرصة لتقديمها وفق أشكال وأساليب ثقافية مختلفة.

الهوامش:

[1] - نيل مايك ماستر،المهاجرون والتميز العنصري، ص21.

[2]- نيل مايك ماستر، المهاجرون والتميز العنصري، ص37.

[3]- برهان غليوان، تساؤلات حول الهوية العربية دار بدايات 2008.

[4]- نيل ماك ماستر، المهاجرون و التمييز العنصري الجزائريون أنموذجا 1900.

[5] - J-FRANCIS, à quelles conditions un dialogue entre les cultures est-il possible ? page 21.

[6] - Abdou-SADAG, Génération issue de l'immigration mémoires et devenir, page11.

المراجع:

-نيل ماك ماستر ، المهاجرون و التمييز العنصري الجزائريون أنموذجا 1900

-دار النشر ماكميلان ، بريطانيا ودار مارتينس ، الولايات المتحدة 2013

-برهان غليوان ، تساؤلات حول الهوية العربية دار بدايات 2008

-حميد الهاشمي ، مشاكل المهاجرين العرب و إشكاليات الاندماج الاجتماعي في الغرب ، مجلة العلوم الإنسانية المغرب العدد 30.

-B.METIDJA , Enseignement des langues et cultures d'origine
Edition, l'harmattan2011

-J.FRANCIS , Quelles conditions un dialogue entre les cultures est-il possible ?

-ABOU-SADA, Génération issue de l'immigration, mémoires et devenir ed, arcontre 1986.

-R ,BEGAG (2000) l'enfermement linguistique ou la langue des banlieus comme facteur d'assignation social ».

-J.P, GOODAILLER (2001) comment a tu tchatches dictionnaire du français contemporain des cités, paris maison neuve et la rose.

-V,MELA (1997) « verlan 2000 » langue française 114,pp.16.34.

كفاءة معلم المرحلة الابتدائية

في التدريس بالمقاربة بالكفاءات

الأستاذ وليد العيد، جامعة الجزائر 2

الملخص:

هدفت الدراسة إلى تقييم كفاءة المعلم التربوية في الجوانب التعليمية التالية: كفاءة المادة الدراسية، كفاءة أساليب التدريس ومهاراتها، وكفاءة التقويم ومهاراته، وهي وسيلة تعتمد على ترتيب مهارات كل كفاءة بشكليتناسب مع تسلسل العملية التربوية خلال إنجاز الكفاءات التعليمية، ويمكن أن تستغل هذه الوسيلة في تصنيف المعلمين والأساتذة لمعرفة الذين يحتاجون إلى إعادة التأهيل من جديد، وتحسين كفاءاتهم الأدائية في الفضاء التعلمي.

كما تشير نتائج الدراسة إلى أن الكفاءة المهنية لأغلبية المعلمين من العينتين المستهدفتين ببحثنا دون مراعاة جنسهم ومستواهم التعليمي أو خبرتهم المهنية أو تكوينهم وطريقة توظيفهم تصل إلى درجة فوق المتوسط، وهذا من خلال تطبيق مقياس الكفاءة المهنية على عينة حجمها (**211**) معلما ومعلمة، ومقياس كفاءة الأداء التربوي من وجهة نظر السادة مفتشي التربية والتعليم الابتدائي، على عينة حجمها (**229**) معلما ومعلمة.

وباستخدام اختبار(**T**) لعينة واحدة تبين أن المعلمين قادرين على التدريس بالمقاربة بالكفاءات، بالرغم من درجة كفاءتهم التي هي فوق المتوسط، وبتطبيق اختبار **T test** تبين أن مستوى الكفاءة المهنية لا يتأثر بنوع التكوين، وهذا خلافا لما توصلت إليه الدراسات الميدانية السابقة بمؤسسات إعدادالمعلم، اما متغير الجنس ليس له علاقة بكفاءة التدريس، وهي نتيجة تدعونا إلى مزيد من البحث، لان اكتساب الكفاءة لا يقتصر على الطبيعة التكوينية للجنسين، وإنما يقتصر على الميول والاتجاهات نحو مهنة التعليم أو يقتصر على طبيعة إستراتجية التعليم ببلادنا.

وعند استخدام تحليل التباين احادي الاتجاه**ANOVA ONE WAY** تبين أن الخبرة المهنية بمستوياتها المختلفة والمستوى التعليمي بمختلف مراحله، لا يؤثران في كفاءة التدريس، وهذا خلافا للدراسات الميدانية السابقة التي أجراها كل من علماء النفس وعلماء التربية، مما يقودنا

إلى إعادة النظر في المشروع التربوي ككل ويحتم علينا ايضا إعادة تغيير إستراتيجية إصلاح التعليم ببلادنا.

Abstract: This study sets out to evaluate the educational competency of the teacher in the following aspects : efficiency of courses, efficiency of teaching methods and skills, evaluation and skills efficiency. It is a way that depends on the skills classification of each efficiency that fits the educational process through the achievement of didactic competencies. Moreover, this tool can be used to classify teachers and institutors to know who need rehabilitation again and improve their performing skills in the learning field.

Through the application of the professional competence scale on a sample of 211 teachers, and the educational performance efficiency scale according to the inspectors of primary education on a sample of 229 teachers, it's concluded that the results of the study indicate that the professionalism of the majority of the teachers from the two samples regardless their gender , their academic level , their professional experience or their training and their method of employment is up to the average.

Using the test (**T**) for one sample showing that teachers are able to use competency based approach, despite of their proficiency degree. By the application of **Ttest**, it is pointed out that the professional competence level is not affected by the formation type, contrary to the previous studies concerning the formation of the teacher; however, the sex variable has no relation with the teaching efficiency as acquiring a competence is not limited to the formative nature of the sexes, but limited to the tendencies and trends towards the teaching profession or limited to the teaching strategies in our country.

When using the **ANOVA ONE WAY**, it is pointed out that professional experience in its various levels and the educational level in various stages, does not affect the efficiency of teaching, and that unlike the previous researches conducted by pedagogues and psychologists, which leads us to reconsider the educational project, It also requires re-change the education reform strategy in our country.

مقدمة:

المدرسة الجزائرية مطالبة بتجديد مناهجها، خاصة أن البرامج المطبقة يعود تصميم أهدافها وتحديد محتوياتها إلى عقود خلت، وهي بذلك لا تواكب التقدم العلمي والمعرفي الذي أحدثته التقنيات الحديثة في الإعلام والاتصال، وقد عرف المجتمع الجزائري تغيرات سياسية واجتماعية

وثقافية عميقة، غيرت فلسفته الاجتماعية وفتحت أمامه طموحات مشروعة للتقدم والرقي في ظل العدالة والمواطنة المسؤولة، التي تكون فيها روح المبادرة والبحث عن النجاعة في التغيير الاجتماعي.

لذا فان تغيير البرامج التعليمية وتحديد محتوياتها أضحت تفرض نفسها، خاصة وأن عولمة المبادلات تملي على المجتمعات تحديات جديدة لن ترفع إلا بالإعداد الجيد والتربية الناجعة للأجيال، ويتكرر اليوم نفس الهاجس ونفس التهيب والخوف من بيداغوجية التدريس بالمقاربة بالكفاءات، الذي جاء مصححا ومتمما لبيداغوجيا الأهداف والمعبر عنه بالإصلاح الجديد، فقد استصعبه المعلمون في البداية بالرغم من التوضيحات والشروح المقدمة لهم من قبل المؤطرين أثناء حلقات التكوين.

وتبني المقاربة بالكفاءات لا يعني وضع المعرفة في المقام الأول، وإنما التنبيه إلى تجنب حشو أذهان المتعلمين بها، وبعبارة أدق الابتعاد عن المعرفة الوظيفية التي لا يمكن تسخيرها أو استثمارها بشكل مجد ومفيد لحل وضعيات أو مشكلات مرتبطة بالواقع، وهذا كله نتج عن أثر المذهب النفعي في التربية الذي يتزعمه المربي الأمريكي[1] مبتكرا لطريقة العمل بالمشاريع، وأسلوب حل المشكلات في التعليم.

ومن هذا المنطلق فان التحديات التي تواجه المؤسسات التربوية لهي كبيرة دون شك، إذ أنها تتطلع بدور تكوين الناشئة تكوينا يتناسب معا لتطور الموازي للتقدم التكنولوجي، ومن هنا تحتل بمفهومها الشامل مكانة الصدارة لكافة المجتمعات متقدمها وناميها على السواء، ومن ثم لا عجب أن تحتل قضية إعداد المعلم المكانة الكبرى والأهمية القصوى في الخطاب السياسي والتربوي والجماهيري، لذا فان نوعية المعلم هي المفتاح الذي يضمن للتعلم بلوغ أهدافه ومقاصده، تأسيسا للمقولة التربوية التي تؤكد انه لا يمكن لأي نظام من تعليم أن يرتقي أعلى من مستوى المعلمين[2].

ومع بداية حقبة الثمانينات من القرن العشرين شهدت العديد من الدول تحولا في اتجاهاتها نحو العملية التعليمية –التعلّمية، وبدأ التعلّم يتحرك صاعدا في سلّم الأولويات ليصبح العنصر الجوهري كمفهوم جديد للأمن الوطني، ذلك أن تقدم الأمم يقاس بمستوى تعلم أبنائها، ومن يملك العلم والمعلومات يملك القوة الاقتصادية ليصبح السباق الدولي سباقا تعليميا في المقام الأول لإعداد

المعلم وكفاءته، لأنه من أبرز المسائل مثارا للاهتمام والنقاش حسبما تشير كافة المؤتمرات والدراسات والمنتديات والتقارير بدء من تقرير بوير3. إلى تقرير ملامسة المستقبل سنة 1999.

وليس من قبيل الصدفة أن تعقد حلقة نقاشية ضمت 36 عضوا من رؤساء الجامعات، ومن المتخصصين في شؤون التربية بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث انتهى المناقشون إلى إصدار التقرير المرسوم بملامسة المستقبل تحت عنوان (تغيير الطريقة التي نعد بها المعلمين3 والذي انتقد بشدة كليات التربية في الجامعات الكبرى، لما تفرزه من معلمين لم يتلقوا مقررات علمية متينة، الأمر الذي يتطلب ضرورة إعادة النظر في برنامج إعداد المعلم.

كما أشار التقرير المبدئي لرابطة المعلمين الأمريكية سنة 1993 المشار إليه في[4] إلى ضرورة بذل جهود ايجابية ومهمة للارتقاء بإعداد المعلم ومهنة التعليم، لان واقع المعلم لا يرقى إلى الصورة المنشودة، ويضاف إلى ذلك وجود اعتقاد راسخ تدعمه دراسات أجريت على المستوى الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية، أن كليات إعداد المعلمون، ومهنة إعداد التعليم تجذب الطلبة الضعاف أكاديميا ممن لا تتوافر لديهم فرص مهن أخرى [5].

ومن هذا المنطلق بادرت كلية التربية بجامعة الكويت إلى تبني فكرة إجراء دراسة علمية لتقويم مخرجات كلية التربية[6] وتشكل لهذا الغرض فريق بحثي من أعضاء هيئة التدريس بالكلية، امتد عمله على مدار عامين كاملين، وانتهت الدراسة إلى النتائج التالية:

1-الأداء الفعلي يتأثر بمطالب المسؤولين، ونماذج المعلمين بالمدرسة ثم جهة التخرج.

2-نمو المعلم يتأثر بالتوجيه الذي يتلقاه من المسؤولين بالمؤسسة التربوية.

كما تصف إحدى الدراسات، إجراءات القبول المعمول بها في اليابان[7]. التي تهتم اهتماما كبيرا بحسن اختيار الطلاب الراغبين في الالتحاق بكلية التربية، فتحدد اختبارات مقننة هدفها تقريب مستوى المقبولين لدى الكليات، ويعد النجاح فيها هو المعيار الوحيد للقبول ومن أهمها:

1-اختبارات القبول التحصيلية العامة، اختبارات القبول الخاصة بكلية التربية المقابلات الشخصية، اختبارات المهارات العملية، اختبارات المقال، واختبارات الثقة.

كما تشير بعض الدراسات أن هناك ثلاث عوامل رئيسية لإعداد معلم المستقبل وتتمثل في:

1-حسن اختيار المعلم.

2-انتقائه بالإسناد إلى معايير معينة كمعدل التعليم الثانوي، المقابلة الشخصية، اختبارات القبول، الكشف الطبي، الكشف عن درجة الانتماء إلى المهنة، مهارات النمو المهني، والجانب الفني والعلمي للطالب المعلم[8].

ومن هنا ظهرت صيحات هنا وهناك مفادها وجود ضعف عاما في مخرجات التعليم في كل مراحله التعليمية، ناتج عن ضعف مستوى المعلم الأكاديمي والفني وتدني الرضا المهني لديه، وشيوع فكرة التعليم مهنة لمن لا مهنة له، ومثل هذه الأفكار تمثل نوعا من الضغط على القائمين على أمر إعداد المعلم لإعادة النظر في استراتيجية التعليم وإجراءاته، كما تهدف إلى الارتقاء بمستوى المعلم إلى جانب إصلاح عملية التعليم.

مشكلة البحث:

يشهد التعليم في العصر الراهن تطورات كبيرة في أهدافه، طرائقه، وأساليبه، أفرزتها التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في عصر العولمة الذي نعيش فيه، وعلى المستوى العربي فان ثمة قضية جديرة بالإثبات والتحرير، نابعة من خلال متابعة أدبيات البحث التربوي، وأعمال المؤتمرات والحلقات النقاشية، التي تتمثل في تطوير برامج إعداد المعلم وتحديثها لتواكب الاتجاهات والتطورات الحديثة في نظام إعداد المعلم، والمستجدات العلمية التي تؤكد وجوب نوعية من المعلمين، يملك القدرة على التعلم مدى الحياة وتطوير معارفه ومهاراته باستمرار، مستثمرا الطاقة الكامنة بداخله.

ويستحيل أن يتحقق ذلك في ظل نظام تقليدي يعتمد على التلقين واسترجاع المعارف والمعلومات المقدمة[9] ومنه فان ضرورة تغيير المناهج الدراسية أصبح سمة بارزة في سياسات الدول لتدارك عجلة المعاصرة.

والمقتضيات الأساسية في السياسة التربوية في الجزائر، تفرض هي الأخرى تكريس الأفضل والأكفأ، وتوفير الشروط التي تتيح تفتيق جميع الإمكانات والطاقات، لذلك فإن ثنائية (المنهاج، المعلم) أضحت هي الأخرى انشغالا مطروحا في كثير من الطاولات والمستويات، فقد شكلت الإصلاحات التربوية الجديدة مثار عدة انتقادات، والكلمة الفيصل في ذلك "إنها مستوى ولابد من وصوله".

فلابد من الكف عن التخندق في منهاج الحفظ والصب، فالانشغال الواجب طرحه هو مستوى الأداة الجوهر في بلوغ هذا المستوى ألا وهو المعلم ولا بد للمعلم من التفاني، إن دلالية كلمة التفاني تعكس وعي المعلم برسالته التربوية، كما تعكس رغبته في تطوير مستوياته العطائية والتواصلية، فعولمة التعليم أضحت ككل الورشات تفرض حوارا وتبادلا وتشاركا لا في وجهات النظر فحسب بل وصياغة تكهنات المستقبل.

إن مشروع التدريس بالكفاءات يعتبر بحق أداة لتصحيح مسار العملية التعليمية، التي ظلت ولمدة طويلة تتلمس طريقها في فضاء تتضارب فيه النظريات والمشاريع الإصلاحية، كما أنها لا تنفي السلوكات السابقة، وتقتبس منها الأجرأة والشفافية وشروط الصياغة ومستويات الأهداف المعرفية والحسية والوجدانية، لترجع المواد الدراسية حيويتها التي كادت أن تفقدها، وهذا بوجود كفاءات نوعية خاصة بها، دون إهمال الخطوات المنهجية التي تعتمد على الكفاءات الممتدة، وزيادة التعامل مع المحتويات بشكل وظيفي في تنمية شخصية المتعلم، لأنه يحتل مكان الصدارة في العملية التعليمية بناء على مبادئ التدرج في التعلم.

ومفهوم الاستقلالية الذي يعد بحق أهم المفاهيم المركزية لمدخل التدريس بالكفاءات في تأهيل المتعلم واندماجه في المجتمع، بناء على القدرات والمؤهلات التي تخول له هذه الصفة، ونظرا للصعوبات المرتبكة بعمل الكفاءات، يمتنع بعض المعلمين من اعتمادها بديلا للأهداف السلوكية، لذلك يجب بذل الجهد لإقحام هذا النموذج بدون تردد أو خوف، ما دام الفعل التعليمي يقوم على مبدأ المحاولة والخطأ، ثم يأتي التقويم والتصحيح، ومعلم اليوم هو امتداد لمعلم الأمس فقط المطلوب منه التكيف مع ما هو جديد، والتفاعل إيجابيا بكل إرادة وعزم واجتهاد، للاقتباس من روح العصر التفاني والإصرار والعمل المتواصل.

إن هذه الرؤية تفرض مجازا تجاوز إشكالية كفاءة المعلم، لأنه يعتبر أهم عنصر بشري في تجسيد أهداف الإصلاح، الذي ينبغي أن يتجاوب مع متطلبات النوعية والكفاءة في جوانبها الأكاديمية والبيداغوجية، ومنح المعلم تكوينا يكسبه المعارف التي يحتاجها لكي يتحكم في المضامين المعرفية التي تحتويها المناهج الجديدة، وهذا ما يدفعنا إلى البحث في كفاءة معلم المرحلة الابتدائية في

التدريس بالمقاربة بالكفاءات، وبالرؤية للواقع الجزائري، تتحدد مشكلة الدراسة بالإجابة على الأسئلة الآتية:

1. هل معلم المرحلة الابتدائية قادر على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات؟
2. هل توجد فروق بين المعلمين باعتبار نوع التكوين الذي تلقونه في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات؟
3. هل توجد فروق بين الجنسين (الذكور، الإناث) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات؟
4. هل توجد فروق بين المعلمين باعتبار المستوى التعليمي (عالي، متوسط، بسيط) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات؟
5. هل توجد فروق بين المعلمين باعتبار الخبرة المهنية (العالية، المتوسطة، البسيطة) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات؟

فرضيات البحث:

1. معلم المرحلة الابتدائية قادر على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.
2. يوجد فروق بين المعلمين باعتبار نوع التكوين الذي تلقونه في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.
3. لا يوجد فروق بين الجنسين (الذكور، الإناث) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.
4. لا يوجد فروق بين المعلمين باعتبار المستوى التعليمي (عالي، متوسط، بسيط) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.
5. يوجد فروق بين المعلمين باعتبار الخبرة المهنية (العالية، المتوسطة، البسيطة) في القدرة على التدريس في التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

أهداف البحث: تهدف الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

1. التعرف على قدرة المعلم على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

2. معرفة الفروق بين المعلمين باعتبار نوع التكوين الذي تلقونه في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

3. معرفة الفروق بين الجنسين (الذكور، الإناث) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

4. معرفة الفروق بين المعلمين باعتبار المستوى التعليمي (عالي، متوسط، بسيط) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

5. معرفة الفروق بين المعلمين باعتبار الخبرة المهنية (العالية، المتوسطة، البسيطة) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

6.المساهمة في تطوير التربية والتعليم ببلادنا، حتى يواكب التقدم التكنولوجي الحاصل.

7.البحث عن المعلم الكفء، الذي ينفذ المناهج المقررة، ويحقق الكفاءات يستطيع أن المستهدفة التي تظهر جليا في سلوك المتعلم.

8.تطوير التكوين وإعطائه الأولويات، لتحسين مرد ودية التعليم.

9.تغيير النظرة الإستراتيجية للمؤسسة التربوية، إلى نظرة أكثر شمولية وأكثر فعالية، بتوفير البيئة اللازمة التي تساهم في تطوير التربية والتعليم.

10.تكييف التعليم حسب واقع المتعلم ومتطلبات المجتمع، وفقا لرغبات المتعلم وميولاته وقدراته.

أهمية البحث:

لهذا البحث أهمية كبيرة تتمثل في إيجاد الحلول المناسبة، أثناء سيرورة العملية التربوية ونجاحها لتحقيق الكفاءة اللازمة للمعلم الحالي، حتى يتمكن من تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي والتكيف مع الجديد الحاصل نتيجة التطور التكنولوجي الهائل الذي يفرض علينا مسايرته.

ومن خلال ذلك يمكننا أن نتصور المعلم الذي يملك الكفاءة المؤهلة للتدريس الحديث في البيئة الجزائرية، وهذا ما يفرض علينا نوعية معينة من المعلمين الخاصين بهذه المرحلة، كما يفرض علينا أيضا تطوير التكوين وإعطاءه كل الأولوية، وهذا بتوفير جل الوسائل اللازمة لنجاحه سواء التكوين الأولي أو التكوين أثناء الخدمة، كما تكمن أهمية البحث أيضا في معرفة حجم المناهج المقررة والمعلم المؤهل لتغطية ذلك.

تحديد المفاهيم الإجرائية:

المعلم: هو المرسل الذي يقوم بتنفيذ هذه المناهج عبر الرسالة المناسبة التي تصل إلى المتعلم، وتقريبها إلى أذهانهم وجعلها قابلة للفهم، مراعيا في ذلك خصوصيتهم النفسية والعقلية والوجدانية ويشمل (أستاذ التعليم الابتدائي، أستاذ مجاز رئيسي للتعليم الابتدائي).

المرحلة الابتدائية: هي أهم مرحلة من مراحل التعلم التي يكون فيها المتعلم أبعاد شخصيته، والتي تأتي بعد السنة التحضيرية الغير إلزامية، وهي مقسمة إلى ثلاث أطوار، الأول ويشمل السنة الأولى والثانية، الطور الثاني ويشمل السنة الثالثة والرابعة، والثالث ويشمل السنة الخامسة.

الكفاءة: هي أعلى مستوى يمتلكه المعلم من المعارف والمهارات والقيم والاتجاهات، تجعله قادرا على أداء مهامه التعليمية بمستوى معين من الإتقان يمكن الوصول إليه، وقابل للقياس والملاحظة.

المقاربة: هي تقريب المفاهيم إلى ذهنية المتعلم قصد اكتسابها وتوظيفها واستثمارها في وضعيات مختلفة ومتنوعة.

المنهاج: يشمل كل العمليات التكوينية، التي يساهم فيها المتعلم تحت مسؤولية المدرسة خلال فترة التعلم.

المناهج المقررة في الإصلاح التربوي الجديد: نقصد بها المناهج التي خصت للمرحلة الابتدائية، وتشمل كل المناهج دون استثناء.

الوثيقة المرافقة: تهدف إلى تسهيل مقروئية المناهج الجديدة، وتوضح المبادئ المنهجية والأسس التربوية التي بنيت عليها هذه الأخيرة.

دليل المعلم: هو يرافق كتاب التلميذ، ويتيح له المجال للإبداع، كما يقدم له اقتراحات تربوية وتعليمية، لتسيير الأنشطة المقترحة اعتمادا على المناهج الرسمية.

البرنامج: جزء من المنهاج خلال فترة زمنية محددة وهو متسلسل ومنتظم ومترابط، لتحقيق الكفاءات المسطرة منه.

الخبرة التدريسية للمعلم: هي عدد السنوات التي قضاها في ممارسة مهنة التعليم، وتصنف حسب خصائص عينة البحث إلى خبرة عالية (15 سنة فما فوق)، خبرة متوسطة (10-14) سنة، وخبرة بسيطة (1-9) سنة.

التكوين: هو مجموعة المعارف المتحصل عليها معلمو وأساتذة التعليم الابتدائي، لتطوير كفاءتهم المهنية،سواء في مرحلة التكوين الأولي، التكوين أثناء الخدمة، التكوين عن بعد، أو عبر وسائل الاتصال المتنوعة ، والتكوين المقصود في هذا البحث، هو التكوين الأولي الذي تلقاه المعلمين سواء في المعاهد التكنولوجية للتربية أو الجامعة.

المستوى التعليمي: تم تقسيم درجات المستوى التعليمي إلى، مستوى منخفض وهو اقل من البكالوريا، ومستوى متوسط (بكالوريا، بكالوريا+1، بكالوريا+2، بكالوريا+3) والمستوى العالي ليسانس فما فوق.

الكفاءة المهنية لمعلم المرحلة الابتدائية : اقتصر الباحث على قياس بعض جوانب الكفاءة لدى المعلم، وتمثلت في مدى قدرة المعلم على ترتيب مهارات حسب أولوية وأهمية المهارات في مجال التدريس، وتقاس الكفاءة هنا بمدى قدرة معلم المرحلة الابتدائية على ترتيب المهارات والمقياس المرجعي هنا هو ترتيب معياري معطى من طرف أساتذة جامعيين مختصين في مجال التربية وعلم النفس، واقتصر الباحث على كل من كفاءة المادة الدراسية التي اشتملت على عشرة (**10**) مهارات كفاءة أساليب التدريس التي اشتملت على خمسة عشرة (**15**) مهارة، وكفاءة التقويم التي اشتملت على ستة (**6**) مهارات أعطيت بشكل عشوائي وطلب من معلمي المرحلة الابتدائية أن يرتبوها من الأهم إلى المهم.

منهجية الدراسة وإجراءاتها:

عينة الدراسة:

تتألف عينة الدراسة من (**440**) معلما ومعلمة من مقاطعات مختلفة بالولاية الذين يبلغ عددهم حوالي(**1265**) معلما ومعلمة،وقام الباحث باختيارها بطريقة عشوائية، وقسمت إلى عينتين متكافئتين: الأولى اختبرها الباحث بالاعتماد على مقياس الكفاءة المهنية لمعرفة مدى كفاءة معلم المرحلة الابتدائية ويقدّر حجمها (**211**) معلما(ة)، والثانية اختبرها الباحث بمقياس الأداء التربوي داخل الفضاء التعلّمي لمعرفة كفاءة المعلم من وجهة نظر السادة المفتشين ويقدّر حجمها (**229**) معلما(ة)، ومعرفة أيضا الفروق بين نوع التكوين، الجنس، الخبرة المهنية، والمستوى التعليمي للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، والتي تمثل متغيرات الدراسة الحالية.

الجدول رقم(1): توزيع عينة الدراسة حسب الجنس ونوع التكوين والمستوى التعليمي والخبرة المهنية.

	الفئة	العينة الأولى		العينة الثانية	
		العدد	النسبة B	العدد	النسبة B
الجنس	الذكر	102	48.3	129	56.3
	الأنثى	109	51.7	100	43.7
	المج	211	100	229	100
نوع التكوين	عن طريق المعهد	144	68.2	166	72.5
	عن طريق الجامعة	67	31.8	63	27.5
	المج	211	100	229	100
المستوى التعليمي	اقل من بكالوريا	80	37.9	91	39.7
	بكالوريا+1	43	20.4	62	27.1
	بكالوريا+2	7	3.3	3	1.3
	بكالوريا+3	21	10.0	12	5.2
	ليسانس	60	48.2	61	26.6
	المج	211	100	229	100
الخبرة المهنية	اقل من 10 سنوات	73	17.5	60	26.2
	من10 إلى 14 سنة	35	16.6	37	16.2
	من 15 سنة فما فوق	139	65.9	132	57.6
	المج	211	100	229	100

أداة الدراسة: تتألف الدراسة من الأداة الأولى وتتمثل في أداة تقدير ذاتي للمعلمين، على شكل مقياس مقنن في البلاد العربية من طرف الأستاذين سامي عبد الرزاق وعلي حسن حبايب[10].

الباحث على قياس بعض جوانب الكفاءة لدى المعلم، وتمثلت في مدى قدرة المعلم على ترتيب مهارات حسب أولوية وأهمية المهارات في مجال التدريس والمقياس المرجعي هنا هو ترتيب معياري معطى من طرف أساتذة جامعيين مختصين في مجال التربية وعلم النفس، واقتصر الباحث على كل من كفاءة المادة الدراسية واشتملت على (**10**) مهارات، وكفاءة أساليب التدريس والتي اشتملت على (**15**) مهارة، وكفاءة التقويم وقد اشتملت على (**6**) مهارات، أعطيت بشكل عشوائي، وطلب من معلمي المرحلة الابتدائية أن يرتبوها من الأهم إلى المهم بشكل متقن وفعال.

أما المقياس الثاني فيتمثل في معرفة كفاءة المعلمين من وجهة نظر السادة المفتشين أثناء الزيارات التفتيشية المفاجئة ويتألف من (**34**) عبارة ويشمل أربعة أبعاد تتمثل في إدارة الوقت ويشمل (**4**) بنود، التخطيط للدرس ويشمل (**6**) بنود، تنفيذ الدرس ويشمل (**16**) بندا، وتقويم المتعلمين ويشمل (**8**) بنود.

صدق المقياسين: تم التحقق من صدق الأداتين باستخدام طريقة:

صدق المحكمين: تم اختبار صدق المقياسين بالأخذ بآراء(**12**) محكما من أساتذة قسم علم النفس بجامعة الجزائر للتأكد من صحة العبارات ومدى ملاءمتها للبعد التي تمثله وتم اختيار العبارات التي تم الاتفاق عليها بنسبة **90** B على الأقل.

ثبات الأداتين: تم حساب الثبات بالاعتماد على العينة الاستطلاعية وقدر حجمها(**60**) معلما(ة)، باستخدام طريقة التجزئة النصفية، وهذا بحساب معامل الارتباط بيرسون **PEARSON** للتعرف على قوة معامل الارتباط بين العبارات الزوجية والفردية للمقياسين وتحصل على قيم معامل الارتباط كالتالـــي:(**0.64** ، **0.97**) و باستخدام معادلة التعديل "**سبيرمان براون**" في حساب الثبات، تحصل الباحث على قيم معامل الثبات كالأتي:(**0.78** ، **0.98**) كما هو مبين في **الجدول رقم** (**2**).

الجدول رقم (2): يبين ثبات الأداتين بحساب معامل الارتباط ومعامل الثبات.

	معمل الارتباط (ر)	**معامل الثبات (ث)**

المقياس الأول	0.64	0.78
المقياس الثاني	0.97	0.98

عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

أولا: عرض نتائج الفرضية الأولى: معلم المرحلة الابتدائية قادر على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

وتم تطبيق مقياس الكفاءة المهنية على العينة الأولى لمعرفة مدى كفاءة معلم المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات وذلك بتطبيق اختبار(**ت**) لعينة واحدة كما هو مبين في **الجدول رقم(3)**.

الجدول رقم (3):يبين المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لدرجات الكفاءة المهنية للمعلم، واختبار(ت) لدلالة الفروق لعينة أحاديةSPSS.

N	$\bar{X}$	S	ddl	Ttest	مستوى الدلالـة
211	13.98	1.52	210	133.882	Sig=0.00 دال عند المستوى 0.05=α

وبتطبيق أيضا المقياس الخاص بكفاءة المعلم من وجهة نظر السادة المفتشين، تحصلنا على ما يلي:

جدول رقم(4): المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لدرجات الكفاءة من وجهة نظر السادة المفتشين

واختبار(ت) لدلالة الفروق لعينة أحاديةSPSS.

N	$\bar{X}$	S	Ddl	Ttest	مستوى الدلالـة

229	96.6 5	22. 46	22 8	65.12	Sig=0.00 دال عند المستوى 0.05=α

ومن خلال تطبيق مقياس الكفاءة المهنية على عينة (**211**) معلما ومعلمة وجدنا أن كل الدرجات المتحصل عليها تبين أن غالبية المعلمين كفاءتهم فوق المتوسط، وبتطبيق التحليل الإحصائي **SPSS** وجدنا أنها دالة إحصائيا عند المستوى **0.05=α** ودرجة الحرية **ن=210**.

وهذه النتيجة تقودنا إلى أن معلم المرحلة الابتدائية قادر على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات، ولكن هناك عوامل متعددة وموانع تحول بينه وبين تنمية وتطوير كفاءته وتجعله يتكيف مع ما هو جديد.

وبتطبيق المقياس الثاني تحصل الباحث على نتائج تؤكد أيضا صحة التساؤل الأول، وكل الدرجات المتحصل عليها تبين أن غالبية المعلمين كفاءتهم فوق المتوسط، وأنها دالة إحصائيا عند المستوى **0.05=α** ودرجة الحرية **ن=228**.

ثانيا: عرض نتائج الفرضية الثانية ومناقشتها: توجد فروق بين المعلمين باعتبار نوع التكوين الذي تلقونه في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

جدول رقم(5): اختبار(ت) لدلالة الفروق بين (خ المعهد، خ الجامعة) في مجموع الأبعاد للمقياس الثاني

	خ. المعهد			خ. الجامعة			Ttest	
الأبعاد	N	المتوسط	الانحراف	N	المتوسط	الانحراف		الدلالة
الوقت	166	11.531	3.2411	63	12.361	2.99 09	2.301	Sig=0.13 1غير دال عند المستوى 0.05=α
التخطيط	166	18.625	3.6638	63	18.769	3.46 28	0.007	Sig=0.93 5 غير دال عند المستوى 0.05=α

التنفيذ	166	45.458	11.0517	63	46.851	11.819	1.823	Sig=0.178 غير دال عند المستوى 0.05=α
التقويم	166	19.875	6.3190	63	21.732	6.5678	0.963	Sig=0.963 غير دال عند المستوى 0.05=α
مج الأبعاد	166	95.490	22.1578	63	92.713	23.145	1.261	Sig=0.263 غير دال عند المستوى 0.05=α

من خلال النتائج المحصل عليها إحصائيا، وجدنا أنه لا يوجد فروق دالة إحصائيا عند المستوى **α=0.05** ودرجة الحرية **ن= 227**، وبالتالي فان مستوى الكفاءة المهنية لا يتأثر بنوع التكوين، وهذا خلافا لما توصلت إليه الدراسات الميدانية السابقة بمؤسسات إعداد المعلم، و التي حظيت باهتمام كبير خاصة فيما يتعلق بمقارنة خريجي نظام خمس سنوات بأقرانهم من خريجي البرامج التقليدية ذات أربع سنوات[11] . والمتمثلة فيما يلي:

إن البرامج الموسعة (ذات خمس سنوات) تجذب نوعية من الطلبة المتميزين، لأنه يزيد من كفاءة المعلم الطالب خريجي البرامج الموسعة، وقابليته للاستمرار في مهنة التعليم بالمقارنة مع خريجي البرامج التقليدية، بالإضافة إلى خريجي البرامج الموسعة أكثر شعور بالرضي المهني بالمقارنة مع خريجي البرامج التقليدية، وعليه فقد أصبحت البرامج الموسعة ذات(**5**) سنوات تمثل نموذجا للحد الأدنى لإعداد المعلم الكفء، لما أفرزته من خريجي رفيعي المستوى أكاديميا فضلا عن تأهيلهم بشكل متميز لمهنة التعليم.

ومن الملاحظة الميدانية فإن الأعداد الساحقة من الذين يمارسون مهنة التعليم ببلادنا، لم يجر لهم أي تأهيل مهني مسبق ولا إعادة تأهيل لتجديد معلوماتهم، سواء على مستوى الجامعة أو وزارة التربية والتعليم، وإن معظم الملتحقين من خريجي الجامعات يجدون أنفسهم عاجزين عن استعمال

طريقة التدريس وفق المقاربة بالكفاءات[12] مما يستدعي إعادة النظر في سياسة التوظيف، وفي تكوين المعلمين وتجديد معارفهم ومعلوماتهم.

وانطلاقا من دراستنا النظرية المتمثلة في الفصل الرابع المعنون بالإصلاح التربوي الجديد، الذي يبين أنه من خصائص الكفاءة المهنية النمو والتطور، كما يمكنها أن تضمحل وتتلاشى، والسبب يرجع إلى التكوين بكل أصنافه وأنواعه لإعداد المعلم وتأهيله، وهذا يدل على أن التكوين الساري ببلادنا في هذه الحالة أصبح صوريا لا يحقق الغرض المطلوب، بالرغم من أن الأدب التربوي يؤكد على أن الكفاءة العلمية والتكوين التربوي الجيد للمعلم أو الأستاذ لهما انعكاسات على جودة التعليم.

غير أن هذا التكوين الذي تتوفر فيه مواصفات الجودة العالية يفتقر إليه جل المعلمين في بلادنا بحكم اختلاف مستوياتهم وطريقة إعدادهم وعدم تجديد خبراتهم، أو طرق اختيارهم لممارسة مهنة التعليم بناء على معايير مهنية وعلمية محددة لم تتوفر بعد.

ثالثا: عرض نتائج الفرضية الثالثة ومناقشتها:لا توجد فروق بين المعلمين باعتبار نوع الجنس في القدرة علي التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

جدول رقم(6): اختبار(ت) لدلالة الفروق بين (ذ، أ) في مجموع الأبعاد للمقياس الثاني

الأبعاد	N	الذكور(ذ)		N	الإناث (أ)		Ttest	الدلالة
		X	S		X	S		
الوقت	129	11.8605	3.2566	100	11.6400	3.1124	0.509	Sig=0.476 غير دال عند المستوى α=0.05
التخطيط	129	18.2171	3.7017	100	19.2400	3.4027	2.270	Sig=0.133 غير دال عند المستوى α=0.05
التنفيذ	129	44.8837	11.240	100	47.0800	11.2058	0.032	Sig=0.859 غير دال عند المستوى α=0.05

التقويم	129	19.8735	6.3190	100	21.7302	6.5678	0.963	Sig=0.963 غير دال عند المستوى 0.05=α
مج الأبعاد	129	94.7907	22.754	100	99.0600	21.9521	0.249	Sig=0.618 غير دال عند المستوى 0.05=α

من خلال النتائج الإحصائية المتحصل عليها في (**الجدول رقم :6**)، لا يوجد فرق دال إحصائيا عند المستوى **0.05**=α وعند درجة الحرية ن = **227** بين الجنسين للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، وهذا يقودنا دون شك إلى أن متغير الجنس ليس له علاقة بكفاءة التدريس، وهي نتيجة تدعونا إلى مزيد من البحث، لان اكتساب الكفاءة لا يقتصر على الطبيعة التكوينية للجنسين، وإنما يقتصر على الميول والاتجاهات نحو مهنة التعليم لأحد الجنسين أو لطبيعة إستراتيجية التعليم ببلادنا.

رابعا: عرض نتائج الفرضية الرابعة ومناقشتها:

لا يوجد فروق بين المعلمين باعتبار المستوى التعليمي (عالي، متوسط، بسيط) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

من خلال النتائج المحصل عليها إحصائيا فإنه لا يوجد فروق دالة إحصائيا بين المستويات الثلاث للمستوى التعليمي للمعلم عند المستوى **0.05** =α ودرجة حرية ن=**228** ، وهذا يعني أن المستوى التعليمي لا يؤثر في كفاءة التدريس، وهذا خلافا للدراسات الميدانية السابقة التي أجراها الباحثيـن 13 وهي دراسة تاريخية للأساليب التقويمية المستخدمة، حيث تفحصوا **363** مدرسة تستخدم معايير مختلفة لتقويم أداء المعلم. وأسفرت نتائج الدراسة على ما يلي:

أن 30%من هذه الأدوات والوسائل تؤكد على السمات الشخصية للمعلم، وان **38%** منها تؤكد على دوره التدريسي، و**13.95 %** تؤكد على دوره الإداري، و**11.63%** على دوره الاجتماعي داخل وخارج المدرسة، و**7.37%** للتخصص العلمي الدقيق، و**13.5%** للأداء التحصيلي للتلاميذ.

والفرضية التي اقترحها الباحث تؤكد بعدم وجود فروق دالة إحصائيا بين المستويات الثلاث، وهذا ما يقودنا إلى القول بأن هذه المستويات العلمية إما أنها لم توظف في العملية التعليمية، أو ليست لها علاقة بالتخصص التربوي، أو تجمدت مباشرة بالتحاقها بالتعليم وبدأت في التدني والسقوط، ومنه فإن المستوى التعليمي مرتبط ارتباط وثيقا بمستوى الأداء التربوي للمعلم، الذي له علاقة بفعالية التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

خامسا: عرض نتائج الفرضية الخامسة ومناقشتها: يوجد فروق بين المعلمين باعتبار الخبرة المهنية (عالية، متوسطة، بسيطة) في القدرة على التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

من خلال النتائج المحصل عليها إحصائيا تبين انه لا يوجد فروق دالة إحصائيا عند المستوى α=**0.05** ودرجة حرية ن= **228**، وهذا يعني أن الخبرة بمستوياتها الثلاث (بسيطة، متوسطة، عالية) لا تؤثر في مستوى الكفاءة، وهذا خلافا للدراسات الميدانية السابقة التي أجراها14 و التي تبين أن نقطة البداية في النمو المهني، تبدأ قبل ما يسمى بالخبرة التدريسية الأولى، وهي تسمى بظاهرة التعلم المهني بالملاحظة، أي أنها تبدأ مبكرة في حياة الطلاب المعلمين وتكون غير مقتصرة عليهم، وتمتد إلى أكثر من **12** عاما، والتي تترسب في أعماق المتعلمين صورا وذكريات ومهارات عن التدريس، وذلك من واقع ملاحظاتهم ومشاهداتهم وتفاعلاتهم اليومية مع المعلمين والمعلمات وتكون غير مقصودة.

ونشير إلى أن عامل الخبرة وحده قد لا يكون فعالا ولا مؤثرا إلا إذا تدخلت عوامل أخرى تعتبر جزء منها وعنصرا معززا لها، فالخبرة التدريسية كالذكريات التدريسية السابقة الموجبة، درجة التقدير والاقتناع، حب المهنة، درجة الضبط واللفظية، درجة التقبل الواعي للتوجيه المدرسي، واعتماد النقد الذاتي والتأمل الجمعي...كلها عوامل إذا توفرت بشكل ايجابي لدى المعلم صاحب الخبرة التدريسية (العالية، المتوسطة، البسيطة)، تكون من العوامل المساعدة لتنمية وتطوير كفاءته.

الاقتراحات:

من خلال الدراسة توصل الباحث إلى طرح الاقتراحات الآتية:

1-إجراء بحوث من هذا النوع على مستوى أوسع وعينة أكبر من التي تعاملنا معها حتى تكون الدراسة أشمل وأوضح.

2-إجراء بحوث من هذا النوع على المستوى المتوسط والثانوي لدراسة أوسع وأعمق.

3-طرح فرضيات أخرى لم نطرحها وتشمل متغيرات جديدة ولها علاقة بالكفاءة المهنية للتدريس.

4-ضرورة الاهتمام بالتحكيم الجاد لبناء اختبارات صادقة وثابتة للوصول إلى نتائج تدعم البحث العلمي وتفتح المجال لبحوث أخرى.

5-ضرورة الاتفاق على منهجية موحدة في طريقة تحكيم الاستمارات.

6-إعطاء الدعم الكافي لإجراء البحوث العلمية الهادفة بقصد الإجابة على الإشكاليات المطروحة في الواقع بصدق وثبات.

7- ضرورة توطيد الصلة مع المختصين في الإحصاء للمساعدة في تفريغ وتحليل النتائج الإحصائية المختلفة حتى تكون للبحوث مصداقية لدعم وتطوير البحث العلمي الجامعي.

الهوامش:

1. (John Dewey ;1859-1952). مبتكر طريقة العمل بالمشاريع وأسلوب حل المشكلات في التعليم.جون ديوي للتربية ."قاموس جون ديوي للتربية"، مختارات من مؤلفاته، جمعها رالف وين، ت. محمد علي العريان،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1964.

2.(Higginson ; 1996) . صاحب المقالة التربوية التي تؤكد انه لا يمكن لأي نظام تعليمي الارتقاء من مستوى المعلمين.

3. Cooper. J. m and Weber. W. r, *specialists competency based Systems, approach to teacher education*, berkely, ca, mac cutchan, 1973.

(**Cooper** :**1999**) التقرير الذي انتقد بشدة كليات التربية في الجامعات الكبرى، لما تفرزه من معلمين لم يتلقوا تدريبا كافيا.

4. (**كوبر، 1994**). التقرير المبدئي لرابطة المعلمين الأمريكية سنة 1993.الذي ينص على ضرورة بذل الجهود الايجابية للارتقاء بالمعلم ومهنة التعليم.

5. (**cypher ,et Ryan**, **1984**). دراسات أجريت على المستوى الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية، بأن كليات إعداد المعلمون ومهنة إعداد التعليم تجذب الطلبة الضعاف أكاديميا ممن لا تتوافر لديهم فرص مهن أخرى.

6. (**يناير،1999**). مبادرة كلية التربية بجامعة الكويت إلى تبني فكرة إجراء دراسة علمية لتقويم مخرجات كلية التربية، وتشكل لهذا الغرض فريق بحثي من أعضاء هيئة التدريس بالكلية

7. (**الدمنهوري ونصر ،2000**) إحدى الدراسات، إجراءات القبول المعمول بها في اليابان التي تهتم اهتماما كبيرا بحسن اختيار الطلاب الراغبين في الالتحاق بكلية التربية، فتحدد اختبارات مقننة هدفها تقريب مستوى المقبولين لدى الكليات، ويعد النجاح فيها هو المعيار الوحيد للقبول.

التعليم الجامع في الجزائر

واقع وآفاق

الدكتور شامي بن سادة، جامعة تيارت

ملخص: أولت المنظومة التربوية الجزائرية عناية بفئة ذوي الاحتياجات الخاصة ضمن نسق اجتماعي عام حيث كان لقطاع التربية والتكوين تجربة إدماج هذه الفئة من التلاميذ مع أقرانهم العاديين ضمن مدرسة شاملة موحدة أو ما اصطلح عليه حديثا الدمج التعليمي النابع من فلسفة تربوية ذات نزعة إنسانية. كما أن عملية الدمج هذه تدعو إلى إعادة النظر في بناء مناهج وبرامج التعليم العام والتربية الخاصة وقد طبق هذا النوع من التعليم في المدرسة الجزائرية كتجربة أولية أدت إلى نتائج إيجابية وسلبية على الفرد والمجتمع ضمن آفاق مستقبلية تتلاءم وأهمية تكوين المورد البشري كاستراتيجية فعالة لتنمية مستدامة شاملة.

الكلمات المفتاحية: مدرسة للجميع -أطفال ذوي الاحتياجات الخاصة – الأطفال العاديين – الدمج التعليمي.

The Algerian educational system attached a great care to the category of people with special needs within the general structural, where the sector of education and training had an experience incorporating this category of students with their normal peers within a comprehensive unified or what has been termed a newly educational integration. It is stemming from the same tendency of a humanitarian educational philosophy of the school.

The aim of these calls is to reconsider the construction of curricula and programs of public and private education. This model has been applied as an experiment in the Algerian school with positive and negative results on both the individual and society within the future prospects that fit the importance of human resource in the configuration as an effective strategy of sustainable development....

مقدمة: تشهد الجزائر تغيرات تربوية واجتماعية كغيرها من دول العالم وخاصة في القرن العشرين (20) ومطلع الألفية الثالثة. ومن القطاعات الحساسة التي شملها هذا التحول قطاع التربية والتكوين الذي اعتمد حديثا على فلسفة تربوية جديدة قائمة على بيداغوجية المقاربة بالكفاءات والتي تجعل من التلميذ محور العملية التعليمية التعلمية سواء كان عاديا أو من ذوي الاحتياجات الخاصة لتهيئته لغد يتفاعل مع معطيات العصر ومتكيفا مع مستجداته ومندمجا في أنساقه المختلفة.

وقد برزت في السنوات الأخيرة مفاهيم تربوية جديدة في المجتمع الجزائري كالتعليم مدى الحياة والتعليم حق للجميع، والتعليم الجامع إلي يتضمنه ها المقال، فما هو هذا التعليم؟ وما هي المقاربة النظرية المعتمد عليها في عملي التطبيق؟ ولمن هو موجه؟ وما مدى تطبيقه في المدرسة الجزائرية؟ وما مكانة هذا التعليم ضمن الإصلاح التربوي؟ وهل مناهج وبرامج الجيل الثاني من الإصلاح التربوي عالج الاختلالات المتواجدة ميدانيا أم أبقى على النمطية التعليمية السابقة لدمج ذوي الاحتياجات الخاصة؟ وما هي النماذج التربوية الرائدة في هذا المجال في العالـم العـربي والدول الأوروبية؟ وما آفاقه المستقبلية؟

أولا: تعريف التعليم الجامع

يطلق مفهوم التعليم الجامع على كل تعليم فيه صيغة الدمج بين فئتين، ونقصد به دمج فئات ذوي الاحتياجات الخاصة في بيئة التربية العادية دمجا شاملا وإتاحة الفرصة لهم للتفاعل مع أقرانهم العاديين [1].

ثانيا: تطور مفهوم التعليم الجامع:

جاء هذا المفهوم كرد فعل مضاد للممارسة التي سادت العالم قديما ولفترات طويلة والتي تمثلت في عزل ذوي الاحتياجات الخاصة في مؤسسات داخلية بأماكن نائية (Instituttionalization) حيث انبثق توجه فلسفي إنساني في الدول الاسكندينافية بتطبيع حياة ذوي الاحتياجات الخاصة (Normalisation) وكان هدفه تزويد هذه الفئة بالظروف والفرص والبرامج التي تشبه الى اكبر حد ممكن تلك المتوفرة للجميع في المجتمع والتوقف عن معاملتهم بطرق مختلفة.

يشير مفهوم التعليم الجامع إلى تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة في المدارس العادية مع أقرانهم العاديين وإعدادهم للعمل في المجتمع مع العاديين، وقد شغل هذا المفهوم الكثير من المهتمين والمتخصصين في تربية وتأهيل المعاقين في امريكا حيث ظهر بظهور القانون الامريكي رقم (42 - 94)لسنة 1975 والذي ينص على ضرورة توفير أفضل أساليب الرعاية التربوية والمهنية للمعاقين مع أقرانهم العاديين [2].

ويرى كوفمان أن الدمج أحد الاتجاهات الحديثة في التربية الخاصة، ويتضمن وضع الاطفال المعاقين عقليا بدرجة بسيطة في المدارس الابتدائية العادية مع اتخاذ الاجراءات التي تضمن استفادتهم من البرامج التربوية المقدمة في هذه المدارس كما نجد مادن وسلانن ان الدمج يعني ضرورة ان يقضي المعاقون اطول وقت ممكن في الفصول العادية مع اقرانهم وإمدادهم بالخدمات الخاصة إذا لزم الامر .

ثالثا : انواع واشكال الدمج

للدمج أنواع وأشكال مختلفة تختلف باختلاف مستوى الإعاقة وهي كالآتي:

1 – الدمج المكاني: يقصد به اشتراك مؤسسة او مدرسة تربية خاصة مع مدرسة عادية بالبناء

المدرسي فقط، بينما تكون للمؤسة او مدرسة التربية الخاصة خططها الدراسية الخاصة، واساليب تدريب، وهيئة تدريس خاصة بها، تختلف عن المدرسة العادية ويجوز ان تكون الادارة واحدة لكليهما

2- **الدمج التربوي أو الأكاديمي**: ويقصد به اشتراك التلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة مع التلاميذ العاديين في مدرسة واحدة تشرف عليها نفس الهيئة التعليمية وضمن نفس برنامج الدراسة، وقد تقتضي الحالة وجود اختلاف في مناهج الدراسة المعتمدة والأساليب والوسائل المستخدمة، وهذا النوع من الدمج يتضمن الأشكال التالية:

* الصفوف الخاصة: يتم فيها الحاق التلميذ بصف خاص بذوي الاحتياجات الخاصة داخل المدرسة العادية في بادئ الأمر، مع اتاحة الفرصة أمامه للتعامل مع أقرانه العاديين في المدرسة أطول فترة ممكنة من اليوم الدراسي.

* غرف المصادر: يتم تحويل التلميذ ذو الاحتياجات الخاصة إليها ليقضي جزءا من اليوم الدراسي فيها وهي غرفة صف بالمدرسة العادية بها برامج تعليمية مختصة بهذه الفئة، وبقية اليوم يكون مع أقرانه العاديين في الصف العادي.

* الخدمات الخاصة: حيث يلحق التلميذ ذو الاحتياجات الخاصة بالصف العادي مع تلقيه مساعدة خاصة من وقت لآخر بصورة غير منتظمة في مجالات معينة مثل القراءة أو الكتابة أو الحساب وغالبا يقدم هذه المساعدة للطفل معلم تربية خاصة متنقل يزور المدرسة مرتين او ثلاث مرات اسبوعيا [3].

* المساعدة داخل الصف: حيث يلحق التلميذ ذو الاحتياجات الخاصة بالصف الدراسي العادي مع تقديم الخدمات اللازمة له داخل الصف حتى يمكن للتلميذ أن ينجح في مختلف المواقف التعليمية وقد تتضمن هذه الخدمات استخدام الوسائل التعليمية أو الأجهزة التعويضية، أو الدروس الخصوصية.

رابعا : المقاربة النظرية للتعليم الجامع :

تعتبر نظرية كوفمان من النظريات الحديثة ف التربية الخاصة التي شرع في تطبيقها بالولايات المتحدة الأمريكية في سبعينيات القرن الماضي، حيث انتشر صيتها عالميا بتبني المدافعين عن حقوق الإنسان بصفة عامة وحقوق الفئات الاجتماعية المهمشة بصفة خاصة لأهداف تلك النظرية. وأصبح تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة يعني دمجهم بصفة تدريجية في النظام التعليمي الرسمي مع الاطفال العاديين دون أي تفرقة أو تمييز نفسي وتربوي وبيداغوجي، حتى يصبح التعليم للجميع وهو شعار المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو).

فبدأ في الكثير من الدول على إزالة تلك الحواجز الثقافية والنفسية والتشريعية والتنظيمية التي تقف عائقا أمام هؤلاء الأطفال المعاقين وإعطائهم حقهم الإنساني في فرص متساوية مع الجميع للإستفادة من المنظومة التعليمية الرسمية وبنفس المنشآت التعليمية وبما يتناسب مع الاختلافات بينهم وبين غيرهم، مع إزالة الحواجز المادية والسيكوسوسيوثقافية التي تحول بينهم وبين ممارسة حقهم الطبيعي في التعليم.

خامسا : الاتجاهات نحو فكرة التعليم الجامع

- الاتجاه الأول: اصحاب هذ الاتجاه يعارضون هذه الفكرة بشدة ويعتبرون تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة في مدارس خاصة بهم أكثر فعالية وأمنا وراحة لهم وهو يحقق أكبر فائدة.[4]
- الاتجاه الثاني: يؤيد اصحابه فكرة الدمج لما لذلك من اثر في تعديل اتجاهات المجتمع والتخلص من عزل فئة ذوي الاحتياجات الخاصة والذي يسبب بالتالي الحاق وصمة العجز والقصـــور
- والإعاقة وغيرها من الصفات السلبية التي قد يكون لها أثر على الطفل ذاته وطموحه ودافعيته، أو على الاسرة أو المدرسة أو المجتمع بشكل عام.
- الاتجاه الثالث: يرى اصحاب هذا الاتجاه أنه من المناسب المحايدة والاعتدال وعدم تفضيل برنامج على آخر، بل يرى أن هناك فئات ليس من السهل دمجها ويفضل تقديم الخدمات

➢ الخاصة بهم من خلال مؤسسات خاصة، كما نجد اصحاب هذا الاتجاه يؤيد فكرة دمج الاطفال ذوي الاعاقات البسيطة أو المتوسطة في المدارس العادية ويعارض فكرة دمج الأطفال ذوي الاعاقات الشديدة جدا ومتعددي الاعاقات.

سادسا : متطلبات عملية الدمـج :

إن دمج تلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة مع التلاميذ العاديين ليس عملية سهلة، بل إن هناك عدة متطلبات لا بد من مواجهتها:

✓ أولا: التعرف على الاحتياجات التعليمية وذلك من خلال:
- تحديد الإعاقات المناسبة للدمج
- توفير الخدمات الطبية المناسبة للطفل المعاق.
- المنهج ومرونته، المدرس وإعداده للتعامل مع هذا التلميذ.
- الوسائل التعليمية الخاصة بهذا التلميذ.

ورغم ذلك فان تنفيذ برامج الدمج يتطلب التركيز على أربع نواح:

1 – إعداد هيئة التدريس، واختيار المناسب.

2 – وضع الاطفال في الاقسام المناسبة [5]

3 – تخطيط وتنفيذ الاستراتيجيات المناسبة: التقييم التربوي، البرنامج الفردي التربوي قواعد ضبط القسم، البيئة، التخطيط داخل القسم، الخطة والجـداول اللعب الاستراتيجيات داخل القسم وخارجه.

4 – المشاركات بين الوالدين والعاملين.

✓ إعداد القائمين على التربية:

يجب تغيير اتجاهات كل من يتصل بالعملية التربوية من مدرسين، ومديرين، ومفتشين وتهيئتهم لفهم الغرض من التعليم الجامع، وكيف تحقق المدرسة أهدافها في تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة بحيث يستطيعون الإسهام بصورة ايجابية في نجاح إدماجهم في التعليم وإعدادهم للاندماج في المجتمع.

✓ إعداد المعلمين:

✓ قبل تنفيذ أي برنامج للدمج يجب توفير مجموعة من المعلمين ذوي الخبرة في تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة، وإعدادهم إعدادا مناسبا للتعامل مع العاديين والمعاقين ومعرفة كيفية إجراء ما يلزم من تعديلات في طرق التدريس لمواجهة الحاجات الخاصة لهذه الفئة في القسم العادي، الى جانب معرفة أساليب توجيه التلاميذ العاديين وإرشادهم إلى ما يساعدهم على تقبل أقرانهم المعاقين.

✓ إعداد المناهج والبرامج التربوية: من متطلبات الدمج ضرورة إعداد المناهج الدراسية والبرامج التربوية المناسبة التي تتيح لذوي الاحتياجات الخاصة فرص التعليم، وتنمية المهارات الشخصية والاجتماعية والتربوية ومهارات الحياة اليومية.

✓ إختيار مدرسة الدمج: تطلب عملية الدمج اختيار إحدى مدارس الحي أو المنطقة التعليمية لتكون مركزا للدمج وفق شروط محددة منها قرب المدرسة تساعد الآباء والمعلمين توفير الخدمات والأنشطة التربوية، وتوفير بناء مدرسي مناسب. ..

✓ إعداد وتهيئة الأسر والأولياء.

✓ إعداد وتهيئة التلاميذ.

✓ إنتقاء الأطفال الصالحين لعملية الدمج.

سابعا : الآثار الايجابية لعملية الدمج :

من الآثار الايجابية لعملية التعليم الجامع وجود الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة مع الاطفال العاديين في مبنى واحد، او قسم دراسي واحد يؤدي الى زيادة التفاعل والاتصال ونمو العلاقات المتبادلة بين الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة والأطفال العاديين كما يجعل بفضل هذه العملية التقليل من الفوارق الاجتماعية والنفسية بين الأطفال عامة وكذلك تخليص الطفل المعوق واسرته من الوصمة Stigma التي لحقت بهم جراء حالة الإعاقة التي يعاني منها والتي تأكدت وتدعمت من خلال وجود الطفل المعاق في مركز تربية خاصة.

- يساعد التعليم الجامع الطفل ذو الاحتياجات الخاصة على تحقيق الذات ويزيد من دافعيته نحو التعليم وتكوين علاقات إجتماعية سليمة مع زملائه مما يهيئ له نموا سليما في مختلف الجوانب الأكاديمية والاجتماعية والانفعالية والسلوكية.

– يساهم الدمج في تعديل اتجاهات الناس بشكل عام واتجاهات الاسر والمعلمين والطلبة في المدرسة العامة بشكل خاص وتوقعاتهم نحو الاطفال المعاقين[6].

– يساعد الدمج فئات الاطفال غير المعاقين والمعلمين في المدارس العادية على التعرف عن قرب والاحتكاك المباشر بالاطفال المعوقين الامر الذي قد ينتج عنه تقدير أفضل وأكثر موضوعية وواقعية لطبيعة مشكلاتهم وكيفية مساعدتهم على مواجهة تلك الاحتياجات.

– يساهم الدمج في تخفيض الكلفة الاقتصادية المترتبة على خدمات التربية الخاصة في المؤسسات والمراكز المتخصصة، ويوسع قاعدة الخدمات التربوية للاطفال المعوقين الأمر الذي يترتب عليه التوسع في قاعدة قبول الطلبة خصوصا الذين لا تتاح لهم فرص الالتحاق بالمراكز المتخصصة لأسباب مختلفة منها بعد السكن، عدم توفر وسائل النقل اتجاهات الأهل السلبية نحو مراكز التربية الخاصة.

ثامنا : الآثار السلبية لعملية الدمج :

أن اي فكرة جديدة تكون سلاح ذو حدين فكما أن للدمج ايجابيات كثيرة فان له سلبيات ايضا وهي قضية جدلية لها ما يساندها وما يعارضها ومن هذه السلبيات:

– عدم توفر معلمين مؤهلين ومدربين جيدا في مجال التربية الخاصة في المدارس العادية قد يؤدي الى إفشال برامج الدمج مهما تحققت له من امكانيات.

– قد يعمل الدمج على زيادة الفجوة بين الاطفال المعاقين وباقي طلبة المدرسة خاصة أن المدارس العادية تعتمد على النجاح الأكاديمي والعلامات كمعيار أساسي وقد يكون وحيدا في الحكم على الطالب.

– قد يؤدي الدمج الى زيادة عزلة الطفل المعاق عن المجتمع المدرسي وخاصة عند تطبيق فكرة الدمج في الصفوف الخاصة أو غرف المصادر أو الدمج المكاني فقط، الأمر الذي يستدعي ايجاد برامــج لا منهجية مشتركة بين الطلبة وباقي طلبة المدرسة العادية للتخفيف من العزلة[7].

– قد يساهم الدمج في تدعيم فكرة الفشل عند الاطفال المعاقين وبالتالي التاثير على مستوى دافعيتهم نحو التعلم وتدعيم المفهوم السلبي عن الذات خاصة اذاكانت المتطلبات المدرسية تفوق المعاق وامكانياته.

حيث أن المدارس العادية تطبق المعيار الصفي في التقييم في حين أن الطفل المعاق يحتاج الى تطبيق المعيار الذاتي في التقييم والذي يقوم على أساس مقارنة أداء الطفل المعاق مع ما هو متوقع منه وليس مقارنة مع أداء المجموعة الصفية.

تاسعا : صعوبات الدمج في الوسط المدرسي العادي :

هناك الكثير من الصعوبات التي غالبًا ما تصاحب عملية الدمج التعليمي من المهم إدراكها وتفهم الأسباب التي تقف من ورائها، للعمل على تجاوز كل صعوبة وحلها بالطريقة التي تناسبها وبما يتماشى مع مصالح الطفل. ومن أكثر المشكلات انتشارًا:

*عدم قدرة بعض الأطفال المعاقين على الوصول إلى المدرسة بأنفسهم بسبب الإعاقة أو لبعد موقع المدرسة.

*رفض المدارس العادية قبول الأطفال المعاقين أو بعض أنواع الإعاقات خشية عدم القدرة على التعامل معهم، وتحمل مسؤوليتهم، أو بحجة إثارة الإزعاج للآخرين.

*عدم كفاية النصيحة أو المشورة المقدمة للأهل فيما يتعلق بعملية الدمج التعليمي وما يرتبط بها.

*المعاملة غير المرضية للأطفال المعاقين في المدرسة العادية، كإهمالهم وتجاهلهم.

*عدم جاهزية النظام التعليمي العادي من حيث تصميم وتخطيط المدرسة والأدوات والوسائل الضرورية للمعاقين، وعدم وجود التسهيلات البنيوية اللازمة لهم داخل المدرسة.

*عدم توفر معرفة كافية لدى المدرسين حول كيفية التعامل والتكيف مع الأطفال المعاقين.

*إساءة بعض الأطفال العاديين السلوك نحو الأطفال المعاقين في المدرسة، مثل ضربهم أو الاستهزاء بهم.

عاشرا : نماذج الدمج :

1 – النموذج الاستشاري: يقوم فيه معلم التربية الخاصة بإعادة تعليم الطالب ذو الحاجات الخاصة مهارة صعبة أو يساعده على ممارسة مهارة تعلمها حديثا.

– يستخدم في المدارس ذات الأعداد القليلة من الطلبة والتي يوجد فيها أعدادا محدودة من الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.

2 –النموذج التعاوني: يتعاون كل من معلم الفصل العادي ومعلم التربية الخاصة معا لتعليم الطلبة العاديين والطلبة ذوي الحاجات الخاصة في نفس الصف ويكون على أشكال:

أ–التعليم: الموازي: تقسيم الطلبة الى مجموعات ويدرسها بالوقت نفسه مع توفير الدعم.

ب – التعليم البديل: يقوم معلم بتدريس موضوع معين ويقوم المعلم الثاني بإعادة تعليم مجموعة من الطلبة نفس النشاط إذا واجهوا صعوبة في تأديته.

ج – التعليم الجماعي: تواجد المعلمين بنفس الصف والتدريس معا والتنقل بين الطلبة لتقديم المساعدة لمن يحتاج.

د – التعليم في محطات تعلمية: يتم تقسيم المادة الدراسية والطلبة الى وحدات أو مجموعات.

هـ–معلم رئيسي ومعلم مساند: عندما يكون أحد المعلمين ذو خبرة أكثر بالموضوع المراد تدريسه.

3 – نموذج الفريق: يعمل معلم التربية الخاصة كمنسق لفريق متعدد الأعضاء لمستوى قسم معين مزودا بالأساليب الخاصة بتعديل السلوك، المعلومات عن الطلبة، الخطة. ..

الحادي عشر : العنــاصر الأساسية لمدرسة الجميع أي التعليم الجامع :

1 –الأهلية للدمج:

أ– وجود القدرات العقلية التى من خلالها يتكيف مع المدى المعرفى الموجود

ب-القدرة على التنقل داخل الفصل بمساعدة اداة او جهاز

ج-التمتع بالمهارات اللازمة للتفاعل مع العاديين

د-وجود الرغبة فى التعلم داخل الفصل العادى

ص-وجود القدرةعلى الاعتماد على النفس فى تادية المهارات

ل-وجود الاستقرار العاطفى اللازم للتكيف مع متطلبات التعلم داخل الفصل

م-وجود القدرة على الاستمرار فى اداء مهمة فى الفصل العادى

1-فترة الدمج: لابد وان يقضى الطفل المدمج حوالى 50% من اليوم الدراسى فى الفصل العادى.

3 - التكامل التعليمى: دراسة الطفل المعاق للمناهج التى يدرسها الطفل العادى بقدر الإمكان

4 - التكامل الاجتماعي: يتحقق من خلال مشاركة الطفل المعاق مشاركة فعلية فى المجموعة ويحس من خلالها بشعور الانتماء للمجموعة[8].

الثاني عشر : فوائده لذوي الاحتياجات الخاصة :

إن الطفل المعاق عندما يشترك في فصول الدمج ويلاقى الترحيب والتقبل من الآخرين فإن ذلك يعطيه الشعور بالثقة في النفس، ويشعره بقيمته في الحياة ويتقبل إعاقته،ويدرك قدراته وإمكاناته في وقت مبكر، ويشعر بإنتمائه إلى أفراد المجتمع الذي يعيش فيه .

كما أن الطفل المعاق في فصول الدمج يكتسب مهارات جديدة مما يجعل يتعلم مواجهة صعوبات الحياة، ويكتسب عددا من الفرص التعليمية والنماذج الاجتماعية مما يساعد على حدوث نمو اجتماعي أكثر ملاءمة، ويقلل من تفهمه الذاتي السلبي ويكون العلاقات التي سوف يحتاج إليها للعيش والمشاركة في الأعمال والأنشطة الترفيهية ويشجعه على البحث عن ترتيبات حياتية أكثر عادية والدمج يمكن الطفل من بناء نموذج شخصي وتفهمه لذاته، اجتماعي، سلوكي للتفاهم والتواصل مع كافة أفراد المجتمع والبيئة المحيطة به ومن ثمة التقليل التقليل من صفة الاعتماد

على الأم أو احد أفراد الأسرة، ويضيف رابطة عقلية وسيطة أثناء لعب ولهو الطفل المعاق مع أقرانه العاديين .

الثالث عشر : فوائده للاطفال العاديين :

أن عملية الدمج يؤدي إلى تغير اتجاهات الطفل العادي نحو الطفل ذو الاحتياجات الخاصة أضف إلى ذلك أن الدمج يساعد الطفل العادي على التعود على تقبل الطفل المعاق ويشعر بالارتياح مع أشخاص مختلفين عنه[9]. وقد أوضحت الكثير من الدراسات على إيجابية الأطفال العاديين عندما يجدون فرصة اللعب مع الأطفال المعاقين باستمرار وعمل صداقات بين الأشخاص المختلفين، وهذا ما يوفره لهم نظام التعليم الجامع.

الرابع عشر : فوائده للآباء :

يشعر الآباء بعدم عزل الطفل المعاق عن المجتمع، كما أنهم يتعلمون طرقا جديدة لتعليم الطفل ... وعندما يرى الوالدان تقدم الطفل الملحوظ وتفاعله مع الأطفال العاديين فإنهما يبدآن التفكير في الطفل أكثر، وبطريقة واقعية. . كما أنهما يريان أن كثيرا من تصرفاته مثل جميع الأطفال الذين في مثل سنه ـ وبهذه الطريقة تتحسن مشاعر الوالدين تجاه طفلهما، وكذلك تجاه أنفسهما.

الخامس عشر : فوائده التعليمية الأكاديمية :

للدمج فوائد تربوية وأكاديمية لكل من التلاميذ والمعلمين على النحو التالي: فالأطفال المعاقين في مواقف الدمج الشامل يحققون إنجازا أكاديميا مقبولا بدرجة كبيرة في الكتابة، وفهم اللغة، واللغة الاستقبالية أكثر مما يحققون في مدارس التربية الخاصة في نظام العزل. أضف إلى ذلك: أن العمل مع الطفل المعاق وفق نظام الدمج يعتبر فرصة للمعلم لزيادة الخبرات التعليمية والشخصية. فالدمج يتيح الفرصة الكاملة للمعلم للاحتكاك بالطفل المعاق ـ والطريقة التي تستخدمها للعمل مع الطفل مفيدة أيضا مع الطفل العادي الذي يعاني من بعض نقاط الضعف[10].

السادس عشر : فوائده الاجتماعية أي على المجتمع :

يعود التعليم الجامع أي عملية الدمج على المجتمع بفوائد كثيرة منها:

1 –أنه ينبه كل أفراد المجتمع إلى حق المعوق في اشعاره بأنه إنسان وعلى المجتمع أن ينظر له على أنه فرد من أفراده، وأن الإصابة أو الإعاقة ليست مبررا لعزل الطفل عن إقرانه العاديين وكأنه غريب غير مرغوب فيه.

2 –أن الدمج التلاميذ المعاقين مع أقرانهم العاديين له قيمة اقتصادية تعود على المجتمع إذ توظف ميزانية التعليم بشكل أكثر فاعلية بوضعها في مكانها الصحيح وبما يعود على الطلاب بفوائد كبيرة فتحول الإنفاق من الاستخدامات التعليمية غير المناسبة (مثل: استخدام وسائل النقل لمسافات طويلة للوصول إلى المدارس الخاصة. وهذا ما يعتبر توظيفا للأموال بشكل أكثر إنتاجية ونفعا للمجتمع.

السابع عشر : تجارب بعض الدول العربية والأجنبية :

1 - تجارب الدول الغربية :

ما زلنا، نواجه تحديات كبيرة في مجال الدمج التعليمي لذوي الإعاقة. فكيف لنا ان نطالب بالدمج التعليمي وما زالت لدينا في الجزائر مدارس التربية الخاصة التي أنشئت في الستينات وتقدم خدمات تعليمية للطلبة من ذوي الإعاقة في بيئة مدرسية معزولة. فإنشاء مدارس التربية الخاصة في تلك الحقبة الزمنية كان بهدف عدم قدرة الطلبة من ذوي الإعاقة على استكمال تعليمهم العام الا من خلال عزلهم عن اقرانهم العاديين لتلقي البرامج التعليمية التي تتناسب واحتياجاتهم الخاصة.

هذا الأمر أصبح مناقضا لما تطالب به العديد من دول العالم المتقدمة من أهمية الدمج التعليمي للمعاقين، وذلك لما لدى هؤلاء من قدرات تساعدهم على تلقي التعليم مع اقرأنهم العاديين في المدارس العامة.

وقد سبقتنا الكثير من دول العالم في مجال الدمج التعليمي او ما نسميه بالتعليم الجامع وكانت لها حركات تطويرية واسعة منذ منتصف القرن العشرين من خلال إصدار تشريعات وقوانين تعطي الطلبة من ذوي الإعاقة الحق في تلقي التعليم في المدارس العامة [11].

* **تجربة ايطاليا:**

كان التعليم الخاص قبل سنة 1960 في ايطاليا مشابه للكثير من الدول المجاورة حتى سنة 1968، حيث حدثت ثورة في مفهوم التعليم والصحة في المجتمع الايطالي. في سنة 1971 سمح القانون الأهلي رقم 118 يحق تعليم المعاق في المدارس النظامية اما سنة 1977 ظهر قانون رقم 517 حيث وضع بعض الانظمة التي تحدد عدد الطلاب في كل الفصول الموحدة بحيث لا يزيد طلابها على 20 طالبا على ان يكون في كل فصل 2 من الطلبة المعاقين. وبعدها تم إغلاق جميع المدارس والفصول الخاصة للمعاقين وتوزيعهم على المدارس النظامية.

* **تجربة الولايات المتحدة الأمريكية:** تعتبر من الدول الرائدة في تطبيق فكرة التعليم الجامع بأشكالها المختلفة. حيث تم ظهور القانون رقم 94/142 وتعديلاته واطلق عليه اسم قانون التربية لكل الأطفال (Education for all children Act)، حيث كان قبل هذا القانون حقوق الوالدين مهضومة من حيث أن الاباء غير معنيين بعملية التقييم والاحالة وكذلك تقييم الاطفال بغير لغتهم الام، اما بعد صدور هذا القانون اصبح من الضرورة وجود دور للأباء في عملية اتخاذ قرار التسكين والإحالة ولإقرار حق التعليم المجاني لكل الأطفال وحقهم كذلك بتطبيق الخطة الفردية [12].

ولاية كاليفورنيا: تعتبر تجربة Urbian Plavon Scool من التجارب المشهورة في تطبيق فكرة الدمج للاطفال المعاقين حركيا حيث صممت هذه المدرسة لتطبيق فكرة دمج الاطفال المعاقين حركيا مع التلاميذ العاديين حيث التحق 330 طالبا عاديا و96 طالبا من المعاقين حركيا يشرف عليهم 10 مدرسين للعاديين و8 مدرسين للاطفال المعاقين وزودت المدرسة بجميع الامكانيات اللازمة مثل الأجهزة الخاصة بالمفاصل، الحواجز الكهربائية المتوازية وممرات المشي.

ولاية وسكنسون Wisconsin : طبقت فكرة الدمج للمعاقين حركيا وسمعيا، وتطلب ذلك وجود مدرس مساعد يتقن لغة الاشارة لمساعدة الصم. كما تم تطبيق فكرة الدمج بنجاح في عدد من جامعات أمريكا، ومن التجارب المشهورة تجربة ولاية ميتشغان Michigan State University حيث صمم الحرم الجامعي ليلبي حاجة ذوي الاحتياجات الخاصة من حيث ممراته ومبانيه ومصاعده لمساعدة الطلبة المعاقين والتزود بالتقنيات اللازمة وأجهزة الكمبيوتر الناطقة وغيرها والكتب المسموعة .

تجربة الدانمارك: تعتبر الدانمارك من الدول الاسكندنافية التي بدات بتطبيق سياسة الدمج بشكل مبكر مقارنة مع الدول الاخرى حيث بدات بتطبيق فكرة الدمج منذ منتصف الستينات.

وهناك دراسة لجورج جونسن ان حوالي 12.6 % من الاطفال الدانماركيين يتلقون شكلا من أشكال التربية الخاصة. كما تبنت الدانمارك النموذج التربوي الموازي The Education Pairing Model يتمثل في تعاون معلم الصف العادي مع معلم التربية الخاصة في تحمل مسؤولية تعليم الاطفال المعاقين وضمن هذا النموذج يسمح لطلاب الفصل الخاص بالانتقال الى الصفوف العادية في بعض المواد الدراسية[13].

2 - تجارب الدول العربية :

إن غالبية الدول العربية أولت أهمية بالغة للتعليم الجامع وإنتهجت سياسة تربوية قائمة على الدمج وقد تم التأكيد على ذلك سنة 2012 بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو) بحيث تم ابرام عقدا عربيا لفئة المعاقين سنة 2003 وذلك لضمان فرص متكافئة للتربية والتعليم لجميع الأطفال المعاقين ودمجهم في جميع المؤسسات التربوية والتعليمية وفي أقسامها النظامية العادية، ولتحقيق هذا الهدف حالت هذه الدول توفير ما يلي:

. تكوين الإطارات التربوية المؤهلة لمرافقة هذه الفئة

. توفير الوسائل والإمكانيات الضرورية للعملية التعليمية التعلمية

. توعية الاسرة والمجتمع بأهمية دمج الأطفال المعاقين في المدارس العادية وتأهيل الأطفال العاديين والمعلمين لإستقبال الأطفال المعاقين.

. إعادة النظر في المناهج والبرامج التعليمية للتلائم مع السمات النمائية والنفسية والبيداغوجية للأطفال المعاقين وتكييفها والتطور العلمي والتكنولوجي في ميدان تكنولوجية التعليم الحديث.

من خلال ماسبق نلمس أهمية هذه الفكرة والتجربة التي نالت إستقطاب التعليم في بعض الدول العربية كالأردن، الامارات العربية المتحدة، السعودية، البحرين، الجزائر.

*** تجربة الأردن:**

بدأت فكرة الدمج في العام 1982 / 1983 في مدرسة عبد الحميد شرف بمبادرة من إحدى المعلمات التي كانت تدرس في برنامج دبلوم التربية الخاصة وبفضل قناعة مديرة المدرسة آنذاك حيث تم إنشاء فصل خاص ضم 20 طالبا يمثلون حالات بطيئي التعلم وحالات الاعاقة الحركية[14]. تم توزيع هؤلاء الطلبة على فصول المدرسة العادية بمعدل الدمج وإعداد البرامج التربوية الفردية لكن كانت هناك بعض الصعوبات المتمثلة في صعوبة تقبل الطلبة العاديين وأوليائهم ومعلميهم لفكرة الدمج إضافة الى صعوبة متابعة الطلبة غير العاديين للمناهج الدراسية العادية.

التجربة الثانية: في مدرسة المنهل بعمان: فتح فصل خاص ضمن المدرسة وباشراف معلمة تربية خاصة، ضم 10 طلاب من ذوي الإعاقة العقلية البسيطة والحركية وصعوبات التعلم.

تجربة المدرسة العصرية بعمان: افتتاح وحدة التربية الخاصة ومن مهامها الإشراف على الصفوف الخاصة الملحقة بالمدرسة العادية منذ العام 96/95 وتضم هذه الصفوف حالات من الأطفال غير العاديين.

– آلية العمل في الفصل الخاص: إلحاق الطلبة في الصفوف العادية ثم تحويل الطلبة غير العاديين إلى الصف الخاص بعض الوقت يعودون بعدها إلى الصفوف العادية.

* **تجربة الإمارات العربية المتحدة:** تم افتتاح قسم للتربية الخاصة في وزارة التربية والتعليم ضمن إدارة الخدمة الإجتماعية وذلك في العام الدراسي 1979-1980 وأنشأت فصول للتربية الخاصة في المدارس التأسيسية بواقع خمسة فصول للذكور والإناث على مستوى الدولة اختصت إمارة دبي منها بفصلين، بينما كان عدد التلاميذ والتلميذات الملتحقين بالفصول 40 تلميذا وتلميـــذة معظمهم من حالات التخلف العقلي [15]بين عامي 1984 و1985 توسعت فصول التربية الخاصة لتشمل الأطفال المتأخرين دراسيا وبطيئي التعلم، فيما تم تحويل حالات التخلف العقلي لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية، في عام 1988 صدرت أول لائحة تنظم العمل في فصول التربية الخاصة وتجسد الواقع الميداني بالاهتمام بالطلاب الذين يعانون من صعوبات في التعلم.

في عام 1999 -2000 وصل عدد الفصول في العام الدراسي الى 249 على مستوى الدولة منها 37 فصلا في منطقة دبي التعليمية فيما وصل عدد الطلاب الملتحقين في الفصول في نفس العام الى 1825 طالبا وطالبة، منهم 281 طالبا وطالبة في منطقة دبي.

كما تم استحداث ادارة خاصة لرعاية ذوي الاحتياجات الخاصة وذلك في العام الدراسي 1999 – 2000 بقسميها قسم رعاية الفائقين والموهوبين وقسم التربية الخاصة ومشكلات التعلم وذلك بهدف توسيع رقعة الاهتمام بالفئات الخاصة وتطوير البرامج التشخيصية والعلاجية المقدمة لهم.

الثامن عشر : تجربة الجزائر في عملية الدمج :

يشير الإحصاء العام للسكان والسكن الأخير أن عدد المعاقين يصل إلى مليون من بينهم 44 % إعاقة حركية، 01 % من الصم والبكم، 24 % من المكفوفين، 31 % من ذوي الإعاقات الذهنية. ولقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة قوانين خاصة لحماية ذوي الإحتياجات الخاصة وضمان إدماجهم في العملية التعليمية (المادة 14، 15، 16، 17، 18) من القانون التوجيهي للتربية رقم 04 . 08 المؤرخ في 23 جانفي 2008، خاصة المادة 14 منه التي تنص

على: (تسهر الدولة على تمكين الأطفال من ذوي الإحتياجات الخاصة من التمتع بحقهم في التعليم)[16].

إن فئة ذوي الاحتياجات الخاصة تشكل شريحة هامة في المجتمع الجزائري، فكلما زاد عاد السكان تبعته زيادة في هذه الفئة، ونجد الاطفال يمثلون النسبة الاكبر لذوي الاحتياجات الخاصة حيث يعرف على انه يحتاج طول حياته أو خلال فترة من حياته الى خدمات خاصة كي ينمو أو يتعلم أو يتدرب أو يتوافق مع متطلبات حياته اليومية أو الاسرية أو الوظيفية أو المهنية مما يمكنه من المشاركة في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية بقدر المستطاع.

والجزائر كغيرها من الدول تسعى جاهدة بالاهتمام بهذه الفئة ايمانا منها بحق التعليم للجميع فالتعليم للتميز والتميز يجب ان يكون للجميع، وبهذا فقد عمدت الى تطبيق سياسة التعليم الجامع لفئة ذوي الاحتياجات الخاصة، ابتداء بعملية التحسيس والاعلام عن طريق الملتقيـات الوطنية وعقد اتفاقية بين وزارة التربية الوطنية ووزارة التضامن الوطني والتنسيق بين الوزارتين لكيفية تحديد الإجراءات العملية للتكفل بهذا الجانب من حيث وضع النصوص ،إصلاح الاختلالات وتدارك النقائص سواء منها المتعلقة بمردودية الفعل التربوي أو حوكمة المدرسة الجزائرية [17].

ما يجب مراعاته في عملية الدمج :

إن قضية التعليم الجامع الذي يتم عن طريقه دمج الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في المدارس العادية يعتبر من القضايا الهامة والخطيرة فهي سلاح ذو حدين فإذا لم يتم الإعداد الجيد لعملية الدمج وتم تلافي كل العقبات التي يمكن أن تعترضه فانه سينعكس ايجابيا على جميع المعنيين بالطفل المعاق، أما إذا كان التخطيط سيئا واعترضت عقبات كثيرة فانه سيكون ذو أثار مدمرة على جميع الأطفال المدمجين وكذلك جميع المعنيين بهم وبالتالي يجب الإشارة إلى الأســس التي يجب[18]مراعاتها في عملية التخطيط على النحو التالي:

على الجهات ذات العلاقة بتنفيذ عملية الدمج للأطفال ذو الحاجات الخاصة عموما وتعريف المعني بالدمج بطريقة إجرائية بعبارات واضحة ومحددة وتعريف الفئة المستهدفة والمعايير

اللازمة لاختيارهم في عملية الدمج وكذلك تحديد أهداف برنامج الدمج طويلة وقصيرة المدى والفترة الزمنية التي تحتاجها عملية الدمج.

تحديد برنامج الدمج سواء كان صفا خاصا أو صفا عاديا أو غرفة مصادر أو دمج مكاني وكذلك تحديد نوعية البرنامج التعليمي الذي سيتم تطبيقه هل هو منهاج عادي دون أية خدمات تربوية خاصة أو منهاج موازي معدل للمنهاج العادي، هل تحتاج عملية الدمج الى خدمات مساندة.

أما فيما يتعلق بالأسس الواجب توافرها في الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة أنفسهم فلابد أن يكون الطفل من نفس الفئة العمرية لطلبة المدرسة العادية، وان يكون سكنه قريبا من المدرسة، ان لا يكون يعاني من اعاقة مزدوجة، وقادرا على الاعتماد على ذاته في المهارات الاستقلالية وبحيث يتم عرض الطفل على لجنة تربوية مؤلفة من عدة أشخاص معنيين[19].

خاتمة: إن المفهوم الشامل لعملية التعليم الجامع او الدمج التعليمي لا تعني فقط توحيد مجرى التعليم بين الطلاب عاديين وذوي الاحتياجات الخاصة بل تعبر عن فلسفة ذات نزعة انسانية أخلاقية لا تفرق بين انسان عادي وآخر معوق، لكنها إعادة صياغة لفئات المجتمع من جديد على خريطة خدمات المجتمع ككل.

كما ان عملية الدمج تدعو الى اعادة بناء التعليم العام والتربية الخاصة ووضعها ضمن نظام جديد يوفر لطالب المساعدة المطلوبة في نطاق القسم العادي.

فهي تركز على كيفية إدارة الأقسام والمدارس التي يمكن ان توفر الحاجات التربوية لكل طفل، كما أنها لا تلغي وجود مدرس التربية الخاصة بل تعتبر وجوده ضرورة لتوفير البرنامج الفردي المناسب ودعم المعلم العادي.

ورغم أن الإصلاح التربوي في الجزائر لم يهمل هذه الفئة من الأطفال المعاقين بل حاول إدماجهم وفق صيغ متعددة واعتمادا على تجارب عربية وأجنبية مستندا في ذلك على القانون التوجيهي للتربية الذي لا يفرق بين فئة الأطفال المعاقين والعاديين في عملية التعليم والتكوين.

إن الجيل الثاني من الإصلاح التربوي الذي شرع فيه خلال السنة الدراسية في مطلع السنة الدراسية 2016 / 2017 يحمل في طياته تعديلات جوهرية شملت النسق التربوي والبيداغوجي الذي سيساعد التلاميذ العاديين والمعاقين في التكيف مع متطلبات عصر تكنولوجية الإعلام والاتصال.

في الأخير نجد أن فكرة التعليم الجامع هي أنجح وسيلة لكافة مواقف التميز وإيجاد مجتمعات حقيقية وإقامة مجتمع متسامح وهي ما يصبو اليه هذا التعليم كهدف استراتيجي عالمي.

المراجـــع:

1 – إسماعيل عبد الكافي، فن التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر 2000.

2 – إبراهيم عباس، فلسفة تربية ذوي الاحتياجات الخاصة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر 1998.

3 – أحمد لطفي بركات، تربية المعوقين في الوطن العربي، دار المريخ، الرياض السعودية، 1995.

4 – محمد السيد ورمضان السيد، الفئات الخاصة من منظور الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، مصر، 1997.

5 – محمد الشيبيني، أصول التربية، دار الفكر للنشر، القاهرة، مصر، 2000.

6 – ماجدة السيد عبيد، الوسائل التعليمية للتربية الخاصة، دار الصفاء للنشر، عمان الاردن، 2000

7 – نبيل عبد الفتاح، صعوبات التعلم والتعلم العلاجي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 1998.

8 – عبد المجيد عبد الرحيم، تنمية الاطفال المعاقين، دار غريب للطباعة، القاهرة مصر، 1999.

9 – علي راشد، تنمية قدرات الإبتكار، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، 1996.

10 – عبد العزيز السرطاوي، تربية الاطفال ذوي الاعاقات المتعددة، أكاديمية التربية الخاصة، الرياض، السعودية، 2001.

11 – عبد العزيز السرطاوي، إضطرابات اللغة والكلام، أكاديمية التربية الخاصة، الرياض، السعودية، 2000.

12 – عبد الرحيم شراح، التربية الخاصة في مطلع الألفية الثالثة، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 1995.

13 – علي السيد وآخرون، إضطراب الانتباه لدى الاطفال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة مصر، 1999.

14 – عبد الحافظ سلامة، تصميم الوسائل التعليمية في التربية الخاصة، مكتبة الفلاح، الامارات العربية المتحدة، 1997.

15 – عائشة عبد الله، التربية الخاصة بين الواقع والطموح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1995.

16 –عادل أحمد الآشول، موسوعة التربية الخاصة – إنجليزي عربي، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، 2001.

17 – علي إبراهيم الزهراني، حقوق المعاقين في التربية الإسلامية، مدينة الشارقة للخدمات، الامارات العربية المتحدة، 1998.

18 – فاروق الروسان، قضايا ومشكلات في التربية الخاصة، دار الفكر للنشر، عمان الاردن، 1998

19 . القانون التوجيهي للتربية رقم 04 . 08 المؤرخ في 23 جانفي 2008.

20 . الجريدة الرسمية رقم 33 الصادرة في 31 ماي 2009.

الهوامش:

1: عادل أحمد الاشول، موسوعة التربية الخاصة، ص 11

2 محمد الشيكي : ، أصول التربية، ص 21

3 ابراهيم جباس، فلسفة تربية : ذوي الاحتياجات الخاصة، ص 27

4 نبيل عبد الفتاح ، صعوبات التعلم والتعلم العلاجي، ص 56 :

5 علي راشد، تنمية قدرات الإبتكار، ص 34 :

6 عبد الحميد عبد الرحيم، تنمية الأطفال المعاقين، ص 101 :

7 عبد الحميد عبد الرحيم، نفس المرجع السابق ص 103 :
8 محمد السيد و رمضان السيد، الفئات الخاصة من منظور الخدمة الإجتماعية ص 98 :
9 عبد العزيز السرطاوي، تربية ذوي الإحتياجات الخاصة في مطلع الألفية الثالثة ص 8 :
10 عبد العزيز السرطاوي، نفس المرجع السابق، ص 15 :
11 عبد الرحيم شراح، نفس المرجع السابق، ص 25 :
12 عبد العزيز السرطاوي، اضطرابات اللغة والكلام، ص 121 :
13 عائشة عبد الله، التربية الخاصة بين الواقع والطموح، ص 66 :
14 علي ابراهيم الزهراني، حقوق المعاقين في التربية الإسلامية، ص 19 :
15 ماجدة السيد عبيد، الوسائل التعليمية للتربية الخاصة، ص 97 :
16 الجريدة الرسمية : رقم 33 الصادرة في 31 ماي 2009
17 القانون التوجيهي للتربية رقم 04 . 08 المؤرخ في 23 جانفي 2008 :
18 فاروق الروسان، قضايا ومشكلات في التربية الخاصة ص 214 :
19 علي السيد وآخرون، إضطرابات الإنتباه لدى الأطفال ص، 44 :

مدى مساهمة الظروف الفيزيقية (الضوضاء، الحرارة، الإنارة) في وقوع حوادث العمل

دراسة ميدانية بمؤسسة القلد(SOTRIFIT) -تيارت

الأستاذة حمداة ليلى، جامعة تيارت

الأستاذ الدكتور مباركي بوحفص، جامعة وهران

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة مدى مساهمة الظروف الفيزيقية في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد لولاية تيارت، وللتحقق من أهداف الدراسة قاما الباحثان بتصميم استبيان يقيس مدى مساهمة الظروف الفيزيقية (الضوضاء، الحرارة، الإنارة) في وقوع حوادث العمل، يتكون من تسعة وعشرون (29) عبارة موزعة على ثلاثة (03) أبعاد، هي مساهمة الضوضاء في وقوع الحوادث ومساهمة الحرارة في وقوع الحوادث ومساهمة الإنارة في وقوع الحوادث، تم تطبيقه على عينة عشوائية مكونة من أربعين (40) عاملا منفذا، وأسفرت نتائج الدراسة على ما يلي:

- تساهم كل من الضوضاء والحرارة بدرجة عالية في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد.
- تساهم الإنارة بدرجة عالية جدا في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد.

الكلمات المفتاحية: حوادث العمل، الضوضاء، الحرارة، الإنارة.

Abstract:

The objective of this study is to know the contribution of physical conditions in an occurrence of work accidents at “SOTRIFIT” institution in Tiaret. However to make sure of the objectives, we have designed a questionnaire which has measured the contribution of physical conditions (noise, heat, lighting) in the occurrence of work accidents. It contains twenty nine (29) terms that were distributed for three (03) aspects: the contribution of noise, heat and lighting in

work accidents, then it is applied over random pattern which is a sample of forty (40) executive workers. We attained the following the results of this study:

The noise and the heat contributed highly in the occurrence of work accidents at SOTRIFIT institution.

The lighting contributed very highly in the occurrence of work accidents.

Key words: work accidents, noise, heat, and lighting.

1- المقدمة:

نتيجة المنافسة الاقتصادية لدول العالم، فان وتيرة التصنيع المتسارعة أدت إلى العمل تحت ظروف خطيرة وصعبة، كذلك الاستعمال المكثف والاعتماد الكلي على الآلات في كافة مجالات الحياة وفي عالم الشغل على وجه التحديد، حيث أصبح الإنسان في ظل هذا التطور التكنولوجي لا يستغني على خدمة الآلات، مما جعل اغلب حوادث العمل ترتبط بسوء العلاقة بين الإنسان والتقنية محل الاستعمال، وتكمن أهمية دراسة ظاهرة حوادث العمل في كونها تتسبب في خسائر فاضحة التي تتركها على مستوى الأفراد، أو المؤسسة كإطار تنظيمي، اجتماعي ينتمي إليه الفرد.

ونظرا لأهمية هذه الظاهرة نجد العديد من الدراسات والمقاربات التي تناولت موضوع حوادث العمل من جوانب مختلفة، منها الجانب السيكولوجي، الاجتماعي، الفيزيقي، التقني، الاقتصادي .... الخ، فمن خلال دراستنا هذه سنحاول دراسة حوادث العمل من جانبها الفيزيقي المتمثل في: الضوضاء، الحرارة، الإنارة بمؤسسة القلد، التي تندرج ضمن صناعة الحديد والصلب والذي يعتبر من أكثر الصناعات الحافلة بالمخاطر المهنية وظروف العمل الصعبة الراجعة إلى طبيعة نشاطاته والعمليات التي يقوم بها العمال، فمثلا عملية صهر الحديد وشحن الأفران تتطلب درجة حرارة عالية، فضلا عن الضوضاء المرتفعة الصادرة من الآلات والتجهيزات الخاصة بالعمل.

2- الإشكالية:

من اكبر المشاكل التي تهدد القائمين على العمل وكذلك العاملين في بلدان العالم المختلفة سواء المتقدمة منها أو السائرة في طريق النمو، هي مشكلة حوادث العمل كونها تكلف البلدان الكثير من

النفقات المادية والمعاناة النفسية والاجتماعية، تؤكد في ذلك إحصائيات المكتب الدولي للشغل (BIT) أن 270 مليون عامل يموتون سنويا بسبب الحوادث والأمراض المهنية، وتؤدي هذه الأخيرة إلى معاناة 160 مليون عامل والتوقف عن العمل لمدة تفوق ثلاثة (03) أيام، إضافة إلى ارتفاع تكاليف التعويض عن هذه الحوادث ب 1250 مليار دولار سنويا [1] .

أما حوادث العمل في الجزائر حسب إحصائيات المعهد الوطني للوقاية من الأخطار المهنية(INPRP) سنة 2009 أن خمسون ألف 50000 حادث عمل يقع سنويا في مختلف القطاعات، وقد بلغ متوسط الحوادث مابين 750 إلى 800 حادث عمل مميت[2]. وحسب تصريح رئيس مصلحة حوادث العمل والأمراض المهنية لمؤسسة التأمينات الاجتماعية لولاية تيارت، أنه تم إحصاء 140 حادث عمل سنة 2014 في كل القطاعات.

يجمع المختصون في علم النفس العمل والتنظيم، الأرغونوميا، الأمن والسلامة المهنية، أن ظروف العمل الفيزيقية الصعبة والسيئة تساهم في وقوع الحوادث بالبيئة المهنية، هذا ما تؤكده الدراسات الميدانية التي أجراها ماكس فيبر(1910/1905)، الذي توصل من خلالها إلى الوقوف على الدور الكبير الذي تلعبه الظروف الفيزيقية والإنسانية في خلق الأجواء الآمنة والسليمة لأداء الأعمال، خاصة تلك التي تتضمن مخاطر آلية متعلقة بالأجهزة والمعدات التي يعمل عليها العمال[3] .

بينت دراسة أبرسون وفرنون Obsorne et Vernon (1922) حول العلاقة بين درجة الحرارة وحوادث العمل، أنه توجد علاقة واضحة بين درجات الحرارة ومعدلات الحوادث لدى مجموعات من عمال المصانع، حيث أن الحوادث تزداد كلما ارتفعت درجة الحرارة أو انخفضت عن المعدل المناسب، فدرجات الحرارة الغير المناسبة في مكان العمل تجعل العامل يحس بالضيق ويجذب انتباه العامل نحو نفسه، ومن تم يبتعد انتباهه عن العمل، وهكذا يحتمل أن يتورط في الحوادث.

كما توصل فرنون Vernon 1936 في دراسته حول حوادث العمل ومنعها، أن معدل حوادث العمل في ظروف الضوء الصناعي غير الكاف زاد بمقدار 25% تقريبا عن معدل الحوادث

في ضوء النهار الطبيعي، كما أن مهنا معينة أبدت تأثرا أكبر من غيرها فيما يتعلق بمعدل الحوادث بها [4] .

وتوصل أبدول رزاكو أياكا ريكو (2008) في دراسته حول أسباب حوادث العمل بالوحدات الصناعية، أن أغلب المعرضين لحوادث العمل تنقصهم الخبرة، والكفاءة المهنية وعدم استخدامهم لمعدات الوقاية الفردية أثناء مزاولتهم العمل، كما ترجع الحوادث إلى ظروف العمل الصعبة أهمها نقص التهوية، الإضاءة الغير الكافية، وارتفاع درجات الحرارة بورشات العمل[5] .

أما دراسة خلفان رشيد (2010) حول ظروف العمل الفيزيقية السائدة في مركز النسيج، توصل إلى أن ظروف العمل الفيزيقية السائدة في بيئة العمل هي ظروف صعبة، مجهدة وخطيرة لا تتلاءم مع المعايير التي تضمن السلامة والأمن للعمال، والتي من شأنها أن تكون سببا في وقوع الحوادث والأمراض المهنية [6] .

كذلك بالنسبة لدراسة لونيس علي وعبد الله صحراوي (2010) حول علاقة حوادث العمل بالظروف الفيزيقية في البيئة المهنية، بينت النتائج على وجود علاقة بين الظروف الفيزيقية (الإنارة، الضوضاء، التهوية، الغبار، أرضية مكان العمل) وحوادث العمل بمؤسسة الاسمنت، كما ابرزا أهمية المتغيرين (الحوادث والظروف الفيزيقية) في ميدان العمل، وعدم إهمال الظروف الفيزيقية من طرف المسؤولين وأرباب العمل عند صياغة سياسة منظماتهم ووحدات الإنتاج لديهم، لأنها تعتبر لدى الجميع عنصر أساسي من عناصر نجاح العملية الإنتاجية، وتحقيق الأهداف المسطرة للمؤسسة، بقدر ماهي كذلك متغير ذو اتجاهين للوقوع أو عدم الوقوع في حوادث العمل بالبيئة المهنية [7] .

من خلال كل ما سبق نستنتج أن حوادث العمل مرتبطة بالظروف الفيزيقية (الضوضاء، الحرارة، الإنارة) السائدة والغير المناسبة بحوادث العمل في البيئة الصناعية، وتحسين هذه الظروف يعمل على خلق بيئة أمنة خالية من المخاطر ومهددات الصحة والسلامة المهنية للعمال.

انطلاقا من كل هذا سنحاول التأكيد على حقيقة العلاقة القائمة بين الظروف الفيزيقية السائدة (الضوضاء، الحرارة، الإنارة) وحوادث العمل بمؤسسة القلد التي تعتبر بيئة عمل حافلة بالمخاطر وظروف فيزيقية صعبة راجعة إلى طبيعة النشاط بحد ذاته، وكذلك طبيعة المناخ الذي تتواجد به المؤسسة، الذي يتميز بارتفاع محسوس لدرجات الحرارة في فصل الصيف، وانخفاض محسوس لدرجات الحرارة في فصل الشتاء. وعليه نطرح التساؤل التالي: هل تساهم الظروف الفيزيقية السائدة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد؟

وللإجابة على التساؤل العام يجب الإجابة على التساؤلات الفرعية:

1- ما مدى مساهمة الضوضاء في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد ؟
2- ما مدى مساهمة الحرارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد ؟
3- ما مدى مساهمة الإنارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد ؟

3- أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الحالية إلى:

- معرفة مدى مساهمة الضوضاء في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد.
- معرفة مدى مساهمة الحرارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد .
- معرفة مدى مساهمة الإنارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد .

4-تحديد المفاهيم:

4-1الظروف الفيزيقية:

هي أحد العوامل التي يمكن أن تؤثر في سلوك العملين، وتشمل على الضوضاء، الحرارة مستويات الإنارة، وتضم أيضا سمات جمالية معينة مثل ألوان الجدران، الأرضية، ويتميز تأثير بعض

هذه الظروف على أداء العملين بكونه مباشرا وسلبيا إلى حد كبير، في حين أن عوامل أخرى كالألوان تتميز بتأثير غي مباشر وأقل [8] .

4-2الضوضاء: يعرفها كريتار على أنها عبارة عن الإشارات الصوتية التي يمكن أن تؤثر سلبا على الجانب الفيزيولوجي والسيكولوجي للفرد [9]، حيث تشكل مصدر إزعاج لكثير من القطاعات المهنية، فتعرض العامل المستمر لضوضاء عالية وبدون أجهزة الوقاية الفردية يؤدي به إلى الإصابة بالصمم المهني[10]، كما بينت العديد من الدراسات أنها تتسبب في تشتت الانتباه، ومن تم تزايد احتمال وقوع الحوادث لنقص الانتباه للأخطار التي تحيط بالفرد، كما أنعا تعزل الإشارات الصوتية عن العامل ، الشيء الذي يمنع وصول الكثير من المعلومات المتعلقة بالسلامة إلى العامل كجرس الإنذار أو إخطار زملائه في العمل باحتمال تعرضه لحادث أثناء العمل[11] .

4-3الحرارة:

هي احد أشكال الطاقة ويمكن أن تنتج في بيئة العمل من مصادر طبيعية مثل أشعة الشمس أو صناعية مثل الأفران وغيرها [12]، حيث اثبت الدراسات أن درجة الحرارة التي يعمل فيها الفرد تؤثر على عدد حوادث العمل والإصابات الناجمة عنها، فقد وجد أن إصابات العمل تكون عند حدها الأدنى عندما يعمل الفرد في درجة حرارة معتدلة، وكلما قلت درجات الحرارة أو زادت عن درجة الحرارة المثلى زاد معدل حوادث العمل، كما تبين أنه إذا زادت درجة الحرارة أو قلت بدرجة كبيرة فإنها تزيد من خطورة الحوادث وشدتها مما يتسبب في توقف العامل لفترة أطول عن العمل [13] .

4-4الإنارة:

هي الجزء المرئي من الطيف الكهرطيسي الواقع بين الأشعة تحت الحمراء والفوق البنفسجية والذي تتحسس له العين لترى الأشياء من حولها [14]، فالإنارة الجيدة غالبا ما تساعد العمال على رفع كفايته الإنتاجية بمجهود أقل، لأن هذه الكفاية غالبا ما تتوقف على الإدراك والدقة في التمييز

بين الأشياء المستعملة في العمل من أدوات، آلات ومواد، حيث إذا كان العامل يعمل تحت إضاءة غير موزعة بشكل كاف فإنها تسبب له التوتر والاضطراب في حواسه أو جوانب من جسمه، وكذلك كثرة الأخطاء وزيادة التعب، ومن جهة أخرى فإن تفاوت الأماكن المتقاربة في شدة الإضاءة وكثرة التنقل بين أماكن العمل تسبب إجهاد للعينين [15]، كما الإضاءة السيئة تتسبب في وقوع % 20 من حوادث العمل حسب The National Safety Council (NSC)[16].

4-5حوادث العمل:

هي أي إصابة يتعرض لها العامل، مما يؤدي إلى تعطيل النشاط المبذول، وما يترتب عن ذلك من خسائر مادية ومعنوية للعامل والمؤسسة على حد سواء [17] . أما من الناحية القانونية، فالقانون الجزائري 83-13 المؤرخ في يوليو 1983 المتعلق بحوادث العمل والأمراض المهنية، معدل ومتمم بالأمر رقم 96-19 المؤرخ في 06 جويلية 1996 والمادة رقم 06 يعتبر كحادث عمل كل حادث انجرت عنه إصابة بدنية ناتجة عن سبب مفاجئ وخارجي طرأ في إطار علاقات العمل [18] .

5-المنهج المعتمد في الدراسة: اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يتلاءم مع طبيعة الدراسة وتساؤلاتها.

6-عينة الدراسة: تم اختيار عينة عشوائية مكونة من أربعين (40) عامل تنفيذي بمؤسسة القلد لولاية تيارت.

6-1**خصائص العينة: الجدول رقم (01): يوضح توزيع العينة حسب السن:**

الفئات	العدد	النسبة المئوية
26 – 38	13	32.5
39–51	27	67.5
المجموع	40	100

من خلال الجدول نلاحظ أن اغلب أفراد العينة ينتمون إلى الفئة العمرية 39-51 سنة، ويرجع هذا إلى أن أغلب العمال توظفوا مع بعض منذ بدأ المؤسسة مهامها سنة 1992.

الجدول رقم (02): يوضح توزيع العينة حسب الأقدمية:

الفئات	العدد	النسبة المئوية
13-2	16	40
25-14	24	60
المجموع	40	100

من خلال الجدول نلاحظ أن أغلب أفراد العينة ينتمون إلى الفئة 14-25 سنة بنسبة 60 %، ويرجع هذا إلى أن أغلب العمال توظفوا معا منذ أن بدأت المؤسسة نشاطاتها سنة 1992.

الجدول رقم (03):

يوضح توزيع العمال المعرضين وغير المعرضين لحوادث العمل حسب السن

السن	التعرض للحوادث	العدد	النسبة المئوية
36- 38	**نعم**	04	10
	لا	09	22.5
39- 51	**نعم**	11	27.5
	لا	16	40
المجموع		40	100

من خلال نلاحظ أن أعلى نسبة للمعرضين للحوادث كانت ب 37,5 %، حيث سجلت أعلى نسبة للتعرض بالفئة العمرية 39-51 سنة، قدرت ب 27.5 %، يرجع هذا إلى أن اغلب أفراد العينة يتراوح سنهم مابين 39 و51 سنة، لذا لا يمكن المقارنة بين الفئتين في التعرض للحوادث.

الجدول رقم (04):

يوضح توزيع العمال المعرضين وغير المعرضين لحوادث العمل حسب الأقدمية

السن	التعرض للحوادث	العدد	النسبة المئوية
2- 13	**نعم**	06	15
	لا	10	25
14- 25	**نعم**	09	22,5
	لا	15	37,5
المجموع		40	100

من خلال الجدول نلاحظ أن نسبة المعرضين للحوادث بلغت 37.5%، إذ بلغت أعلى نسبة للحوادث بالنسبة لفئة الاقدمية 14-25 سنة ب 22.5 %، ويرجع هذا إلى أن أغلب أفراد العينة تتراوح مدة عملهم مابين 14 و25 سنة لذا لا يمكن المقارنة بين الفئتين في التعرض للحوادث.

7-الأساليب الإحصائية: تم الاعتماد في الدراسة على الأساليب الإحصائية التالية:

النسب المؤوية، الانحراف المعياري، معامل ألفا كرونباخ، المتوسط الحسابي، متوسط الحسابي للبعد.

الفئات: مساهمة ضعيفة جدا (1-1.8)، مساهمة ضعيفة (1.8-2.6)، مساهمة متوسطة (2.6-3.4)، مساهمة عالية (3.4-4.2)، مساهمة عالية جدا (4.2-5).

8-أداة الدراسة: استخدمت الباحثة استبيان يقيس مدى مساهمة الظروف الفيزيقية في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد حيث تم بناء الاستبيان بناء على الثرات النظري للدراسة، تكون الاستبيان على تسعة وعشرون (29) عبارة موزعة على ثلاثة أبعاد وهي الظروف الفيزيقية، الحرارة، الإنارة. تم عرض الاستبيان على مجموعة من المحكمين (03 محكمين) في تخصص علم النفس العمل

والتنظيم من قسم علم النفس وعلوم التربية بجامعة ورقلة وقسم العلوم الاجتماعية جامعة تيارت، ووفق اقتراحاتهم تم إعادة الصياغة اللغوية لبعض الفقرات. وقد تم التأكد من الخصائص السيكوميترية للاستبيان من حيث صدقه وثباته.

8-1 صدق الاتساق الداخلي :

بلغت درجة البعد الأول مع الدرجة الكلية 0.66 وهي دالة عند 0.01 .

بلغت درجة البعد الثاني مع الدرجة الكلية 0.73 وهي قيمة دالة عند 0.01 .

بلغت درجة البعد الثالث مع الدرجة الكلية 0.45 وهي قيمة دالة عند 0.01 .

و منه تستنتج أن الاستبيان يتمتع بدرجة صدق مرضية .

8-2 ثبات الأداة: تم حساب الثبات لكل بعد على حدا وللاستبيان ككل باستعمال طريقة ألفاكرونباخ، والجدول التالي يبين نتائج حساب الثبات:

الجدول رقم (05): يوضح نتائج معامل ألفا كرونباخ لاستبيان مدى مساهمة الظروف الفيزيقية في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد

البعد	قيمة ألفا كرونباخ	قيمة ألفا كرونباخ لمجموع الأبعاد
مساهمة الضوضاء	0.88	0.85
مساهمة الحرارة	0.85	
مساهمة الإنارة	0.70	

كما هو مبين في الجدول رقم (05) تم التأكد من ثبات الاستبيان باستعمال معامل ألفا كرونباخ، والملاحظ كل معاملات الأبعاد مرتفعة، في حين كان معامل الثبات للاستبيان ككل

مرتفع حيث قدر 0.85، مما يمكنا القول بأن الاستبيان يتمتع بدرجة مرضية من الثبات وبالتالي يمكن الاعتماد عليه في الدراسة الأساسية.

9_ عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

9-1 نتائج التساؤل الأول: نص التساؤل: ما مدى مساهمة الضوضاء في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد، وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسبة المئوية لكل بديل، بعدها حساب المتوسط الحسابي لكل فقرة ثم حساب متوسط البعد ككل، بعدها إدراج المتوسط الحسابي للبعد في الفئة التي ينتمي إليها .

جدول رقم(06): يوضح الانحرافات المعيارية والمتوسطات الحسابية والنسب المئوية لاستجابات العمال لبعد مساهمة الضوضاء في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد

مساهمة الضوضاء في ووقوع الحوادث	دائما %	غالبا %	أحينا %	نادرا %	أبدا %	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
تسبب لي الضوضاء المرتفعة الوقوع في حادث بعملي	10	65	2,5	20	2.5	3.60	1.00
أرتكب أخطاء في عملي بسب الضوضاء المرتفعة	5	75	0	17.5	2.5	3.67	0.82
أفقد التركيز أثناء عملي بسبب الضوضاء المرتفعة	5	75	7.5	12.5	0	3.72	0.75
يتشتت انتباهي في العمل بسبب الضوضاء المرتفعة	2,5	82.5	2,5	12.5	0	3.75	0.70
افقد التركيز في العمل بسبب الضوضاء المتقطعة	5	70	7.5	17,5	0	3.62	0.83
افقد التركيز في العمل بسبب الضوضاء المستمرة	12,5	57.5	2,5	27.5	0	3.55	1.03
استعمالي لمعدات الوقاية من الضوضاء يجنبني الحوادث	40	42.5	2,5	15	0	4.07	1.02
أرى أن التقليل من الضوضاء يساهم في رفع تركي أثناء العمل	25	62.5	2.5	10	0	4.02	0.83
تعرضي لضوضاء مرتفعة لفترات طويلة يوشك ارتكاب حادث عمل	20.5	82.5	2.5	12.5	0	3.75	0.70
اشعر بالقلق والتوتر أثناء عملي بسبب الضوط المرتفعة	17.5	67.5	2.5	12.5	0	3.45	0.98
المتوسطات	14.3	68	3.2	15.7	0.5	3.72	

من خلال الجدول رقم (06) نلاحظ أن أعلى نسبة لإجابات العمال كانت على البديل غالبا بنسبة 68 %، **تليها نسبة** 15.7 % على البديل نادرا، ثم نسبة 14.3% على البديل دائما، و3.2 % على البديل أحيانا، أخيرا 0.5% على البديل نادرا .كما قدر المتوسط الحسابي للبعد ب 3.72 وهو ينتمي إلى المجال (3.4-4.2) الذي يعبر على المساهمة العالية، ومنه نستنتج أن الضوضاء تساهم بدرجة عالية في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد من وجهة نظر العمال.

9-2 عرض نتائج التساؤل الثاني: الذي ينص: ما مدى مساهمة الحرارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد ؟، وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسبة المئوية لكل بديل، ثم حساب المتوسط الحسابي لكل فقرة، ثم حساب متوسط البعد ككل، بعدها إدراج المتوسط الحسابي للبعد في مجال المساهمة الذي ينتمي إليه.

جدول رقم(07): يوضح الانحرافات المعيارية والمتوسطات الحسابية والنسيب المئوية لاستجابات العمال لبعد مساهمة الحرارة في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد

مساهمة الحرارة في ووقوع الحوادث	دائما %	غالبا %	أحينا %	نادرا %	أبدا %	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
أفقد التركيز في عملي بسبب الحرارة المرتفعة	10	55	7 .5	27.5	0	3.47	1.01
أشعر بالخمول والفشل بسبب الحرارة المرتفعة في مكان عملي	10	70	17.5	2 .5	0	3.72	0.87
أتعرض لحوادث العمل بسبب الحرارة المرتفعة في العمل	7,5	50	15	25	2.5	3.35	1.02
أفقد القدرة على التحكم في معدات العمل بسبب البرودة	20	47.5	5	27.5	0	3.60	1.10
أتعرض لحوادث العمل بسبب	7.5	42.5	12.5	37.5	0	3 .20	1.04

البرودة في مكان العمل							
افقد التركيز في العمل بسبب البرودة في العمل	5	62.5	10	22.5	0	3.50	0.90
تزيد الحرارة المرتفعة من عصبيتي أثناء العمل	12.5	50	5	32.5	0	3.42	1.08
تؤدي بي البرودة في عملي إلى ارتكاب أخطاء	5	60	7.5	27.5	0	3.42	0.95
الحرارة المرتفعة تؤدي بي إلى ارتكاب أخطاء أثناء عملي	7.5	57.5	7.5	27.5	0	4.02	0.61
المتوسطات	9.44	55	10.2	25.5	0.27	3.52	

من خلال الجدول رقم (07) نلاحظ أن أعلى نسبة للإجابات كانت على البديل غالبا بنسبة 55 % تليها الإجابة على البديل نادرا بنسبة 55.5 %، ثم الإجابة على البديل أحيانا بنسبة 10.2 %، ثم الإجابة على البديل دائما بنسبة 9.44 %، أخيرا الإجابة على البديل نادرا بنسبة 0.27 %، كما قدر المتوسط الحسابي للبعد ب 3.52 وهي قيمة تنتمي إلى المجال (3.4-4.2) وهو المجال الذي يعبر على المساهمة العالية، ومنه نستنتج أن الحرارة تساهم بدرجة عالية في وقوع الحوادث بالمؤسسة .

9-3عرض نتائج التساؤل الثاني: الذي ينص:ما مدى مساهمة الإنارة في وقوع حوادث العمل بمؤسسة القلد ؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسبة المئوية لكل بديل، ثم حساب المتوسط الحسابي لكل فقرة، بعدها حساب المتوسط الحسابي للبعد ككل، ثم إدراج المتوسط الحسابي للبعد في مجال المساهمة الذي ينتمي إليه.

جدول رقم(08): يوضح الانحرافات المعيارية والمتوسطات الحسابية والنسيب المئوية لاستجابات العمال لبعد مساهمة الإنارة في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد

مساهمة الإنارة في ووقوع الحوادث	دائما %	غالبا %	أحينا %	نادرا %	أبدا %	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
الإنارة الجيدة ضرورية في عملي.	77.5	17.5	5	0	0	4.72	0.55
تؤدي بي الإنارة الضعيفة إلى ارتكاب حاث عمل	42.5	55	2.5	0	0	4.40	0.54
تسبب لي الإنارة الغير المنسجمة الوقوع في حادث عمل.	10	67.5	7.5	15	0	3.72	0.84
الإنارة الجيدة ليلا تجنبني الوقوع حادث عمل	57.5	40	2.5	0	0	4.55	0.55
ارتكب أخطاء في عملي بسبب الإنارة غير المناسبة	35	62.5	2.5	0	0	4.32	0.52
الإنارة غير الكافية نهارا تؤدي بي ارتكاب حوادث عمل	35	65	0	0	0	4.35	0 .48
عدم نظافة النوافذ يودي بي إلى ارتكاب حوادث	20	62.5	17.5	0	0	4.40	0.54
عدم توزيع الإنارة بشكل جيد الورشات يؤدي بي إلى ارتكاب حوادث عمل.	42.5	55	2 .5	0	0	4.22	0.73
تسبب الإنارة غير كافية ليلا الاصطدام بمعدات العمل	35	57 .5	2.5	5	0	3.90	0.84
الإنارة غير المنسجمة ليلا تؤدي بي ارتكاب حادث عمل	37.5	52.5	2.5	7.5	0	4 .20	0 .82
المتوسطات	39.25	47.2	4.5	2.75	0	4.24	

من خلال الجدول رقم (08) نلاحظ أن أعلى نسبة لإجابات العمال كانت على البديل غالبا بنسبة 47.2 %، تليها نسبة 39.25% على البديل دائما، ثم 4.5% على البديل أحيانا، كما بلغ المتوسط الحسابي للبعد 4.24 وهي قيمة تنتمي إلى مجال المساهمة العالية جدا (4.20-5)، ومنه نستنتج أن الإنارة تساهم بدرجة عالية جدا في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد.

10-مناقشة النتائج:

10-1 مناقشة التساؤل الأول:

نص التساؤل: هل تساهم الضوضاء في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسب المئوية لإجابات العمال على كل فقرة من البعد وبالبعد ككل وحساب متوسط البعد لمعرفة مدى إسهام الضوضاء في وقوع الحوادث بالمؤسسة، كانت النتيجة بأن الضوضاء تساهم في وقوع الحوادث وبدرجة عالية، أي أن للضوضاء السائدة بورشات العمل علاقة بوقوع الحوادث بالمؤسسة.

من خلال الجدول رقم (06) يتضح أن 65 % من أفراد العينة اتفقت على الضوضاء المرتفعة غالبا ما تسبب الوقوع في حوادث العمل، و82.5 65 % من أفراد العينة اتفقت على الضوضاء تسبب تشتت الانتباه في العمل.

وقد اتفقت هده النتيجة مع العديد من الدراسات التي أكدت أن الضوضاء تتسبب في تشتيت الانتباه، ومن ثم يزيد احتمال في وقوع الحوادث، لنقص الانتباه للأخطار التي تحيط بالفرد[19]

.

كما نلاحظ من خلال الجدول رقم (06) أن 67.5 %من أفراد العينة اتفقت على أن الضوضاء المرتفعة غالبا ما تسبب الشعور بالقلق والتوتر أثناء العمل.

تتفق هذه النتيجة مع ما أشار إليه فرنس واز وآخرون (1975) Françoise et Autre " الأماكن التي تكثر فيها الضوضاء يشعر العاملين فيها بالضيق، والاكتئاب، والضيق، والعصبية، والإرهاق، وكلها عوامل قد تؤدي بالعامل للوقوع في حوادث "[20].

وقد اتفقت نتائج الدراسة مع ما توصلا إليه لونيس علي وصحراوي عبد الله (2013) في دراستهما حول علاقة حوادث العمل بالظروف الفيزيقية، حيث توصلا إلى أن الضوضاء المرتفعة في مكان العمل تؤثر على سلامة العامل ويجعل لديه صمما، وبالتالي فانه يفقد حاسة أساسية للوقاية من حوادث العمل، كما أن استمرار تعرض العامل لهذه الضوضاء يؤثر على سلامته وسلامة زملائه في العمل، كذلك توصلا إلى ضرورة تزويد مختلف الآلات والأجهزة بالعوازل لامتصاص الضوضاء الناتجة عن عملية تشغيل إضافة إلى ضرورة توفير الوسائل الوقاية الجماعية والفردية فيما يخص التعرض للضوضاء [21]، وهذا ما أكدته نتائج هذه الدراسة حيث أن 82.5 % من أفراد العينة اتفقت على أن التعرض المستر للضوضاء المرتفعة غالبا ما يؤدي بالعمال إلى ارتكاب حوادث عمل، و42.5 % من أفراد العينة اتفقت على أن استعمال معدات الوقاية الشخصية غالبا ما يجنب العمال من ارتكاب الحوادث .

10-2مناقشة نتائج التساؤل الثاني:

نص التساؤل: هل تساهم الحرارة: في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسب المئوية لإجابات العمال على كل فقرة من البعد والبعد ككل وحساب متوسط البعد لمعرفة مدى إسهام الضوضاء في وقوع الحوادث بالمؤسسة، كانت النتيجة بأن الحرارة تساهم في وقوع الحوادث وبدرجة عالية، أي أن للحرارة السائدة بورشات العمل علاقة بوقوع الحوادث بالمؤسسة. حيث نجد 55 % من أفراد العينة اتفقت على أن الحرارة المرتفعة غالبا ما تساهم في وقوع الحوادث، و57.5 % من أفراد العينة أن الحرارة المرتفعة غالبا ما تؤدي بالعمال إلى ارتكاب حوادث، كما أن 62.5 % من أفراد العينة اتفقت على أن درجة الحرارة المنخفضة غالبا

ما تؤدي بالعمال إلى فقدان التركيز أثناء العمل، و47.5% من أفراد العينة اتفقت على أن درجات الحرارة المنخفضة غالبا ما تسبب للعمال فقدان القدرة على التحكم في المعدات العمل.

وقد اتفقت هذه النتيجة مع ما توصل إليه أبسرون وفرنون (1992) Obsorne et Vernon في بحثه حول العلاقة الموجودة بين درجة الحرارة والحوادث بين جماعات العمل من عمال المصانع، فتبين لهما أن معدل الحوادث يبلغ أقصى درجات انخفاضه في حالة درجات الحرارة المعتدلة، حيث أن درجة الحرارة المرتفعة في مكان العمل يزيد من شعور العمال بالضيق، والضغط النفسي، فينعكس بالتالي على كفاءته في أدائه للعمل، ويزيد من احتمال تورطه في الحوادث، كما أن انخفاض درجة الحرارة يجعل العامل يحس بالضيق، ويجذب انتباه العامل نحو نفسه، ومن تم يقل انتباهه فيزيد من احتمال وقوعه في حوادث [22] .

10-3مناقشة التساؤل الثالث:

نص التساؤل: هل تساهم الإنارة: في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم حساب النسب المئوية لإجابات العمال على كل فقرة من البعد والبعد ككل وحساب متوسط البعد لمعرفة مدى إسهام الضوضاء في وقوع الحوادث بالمؤسسة، كانت النتيجة بأن الإنارة تساهم في وقوع الحوادث بدرجة عالية جدا، أي أن للإنارة السائدة بورشات العمل علاقة بوقوع الحوادث بالمؤسسة.

من خلال الجدول رقم (08) يتضح لنا 55 % من أفراد العينة اتفقت على أن الإنارة الضعيفة غالبا ما تؤدي بالعمال إلى الوقوع في الحوادث، و57 % اتفقت على أن الإنارة غير الكافية ليلا غالبا ما تؤدي بالعمال إلى الوقوع في الحوادث، و57 % اتفقت على أن عدم توزيع الإنارة بشكل جيد في الورشات غالبا ما يؤدي إلى ارتكاب حوادث العمل. وقد اتفقت هذه النتيجة مع ما جاء في بحث أجراه فيرنون H .M. Vernon من الوقاية حول حوادث العمل، اتضح أن الإضاءة الصناعية يتسبب عنها زيادة قدرها 25 % من مجموع الحوادث.

ومن خلال الإحصاء الذي قامت به إحدى شركات التأمين لجميع الحوادث، أن 25 % منها ترجع إلى رداءة أو سوء الإضاءة[23]. حيث تسبب الإضاءة السيئة تشويش في رؤية العين، هذا ما يؤثر سلبا على الفرد العامل وتصبح رؤيته للآلات الموجودة أمامه غير واضحة فيصطدم بها، أو أنه يمشي على بعض الأجسام المنتشرة في الأرض (قطع الحديد، حجارة صغيرة .... الخ) مما تتسبب له في التعثر والانزلاق، كما تفيد الإنارة المناسبة في التقليل من إجهاد العين وارتفاع مستوى دقة العامل وبالتالي تساعد على تقليل الإصابات والحوادث [24] .

11-خاتمة:

لقد تم إلقاء الضوء من خلال الدراسة الحالية على موضوع مساهمة الظروف الفيزيقية في وقوع الحوادث بمؤسسة القلد لولاية تبارت، كون موضوع الظروف الفيزيقية من الموضوعات الأرغونومية التي تثير اهتمام العديد من التخصصات ذات العلاقة، على غرار علم النفس العمل والتنظيم، طب العمل، الأمن والوقاية والسلامة المهنية، وغيرها، ولذلك يتطلب هذا النوع من الموضوعات الأرغونومية تناولا شاملا على المستوى الكلي للأرغونوميا، نظرا لما له من تأثير كبير في انتشار الحوادث بالبيئة المهنية عامة والصناعية خاصة، تتضافر فيه جهود كل التخصصات ذات العلاقة لتحديد معايير أرغونومية خاصة بالبيئة المحلية تساعد على تحسين الظروف الفيزيقية من حيث مستويات ومدة التعرض، كذلك توفير الإجراءات الوقائية من معدات السلامة الجماعية والفردية، اللوائح الإرشادية، إلزامية تطبيق القوانين الخاصة بالسلامة المهنية، كذلك بالتوعية والتدريب على التعامل مع المخاطر الموجودة في بيئة للعمل، للوصول في الأخير إلى خلق بيئة عمل خالية من المخاطر والقضاء على حوادث العمل .

12-الاقتراحات:

- توعية العمال بالمخاطر الموجودة في مكان عملهم وتدريبهم على كيفية التعامل معها.
- توفير معدات الوقاية الشخصية ذات فعالية ونوعية جيدة تتناسب مع أبعادهم الجسمية قصد توفير لهم الراحة والأمان أثناء العمل.

- الصيانة الدورية للآلات المصدرة للضوضاء
- الصيانة الدورية للمصابيح والنوافذ.
- توفير ملاجئ للراحة بعيدة عن ورشات العمل.
- الفحص الطبي الدوري للعمال المعرضين (الضوضاء، الحرارة، الإنارة السيئة)
- إجراء قياسات دورية من قبل مصلحة الأمن والوقاية بالمؤسسة لمستويات الضوضاء، الإنارة، الحرارة.
- وضع لوائح تحذيرية أمام مداخل الورشات التي بها ضوضاء مرتفعة ووضع عليها صور تنص على إجبارية ارتداء معدات حماية السمع قبل دخول الورشة ومباشرة العمل.
- توعية العمال بمدى أهمية معدات الوقاية الشخصية في الوقاية من الإصابات الناتجة عن حوادث العمل.
- إجبارية ارتداء العمال لمعدات الوقاية الشخصية ومعاقبة العمال المخالفين للتعليمات الوقائية.

الهوامش:

1- مقداد محمد، مواجهة الحوادث المهنية بين مقاربتي المواءمة المهنية والأمن الصناعي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي حول المعاناة في العمل جامعة ورقلة، 2010، ص1- 14 .

2- ناتش فريد، نظام العمل بالدوريات وتأثيره على حوادث العمل،دراسة ميدانية في مؤسسة النظافة،رسالة ماجستير في علم النفس العمل والتنظيم، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، الجزائر، 2010/2011 .

3- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الصناعي، النشأة والتطورات الحديثة، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان ،1998 .

4- فرج عبد القادر طه، سيكولوجية الحوادث وإصابات العمل(دراسة نظرية وميدانية)، مكتبة الخانجي، القاهرة،1979 .

5- . Abdoul Razakou Abacar Dicko, accident du travail « étude épidémiologique dans les unités industrielles de la commune urbaine de Koulikoro, thèse de doctorat, faculté de médecine ; de pharmacie et d'ordouto-stomatomogie, universite Bamako.2008

6- خلفان رشيد، تحليل ودراسة ظروف العمل السائدة في المؤسسة الإنتاجية الجزائرية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا ،الجزائر،2009-2010 .

7- لونيس علي، عبد الله صحراوي، علاقة حوادث العمل بالظروف الفيزيقية في البيئة المهنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي حول المعاناة في العمل جامعة ورقلة، 2010، ص452-466.

8- رونا لدي.ي.ريجيو، ترجمة فارس حليمي، المدخل إلى علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار الشروق للنشر والتوزيع ،ط1 ،عمان ،1999 .

9- حمو بوظريفة، الضوضاء خطر على صحتك، تيكنيكو كولور للنشر، 2002

10– Thiéry.L et Canetto .P, évaluer et mesurer l'exposition professionnelle au bruit, INRS, ED 6035, 2009.

www.**inrs**.fr/dms/**inrs**/GenerationPDF/accueil/risques/**bruit**/**Bruit**.pdf

11- فرج عبد القادر، علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار المعارف، ط6، 1988.

12- مجدي إبراهيم أبو العلا، الأمن الصناعي: ضرورة حتمية، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2012.

13- مباركي وآخرون، دراسات أرغونومية لظروف العمل والحوادث المهني، إصدارات مخبر الأرغونوميا والوقاية من الإخطار جامعة وهران، دار الأنيس للنشر والتوزيع، الجزائر،2014.

14- مباركي بوحفص، 2004، مرجع سابق.

15- مباركي وآخرون، 2014، مرجع سابق.

16- مباركي بوحفص، 2004، مرجع سابق .

17- حميدي ياسين وآخرون، علم النفس الصناعي والتنظيمي بين النظرية والتطبيق، دار الكتاب الحديث، ط1، 1999.

18- عبد الرحمن خليفي، الوجيز في منازعات العمل، والضمان الاجتماعي،دار العلوم للنشر والتوزيع الجزائر، 2008 .

19- فرج عبد القادر، 1988، مرجع سابق.

20- مباركي وآخرون، دراسات أرغونومية لظروف العمل والحوادث المهني، إصدارات مخبر الأرغونوميا والوقاية من الإخطار جامعة وهران، دار الأنيس للنشر والتوزيع، الجزائر،2014.

21- لونيس علي، صحراوي عبد الله، 2010، مرجع سابق.

22- فرج عبد القادر طه،1979، مرجع سابق .

23- عبد الرحمن العيسوي، علم النفس الصناعي، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان .

24-مباركي وآخرون، 2014، مرجع سابق.

آلام الظهر معاناة في العمل

الدكتور ماريف منور، جامعة تيارت

الملخص: تعد معضلة آلام الظهر؛ السبب الرئيسي لحالات العجز لدى العامل في جميع بلدان العالم، كما تعتبر ضمن ثلث الإعاقات الناجمة عن العمل وما يلاقيه الفرد العامل من أتعاب، حيث أثبتت الدراسات أن عمال حوالي 180 بلد يعانون من هذا المشكل، كما أن 9.4% من سكان العالم بما فيهم الأطفال يعانون آلاما في الظهر، وهي تخص معظم البلدان كأوروبا الغربية، وشمال إفريقيا، والشرق الأوسط، في حين تم تسجيل أضعف المعدلات في أمريكا اللاتينية، وأشار الباحثون إلى أن مشاكل آلام الظهر، تزداد مع تقدم سن العامل، وممارسة الأعمال المتعبة أيضا.

أكدت الدراسات من خلال إحصائيات المسح بالولايات المتحدة؛ أن حوالي 22,4 مليون حالة تعاني آلاما في الظهر لدى العمال، مما أدى إلى ضياع 141,1 مليون يوم من العمل. تشير دراسات أخرى أيضا وبالتحديد؛ أن آلام الظهر تظهر بدءا من السن الأربعين (40)، والأقدمية في العمل، التي تتجاوز الخمس (05) سنوات، كما تمس مختلف العمال في مختلف الأنشطة المهنية؛ 18% في الصناعات الخفيفة، 58% في الأشغال الميكانيكية، وفي مختلف المهن والوظائف.

نعتقد إذن من خلال هذه الإحصائيات، ظهور انعكاسات صحية وخيمة، قد لا يشعر بها العامل الا بعد فوات الأوان؛ خاصة وأنها تمس مختلف مناطق الظهر، الأمر الذي دفع بنا إلى الوقوف عند هذا الموضوع من خلال طرح التساؤل التالي:

ما درجة تأثير مشكلة آلام الظهر على العامل؟ وإلى أي مدى يمكن اعتباره معاناة حقيقية للعامل؛ كونها مصاحبة له طوال حياته المهنية؟ وماهي الاستراتيجيات الممكنة للحد منها؟

الكلمات المفتاحية: الألم –آلام الظهر –وضعيات العمل –المعاناة في العمل –العمل.

Abstract: Back Pains is seen to be an acute problem, the main cause of disability and cease to workers in all countries of the word. Besides, it is

considered the cause of one third of disabilities due to work and what the worker is facing from tiredness at work as studies showed that workers in 180 countries suffer from that trouble and 9.4 from the word population amongst children suffer from the pains in the back. This concerns most of the countries in west Europe, North Africa, the Middle East, Latin America as well as we reported the lowest avenges in Latin America. Moreover, researchers throughout the browsing statistics in the USA show that a most 22.4 million case suffer from Back Pains from workers which resulted to loss of 141.1 days of work.

Other studies also show that back Pains start by the age of 40 and the anciently which goes beyond 5 years of work as it touches different workers in different professional activities; 18% light industry, 58% in mechanical tasks and in all different professions and functions. We, through these statistics, believe that acute and serious effects appear which can't be felt by workers just after being rooted and touching different part of the back the point that pushes us to stand on it through presenting the following question:

To what extent does Back Pain hurt the worker? And to what extent it represents a real suffering to the worker as it accompanies him during all his work? and what strategies to be taken to limit it up?

Keywords: Pains - back ,Pains, Work (labour) positions, Suffers at Work, Work (labour)

مقدمة:

أصبحت مشكلة آلام الظهر من المشاكل الصحية العويصة والشائعة التي لم يسلم منها غالبية الأفراد بمختلف أعمارهم. أصبح المشكل أكثر تفاقما، خاصة في الوسط المهني بمختلف مجالاته؛ بمعنى كل الوضعيات التي يوجد بها العامل أو الموظف، بتعبير أدق؛ أن ألم الظهر، لم يعد يمس العمال الذين يشتغلون في الأعمال ذات الإرهاق الجسدي فقط، بل تعدى ذلك، وأصبح يعاني منه الفرد في الوضعيات العادية كوضعيات الجلوس او الاسترخاء للنوم مثلا.

يُشير "محمد أحمد محرم" أن أكثر الأمراض شيوعا ومسبباتها هي الآلام العضلية، وآلام العمود الفقري؛ كأن تكون المشكلة في الفقرة ذاتها؛ كحدوث تجمع دموي أو نقص كثافة العظام، أو مابين الفقرات[1]. إن هذه الانعكاسات السلبية التي تقع على الجسم، هي نتيجة لمجموعة من

تصرفات، وكنتيجة لعادات غير لائقة؛ تتعلق بحمل الأثقال بطريقة خاطئة، وممارسات غير سوية؛ كالجلسة الغير الصحيحة، والحركة العفوية الفجائية التي يقوم بها الفرد.

1.تحليل المفاهيم:

1.1.الألم: يعتبر الألم مؤشرا على وجود مرض، يتم معرفته من خلال عملية التشخيص الطبي أو الاكلنيكي، أما تحديد طبيعته، فتبقى من تخصص الطبيب (chast, 1995) ، تزيد حدة المرض عندما يبذل الفرد مجهودا أكثر من اللازم، وبالتالي يتم الشعور بالألم، من خلال تفاعلات كيميائية، كهربائية، تنقل الشعور بالألم من الأعصاب عن طريق النخاع الشوكي، وصولا إلى الدماغ، حيث تشكل الأعصاب المحيطة شبكة ألياف عصبية، وظيفتها نقل الشعور بالألم؛ كالجروح أو الحروق، وآلام المفاصل والعظام، مرورا بالنخاع الشوكي، وصولا إلى الدماغ، حيث يتم الشعور الحقيقي بالألم.

يمكن تحديد نوع الألم حسب المدة أو موقع الألم، فتبعا للمدة، قد يكون حادا كما قد يكون مزمنا، أما الحاد؛ فيحدُث عادة بسبب تعرض الأنسجة لضرر حاد، بحيث إذا لم يتم تدارك هذا الألم، قد يتحول إلى ألم مزمن؛ يصعب علاجه، أما الألم المزمن هو ألم مستمر، ينجم عادة من ضرر مستمر من بعض أنسجة الجسم، أو إصابة أعصاب الجسم، وتهيج يرافقه اكتئاب، وانكسار، وميل إلى العزلة.

إن الألم حسب الموقع قد يكون عضويا؛ بمعنى جسميا أو حسيا، ينجم عن تحفيز مباشر للمستقبلات الكيميائية أو الحرارية، مما يؤدي إلى الشعور بالألم الحاد، وبالتالي تكمن تأثيرات الألم الحاد على الفرد، كونه لا ينعكس على شكل ضرر جسدي فقط، بل على حياته كلها، بحيث يؤدي به إلى الاكتئاب وفقدان الشهية والاضطراب، بالإضافة إلى عدم التركيز، والميل إلى العزلة والانطواء.

1. 2. آلام الظهر: هي تلك الحالة المرضية التي تصيب الفرد، تنعكس في شكل نوبات ألم على مستوى منطقة الظهر؛ وبالتحديد على طول العمود الفقري، كما يتجسد الألم في مناطق

أخرى من جسم الإنسان؛ كالكتفين، الحوض، أو الفخذين والساقين، يحدده الباحث "قيو" Guo على أنه الألم الذي يعاني منه الفرد على مستوى الظهر كل يوم خلال أسبوع، أو أكثر خلال مدة اثنا عشر شهرا. (2)

تظهر أهمية حدة الألم، انطلاقا مما اتفق عليه أغلب الباحثين في مجال الأمن والوقاية على أن آلام الظهر؛ هي أهم الأمراض المهنية التي تتطلب تعويضات مالية، حيث يقترح "راو" Rowe أحد خبراء موضوع أوجاع الظهر أن نسبة 56% من العمال يعانون أعراضا مرضية تتعلق بآلام الظهر خلال حياتهم المهنية، وحوالي نصف هؤلاء العمال كانت هذه الآلام سببا في غيابهم عن العمل في فترات متفاوتة.

اقترنت عاهة آلام الظهر بالنشاط الحركي للانسان لأول مرة سنة 2780 قبل الميلاد مع الطبيب المصري "ايمهوتب" Imhotep الذي قام بوصف فقرات العمال المتضررين، نتيجة للأتعاب المبذولة جراء بنائهم للأهرامات بمصر، وهو ما جعل الاهتداء إلى أن آلام الظهر مرتبطة بالنشاط المهني للفرد في مختلف الأوساط المهنية، ففي فنلندا مثلا: نجدها بنسبة 82% عند مستخدمي الآلات، 79% عند عمال الأشغال الديناميكية، 61% عند عمال المكاتب.

2. أسباب آلام الظهر: يُصاب الظهر بالآلام على مستوى العمود الفقري عند إصابته أو إجهاده، مثل حمل الأثقال فوق اللازم، أو بعد إحداث حركة مفاجئة، أو السقوط الخاطئ سواء عند الوقوف أو من المرتفعات، إلا أنه يُجمع الباحثون على وجود مجموعة من الأسباب داعية للألم في الظهر منها:

-تقدم العامل في السن: يُصاب العامل بآلام الظهر بعد تقدمه في السن، حيث يُصاب القرص الغضروفي بالانحلال، مما يؤدي إلى احتكاك بين فقرات العمود الفقري.

-العامل الوراثي: حيث أثبتت الدراسات أن للعامل الوراثي دورا في معاناة بعض العمال أكثر عرضة لآلام الظهر، نتيجة لوجود خلل جيني يتحكم في التكوين والمحافظة على العظام والغضاريف.

-وضعيات ذات إجهاد مهني: هناك بعض المهن والوضعيات الخاطئة تؤدي إلى خشونة وشدة العمود الفقري، نتيجة لحمل الأشياء الثقيلة، وضعف العضلات، وزيادة الوزن، والجلوس في وضعية خاطئة لفترات طويلة، أو الوقوف بدون حركة ولفترات طويلة.

-العامل النفسي: تبين أن للعامل النفسي ارتباطا شديدا بقدرة الفرد على تحمل نوع الألم، كما أن احتمالات حدوث آلام مزمنة أكثر شيوعا عند المرضى الذين يُعانون اكتئابا نفسيا، كما تبين أن الأمراض العضوية المزمنة التي تصاحبها آلاما لفترة طويلة، تؤدي بعد مدة معينة إلى اكتئاب ثانوي، حيث يؤدي هذا الاكتئاب؛ إلى الزيادة من إحساس الفرد المصاب بالألم.

-اعوجاج أو تشوهات العمود الفقري: وهي حالات ارتقائية تحدث في الأعوام المبكرة من حياة الفرد، حيث تؤدي مع مرور الوقت إلى آلام مزمنة.

- العامل الثقافي: يتمثل في انتقال العادات والتقاليد في الأسرة الواحدة المتعلقة بطريقة حمل الأثقال، طريقة الجلوس، وممارسة النشاط اليومي المكثف، وذلك من الأب إلى الابن، أو من الأم إلى البنت. مثلا...

عموما، يمكننا القول أن الأسباب المهنية لآلام الظهر بالدرجة الأولى؛ راجعة إلى مزاولة الأعمال الثقيلة التي تتطلب مجهودا عضليا كبيرا، وإلى وضعيات العمل الغير المناسبة للفرد، بالاضافة إلى الوضعيات والمهام التي تحد من الحركة الطبيعية للجسم، بحيث تجعل الفرد يتحرك داخل هذا الوسط، وبمختلف أطرافه بشكل غير مريح، ومع طول مدة العمل في هذه الوضعية ومع تقدمه في السن، يؤدي به لا محالة إلى إعاقة جسمية.

3. تطور مشكلة آلام الظهر:

تشير معظم الدراسات إلى أن المهن التي تتطلب وضعيات الجلوس لفترات طويلة تسبب آلاما وإجهادا كبيرين، لكن بالمقابل يتضح من خلال الدراسات الحديثة، أن العمل في وضعيات الوقوف لا يؤثر سلبا على الظهر، هو ما أكدته دراسة أسترالية؛ مفادها أن وضعيات العمل في

حالات الوقوف لفترات تصل إلى ثلاثين دقيقة يخفف من آلام الظهر دون التأثير على مستوى الانتاجية. حيث تم تناوب العمال على الجلوس والوقوف كل ثلاثين (30) دقيقة لمدة أسبوع، تم التوصل فيها إلى أن شعور العمال بألم أخف على مستوى الظهر، مع قلة الآلام على مستوى الساق، مما كان عليه الوضع في وضعية الجلوس طوال يوم من العمل.

تؤكد هذه النتائج دراسة "أليشيا ايه ثورب" التي تم إجراؤها بمعهد أمراض القلب والسكري بأستراليا، حيث أنه من خلال إدخال فواصل منتظمة من الاستراحة عن طريق الوقوف من حين لآخر عبر يوم كامل من العمل، يؤدي إلى التقليل من أعراض الإجهاد للعضلات والعظام، مقارنة بالبقاء في وضعية جلوس لفترات طويلة طوال اليوم.

إن مثل هذه الملاحظات التي تم استيقاؤها من طرف الباحثين في مجال الطب والهندسة البشرية ومجالات أخرى تهتم بالعامل، تم التوصل من خلالها إلى أن العمال الإداريين الذين يشتغلون بالمكاتب يقضون مدة ما يُقارب 75% من يوم عملهم في الجلوس على المقاعد، هو ما يُحدث آلاما على مستوى الظهر. أُجريت في هذا السياق دراسة؛ تم فيها توزيع سبعة عشر (17) رجلا، وست (06) نساء عشوائيا على مجموعات تشتغل على مكاتب عمل، بحيث يمكن تعديل ارتفاع مقاعد هذه المكاتب بطريقة كهربائية، هذا بالنسبة للمجموعة الأولى، أما المجموعة الثانية فتم إخضاعها للجلوس خلال يوم كامل لمدة ثماني (08) ساعات، بينما تم إخضاع المجموعة الثالثة للجلوس بالتناوب، أي الوقوف بعد قضاء ثلاثين (30) دقيقة من الجلوس.

تم استبدال هذه المجموعات لهذه الوضعيات والأدوار بعد مرور خمسة (05) أيام، حيث أنه في اليوم الخامس تم محاولة معرفة مستويات آلام الظهر، راحة العضلات والعظام، ومدى شعورهم بمستوى مردوديتهم الخاصة بهم، والكيفية يرغبونها لمكاتبهم القابلة للتعديل، متضمنة في استبيان تم توزيعه على أفراد هذه المجموعات.

توصلت النتائج إلى أن متوسط درجة الشعور بالاجهاد بلغ 52,7 للأفراد الذين جلسوا على مقاعد كهربائية أثناء العمل، 67,8 بالنسبة للأفراد الذين جلسوا طوال يوم كامل، مع العلم

أنه تم اعتبار معدل 66 درجة فأكثر مستوى مرتفعا مقارنة بما يجب أن يشعر به الشخص السليم. كما كان الأفراد في مجموعة الجلوس والوقوف أيضا أقل شعورا بألم العضلات والعظام وأسفل الظهر بنسبة 32%، وأقل بنسبة 14% في الألم على مستوى القدمين مقارنة بزملائهم الذين جلسوا طوال يوم كامل من العمل. (3)

تؤكد الدراسات المقارنة أن أمراض آلام الظهر في تزايد مستمر، وأن وتيرة انتشارها سريعة جدا، حيث أوضحت دراسة مسحية بريطانية أن نصف السكان أي بما يعادل 49% متعرضين لآلام الظهر، أقصرها خلال سنة 2000 ولمدة 24 ساعة (4)، وفي سنة 1998 فإن حولي 18% من الأفراد البالغين عانوا من آلام الظهر لأول مرة، ومن المتوقع أن تصل نسبة المعاناة يوم واحد على الأقل خلال العمر؛ أي بما يعادل 80% من الأفراد البالغين. (5)

أوضح "راو" Rowe من خلال الدراسة التي أجراها على 1500 عامل أن الأمراض المهنية المتعلقة بآلام الظهر تمحورت حول مجموعة من الاصابات العضوية على مستوى الظهر، منها التحلل أو الانحلال القرصي للفقرات بنسبة 68%، الالتهاب بنسبة 20%، جروح حقيقية بنسبة 04% ثم 08% كانت لأسباب أخرى.

4. علاقة آلام الظهر بطبيعة النشاط المهني:

تجمع الدراسات على أن جميع الوضعيات المهنية تعرض العمال لآلام الظهر، لكن لم يتم تحديد ترتيب هذه المهن من حيث درجة الخطورة، عدا أن هناك بعضا من المهن تستدعي انتباها أكثر من الأخرى، أو بعضها تسبب آلاما على مستوى الظهر دون إحداث جروح، على سبيل الحصر؛ المهن التي تستدعي جلوسا لمدة طويلة دون تحرك؛ كمستخدمي الاعلام الآلي ومهن الادراة مثلا...(6)

يتضح أيضا من دراسة قيو (Guo 2002) سيطرة آلام الظهر ذات العلاقة بالحركات المتكررة وانحناء الجذع وتدويره ومحاولة الوصول لأماكن العمل، كأن تكون في المهن المتعلقة بقيادة العربات سواء السيارات أو غيرها من العربات الثقيلة وقيادة القطارات، أو الأعمال التي يكون فيها

أصحابها في وضعية التعامل مع الهاتف باستمرار، أو مهن البائعات والبائعون بأسواق المساحات الكبرى حيث أن 57% منهم يعانون من آلام الظهر.

نجد أيضا أن آلام الظهر لا تتوقف عند الوضعيات الستاتيكية فقط، بل نجدها أيضا في الوضعيات المتحركة، منها على سبيل مثال ممرضات المستشفيات الذين يتعاملون مع المرضى الذين لا يستطيعون القيام بالحركات؛ كالمصابين بالشلل الكلي أو النصفي جراء تعاملهم المستمر الذي يستدعي تقديم الخدمات بشكل كلي ومستمر، أو حتى حملهم لتلقي تمارين التأهيل العضلي؛ هو ما أكدته دراسة بأستراليا مفادها أن 80% من أفراد عينة مكونة من 300 ممرضة صرحوا عن معاناتهم من آلام الظهر، الأمر الذي كان يؤدي بهم إلى الغيابات المرضية المتكررة، وإعاقة تأدية مهامهم بشكل مضبوط. (7)

أما في الجزائر يشير الدكتور مباركي بوحفص أنه لم تكن هناك دراسة مسحية شاملة منشورة حول عاهة آلام الظهر، عدا تصريحات يومية للأطباء مدونة في المصالح الاستشفائية والسجلات الطبية، تؤكد وجود أمراض وآلام للظهر ناتجة عن أعباء مهنية وهي منتشرة على نطاق واسع، يضيف الدكتور مباركي بوحفص مبرزا ذلك من خلال دراسة مسحية ميدانية بمصلحة طب العمل بالمستشفى الجامعي بمدينة وهران؛ مفادها أن أمراض الظهر تمثل نسبة 21% من الأعراض الملاحظة، يبين أيضا نفس الباحث في دراسة أخرى تمت على السائقين أن نسبة 79% من مجموع 81 سائق عانوا ولو مرة واحدة من آلام الظهر.(8)

نستخلص إذن؛ أن هناك ثلاث وضعيات رئيسية مسببة لمضاعفات آلام الظهر منها؛ وضعيات الوقوف التي يضطر من خلالها العامل الانحناء إلى الأمام بدون سند للذراعين، أو تمدد الظهر إلى الخلف لبلوغ أماكن عالية، أو العمل في الأماكن الضيقة يضطر فيها العامل إلى تقليص جسمه، نجد أيضا وضعيات الجلوس طوال اليوم، وبالرغم من إحساس العامل بالراحة إلا أنها مضاعفة لآلام الظهر، خاصة إذا كان الكرسي من النوع الذي لم يتم فيه مراعاة السند اللائق للظهر والذراعين، أو عدم وجود سند للأرجل؛ ما يُحدث آلاما في مؤخرة الفخذين. تتمثل الوضعية الثالثة

في حالة تنفيذ المهام اليدوية، والتعامل المستمر مع الأثقال، وهو ما يُحدث أيضا؛ تشوهات على مستوى العمود الفقري.

5. انعكاسات آلام الظهر:

تشير الدراسات أن مشكلة آلام الظهر في تزايد مستمر، وبالتالي لا محالة تنعكس سلبيا على الفرد؛ كانخفاض الجهد العضلي، وعدم قدرته على تقديم أداء سليم، أو إحداث إعاقات جزئية أو كلية، أو في بعض الأحيان، الانقطاع المبكر عن النشاط المهني، أما على المؤسسة نجد انخفاضا لمستويات الإنتاج، وغيابات مستمرة للعمال.

5. 1. انعكاسات على مستوى التكلفة المالية: لاتتوقف التكلفة المالية لآلام الظهر في التعويضات المالية أو الوقت الضائع من أيام العمل فقط، بل تمس إنتاجية العامل الذي يمر بمرحلة الألم، سواء في بدايته أو نهايته، ومصاحبته له طوال حياته المهنية، الأمر الذي يجعل المشرفين يُحدثون تغييرات في وضعيات العمل، وصعوبة التجاوب مع الفترات المستمرة في راحته، ما يجعلهم أيضا يفكرون في اللجوء إلى إحداث تكوين لعمال جدد، بغية التكيف مع الاختلالات الحادثة وسد الفراغ.

تندرج التكلفة المالية الاضافية للمؤسسة، جراء إخضاع العمال الجدد إلى عمليات التكوين لأجل تعويض العمال المصابين بآلام الظهر، مع العلم أن الإحصائيات المعطاة في مجال التعويضات لا تقترب إلى الصحة، نظرا لأن العديد من المصابين بأمراض الظهر غير مصرحين ضمن الإحصائيات، كونهم لا يلجؤون إلى المستشفيات لإجراء الفحوصات الطبية، وحتى أن طبيعة العاهة في حد ذاتها لم تتلقى في اعتقادنا مستوى من الاهتمام؛ كأمراض تستدعي المتابعة والعلاج المستمر مثل الأمراض المزمنة الأخرى...

5. 2. انعكاسات على مستوى الغيابات المرضية: تعتبر الأمراض المهنية من الأسباب الأساسية المؤدية إلى الغيابات المتكررة عن العمل، الأمر الذي يؤثرا سلبا على الجانب الاقتصادي

للمؤسسة، إلا أن الملاحظ ومن خلال الدراسات الميدانية لم يتم إدراج التشوهات العظم عضلية وآلام الظهر بشكل كلي ضمن نسبة الغيابات التي تُحدثها.[9]

إضافة إلى هذه الانعكاسات، تتجلى معاناة الأفراد العاملين من هذه المعضلة جراء الجراحة المقامة على مستوى مناطق الظهر، حيث تختلف معدلاتها من بلد لآخر، ففي الولايات المتحدة الأمريكية تُجرى أكثر من خمسة أضعاف مما تجرى في انجلترا، حيث تساهم الأوضاع الثقافية المتباينة بشكل واضح في معاناة آلام الظهر، فقد نجد في سلطنة عمان ارتفاعا كبيرا من حيث معاناة العديد من الأفراد جراء هذا الألم إلى حين إدخال الطب الغربي، ذلك ما أقره تقرير وزارة الصحة. [10]

6. الحلول المناسبة لآلام الظهر:

يجمع الباحثون في المجال الأرغنومي أن الحد من مشكلة آلام الظهر تقع على مستويات ثلاث؛ منها ما يتعلق بالفرد العامل، ومنها ما يتعلق بالتدخل الأرغنومي، ومما يتعلق بنظام الوقاية والأمن الصناعي للمؤسسة.

أما من حيث الفرد فيقع على مستوى الوعي؛ بمدى خطورة مشكلة آلام الظهر، ما يجعله أكثر قابلية لإتباع الطرق الصحيحة في الجلوس، واحترام فترات الراحة أثناء الجلوس في المكتب، حيث يتم ذلك بوضع اليد على الفخذ، ثم تحريك الجسم كله ناحية الخلف في الاتجاه المعاكس، مع الحرص على بقاء الظهر في وضعية استقامة، أو اللجوء إلى تمارين الوقوف عن طريق تمارين بسيطة، بحيث يمكن الوقوف على قدم واحدة، ثم تحريك القدم والساق الأخرى على شكل الرقم ثمانية " 8"، ونفس الشيء بالنسبة للقدم الأخرى. وبالتالي فإنه يتم العمل على تدريب العضلات، التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالعمود الفقري.

تقع تدخلات الأرغنومي في هذا السياق في تصميم وإعادة تصميم أماكن عمل مناسبة، تتوفر بها شروط العمل المريحة، سواء في وضعيات الجلوس، أو الوقوف، أو المناوبة بينهما. بالإضافة إلى إعادة تصميم المهام اليدوية التي تتطلب التعامل مع الأثقال التي تتعامل مع عمل العمود

الفقري، كما يمكن للأرغنومي التدخل من حيث اقتراحه لأدوات تساعده على حمل الأثقال، أو تقدير الأثقال المحتملة تبعا لطاقة الفرد.

أما من حيث تدخلات المؤسسة؛ فيجب أن تعمل بالتفكير المنطقي لأجل الحد أو التقليل من تأثير هذا النوع من العاهات على صحة القوة العاملة؛ كأن توفر أوقات للراحة تتناسب ومهمة التعامل مع الأثقال، مع توفير الوسائل المساعدة على حمل الأثقال.(11)

يؤكد الباحثون في مجال الوقاية والسلامة المهنية على أن الجانب الوقائي لآلام وعاهات الظهر ترتكز بالدرجة الأولى على تحديد أسبابه والتي يمكن الحد منها كالآتي:

– الانتقاء المهني: أثبتت الدراسات والتجارب الميدانية في مجال الانتقاء بغرض التوجيه إلى مهن معينة أو التوظيف في الوظائف، أن المشرفين على عملية التوجيه لهم دور كبير في التقليص من وقوع آلام أو تشوهات في الظهر، وذلك إذا ما تم الأخذ بعين الاعتبار جانب المواءمة الفيزيولوجية بين المهنة، أو الوظيفة المراد التوجيه إليها والفرد. وبالتالي فإن العملية تتطلب دراسة تحليلية لكل من الفرد ومنصب العمل؛ ذلك اعتمادا على مجموعة من الاستراتيجيات، بحيث ترتكز هذه الاستراتيجيات على دراسة مجموعة من العوامل منها؛ مكان العمل وما يتضمنه من أدوات وآلات، ومواد العمل دون إغفال المعطيات الأنثربومترية للعامل.

– الانتقاء الطبي: تعتبر تأشيرة ورأي الطبيب المختص في مجال طب العمل في مرحلة الانتقاء الطبي الأولي، إحدى العوامل المؤدية إلى معرفة الأفراد الأكثر تعرضا لإصابات آلام الظهر، وبالتالي يتم استبعاد أو توجيه إلى مهن أخرى، وذلك عندما يتم الأخذ بعين الاعتبار لمجموعة من الخصائص الشخصية المتعلقة بالفرد نفسه؛ كالقامة، الوزن، حجم الجسم، السمنة...، أو بعد العملية التشخيصية للعمود الفقري، أو غيرها من الخصائص الأخرى التي يمكن اكتشافها عن طريق تقنيات الانتقاء الطبي.

– اللجوء إلى عملية التدريب: يركز الباحثون على إعطاء العناية لعمليات التدريب للعمال قبل مباشرتهم للمهنة التي يتعامل فيها أصحابها مع الأثقال، أو التي تتطلب الوقوف أو الجلوس

طوال يوم كامل، وبالتالي فإن عملية التدريب تمكنهم من تبني وضعيات صحيحة وصحية في مختلف وضعيات العمل. يؤكد "راو" Rowe في هذا السياق أن برامج التدريب على حمل الأثقال والتعامل معها بطريقة سليمة؛ عادة ما تكون مقبولة من طرف العمال، خاصة البرامج المرنة، بمعنى تلك التي تأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين العمال في تقنيات التعامل مع الأثقال [12]

خاتمة:

إن مشكلة آلام، عاهات، تشوهات الظهر وأسفله يجب إدراجها ضمن الأمراض الصحية المزمنة، خاصة في مجال طب العمل، وذلك حتى يتم إعطاؤها العناية التامة، وبالتالي فهي تتطلب تنسيقا متكاملا بين مختلف الفاعلين في المؤسسة، بدءا من القائمين على عملية الانتقاء، الأرغنوميين، أطباء العمل، والمشرفين على عمليات التدريب، ومسؤولي الوقاية والسلامة المهنية والمشرفين المباشرين عن المؤسسة، وهو الجانب الذي تفتقر إليه المؤسسات اليوم، نظرا لانعدام التنسيق بين الوسط المهني والمؤسسات العلمية؛ كمراكز البحث والجامعات، ومن ثمة يمكننا الوقوف عند بعض الملاحظات منها:

- التحلي بجانب العلمية في جانب الانتقاء المهني والطبي للعمال المترشحين لمختلف المهن.

- القيام بدراسات ميدانية، وذلك بالتنسيق مع المؤسسات العلمية (مراكز بحث، جامعات) والأوساط المهنية.

- إعادة النظر في طريقة تعليب الأثقال المحمولة (أكياس، علب...) تماشيا مع الأوزان المناسبة لتحمل عضلات الجسم.

- توفير وسائل ميكانيكية مساعدة لرفع الأثقال، والتي تُنقص من إجهاد العامل كقوة الدفع والجذب.

- المراجعة المستمرة لوتيرة العمل.

- ضرورة إجراء الفحوصات الطبية عن طريق الأشعة، تفاديا لاستمرارية التشوهات على مستوى الظهر بشكل سريع.

- المتابعة لأجل القيام بتعديلات على أماكن العمل، من حيث الارتفاع ومجالات تمدد أطراف جسم العامل تبعا لمعطياته الأنثربومترية المتغيرة مع مرور الزمن، وإشراكه في العملية بغرض إعلامي تحسيسي، والأخذ باقتراحاته.

الهوامش:

1. محمد أحمد محرم. ممارسات خاطئة في الجلوس والنوم وحمل الأوزان الثقيلة تنتهي إلى أعراض مبكرة. مجلة الرياض، العدد 16961. الرياض 2014.

2. GUO H-R; Working hours spent on repeated activities and prevalence of back pain . Occupationnal and environmental Medecine, 2002.

3. الجزيرة، نت. الوقوف لفترات خلال العمل قد يحد من ألام الظهر المتوفر على الموقع:

http://www.aljazeera.net/news/healthmedicine

4. Palmer K. T, Bendall H, Cooper C et Coggen D. Back pain in Britain: comparison of two prevalence surveys at an interval of 10 years.2000.

5. Maniadakis A, Gray A, The economic burden of back pain in the UK.2000.

6. Backcare. Back facts. National Back Pain Association, Middles, England.2002

7. Cabrini Medical letter. Nurse safe. Medical letter n°. 28, janury 2000, Cabrini hospital, Malvern, Victoria, Australia.2000

8. مباركي بوحفص. العمل البشري. الطبعة الثانية، دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران. الجزائر.2004.

9. Morken, T. Riise, T. Moen, B. Signe. HV. et al. Low back pain and widespread pain predict sickness absence among industrial workers. Musculosked Disorders, vol .4, 2003.

10. A New Clinical Model for The treatment of Low-Back Pain. Gordon Waddell in Spine, Vol. 12, N°7 pages 632- 644; 1987.

11. مباركي بوحفص. محاضرات مقياس الهندسة البشرية. السنة الربعة علم النفس العمل. جامعة السانية، وهران. الجزائر،1990.

12. Rowe, M.L. Backache at Work, Fairport, N.Y, Perinton press, USA.1983.

علاقة الضغط النفسي بمعالجة المعلومة من الناحية النفسية العصبية

الأستاذة هدور سميرة، جامعة تيارت

تحت اشراف الأستاذ الدكتور محمد الصغير شرفي، جامعة سطيف2

ملخص: هدفت هذه الدراسة توضيح العلاقة بين الضغط النفسي ومعالجة المعلومة من الناحية النفسية العصبية، حيث أن زيادة إفراز هرمون الكورتيزول من قبل الغدة الكظرية نتيجة للموقف الضاغط الذي يعتبر كحدث مصاحب بحالة انفعالية حادة وسلبية تعد كتهديد وخطر، فإن كل الانتباه يتوجه نحوه، فعند زيادة هذا الهرمون لا يتمكن الفرد من استخدام كل الذكريات السابقة في معالجة المعلومة التي تتطلب المعلومات والتجارب السابقة، الموجودة ضمن سياقات منظمة، تعتمد على خبرة الفرد في حياته اليومية، والتي تسمى بالمخططات المعرفية، ويكون نتيجة لذلك فقدان التركيز والتفكير والتذكر، وهي عمليات أساسية في معالجة المعلومة.

ضف إلى أن تأثير الضغط على مناطق دماغية معينة، له أهمية كبيرة في عدم استرجاع المعلومات الجديدة، والتي تكون غير المشفرة. فإذا كانت مصحوبة بعوامل قلق وتوتر ستكون بمثابة عوامل مشتتة لها أثر على الدماغ، مما يؤدي إلى صعوبة التركيز والإدراك ويؤثر على الانتباه الانتقائي، خصوصا أنه يلعب دورا هاما في معالجة المعلومة، حيث تؤثر الهرمونات على الخلايا العصبية في قرني أمون واللوزتين وهي من أهم مراكز استراتيجيات التشفير والاسترجاع للمعلومات.

كلمات مفتاحية: الضغط النفسي، معالجة المعلومة.

Summary: The purpose of this study is to illustrate the relation between the stress and treating of information; because the stress is considered as a threatening event or a danger associated with an acute state and negative emotional which will attract all the energy of the selective attention. This situation provokes an increase of hormone of Cortisol, because of it the person does not succeed in treating the information which is based on the previous information of the past individual experiences that are organized in the cognitive schemas. Then, to have disorders of thought and lack of focus and may be the memory loss when the impact of stress on cerebral areas which are important for retrieving the information. Above all that, it is associated with the anxiety and the depression, because the psychological factors distracting and have harmful impact on the brain.

Words key: stress, treating the information.

مقدمة:

يتعرض الإنسان إلى مجموعة من التغيرات التي تطرأ عليه في حياته اليومية، والتي تساهم بقدر كبير في إعادة تفكيره ومعتقداته وبناءها من جديد، حيث يمكن لها أن تتأثر بعوامل أكثر حدة تتطلب من العضوية استجابة للتكيف معها، فيقع الفرد لا محال في الضغوطات، فالتعرض له بصفة متكررة يؤدي إلى مخاطر الإصابة بالأمراض السيكوسوماتية واضطرابات نفسية أخرى، لذلك فانه قد كان محور اهتمام عدة علماء كانت لهم نظريات هامة لتفسير الضغط النفسي، وأول من اهتم بدراسته من الجانب البيولوجي هو العالم سيلي(**H.Selye**) في الفترة ما بين 1930 إلى 1940 ولكنه لم يضع تعريفا دقيقا له إلا سنة 1975 بعد أن حدد مراحله التي أطلق عليها تسمية التناذر العام للتكيف (أي مجمل التغيرات الجسدية التي تهدف إلى التأقلم مع الوضعية الضاغطة)، لذلك اعتبره كاستجابة فيزيولوجية ناتجة عن خطر خارجي له هدف التكيف أو الإنذار[1]، كما أنه وفي نفس السنة أيضا حدد نوعين أساسين من الضغوط، فإذا كانت المثيرات تسمح بتكيف جيد فيسمى (eustress)، وإذا كانت لا تسمح بذلك وأصبحت تشكل تهديدا على الفرد فيسمى (distress).[2]

ولم يكن مصطلح الضغط معروفا، لكن في الحياة الراهنة أصبح مفهوما عاديا يمس جميع الفئات العمرية من أطفال ومراهقين وبالغين، وحسب إحصائيات عالمية يعد هو الأصل في 75 – 90 % من المعاينات الطبية اليومية، و60 –80 %من حوادث العمل وحالات التأخر عن العمل، كما أن هناك دراسات لبويل وانربيت (Powel &Enrights) سنة 1990، تشير إلى أن ما نسبته 80 % من أمراض العصر الحديث مثل النوبات القلبية، ارتفاع ضغط الدم، الصداع النصفي، القرحة المعدية والقولون تكون في معظم بداياتها إجهادا نفسيا. [3]وبالتالي فهو رد فعل لتأثيرات عوامل خارجية مثل كثرة المعلومات التي تؤدي إلى الإجهاد الانفعالي، ويظهر نتيجة للتهديد والخطر.

وعادة ما يستخدم الباحثون مصطلح الإجهاد النفسي في مكان الضغط لأنه التقدير الموضوعي لوضعية ما على أنها ضاغطة تؤدي إلى استجابات فيزيولوجية، حيث يعتبر مجموع العوامل

المتسببة في هذه الحالة موقفا ضاغطا سلبيا أو إيجابيا، وهذا في مقابل المميزات الانفعالية الخاصة بكل فرد، وقدراته الشخصية على التكيف والتحكم، وبذلك يجب أن تكون الاستجابة طبيعية نتيجة له، فتؤدي الضغوط إلى تغيرات في العمليات العقلية وتحولات انفعالية.

هذه التغيرات البيولوجية وكذا النفسية هي عبارة عن أعراض بعدية عصبية إعاشية المنشأ للضغط، حيث تُبرز هذه التغيرات دور الانفعالات من خلال إفراز غدد وعمليات استقلابية ضمن التناذر العام للتكيف. وهذا فإنها تؤدي إلى اضطرابات نفسية تعكس الجانب الغددي والأيضي الذي يتحكم في سلوك الفرد. وما هو معروف أنه إلى جانب الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الشخص كالاكتئاب والقلق، والتي لها علاقة باضطرابات تشمل الوظائف المعرفية من تفكير وإدراك وذاكرة وقد أوضحتها دراسات اهتمت ببحث هذه العلاقة من الناحية البيوكيميائية (الهرمونية)، وخصوصا الانتباه الذي هو وظيفة هامة تبدأ بها العملية المعرفية لمعالجة المعلومة وهذا ما أوضحته دراسة لابيان (**S.J. Lupien**) وماهو (**F.S. Maheu**) سنة 2003[4].

فالإنسان يقوم بتوظيف أنظمة معرفية معقدة للتعامل مع المثيرات الخارجية التي تعتبر كخطر خارجي، لذلك فإنه بحاجة إلى معالجتها، ليتمكن من إيجاد حل لهذا المشكل، واتخاذ إستراتيجية مناسبة وفقا لإمكاناته الشخصية، ولطبيعة الموقف الضاغط، وهذا من خلال عملية المعالجة المعرفية لمعلومات الوضعية الضاغطة حيث تقوم بعمليتي التقييم الأولي والثانوي. وبناءا على ما سبق يمكننا طرح التساؤلات الآتية:

ما هي التغيرات الفيزيولوجية الناتجة عن الضغط؟

كيف يؤثر الضغط النفسي على جملة الوظائف المعرفية؟

هل هناك علاقة بين الضغط النفسي ومعالجة المعلومة؟

2. أهمية الدراسة: تتمثل أهمية هذه الدراسة فيما يلي:

دراسة الضغط النفسي من منظور معرفي عصبي، يعتبر موضوع حديث النشأة لذا فإن التركيز عليه بالدراسة أمر في غالية الأهمية. كما أن دراسة الضغط النفسي من جوانب مختلفة بما فيها الجانب المعرفي العصبي، يعتبر بمثابة تفسير شامل متعدد الجوانب لهذا المتغير.

قلة المواضيع المدروسة في هذا التخصص (علم النفس العصبي) بالجزائر كونه حديث بالجامعات، فمن خلال هذه الدراسة يمكن إعطاء أهمية لمثل هذه المواضيع لكي تكون كدراسة سابقة محلية.

تناول معالجة المعلومة وكذا الضغط من الجانب النفسي مع الإشارة إلى الجانب العصبي البيولوجي، وتقديم تفسير نفسي فيزيولوجي عن مجمل التغيرات البيولوجية، بذلك فإن هذه الدراسة أضفت تفسيرا ومفاهيما ومصطلحات جديدة، خاصة بعلم النفس المعرفي والعصبي لم تتداول في علم النفس، مما تمكن قارئها من كسب رصيد معرفي في هذا التخصص.

3. أهداف الدراسة: تتمثل أهداف الدراسة في:

التعرف على الجانب الفيزيولوجي والعصبي للضغط النفسي.

دراسة تأثير الضغط النفسي على جملة الوظائف المعرفية.

الكشف عن علاقة الضغوط النفسية بمعالجة المعلومات.

4. تحديد المفاهيم الأساسية للدراسة:

الضغط النفسي: هو استجابة الفرد تجاه موقف معين بهدف التكيف معه أو باعتباره كخطر، يتطلب تغيرات هرمونية وعصبية تعكس سلوك الفرد والقرار الذي يتخذه في مواجهة الوضعية أو بتجنبها.

معالجة المعلومة: هي عملية معرفية هامة للتعامل مع العالم الخارجي، تعتمد على التأويل والتحليل وهي التي تسمح باتخاذ الفرد للقرار إزاء الموقف.

5_ التغيرات الفيزيولوجية الناتجة عن الضغط: للتطرق إليها يجب التعرف عن أسسها النظرية التي تناولت هذا الجانب ضمن التيار البيولوجي. فيقول ر. هارون توفيق أن (H.Selye) أسس نظريته من خلال تجاربه على الإنسان والحيوان، وبيّن أن التعرض المستمر له يُحدث اضطرابا في الجهاز الهرموني من خلال الاستثارة الزائدة للجهاز العصبي المستقل، وقد أطلق على الأعراض التي تظهر على العضوية اسم: التناذر العام للتكيف، وهو ما يعرف باللغة الأجنبية (le syndrome général d'adaptation) وأكد على خاصية غير محددة للاستجابة التي تعطيها العضوية مهما تكن طبيعة

العامل الضاغط (جسدي، كيميائي، نفسي) تكون استجابة وحيدة هدفها الحصول على التجانس الداخلي وتمر بثلاث مراحل هي: مرحلة الإنذار، مرحلة المقاومة ومرحلة الإنهاك[5].

إن التغيرات الفيزيولوجية تتسبب في ظهور أعراض خاصة به، تظهر عندما يفشل الفرد في التحكم في مصادر الضغوط سلبية، ومع استمرارية التعرض للمصادر المسببة للضيق. وفيما يلي تصنيف لأعراض الضغوط المختلفة حسب ع. عسكر:

الأعراض الجسدية: العرق الزائد، التوتر العالي، الصداع، ألم في عضلات الرقبة والأكتاف، عدم انتظام النوم، تطبيق الفكين الأسنان، المغص الإمساك، آلام الظهر، التهاب الجلد، عسر الهضم والإسهال، القرحة، التغير في الشهية، التعب وفقدان الطاقة.

الأعراض الانفعالية: سرعة الانفعال، تقلب في المزاج العصبية سرعة الغضب، العدوانية والعنف، الشعور بالاستنزاف الانفعالي أو الاحتراق النفسي، الاكتئاب سرعة البكاء.

الأعراض الفكرية أو الذهنية: النسيان، صعوبة التركيز، صعوبة في اتخاذ القرارات، اضطراب التفكير، ذاكرة ضعيفة، استحواذ فكرة واحدة على الفرد، انخفاض في الدافعية، تزايد عدد الأخطاء إصدار أحكام غير صائبة.

الأعراض الخاصة بالعلاقات الشخصية: عدم الثقة غير المبررة بالآخرين، نسيان المواعيد أو إلغاءها قبل فترة وجيزة، تبني سلوك واتجاه دفاعي في العلاقات مع الآخرين، تجاهلهم والتفاعل معهم بشكل آلي (غياب الاهتمام الشخصي، تفاعل يكتنفه البرود) [6].

ويظهر الضغط من خلال الأعراض السابقة الذكر، وتجدر الإشارة إلى أن الحالة الانفعالية غير الطبيعية المصاحبة له تضعف انتباه الفرد وقدرته على التركيز.

5_1 تفسير الضغط من الجانب العصبي والفيزيولوجي: أصل التغيرات الفيزيولجية هي البيوكيميائية (هرمونية) لذلك فإن الاستجابة للضغوط أساسها عصبي هرموني ولمعرفة ذلك وجب التطرق إلى:

الجهاز العصبي المستقل: ويقوم هذا الجهاز بتنظيم ضربات القلب، حرارة الجسم، عمليات الهضم، الدورة الدموية، وإفرازات الغدد الصماء. ومع أنه يعمل بطريقة لاإرادية، إلا أن اتصاله

بالجهاز العصبي المركزي يجعله خاضعا لسيطرة الدماغ. وهناك تصنيفان للجهاز العصبي الذاتي: السمبثاوي، والباراسمبثاوي.

ويذكر F.S. Maheu et S.J. Lupien أن الأول يهيئ الجسم لمواجهة المواقف الضاغطة، بينما يقوم الآخر بإعادته إلى حالته الطبيعية وإلى حالة الاسترخاء فيساعد الجسم على الاحتفاظ بطاقته للمواقف اللاحقة.ويعرف الجانب السمبثاوي بتوليده للطاقة التي تمكن الجسم من المواجهة أو الهرب، فحين يثار هذا الجهاز فإن الجسم يكون في وضع غير عادي وبإمكانات وظيفية تختلف عن الظروف العادية.

وتكون ردود فعل القسم الباراسمبثاوي أكثر تحديدا، حيث تسرع من نشاط بعض الأعضاء الحيوية وتقلل من نشاط البعض الآخر. وبذلك تنخفض ضربات القلب، ويبطؤ التنفس، وتصغر حدقة العين، ويزداد نشاط الغدة اللعابية، وينخفض الضغط والغلوكوز الذي أنتجه الجسم لزيادة طاقته في مواقف المواجهة أو الهرب [7].

جهاز الغدد الصماء: يعتبر ع. عسكر جهاز الغدد الصماء الجهاز الذي يعمل مع الجهاز العصبي السمبثاوي والباراسمبثاوي ليتمكن الجسم من الاحتفاظ بحالة من التوازن الانفعالي والحيوي. ويصب هذا الجهاز هرموناته مباشرة في الدم حيث يقوم بتنشيط الجسم ويساهم في تهيئة الأعصاب والعضلات للاستجابة بالسرعة التي تتناسب مع الموقف المسبب للضغط النفسي، ومع أهمية دور الغدد المختلفة، إلا أن أكثرها أهمية للاستجابات السلوكية باتجاه مصدر الضغوط غدتان هما: الغدة النخامية، والغدتان الكظريتان[8].

فالأولى F.S. Maheu et S.J. Lupien أكدا أنها تستمد أهميتها من ارتباطها الوثيق بالمهاد، ويشكلان معا حلقة الوصل بين الجهاز العصبي وجهاز الغدد الصماء، ومن هنا فإن استثارة المهاد يؤدي إلى استثارة الغدة النخامية، وبذلك يمكن القول بأن توقعاتنا وردود الفعل تتحول إلى إفرازات هرمونية تساعد الجسم على المواجهة[9].

أما الغدة الكظرية ع. عسكر ذكر بأنها هي المسؤولة عن المظاهر السلوكية مثل سرعة ضربات القلب والتنفس كرد فعل للاستثارة الانفعالية. وتتكون الغدة من جزئين: الجزء الداخلي الذي يسمى نخاع الكظر الذي يستجيب لرسائل الهيبوتلاموس فيفرز هرمون الأدرنالين الذي يؤثر

بشكل رئيسي على الجهاز الدوري، ومن خلال هذا الهرمون وهرمون النورادرنالين وهرمون الدوبامين يظهر رد الفعل الكلي على الجسم. وما دام الدماغ يتلقى رسائل عصبية تتضح الحاجة إلى استمرارية اليقظة، فتستمر استثارة النخاع. وإذا استمر الموقف الضاغط فإنه ينعكس سلبا عليه، وأما الجزء الخارجي للغدة فيسمى قشرة الكظر الذي يستجيب لاستثارة الهيبوتلاموس من خلال الغدة النخامية الذي يمهد لإفراز هرمون (Adreno Corticotropique) الذي يتوزع في مجرى الدم ليصل إلى قشرة الكظر. هذه العملية تؤدي إلى استثارة القشرة التي بدورها تفرز هرموني الالدوستيرون والكورتيزون لمواجهة المواقف الضاغطة. وهذه الهرمونات توفر الطاقة بصورة الجلوكوز والأحماض الدهنية والأحماض الأمينية[10] .

وفي حالة استمرار الضغوط، فان الإمداد البروتيني المطلوب والضروري لتكوين الكريات الدموية البيضاء والأجسام المضادة يتضاءل لدرجة القابلية للمرض. ولهذا فان التعرض المستمر للضغوط يساهم في إجهاد العضلات ويضعف الجهاز المناعي والجهاز الدوري.

وقد تم توضيح الضغط ومختلف التغيرات الفيزيولوجية التي تتعرض لها العضوية، وكل ما سبق له تأثير واضح على الجانب النفسي وكذا المعرفي، لذلك فان العنصر الموالي سيتضمن النظريات المهمة لمعالجة المعلومة ودورها أثناء التعرض للموقف الضاغط.

6. تأثير الضغط النفسي على جملة الوظائف المعرفية: اعتبر بيك Beck سنة 1984 تفاعل الضغط كنتيجة لسيرورة نشطة ومستمرة هو قابل للتقييم كوضعية خطر، وكذا تقييم الجوانب الإيجابية والسلبية له. فحسب **التقييم** يحرض الفرد سلوك نحو المثير، ويبقى دائما تحت درجة من اليقظة حتى في غيابه، وعندها يواجه وضعيات الخطر بقلق وبالرغبة في الهروب أو المواجهة. إذن فكل استجابة تتطلب تحركا من الشخص لإيجاد حل للوضعية المصاحبة بحالة انفعالية وإن لم يقم الشخص بأي فعل يقع تحت دائرة اليقظة المكثفة وبالتالي يقع في الضغط.

نظام تحليل وتأويل المثيرات مركب على بنيات منظمة تسمى التخطيطات schémas، هي عبارة عن تصورات تسهل الاسترجاع الذاكري، لكن في نفس الوقت من الممكن أن تشكل تكوينات عقلية جديدة ثابتة تسيّر جميع مراحل معالجة المعلومة ونشاطها كالتالي:

- تصفية واختيار المعلومات الجديدة.

- تنظيم المعلومات المخزنة في نظام الذاكرة طويلة المدى.
- استعادة المعلومات من النظام السابق.
- تسيير الأفعال.

فكل حدث خارجي تقوم بعض التخطيطات المعرفية الخاصة التي تنشط لتصنيفه، تأويله وإعطائه معنى. [11] فهي تسهل بعض استراتيجيات المواجهة في الحالة العادية، فهناك سلسلة من التعديلات للتكيف مع المثيرات الخارجية، والتأويل النهائي للحدث يمثل تفاعل بين الحدث والتخطيطات، محتواها يحدد طبيعة الاستجابة الانفعالية والسلوكية، ومحتوى المثير مرتبط بالخطر والفرد، ليكوّن خبرة الرغبة في الهرب والشعور بالقلق.

كما أعطى كل من فولكمان ولازاروس R. Lazarus et S. Folkman (1984) أهمية للضغط في نظريتهما عن التقييم المعرفي، فهو يبرز العلاقة بين الشخص ومحيطه فهو يستدعي مقاربات متواصلة وتقييما مستمرا. ويعتبر هذا المنظور الفرد كعامل نشيط يمكنه أن يؤثر في مفعول العامل الضاغط عن طريق استراتيجيات معرفية، انفعالية وسلوكية. [12]

ويتعلق الأمر هنا بمعرفة طبيعة العامل الضاغط لتقييم تأثيره، ثم مقاربة بين الإنسان والمحيط أين تلعب العوامل الإدراكية المعرفية دور القاطع، مع الإشارة أيضا إلى قدرة الفرد في التغلب على الأحداث الصدمية والخبرات الضاغطة ويتوقف ذلك على درجة فعالية الذات في ذلك، وهي بدورها تتوقف على البيئة الاجتماعية للفرد وعلى إدراكه لقدراته وإمكاناته في التعامل مع الضغوط، فالعوامل المعرفية حسب بونيس M.De.Bonis اعتبرها شكلا من التقييم المعرفي الذي يقوم به الفرد تجاه المواقف التي يتعرض لها، فهي تشير إلى اعتقاد الشخص بأنه يستطيع التأثير على البيئة التي يعيش فيها، وأنها تتوسط العلاقة بين تقييمات الضبط واستراتيجيات المواجهة[13] ، لذلك فإن الأفراد ذوي مستوى فعالية الذات المرتفع يُقيّمون المواقف الضاغطة أنه باستطاعتهم التحكم فيها ومواجهتها وتغييرها بدلا من تقبلها، وأن فعاليتها تبدأ بمدى واسع من السلوكات التكيفية في الحياة وتشتمل على سلوك المواجهة وضبط الذات، وأنها تنمو من خلال إدراك الفرد لقدراته وإمكاناته الشخصية من خلال تعدد الخبرات التي يمر بها في حياته، حيث تعمل على مساعدة الفرد في تغلبه على المواقف الضاغطة التي تواجهه .

Lazarus وFolkman أكدا على وجود متغيرات وسطية تتوسط العلاقة بين الفرد والبيئة مركزا على العمليات المعرفية لدى الفرد ودورها متمثل في الاستجابة للضغوط ومواجهتها ، وهو ما يسمى عملية التقييم الأولي والثانوي.[14] **فالتقييم الأولي:** إدراك الوضعية الراهنة كخطر. أما **التقييم الثانوي:** إدراك الفرد لموارده واستعداده لمواجهة الضغط، فهو مرتبط بموارد المواجهة والأحكام التقييمية لتحسين العلاقة المضطربة بين الفرد ومحيطه، وقد سمي ثانويا لأنه اقل أهمية من الأولي، وليس حسب التتالي.ويظهر أن ما يعتبر ضغطا عند فرد ما لا يعتبر كذلك بالنسبة لفرد آخر، لأن هناك عوامل عديدة بيئية، شخصية وطبيعة الموقف هي من تحدده. [15]

واستنتج لارو J.larue بأن معالجة المعلومة تتضمن عدة متغيرات: فردية، مضمون المحيط الاجتماعي الثقافي للحدث. وفي هذه الحالة يكون الضغط ما هو إلا حالة نفسية يعتمد على إدراك خلل التوازن ما بين التقييم الذاتي لقدراته لمواجهة متطلبات المهمة والاعتداءات المدركة، وأن الضغط يشعر به الفرد عندما لا يلبي كل الطلبات المدركة، فمعالجة المعلومات بالنسبة للفرد تكون جد معقدة تُستدرج في خطوات كالتالي:

-عندما يكون هناك ضغط يتصرف الفرد بطريقة لاشعورية بتقييم معرفي، أولا بالوضعية الخاصة بالضغط من خلال خصائص الفرد وموارده بما فيها إدراك العوامل المحيطة به.

-ثانيا بالفرد في حد ذاته، تتضمن الثقة بقدراته لمواجهة الطلب. بعد اختيار إستراتيجية معينة، هنا يقوم بإعادة تقييم الوضعية مرة أخرى. أما دينامية feed-back التغذية الراجعة التي تسمح له بمعرفة مدى فعالية استراتيجياته التي تستند إلى الموارد الشخصية وهو مفهوم جد مهم طيلة هذه الفترة، فالفرد يعتقد أنه باستطاعته التحكم في الوضعية التي تتطلب التكيف. [16]

ويتضح من النماذج السابقة أن إدراك الفرد للضغوط يتأثر بعوامل عدة منها:

- **متغيرات شخصية:** قدرات الفرد التعاملية مع المواقف وخبراته والحالة الانفعالية لديه، وعلى أساس خصوصيته يتحدد نوع الاستجابة التي تصدر عنه إزاء الأحداث الضاغطة، وتتطلب معالجة المعلومات موارد شخصية من أجل مواجهة الوضعية:

-الإدراك النفسي والبيولوجي.

-الذكاء الذي يفضل تقييم عميق للوضعية مع ما يناسبها من قدرات للرد.

-الحالة النفسية والبيولوجية (المعرفية والانفعالية)، التي تتداخل بشكل كبير مع تقييم الوضعية وقدرات الشخص، ويشير إلى أن المكتئب لا يستطيع أن يفعل التقييمين مع بعضهما.

-الخبرات الماضية، القوية المتعلقة بالضغط.

-المعتقدات التي تعتبر في حد ذاتها ضغوطا مكملة.

– **متغيرات بيئية**: صراعات، عدم الرضا الوظيفي، العلاقات الإنسانية داخل البيئة.

– **متغيرات الموقف الضاغط**: شدة الموقف وحداثته ومدى تهديده للفرد. [17]

إذن عندما يدرك الفرد أنه عاجز عن التأثير فيما يتعرض له من أحداث وظروف ضاغطة ولا يستطيع السيطرة عليها، فإن ذلك يؤدي إلى فقدان الشعور بالضبط والتحكم، وهذا يقود إلى الشعور بالضغط، ولمعرفة ماهي العوامل المعرفية وكيف تتأثر بالضغط يجب التطرق إلى البنية المعرفية ومكوناتها.

7. علاقة الضغط بمعالجة المعلومة: لتفسير هذه السيرورة يجب تناول عدة عناصر نظرا لأهميتها في هذه العملية نستدرجها كما يلي:

7_1 البنية المعرفية: ترتبط الفروق الفردية في القدرة على حل المشكلات الخاصة بالبنية المعرفية والمهارات المستخدمة بإعادة صياغة المشكلات وإعداد الخطط والاستراتيجيات، لتحديد العمليات المعرفية المستخدمة للتمثيل الذهني الداخلي للمعلومات. وتحديد التراكيب المعرفية المستخدمة عن طريق التركيز من خلال بعض النماذج المعرفية المختزنة في الذاكرة، على اعتبار أن حل المشكلات يرتبط بالمعالجة النشطة التي تعتمد على عوامل الذاكرة عن طريق استخدام شبكة ترابطات المعاني وهذا ما تطرق اليه غريينو Gréeno سنة 1973.

ويضيف برنستاين Burnstein سنة 1981، أنه في إطار تجهيز المعلومات، فإن حل المشكل يتطلب الانتباه، التنظيم المعرفي، الذاكرة، اللغة والتخطيط المعرفي كعمليات عقلية لازمة.[18]

إذن حل المشكلات يعتمد في الأساس على مهارات المعالجة، فعالية نظم تجهيز المعلومات والأفكار التي نتذكرها من خلال التجارب السابقة، **فالتفكير** هو أحد الأنشطة العقلية المعرفية، ويقول ماير Mayer أنه يحدث عندما يحاول الفرد حل المشكلة، حيث ينتقل من مرحلة المعطيات إلى مرحلة الهدف. وذهب كارلسون Carlson (1993) إلى اعتباره مُهما في إدراك المعلومات

ومعالجتها وتصنيفها. فهو المعالجة العقلية وإعادة تنظيم المدركات الحسية والدوافع، العادات والقواعد وقد يكون منطقيا، حيث يتم إجراء عقلي يبدأ من المعلومات المعطاة ويؤدي إلى استنتاجات جديدة تستند على قواعد واضحة.

2-7 مراحل معالجة المعلومات: و. السيد أحمد خليفة و م. علي عيسى سعد، (2007) ذكرا بأنها تتضمن عددا من المراحل تُستدرج على النحو التالي:

-استقبال المعلومات: تمر المعلومات بالمسجل الحسي عن طريق **إدراك** المثير، وخلال هذه المراحل تتحول بعض المعلومات إلى الذاكرة قصيرة المدى، وتتوقف درجة الاستفادة منها على كمية المعلومات المتاحة للتحويل إلى الذاكرة طويلة المدى.

-سرعة المعالجة: الذي يتطلب وقتا قابلا للقياس عن طريق التتالي السريع حيث يعرض المثير لفترة قصيرة جدا، ثم يتبع بمثير آخر ليتقنع المثير الأول، ثم يقدر زمن الرجع الذي يحتاجه الفرد لاسترجاع وتذكر المثير الأول والتعرف عليه.

-الانتباه الانتقائي: هو القدرة على التركيز على المعلومات المهمة واستبعاد غير المهمة، وهو يعتمد على تحديد دقيق لمركزه وللإدراك، وهو العملية الأساسية الأولى التي تقرر انتقال المعلومات من الذاكرة الحسية إلى الذاكرة قصيرة المدى. [19]

عرفت ر. محمود أبو علام الانتباه بصفة عامة على أنه " عملية ذهنية يوجه الفرد من خلالها وعيه ويحتفظ به تجاه مثيرات تستقبلها الحواس". [20] ذكر G. T. Antérion et P. G Carnieأونتيريون وكاريني بأن يظهر اضطراب الانتباه ببطء عمل الأشياء مع صعوبة في التركيز، والحاجة لقضاء المهام دفعة واحدة، حساسية كبيرة للتداخل مما يؤدي إلى تثبيط النشاط.

إن لاضطراب الانتباه انعكاس كبير على نظام الذاكرة قصيرة المدى التي تتحكم في المعلومات، ويسمح بصعوبة استيعاب المعلومات الجديدة، كما يمكن أن يعكس حالة قلق أو اكتئاب انعكاسي. فالانتباه ضروري لاكتساب تنظيم معرفي الذي يعتمد على الانتباه الانتقائي لمثيرات معينة وخبرات سابقة.

إن نشاط حل المشكلات هو نشاط مؤقت يتوقف على طبيعة الموقف المشكل، هذا النشاط يتطلب قدرات تذكرية فعالة ونشطة، سواء كانت على مستوى الذاكرة قصيرة المدى أو

طويلة المدى. فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا ما لم تنشط هذه المعلومات وتستحضرها الذاكرة قصيرة المدى أي نتذكرها، ونظرا لأن سعتها محدودة، فإن معالجة الموقف المشكل مرتبط إلى حد كبير بكمية المحتوى الذي يمكن حمله في الذاكرة قصيرة المدى.

–التشفير: عند اكتساب المعلومات يتم التشفير (الهدف)، يسمى بالأثر الذاكري الذي يجب أن ينشط عند استرجاعها. وهو المرحلة الأولى للتمثيل الذاكري فيجرى تشفيرها على هذا النمط المختلف ذو طابع حسي (سمعي–بصري) ثم تجهز بدرجة أعلى لتتحول إلى آثار على مستوى الذاكرة قصيرة المدى، ومن الممكن أن تدخل نظام الذاكرة طويلة المدى، وإن لم تشفر فإنها تتلاشى، ولا يمكننا أن نتذكرها. [21]

ولتثبيت معارفنا يجب التكرار، فهو عملية شرطية كافية **للتذكر**، يقوم بعزل الروابط المتطفلة وتعزيز الروابط الفعالة. ويرجح أغلب العلماء أن الأحداث المشحونة انفعاليا تكون سهلة الاسترجاع، لأن دماغ الإنسان يوظف طاقة لتسجيل الأحداث التي ترتبط بالانتباه، إذن القدرة على التذكر مرتبطة بهذا العنصر الأساسي.

7_3 علاقة الضغط النفسي على معالجة المعلومة من الجانب المعرفي والعصبي: هناك عدة عوامل مؤثرة في معالجة المعلومة ولعل أهمها هو الضغط فهو يعتبرا من عوامل الكف والتداخل إذا تداخلت مفاهيم في موقف معين فقد يصعب علينا تذكرها في موقف مختلف بسبب العوامل المشتتة وبسبب الموقف المشحون بعوامل القلق، أو الاضمحلال حيث أن الذكريات لها أثرا في الدماغ تضمحل بالتدريج بسبب عدم استعمال الخلايا العصبية التي تضعف إذ لم تستخدم. فالعامل الضاغط يتسبب في اضطراب الانتباه الانتقائي مما يسبب خلل في المعالجة المعرفية للمعلومات.

أما إذا كان هذا الحدث الضاغط مشحونا بانفعالات القلق أو الاكتئاب، فإنه ذلك يؤدي إلى صعوبة التركيز والتفكير في التفاصيل، واستيعاب معلومات جديدة، يؤثر كذلك على النوم فالحرمان منه يؤدي إلى تعقيدات معرفية، كما أن الاكتئاب طويل المدى يمكن أن يؤدي إلى فقد خلايا عصبية في قرني أمون واللوزتين، فلا يمكن للفرد أن يقوم باستراتيجيات التشفير والاسترجاع الفعالة، الذاكرة متأثرة بانفعالات المعلومات المركزية للتذكر أي السلبية التي تحمل مشاعر حزن

واكتئاب. فبعد أحداث صعبة من الحياة، هناك صعوبة في تغيير الانتباه عن التفكير السلبي الذي يقود لا محال إلى الاكتئاب.

كما أن حالة اليقظة المستمرة الناتجة عن الضغط تؤدي إلى حالة من الأرق، فالأشخاص الذين ينامون ساعات قليلة يكونون أكثر عرضة للنسيان، وأن ست ساعات هي الحد الأدنى المطلوب لضمان أن يكون الفرد يقظا بدرجة كافية خلال اليوم، فإنه الوسيلة التي يمكن من خلالها إعادة تصور المعلومات التي تم مواجهتها، وهذا في دراسات اهتمت بالنشاط العقلي أثناء استرجاع المعلومات أثناء فترة النوم التالية. حيث وجدوا أن المسارات العصبية النشطة أعيد تنشيطها أثناء النوم، ومن المعتقد أنها عملية الاندماج التي تحدث في الذاكرة، فاستعادة النشاط يقوي المسارات العصبية التي تحمل معلومات جديدة، حسب مقال منشور لباين J.D. Payne من جامعة بوسطن 2010.[22]

وتذكر أ. طعمة أن نقص النوم يؤدي إلى الانفعال السريع والكآبة، وهناك دراسات كثيرة توضح ذلك، وعلى رد الفعل وعلى الفهم والانتباه، بسبب أن إيقاع الجسم يستمر لأربع وعشرين ساعة كل يوم وفيه ينظم شحنات الهرمونات المختلفة في الجسم مثل الكورتيزول والميلاتونين وهرمون النمو الذي ينظم النوم واليقظة، وقد تعمل نوبات النوم بشكل مغاير لساعة التنبيه التي يحملها جسم المرء، حسبما يقول "تيموثي روثرس" مدير مركز بحوث مشاكل النوم في مستشفى هنري فورد بديترويت أن جسم الإنسان يكون موضوعا فوق دورة أخرى متأخرة نتيجة لبقائه ساهرا إلى ساعة متأخرة، وهذا ما يجعل الاستيقاظ باكرا عسيرا، لأن الجسم لم يضخ القدر الكافي بعد من هرمون الكورتيزول والهرمونات الأخرى التي تساعد على استيقاظ الفرد. وبطبيعة الحال فان اضطرابات التالية ما بعد الصمة التي تتصف بحدوث ذكريات ضاغطة لحادثة الصدمة، تتميز بأنها تتداخل مع عملية اكتساب معلومات جديدة، وأن الضغط المستمر يؤدي إلى إفراز هرمون الكورتيزول الذي يدمر أغشية المخ المهمة لعملية التذكر.[23]

وبصفة عامة يتوقف الضغط أساسا على درجة الاستجابة له، وليس على كميته، وكل شخص يتعامل مع الضغوط الواقعة عليه بشكل مختلف عن الآخرين، وأن الاستجابة للضغوط الشديدة تدفع إلى إفراز الكورتيزول مما يحدث عجز مستمر في معالجة المعلومة، ويمكن للشخص

السيطرة بمحاولة العثور على طرق تعديل الاستجابة لأحداث الحياة الضاغطة، وإيجاد طرق فعالة يستطيع بها السيطرة على ما يواجهه من ضغوط. ويذكر S.Maheu et S.J.Lupien.F إلى تواجد دراسات تشير إلى أن الانفعال السلبي المرتبط بالحدث المسبب للاضطراب فإن كل الانتباه يتوجه نحوه، وعند إفراز هرمون catécholamine في الدم وهو نوع من الكورتيزول، تصبح موارد الانتباه محدودة فلا يستطيع الفرد معالجة المعلومات الخاصة بالحدث.[24] وأشار ع.عبد المجيد أحمد بأن يحقق الانتباه الانتقائي وهو أحد أبعاد عملية الانتباه الذي يرتبط بتوجيه وتركيزه نحو مثير معين لحظة معينة، وعزل باقي المثيرات الأخرى الأقل أهمية وهذا ما يعرف بهامش الانتباه، فمن خلال الانتباه الانتقائي يضعف الدماغ المعلومات الأخرى غير المرتبطة بالموقف.[xxv]

وقد يصعب تحقيق الانتباه الانتقائي نتيجة للاستثارة الزائدة، مما يؤدي إلى فقدان التركيز، أو إلى الضغط الذي له قدرة على التأثير عليه وعلى عملية التحويل التي تتضمن الانتباه الاختياري في سعة المعلومات التي كانت هامشية، فيقوم الفرد باختيار الاستجابة التي تحقق الهدف بتحويل الانتباه لأحداث خارجية أخرى غير مهمة. كما أنه يعمل على تركيز الانتباه نحو الداخل وإلى الأفكار السلبية وبالتالي عدم التركيز الكلي وتشتته. وأفاد توران J.M.Thurin بأنه في حالات الفرح والصدمة تفرز نفس الهرمونات التي لها تأثير على الدماغ، وقد أكد العلماء أن إفرازها بشكل مفرط فإن هذا يسبب نقص قدراتنا في استرجاع المعلومات الجديدة التي لا تدخل نطاق الذاكرة إلا بالتشفير الذي يتطلب انتباها لها من قبل المخ الذي يقرر ما هو هام وما يسجله الانتباه الانتقائي.[xxvi]

إن الجهاز السمبتاوي وهو جهاز رد على الضغط، يتضمن حياة الفرد بطرق مختلفة، فهو يوفر له الطاقة عند المجابهة أو الهروب من الخطر، كما يضمن تذكر تفاصيل دائمة لهذه الوضعيات من أجل تجنب شبيهاتها في المستقبل، فهي تملك القدرة على تكوين ترابطات بينها والحدث الصدمي المرتبط بشحنة انفعالية، وعند الإنسان توجد ثلاث مناطق هامة تعمل على ذلك وهي: قرن آمون، اللوزتين والقشرة الأمامية الفص الجبهي. فالقشرة الجبهية تساعد على تقييم الوضعية قبل اتخاذ القرار (الانتباه ثم القرار)، ويؤثر الضغط على اللوزتين من الجانب الانفعالي للمعلومة، وارتفاع

تثبيت هرمونات Glucocorticoïdes في هذه المنطقة المسؤولة عن النسيان نفسي المنشأ، ومن الآثار العصبية الدائمة للضغط أنه قد يسبب خلل عصبي حاد. والشيخوخة المبكرة أو توقف بعض الخلايا العصبية ناتجة عن الرسائل الكيميائية.

خاتمة:

الضغط هو استجابة فيزيولوجية نتيجة استثارة الجهاز العصبي المستقل وبالخصوص منطقة المهاد الذي يقوم بإفراز هرمون adreno corticotropique الذي يؤثر على الغدة الكضرية لتفرز بدورها هرموني الألدوستيرون والكورتيزون لمواجهة الموقف الضاغط، فتظهر تغيرات فيزيولوجية عصبية دلالة على استثارة الجهاز السبمثاوي كزيادة نبض القلب واليقظة المستمرة ويكون الجسم في حالة استعداد وتأهب إما للمواجهة أو الهرب. ولاختيار الحل المناسب مع الوضعية الضاغطة يجب اللجوء إلى التقييم المعرفي لهذه الوضعية كخطر، ولموارده الشخصية التي تعتمد على معالجة المعلومة للقيام بحل المشكلات التي تستند أساسا على نظام تأويل وتحليل المثيرات المبني على اختيار المعلومات الجديدة بواسطة الانتباه الانتقائي واسترجاع المعلومات والخبرات السابقة من طرف الذاكرة، وبالتالي يظهر دور المخططات المعرفية في تسهيل استخدام استراتيجيات المواجهة.

لكن إفراز الهرمونات الناتجة عن نشاط الجهاز السمبثاوي يحدث عجزا مستمرا في معالجة المعلومة، فهي تتثبت بالمستقبلات العصبية الموجودة في قرن أمون واللوزتان والفص الجبهي، فتؤثر على الانتباه الانتقائي بالرغم من محاولته للتركيز على تحقيق الهدف لكن يتوجه إلى الأحداث الأخرى غير المهمة والهامشية مع عدم التركيز والتشتت، وبالتالي يصعب تشفيرها ولا يتمكن الفرد من القيام بالتقييم الأولي ولا الثانوي ويفقد الشعور بالضبط وبالتحكم ويقع الفرد في الضغط المستمر.

فمن خلال هذه الدراسة تبين أن التغيرات الفيزيولوجية الناتجة عن الضغط أساسها الجانب العصبي والهرموني المتمثل في استثارة الجهاز العصبي اللاإرادي وإفراز هرمونات الكورتيزول الذي يؤثر على المناطق الدماغية السابقة الذكر، والتي تلعب دورا كبيرا في تحديد الاستجابة للموقف الضاغط ومعالجة معلوماته، فيتسبب في حدوث اضطرابات نفسية ومعرفية، وبالتالي تم إظهار أن للضغط النفسي تأثيرا على جملة الوظائف المعرفية التي تتطلبها معالجة المعلومة من إدراك وذاكرة وبالخصوص

الانتباه الانتقائي الذي يكون غير مركزا على الحدث الضاغط، ومنه التأكيد على أن الضغط له علاقة بمعالجة المعلومة. وبالتالي فإن مختلف التغيرات البيولوجية والعصبية والهرمونية للضغط النفسي وما يتسبب فيه من اضطرابات معرفية، يؤدي إلى تشتت الانتباه الانتقائي وبالتالي يحول دون القدرة على معالجة المعلومات ولا يستطيع الفرد التحكم في الوضعية الضاغطة.

الهوامش:

1) فاروق. السيد عثمان. القلق وإدارة الضغوط النفسية. دار الفكر العربي، للطبعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، 2004.

2) J.F.Amadieu. sources et mesures du stress au travail, quelles nouvelles voies de recherche envisager ?. . Les cahiers du CERGOR, n 02/03. Septembre 2002, université Paris 1 Panthéan Sorbonne, France، 2002.

3) L. Guillet. Stress, modèles et application, édition université.Lorient, France ، 2006.

4)F.S. Maheu et S.J. Lupien .Op cit, p126.

5) هارون توفيق الرشيدي. الضغوط النفسية طبيعتها ونظرياتها، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة ،مصر، 1999.

6)علي عسكر. ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها. دار الكتب الحديثة، ط5 القاهرة، 2001.

7) F.S. Maheu et S.J. Lupien. médecine sciences، la mémoire aux prises avec les émotions et le stress: un impact nécessairement dommageable ?، vol 19, n 01, PP: 118-124. Persée, paris. 2003

8) علي عسكر. ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها، ص 84.

9) F.S. Maheu et S.J. Lupien .Op cit, p123 .

10) علي عسكر: نفس المرجع.

11) P.Graziani ;I.Swenden. le stress. PUF, France، 2005.

12) J.B Stora . Le stress. PUF, France. 2002.

13) M.De.Bonis.evaluations subjectives et réponses physiologiques dans une situation de stress, Vol 74, n 02, PP 473-485.revue persee, Paris ،1974.

14) G.Mascelet. psychologie de travail et des organisations، elseviers Masson, Paris. 2005.

15) C.Canetti . les services médico-psychologiques. Édition revue ADSP, France , 2013.
16) J.larue. stress et performance، PUF ,France.1995 .

17) C. Bocquet. Las aidants naturels leurs role dans le processus de réadaptation . Edition Persée, paris، 2002.

18) فتحي. مصطفى الزيات. علم النفس المعرفي، الجزء 2 ، دار النشر للجامعات، القاهرة. 2001

19) وليد. السيد أحمد خليفة و مراد. علي عيسى سعد. الاتجاهات الحديثة في المجال التربية الخاصة التخلف العقلي،دار الوفاء، الإسكندرية. 2007

20) رجاء. محمود أبو علام. سيكولوجية الذاكرة وأساليب معالجتها، (2011). دار المسيرة للطباعة والنشر،الاردن.

21) G. T. Antérion et P. G Carnier . Les troubles de la mémoire . dossier patient, les complications tardives de l'AVC ; revue Correspondances en neurologie vasculaire - Vol. IV - n° 2 , Paris . 2004.
22) E. Pigeon gagné. anatomie du stress، Laboratoire d'études de la santé cognitive des ainés , journal CNRS. France. 3 juin 2011.

23)أماني. طعمة. الهندسة النفسية البرمجة اللغوية العصبية، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 1999.

24) F.S. Maheu et S.J. Lupien. médecine sciences، la mémoire aux prises avec les émotions et le stress: un impact nécessairement dommageable ?، vol 19, n 01, PP: 118-124. Persée, paris، 2003.

xxv)عبد العزيز.عبد المجيد أحمد. سيكولوجية مواجهة الضغوط في المجال الرياضي، مركز الكتاب للنشر، مصر، 2005.

xxvi) E. Pigeon gagné. anatomie du stress، Laboratoire d'études de la santé cognitive des ainés , journal CNRS. France. 3 juin 2011.

السّلطة الأبوية في الأسرة الجزائرية: امتدادية أم قطيعة مع النّمط المجتمعي التّقليدي

الأستاذ عمر داود، جامعة تيارت

ملخص

بالرغم من التحولات العميقة والمعقدة التي تشهدها المجتمعات لا تزال الأسرة تشكل الوحدة الاجتماعية الأساسية في البناء الاجتماعي بتأسيسها لمختلف الروابط والحفاظ عليها، غير أنّها قد عرفت في مختلف تمظهراتها تغيرات جوهرية مسّت على وجه الخصوص بنيتها ووظائفها والعلاقات فيما بين أعضائها.

وتبقى الأسرة الجزائرية على غرار أسر كل المجتمعات الإنسانية تحاول إعادة إنتاج منظومتها والاستمرار في المحافظة على القيم والمعايير الأسرية التقليدية، وإيديولوجيتها الأبوية التي تفرض على الأب احتلال الموقع المركزي، واحتكار السّلطة والنفوذ وحرية التّصرف، وتستخدم شتى أدوات الممانعة والمقاومة والتفاوض مع واقعها المتحول، الذي فرض على الفعل الاجتماعي التّوجه نحو التّمدن، وفتح المجال أمام المساهمة النِّسائية في مختلف الحقول، وسمح ببروز الفرد وفرض اختياراته وميولاته وأذواقه في شتى المجالات، ما استلزم اللجوء إلى أشكال سلطوية أسرية أخرى، أو الاستمرار في شرعنة التمايزات والتفاوتات والإقناع بها، وتقديسها، وتبني صيغ أخرى للحفاظ على نوع من التمثل الإيجابي للسلطة الأبوية كتدبير مزدوج يؤجل القطيعة مع هذا النمط التقليدي ويحاول جاهدًا استمرار امتدادية هذه السلطة ولو في شكلها الرمزي فقط.

الكلمات المفتاحية: الأسرة – السلطة – التحول.

Summary: The theme of parental authority in the family is considered among the new themes that has caused a social evolution in the Algerian society. In this study we will try to focus on how to understand and treat the issue of

parental authority in the Algerian family from a structural and functional point of view in relation with the symbolic of these emerging new social actors, that attempted to impose a new position, due to a cultural change in the Algerian society.

It seeks the indicators of the extension of the parental authority in the present Algerian family, and on the other hand found other indicators of the break with the type of the traditional family authority.

Therefore, this article demonstrates that the Algerian family to maintain some of the characteristics of the traditional type with the existence; a significant change in the distribution of work between the individuals and the quality of the roles, rights and duties and the disparity in the responsibilities and authority in the family have been done. This does not mean the adoption of the current Algerian family the nuclear Western type, yet this separation is accompanied by the continuity of the many traditional social commitments.

Keywords: family - authority - mutation.

مقدمة

ما هي السّلطة؟ وما طبيعة السّلطة التي ترتكن إليها مؤسسة الأسرة؟ وما هي مرجعياتها؟ وما هي آليات اشتغالها؟ وكيف يتم في أحضانها استقبال عملية المرور الاجتماعي؟ وما الذي ينجم عن هذا المرور من صراعات واختلالات ومزاحمات على السّلطة؟ وهل طبيعة السّلطة في الأسرة الجزائرية تتجاوز المستوى الأسري إلى مختلف المستويات المجتمعيّة الأخرى باعتبارها النّموذج المصغر للمجتمع؟

تبرر هذه الأسئلة وغيرها الحاجة إلى الاشتغال بموضوع السّلطة في الأسرة الجزائرية، لمحاولة اكتشاف نظامها الرّمزي والمادي وتحليل آليات إنتاجها وإعادة إنتاجها، وعليه فقد انصب التّساؤل الإشكالي لهذه الورقة البحثيّة حول الديناميات المرتبطة بمسارات تجدر السّلطة الأبوية في الأسرة الجزائرية والعوامل التي تحدد شروط استمرارها وتحوّلها، فضلاً عن محاولة الكشف عن الآليات التي تمكنها من التفاوض مع الواقع وتحولاته الاجتماعية المختلفة.

وهو ما يحيل بالضرورة إلى تفكيك سؤال العلائق بين عناصر هذه الأسرة، الأمر الذي يتطلب الانفتاح واستنطاق القيم الأسرية وممارساتها وظواهرها، وما يتأسس في أبنيتها من سلط ووظائف تراهن واقعها وتكشف عن التراتبيّة المعلنة أو المضمرة على حدٍ سواء.

وباعتبار السّلطة مطلبًا هامًا لكل تنظيم اجتماعي، والحق المقرر لممارسة الضبط الاجتماعي، فهي تشمل جانبي القوة والتأثير، وتستمد مرجعيتها من ثقافة المجتمع، وتُمارس باختلاف أشكالها ضمن نسق قيمي متعارف عليه في الجماعة، وبما أنّ الأسرة هي بمثابة الخلية التي تدور في فلك النّسق العام، فهي على غرار بقية مؤسسات المجتمع تشهد تحولات نسقية متعددة، ما يفرض وضع إطارٍ مبدئيٍ ومرجعيٍ تتم به المقارنة لمعرفة مختلف التّغيرات، لذلك يبقى الإطار المرجعي هو المجتمع التّقليدي باعتباره نموذجًا اجتماعيًا واقعيًا له وجود سوسيولوجي كافٍ لجعله إطارًا مبدئيًا لمعرفة مؤشرات الامتدادية والقطيعة.

وهو ما لا يعني بالضرورة اشتراك كلّ الأسر الجزائريّة في نهج شكل موحّد من النّمط السّلطوي الأسري، فقد تتخذ هذه الأسر عدّة أشكال سلطويّة، تعبر عن نتاجٍ محددٍ لشرطٍ مجتمعيٍ متعدد المتغيرات والأبعاد، الأمر الذي يُبعد الموضوع عن أي نزعة تعميميّة، ولا يسمح بالوصول إلى تشكيل إطارٍ شموليٍ مكتملٍ لأسرةٍ جزائريةٍ في محك التّحول، مع إمكانية فتح منافذ نُطّل منها للاقتراب أكثر من فك شفرات الموضوع بالممازجة بين المنظوريّن البنيوي والوظيفي التّفاعلي، ما يتطلب تحديد الأطر المفاهيميّة بشكل يرفع اللّبس عنها، ويخفف من كثافة حمولتها.

1-الإطار المفاهيمي:

1-1 السلطة:

يتجاوز مفهوم السلطة المعنى السياسي المحض، ويقتحم بذلك كلّ الحقول الاجتماعية، ويفرض نفسه على أي تجمع بشري، لذلك فالسلطة ظاهرة قديمة عرفتها كلّ المجتمعات البسيطة منها والمعقدة على حدٍ سواء، لأنّها ضرورية وحتميّة تعتمد عليها جل المؤسسات التنشئوية لاستقامة

الحياة الاجتماعيّة وضمان بقائها وانضباط الأفراد، ما يجعل لفظة السلطة Autorité تحمل معانٍ متعددة متناسبة مع اختلاف سياقات توظيفها، فهي مشتقة من كلمة Autoritas اللاتينية التي تشير إلى التأثير المطبّق على الآخرين للتحكّم في بعض سلوكهم ومواقفهم[1]، ويبدو أنّها حديثة الاستعمال حيث لم يتم العثور على معناها اللّغوي العربي في القواميس القديمة المتخصصة كلسان العرب أو القاموس المحيط وغيرهما، غير أنّ عبارتي السَّلطُ والسّليط تحملان معنى الشدّة، وكلمة السلطان تحيل إلى الحُجّة، وقدرة الملك[2]، بينما يحصر المعجم الوسيط معنى "السُّلطة" في «السيطرة والتحكّم، والتسلط يعني التحكم والتمكن والسيطر»[3]، ويعرّفها المعجم الفلسفي بـ«كل ما يحدد سلوكًا أو رأيًا لاعتبارات خارجة عن القيمة الذاتيّة للأمر أو القضية المعروضة»[4]، وهو ما يعني أنّ السّلطة هي القوة المفروضة على الأفراد، والتي تخرج عن إطار اختياراتهم الذاتيّة، وتتحكم في سلوكاتهم، وتحدد مواقفهم في بعض القضايا.

في حين يرى دينكن ميشيل Duncun Mitchell أنّ السلطة تحمل دلالة ممارسة أحد أشكال القوة التي تكمن في التأثير والسيطرة الجبرية لتوجيه الأفراد نحو تحقيق الأهداف الخاصّة والعامّة، وتقوم بتنظيم جهودهم وواجباتهم، ويقسّمها ماكس فيبر Max weber إلى ثلاثة أقسام: السلطة التقليدية، والعقلية (الشرعية)، والكريزماتية، ويرى أنّ الأولى هي امتداد لنظم كانت موجودة في الأزمنة السابقة، وتستند إلى شرعيتها التاريخية، بينما الثانية تعتمد على الطرق والأحكام القانونية العامّة، في حين يتمحور القسم الثالث حول شخصية الفرد الذي يتميز ببعض الصّفات والمزايا المقدسة، وتفقد السلطة شرعيتها حينما تخفق في المحافظة على النّظام وضبطه[5]، باعتبارها قادرة على إلزام الغير بفعل ما لم يكن ليفعله من تلقاء نفسه، إمّا بصيغة ترابطية تأخذ شكل البرامج المسطرة والتعليمات التوجيهية، أو بالصيغة الترابطيّة التي تتأسس عن طريق إصدار الأوامر[6]، وتعرّف السلطة بصّفة عامّة بأنّها تلك القوة الضاغطة في المجتمع والمرتبطة بنسق المكانة الاجتماعيّة، والموافق عليها من جميع أعضاء المجتمع، وتعمل على توجيه سلوك الأفراد بصورة محددة، ما يعني أنّها تمثل تلّك القوة النظاميّة والشرعيّة في أي مجتمع، والتي تستمد شرعيتها من المجتمع وثقافته، وترتبط بنسق التراتب الاجتماعي المعترف به، لذلك تلقى في الغالب الموافقة من قبل جل الفاعلين الاجتماعيين.

1-2 الأسرة:

نتيجة لاختلاف المدارس والاتجاهات النّظرية السّوسيولوجيّة يصعب حصر الأسرة من النّاحية المفاهيميّة، غير أنّه من الممكن تناولها من عدّة زوايا، وقبل الخوض في ذلك يؤكد مصطفى بوتفنوشت في حديثه عن العائلة الجزائريّة على عدم وجود فروق واضحة بين مفهوميّ الأسرة والعائلة، فهما يعنيان ثنائي الزّوج والزّوجة وأبنائهما، ويجمعان في الآن ذاته الأسلاف والخلف التّابعين للدّار الكبيرة[7].

أما أوغست كونت A.Comte فينعت الأسرة بالخلية الأولى في جسم المجتمع، لأنّها تشكّل النقطة الأولى التي تبدأ منها في التّطور، وهي الوسط الطّبيعي الاجتماعي الذي يترعرع فيه الفرد، ويصّفها هربت سبنسر H.Spencer بالوحدة البنائيّة التي تتكون من رجل وامرأة تربطهما علاقة زوجيّة متماسكة، وقد يُضاف إليها الأطفال والأقارب، ويكون وجودهما قائم على الدّوافع الغرائزيّة والمصالح المتبادلة والشعور المشترك، بينما لا يُخرجها عاطف غيث في قاموسه عن إطارها الاجتماعي البيولوجي النّظامي، والتي تتكون نتيجة تلك الرّابطة الزّاوجية المقرّرة اجتماعيًا بين الرّجل والمرأة[8].

في حين حاول كلٌ من برجس E.W Burgess ولوك H.J.Locke في كتابهما "الأسرة" تعريفها بتلك المجموعة من الأفراد الذين تربطهم روابط قوية ناتجة عن صلات الزّواج، والدّم والتّبني، ويعيشون في بيت مشترك، ويتفاعلون سويًا ويتقاسمون الأدوار مكوّنين ثقافة مشتركة وعلاقات اجتماعيّة متماسكة أساسها المصالح والأهداف المشتركة[9]، ولا يكاد الأمر يختلف عند راد كليف براون R.K.Brown الذي عادةً ما يوظف مفهوم الأسرة الأوليّة، والتي تتألف من الرّجل وزوجته وابنهما أو أبنائهما[10]، ومن أهم الوظائف التي تقوم بها هذه الجماعة هي إشباع الحاجة العاطفية، وتهيئة المناخ الاجتماعي والثقافي المناسب لرعاية وتنشئة الأبناء، وتُعرّف الخولي الأسرة من زاوية أخرى مختلفة عندما تجعلها مرتبطة بمجموع المكانات والأدوار المكتسبة عن طريق الزّواج والإنجاب[11]، ما يعني وجود علاقات تبادليّة متوازنة ومتقاطعة تحدد مكانات عناصر الأسرة وأدوارهم التي تسعى إلى تحقق أهدافها وضمان الحفاظ على توازناتها الدّاخلية واستمراريتها وبقائها.

ومن خلال هذه التعاريف، يمكن القول أنّه من الصّعب الوصول إلى تعريف يلقى بعض الإجماع، بحيث تركز كل محاولةٍ لأجل ذلك على بعض الجوانب التي تبدو لها أهم من غيرها، فتتأرجح زوايا الاهتمام بين النواحي التّنظيميّة، والوظائفيّة، والتّفاعليّة، وعليه يمكن تحديد الأسرة بتلك المؤسسة الاجتماعيّة ذات الوجود العالمي، والنّظام الاجتماعي المركّب والمعقد ببنائه ووظائفه وأهدافه وديناميته، والذي يعتمد على عناصره البيولوجيّة، وثقافة المجتمع التي توجهه وتعدّل من وظائف عناصره وأدوارهم وسلطهم وتفاعلاتهم وتفضيلاتهم بما يتناسب طبيعة المجتمع وظروفه وتحولاته.

1-3 السلطة الأبوية:

يشير معنى السلطة الأبوية إلى ذلك الخضوع التام لكل أفراد الأسرة لـ"رب العائلة"، والذي يتمثل عادة في الأب، بحيث تكون العناصر الأخرى في مركز لا يملكون حياله سوى الامتثال لقراراته وطاعة أوامره، وتستمد هذه السلطة شرعيتها بناءً على ما تمليه عادات وتقاليد وأعراف المجتمع، التي تحيطه بالاحترام والهيبة وتجعل الجميع تحت إمرته ومسؤوليته، وأدنى عصيان أو تمرد يُعد خروجًا عن ثقافة المجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده التي تعتبر شأنًا مقدسًا في المجتمعات التقليدية، وهو ما يؤكده هشام شرابي عند حديثه عن المجتمع العربي: «إنّ الطابع الذي يطبع جميع هذه العلاقات هو طابع السلطة الفوقية، فصاحب السلطة في مجتمعنا ومن يمثله أو يمثل السلطة هو الذي يملك ويستفيد، بينما باقي الأفراد تقبل وترضخ وتمتثل، والكبير في المجتمع هو دوما الذي يتسلط ويحكم ويسيطر (...) وليس الكبير وصاحب السلطة والمركز في المجتمع إلاّ صورة مكبرة للأب في العائلة بتصرفاته ونظرته لنفسه وعلاقته بمن دونه (...) ليس مستغربا أن ينمو الفرد الذكر في مجتمعنا قضيبيًا ينزع في شخصيته إلى حب البروز والسيطرة، ويحتقر المرأة، ويميل إلى إذلال من هم أضعف منه، فتكون شخصيته على صورة أبيه وارتكاسًا لها»[12]، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تشكيل التمثل الجمعي لهذا "الأب" والذي ينبني على معطيات دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية، وهو ما يعكس عمليات الدمج بين الفرد وأسرته في التفكير المحافظ والنمط المجتمعي التقليدي الذي يربط بينهما بالارتباط الوثيق؛ فيجعل من الأبناء الملكية الخاصة لآبائهم، فهذا الأخير هو الذي يقرر عدد أبنائه،

ويحدد كيفية تنشئتهم، وغالبًا ما يعتبر أبناءهم امتدادًا له، وقد تنجح عملية التطبيع الاجتماعي في مرحلة طفولة الأبناء، ويكون بعضهم مصدرًا للفخر والتباهي والمكافأة، بينما قد يتحول الأمر ويتأزم الوضع بمجرد بلوغ الابن مرحلة الرشد ونزوعه إلى الاستقلالية، وغالبا ما ينتقد الآباء أسلوب حياة أبنائهم، وطريقة اختياره لأصدقائهم، وأذواقهم، وميولاتهم المختلفة...، بينما تكون المرأة في مثل هذه المجتمعات التي تمنح السلطة للأب المرأة أكثر تقيدا بالأسرة وأكثر خضوعًا لآليات الضبط الاجتماعي من الرجل، والرجل أكثر انخراطًا في المجال العام منها.

1-4 المنظور البنيوي الأسري:

إنّ المقصود بالمنظور البنيوي الأسري هو الشّكل الذي تتبناه الأسر في تركيبتها، والذي يفرضه المجتمع وحركيته وأهم تحوّلاته السّوسيو ثقافيّة، وعليه يمكننا تحديد الأشكال التي تعرفها الأسر على النّحو التّالي:

أ-الأسرة الممتدة La famille étendue: تتكّون الأسرة الممتدة بنائيًا من ثلاثة أجيال أو أكثر، فهي تضم بذلك الأجداد وأبنائهم المتزوجين وغير المتزوجين والأحفاد[13]، المقيمين في المسكن المشترك، ويُعتبر هذا الشكل النّمط الشائع في المجتمعات البدائية والمجتمعات التّقليديّة، وهي عبارة عن جماعة نظاميّة الملكيّة والسّلطة، بحيث تكون هذه الأخيرة بيد رئيس الأسرة بصّفة تكاد أن تكون مطلقةً، فتنتقل هذه السّلطة من الجد إلى الأب فالابن الأكبر.

ب- الأسرة النووية La Famille nucléaire: تقتصر الأسرة النّووية على جيليّن، إذ تضم الزّوجيّن والأبناء غير المتزوجين فقط، والمقيمين في مسكنٍ واحد، وأحيانًا يتم استخدام مفهوم الأسرة الزّواجيّة للإشارة إلى هذا الشّكل من الأسر، كما أنّ شدّة الحراك الجغرافي وشيوع النّزعة الفرديّة التي انعكست على عدّة مظاهر كالملكيّة والقانون والتّمثلات الاجتماعيّة العامّة المتعلقة بمعايير النّجاح الاجتماعي وتحقيق الفرد لسعادته وإرضاء ذاته جعلت هذا النّموذج من الأسر مقرونًا بالمجتمعات الحديثة، لذلك فإنّ وظائف هذا الشّكل الأسري تقتصر في الغالب على الوظيفة العاطفيّة والجنسيّة والتّربويّة والاقتصاديّة[14].

ج-الأسر المتعددة الزّوجات La polygame: غالبًا ما يكون هذا الشّكل مرتبطًا بالمجتمعات الزّراعيّة التّقليديّة وبالنّمط الممتد، ويتميز عنه وعن الأشكال الأخرى بوجود زوج مشترك بين زوجتيّن أو أكثر.

د-الأسر متعددة الأزواج La polyandrie: يعتبر هذا الشكل من الأشكال النّادرة الانتشار، إذ لا يوجد إلاّ في القبائل المعزولة في بعض الجزر، وهو النّمط المفضل عند سكان جزر ماركيز في بولينيزيا Les îles marquises Polynésie حسب ميردوك، وعند قبائل النودا Nouda في جنوب الهند، كما أنّه يظهر في شكل متفرق ومشتت في بعض المجتمعات الأخرى[15]، وهو يعني وجود زوجة مشتركة بين رجليّن أو أكثر.

ه-الأسر أحاديّة الوالدين Monoparentales: وهي التي يعيش فيها أحد الوالديّن فقط مع الأبناء ويتكفل بهم، إمّا بسبب الطّلاق أو الهجر أو موت أحدهما، وغالبًا ما يكون هذا الشّكل من الأسر مرتبطًا بالنّمط النّووي، وبالمجتمع الحديث الذي يتميّز بغياب التّضامن القرابي من جهة، ومطالبة الأفراد بالاستقلاليّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة من جهة أخرى.

و-أسر النّمط الوالدي المتعدد La pluriparentalité: يرتبط وجود هذا الشّكل الأسري بالممارسات الزّواجيّة الحرّة، التي تتم بعقود معنوية غير قانونيّة تشترط في الغالب قبول كلّ طرف بتبني أبناء الطّرف الآخر، وفي حالات عدم التّفاهم يترك أحدهما الآخر، دون أن يترتب عن ذلك أي ضرر معنوي أو مادي، ويجدد كلّ واحد منهما حياته الأسريّة مع أطراف أخرى جديدة.

ي- الأسر الزواجيّة من النوع نفسه Homo parentale: وهي الأسرة التي تنتج من الزّواج المثلي، أي عقد القران بين رجليّن أو امرأتيّن، فقد كان هذا النّمط يتم بالطّرق غير القانونيّة، وزاد انتشاره في أوروبا لمّا أصبحت قوانين بعض الدّول تبيح الزواج بين رجليّن على غرار الدنمارك1989، والنرويج 1993، وهولندا1998، ثم بلجيكا، وإسبانيا، وايرلندا...، وتعطي لهذه الأسر الحق الكامل في تبني الأطفال، ما ترتب عن ذلك الاعتراف القانوني بوجود هذا الشّكل الأسري الجديد، ومن المرجح أن يتم سن قوانين أخرى ترفع الحظر عن الزواج المثلي النّسائي نتيجة ضغوط هذه الفئة.

4-1 المنظور الوظيفي التّفاعلي:

المقصود بالمنظور الوظيفي التّفاعلي هو مجموع الممارسات الوظائفيّة التي أوكلها المجتمع للأسرة، ومجمل أدوار عناصرها، والتي تتأثر بعلاقاتهم وتفاعلاتهم مع نماذج الطّاعة ومسايرة النّسق القيمي المجتمعي أو رفضه ومواجهته، فهو ينظر إلي الأسرة كنسق اجتماعي ذي أجزاء معينة يربط بينها التّفاعل والاعتماد المتبادل، ويهتم بزاوية أدائه لوظائفه تحقيقًا لبقاء النّسق وتوازنه وتحقيق التّكامل الوظيفي للنّسق الكلّي، كما يتم التّركيز على العلاقات الدّاخليّة للنّسق الأسري، وعلى مختلف العمليات كالنّمط السّلطوي السّائد، وتوزيع الأدوار، وعلاقات المركز...
وإجمالاً يمكن تحديد أهم وظائف الأسر التّقليدية كما يلي:

الوظيفة الاقتصاديّة: بالرغم من محدوديّة الحاجات الاستهلاكيّة للمجتمعات القديمة، فإنّ الأسر التّقليدية كانت بمثابة الوحدة الاقتصاديّة، إذ كانت تسعى للاكتفاء الذّاتي، فلا تستهلك في الغالب إلاّ ما تنتجه، ما يجعل عناصرها باختلاف نوعهم وسنهم ينخرطون في العمل الإنتاجي الاقتصادي، كالتّحطيب، وغزل الصّوف، ونسج الملابس، ورعي المواشي، والعمل الزّراعي...، فهي تنتج وتستهلك وتعيش على الزّراعة، وملكيّة الأرض بيد رب العائلة (الجد، أو الأب، أو الأخ الأكبر سنا)، ما يجعله المتحكم في توزيع قيمة الإنتاج على أفراد أسرته حسب وضعيتهم الاجتماعيّة، وهو الأمر الذي يمنع الأبناء من الخروج عن أطرهم الأسرية.

الوظيفة التّعليميّة: لم تكتف الأسر التّقليدية بتعليم أفرادها الكتابة والقراءة فحسب، بل كانت تلقن لهم مختلف المهارات الحياتيّة، والحرف كالصّيد والزراعة والشؤون المنزليّة....

وظيفة الحماية: لقد كان الأب مسؤولاً عن توفير الأمن وحماية عناصر أسرته، ويتقاسم هذه الوظيفة مع ذكور أسرته، بينما ينفرد بتحقيق الحماية الاقتصاديّة، وتتعاون معه زوجته في توفير الحماية النّفسيّة والاجتماعيّة إلى غاية تقدّمهما في السّن، وتتحول حينها هذه المهمة إلى أبنائهم.

الوظيفة الدّينيّة: تتكفل الأسر التّقليدية بتعليم أبنائها عقائدهم الدّينيّة، وترسيخها بمساعدتهم في تلاوة النّصوص المقدّسة، ومرافقتهم في ممارسة مختلف الطّقوس المرتبطة بها.

الوظيفة التّرفيهيّة: وتُعتبر من الوظائف الثّانوية، وغالبًا ما تكون مقترنةً بتعليم المهارات كالصّيد والفنون القتاليّة...

ومن جانب آخر، كانت أسر المجتمعات البدائيّة أموية Matrilinéaire تقتفي العلاقات القرابيّة خط الإناث[16]، فكانت السّلطة بيد المرأة، لأنّها كانت تقضي معظم الوقت بالبيت تربي أولادها، في حين كان الأزواج والرّجال يغيبون عن أسرهم طِوال النّهار، نتيجة رحالات الصّيد المطّولة، وبتقدّم المجتمعات وانتشار الزراعة، استقرت الأسر وبدأت السّلطة تنحصر بشكّل مطلق في الآباء، فتشكلت الأسر الأبويّة Patrilinéaire وأصبح الكلّ تحت إمرته، حتى حُق له تأجير أحد عناصر أسرته أو بيعه أو إعدامه، ولكي تحافظ الأسرة التّقليديّة على ممتلكاتها فرضت على أبنائها النّمط الزّواجي الدّاخلي أو اللّحمي Endogamie وهو الزّواج الذي يقع بين أفراد القبيلة أو العشيرة أو القرية أو الطبقة الاجتماعية أو الجماعة الدّينيّة الواحدة، ويفرض المجتمع على المخالف لها أشكالاً مختلفةً من العقاب تحقيقًا للوحدة والانسجام بين أعضاء الجماعة[17].

وبنشأة المدن والحواضر الكبرى، وظهور الكيانات السّياسيّة والمنظومات القانونيّة التي انشغلت بالمطالبة بتحقيق مختلف حقوق الإنسان، تمكّنت من الحدّ من السّلطة الأبويّة المطلقة، وانتزعت مؤسسات الدّولة المُخولة الكثير من حقوق ربّ الأسرة وأصبحت تنظمها عن طريق القانون[18].

2- خصائص الأسرة الجزائرية التّقليديّة وتجدر السلطة الأبوية:

لقد كانت الأسرة التّقليديّة بمميزاتها البنيويّة والوظيفيّة التّفاعليّة متناسبةً مع طبيعة المجتمع الجزائري ومجاله الحيوي الرّيفي حينها من ناحية البنيّة والوظائف والخصائص، إذ كانت تمتاز بكبر حجمها واتّساع بنيتها، لأنّ الفضاء الرّيفي يساعدها على توسيع المسكن أفقيًا أو تغييره كلّما زاد حجم الأسرة، كما أنّها كانت تسعى دومًا للاكتفاء الاقتصادي الذّاتي وما يترتب عن ذلك من توزيع للأدوار واحتكار للسّلطة، وكان هذا النّمط مشتركًا بين كلّ الأسر الجزائر، وهو ما يؤكده بيار بورديو P. Bourdieu بقوله: «بالرغم من أنّ المجتمع الجزائري ينقسم إلى عدّة [ثقافات و]أنواع من القبائل كالشّاوية والعرب...الخ، ولكلّ منطقة عاداتها وتقاليدها، إلاّ أنّ نموذج الأسرة الذي كان يقوم عليه هذا المجتمع في كلّ هذه لمناطق متشابه، حيث أنّ العائلة الواحدة تضم بين أربعة وخمسة أجيالٍ، ويحمل أفراد الاسم الممتد إلى الجدّ»[19]، وأمّا عن خصائصها وبنيتها يذكر بوتفنوشنت أنّ الأسرة الجزائريّة هي عائلة كبيرة موسعة، ما يجعل العديد من الأسر الزّواجيّة تقيم

تحت سقف واحد، وهو ما يُطلق عليه بالدار الكبيرة[20]، والعائلة الجزائريّة متشابهة من حيث الخصائص مع العائلة العربيّة، بحيث أن هذه الأخيرة موسعة، وتتميز بكبر حجمها وتشكلّها من ثلاث أجيال وأكثر، وهم جيل الوالديّن الكبيريّن أي الجدّ والجدّة وجيل الآباء والأبناء المتزوجين والمنجبين للأطفال، ويعيش الجميع تحت سقف واحد[21]، وتعطي بذلك أهمية بالغة للعلاقات القرابيّة التي تضمن التآزر والتّعاون والتّضامن والتّماسك والتّعاضد والمناصرة، فيشعر بذلك الإنسان أنّه عضو في أسرته أكثر من كونه فرد مستقل، والقرارات الأساسيّة كالعمل والزواج وتربية الأطفال والطلاق والإرث... شأنًا عائليًا، بمعنى أنّ أي تصرف أو قرار مستقل يُعتبر تمردًا وخروجًا عن الأسرة وتنكرًا لجميلها، ما يجعل الأفراد غير مسؤولين عن سلوكهم الشّخصي فحسب، بل عن تصرفات كلّ أعضاء أسرهم، وخاصّة مسؤولية الذكور عن الإناث، فيمس بذلك أي "انحراف" للبنت عائلتها في الصّميم، ومن هنا يمكننا فهم ظاهرة جرائم الشّرف والثأر، وإجمالاً يمكن اختصار خصائص الأسرة الجزائريّة التّقليديّة في النّقاط التّاليّة:

- تتميز بنيتها بكثرة عدد عناصرها، لأنّه يُعتقد أنّ عدد الأبناء والذكور منهم على وجه الخصوص يزيد في المكانة الاجتماعيّة للأسرة، ويساهم في ضمان إنتاج النّشاط الاقتصادي، المتمثل غالبًا في الزّراعة، وفي الحفاظ على الملكيّة العائليّة وعلى إرثها المادي، ولا تسعى إلى تقسيمه خوفًا من تفكك الأسرة، لذلك يُلزم على الأبناء البقاء مع أسرهم التي تؤمّن لهم العمل في حقولها وأراضيها.
- يتناسب مسكنها مع الوسط التّقليدي الجزائري عمومًا، ويُسمى هذا المسكن عند معظم الجزائريين بالدّار الكبيرة أو "الخيمة لكبيرة"، نتيجة لسعته وقابليته للتّمدد الأفقي كلّما أراد أحدهم تزويج أحد أبنائه، أو إذا زاد عدد أفرادها، لأجل محافظة الأسر على وحدة عناصرها وتلاحمهم، وقد تفرض احتياجات ومتطلبات الأسرة التّقليديّة الجزائريّة إقامة أسرها الزّواجيّة في بيوت صغيرة متجمعة ومتراصة في مكان مشترك، يسمح بنوع من الحرية الشّخصية للأفراد داخل أسرهم، كما يضمن عدم الانفصال الكلّي عن العائلة الكبيرة[22].
- يكاد يكون نظامها الاقتصادي موحدًا؛ فبالإضافة لامتهان بعض الأسر لحرف معينة ومتوارثة أب عن جدّ كالنّجارة، والحدادة، والصباغة والدّباغة، والتّجارة، والصّيد...، فإنّ معظم الأسر

الجزائريّة كان يزاول أفرادها النّشاط الزّراعي الذي كان يتميز بالاكتفاء الذّاتي، فلا تستهلك الأسر إلاّ ما كانت تنتجه في الغالب، ما يحوّل حيازة الأرض من ثروة مادية صِرفة إلى رأسمال رمزي معتبر يحدد رفعة مكانة الأسرة المالكة.

- تتميزّ قيم الأسرة الجزائريّة التّقليديّة ومعاييرها بالطّابع المحافظ؛ فهي شديدة التّمسك بأعرافها وتقاليدها وعاداتها، وتُخضع كلّ عناصرها لها دون نقاش أو تطاول عليها، وتعطي أهمية بالغة للعلاقات الدّموية والقرابيّة، وتفرض عليهم الخضوع للسّلطة الأبوية المطلقة متنقلةً من الجد إلى الأب من بعده، أو الأخ الأكبر في حالة غيابهما، لدورهم الأساسي في الإعالة وإدارة مصادر الإنتاج، بالإضافة لتوفير الأمن والطمأنينة، وهو ما يُبرر تسلطه وهيمنته وإخضاع الجميع لطاعة أوامره وفرض كلمته ورأيه، فيُقال عن الفرد مهما بلغ من العمر أو الجاه: ابن فلان، غير أنّ ولادة الذكر تعتبر حدثًا هامًا فيُستقبل بالزغاريد تعبيراً لمشاعر الفرحة والبهجة، ومقابل تمجيد الذكورة تُبخّس الأنوثة، وتنتشر المعتقدات الخرافيّة التي تحط من شأن المرأة، وتعتبرها مصدر كلّ شرّ وبليّة تلحق بالأسرة، وهو ما يتم تطبيعه عبر تداول العديد من الأمثال الشّعبيّة على غرار: "الخير امرا، والشّر امرا" و"امرا تعييك وامرا تعلّيك" و"اللّي عينو في العذاب يخالط النّسا والكلاب" و"اللّي يبغي الهراج يكثر من النّسا والدّجاج"...، لذلك تعتبر الأسر التّقليدية الجزائريّة إنجاب الأنثى عيّبًا وعارًا، وتفرض عليها كلّ أشكال القمع، والحرمان من التّعليم، والقسّوة في التّعامل والصّرامة في التّربيّة لتطبيعها على التّحمل والطّاعة، وتُمنع من اللّعب مع الذكور، ولفت الأنظار بعلو صوتها تمثلاً لمعاني الشّرف والحياء والحشمة والحُرمة، وتُكلّف بخدمة أشقائها الصّغار، والاعتناء بهم وحراستهم[23]، كما أنّ عليها تعلّم الأعمال المنزليّة كالطّبخ والخياطة والطّرز والحياكة، وإتقانها وهي لا تزال طفلة، بالإضافة إلى تربية الدّجاج وإطعام المواشي...، ثم تُزّوج في سّن مبكّرة جدًا لأنّ زواجها سترة وحماية لها، وعادةً ما تُجبر على الزّواج من ابن عمّها، وإن تعدّت سّن زواج قريناتها لحقتها كل نعوت الإهانة والاحتقار، وحينها لا يتوانى الأهل في إرغامها الزّواج برجل في السّتين أو السّبعين من العمر.

3–التّحولات المجتمعيّة الجزائريّة:

بالإضافة إلى التّحوّلات الدّيموغرافيّة التي شهدها المجتمع الجزائري، والتي اتسمت بالنّمو السّريع؛ بعد أن كان عدد السّكان لا يتجاوز العشر ملايين في سنة الاستقلال، تضاعف بعد

عشرين سنة[24]، ثم انتقل إلى حدود الواحد والثلاثين مليون نسمة في أكتوبر2003، ليصل بعد عشر سنوات إلى عتبات الأربعين مليون نسمة، فإنّ هذه التحوّلات لم تستثن لا المجالية منها، ولا القيميّة، إذ أنّ المجتمع الجزائري قد ورث مجموعة من القيم التّقليدية التي تعود إلى ماضيه البعيد، وهذه الأخيرة ترتكز أساسًا على الدّين والعُرف باعتبارهما أهم مصادرها، غير أنّ المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الثّالثيّة يعرف ديناميكيّة متسارعة وحركيّة مستمرة بالرّغم من كونه لا يزال مترددًا إزاء تبني القيم الحداثيّة، ما يجعل منظومته القيميّة تعيش حالات الأزمة **crise de valeurs**، التي تعكس إمّا الصّراع بين التّقليدي والحديث، أو محاولات تكييف التّقليدي مع المعطى الجديد، والسّياق المتحوّل.

وقد كان معظم أفراد المجتمع الجزائري يشكّلون مجتمعًا ريفيًا، كما أوضحت دراسة محمد السويدي حول هذا المجتمع حيث قال: «خلال النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر كان القطاع الحضري لا يشمل سوى 5٪ أو 6٪من مجموع السّكان الذين قدر عددهم بحوالي ثلاث ملايين نسمة سنة 1830 في حين تبلغ النّسبة بالرّيف 95 ٪ من المجموع الكلّي»[25]، ونتيجة لتعرض بناءاته الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى السّلب أو التّقسيم والتّفتيت هاجر نحو المدن سكان الرّيف الذين لا يملكون مداخيل اقتصاديّة دون أن يُحضَّروا للعيش في المناطق الحضريّة.

واستمر هذا التحوّل المجالي والحراك الجغرافي بعد الاستقلال، عندما ترك المعمّرون ورشات صناعيّة في المدن، تحتاج لليد العاملة، بالإضافة إلى أنّ التّوجه التّنموي الاقتصادي الجزائري حينها، والذي كان متجها بكثافة نحو القطاع الصّناعي، فتمّ إنشاء العديد من المناطق الصّناعيّة المحاذيّة للمراكز الحضريّة، ما دفع بأعداد من ساكنة الأرياف إلى النّزوح نحو المدن، للظفر بمنصب عمل، وامتيازاته الماديّة والاجتماعيّة، حتى أصبحت فئة عمّال المدن أكبر حجمًا ووزنًا في الجزائر، وبالرّغم من وجود تمايز وتناقضات عديدة بين الوسطيّن، وعسر المرور من نمط معيشي ريفي بسيط إلى النّمط الحضري المعقد ظلت هذه الجموع من النّازحيّن متمسكةً بنموذجها الأصلي الرّيفي، ومحاولةً تكييفه مع معايير وقيم المناطق الحضريّة، وتوليفه مع الوسط الحضري وعناصره الثقافيّة ليتماشى مع أهوائها، ونتجت عن ذلك ثنائياتٌ متناقضةٌ ومتعايشةٌ في الآن ذاته، تمثلت في ممارسات اجتماعيّة

وصفها البعض بظاهرة "ترييف" المدن، وعبّر عنها مصطفى الأشرف بتحويل المدن إلى الوضعيّة نصف حضرية، والتي تشير إلى حالة عدم الاكتمال[26].

ولاحتواء هذه الأعداد المتدفقة من البادية و"الدوّار" و"الدّشرة" إلى مختلف المدن الجزائرية توسعت هذه الأخيرة بطريقة عشوائيّة وفوضويّة، فتشكّلت أحياء على أساس الرّابط الدّموي والانتماء القبلي أو القروي لسكانها، أي جعلها لا تستقطب إلاّ مجموعات الأسر المنتميّة للمرجعيّة الاجتماعيّة المشتركة، كمحاولة لإعادة إنتاج النّمط التّقليدي الرّيفي في المجال الحضري، لتوطيد المجموعة المحليّة، وتحصينها بمقاومة ما كان يعتقد من انتشار للميوعة والانحلال والفساد والجبن والانحراف... في المدن، غير أنّ مؤشرات الفقر والبؤس والبطالة والهشاشة الاجتماعيّة لم تسهل عملية الانتقال إلى النّموذج التّضامني التّعاقدي الحديث، ولا المحافظة على الوضعيّة التقليديّة الأصليّة، فعاني الوافدون الجدد إلى المدن ولفترات طويلة من العُزلة، نتيجة محاولاتهم الانغلاق على دواتهم، وانعكاسًا لتلّك التّمثلات السّلبية نحوهم بوصفهم بـ "العروبيّة" وهو ما يعني التّخلف والجهل والخشونة وقلّة الدّراية باللّباقة، والحنكّة...، كما عانوا من مظاهر التأزم بسبب انبهار فئاتهم الشّبابيّة خاصّة بالمدينة وأنوارها وعاداتها ورهبة بناياتها، وولعهم بـ"بريق" التّحضر وما يتضمن من قيم التّحرر والاستهلاك والرّفاهيّة والتّسليَة...، وكان لتزايد الموجات النّازحة إلى المدن في بدايات تسعينيات القرن الماضي نتيجة تردي الأوضاع الأمنيّة في الرّيف الجزائري استمرار في تراجع النّمط المعيشي الحضري لصالح القيم والمعايير الرّيفيّة، وتأثير على كلّ النّواحي الاجتماعيّة والاقتصادية والسّياسيّة والثّقافيّة.

ولم تسلم بذلك شبكة العلاقات الاجتماعيّة بما فيها علاقات العمل والولاء والتّحالف والتّعاون أو التّصادم والصّراع من سيادة العلاقات القرابيّة والجهويّة والزّبونيّة...، كما تغيرت العناصر الثّقافيّة كالتّقاليد والأعراف والرّموز ونمط التّفكير ومنطقه، وتنامي قيم التّحرر بالاكتساح التّدريجي لوسائل الاتصال الحديثة، وانتشار التّعليم بفضل مجانيته وإجباريته استقطب كلاّ الجنسيّن، وارتفع بذلك المستوى التّعليمي للمرأة خاصّة وسُمح لها بالولوج في عالم الشّغل، وإكسابها للاستقلاليّة الاقتصاديّة، والحق في التّفاوض بوصفها فاعلاً اجتماعيًا جديدًا أو شكلاً من أشكال الهوّيات

المُتطلّعة Des identités émergentes ما جعل بعضهن يناضلن من أجل فكّ قيد الهيّمنة الذّكوريّة، وتجاوز المخيال الاجتماعي التّقليدي بمضامينه الثّقافيّة الموروثة التي تحط من شأن الأنثى وتحتقرها، وتحرير النّاشئة من قيم الولاء والطّاعة والخضوع، مقابل حملات البنيات المقاوِمة والممانِعة للتّغيير والتي تحاول فرض الامتداديّة الثقافيّة التّقليديّة في الوسط الحضري بمبررات دينيّة في العديد من الأحيان، ما ترتب عن ذلك ظهور نموذج انتقالي أو تحوّلي يتموقع بين النّمطيّن، كنتيجة حتميّة لتلاقي عناصر ثقافيّة متباينة ومشتركة في توجيه مسار المجتمع الجزائري.

4-الآثار البنائيّة عل الأسرة الجزائريّة وسلطتها الأبوية:

قبل الخوض في آثار هذه التحولات المجتمعية على الأسرة الجزائرية تجدر الإشارة إلى أنّ معظم المجتمعات المعاصرة قد تعرضت إلى تغيرات أسرية عميقة، ولم تسلم من ذلك حتى الأسر ذات الثقافة الريفيّة، وبهذا الصدد يذكر دوركايم أنّ الأسرة أخذت في ظل الثقافات الرّيفيّة تتقلص من أكبر أشكالها المعروفة إلى أشكال أصغر فأصغر، حتى سمّى هذه الظاهرة بقانون تقلص حجم الأسرة، كما أنّ كثافة العلاقات المتبادلة داخل الأسرة قد انخفضت بشكل ملفت عمّا كانت عليه سابقًا، ما يعني أنّ التتابع البنائي للأنماط الأسرية يرتبط بالتّطور التّاريخي الذي يسير في اتجاه واحد[27]، كحركة تتسم بالتفاعل المستمر والمتجدد، ويتم من خلالها إعادة توزيع الأدوار والوظائف، ويؤكد كلٌّ من وليام أجبرن W. Ogburn وميردوك Murdock أن مأساة الأسرة الحديثة تكمن في فقدانها لأغلب وظائفها التي كانت تقوم بها[28]، في حين يشير بارسونز إلى قدرة الأسرة على استيعاب كل المعوقات الوظيفيّة باستمرار، وما تحوّل الأسرة المعاصرة إلى النّمط النّووي إلاّ مؤشرًا من مؤشرات تجديد ميكانيزمات وظائفها ومحاولة تكييّفها مع متطلبات التّغيير الاجتماعي، للمحافظة على توازن نسقها باستمرار[29].

لذلك فإنّ للتّحولات التي يتعرض لها المجتمع الجزائري الأثر الواضح على الأسرة لأنّها تمثل الوحدة الأساسيّة لبناء أي مجتمع، ولعل مظاهر الحراك الجغرافي والنّمو الدّيموغرافي وانتشار تكنولوجيات وسائل الاتصال واشتداد عمليات التثاقف أفقد الأسرة الجزائرية بعض سمات البناء الأسري التّقليدي الممتد، وأظهر تبنّيِها لبعض مميّزات الشّكل النّووي، وهو ما يؤكده السّويدي:

«بعد الاستقلال بدأت تتشكل بوضوح أسر جزائريّة تجمع بين خصائص الأسرة الحضرية ووظائف الأسرة التقليدية»[30].

لذلك يمكن القول أنّ الأسرة الجزائرية المعاصرة قد استطاعت أن تتأقلم مع التّحولات التي حدثت في المجتمع، واتخذت شكلاً قد تبدو لنا أنّها نووية في ظاهرها، غير أنّها لم تقطع صلتها بأسرة التّوجيه التي انحدرت منها، كما حصل مع أسرة المجتمعات الأوروبيّة التي تبنت البنيّة النّووية، وهو ما يعني تشكّل نوع جديد يختلف عن الأشكال المعروفة، وكأنه يوحي إلى حالة انتقالية، بحيث تحمل هذه الأسرة مكونات النّوع الحديث النّووي وخصائص النّوع التّقليدي الممتد في الوقت نفسه، وانتقل بذلك الأبناء بعد زواجهم إلى مساكنهم الخاصّة إلاّ أنّهم بقوا على اتصال دائم بأسرهم الأصليّة التي انحدروا منها، ولهذا يمكن تسمية الأسرة الجزائرية المعاصرة بالأسرة الانتقاليّة، التي تعبّر إمّا عن عسر التّحول من نمط إلى نمط آخر مختلف أو عن محاولات للتأقلم مع وتيرة حركية المجتمع أو عن قوة التّقليد وآليات المراوحة التي لا تزال تشد الفرد الجزائري إلى الخلف.

لقد تقلصت الأسرة الجزائرية في بنيتها؛ فأصبحت تتميز بالحجم الصّغير نسبيًا، كما ازدادت رغبة الأبناء المتزوجين حديثًا في الانفصال الإقامي عن الوالدين، غير أنّ هذه الاستقلالية لا تمثل الانفصال عن الأسرة الوالدية، بل ظلت الرّوابط التواصليّة مستمرةً، ومن بين العوامل التي ساعدت على هذا النوع من الانفصال الاستقلالية الاقتصادية للأبناء عن الأسر التي ينحدرون منها، وعن بقية الأقارب، فهم يؤمّنون معاشهم في الغالب اعتمادًا على العمل المأجور وعلى الرّاتب الشّهري الذي يتقاضونه، ولم يعودوا بذلك مرتبطين بالنّشاط الاقتصادي لأسرهم، ولا معنيّين بالإرث المشترك المتمثل في الأرض والمنزل الكبير مثلما كان حال الأسر التّقليدية، كما أنّ لنمط المساكن الحديثة والتي تتميز بالعدد القليل للغرف وضيقها دورٌ في اتجاه الأبناء للانفصال عن أسرهم الأصلية فور زواجهم، بالإضافة إلى بروز قيم الفردانية individualisme وتبلورها بما تحمل من توابع جعلت الأفراد يرغبون في الابتعاد عن الضغوط الاجتماعيّة المختلفة والتّخلص من كلّ صور الهيمنة.

5–الآثار الوظيفيّة التّفاعلية على الأسرة الجزائريّة وسلطتها الأبوية:

لقد كان لعامل تحديث المجتمع الجزائري بظهور المؤسسات الاجتماعيّة والتنشئوية على وجه الخصّوص واتساع نطاقها دورَ في التأثير على وظائف الأسرة، بمزاحمتها في وظائف معينة وانتزاعها لوظائف أخرى، ولم يقتصر الأمر على الاقتصادية منها فقط بتقلص الدور الإنتاجي للأسر، وبتوسع الفرديّة الاقتصادية التي سمحت بالتّحرر من العائلة والقبيلة، وازدادت احتمالات تفجر الأطر الجماعتيّة، بتراجع رباط القرابة أو زواله ليحل محله عامل المصلحة، بل تعدتها إلى التّعليمية والتربوية والدّينية والأمنية وحتى الترويحية، ونتيجة لذلك انحصرت الوظائف الأساسية للأسرة، وهذا لا يعني أنّ الأسر قد استسلمت للأمر الواقع، فتنازلت عن وظائفها، بل قد أدركت أنّ ممارسة مختلف مهامها يرتبط بشكل وطيد بالبنيات الأخرى والسّياقات الاجتماعية في بعدها الإكراهي والإلزامي، غير أنّها على غرار كل البنيات تعمل على ممانعة ومقاومة كل تغيير، فتتفاوض بذلك من أجل التنازل الجزئي عن بعض وظائفها بعدما كانت مكتفية بذاتها من قبل[31].

ولقد كان هذا التّنازل الكلّي أو الجزئي تهديدًا للنّظام التقليدي الأبوي، وما زاد في تراجع القدرة التأثيرية للآباء على أفراد أسرهم، هو استفادة المرأة من هذه التّحولات المجتمعية، التي سمحت لها بولوج مجال التعليم الحديث، فلم يعد الرجل يحتكر المعرفة ويدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، كما مكّنها الاندماج في سوق العمل من كسر قيد التبعية الاقتصادية والتّحرر الاجتماعي من السّيطرة والخضوع، وبروزها كقوة تفاوضية تنذر بتفكك النظام الأبوي، وفقد بذلك الأب بعضًا من سلطته، وفرض عليه السّياق المتحوّل التفاوض وعدم التّشدد في معاملته لأفراد أسرته، وتغليب أسلوب الحوار في اتخاذ مختلف القرارات الأسرية، ما أدّى إلى الاستقلالية النسبية للأبناء التي سمحت لهم بالميل نحو إنشاء العلاقات على أساس الاختيار الحر، كما هو الحال بالنسبة للزّواج الذي يعتبره بارسونز بمثابة المفتاح البنيوي الأساسي للقرابة، والمؤثر في الأسرة الحديثة، والمرتبط بعوامل تقسيم العمل والتخصص القائمة في المجتمع، والذي يحوّلها إلى وحدة اجتماعية متخصصة بنائيا ووظيفياً[32].

لذلك فقد تحوّل الزواج عند العديد من الأسر الجزائرية وبخاصة تلّك التي تقطن المدن من الشأن الأسري إلى الأمر الشخصي، ومن نمطه الدّاخلي إلى النوع الخارجي Exogamie وهو يقضي بضرورة زواج المرأة أو الرجل من أشخاص خارج قبيلتهم أو عشيرتهم أو قريتهم أو طبقتهم

الاجتماعية أو جماعتهم الدّينية، فقد يكون هذا الزواج اختياراً أو إجباراً[33]، وكأن الأمر يتعلق بكسر الحواجز وتجدد صياغة الأسس والقواعد التي بموجبها يتمحور مجال الزّواج ببروز محدّدات التأهيل والمهارة والمصالح الحيوية...، والتراجع التّدريجي لتأثيرات عوامل القرابة والانتماء الديني والإثني، فلم تعد ظاهرة إعلانات الزواج في مختلف وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تلقى المقاومة والرفض المجتمعي كما كانت في بداياتها الأولى، وهو لا يعني بالضرورة أنّ النسق القرابي للأسر الجزائرية قد اضمحل وأصبحت هذه الأخيرة شبيهة بالنمط الأسري الأوروبي، بل لا تزال الروابط القرابية وعلاقات الجيرة ترتبط بقيم اجتماعية ودينية رغم معاصرتها للتطور الصناعي والتكنولوجي، وتوجه الفعل الاجتماعي نحو التمدن، ويتجلى ذلك من خلال تبادل الزيارات في المناسبات المختلفة كالأعراس والأعياد والختان...، غير أنّها لم تعد إجبارية، بل أضحت تشبه إلى حدٍ ما علاقات الصداقة بحيث أنّها أصبحت تقوم على الاختيار الواعي، والميل الوجداني، لم تعد مجرد انعكاس للرابط الدموي وعلاقات المصاهرة[34].

خاتمة

رغم أنّ المجتمع الجزائري المعاصر لا يزال متردداً إزاء الحداثة، إلاّ أنّه يعيش تحوّلات اجتماعية عميقة، قد تتجلى بوضوح في معطياته الدّيموغرافية وحركية سكانه المجاليّة، وإصلاحاته التّعليميّة، ومساراته الاقتصادية التي أثرت على مظاهر الملكية وأشكالها، فهو المجتمع الذي يتمدن تدريجياً، وأنماط عيش أفراده تتغيّر باستمرار ، وقنوات التواصل والتعبير بينهم تتجدد، وهو ما انعكس على تعقد نسق التّدرج الاجتماعي، وتغيّر في نمط العلاقات الاجتماعية وتحوّل عميق في القيم والمعايير الاجتماعيّة، التي سمحت بظهور تلّك النّزعة الفردية الجارفة رغم مقاومة القيم التقليدية بثقلها وإكراهاتها البنيوية والرّمزية، والتي لم تسمح للفرد الجزائري بالتّخلص الكلّي من ترسبات الموروث الثقافي، ودوره في تشكيل ذهنيته وتبعيته وإعادة إنتاجه، وكأن الأمر يتعلق بنوع من الصّراع بينها وبين القيم الحديثة أو يشير إلى محاولة تكييف النّمط التقليدي مع المعطى الجديد.

لقد انعكست مثل هذه التّحوّلات على جل المستويات الاجتماعيّة، وعلى مستوى المساهمة النسائية على وجه الخصوص، بحيث أنّ ولوجهن عالم التّعليم والعمل قد فتح لهن آفاقاً واسعة،

ومكّنهن من البروز كفاعل اجتماعي جديد ومؤثرٍ على البنية الأسرية، ووظائف عناصرها، وأدوارهم وعلاقاتهم المختلفة، وأصبح بذلك نزوع الأسر نحو الانفصال السّكني بما يحمله من تبعات ومستلزمات كالحرية وحق الاختيار واضحًا، مع وجود تعديلات مهمّة في توزيع العمل ونوعية الأدوار والحقوق والواجبات، والتفاوت في المسؤوليات والسلطة، وهو ما لا يعني تبني النّوع الأسري النووي الغربي، بحيث يكون هذا الانفصال مصحوبًا باستمرارية العديد من الالتزامات القرابيّة والاجتماعيّة، أو بتعبير آخر لا تزال الأسرة التّقليدية مقاومةً للتغيير بغية الاحتفاظ على مكانتها ومركزها وسلطتها الأبوية "الرمزية"، فهي ترتكن في تفاعل عناصرها المختلفة مع بعضهم البعض إلى تدبير مزدوج يؤجل القطيعة مع النمط السلطوي الأبوي التقليدي ويحاول جاهدًا إدامة إستمراريته، ولا يعلن دخوله في الحداثة بشكل واضح إلاّ بامتزاج واستدخال العصري ضمن التقليدي كصيغة توليفية ممكنة لمسايرة ما يفرضه السياق العالمي المتحول.

الهوامش:

1 - Norbert Sillamy, **Dictionnaire de la psychologie**, édition LAROUSSE, Paris, 2003, p74.

2 – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، دار المعرفة، ط04، بيروت، 2009، ص629.

3 – مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط04، القاهرة، 2004، ص443.

4 – مدكور إبراهيم وآخرون، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص98.

5 – دينكن ميتشيل، **معجم علم الاجتماع**، تر: إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، ط02، بيروت، 1986، ص29-31.

6 – ريمون بودون و فرنسوا بوريكو، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص372.

7 - Boutefnouchet Mustapha, **La Famille Algérienne**, Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1992, p38.

8- محمد عاطف غيث، **قاموس علم الاجتماع**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص176.

9- دينكن ميتشل، **مرجع سابق**، ص97.

10- كلود ليفي شتراوس، **الأنثروبولوجية البنيوية**، تر: مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1977 ، ص73.

11- الخولي سناء، **الزواج والعلاقات الأسرية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، ص39.

12 – هشام شرابي، **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، الأهلية للنشر والتوزيع، ط03، بيروت، 1981، ص23-24.

13- محمد عاطف غيث، **مرجع سابق**، ص180.

14- **المرجع نفسه**، ص181.

15 - Murdock George Peter, **De la structure sociale**, traduit: Sylvie Laroche et M. Giacometti, presses Bussières, Saint Amand, France, 1972, P 30.

16- دينكن ميتشل، **مرجع سابق**، ص184.

17- **المرجع نفسه**، ص86.

18 - فادية عمر الجولاني، **الأسرة العربية: تحليل اجتماعي لبناء الأسرة وتغيّر اتجاهات الأجيال**، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، 2004، ص15.

19 - Bourdieu Pierre, **Sociologie de l'Algérie**, presse Universitaire de France, Paris, 1974, p20.

20 - Boutefnouchet Mustapha, **op cit**, p30.

21- الساعاتي حسن، **العالم الصناعي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط03، لبنان، 1980، ص58.

22- Boutefnouchet Mustapha**, op cit**, p40.

23 - Zerdoumi Nefissa, **Enfant d'hier**, édition Maspero, Alger, 1979, p34.

24- Sari Djillali, **Le poids démographie dans la tourmente algérienne**, Rapport de recherche N°01, CEPED, Paris, 1996, p03.

25- السويدي محمد، **مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990، ص 80.

26- Lacheref Mustapha, **Ecrits didactiques sur la culture, l'histoire et la société**, Alger, 1988, p316.

27- الضبع عبد الرؤوف، **علم الاجتماع العائلي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط01، الإسكندرية، 2003، ص107.

28 - Ogburn (William). **Technology and the changing family**, Boston : Hougton Mifflin, 1955, p70.

29- الخولي سناء، **التغير الاجتماعي والتحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د س، ص211.

30- السويدي محمد، **مرجع سابق**، ص89.

31- الخولي سناء، **التغير الاجتماعي والتحديث، مرجع سابق**، ص210.

32- خيري مجد الدين عمر، **العلاقات الاجتماعية في بعض الأسر الأردنية**، الجامعة الأردنية، الأردن، 1985، ص19.

33 - دينكن ميتشل، **مرجع سابق**، ص93.

34- شكري علياء، **الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة**، دار المعارف، القاهرة، د.س، ص169.

العدالة التنظيمية وعلاقتها بالمواطنة التنظيمية

دراسة ميدانية على أساتذة كلية العلوم الاجتماعية والانسانية بجامعة تيارت

الأستاذ سليمان تيش تيش محمد لمين، جامعة تيارت

الملخص:

استهدفت هذه الدراسة تحقيق عدد من الأهداف، والتي تمثلت في توضيح العلاقة بين العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية، لدى أساتذة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة إبن خلدون-تيارت. بالإضافة إلى الكشف عن أثر العوامل الديمغرافية والتنظيمية على هذه العلاقة. وقد تمحورت الدراسة حول تساؤل مركزي، يبحث في إمكانية وجود علاقة بين درجة إدراك الأساتذة للعدالة التنظيمية ومستوى المواطنة التنظيمية عندهم.

وشملت الدراسة 61 أستاذا، بالاستعانة بأداة الاستمارة التي احتوت عددا من الأسئلة الديمغرافية والتنظيمية، بالإضافة إلى مقياسي اتجاه ثلاثيا الأوزان يتعلقان بمتغيري الدراسة، التي تم التوصل من خلالها إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

- للأساتذة إدراك إيجابي للعدالة التنظيمية بمتوسط بلغ 2.33 وللمواطنة التنظيمية بمتوسط بلغ 2.62.

- تحققت الفرضية العامة جزئيا بنسبة 33.3%، حيث إقتصرت العلاقات الدالة إحصائيا فقط على العلاقة بين بعدي عدالة التعامل وعدالة الإجراءات مع بعد السلوك الحضاري والتي كانت (0.302) و(0.415) على التوالي، من أصل ستة فرضيات جزئية.

– وجود فروق في العلاقة حسب متغيرات الجنس، الشهادة العلمية، المهام الإدارية، مكان السكن والأقدمية.

Summary:

The aim from this study was to reach a number of objectives, in order to clarify the relationship between organizational justice and organizational citizenship of the teachers of the Faculty of Humanities and Social Sciences at Ibn Khaldun-Tiaret University.

In addition to the disclosure of the impact of demographic and organizational factors on this relationship, the study focused on the central question, looking into the possibility of a relationship between the degree of awareness of the teachers for the organizational justice and the level of their organizational citizenship.

The study was conducted on a sample of 61 teachers, using the questionnaire method, which contained a number of demographic questions, in addition to the scales of the triple weights related to the study. The results can be summarized as follows:

-Professors' positive perception of organizational justice reached an average of 2.33, and an average of organizational citizenship 2.62.

-the General hypothesis is partly achieved by 33.3%, and the function of relationships is restricted statistically only to the relationship between the dimensions of justice and fairness of procedures to deal with post-civilized behavior, which was (0.302) and (0.415), respectively, out of six partial hypotheses.

-The existence of differences in the relationship according to the variables of gender, career, administrative tasks, place of residence and seniority.

أولا: الإطار التصوري للدراسة:

1–أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة للوصول إلى تحقيق عدد من الأهداف هي:

– التعرف على درجة كل من العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية، عند أساتذة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة إبن خلدون بتيارت.

– قياس أثر عدد من المتغيرات الشخصية والتنظيمية على العلاقة بين متغيري الدراسة.

2-الإشكالية:

تعتبر المنظمات حقولا إجتماعية هرمية البنية، تزداد فيها القوة والسلطة والمزايا كلما إرتفعنا في الهرم التنظيمي، وتقل كلما نزلنا في درجاته. إن هذه البنية غير المتساوية نتج عنها على مر التاريخ العديد من الصراعات، التي حاول المنظرون في علوم التنظيم التغلب عليها وضبطها بالإعتماد على مجموعة من القوانين والإجراءات، التي تحاول على قدر الامكان زيادة درجة العدالة داخل المنظمة. وذلك عن طريق توزيع الموارد حسب الاستحقاق، وسن قوانين وتطبيق إجراءات تتسم بالوضوح وعدم التمييز بين الافراد، وإحترام كرامتهم.

وللنجاح في هذا المسعى ظهرت العديد من النظريات التي وضعت أسس تقسيم العمل وتوزيع السلطات داخل المنظمة، في محاولة لضبط العلاقات والموارد بطريقة علمية، لا تترك مجالا للإجتهادات الفردية قدر الامكان. وقد تولدت عن هذه النظريات مفاهيم جديدة مثل تحليل وتقسيم العمل والتوصيف الوظيفي، تسببت في فقدان الفرد العامل خصوصا والمنظمة عموما المرونة في إتخاذ القرارات وضعف روح المبادرة عند أفرادها.

كما أن تقسيم العمل وما أفرزه من تفريق بين من يتخذ القرار ومن يطبقه، ساهم في تنامي التمييز بين الرئيس والتابعين له، وحوَّله إلى ما يسمى بوجه لسلطة المنظمة (une figure d'autorité). ونتج عن هذا التحول تنامي الفوارق بين الرئيس وبقية الأفراد، بسبب طبيعة علاقات السلطة والفوارق في القوة داخل المنظمة، والتي تدفع بالأفراد إلى التعامل مع رئيسهم على أنه يمثل المنظمة، وأن هذه الأخيرة تُخْتَزَلُ في شخصه.

إن هذه النتائج اللاوظيفية دفعت بالباحثين إلى محاولة إيجاد مفاهيم جديدة، لتوفير المرونة اللازمة للتأقلم مع البيئة المتغيرة للمنظمة، والتي تعتبر المواطنة التنظيمية من أبرزها. فهذا المفهوم الثري والقائم على مساعدة الزملاء والتعامل معهم بلطف، بالإضافة إلى تحمل المهام الصعبة وبذل الجهد في احترام قوانين المنظمة والدفاع عن سمعتها مع الآخرين، يوفر عامل تأقلم يملأ ما أغفلته التوصيفات الوظيفية الرسمية، ويساهم في زيادة أداء الأفراد وبذلك تحقيق أهداف المنظمة.

ورغم كل الإيجابيات الناتجة عن تعزيز سلوك المواطنة عند الأفراد، إلا أن هذا الأخير يبقى رهين تصرفات رئيسهم في العمل، فقد أثبتت العديد من الدراسات أن أي سلوك غير عادل من طرفه يؤدي إلى ردود فعل سلبية ومضرة بالعمل عموما، وبسلوك المواطنة خصوصا. فضعف العدالة في التعامل مع الأفراد يؤدي بهم إلى تبني سلوكيات غير مهذبة وضعف في الكياسة، إضافة إلى التحدث سلبيا حول المنظمة مع المعارف والأصدقاء، وبذلك إعطاء صورة سلبية عنها. كما أن تطبيق الإجراءات بطريقة غير عادلة يؤثر سلبيا على درجة وعي الضمير عندهم، حيث أن المحاباة والانتقائية في تطبيق الإجراءات يؤدي بهم إلى عدم الالتزام بواجباتهم والتقليل من جديتهم في العمل، وتقديم مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة. ولا يقل التأثير السلبي لعدم عدالة التوزيع عن البعدين السابقية، حيث أن أي خلل فيه يؤدي إلى إضعاف روح التنافس عند الأفراد، وزيادة مقاومتهم لأي جهد زائد يطلب منهم، وانتشار الشكاوى والتذمر بينهم.

لكن ورغم كل هذه النتائج، إلا أن الدراسات المصاحبة لها قد شملت مجتمعات دراسة مختلفة عن مجتمع الأساتذة الجامعيين محل بحثنا الراهن، والذي يتميز باختلافات تنظيمية وثقافية عن غيره من المجتمعات المدروسة، التي تتميز بنظام بيروقراطي وتراتبية هرمية واضحة المعالم.

كل هذه الفوارق دفعت إلى البحث في العلاقة بين متغيري العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية عند أساتذة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة ابن خلدون بتيارت، حيث تمحورت الدراسة حول التساؤل المركزي التالي:

- هل هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة للعدالة التنظيمية ومستوى مواطنتهم التنظيمية؟

3-الدراسات السابقة:

من خلال هذا العنصر سيتم التطرق إلى ثلاثة دراسات، تناولت بالبحث متغير العدالة التنظيمية في علاقته بمتغير المواطنة التنظيمية. حيث وفي دراسة **دويدار**[1]، تم التوصل إلى أن بعد العدالة الإجرائية يؤثر في كل من بعد الإيثار (معامل ارتباط=0.306)، وبعد السلوك الحضاري (معامل ارتباط=0.457). أما بعد العدالة التقييمية فيؤثر أكثر في بعد الروح الرياضية (معامل ارتباط=0.432)، بعد وعي الضمير (معامل ارتباط=0.382)، وبعد الكياسة (معامل ارتباط=0.280).

من خلال هذه الدراسة نلاحظ أن للعدالة التنظيمية في بعدها الإجرائي دور كبير في تنمية روح الإيثار والسلوك الحضاري، نظرا لأن كل فرد يعتبر أن حقوقه محفوظة والإجراءات المطبقة عادلة، فيعمل على رد ذلك عن طريق مساعدة زملائه في حل مشاكل عملهم أو إتمام مهامهم. إضافة إلى حرص الفرد على الحفاظ على المنظمة من خلال التبليغ عن أي مخاطر محتملة، وكذا الحرص على إحترام إجراءات السلامة، والتطوع والمبادرة لحل المشكلات. كما يلاحظ أن الإتجاه الإيجابي للأفراد نحو العدالة التقييمية يساهم في زيادة وعي الضمير عند الأفراد العاملين، وتنمية روحهم الرياضية فيسهل عليهم تقبل الضغوط، حيث يعمدون لإحترام مواعيد الحضور وإنجاز المهام والإلتزام بقواعد المؤسسة، لأنهم راضين عن تقييم الإدارة لجهوداتهم. كما يساهمون في الحد من الصراعات التي تنشأ بين الزملاء وتوعيتهم، ودفعهم لزيادة روح التحدي عندهم، بالإضافة إلى التعامل بلطف معهم وتقديم النصح والمعلومات اللازمة لهم عند الحاجة.

أما دراسة **حجاج**[2] فقد توصلت إلى أن بعد العدالة التنظيمية الأكثر تأثيرا في أبعاد المواطنة التنظيمية هو بعد العدالة التعاملية، الذي كان معامل إرتباطه مع بعد الإيثار(معامل ارتباط=0.260)، وعي الضمير(معامل ارتباط=0.360)، الروح الرياضية (معامل

ارتباط=0.290)، الكياسة (معامل ارتباط=0.340)، السلوك الحضاري (معامل ارتباط=0.240).

وكان الباحث **معمري**[3] قد توصل إلى نتائج شبه مطابقة لدراسة **حجاج**، مما يتعارض مع نتائج دراسة **دويدار**، حيث كان بعد العدالة التنظيمية الأكثر تأثيرا في أبعاد المواطنة التنظيمية هنا أيضا هو بعد العدالة التعاملية، الذي كان معامل إرتباطه مع بعد الإيثار(معامل ارتباط=0.260)، وعي الضمير(معامل ارتباط=0.340)، الروح الرياضية (معامل ارتباط=0.300)، الكياسة (معامل ارتباط=0.260)، السلوك الحضاري (معامل ارتباط=0.380). كما وجد كلا الباحثان (**حجاج** و **معمري**) علاقة لباقي أبعاد العدالة مع أبعاد المواطنة التنظيمية، لكن بدرجة أقل كثيرا من علاقتها مع بعد العدالة التعاملية.

والجدول رقم (01) يلخص العلاقات القائمة بين أبعاد العدالة التنظيمية وأبعاد المواطنة التنظيمية، من خلال نتائج الدراسات السابقة:

العدالة التنظيمية **المواطنة التنظيمية**	عدالة توزيعية	عدالة إجرائية	عدالة التعاملات	عدالة تقييمية
الإيثار	0.160 +	0.238 +++	0.234 +++	0.235 +
وعي الضمير	0.234 +++	0.279 +++	0.321 +++	0.382 +
الروح الرياضية	0.193 ++	0.291 +++	0.293 +++	0.384 +
الكياسة	0.167 +	0.215 ++	0.259 +++	0.280 +
السلوك الحضاري	0.242 ++	0.369 ++	0.320 +++	0.439 +

جدول رقم (01) من إعداد الباحث:
يوضح عدد المرات التي تم الحصول فيها على علاقات دالة بين أبعاد العدالة التنظيمية وأبعاد المواطنة التنظيمية مع متوسط هذه العلاقات من خلال الدراسات الواردة أعلاه.

قبل التعليق على الجدول يجب الإشارة إلى أن بعد العدالة التقييمية لم يتم اعتماده إلا في دراسة **دويدار**، وهذا ما يفسر قلة المرات التي وجدت فيها علاقة دالة بينه وبين أبعاد المواطنة التنظيمية الأخرى، كما أن معاملات الارتباط الواردة في الجدول لا تمثل نتائج دراسة بعينها، بل هي

متوسط نتائج دراسات مختلفة ولا يمكن اعتمادها إلا على سبيل المقارنة فقط. إضافة إلى أن علامة زائد (+)، تعبر عن عدد الدراسات التي تطرقت للعلاقة بين أبعاد العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية.

ويلاحظ من خلال الجدول اتفاق كل الدراسات على وجود علاقة بين بعد عدالة التعاملات مع كل أبعاد المواطنة التنظيمية، وكانت العلاقة الأكبر مع بعدي وعي الضمير والسلوك الحضاري، ثم يليها بعد العدالة الإجرائية والتي كأنت لها علاقة أكبر مع بعد الروح الرياضية مقارنة ببعد وعي الضمير، وثالثا نجد بعد العدالة التوزيعية التي اتفقت الدراسات الثلاثة على وجود علاقة بينها وبين بعد وعي الضمير، وهو البعد -أي بعد وعي الضمير-الذي كان متأثرا بكل أبعاد العدالة التنظيمية في الدراسات الثلاثة.

في الأخير يمكن استنتاج أن العدالة التنظيمية تؤثر في المواطنة التنظيمية عموما. فقد اتفقت أغلب الدراسات على أنها مؤثرة خصوصا في بعدها التعاملي، وأن أكثر أبعاد المواطنة التنظيمية تأثرا بمتغير العدالة التنظيمية هو بعد وعي الضمير، مع وجود علاقات ضعيفة إلى متوسطة مع كونها دالة إحصائيا.

4- الفرضيات:

من خلال تحليل الدراسات السابقة والمقارنة فيما بينها يمكن صياغة فرضية عامة مفادها:

- هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة للعدالة التنظيمية ومستوى مواطنتهم التنظيمية؟

والتي تفرع عنها ستة فرضيات كالتالي:

- هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة العدالة التعاملات ومستوى سلوكهم الإيثاري.

– هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة لعدالة التعاملات ومستوى روحهم الرياضية.

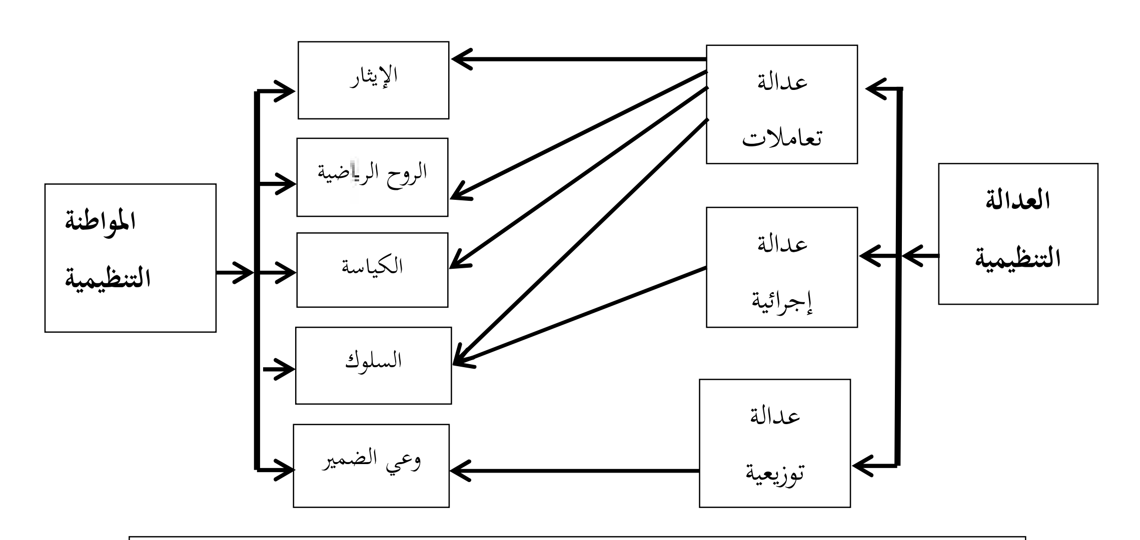
– هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة لعدالة التعاملات ومستوى سلوك الكيس.

– هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة لعدالة التعاملات ومستوى سلوكهم الحضاري.

– هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة لعدالة الإجراءات ومستوى سلوكهم الحضاري.

– هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين درجة إدراك الأساتذة لعدالة التوزيع ومستوى وعي الضمير عندهم.

و**الشكل (01)** يوضح الفرضيات العلائقية بين أبعاد العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية:



شكل رقم (02) من إعداد الباحث:
يوضح العلاقة المفترضة بين أبعاد العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية

ثانيا: الإطار المفاهيمي للدراسة:

1- العدالة التنظيمية:

- **تعريف العدالة التنظيمية:**

يعرف **بيرن**(Byrne) العدالة التنظيمية على بأنها "قيام الأفراد العاملين بمقارنة حالتهم مع حالة زملائهم الآخرين في العمل"[4]. يركز هذا التعريف على أن العدالة التنظيمية تقوم على أساس المقارنة مع الزملاء، إلا أنه لم يتطرق إلى أساس هذه المقارنة. ويرى كل من **كروبانزانو**(Cropanzano) **وغرينبرغ**(Greenberg) بأنها "إدراك الأفراد لحالة الإنصاف في المعاملة التي يعاملون بها من طرف المنظمة"[5]. المقارنة من خلال هذا التعريف تتمحور حول مدى الإنصاف في تعامل المنظمة مع الأفراد العاملين بها. وأضاف **كول**(Cole) صفات أخرى لهذا التعامل في تعريفه ألا وهي النزاهة والعدل، حيث يرى أن العدالة التنظيمية هي "الدرجة التي يعتقد بها العاملين بأن النتائج التي يتلقونها، وطرق معاملتهم داخل المنظمة نزيهة وعادلة"[6]. وتعريف **العتيبي** يضيف للتعريفات السابقة طرفا آخر وهو الرئيس المباشر في العمل، كما يوضح أكثر نتيجة التغير في درجة العدالة التنظيمية، حيث يعرفها على أنها "إدراك العاملين للعدالة في مكان العمل، من خلال علاقتهم بالمنظمة أو برئيسهم المباشر، والتي تؤثر بالنهاية على مواقفهم وسلوكياتهم في العمل"[7].

ومن خلال هذه التعاريف يمكن إستخلاص تعريف إجرائي وهو: " **العدالة التنظيمية هي ذلك الإدراك الإيجابي القائم على مقارنة الأستاذ للمدخلات المادية والمعنوية التي يتلقاها مع ما يتلقاه زملاؤه، ومدى عدالة الإجراءات واللوائح التنظيمية وطريقة تطبيقها من طرف رئيس القسم**".

- **أبعاد العدالة التنظيمية:**

تجمع أغلب الأدبيات التنظيمية على أن للعدالة التنظيمية ثلاثة أبعاد هي:

– **العدالة التوزيعية**: وهي أقدم الأبعاد من حيث الدراسة. تناولها **آدمز**(Adams) سنتي 1963 و1965 بالدراسة، وأنطلق من فرضية مفادها أن "أفعال الفرد تكون محفزة على حسب ما سيجنيه من إرضاء لحاجاته، وما سيقلله من خسائر ناتجة عن هذا الإرضاء"[8]. ويقدر الفرد العلاقة بين مدخلاته ومخرجاته عن طريق المرور بثلاثة مراحل، "فيبدأ بتقييم ما قدمه للمنظمة وما حصل عليه منها، ثم يقوم بمقارنة حصيلته بحصيلة زملائه في العمل، وأخيرا يقوم بتبني سلوك يتراوح بين الإيجابية والسلبية مرورا بالحياد في حال تساوي مدخلاته مع مخرجاته".[9]

ويرى **أورغان**(Organ) أن العدالة التوزيعية تتكون من ثلاثة قواعد، "أولها لن لا يتم التفريق بين الأفراد في المكافآت على أساس الجنس أو العرق مثلا (قاعدة النوعية)، وأن تتساوى مخرجات الفرد مع مدخلاته (قاعدة المساواة)، وأن يقدم المحتاج على غير المحتاج في حال ندرة الموارد (قاعدة الحاجة)".[10]

ويمكننا أن نعرف العدالة التوزيعية على أنها " **إدراك الأستاذ أن طريقة توزيع الموارد داخل المنظمة تقوم على المساواة في الفرص وتتماشى مع ما يقدمه الفرد وتراعي إحتياجاته** ".

– **العدالة الإجرائية**: ظهرت كنتيجة لدراسات كل من **وولكر**(Walker) و**تيبوت**(Thibaut) سنة 1975، حيث قام هذان الباحثان بدراسة حول طبيعة ردود أفعال الأشخاص الذين كانوا محل منازعات قضائية. وقد توصل الباحثان الى أن "حكم الأفراد على عدالة أو لا عدالة إجراء معين له بعدين، الأول السيطرة على العملية (le contrôle du processus)، أي قدرة الفرد على التعبير عن رأيه فيما يخص عملية إتخاذ القرار. أما البعد الثاني فهو السيطرة على القرار (le contrôle de la décision)، وهو قدرة الفرد على تحديد النتيجة الفعلية للقضية".[11]

وقد فتحت دراسات هذين الباحثين الباب لدراسات أخرى مثل دراسات **ليفنتال**(Leventhal) بين عامي 1976 و1980، الذي وضع عددا من القواعد للعدالة الإجرائية. حيث أنه وحسب هذا الباحث فإنه حتى يمكن الحكم على الإجراءات التنظيمية بأنها عادلة، يجب أن تكون "مبنية على معلومات دقيقة وصحيحة ومنسجمة مع باقي الإجراءات

المعمول بها في المنظمة، إضافة إلى تميزها بالثبات زمنيا وموقفيا، وإمكانية أي فرد من المنظمة إستئناف أحكامها، مع ضرورة تماشيها مع أخلاقيات العاملين وتوقعاتهم".[12]

من خلال ما سبق، يمكن القول بأن العدالة الإجرائية هي " **إدراك الأستاذ أن الإجراءات التنظيمية مبنية على معلومات أخلاقية، متوقعة، دقيقة وتتميز بالثبات ومن الممكن الطعن فيها وإستئناف أحكامها**".

- **عدالة التعاملات**: التي يعرفها **كولكيت**(Colquit) على أنها "درجة تعامل القادة مع المرؤوسين بكل إحترام وتقدير"،[13] حيث يظهر هنا تحديد بين طرفي العدالة التي تكون بين القائد والمرؤوسين. ويعرف **فوستر**(Foster) عدالة التعاملات على أنها "هي تلك العدالة القائمة على الصدق والإحترام والأمانة"[14] ، ومن خلال هذا التعريف نلاحظ أن هناك معايير أخلاقية حتى يكون التعامل عادلا، ومن هذه المعايير هي الصدق في المعلومات المقدمة للمرؤوسين والتعامل معهم بإحترام.

وحتى يتم الحكم على درجة العدالة التعاملية، يجب أن يحترم عدد من القواعد في التعامل بين الرئيس والمرؤوسين. هذه القواعد حسب كل من **بيز**(Bies) **ومواغ**(Moag) تقوم على "الصدق فيما يقدمه المشرف من معلومات لمرؤوسيه، والتعامل معهم بإحترام وتقدير دون التقليل من شأنهم سواء لفضيا أو عن طريق الإيماءات. إضافة إلى الحرص على تبني سلوك لبق معهم، يتماشى مع المواقف التي تجمعهم بمرؤوسيهم، بالإضافة إلى الحرص على شرح وتبرير كل القرارات المتخذة في حقهم".[15]

ومن خلال ما سبق، يمكن القول بأن العدالة التعاملية هي "**إدراك الأستاذ أن المعاملة التي يتلقاها من رئيسه تتميز بالصدق، الإحترام، اللباقة وشرح وتبرير القرارات**".

2- المواطنة التنظيمية:

- **تعريف المواطنة التنظيمية:**

عرفت المواطنة التنظيمية من طرف **كاتز**(Katz) على أنها "مجموعة من السلوكيات الطوعية والتلقائية التي تذهب إلى أبعد من متطلبات الدور الظاهر، لكنها تعد أساسية للفاعلية المنظمية"[16]، كما يعرفها **أورغان**(Organ) على أنها "سلوكيات مرتبطة بالعمل، لا يتضمنها الوصف الوظيفي

ولا ترتبط بنظام مكافئات رسمي، وهي تقوي وتدعم الأداء الفعلي للمنظمة"[17]. ومن خلال هذين التعريفين نستنتج أن المواطنة التنظيمية تقوم على أساس تطوعي غير مثمن ماديا، ويتعدى الوصف الوظيفي لمنصب الفرد داخل المنظمة، وهي سلوك نافع وضروري من أجل استمرارية المنظمة والرفع من أدائها.

أبعاد المواطنة التنظيمية: للمواطنة التنظيمية خمسة أبعاد هي الأكثر تداولا في التراث النظري، وهذه الأبعاد هي:

– **الإيثار**: الذي يعرف على أنه "نمط من أنماط السلوك الذي يقوم به العاملون لمساعدة الآخرين بشكل مباشر أو غير مباشر لحل مشكلة مرتبطة بالعمل داخل المؤسسة"[18]. من خلال هذا التعريف يمكن القول أن الإيثار هو "**سلوك طوعي، يهدف لمساعدة الزملاء بهدف حل مشكلات تتعلق بالعمل**".

– **الروح الرياضية:** وتعرف على أنها "إنعكاس لمدى رغبة الفرد لتقبل بعض الإحباطات والمضايقات المنظمية العرضية، دون إمتعاض أو شكوى".[19] كما تعرف أيضا على أنها "رغبة الشخص في التسامح، وقدرته على حل المشكلات والمهمات الصعبة، دون تذمر أو شكوى، والعمل على إدخال الطاقة الموجهة لمثل ذلك للإنجاز العمل".[20] ويلاحظ من خلال التعريفين السابقين، أن الروح الرياضية هي "**سلوك يقوم على الصبر وتحمل المضايقات الشخصية والمشكلات التنظيمية، دون إبداء أي مشاعر سلبية**".

– **السلوك المهذب (الكياسة)**: يعرف على أنه "المساهمة في منع المشاكل التي يمكن أن يتعرض لها الزملاء، عن طريق تقديم النصح وتوفير المعلومات الضرورية وإحترام رغبات الزملاء الآخرين"[21]. إضافة إلى أنه "السلوك الذي يحرص فيه العامل على منع وقوع مشكلات متصلة بالعمل، ويتجنب إستغلال الآخرين والقيام بمشكلات معهم"[22]. ونستخلص من خلال هذين التعريفين، أن بعد الكياسة يتعلق "**بعدم التدخل في خصوصيات الزملاء وعدم إحراجهم، مما يزيد من الإحترام المتبادل ويقلل من ظهور المشكلات بينهم**".

– **السلوك الحضاري**: يعرف على أنه "المشاركة الفعالة في المؤسسة والإلتزام بأنظمتها، من خلال حضور الإجتماعات وتقديم المقترحات الرامية إلى تحسين العمل بها، وإستغلال الوقت في أداء

العمل"[23]، فمن السلوك الحضاري أن " **يلتزم الموظف بقواعد وخطط المؤسسة وأن يعمل على الرفع من أدائها، عن طريق إستغلال الوقت وتقديم أفكار جديدة، تحسن من سمعة المؤسسة**".

– **وعي الضمير**: ويعرف على أنه "سلوك تقديري من قبل العاملين، يتعدى الحدود الدنيا لمتطلبات العمل الرسمي للمؤسسة في مجال الحضور والعمل بجدية"[24]. حيث يقوم هذا البعد على "**الإستغلال الأمثل لأوقات الدوام وإحترام مواعيده، إضافة إلى الإلتزام بلوائح المنظمة حتى في غياب الرقابة**"

ثالثا: **الإطار المنهجي للدراسة**:

1– مجالات الدراسة:

– **المجال المكاني**: تمت الدراسة الراهنة في كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بجامعة إبن خلدون بتيارت، والكلية تقع في حي كارمان ببلدية تيارت.

– **المجال الزمني**: تم الشروع في البحث الميداني للدراسة الراهنة في 2016/05/09، عن طريق توزيع 100 إستمارة. وتم التوقف عن إسترجاع الإستمارات يوم 2016/06/02، وفي نفس هذا اليوم تم الشروع في عملية تفريغ البيانات. يوم 2016/06/09 إنطلقت عملية تحليل البيانات إحصائيا والتعليق عليها إلى غاية يوم 2016/06/25.

– **المجال البشري**: تحتوي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة ابن خلدون –تيارت– على قسمين، الأول خاص بالعلوم الإنسانية والثاني خاص بالعلوم الإجتماعية، وتضم الكلية 157 أستاذا إلى غاية يوم 2016/06/21.

2– منهج وأدوات الدراسة:

إعتمدت الدراسة الراهنة على المنهج الوصفي التحليل، مستخدمة الإستمارة البحثية كأداة لجمع البيانات. وقد قسمت الإستمارة إلى ثلاثة محاور، المحور الأول خاص بالبيانات الشخصية. أما المحور

الثاني فقد كان عبارة عن مقياس إتجاه ثلاثي الأبعاد، يتكون من بعد عدالة الإجراءات (07عبارات)، عدالة التوزيع (05عبارات) وعدالة التعامل (06عبارات). وبالنسبة للمحور الثالث، فقد كان هو الآخر عبارة عن مقياس إتجاه ثلاثي الأبعاد. وقد إشتمل على بعد السلوك الإيثاري (06عبارات)، الروح الرياضية (06عبارات) ، الكياسة (05عبارات)، السلوك الحضاري (07عبارات) ووعي الضمير (06عبارات).

والجدول رقم (02) يوضح ثبات ابعاد متغيري الدراسة بالاعتماد على معامل ألفا كرونباخ:

البعد	قيمة ألفا كرونباخ	عدد العبارات
عدالة التوزيع	0,628	5
عدالة الإجراءات	0,873	7
عدالة التعامل	0,849	6
الإيثار	0,729	6
وعي الضمير	0,764	6
الروح الرياضية	0,697	6
الكياسة	0,579	5
السلوك الحضاري	0,672	7

من خلال الجدول يتضح أن كل معاملات ثبات الأبعاد اكبر من (0.500)، حيث تراوحت قيمتها بين(0.579) بالنسبة لبعد الكياسة، و(0.873) لبعد عدالة الإجراءات. كما يلاحظ أيضا أن ضعف معاملات الإرتباط بالنسبة لبعض الأبعاد راجع في الأساس لقلة العبارات، التي يؤثر عددها بشكل كبير على قيمة الثبات، حيث أن أضعف معاملي إرتباط كانا متعلقين بالبعدين اللذين يضمان خمس عبارات فقط، وهما بعدي الكياسة وعدالة التوزيع.

3- العينة:

تم إتباع معاينة غير عشوائية في هذه الدراسة، وهي المعاينة العرضية، وذلك بسبب التوقيت المختلف للأساتذة. وبعد توزيع 100 إستمارة، تم إسترجاع 61 إستمارة فقط، وبلغت عينة الدراسة 38.85% من المجتمع المدروس.

رابعا: الإطار الميداني للدراسة:

1- تحليل البيانات:

- جدول رقم (06) يوضح العلاقة بين العدالة التنظيمية وأبعادها مع المواطنة التنظيمية وأبعادها:

المواطنة التنظيمية العدالة التنظيمية		الإيثار	وعي الضمير	الروح الرياضية	الكياسة	السلوك الحضاري	المواطنة التنظيمية
عدالة التوزيع	قيمة معامل الإرتباط	,090	-,175	,033	-,091	-,019	-,035
	الدلالة	,491	,178	,802	,485	,887	,790
عدالة الإجراءات	قيمة معامل الإرتباط	,135	,033	,107	,004	**,415****	,194
	الدلالة	,299	,800	,412	,973	**,001**	,134
عدالة التعامل	قيمة معامل الإرتباط	-,022	-,101	-,001	,108	**,302***	,064
	الدلالة	,863	,437	,994	,409	**,018**	,623
العدالة التنظيمية	قيمة معامل الإرتباط	,086	-,089	,061	,011	**,304***	,102
	الدلالة	,508	,495	,641	,931	**,017**	,433

قبل البدء في التعليق على الجدول، تجدر الاشارة الى الاساس في الحكم على قوة أو ضعف معامل الارتباط هو كالتالي:

+1 +0.6 +0.2 0 - 0.2 - 0.6 -1

إرتباط قوي إرتباط متوسط إرتباط ضعيف إرتباط متوسط إرتباط قوي

شكل رقم (02) من إعداد الباحث: يوضح معيار الحكم على نوع الإرتباط

من خلال الجدول يتضح أغلب فرضيات الدراسة (أربع فرضيات) لم تتحقق إمبريقيا (من أصل ستة فرضيات)، حيث يلاحظ أن الفرضية القائلة بأن هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين عدالة التعامل وسلوك الإيثار لم تتحقق حيث بلغت قيمة معامل الارتباط 0.022- مع مستوى دلالة اكبر من 0.05 بلغ 0.863، ويمكن ارجاع هذه النتيجة الى أن جودة تعامل رئيس القسم مع الأساتذة لا يمكن أن تعني بالضرورة تكافلهم ومساعدتهم لبعضهم البعض، خصوصا وأن طبيعة عمل الأستاذ تختلف عن بقية القطاعات الإدارية أو الصناعية، حيث يتكامل عمل الموظفين والعمال مع بعضهم البعض. فالأستاذ غالبا ما يكون مسؤولا عن تقديم المحاضرة والأعمال الموجهة في نفس الوقت، كما أن مدة تواجده القصيرة في القسم (يومان أسبوعيا) يصعب من إلتقائه بزملائه ومساعدته إياهم، خصوصا وأن 82% منهم يسكنون خارج ولاية تيارت.

أما الفرضية الثانية القائلة بأن هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين عدالة التعامل والروح الرياضية فإنها لم تتحقق أيضا، حيث بلغت قيمة معامل الإرتباط 0,001 مع مستوى دلالة اكبر من 0.05 بلغ 0.994. إن هذه النتيجة يمكن إرجاعها إلى أن العلاقة الجيدة مع رئيس القسم لا تعني أن الأساتذة يقبلون كل الاجراءات التي يصدرها هذا الأخير، إنطلاقا من أن الأستاذ الجامعي يعتبر رئيس القسم زميلا وأستاذا أكثر من كونه مسؤولا إداريا، وإنطلاقا من هذه الرؤية فهم لا يجدون صعوبة في إبداء وجهات نظرهم في آرائه، ولا يتقبلون بسهولة أي قرارات صادرة عنه يمكن أن تتعارض مع رغباتهم أو أن تمس بمصالحهم، عكس القطاعات الأخرى حيث يكون المسؤول الإداري أعلى رتبة وقد يكون أيضا أعلى شهادة من مرؤوسيه، مما يحدث فرقا في السلطة بين الطرفين وفجوة في ميزان القوى، مما يجبر المرؤوسين على تقبل أفكاره وقراراته خوفا من العقوبات التي يمكن أن يسلطها ضدهم.

أما الفرضية الثالثة القائلة بأن هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين عدالة التعامل وسلوك الكياسة فإنها لم تتحقق حيث بلغت قيمة معامل الإرتباط 0.108 مع مستوى دلالة أكبر من 0.05 بلغ 0.409، ويرجع عدم تحقق الفرضية إلى أن طبيعة تعامل رئيس القسم مع الأساتذة لا يؤثر بالضرورة على التعامل الحسن بين الأساتذة مع بعضهم البعض، حيث أن التعامل الحسن بالنسبة للأساتذة واجب يقتضيه مستواهم العلمي والاخلاقي، وهذا ما كشف عنه متوسط إجاباتهم

عن بعد الكياسة في التعامل الذي بلغ 2.78، والذي كان أيضا أكبر متوسط وأقوى إتجاه من بين كل أبعاد المواطنة التنظيمية، إضافة إلى إتفاقهم الكبير حول ضرورة حسن التعامل مع الزملاء، حيث بلغت قيمة معامل الإنحراف 0.43، وهو أصغر معامل إنحراف من بين معاملات أبعاد المواطنة التنظيمية.

وبالنسبة للفرضية الرابعة والقائلة بأن هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين عدالة التعامل والسلوك الحضاري فقد تحققت، حيث بلغت قيمة معامل الإرتباط 0.302 مع مستوى دلالة أقل من 0.05 بلغ 0.018. هذا الإرتباط الطردي متوسط القوة، يدل على أن السلوكيات القائمة على الإحترام من طرف رئيس القسم وكذلك التعامل بود ولباقة مع الأساتذة، تساهم في الرفع من مستوى السلوك الحضاري عند هؤلاء.

فحرص رئيس القسم على إبلاغ الأساتذة بالنشاطات الرسمية والإجتماعية قبل حدوثها إضافة الى حرصه على إشاعة روح التعاون بينهم، يساهم في مواظبتهم على حضور الملتقيات والأيام الدراسية التي تنظمها الكلية، كما تجعلهم ملزمين أخلاقيا بحضور الإجتماعات الخاصة بالقسم. كما أن حرص رئيس القسم وإهتمامه بالحقوق الوظيفية للأساتذة تدفعهم للتصرف بشكل مسؤول تجاه القسم والكلية. كما أن مراعاة رئيس القسم للمصالح الشخصية للأساتذة عند إتخاذه للقرارات وأخذه بالحسبان بعد مكان سكنهم وظروفهم العائلية والصحية، يدفعهم الى إنتهاج سلوكيات إيجابية، كالمساهمة في تقديم إقتراحات لتطوير مناهج التدريس وطرقه.

اما الفرضية الخامسة التي تنص بأن هناك علاقة ارتباطية دالة احصائيا بين عدالة التوزيع ووعي الضمير فلم تتحقق، حيث بلغت قيمة معامل الإرتباط 0.175- مع مستوى دلالة أكبر من 0.05 بلغ 0.178. ورغم أن هذا الإرتباط غير دال إحصائيا، إلا أن إتجاهه العكسي يحمل عدة دلالات، لأن كل الدراسات السابقة أثبتت أن العلاقة بين هذين البعدين موجبة. إن نتيجة كهذه تعني أنه كلما إنخفضت عدالة التوزيع كلما إرتفعت المجهودات المبذولة من طرف الأستاذ وتعدت المستوى المتوقع منه، وكلما زاد إحترامه للأنظمة وجديته في التدريس. ويمكن إرجاع هذه العلاقة العكسية إلى أن الأستاذ الذي يرى أن توزيع الموارد غير عادل، يحاول أن يبذل جهدا ضافيا

من أجل إثبات جدارته وتحسين حصته من التوزيعات داخل الكلية. كما يمكن أن تكون عدم دلالة هذا الإرتباط راجعة إلى أن وعي الضمير عند الأستاذ يرتبط بمثاليات يؤمن بها، حيث أن إلتزامه بها لا يتأثر بأي تغيرات في مدخلاته المادية.

بالنسبة للفرضية السادسة والأخيرة القائلة بأن هناك علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين عدالة الإجراءات والسلوك الحضاري فقد تحققت، حيث بلغت قيمة معامل الإرتباط 0.415 مع مستوى دلالة أصغر من 0.05 بلغ 0.001. هذه العلاقة الطردية متوسطة الشدة بين هذين البعدين، تشير إلى أنه كلما كانت الإجراءات المتخذة من طرف رئيس القسم عادلة، كلما ساعد هذا على الرفع من السلوكيات الحضارية عند الأساتذة. فتفسير القرارات من طرف رئيس القسم وشرحها، يدفع الأساتذة إلى حضور الإجتماعات، التي تعتبر فرصة لطرح أسئلتهم وإستفساراتهم. كما أن تزويدهم بمعلومات إضافية عند طلبها يجعلهم على بصيرة بما يحدث في الكلية خصوصا والجامعة عموما، وهذه الرؤية الواضحة المبنية على معلومات متوفرة ومفصلة، تجعلهم يدافعون عن الجامعة عندما ينتقدها الأشخاص الأخرون، لأنهم يملكون أدلة تساعدهم في هذا الدفاع. وبالنسبة إلى حرص رئيس القسم على إبداء الأساتذة لآرائهم فإنه يساهم بدوره في زيادة حرصهم على تقديم مقترحات لتحسين طرق التدريس، لأنهم يعلمون أن هذه الآراء ستؤخذ في الحسبان. وتعتبر إتاحة رئيس القسم المجال للأساتذة من أجل مناقشة القرارات التي يتخذها سببا مهما لحرصهم على متابعة كل جديد يخص القسم والكلية، من أجل المشاركة الفعالة في هذه النقاشات.

في الأخير تجدر الإشارة إلى أن تأثر بعد السلوك الحضاري ببعدي العدالة الإجرائية والتعاملية ناتج من كون هذين البعدين من بعاد العدالة التنظيمية لهما أقوى ارتباط فيما بينهما (معامل الإرتباط =0.768، دلالة=0.000)، حيث أن العلاقة بينهما علاقة طردية قوية، وهذا راجع إلى أن كلا من العدالة الإجرائية والتعاملية تشكلان أبعادا إنسانية يتحكم فيها رئيس القسم، كما تقتربان من بعضهما البعض في بعض المؤشرات، فإستشارة الأساتذة عند إتخاذ قرارات تتعلق بهم وشرحها لهم وكذلك الإجابة عن إستفساراتهم، يمكن أن تعد مؤشرا على الإحترام والإهتمام من طرفه. أما العلاقة التي تربط بين البعد الإجرائي والتوزيعي (معامل الإرتباط =0.440،

دلالة=0.000) فيمكن تصنيفها على أنها علاقة طردية متوسطة القوة، نظرا إلى أن الإجراءات التي يتخذها رئيس القسم كلما تميزت بالعدالة والشفافية وقابلية المناقشة، كلما ساهم ذلك في الرفع من الإدراك الإيجابي للأساتذة نحو عدالة التوزيعات. أما العلاقة التي تربط بين البعد التعاملي والتوزيعي(معامل الإرتباط =0.223، دلالة=0.084)، فهي علاقة طردية ضعيفة وغير دالة إحصائيا. وهذا راجع إلى أن التوزيعات المادية داخل القسم تخضع لضوابط إدارية وقانونية، لا تسمح لرئيس القسم بإضفاء مرونة عليها لتتناسب مع مجهودات كل أستاذ.

والجدول التالي يوضح العلاقة بين أبعاد العدالة التنظيمية:

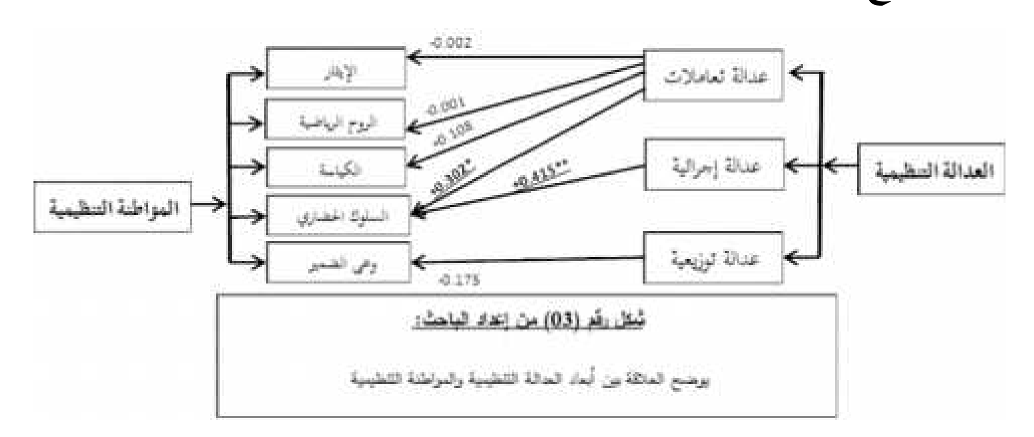
- جدول رقم (07) يوضح العلاقة بين العدالة التنظيمية فيما بينها:

		عدالة التوزيع	**عدالة الإجراءات**	**عدالة التعامل**	**العدالة التنظيمية**
عدالة التوزيع	قيمة معامل الإرتباط	1	0,440**	0,223	0,658**
	الدلالة		0,000	0,084	0,000
عدالة الإجراءات	قيمة معامل الإرتباط	0,440**	1	0,768**	0,927**
	الدلالة	0,000		0,000	0,000
عدالة التعامل	قيمة معامل الإرتباط	0,223	0,768**	1	0,833**
	الدلالة	0,084	0,000		0,000
العدالة التنظيمية	قيمة معامل الإرتباط	0,658**	0,927**	0,833**	1
	الدلالة	0,000	0,000	0,000	

- **البيانات الخاصة بمقارنة معاملات الإرتباط بين فئات المتغيرات الشخصية:**

هذا العنصر يحتوي على مقارنات بين الفئات المختلفة للمتغيرات الخاصة بالأساتذة، وستقتصر المقارنة على الإرتباطات التي وجدت دالة إحصائيا في الجدول رقم (07)، أي بين بعدي العدالة الإجرائية والتعاملية مع بعد السلوك الحضاري.

2- مناقشة نتائج الدراسة:



شكل رقم (03) من إعداد الباحث:

يوضح العلاقة بين أبعاد العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية

من خلال الشواهد الكمية والتحليلات الإحصائية يتبين أن الفرضية العامة للدراسة تحققت جزئيا بنسبة 33.33%، بواقع فرضيتين من أصل ستة فرضيات جزئية. والشكل (03) يوضح العلاقة بين أبعاد العدالة التنظيمية والمواطنة التنظيمية حسب فرضيات الدراسة:

من خلال الشكل رقم (03) يتضح أن النتائج المتحصل عليها من هذه الدراسة لا تتفق في عمومها مع ما توصلت إليه الدراسات السابقة، إلا فيما يخص العلاقة الموجودة بين عدالة التعامل والسلوك الحضاري، بمعامل ارتباط أقل قليلا من متوسط معاملات إرتباط الدراسات السابقة (0.302 مقابل 0.320). كما ان الدراسة توصلت إلى نفس نتائج دراستي كل من **معمري**(0.280) و**دويدار**(0.457) بخصوص العلاقة بين بعد العدالة الإجرائية والسلوك الحضاري، حيث كان معامل الإرتباط في الدراسة الراهنة (0.415) أقوى معامل الدراسة الأولى وأضعف من معامل الدراسة الثانية.

إن كل هذه الإختلافات بين نتائج الدراسة الراهنة والدراسات السابقة تعود إلى طبيعة مجتمع الدراسة في كل منها. ففي الدراسات السابقة تم تطبيق المقاييس على مفردات تنتمي

مجتمعات تختلف عن مجتمع البحث الراهن. فدراسة **دويدار** تمت على عمال ميناء بمصر، ودراسة **حجاج** تمت على عمال شركة كهرباء بقطاع غزة، ودراسة **معمري** تمت على أساتذة التعليم الثانوي.

إن القاسم المشترك بين مجتمعات الدراسات السابقة، هو أنها مجتمعات بحثية يتميز أفرادها بأنهم يملكون مستوى علمي وأقدمية وعمر غالبا ما يكون أقل من رئيسهم في العمل، وهذا ما يميز أغلب المنظمات البيروقراطية. هذه الفوارق بين رئيس العمل وبقية الأفراد، إضافة إلى طبيعة علاقات السلطة والفوارق في القوة داخل المنظمة، تدفع بهم إلى التعامل مع رئيسهم على أنه يمثل المنظمة، وأن هذه الأخيرة تُخْتَزَلُ في شخصه.

كل هذه العوامل تؤدي إلى تأثر سلوك المواطنة بأي تصرفات تنبع من هذا الرئيس، حيث أن أي سلوك غير عادل من طرفه يؤدي إلى ردود فعل سلبية ومضرة بالعمل عموما، وبسلوك المواطنة خصوصا. فضعف العدالة في التعامل مع الأفراد يؤدي بهم إلى تبني سلوكيات غير مهذبة وضعف في الكياسة، إضافة إلى التحدث سلبيا حول المنظمة مع المعارف والأصدقاء، وبذلك إعطاء صورة سلبية عنها. كما أن تطبيق الإجراءات بطريقة غير عادلة يؤثر سلبيا على درجة وعي الضمير عندهم، حيث أن المحاباة والانتقائية في تطبيق الإجراءات يؤدي بهم إلى عدم الالتزام بواجباتهم والتقليل من جديتهم في العمل، وتقديم مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة. ولا يقل التأثير السلبي لعدم عدالة التوزيع عن البعدين السابقية، حيث أن أي خلل فيه يؤدي إلى إضعاف روح التنافس عند الأفراد وزيادة مقاومتهم لأي جهد زائد يطلب منهم، وانتشار الشكاوى والتذمر بينهم.

إن كل هذه الأسباب سابقة الذكر لا يمكن إسقاطها على السياق الجامعي، فالأستاذ في الجامعة لا يعتبر رئيس القسم على أنه رئيسه في العمل، بل يرى أنه زميل. كما أن هذا الأخير لا يكون دوما أكثر الأساتذة خبرة أو أقدمية أو درجة علمية. كل هذه العوامل تضعف من السلطة الإدارية لرئيس القسم، وتقلل بذلك من درجة تمثيله للإدارة العليا عند الأساتذة. فالنتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة تثبت أن سلوكيات المواطنة التنظيمية عند الأساتذة لا تتأثر بإدراكهم للعدالة

التنظيمية، فالنتائج تثبت متوسطا عاليا لكلا المتغيرين وأبعادهما، ومنه فالمواطنة التنظيمية بالنسبة للأستاذ الجامعي هي سلوك إيجابي يتم تبنيه لأسباب غير متعلقة بالعدالة التنظيمية درجة كبيرة، بل لأسباب أخرى يجب البحث فيها من خلال دراسات لاحقة.

الهوامش:

1- محمد دويدار، اثر **ادراك العدالة التنظيمية على الأداء السياقي للعاملين بهيئة ميناء دمياط**، المجلة المصرية للدراسات التجارية، جامعة المنصورة. العدد 35، 2011، مصر. ص 219.

2- جعفر حجاج، **دور العدالة التنظيمية في تعزيز سلوك المواطنة التنظيمية**، دراسة استطلاعية لآراء العاملين في شركة توزيع كهرباء محافظات غزة، مجلة تنمية الرافدين، كلية الإدارة والاقتصاد بجامعة الموصل، المجلد رقم34، العدد رقم110، 2012، العراق. ص.ص 131-132.

3- معمري حمزة، **إدراك العدالة التنظيمية وعلاقتها بسلوك المواطنة التنظيمية لدى اساتذة التعليم الثانوي**، أطروحة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح بورقلة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، الجزائر، 2014. ص164.

4- محمد دويدار، **مرجع سبق ذكره**. ص 185.

5- راتب السعود وسوزان سلطان، **درجة العدالة التنظيمية لدى رؤساء الأقسام الأكاديمية في الجامعات الأردنية الرسمية وعلاقتها بالولاء التنظيمي لأعضاء الهيئات التدريسية فيها**، مجلة جامعة دمشق، المجلد 25، العدد 1+2، 2009. سوريا. ص 195.

6 -محمد الربيعي وحامد الحدراوي وحمودي علي، **اختبار العلاقة بين العدالة التنظيمية والاغتراب الوظيفي (دراسة استطلاعية للآراء عينة من العاملين في معمل سمنت الكوفة)**، مجلة كلية الادارة والاقتصاد للدراسات الاقتصادية، جامعة بابل، ، العدد 26، 2012، العراق. ص7.

7- بهجت راضي، **العدالة التنظيمية وعلاقتها بجودة حياة العمل في المجلس القومي للإدارة**، مجلة البحوث الادارية، أكاديمية السادات للعلوم الادارية، العدد 02 ، 2008، مصر. ص63.

8 Claude LEVY-LEBOYER, **la motivation au travail** (**modèles et stratégies**), 3eme édition, Editions d'organisation, 2006, France. P79.

9 Claude LOUCHE, **psychologie sociale des organisations**, 2eme édition, Editions Armand Colin, 2007, France. P79.

10- خالدية عطا ومها برسيم وسامي عباس، **العدالة التنظيمية واثرها في الحد من الصراع التنظيمي –دراسة استطلاعية لعينة من العاملين في رئاسة الجامعة المستنصرية–**، مجلة كلية المأمون الجامعة، العدد الثالث والعشرون، 2014، العراق. ص 131.

11 - Assaad EL AKREMI, Sylvie GUERRERO, Jean-Pierre NEVEU, **Comportement organisationnel**, volume 2, éditions De Boeck, 2006, France. P30.

12- نماء العبيدي، **اثر العدالة التنظيمية وعلاقتها بالالتزام التنظيمي(دراسة ميدانية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي)**، مجلة تكريت للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد 08، العدد 24، 2012، العراق. ص 81.

13- معمري حمزة، **مرجع سبق ذكره**. ص73.

14- حفيضة سليمان، **العوامل الكبرى للشخصية وإدراك العدالة التنظيمية**، المؤتمر الإقليمي الثاني لرابطة علماء النفس المصرية، المنعقد يوم:2010/11/29، مصر. ص861.

15 - Hicham ABBAD, **De la perception de l'injustice aux comportements opportunistes** : **proposition d'une grille de lecture des relations entre PSL et grands distributeurs**, Revue Logistique & Management, Vol. 17 – N°2, 2009. France. P44.

16- أحمد عبد الله وآخرون، **العدالة الإجرائية وأثرها على سلوك المواطنة التنظيمية**، مجلة تكريت للعلوم الإدارية والاقتصادية، كلية الادارة والاقتصاد بجامعة تكريت، مجلد رقم 04، العدد رقم 12، 2012، العراق. ص16.

17- جعفر حجاج، **مرجع سبق ذكره**. ص108.

18- معمري حمزة، **مرجع سبق ذكره**. ص20.

19 - أحمد عبد الله وآخرون، **مرجع سبق ذكره**. ص18.

20- معمري حمزة وآخرون، **مرجع سبق ذكره**. ص20.

21 - أحمد عبد الله وآخرون، **مرجع سبق ذكره**. ص18.

22- معمري حمزة، **مرجع سبق ذكره**. ص21.

23- حياة الدهبي، **العدالة التنظيمية وعلاقتها بسلوك المواطنة التنظيمية لدى العام بالمؤسسة الجزائرية**، مذكرة ماجستير، جامعة أدرار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، الجزائر، 2014. ص12.

24 - معمري حمزة، **مرجع سبق ذكره**. ص20.

دور الثقافة التنظيمية في عملية الصراع التنظيمي في المؤسسة الاقتصادية

دراسة نظرية تحليلية

الأستاذ هيشور محمد لمين، جامعة تيارت الأستاذ صلاح عنتر، جامعة سطيف 2

الملخص: يعطي القادة والمديرين في دنيا الأعمال المعاصرة الأولوية للثقافة التنظيمية في مؤسساتهم الإنتاجية، بهدف تقديم كل التسهيلات الميدانية لإنجاح الأهداف التي تصبوا إليها هذه المؤسسات، ومن ثم فإنهم يعتبرون الثقافة أحد الأصول الإستراتجية الغنية والمربحة لمشاريعهم الصناعية، فالمؤسسات الناجحة والمتميزة في السوق هي التي تمتلك ثقافة قوية تدعم الإستراتجية المؤسسية، وتحقق الربحية وتواكب كل التغيرات الخارجية.

والثقافة بوصفها الموجود غير الملموس، أو بوصفها "**غراء اجتماعي** " تصبح أكثر أهمية لدى المسيرين في المؤسسات الاقتصادية، إذا تلاءمت مع قيم وثقافة الفئات السوسيومهنية المشكلة للنسق التنظيمي، وبذلك تتوحد السلوكيات والممارسات المهنية الفعالة، وتصبح بيئة العمل مناسبة لمبدأ الديمومة والاستمرارية في النجاحات التنظيمية، وكل هذا يدل على القيمة الرمزية للثقافة التنظيمية داخل الفضاءات الإنتاجية، ومنه يصبح الرهان والتحدي بالنسبة للقادة والمسيرين في المؤسسات الاقتصادية هو تزكية ونشر وتعزيز ثقافة تتفق وتحقق الانسجام والتكامل الداخلي، وتراقب وتترصد في نفس الوقت كل التحولات الخارجية في **زمن "عدم اليقين"**. **و**تحاول هذه الدراسة التحليلية معرفة دور الثقافة التنظيمية في الحد من حالات الصراع التنظيمي في المؤسسة الاقتصادية، من خلال استعراض بعض الدراسات الميدانية التي توضح الدور الفعال والديناميكي للثقافة التنظيمية، إضافة إلى جهود المؤسسة في التقليل من الصراع التنظيمي.

الكلمات المفتاحية: الثقافة التنظيمية، الصراع التنظيمي، استراتيجية المؤسسة، تغيرات المحيط، المؤسسة الاقتصادية.

Abstraction: Leaders and managers, in the world of contemporary business, give priority to organizational culture in their productive organizations in order to provide all facilities to reach their goals, and then they consider culture as a rich and profitable asset for their strategic industrial projects. Institutions that possess a strong culture which support the institutional strategy are successful and distinctive and achieve profitability and keep pace with all the external changes.

Culture, as the intangible existing or as a "social glue", becomes more important to the managers in the economic institutions, if it corresponds with the values and culture of the socio-occupational categories that form the organizational coordination, and thus unite the behaviours and the effective professional practices, and the environment of work becomes suitable for the principle of permanence and continuity in the regulatory successes.All this shows the symbolic value of the organizational culture in the productive spaces, and the challenge, for leaders and managers in the economic institutions, promotes a culture that achieve harmony and internal integration, and controlling, at the same time, all the external shifts in the time of "uncertainty."

This analytical study tries to figure out the role of the organizational culture in reducing the incidence of the organizational conflict in the economic organization, with the review of some field studies that demonstrate effective and dynamic role of the organizational culture, in addition to the foundation's efforts to reduce organizational conflict.

Key words: the organizational culture – the organizational conflict - Enterprise strategy - setting changes - Economic Corporation.

المقدمة:

تميزت الساحة الاقتصادية الدولية في وقتنا الحالي تطورات هائلة في مختلف المجالات، حيث أبرزت هذه التحولات السوسيو–اقتصادية تحديات جديدة تواجهها منظمات الأعمال، وأصبحت بيئة الأعمال أكثر تعقيدًا وتشابكًا من أي وقت مضى، لذلك تلجأ المؤسسات الاقتصادية إلى صياغة استراتجيات تسييرية تمكنها من البقاء والاستمرار في دنيا الأعمال، ويتطلب ذلك التركيز والاهتمام بالثقافة التنظيمية الداعمة من أجل بلوغ المساعي التنظيمية وتحقيق الأهداف المرجوة.

ويعد موضوع الثقافة التنظيمية من الموضوعات المهمة والحديثة في الأدبيات التنظيمية والإدارية التي حظيت باهتمام واسع، كونها إحدى المكونات غير الملموسة المثيرة لمشاعر وسلوكيات

العناصر البشرية ذات العلاقة بالمؤسسة، فضلا عن تأديتها أدوار إستراتجية وحيوية أخرى كتحقيق الولاء التنظيمي وتنمية روح الإبداع والمخاطرة، ودمج وتعبئة الموارد الداخلية للمؤسسة، وإنشاء علاقات عمل متوازنة بما ينمي ثقافة التمكين، وتقليص الحواجز التراتبية، ودعم النسيج التنظيمي، ولذلك يلعب العامل الثقافي داخل المنظمة دوراً متنامياً واستراتجياً في رسم النجاح التنظيمي وتحقيق التميز في دنيا الأعمال.

كما يمكن اعتبار الثقافة التنظيمية جزءاً لا يتجزأ من العقيدة التنظيمية والنظام العام للمؤسسة حيث تعتبر مورداً تنظيمياً أساسيا تساهم في عقلنة الممارسات الإدارية وخلق هوية تنظيمية موّحدة، وتنمية علاقات تضامنية، ونشر إيمان جماعي بأهمية التماسك التنظيمي وتوفير لغة مشتركة بين الفئات السوسيومهنية مبنية على الاحترام المتبادل والواقعية، وكل هذا يؤدي إلى نشر الصحة التنظيمية.

علاوة على ذلك، تؤدي الثقافة التنظيمية دوراً مهمًا في التقليل من حالات الصراع التنظيمي لما تتركه من أثار ايجابية في تنمية الإبداع وحب المخاطرة وتعميم سلوك المواطنة التنظيمية والتعلم التنظيمي، والتكيف مع التهديدات الخارجية، وهذه المواصفات الثقافية التي تتميز بها المنظمات الاقتصادية وقياداتها الإدارية تسمح بمواجهة حالات التوتر والصراع التنظيمي ليس على المستوى الفردي فحسب بل وعلى المستوى الجماعي لكونه ظاهرة حتمية موجودة في معظم الفضاءات الإنتاجية، ومادام الصراع موجود في النظام العام للمنظمات وبدرجات متفاوتة، فيتعين على الطاقم الإداري اللجوء إلى حلول استباقية من خلال استراتجيات داعمة للاستفادة من الجوانب الايجابية للصراع التنظيمي وجعله في خدمة التوجهات الإستراتجية للمؤسسة والأهداف المرجوة.

وبناءًا على العلاقة بين الثقافة التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية والصراع التنظيمي كأحد النواتج الداخلية، سنحاول في هذه الدراسة التحليلية تشخيص العلاقة التواجية والترابطية بين الثقافة التنظيمية والصراع التنظيمي من خلال الإجابة على التساؤل الرئيسي التالي: **كيف تساهم الثقافة التنظيمية في الحد من الصراع التنظيمي في المؤسسة الاقتصادية؟**

أولا: الثقافة التنظيمية

1- تعريف الثقافة التنظيمية:

على الرغم من التراكم المعرفي الواسع النطاق في مجال العمل على تحسين وتفعيل دور الموارد البشرية في مختلفة بيئات الأعمال، إلا أن موضوع الثقافة التنظيمية لم يحضى باهتمام واسع في الفكر التنظيمي إلا بعد السبعينيات من القرن الماضي، أين بدأ الاهتمام بالظروف الثقافية للمؤسسة والهوية التنظيمية، وهذا التطلع الجديد يُعد مؤشراً لتطور علم الاجتماع وإدراكه الجديد للمؤسسة وطرق الانتماء وتحديد الهوية والإنتاج الثقافي [1]، ويذهب بعض الدارسين في مجال الإدارة الإستراتجية والتطوير التنظيمي إلى أن الثقافة التنظيمية أداة لتحقيق الاندماج الداخلي ومدخل لتعزيز الاستقرار ومناقشة القضايا الخلافية، فيما يذهب البعض الأخر إلى اعتبارها المحرك الرئيسي للتغيير والتجديد، فهي تصنع قوة النجوم الصاعدة، وهي التي تدعم نموذج الجماعات التي تهيمن على السوق [2] ، وبالتالي يمكن اعتبار الثقافة التنظيمية عامل من عوامل التماسك التنظيمي داخل المؤسسة، ومن جهة أخرى هي عامل لنشر السلام المؤسسي، أما عن تعريف الثقافة التنظيمية فسنقدم بعض التعاريف التي نراها مناسبة وهي:

يُعرف **Pettigrew** الثقافة التنظيمية بأنها: جملة الرموز واللغة، والأساطير، والطقوس والهندسة...فبعض المسيرين يخلقون وينشرون عن وعي رموزاً للتأثير في سلوكيات موظفيهم: وهذا ما نسميه التسيير الرمزي [3]، ومن هذا المنطلق فالثقافة التنظيمي هي جملة المكونات المادية والمعنوية التي تؤثر في حياة المؤسسة.

ويعرف **Thévenet** الثقافة التنظيمية بأنها: ما يُميّز المؤسسة في ممارساتها عن الآخرين، ومن جهة أخرى يختلف قبول هذه الثقافة من فرد لأخر، فمنهم من يقبلها بصفة مطلقة، ومنهم من يقبله جزئيًا، ومنهم من يعترض عليها [4]، ونستشف من هذا التعريف أن تمثلات وإدراك الثقافة التنظيمية من طرف الفئات السوسيومهنية مختلف من فرد لأخر، حسب قدرة المؤسسة على ترسيخ ثقافة قوية تؤثر في ذهنيات العمال وتصرفاتهم.

ويعرفها **Kossen** بأنها: مجموعة القيم التي يجلبها أعضاء التنظيم الواحد قادةً وعاملين من البيئة الخارجية إلى البيئة الداخلية لذلك التنظيم [5]، وهذا التعريف يُركز على القيم التنظيمية الوافدة من السياق الاجتماعي للمنظمة.

وقدم **Kurt Lewin** تعريفا مفصلا للثقافة التنظيمية مضمونه: الثقافة التنظيمية هي مجموعة الافتراضات والاعتقادات والقيم والقواعد والمعايير التي يشترك بها أفراد المنظمة، وهي بمثابة البيئة الإنسانية التي يؤدي الموظف عمله فيها، والثقافة شيء لا يحس ولا يشاهد ولكنه حاضر في كل مكان في المنظمة ويؤثر فيها [6]، ومنه فإن هذه القيم والعادات والأعراف التنظيمية والرموز والهياكل المادية تتفاعل فيما بينها وبين الفئات المهنية مكونة أسلوب وطريقة الحياة داخل المنظمة.

أما **Tichy** فيعرف الثقافة التنظيمية بأنها: المعتقدات المشتركة بين أعضاء الإدارة والمرتبطة بعلاقة المنظمة ببيئتها وبالعاملين والمستهلكين والتي تحدد طريقة الفعل والتصرف [7]، ومنه تكمن مهمتها في التأثير على طريقة التفكير والممارسة التنظيمية، بين الطاقم الإداري والقوى التشغيلية.

ويعرفها **Kaw** بأنها: نمط المعتقدات والمزاعم، والأفكار، والفلسفات، والإيديولوجيات التي قامت مجموعة ما باختراعها وتبنيها والاتفاق والإجماع بشأنها سواء كان إجماعًا غير رسمي من خلال القواعد والسلوكيات غير المكتوبة وهو ما يعرف بالعرف السائد في بيئة عمل ما، وبذلك تكون الثقافة التنظيمية يمكن تبنيها ونقلها وتوارثها من جيل إلى جيل جديد [8].

ويعرف **Schein** الثقافة التنظيمية وهو أكثر التعريفات شمولا واستخداما بأنها: مجموعة من الافتراضات والمبادئ الأساسية التي اكتسبتها أو طورتها جماعة معينة، وذلك بهدف التعود على حل المشاكل فيما يخص التكيف مع المحيط الخارجي والانسجام أو التكامل الداخلي، هذه المبادئ الأساسية يتم تعليمها لكل عضو جديد في الجماعة، وذلك على أنها الطريقة الملائمة والمثلى للقدرة على التفكير والإحساس بالمشاكل المتعلقة والناتجة عن العمل الجماعي [9]. وبناءا على هذه التعاريف يمكن القول أن الثقافة التنظيمية هي:

- إطار مرجعي يحدد طرق التفكير والتصرف؛
- مصدر النجاح التنظيمي والميزة التنافسية؛
- بطاقة تعريفية للمؤسسة تعبر عن هويتها الخاصة؛
- وسيلة للاندماج الداخلي وتعبئة الأصول المادية؛
- أداة إستراتجية للتغيير والتطوير التنظيمي؛
- لغة مشتركة وطريقة للتواصل بين الفئات السوسيومهنية؛
- وسيلة لعقلنة وترشيد المهام الإدارية والتنظيمية.

2- وظائف الثقافة التنظيمية في المنظمات المعاصرة: تمثل المؤسسة شكلا تنظيميًا وثقافيًا، يضم مجموعة من الفاعلين المكونين للنسق التنظيمي، يزخر هذا الفضاء بعلاقات مهنية واجتماعية معينة والتي تعد مطلبا حيويا للمناخ التنظيمي الصحي،وتعمل الثقافة على تحقيق النجاح التنظيمي إلى حد كبير، من حيث أنها تساعد على تماسك الأعضاء، والحفاظ على هويتهم وبقائهم، وتوجيه سلوكهم ومساعدتهم، مما يُولد ضغوطًا عليهم للمضي قدما للتفكير والتصرف بطريقة تنسجم وتتناسب معهم [10]، وتعمل الثقافة على تشكيل لحمة تنظيمية موّحدة إذ أن التماسك التنظيمي الداخلي يساعد أعضاء المنظمة على التوصل إلى اتفاقات وقواعد ثابتة لتنظيم العمل فيما بينهم، لأن إدراك التهديدات الخارجية التي قد تتعرض إليها المنظمة يزيد من شدة التماسك التنظيمي الداخلي بين أعضاء المنظمة [11] ، وفي هذه الحالة توفر الثقافة أداء إضافي الناتج عن روح التعاون والالتزام الفردي والكفاءة الجماعية، وفي الوقت الذي تقوم به المؤسسة وكافة الطاقم الإداري بتطوير الشعارات التنظيمية وتسييس عملية العمل، تقوم ثقافة المنظمة بترسيخ روح المخاطرة والإبداع والاستدامة والتنوع الثقافي، كما تقوم الثقافة أيضا بتهيئة الإحساس بالكيان والهوية لدى العاملين والمساعدة على استقرار المؤسسة كنظام اجتماعي [12]، وقد توصلت دراسة **هاتفاني وبارل** إلى أن ارتفاع مستويات الالتزام لدى العامل الياباني يرجع إلى طبيعة ثقافته، وهو السبب الأساسي لتفوق المصانع والمنظمات اليابانية على مثيلاتها من المصانع أو المنظمات الأمريكية [13]، فهي تعمل كغراء اجتماعي الهدف منه ربط المجموعات المهنية ببعضها البعض، وإيجاد الالتزام التنظيمي والولاء بين العاملين وتغليب المصلحة الجماعية على المصلحة الشخصية، وهنا يتشكل التميز التنظيمي الذي

يحدث من خلال رؤية مشتركة للمعرفة ونماذج موّحدة للتفكير، والمبنية على الخبرات والمعارف الماضية الموجودة بذاكرة المنظمة[14] ، كما يمكن اعتبارها الحزام الهوياتي الجديد الذي يسمح بخلق التعبئة والإدماج، فضلا عن كونها مفتاح التميز المؤسسي والنجاح التنظيمي باعتبارها عاملا منتجا لمناخ العمل، مما يترك أثرًا بالغًا على سلوك الأفراد ومستويات إنتاجيتهم وابد اعم[15]

ومن الناحية الاقتصادية والكمية تعتبر الثقافة التنظيمية بمثابة أداة للتطور الاقتصادي للشركة بتقليص تكاليفها خاصة تكاليف التأطير[16]، وتشير بعض الدراسات أن الثقافة القوية مصدر للإبداع وتحسين الأداء، ففي استقصاء لـ 615 مديرا في بعض منظمات الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية رأت نسبة 43 % منهم أن التغيرات في ثقافة المؤسسة هي جزء أساسي ومتمم للجودة وتحسين الأداء [17]، وفي دراسة أخرى اتضح أنها تساهم تنمية الثقافة الإبداعية كما تبين أن هناك تأثيرا معنويا كبيرا لكل من أبعاد الثقافة التنظيمية والخصائص الديموغرافية في قدرة العاملين على الإبداع [18]، وهي نتيجة مماثلة للدراسة التي قامت بها مجموعة **Leger et Leger** بقيادة **Daniel Mercure** حيث اتضح من هذه الدراسة المعمقة أن الإبداع نمط إداري، والثقافة الجزائرية مشجعة، ويمكن أن تكون أرضية للإبداع [19].

وعلى العموم، فمعظم الكتاب في مجال التطوير التنظيمي وعلم الاجتماع المؤسسة والفكر الإداري يتفقون لمنح الثقافة التنظيمية وظيفتين أساسيتين هما: وظيفة الإدماج الداخلي ووظيفة التكيف الخارجي[20]، فهي التي ترسم الرؤية الإستراتجية المبنية على الضبط والتخطيط، وتقدم إطارا تفسيريًا للمؤسسة تستطيع من خلاله قراءة المشهد الخارجي، وبالتالي تكون الثقافة التنظيمية ومعاييرها والأساطير القائمة عليها هي الطريقة المثلى التي تعالج بها المشكلات الإنسانية وحي اليومية[21].

3 – أبعاد الثقافة التنظيمية: اختلف الباحثون في بين أبعاد الثقافة التنظيمية كل حسب دراسته والبيئة التي تنشط فيها المنظمات بالإضافة إلى طبيعة النشاط الذي تمارسه هذه المنظمات على أن اغلب هؤلاء الباحثون اتفقوا على عدد من الأبعاد، وكون هذه الأبعاد غير ظاهرة للعيان فهي مترسخة في أذهان القوى التشغيلية حيث توجه سلوكاتهم وأفعالهم وتمثلاتهم، وسنحاول فيما يلي توضيح أبعاد الثقافة التنظيمية:

3-1 القيم والمعتقدات التنظيمية: القيم هي بمثابة خطوط إرشادية يستعين بها قادة المنظمات عند مواجهة مواقف معينة لاتخاذ قراراتهم، فنراهم يتجهون إلى القيم كمدخل أو منهج مقنع لجعل قرارات وإجراءات العمل منسجمة مع أهداف المنظمة [22]، وتوّجه القيم التنظيمية سلوك العاملين في الفضاء الإنتاجي حسب الظروف التنظيمية المختلفة، ومن هذه القيم نذكر المساواة بين العاملين، الاهتمام بالعمل وإتقانه، الاهتمام بالوقت. ..إلخ كما تشمل المعتقدات التنظيمية الأفكار المشتركة حول طبيعة العمل والحياة الاجتماعية في بيئة العمل، وكيفي انجاز العمل والمهام التنظيمية ومنها: أهمية المشاركة في عملية صنع القرارات، والمساهمة في العمل الجماعي، وأثر ذلك في تحقيق الأهداف التنظيمي [23].

3-2 المعايير التنظيمية: وهي عبارة عن إجراءات وقواعد يلتزم بها العاملون في المنظمة على اعتبار أنها مفيدة في حياة المنظمة، وغالبًا ما تكون هذه الإجراءات غير مكتوبة وواجبة الإتباع.

3-3 الأعراف التنظيمية: هي عبارة عن قواعد خاصة بالسلوك يتقيد بها جميع الأفراد المنظمة ويلتزمون بها، فهي مفيدة لنجاح المنظمة ولسير الأفراد وانجازاتهم داخل المنظمة [24]، ومثال ذلك التزام المنظمة بعدم تعيين الأب والابن في نفس المنظمة، ويفترض أن تكون هذه الأعراف غير مكتوبة وواجبة الإتباع [25].

3-4 التوقعات التنظيمية: هي عبارة عن مجموعة من الأشياء المتوقعة التي يحددها أو يتوقعها الفرد من المنظمة وكذلك تتوقعها المنظمة من الفرد، وذلك من خلال فترة عمل الفرد في المنظمة أو بعد انتهاء العمل فيها.

ثانيا:الصراع التنظيمي:

1- تعريف الصراع التنظيمي: لا تستطيع أي منظمة أن تشتغل في أجواء تنظيمية صحية خالية من الصراعات بين مختلف الفئات السوسيومهنية، وذلك نتيجة التواصل والتفاعل داخل بيئة العمل، حيث أن الأجراء المستخدمون يتبادلون المعلومات، والخبرات، والأفكار، والقيم، وهذه الاعتمادية يمكن أن تؤدي إلى التماسك التنظيمي، وإما إلى الصراع التنظيمي الذي يعد ظاهرة تنظيمية موجودة في معظم المنظمات الاقتصادية وبدرجات متفاوتة، وسنحاول أن نقدم أهم التعاريف للصراع التنظيمي وهي:

يعرف Boulding الصراع التنظيمي بأنه: وضع تنافسي يكون فيه أطراف الصراع مدركين للتعارض في إمكانية الحصول على المراكز المستقبلية ويرغب كل طرف في الحصول على المركز الذي يتعارض مع رغبة الطرف الأخر [26]، وهذا يعني أن المجال التنظيمي زاخر بعلاقات التعاون والصراع. **ويعرفه Coser بأنه**: كفاح حول القيم والسعي من أجل المكانة والقوة والموارد النادرة، إذ يهدف الأضداد إلى تحييد خصومهم أو القضاء عليهم [27].

ويعرفه الباحثان **يوسف وأيمن عبد القادر بأنه**: ظاهرة سلوكية طبيعية تنشأ أولا داخل الفرد نفسه ويظهر جليا ويتعاظم من خلال التفاعل التنظيمي والاحتكاك بالآخرين، نتيجة لاختلاف القيم والثقافات والأهداف والغايات والتنازع حول هدف واحد، وانه وضع تنافسي يكون فيه أطراف الصراع مدركين للتعارض الناتج فيما بينهم، في الوقت الذي يرغب فيه كل أطراف الصراع الحصول على المركز الإداري أو الصلاحيات أو الامتيازات فيما يتعارض مع رغبة الطرف الأخر، والتي تشكل مادة الصراع في المنظمات الإدارية [28].

ويشير الصراع التنظيمي إلى: عملية الخلاف أو النزاع التي تتكون كرد فعل لممارسة ضغط كبير من جانب فرد معين أو مجموعة أفراد أو منظمة على فرد أخر أو مجموعة أفراد سواء من داخل ميدان العمل أو في ميدان مجتمعي أخر يهدف إلى إحداث تغيير ايجابي أو سلبي في بنية أو معايير أو قيم الفرد أو المجموعة أو المنظمة [29]. وبناءا على هذه التعاريف يمكن القول أن الصراع التنظيمي هو:

- الصراع ظاهرة تنظيمية موجودة في معظم المنظمات الاقتصادية؛
- الصراع التنظيمي أمر حتمي بين الأفراد والجماعات؛
- السبب الرئيسي للصراع التنظيمي هو الاختلاف في المصالح والأهداف بين الأضداد والخصوم؛
- الصراع التنظيمي ينشأ نتيجة اختلاف الثقافة بين الأفراد والجماعات والمنظمات؛
- يمكن أن يكون الصراع التنظيمي ظاهرة إيجابية (صراع بنّاء) ويمكن أن يكون ظاهرة سلبية (صراع هدّام) في حياة المنظمة؛
- يهدف الصراع التنظيمي إلى اكتساب هذه الموارد والاحتفاظ بها؛

- ظاهرة الصراع التنظيمي لصيقة بظواهر التغيير والتطوير والتجديد؛
- تختلف أسباب وأساليب واستراتجيات إدارته من منظمة لأخرى.

2- أساليب واستراتجيات إدارة الصراع التنظيمي: التكامل بين الهويات الفردية والجماعية داخل المنظمة الاقتصادية هو سيناريو يطمح إليه القادة والمسيرون، ويمكن أن تكون الثقافة بثقلها أحد المدخلات الجديدة لإحداث ديناමكية جماعية، ونحن نعلم أن الرأي السائد في الأدبيات التنظيمية يشير إلى استحالة وجود منظمة معصومة من الصراعات الفردية والجماعية، ولذلك يلجأ القادة والمدرين إلى نشر مناخ تنظيمي صحي يقل فيه النزاع بين الفئات السوسيومهنية.

وينشأ الصراع في المنظمات نتيجة العديد من الأسباب بعضها عوامل تنظيمية ترجع إلى ظروف المنظمة وعملها، وبعضها عوامل شخصية تتعلق بالفرد والتفسيرات الخاطئة، والاتصالات الخاطئة، وعدم الرضا الوظيفي، ومهما تعددت أسباب الصراع فهي واحدة فالاختلافات قد تكون في مستوى الثقافة التي يحملها أعضاء التنظيم أو تأثيرات البيئة بكل عواملها الخارجية، وكلها بمثابة ظروف تؤثر في نشوئه وتكوينه، وقد اختلفت أساليب إدارة الصراع التنظيمي من مفكر لأخر إلا أنها تشترك جميعا في عدة توّجهات واستراتجيات إدارية، وفيما يلي نستعرض أهم هذه الأساليب لإدارة الصراع وهي:

2–1 إستراتجية التعاون: ركزت النظريات الكلاسيكية والحديثة في نظرية المنظمة على منافع ومزايا التعاون والتضامن بين المجموعات المهنية داخل بيئة العمل، وثمنت بالمقابل جهود الإدارة لنشر ثقافة التعاون والتماسك، فالمنظمات الناجحة هي التي تعتمد على شبكة علاقات اجتماعية اعتمادية، وفي حالات كثيرة يؤدي التعاون والصراحة بين الرؤساء والموظفين إلى إرضاء اهتمامات الآخرين. إن هذه القدرة على إدراك وفهم عواطف ومشاعر الآخرين تعتبر مهارة شخصية تجعل من السهل بناء علاقات اجتماعية على أساس الثقة المتبادلة مع الآخرين[30]، وتنمي العمل الجماعي وتقلل من الصراعات الهدّامة.

2–2 إستراتجية المشاركة: تقوم هذه الإستراتجية على تثمين العلاقات الإنسانية والمشاركة في اتخاذ القرارات واللامركزية، وإشباع الرغبات السيكواجتماعية للعمال في جو يسوده الثقة والاحترام المتبادل بين أطراف العملية التنظيمية، كما أن اندماج العامل في المنظمة يُحسن العلاقة الهيكلية بين القمة

والقاعدة، ومن جهته يرى **David Emery** أن مفهوم المشاركة في ظل القيادة الديمقراطية يعني أنها تخلق الجو النفسي والموقف الملائم الذي يحفز العاملين على بذل أقصى جهودهم لتحقيق أعلى مستوى للإنتاج وهو ما أسماه دور غير المديرين [31].

2-3 إستراتجية التجنب والانسحاب: تستند هذه الإستراتجية على الاعتقاد بأن الصراع ظاهرة سلبية ويجب على المنظمة أن تتجنّبه، والتجنّب هنا يمكن أن يجلب فوائد كثير إذ يقلّل من الضغوط واكراهات العمل، ويعطي للأطراف المتنازعة فرصةً لأجل التسوية الودية وحل المشاكل التنظيمية بطريقة منهجية محكمة.

2-4 إستراتجية التوفيق والمجاملة: تُظهر هذه الإستراتجية درجة عالية من التعاون والذي يعمل بصورة أفضل عندما يدرك الأعضاء بأنهم على خطأ، وتستخدم عندما تكون المسألة أكثر أهمية للآخرين في بناء حسابات اجتماعية، وفي مختلف المناقشات المستقبلية داخل المنظمة. [32]

نتائج وأثار الصراع التنظيمي على حياة المنظمة: يترتب على الصراع التنظيمي نتائد فورية تؤثر في اداؤ المنظمة وعملياتها، وقد حدد **Bacal** **نوعين** من النتائج (سلبية وايجابية) [33] للصراع الداخلي:

3-1 النتائج السلبية للصراع: يمكن تحديد سلبيات الصراع التنظيمي فيما يلي:

- ✓ يمثل اختلالا تنظيمياً ووظيفيًا يؤثر على جودة حياة العمل داخل المنظمة؛
- ✓ يُقلل من الكفاءات والمهارات القيادية نتيجة ضعف التحكم، وضعف القدرة على اتخاذ قرارات؛
- ✓ يؤدي إلى فقدان الثقة المنظمية ويهدم علاقات العمل المهنية، ويشير الباحثان في مجال الفكر التنظيمي **Dirks et al** ,**Hart et al** أن تدني مستوى الثقة التنظيمية قد يؤدي إلى زيادة في الصراع، وعدم الاستقرار في التنظيم، وترك العمل، وزيادة وتفشي الشائعات، والاندفاع نحو الإضرابات [34]؛
- ✓ يساهم في انخفاض الروح المعنوية نتيجة انتشار التوتر النفسي وفقدان احترام الذات؛
- ✓ يمثل ظاهرة هدّامة، تؤثر على الشبكة الاجتماعية للمنظمة أو النسيج الاجتماعي للتنظيم؛
- ✓ يؤدي إلى انخفاض الكفاءة الفردية والجماعية للمنظمة ويُقلص الفعالية التنظيمية؛

✓ يؤثر سلبًا في استقرار التنظيم والالتزام التنظيمي والهوية المهنية، ويخلق صعوبة في انسيابية المعلومات نتيجة تعارض المصالح وتداخل المسؤوليات؛

✓ يهدر الكثير من الوقت والجهد والتكاليف ويساهم في انتشار ظاهرة دوران العمل.

3-2 النتائج الايجابية للصراع: يؤدي الصراع التنظيمي داخل المنظمة ما يلي:

✓ يكشف الصراع التنظيمي عن طرق جديدة تساعد على بلوغ أهداف المنظمة؛

✓ يترتب على الاهتمام بالفرص الناتجة عن الصراع تعزيز فرص الأشخاص في المنظمة وتنمية الحالات الإبداعية؛

✓ إزاحة الستار عن الحقائق والمعلومات التي تعد مقياسًا لحل المشاكل التنظيمية؛

✓ ينمي القدرات الشخصية والاستعدادات الكامنة والطاقات التي لا تبرز إلا في حالات الصراع؛

✓ يشجع الصراع على التفكير في حلول غير تقليدية للمشكلات التي تواجهها المنظمات ويؤدي إلى حلول الابتكارية الخلاقة [35].

✓ يُزّود المنظمة بمعلومات التغذية العكسية حول الكيفية التي ينبغي أن تسير عليها الأحداث في المنظمة؛

✓ يساهم الصراع في توفير طرق الاتصال التنظيمي ويفتح أفق جديدة للتواصل الاجتماعي؛

✓ يساعد الصراع على إشباع الحاجات النفسية للأفراد وخاصة ذوي الميول العدوانية؛

✓ الصراع وسيلة للتعلم التنظيمي واكتشاف خبرات تعليمية جديدة للأفراد العاملين.

وبعد هذا العرض، يرى الباحثان أن الصراع يمكن أن يكون ايجابيًا بنّاءً،ويمكن أن يكون سلبيًا هدّامًا وأن النواتج الايجابية للصراع ممكن أن تتحقق في حال توّفر الظروف الملائمة، ومن جهة أخرى المنظمة مطالبة بالتعامل بذكاء تنظيمي مع هذه الظاهرة، وذلك بتحويل الطاقة الناتجة عن الصراع إلى قوة وأثر ليأخذ الطابع الايجابي، فالصراع بمثابة مدخل أو أداة لاستثارة الدافعية والإبداع والتنافس الخلاّق.

ثالثا: الثقافة التنظيمية والصراع التنظيمي أية علاقة؟ هناك اعتراف علمي سائد بين رجال التنظيم والإدارة مفاده أنه ليس هناك ثقافة واحدة داخل المنظمة، وإنما توجد العديد من

ثقافات الجماعات المهنية، وهو ما يؤكد أن ثقافة النخبة أو الإدارة ليست في كل الحالات مقياسًا للنجاح التنظيمي، فالديناميكية الجماعية وشيوع العاطفة والحماس الكبيرين بين الفئات السوسيومهنية قضايا ليست هيّنة كما يتصور البعض، كما أن خلق ونشر بيئة تنظيمية صحية خالية من الصراعات أمر في غاية الصعوبة، ويحتاج ذلك إلى ذكاء تنظيمي وشعوري فائق، وما دامت المنظمة مجتمع مصغر يضم مختلف الذهنيات، فإنه يتعين على الطاقم الإداري ضرورة الاهتمام بالإطار السوسيوثقافي للمنظمة بهدف فهم وتفسير سلوكات الأفراد وسيكولوجياتهم، ومن ثم تعبئتهم وتحفيزهم واستمالتهم داخل مجال العمل لتصبح بيئة العمل مناسبة لمبدأ الاستقرار والديمومة، وكل هذا يدل على القيمة الرمزية للثقافة التنظيمية، كما أن التقليل من أماكن العصيان والتمرد التنظيمي يأتي من خلال استراتجيات مدروسة ومحكمة ترتكز على تفعيل دور الثقافة التنظيمية.

وترتبط الثقافة التنظيمية بالجوانب المعنوية والسلوكية لأفراد التنظيم، وهي الوسط البيئي الذي تعيش فيه المنظمات حيث تؤثر مخرجاتها على شعور العاملين وممارساتهم واتجاهاتهم، ولذلك يعتبر الكثير من الكُتّاب والمفكرون أنه بجانب الأصول الإستراتجية للمنظمة (المادية، والتكنولوجية، والفنية، والبشرية) تحتاج المنظمات إلى الثقافة لتدّعم تلك الأصول، ومعلوم أن المنظمات الناجحة هي المنظمات التي تمتلك ثقافة تنظيمية مرنة وفعالة وقادرة على مواكبة التغيرات الخارجية، مثال ذلك نجده في عدة شركات ذات سمعة دولية: **IBM ,Microsoft, Ford, General Electric–** وغيرها من الشركات المهيمنة على السوق الدولية، فكلما كانت الثقافة قوية، كلما تغلغلت في الفضاء المهني وحققت الانسجام والاتساق بين القوى التنظيمية والموارد البشرية.

علاوة على ذلك، تساهم الثقافة التنظيمية في إدارة الصراع التنظيمي بطريقة ايجابية وفعالة، من خلال تفّهم المشكلات بطريقة عقلانية ومنهجية تُخفف من حدة الصراع وأثاره السلبية، وبالتالي تؤدي إلى تنمية عمليات الإبداع والابتكار لدى الفئات السوسومهنية وهذا ما تأكد من خلال العديد من الدراسات والأبحاث الميدانية، ففي دراسة بعنوان: **دور الثقافة التنظيمية في مواجهة الصراع التنظيمي**، توصل الباحث **رشا مهدي الخفاجي** إلى مجموعة من النتائج أبرزها: أن الثقافة التنظيمية عاملا مهما ومؤثرًا، وباستطاعة المنظمات الصناعية تبنيها لتعزيز استراتجيات الصراع، كما اتضح من خلال الدراسة التأثير الواضح لأبعاد الثقافة التنظيمية (القيم والمعتقدات) واستراتجيات

إدارة الصراع التنظيمي (التعاون والتجنب)[36]، وفي دراسة أخرى الموسومة بعنوان: **نمط الشخصية وأثره في الصراع التنظيمي**، توصل الباحث **محمد أحمد الحراحشة** إلى نتائج أبرزها: وجود أثر ذي دلالة إحصائية بين نمط الشخصية وأسلوب إدارة الصراع التنظيمي وأوصت الدراسة بالعمل على إيجاد ثقافة تنظيمية لدى العاملين لترسيخ مزايا العمل الفريق وبيان ايجابيات العمل الجماعي وتعزيز ثقافة الحوار [37]، في حين تشير دراسة: **حسين محمد العزب ومريوان كامل فارس** الموسومة بعنوان: **أثر تنوع الثقافات في بلورة الصراع التنظيمي في الدوائر الحكومية في محافظة كركوك** إلى أن وجود أثر ذي دلالة إحصائية لمتغير تنوع الثقافات بأبعاده مجتمعة في الصراع التنظيمي بأبعاده مجتمعة، وهذا معناه أن تنوع الثقافات في المنظمات المبحوثة هو أحد المتغيرات التي تؤدي إلى نشوء الصراع التنظيمي بين الموظفين الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم [38]، وفي دراسة أخرى بعنوان: **أنماط إدارة الصراع في الجامعات الرسمية الأردنية**، توصل الباحث **عدنان بدري الابراهيم** إلى نتائج أبرزها: أن مجال نمط التعاون جاء في المرتبة الأخيرة ضمن أنماط إدارة الصراع ويوصي الباحث بضرورة التركيز على نمط التعاون بين القادة الأكاديميين كونه يمتاز بدرجة عالية من الاهتمام بالنفس وبالآخرين، ويوصف بأنه حازم ومتعاون [39]، وتوصلت نتائج الدراسة التي قام بها الباحث **عثمان قدور** الموسومة بعنوان: **القيم التنظيمية وعلاقتها بالصراع التنظيمي** إلى أن القيم الاقتصادية المادية (الربح والإنتاج)، والقيم الاجتماعية (التعاون والانتماء) تؤثر في الصراع التنظيمي وأوصت الدراسة بضرورة نشر قيم تنظيمية تحث على التعاون والتكافل والعمل الجماعي [40]، في حين توصل الباحث **خليل إبراهيم عيسى** في دراسته بعنوان: **تأثير الآليات التنظيمية في نواتج الصراع** إلى نتيجة رئيسة مفادها: أن شكل الاختلاف الثقافي هو السبب الأساسي والأكثر أهمية في حالات الصراع في كلية شط العرب موضوع الدراسة، لأن الثقافة تقود الفكر والممارسة [41]، وفي دراسة أخرى توصل الباحث **ريم سعد الجميل** في دراسته بعنوان: **دور الذكاء الشعوري في إدارة صراع فريق العمل** إلى نتائج أبرزها: أن العقل الإداري القيادي يمتلك خصائص الذكاء الشعوري لإدارة الصراع التنظيمي داخل فريق العمل في المركز البحثية لدى جامعة الموصل [42]، في حين تشير دراسة الباحثان **سرمد غانم الصالح وعلي عبد الستار الحافظ** الموسومة بعنوان: **التغيير المنظمي وأثره في خلق الصراع المنظمي** إلى مجموعة من النتائج أبرزها: أن أي تغيير منظمي يرافقه صراع، وهذا الصراع قد يأخذ

أشكالا متعددة، وقد يكون صراعًا في صالح المنظمة وتطورها ونموها، وقد يكون هدّامًا يعيق نمو المنظمة وتطورها، وهذا يوصلنا إلى أن التغيير المنظمي يُعد أحد الأسباب المؤثرة في خلق الصراع التنظيمي [43]، وأخيراً توصلت دراسة ميدانية قام بها الباحثان: **يوسف حجم الطائي وعامر علي حسين العطوي** إلى مجموعة من النتائج أبرزها: وجود علاقة ارتباط موجبة بين مقدرات الذكاء الشعوري وإستراتجية المشاركة، وهذا يشير إلى أن الذكاء الشعوري التنظيمي للقادة ينمي روح المشاركة مع الآخرين عند حل الصراع [44].

وبناءً على نتائج هذه الدراسات العلمية الميدانية وتركيزها في البحث عن العلاقة الموجودة بين متغيرين، الثقافة التنظيمية بكل أبعادها والصراع التنظيمي بكل أشكاله ومستوياته والتي أكدت مجموعها على وجود علاقة قوية وتأثيرية، يمكن القول أن الثقافة التنظيمية عامل جد حاسم في تلطيف الأجواء التنظيمية الصراعية، ويمكن التخلص من الجوانب السلبية والمرضية للصراع وتعزيز نشاطاته الإنتاجية من خلال تهيئة خطة عمل واضحة وتشخيص أسبابه والتعامل معه بذكاء للكشف عن الجوانب غير المرئية للصراع، وتحويله إلى صراع بنّاء ذي نتائج ايجابية، ومادام الصراع ينشأ في حالات كثيرة عن أسباب ثقافية، فإنه يتعين فهم وإدراك الآليات التي تنظم العلاقة الارتباطية بين الثقافة والصراع، فمعرفة الفرد وثقافته بحاجة إلى حاضنة أعم وأشمل تستطيع توجيهه ودمجه وتعبئته داخل المشروع المنظماتي، وبالرجوع إلى الواقع التنظيمي المعاصر الذي يشهد تغييرات عميقة، والاندفاع المكبوح، والمستقبل غير الواضح، والإحباط الذي يغشي الحياة كما يغشي المؤسسة، فإن البديل هو شجاعة الخروج من الإطار، والثقة التي تسمح بمعرفة قيمة الأخر والفائدة من منحه الاستقلالية والمسؤولية[45]، والعمل على نشر وترسيخ القيم الثقافية والتنظيمية الايجابية كروح المبادرة، والمخاطرة، والإبداع .

الخاتمة: في ختام الدراسة نشير إلى أن الثقافة التنظيمية تلعب دورًا استراتجيًا في المواجهة والتقليل من الصراع التنظيمي داخل المنظمة، من خلال تثمين وتعزيز القيم التنظيمية الايجابية وصقل المقدرات البشرية الطامحة إلى التفوق والنجاح، كما أن الاستثمار والتجديد فيها والعمل على تطويعها وتشفيرها، وجعلها في خدمة الأهداف الاستراتيجية للمنظمة من المهمات الضروريات التي ألحّ عليها الفكر التنظيمي المعاصر، ولهذا لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل دور الثقافة في البيئة

التنظيمية. لقد اتضح من خلال هذه الدراسة أن الثقافة عامل استراتجي وفعّال في إدارة الصراع التنظيمي، وبالتالي فإنه ينبغي على المنظمات أن تراعي الخصوصية الثقافية والإطار السوسيوثقافي عند التعامل مع الأحداث والظواهر التنظيمية، والثقافة باعتبارها أرضية للحياة المنظمية، فإنه يمكن أن تكون أيضًا وسيلة لإدارة التناقضات ونشر الوئام المؤسّسي، حيث تبني جسوراً بين الذهنيات المختلفة، وتدعم **استدامة المؤسسة**.

وينبغي أن تطوّر المنظمة قوتها غير المرئية (الثقافة التنظيمية) من أجل تحقيق الاندماج الداخلي ومواجهة التهديدات الخارجية، ففي بعض الحالات لا يكفي المال وأقساط جديدة من المنح والمردوديات للحصول على ولاء تنظيمي والتزام وظيفي، وفي حالات استثنائية قد يحصل ولاء مصطنع داخل المنظمة بفضل سياسة ملئ الجيوب وتكميم الأفواه، وفي هذه الحالة نحن متأكدون أنّ هذا لن يزرع الثقة المنظمية داخل النسق التنظيمي، ولن تكون بيئة العمل بيئة صديقة للإنسان ولا مكانًا للعيش، فثمة مسؤوليات اجتماعية وثقافية ينبغي أن تّعيها المنظمات لجعل الأهداف التنظيمية الفردية والجماعية مبرّمجة ومدّققة في آن واحد ومضبوطة باحترافية عالية، فتطوير ثقافة الموارد البشرية وتحسين علاقات الثقة المتبادلة تحتاج إلى ذهنية تنظيمية منفتحة، وخيال تنظيمي يُحسن قراءة ما وراء الظواهر والأحداث التنظيمية، كما تحتاج إلى ثقافة إدارية راقية تؤمن بأهمية التنوع الثقافي وقدرة الثقافة على نفي الصراع خارج أسوار المنظمة، ولتحسين الصورة الاجتماعية للمنظمة وتعزيز الجاذبية، ومواجهة التحديات، والتهديدات الخارجية، وتأليف جسد تنظيمي متماسك يجب وضع الثقافة ضمن الاهتمامات الإستراتجية الأولية وإعطائها عناية فائقة، لأنها ببساطة **عربون** التميز التنظيمي وأهم عامل **يُعّبد النجاح إنسانيًا واجتماعيًا**.

الهوامش:

---

1 - Alain Leménonel: Entreprise ,culture et société ,**Revue De Synthèse** ; 4e , S , N0 4 ,2007 ,P541

2 -Olivier Devillaed,Dominique Rey: **Culture D'entreprise: Un Actif Stratigique,efficasité et Performance Collective** , Dunod ,Paris ,2008 ,P 230.

3 -Lassoued Kais: Relation Culture D'entreprise Contrôle De Gestion: Une étude empirique , **La Revue Des sciences De Gestion** ,Vol 6,N0 216,2005 ,P131.

4 -Zghal Riadh: Culture et Gestion: Gestion De L'harmonie Ou Gestion Des Paradoxes ? **La Revue De Gestion** ,Vol 2 ,N0 28 ,2003,P26.

5- عفاف حسن هادي الساعاتي، ياسر عادل محمود الخفاجي: الثقافة المنظمية وأثرها في تعزيز الأداء الوظيفي، بحث في شركة صناعات الأصباغ الحديثة، **مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد، العراق، المجلد 20، العدد 76، 2014، ص 236.

6- خميس ناصر محمد: تأثير الثقافة التنظيمية في تبني نظام الإدارة البيئية Iso 14001، دراسة تطبيقية في الشركة العامة لصناعة الزجاج والسيراميك، **مجلة جامعة الانبار للعلوم الاقتصادية والإدارية** ، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة الانبار، العراق، المجلد 4، العدد 8، 2012، ص 214.

7- ناهدة إسماعيل الحمداني: الثقافة التنظيمية وأثرها في تحسين نوعية حياة العمل، **مجلة تنمية الرافدين**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة الموصل، العراق، المجلد 79، العدد 27، 2005، ص 133.

8- مروان محمد النسور: دور الثقافة التنظيمية في تحسين أداء العاملين في القطاع المصرفي الأردني، **مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الاقتصادية والإدارية**، الجامعة الإسلامية، فلسطين، المجلد العشرون، العدد الثاني، 2012، ص 192.

9- نور الدين بوعلي: الثقافة التنظيمية وعلاقتها بالأداء التنظيمي، **مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 15، 2014، ص 152.

10- يوسف عبد العطية بحر، إيهاب فاروق مصباح عاجز: دور الثقافة التنظيمية في تفعيل الإدارة الإلكترونية، **مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الاقتصادية والإدارية**، الجامعة الإسلامية، فلسطين، المجلد 20، العدد 2، 2012، ص 33.

11- خليل إبراهيم إسماعيل: تأثير الآليات التنظيمية الداخلية في نواتج الصراع، دراسة ميدانية في كلية نشط العرب الجامعية، **مجلة دراسات إدارية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، العراق، المجلد 3، العدد 6، كانون الأول 2010، ص 57.

12- بن عمر عوّاج: إدارة الموارد البشرية في المؤسسة الصناعية بين التوجهات الاقتصادية وثقافة العامل الجزائري، **أطروحة دكتوراه علوم في الأنثروبولوجيا**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقائد، تلمسان، الجزائر، 2010-2011، ص 72، غير منشورة.

13- سامي علي أبو الروس، سامي إبراهيم حنونة: تأثير الإيمان بالمؤسسة على رغبة العاملين في الجامعات الفلسطينية في بالاستمرار في العمل في جامعاتهم، دراسة ميدانية على الجامعات الفلسطينية في قطاع غزة – فلسطين-، **مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية**، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، 2011، ص 1264 .

14- حسن محمد الغرب، فرج شيليويح العنزي: أثر وظائف إدارة الموارد البشرية على تحقيق التميز التنظيمي، دراسة تطبيقية: مصلحة الجمارك السعودية، **مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة مؤتة، الأردن، المجلد الثامن والعشرون، العدد الرابع، 2013، ص 132.

15- بن يمينة السعيد: ثقافة المؤسسة الجزائرية، **مجلة منتدى الأستاذ**، قسنطينة، الجزائر، العدد الخامس والسادس، 2009، ص 78.

16 -Olivier Devillaed,Dominique Rey: **Culture D'entreprise: Un Actif Stratigique,efficasité et Performance Collective**: Op Cit ,P24.

17- بوحنية قوي: ثقافة المؤسسة كمدخل أساسي للتنمية الشاملة: دراسة في طبيعة العلاقة بيم المحددات الثقافية وكفاءة الأداء، **مجلة الباحث**، كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية، جامعة قصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 2، 2003، ص 74.

18- حسن علي الزغبي : أثر الثقافة التنظيمية في الإبداع، دراسة تطبيقية في شركات الأدوية الأردنية، **مجلة البصائر**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، العراق، المجلد 13، العدد 1، 2009، ص

19 -Daniel Mercure: **Culture et Gestion en Algérie** ,édition Harmattan ,Paris ,1997 ,P144.

20 -Quimet Gérard: Psychologie Des Leaders et Culture Organisationnelle: Une Typologie Métaphorique ,**Revue De Gestion** ,Vol 2,N032 ,2007 ,P60.

21 - Olivier Devillaed,Dominique Rey: Op Cit ,P 109.

22- فلاح تايه نعيمي، مراتب حسيم الطائي: أثر قيم القيادات في التكيف التنظيمي، دراسة تطبيقية في المنظمات السياحية، **مجلة الإدارة والاقتصاد**، كلية الإدارة والاقتصاد، الجامعة المستنصرية، العراق، السنة السادسة والثلاثون، عدد خمسة وتسعون، 2013، ص 391.

23- الباتول علوط: الثقافة التنظيمية وأثرها على الأداء الوظيفي للمرأة العاملة في المؤسسة العمومية الإستشفائية، دراسة ميدانية ببعض المؤسسات العمومية الاستشفائية بولاية الجلفة، **أطروحة دكتوراه علوم في علم الاجتماع التنظيم والعمل**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2012-2013، ص 65، غير منشورة.

24- شيكاوي سيهام: الثقافة التنظيمية وتأثيرها في الأداء المنظمة، **مذكرة لنيل شهادة الماجستيرفي العلوم الاقتصادية**، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير والعلوم التجارية، جامعة أمحمد بوقرة، بومرداس، الجزائر، 2006-2007، ص 24، غير منشورة.

25 -إيهاب فاروق مصباح عاجز: دور الثقافة التنظيمية في تفعيل الإدارة الإلكترونية، دراسة تطبيقية على وزارة التربية والتعليم العالي – محافظات غزة – **مذكر لنيل شهادة الماجستير في إدارة الأعمال**، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2011، ص 17، منشورة.

26- عثمان قدور: القيم التنظيمية وعلاقتها بالصراع التنظيمي، دراسة ميدانية على العمال المنفذين بمركب المحارف والرافعات C,P,G بقسنطينة، **مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس التنظيم والعمل**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2008-2009، ص56، غير منشورة

27- مسلم علاوي السعد: الصراع في المنظمات واستراتجيات إدارته، دراسة استطلاعية في إحدى الشركات الصناعية العراقية، **مجلة العلوم الاقتصادية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، العراق، العدد 16، ك 2005، ص 42.

28- يوسف عبد عطية بحر، أيمن عبد القادر عبد الرحيم قاضي: دور اللامركزية في فاعلية إدارة الصراع التنظيمي في وزارات السلطة الوطنية الفلسطينية –قطاع غزة- **مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات**، فلسطين، العدد الأول، كانون 2011، ص 104.

29- بغدادي خيرة: الصراع التنظيمي وأثره على العامل في المنظمة، دراسة ميدانية لمؤسسة سونلغاز بورقلة، **مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 16، 2014، ص 332.

30- سعد علي حمود العنزي، إبراهيم خليل إبراهيم: التوّجهات الشعورية للفرد والاستنزاف العاطفي في المنظمات (تطوير أساسيات الفلسفة والتفكير في السلوك التنظيمي)،**مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد، المجلد 19، العدد 80، 2014، ص 6.

31- نواف كنعان: **القيادة الإدارية**، مكتبة دار للثقافة للنشر والتوزيع، ط4، عمان، 1996، ص219.

32- ريم سعد الجميل: دور الذكاء الشعوري في إدارة صراع فريق العمل، دراسة لأراء عينة من أعضاء هيئة التدريس العاملين في المراكز البحثية لجامعة الموصل، **مجلة تنمية الرافدين**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة الموصل، العراق، العدد 108، المجلد 34، سنة 2012، 134.

33- خليل إبراهيم إسماعيل: مرجع سبق ذكره، ص 53-79.

34- حاكم جبوري ملك الخفاجي: التأثير التفاعلي بين العدالة والثقة التنظيمية وانعكاسه في تحقيق جودة حياة العمل، دراسة تحليلية لأراء عينة من العاملين في جامعة الكوفة، **مجلة القادسية للعلوم الإدارية الاقتصادية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة القادسية، العراق، المجلد 14، العدد 3، 2012، 17.

35- يوسف عبد عطية بحر، أيمن عبد القادر عبد الرحيم قاضي: مرجع سبق ذكره، 107.

36- رشا مهدي الخفاجي: دور الثقافة التنظيمية في مواجهة الصراع، دراسة استطلاعية لعينة من المدراء في الشركات الصناعية في البصرة، **مجلة الخليج العربي**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، العراق، مجلد 36، عدد 3 - 4، سنة 2008، ص 185.

37- محمد أحمد الحراحشة: نمط الشخصية وأثره في الصراع التنظيمي: دراسة مسحية على العاملين في مؤسسة المناطق الحرة الأردنية، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، المجلد 7، العدد 2، 2010، ص 273-274.

38- حسين محمد العزب، مريوان كامل فارس: أثر تنوع الثقافات في بلورة الصراع التنظيمي في الدوائر الحكومية في محافظة كركوك /العراق: دراسة ميدانية، **مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة مؤتة، المملكة الهاشمية الأردنية، المجلد الثامن والعشرون، العدد الرابع، 2013، 104.

39- عدنان بدري الابراهيم: أنماط إدارة الصراع في الجامعات الأردنية، دراسة ميدانية، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، المجلد 5، العدد 2، 2008، ص 147-148.

40- عثمان قدور: مرجع سبق ذكره، ص 133-135.

41- خليل إبراهيم عيسى: مرجع سبق ذكره، ص 70- 79 .

42- ريم سعد الجميل: مرجع سبق ذكره، ص 150.

43- سرمد غانم الصالح، علي عبد الستار الحافظ: التغيير المنظمي وأثره في بالصراع التنظيمي، دراسة لأراء عينة من التدريسيين في جامعة الموصل، **مجلة تنمية الرافدين**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة الموصل، العراق، العدد 107، مجلد 34، 2012، ص 157.

44- يوسف حجم الطائي، عامر علي حسيم العطوي: الذكاء الشعوري وعلاقته باستراتجيات حل الصراع، دراسة تحليلية في عدد من كليات جامعة الكوفة، **مجلة دراسات إدارية**، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، العراق، المجلد الأول، العدد الثاني، 2006، ص 141.

45 -Alain Kerjean: **Les Nouveaux Comportement Dans L'entreprise ,Oser Secouer L'organisation** , édition D'organisation ,Paris ,2000,P466.

دافعية الإنجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني

دراسة ميدانية بمراكز التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني ببعض الولايات الجزائرية

حيدرة وحيدة- د. قيدوم أحمد - جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

الملخص:

هدفت الدراسة الحالية إلى التعرف على مستوى دافعية الإنجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني ومدى تأثرها ببعض المتغيرات الشخصية والوظيفية . ولتحقيق أغراض الدراسة اعتمد الباحثان على المنهج الوصفي التحليلي وقاما ببناء مقياس خاص بدافعية الإنجاز طبق على عينة قوامها (300) مستشارا ومستشارة ، تم اختيارها بطريقة عشوائية من مراكز التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني بعشر ولايات جزائرية. وبعد التأكد من الخصائص السيكومترية لأداة القياس ومعالجة البيانات آليا عن طريق برنامج (Spss20) تم التوصل إلى النتائج التالية :

- توجد مستويات مختلفة(مرتفعة ، متوسطة) في دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز تعزى لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل العلمي والتخصص العلمي لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني .

الكلمات المفتاحية : دافعية الإنجاز ، مستشار التوجيه والإرشاد ، التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

Abstract:

The objective of this study is to know the level of achievement motivation among the scholar and vocational guidance and counseling counselors, and its impact by some personal and functional variables. In order to achieve the purposes of this study the researchers relied on the descriptive and analytical method and they built a special measure of achievement motivation, Applied to a sample of (300) counselors have been selected at random from the scholar

and vocational guidance and counseling centers in ten Algerian towns. After confirming the psychometric properties of the instrument of measurement and data processing by automatically Spss20 program, the reached results are the following:

- There are different levels (high, medium) in achievement motivation and its sub-dimensions among the scholar and vocational guidance and counseling counselors.

- No statistically significant differences in achievement motivation due to gender, age, professional experience and qualifications and scientific specialization among the scholar and vocational guidance and counseling counselors
Key words: achievement motivation, counselor, scholar and vocational guidance and counseling.

مقدمة :

إن البحث عن القوى الدافعة التي تقف وراء سلوك العامل وتوجهه نحو الإنجاز أمر بالغ الأهمية بالنسبة للفرد والمنظمة على حد سواء حيث تعتبر الدافعية شرطا أساسيا لتحقيق أهداف المنظمة فهي تساهم بالإضافة إلى زيادة إنتاجيتها في كسب رضا أفرادها وولائهم و تعزيز شعورهم بالانتماء التنظيمي .

والمنظمة التي تسعى إلى التميز والتفوق في أدائها وترتقي للبقاء في سوق المنافسة لابد أن تهتم بدراسة سلوك أفرادها ومعرفة العوامل التي تساعد على استثارة دافعيتهم نحو السلوك الانجازي مع توجيه وتنشيط هذا السلوك والمحافظة على استمراريته حتى يتم إشباع حاجاتهم ضمانا لتحقيق الأهداف المشتركة بين الفرد والمنظمة .

ويرتبط السلوك الإنجازي في العمل بإدراك الفرد لقدراته الذاتية وبرغبته في النجاح وتقييمه لاحتمالات الفشل والتي تتأثر بدورها بالمواقف المحيطة بالتنظيم ، وهنا يبرز دور المنظمة على اختلاف تخصصاتها إنتاجية كانت أو خدماتية في استثمار الشخصية الإنجازية في العمل وذلك بتهيئة الظروف المناسبة وتوفير ما تحتاج إليه من وسائل وخدمات مادية أو معنوية حتى تتمكن من استغلال طاقاتها نحو أداء أفضل خاصة بالنسبة للمنظمات التربوية باعتبار هدفها يكمن في خلق مورد بشري وتربيته وتنمية حتى تقدمه لخدمة مجتمعه في مجال تخصص يوافق رغباته وميولا ته وإمكانياته .

1- الإشكالية :

تحتاج المنظمات عامة ومنظمة التربية والتعليم خاصة إلى موارد بشرية مؤهلة لتحقيق أهدافها التنظيمية والوصول بها إلى مستويات عليا من التفوق والامتياز ، ومن أجل تحقيق هذه الأغراض يتوجب على المنظمة توفير مطالب أفرادها وإشباع احتياجاتهم وفهم سلوكاتهم التي غالبا ما تكون مرتبطة بدوافع تؤثر على علاقاتهم وأدائهم .

وتعتبر الدوافع مصدر الطاقة البشرية حيث إنها عامل حيوي في بداية أي عمل أو تدريب وهي ضرورية للاستمرار فيه وزيادة الجهد ، وهناك الكثير من البحوث التي أكدت على أن الدوافع لاتزيد الرغبة في العمل والإنتاج فحسب ، بل أن الدافع القوي يؤدي إلى زيادة في تركيز الانتباه وتأخير في ظهور التعب (عياصرة ،26:2006) نقلا عن (الحيالي ، 1990).

وتمثل دافعية الإنجاز أحد الجوانب الهامة في منظومة الدوافع الإنسانية التي أخذت مكانتها من أهمية نواتجها في مختلف المجالات سواء تلك المرتبط بالعلوم النفسية والاجتماعية والإدارية ، أو بميادين أخرى كالتربية والاقتصاد ، ويرجع هذا التنوع في أهميتها إلى اعتبارها مكونا من مكونات الشخصية الإنسانية نظرا لارتباطها بحاجة الفرد إلى تقدير ذاته وتحقيقها ، فضلا عن وظيفتها التوجيهية والتنشيطية في توجيه سلوك الفرد نحو تحقيق أهدافه.

كما أشار ماكليلاند 1961إلى الدور المهم الذي يقوم به الدافع للانجاز في رفع مستوى أداء الفرد وانتاجيته في مختلف المجالات والأنشطة ، فالنمو الاقتصادي في أي مجتمع هو محصلة الدافع للانجاز لدى أفراد هذا المجتمع . ويرتبط ازدهار وهبوط النمو الاقتصادي بارتفاع وانخفاض مستوى الدافعية للانجاز (خليفة ،16:2006).

وتهتم المجتمعات المتقدمة حضاريا وفكريا واقتصاديا بالدافع إلى الإنجاز بحثا وتنمية ، وهناك مجتمعات أخرى استغرقت من عمرها عشرات السنين وهي تخطط للنمو الاقتصادي والاجتماعي ولكنها لم تعرف طريقها الصحيح بعد لأنها كانت تسلك طرقا أخرى غير التي توصلها إلى الهدف إذ الاهتمام بالعامل النفسي والاجتماعي هو العامل الحاسم في أي تنمية من خلال الاهتمام بالدوافع الإنسانية والاهتمام بالعمل (معمرية ،2011: 07)

ولقد ظهرت دراسة دافعية الإنجاز بإسهاب في المجال الأكاديمي بربطها متغيرا أساسيا في التحصيل الدراسي والأداء والتعلم وغيرها من العوامل المعرفية و النفسية كدراسة رمزان وقالين (Ramzan&Galin 1990-) 1991 التي هدفت لمعرفة العلاقة بين السعادة ودافعية الإنجاز بين الذكور والإناث لدى طلبة الماجستير بقسم آزاد الإسلامية تخصص علم النفس (دراسات عامة ، علم النفس العيادي والتربوي) ودراسة روي وآخرون (2013) التي هدفت إلى معرفة العلاقة بين الذكاء العاطفي ودافعية الانجاز لدى طلاب مدارس الصف الثاني عشر بمدينة باتنة الهندية.

و الملاحظ أن هناك ندرة في الدراسات العربية التي اهتمت بدافعية الإنجاز في المجال التنظيمي وخاصة لدى شاغلي الوظائف التربوية إلا في السنوات الأخيرة حيث اهتمت بالمدرسين خصوصا ، وذلك بالرغم من أن المنظومة التربوية تعتبر أهم المؤسسات التنظيمية التي يرتبط كيانها و نجاحها في تحقيق أهدافها بنجاح المجتمع بأكمله كدراسة الهلول (2011) التي هدفت إلى التعرف على أثر استخدام البرمجة اللغوية العصبية في تنمية الدافع للانجاز لدى المعلمين بمرحلة التعليم الأساسي بغزة ، ودراسة سمارة وآخرون (2011) التي هدفت إلى معرفة درجة

تقدير معلمي المرحلة الأساسية الدنيا في المدارس التابعة لمديرية تربية لواء الرصيفة لذواتهم وعلاقاتها بدافعية الإنجاز لديهم.

وفي دراستنا الحالية سنحاول التعرف على دافعية الإنجاز لدى كادر جدير بالأهمية في المنظومة التربوية وهو مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني من خلال طرح التساؤلات التالية :

- ما مستوى دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني؟

- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز تعزى لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل العلمي والتخصص العلمي لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني ؟

2- فرضيات الدراسة :

من خلال استقراء النتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة كدراسة أدسيل وكامبل(Adsul,Kambale2008) التي توصلت إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز تعزى لمتغير الجنس لصالح الذكور لدى طلاب الدراسات العليا بمدينة سنغالي التابعة لولاية ماهراراشترا، و دراسة الخيري (2008) التي توصلت إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في متوسطات درجات دافعية الإنجاز ترجع إلى متغير سنوات الخبرة إلا في الأبعاد التالية :(المغامرة والثقة بالنفس ، والمنافسة ، والاستقلال، والدرجة الكلية وكانت لصالح الفئة من 1إلى أقل من 5سنوات .

كما توصلت دراسة أبو جراد (2015) التي هدفت إلى معرفة العلاقة بين دافعية الإنجاز ودرجة كل من الانتماء الوظيفي من ناحية والرضا الوظيفي من ناحية أخرى لدى المرشدين التربويين بمحافظات قطاع غزة إلى عدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجات الدافعية للإنجاز تعزى لمتغير الجنس وسنوات الخبرة ، الحالة الاجتماعية ، الدخل الشهري ، مكان السكن وجهة العمل. ومن خلال نتائج هذه الدراسات تكون الإجابات المؤقتة لفرضيات الدراسة كما يلي :

- توجد مستويات مختلفة(مرتفعة ، متوسطة) في دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز تعزى لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل العلمي والتخصص العلمي لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني .

3-أهمية الدراسة: إن سعي المنظمة نحو إنتاج مخرجات ذات جود ة عالية وفائدة للمجتمع يتحدد من خلال سعيها نحو الاهتمام بمواردها البشرية وزيادة فاعليتهم وكفاءتهم، وتكمن أهمية الدراسة الحالية فيما يلي:

- أهمية العنصر البشري في دفع عجلة الإنتاج وهو حال مستشار التوجيه والإرشاد مرتكز الفعل التربوي الذي يساهم بفعالية في تنمية وتربية الأجيال المستقبلية بحكم تخصصه وكفاءته .

- أهمية الشخصية الإنجازية في العمل، وأهمية دافعية الانجاز كمؤشر هام في التنبؤ بسلوك العامل و تنشيطه و توجيهه نحو تحقيق أهدافه.

- إطلاع القيادات التربوية العليا بوزارة التربية والتعليم عامة وقسم التوجيه والإرشاد خاصة على مستوى دافعية الإنجاز لدى مستشار التوجيه والإرشاد قد يساعدهم في إعداد برامج وخطط هادفة لتنمية وتطوير هذه الفئة .

- أهمية الدافعية للإنجاز في الفكر التربوي والإداري والتنظيمي المعاصر.

4-أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى :

- معرفة مستوى دافعية الانجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

- معرفة تأثير المتغيرات الشخصية والوظيفية (الجنس ، السن ، الخبرة المهنية ، المؤهل والتخصص العلمي على دافعية الإنجاز لدى العينة المبحوثة).

- محاولة بناء مقياس خاص بدافعية الإنجاز في مجال التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

5- التعريف بمصطلحات الدراسة :

5-1- التعاريف النظرية:

-دافعية الإنجاز:

عرفها **ماكليلاند** (Mcclelland . 1961):"بأنها ما يحرك الفرد للقيام بمهامه على أفضل مما أنجز من قبل بكفاءة و سرعة و أقل جهد و أفضل نتيجة " (بني يونس ، 175:2007).

وعرف فاروق عبد الفتاح : "الدافع للإنجاز هو الرغبة في الأداء الجيد و تحقيق النجاح و هو هدف ذاتي ينشط السلوك أو يوجهه و يعد من المكونات المهمة للنجاح المدرسي " (محمد عبد الرحمن ، 2009 : 155).

ومن خلال التعريفين السابقة فإن دافعية الإنجاز هي مفهوم افتراضي تعبر عن قوة داخلية لدى الفرد وتحركها الرغبة في النجاح والسعي للوصول إلى مستوى متميز من الأداء الجيد وفقا لبعض معايير التفوق والامتياز.

– التوجيه والإرشاد:

عرف (ميلر) التوجيه بأنه : " عملية تقديم المساعدة للأفراد لكي يصلوا إلى فهم أنفسهم ، و اختيار الطريق الصحيح و الضروري للحياة و تعديل السلوك لغرض الوصول إلى الأهداف الناضجة و الذكية ، و التي تصحح مجرى الحياة " .(دبور. الصافي ،2007 :19) .

ويعرف **جلانز** (**Glanz**) الإرشاد بأنه:" عملية تفاعلية تنشأ من علاقة فردين أحدهما متخصص هو المرشد ، والآخر المسترشد يقوم المرشد من خلال هذه العلاقة بمساعدة المسترشد على مواجهة مشكلة تغيير أو تطوير سلوكه وأساليبه في التعامل مع الظروف التي يواجهها" (أبو حماد:5:2008)

و من خلال التعريفين السابقين يمكن تعريف التوجيه والإرشاد بأنه عملية فنية متخصصة تقوم على مجموع الخدمات النفسية و الدراسية و التربوية و المهنية التي تقدم للفرد لمساعدته في تربية اختياراته وبناء مشروعه الشخصي وفقا لإمكاناته و قدراته و رغباته و ميوله من جهة و الفرص الدراسية المتاحة و متطلباتها من جهة أخرى ، كما تهتم بمساعدته على فهم ذاته وحل مشكلاته واتخاذ قراراته بنفسه للوصول به إلى أقصى غايات التكيف .

– مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني :

يعرفه موريس روكلان Roucklin Mourice بأنه :" المسؤول الأول على تنفيذ عملية التوجيه المدرسي و المهني ، و هو مختص في التوجيه و يعتبر أقدر الناس و أكفأهم على جمع كافة المعلومات حول الطالب المراد توجيهه و استغلالها باعتماد مبادئ و تقنيات علم النفس " (بن فليس ،2014: 126).

5– 2 التعاريف الإجرائية :

– دافعية الإنجاز :

هي رغبة مستشار التوجيه والإرشاد في النجاح و سعيه للوصول إلى مستوى من التفوق والتميز في أداء عمله ، ويستدل عليها من خلال مجموع الدرجات التي يحصل عليها من خلال إجابته على مقياس دافعية الإنجاز المصمم من قبل الباحثان والمتكون من ستة عوامل هي : (تحمل المسؤولية ، مستوى الطموح ، التنافس ، المثابرة ، إدراك

الزمن ، التخطيط للمستقبل) ، حيث تعكس الدرجة العليا مستوى عال من دافعية الإنجاز لديه والدرجة الدنيا مستوى منخفض من دافعية الإنجاز لديه.

– مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني:

عضو تربوي معين من قبل وزارة التربية والتعليم و متحصل على مؤهل جامعي في تخصص علم النفس أو علم الاجتماع أو علوم التربية ، ذكر أو أنثى، قديم أو حديث العهد بالمهنة ويقيم بالثانوية و يزاول مهام التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني بمؤسسات التعليم الثانوي العام والتكنولوجي والمتوسطات التابعة لقطاع تدخله بولايات : وهران ، تلمسان ، سعيدة ، معسكر ، بلعباس ، عين تموشنت ، شلف ، باتنة ، الجزائر ، أدرار ، وذلك طبقا لقرارات وزارة التربية الوطنية.

6–حدود الدراسة :

أ– الحدود المكانية: أجريت الدراسة بمراكز التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني بعشر ولايات جزائرية وهي : وهران ، بلعباس ، معسكر ، سعيدة ، عين تموشنت ، تلمسان ، شلف، باتنة ، الجزائر ، أدرار .

ب– الحدود الزمنية: امتدت المدة الزمنية لإجراء الدراسة من شهر فيفري إلى شهر ماي 2016.

ج– **الحدود البشرية** : تمثلت في مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني .

7– الإجراءات المنهجية للدراسة :

7–1منهج الدراسة :

استخدم الباحثان في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وهو المنهج الأنسب لوصف الظاهرة المدروسة والتعبير عنها كميا وكيفيا وفهم علاقاتها مع غيرها من المتغيرات. والمنهج الوصفي هو :" نوع من أساليب البحث ، يدرس الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراهنة دراسة كيفية توضح خصائص الظاهرة وحجمها وتغيراتها ، ودرجة ارتباطها مع الظواهر الأخرى " (سعد عمر، 69:2009).

7– 2 أداة الدراسة :

قام الباحثان ببناء مقياس دافعية الانجاز على ضوء ما أكدته النظريات المتخصصة في هذا المجال وما أكدته الدراسات والمقاييس السابقة، ومع ما يتناسب والمهام المسندة إلى مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي .

وخلص الباحثان إلى تحديد ستة أبعاد أساسية يرى أنها ذات أهمية في مجال التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني وتعبر عن المواقف التي يتفاعل معها مستشار التوجيه والإرشاد داخل محيط عمله ، وعلى هذا النحو تمت صياغة الصورة المبدئية لمقياس دافعية الإنجاز والتي اشتملت على 58 فقرة موزعة على ستة أبعاد (تحمل المسؤولية ، مستوى الطموح، مستوى التنافس ، مستوى المثابرة ،إدراك الزمن ، التخطيط للمستقبل) يجاب عنها وفق خيارات ثلاث (تنطبق ، إلى حد ما ، لاتنطبق) وتعطى الدرجات على التوالي (1،2،3) في حالة العبارات الايجابية وتعكس في حالة الفقرات السلبية .

8- الخصائص السيكومترية لأداة القياس :

8-1 الصدق : يعتبر الاختبار صادقا إذاكان" يقيس ما وضع لقياسه " (معمرية،2009:208)

وقد اعتمد الباحثان للتأكد من صدق مقياس دافعية الإنجاز على نوعين من الصدق كما هو موضح فيما يلي :

أ-صدق المحتوى :

تم عرض الصورة المبدئية لمقياس الرضا على 20أستاذا محكما من أساتذة مختصين في علم النفس بكل من جامعة مستغانم ، المركز الجامعي غليزان ، وجامعة وهران ومعسكر ، تم استرجاع 15 منها ، وقد قاما الباحثان بحساب درجة صدق كل عبارة اعتمادا على طريقة لوش Lawshe والتي تحسب من المعادلة التالية :

درجـة صدق العبارة = م- 0.5ن

0.5ن (عبد الرحمان ،2009:203)

وهذه الدرجة تمثل درجة صدق العبارة، ويعتمد الحد الأدنى للدرجة المطلوبة على عدد الحكام وفي مقامنا هذا عدد الحكام 15 يقابلها الحد الأدنى للدرجة المطلوبة 0.49 حسب ذات المرجع حيث تم قبول 53 فقرة فاقت درجتها0.53 وهي أكبر من الحد الأدنى للدرجة المطلوبة 0.49.

ب-الصدق العـــاملي :

للتأكد من الصدق العاملي استخدم الباحثان التحليل العاملي الاستكشافي باستخدام برنامج spss20 وذلك بعد التأكد من مقاييس أو محكات الحكم على قابلية المصفوفة للتحليل العاملي الاستكشافي ، وباعتماد طريقة الفاريماكس في التدوير (Varimax) ، وهي حسب (تيغزة ، مرجع سابق:70) تركز على تبسيط تشبعات الفقرات أو المتغيرات على كل عامل ، أي تلجأ إلى تبسيط أعمدة التشبعات (التشبعات داخل كل عامل) بدلا

من تبسيط تشبعات الصفوف (التشبعات بين أو عبر العوامل) ، وتم الحصول على مصفوفة تشبعات كل بعد بفقراته ،مع تسمية العوامل بناء على المغزى المشترك بين محتوى الفقرات التي تتشبع تشبعا مرتفعا على العامل ، كما هو موضح في الجدول التالي:

الجدول رقم (01): يوضح مصفوفة تشبعات فقرات استبيان الدافعية للانجاز بعد التدوير مع تسمية العوامل

الفقرات	العوامل المستخرجة						قيم الشيوع الاشتراكيا
	التخطي للمستق	مستوى الطم	تحمل المسؤو	مستوى التنافس	إدراك الز	المثا	
ف31	.78						0.66
ف28	.71						0.58
ف26	.71						0.55
ف9	.64						0.54
ف34	.62						0.51
ف16	.58						0.40
ف52	.52						0.38
ف20		.76					0.68
ف42		.73					0.62
ف2		.69					0.56
ف48		.58					0.53
ف37		.54					0.45
ف47		.50					0.50
ف29		.46					0.38
ف13		.46					0.32
ف46		.45					0.38
ف11		.39					0.30
ف25		.39					0.37

0.56				.60			ف51
0.44				.58			ف3
0.58				.57			ف15
0.48				.57			ف40
0.49				.54			ف10
0.51				.53			ف36
0.39				.52			ف35
0.48				.47			ف8
0.28				.45			ف6
0.28				.41			ف30
0.45				.40			ف21
0.19				.37			ف12
0.49			.35				ف5
0.42			.36				ف22
0.47			.62				ف4
0.58			.58				ف38
0.56			.57				ف39
0.41			.39				ف50
0.28			.34				ف49
0.43		.61					ف7
0.48		.49					ف18
0.35		.48					ف45
0.35		.45					ف33
0.27		.44					ف43
0.36		.44					ف53
0.52		.37					ف27
0.41	.40						ف17

ف19						67	0.53
ف1						57	0.56
ف23						45	0.28

وقد تم حذف الفقرات (41،32،14) التي تشبعت على عامل التخطيط للمستقبل بمعامل ارتباط ضعيف ، وتم حذفها لأنها لا تقيس فعلا محتوى العامل ، أما الفقرة (44) التي تشبعت بالعامل الثالث (المسؤولية) فقد تم حذفها لأنها لا تقيس فعلا محتوى تحمل المسؤولية ، والفقرة 24 لم تتشبع بأي عامل .

8-2 الثبات:

استخدم الباحثان لحساب معامل الثبات لمقياس دافعية الإنجاز طريقتين هما :

أ- طريقة التناسق الداخلي بحساب معامل ألفا لكرومباخ : حيث توصلت إلى معامل الثبات التالي:

الجدول رقم (02) يوضح حساب - معامل ألفا لكرومباخ:

عد الفقرات	عدد الأفراد	معامل ألفا لكرومباخ
48	102	0.89

من الجدول رقم (02) يتضح أن معامل ألفا لكرومباخ بلغ (0.89)، وهو مؤشر مرتفع دال على ثبات المقياس .
ب- حساب الثبات بطريقة التجزئة النصفية:

قامت الباحثة بحساب معامل الثبات بطريقة التجزئة النصفية بعد تقسيم المقياس إلى نصفين متساوين حسب ترتيب الفقرات، النصف الأول يضم الفقرات ذات الترتيب الفردي (1، 3، 5، 7، 9، 11، 13،15، 17، 19، 21، 23، 25، 27،29، 31،33، 35، 37، 39،41، 43،45، 47 ،) والفقرات ذات الترتيب الزوجي (2، 4، 6، 8، 10، 12، 14، 16، 18، 20، 22، 24، 26، 28، 30،32، 34، 36، 38، 40، 42، 44، 46، 48):

جدول (03) يوضح حساب معامل الارتباط بطريقة التجزئة النصفية

عد الفقرات	عدد الأفراد	ر	المعامل سبيرمان براون
48	102	0,86	0,92

من الجدول رقم (03) يتضح أن معامل سبيرمان براون بلغ (0.92) وهو مؤشر مرتفع دال على ثبات المقياس.

وبناء على المؤشرات السابقة يمكننا القول أن المقياس يتمتع بمؤشرات ثبات مقبولة تسمح لنا بتطبيقه.

9- حجم و مواصفات عينة الدراسة الأساسية:

تمثلت عينة الدراسة في 300 مستشارا ومستشارة في التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني التابعين لمراكز التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني لعشرة ولايات هي: وهران ، تلمسان ، معسكر ، بلعباس ، سعيدة ، عين تموشنت ، باتنة ، شلف ، الجزائر ، أدرار .

وتتوزع عينة الدراسة الأساسية حسب مواصفاتها على النحو التالي:

9-1 من حيث الجنس :

تتكون عينة الدراسة الأساسية من (300) مستشارا ومستشارة في التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني موزعين على(113) مستشارا و(187) مستشارة ، كما هو موضح في الجدول التالي:

جدول رقم (04): توزيع عينة الدراسة الأساسية حسب الجنس

الجنس	ذكور	اناث	المجموع
العدد	113	187	300
النسبة	37.66	62.33	100

يلاحظ من الجدول أن نسبة الإناث البالغة (62.33%) أكثر من نسبة فئة الذكور التي بلغت (37.66%)، وهذا يعكس حقيقة مجتمع الدراسة الذي يفوق فيه تعداد الإناث على تعداد الذكور.

9-2 من حيث السن :

تتوزع عينة الدراسة الأساسية من حيث السن على ثلاث فئات عمرية موضحة في الجدول التالي :

جدول رقم (05): توزيع عينة الدراسة الأساسية حسب السن :

السن	أقل من 30	من 30-39	من40-49	من 50فما فوق	المجموع
العدد	49	158	84	09	300
النسبة	16.33	52.66	28	03	100

يلاحظ من الجدول أن أكبر فئة عمرية لعينة الدراسة الأساسية تتمركز في الفئة من (30–39سنة) بنسبة (52.66%)، ثم تليها الفئة العمرية (من40–49) بنسبة (28%) وهذا يعكس حقيقة مجتمع الدراسة الذي تتفوق فيه الفئة العمرية الشابة .

9–3 من حيث الأقدمية :

تتوزع عينة الدراسة الأساسية على ثلاث فئات حسب الأقدمية موضحة في الجدول التالي :

جدول رقم (06):توزيع عينة الدراسة الأساسية حسب الأقدمية :

الأقدمية	من1–10سنوات	من11–20سنة	أكثر من 20	المجموع
العدد	190	89	21	300
النسبة	63.33	29.66	7	100

يلاحظ من الجدول أن أكبر نسبة (63.33 %) تمحورت في الفئة (من 1–10سنوات)، تليها الفئة من11–20سنة بنسبة (29.66 %) مما يعكس حقيقة مجتمع الدراسة الذي أكثره حديثي العهد بمجال التوجيه والإرشاد

9–4 من حيث التخصص العلمي:

تتوزع عينة الدراسة الأساسية من حيث التخصص على ثلاث تخصصات علمية كما هو موضح الجدول التالي:

جدول رقم (07):توزيع عينة الدراسة الأساسية حسب التخصص

التخصص	علم النفس	علم الاجتماع	علوم التربية	المجموع
العدد	149	124	27	300
النسبة	49.66	41.33	09	100

يلاحظ من الجدول أن عينة الدراسة الأساسية ذات تخصص علم النفس بلغت (66.49 %) مشكلة أكبر نسبة، وهو أمر طبيعي نظرا لإعطاء الأولوية لهذا التخصص في عملية التوظيف، ثم يليها تخصص علم الاجتماع بنسبة متقاربة بلغت (33.41 %) ، فيما تشكل نسبة ضئيلة جدا من تخصص علوم التربية عينة الدراسة الأساسية والتي بلغت (09%) ، وهذا يعكس حقيقة مجتمع الدراسة حيث تعداد تخصص علم النفس يفوق تخصص علم الاجتماع وعلم التربية التي لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من مجتمع الدراسة.

5-9 من حيث المؤهل العلمي :

تتوزع عينة الدراسة الاستطلاعية على أربع مؤهلات علمية موضحة في الجدول التالي :

جدول رقم (08):توزيع عينة الدراسة الأساسية حسب المؤهل العلمي :

السن	دراسات تطبيقية (DEUA)	ليسانس	ماستر	ماجستير	دكتوراه	المجموع
العدد	21	225	43	08	03	300
النسبة	07	75	14.33	2.66	1	100

يلاحظ من الجدول أن أغلب أفراد عينة الدراسة الأساسية من حاملي المؤهل العلمي (ليسانس) ممثلة بنسبة (75 %)، وهي الشهادة المطلوبة في توظيف مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي.

10- **الأساليب الإحصائية** : تم استخدام كل من المتوسط الحسابي والانحراف المعياري ، والوزن النسبي وتحليل التباين الثنائي.

11- عرض ومناقشة نتائج الفرضيات:

11-1عرض نتائج الفرضيات:

أ – عرض نتائج الفرضية الأولى :

نص الفرضية : توجد مستويات مختلفة (مرتفعة ، متوسطة) في دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني

ولاختبار الفرضية تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والأوزان النسبية لدرجات أفراد العينة وكانت كما يلي :

الجدول رقم (09): يبين المتوسط الحسابي والانحراف المعياري والوزن النسبي لدرجات دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية.

دافعية الإنجاز	العدد	الدرجة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الوزن النسبي	الترتيب
الدرجة الكلية	48	144	108.30	15.46	75.20	

التخطيط للمستقبل	7	21	16.37	2.78	77.95	1
مستوى الطموح	11	33	25.42	4.26	77.03	2
المسؤولية	12	36	25.43	4.25	70.63	6
التنافس	7	21	16.00	2.81	76.19	4
إدراك الزمن	7	21	16.04	2.59	76.38	3
المثابرة	4	12	9.03	1.84	75.25	5

يتضح من الجدول رقم (09) أن متوسط الدرجة الكلية لدافعية الإنجاز بلغ(108.30)، وبانحراف معياري (15.46) ، وبوزن نسبي (75.20) ، وهذا ما يدل على أن مستوى دافعية الإنجاز مرتفعة .

كما يشير الجدول إلى مستويات أبعاد دافعية الإنجاز حيث تترتب على التوالي:

- بعد التخطيط للمستقبل بمستوى مرتفع بلغ (16.37)، وبوزن نسبي قدر ب(77.95).
- بعد مستوى الطموح بمستوى مرتفع بلغ (25.42)، وبوزن نسبي قدر ب(77.03).
- بعد إدراك الزمن بمستوى مرتفع بلغ (16.04)، وبوزن نسبي قدر ب(76.38).
- بعد التنافس بمستوى مرتفع بلغ (16.00) وبوزن نسبي قدر ب(76.19).
- المثابرة بمستوى متوسط بلغ (9.03)، وبوزن نسبي قدر ب(75.25).
- بعد المسؤولية بمستوى متوسط بلغ (25.43) وبوزن نسبي قدر ب(70.63).

ومن خلال هذه المؤشرات تحققت الفرضية الثانية التي تنص على وجود مستويات مختلفة (مرتفعة ، متوسطة) في دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية .

ب–عرض نتائج الفرضية ا لثانية:

نص الفرضية : لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز تعزى لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل العلمي والتخصص العلمي لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني .

ولاختبار صحة الفرضية تم استخدام تحليل التباين الثنائي وهو الأسلوب الإحصائي الأنسب في حالة وجود متغيرين مستقلين أو أكثر لكل منهما مستويين أو أكثر يؤثران في متغير تابع واحد فقط . وكانت نتائج تحليل التباين الثنائي كما يلي :

الجدول رقم (10) : المتغيرات المقاسة بتحليل التباين الثنائي

المصدر المتغيرات التابعة	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	ف	الدلالة
الجنس	21.515	1	21.515	0.084	0.772
السن	419.561	3	139.854	0.548	0.650
الأقدمية	62.246	2	31.123	0.122	0.885
المؤهل	1318.640	4	329.660	1.292	0.274
التخصص	233.769	2	116.884	0.458	0.633
الخطأ	57681.549	226	255.228		
المجموع	3590371.00	300			
المجموع المعدل	71487.397	299			

يلاحظ من الجدول رقم(10)أن الفروق في الجنس بلغت قيمة (ف)عندها (0.084)، وهذه القيمة غير دالة عند مستوى الدلالة (0.05)، أما الفروق في السن فقد بلغت قيمة (ف) عندها (0.548) وهذه القيمة كذلك غير دالة عند مستوى (0.05) ، وبالنسبة للفروق في الأقدمية فقد بلغت قيمة (ف) عندها (0.122) وهي قيمة غير دالة كذلك عند مستوى الدلالة (0.05)، أما الفروق في المؤهل فقد بلغت قيمة (ف) عندها (0.129) وهي قيمة غير دالة عند مستوى الدلالة (0.005) .

ونفس الشيء بالنسبة لمتغير التخصص حيث بلغت قيمة (ف) عندها (0.458) وهي الأخرى غير دالة عند مستوى الدلالة (0.05) .

ومن هذه المخرجات نستدل على تحقق الفرضية الرابعة التي تنص على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية تعزى لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل العلمي والتخصص العلمي لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني.

11- 2 مناقشة وتفسير نتائج الفرضيات:

أ- مناقشة وتفسير نتائج الفرضية الأولى:

أظهرت النتائج أن مستوى دافعية الإنجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني مرتفع حيث بلغت قيمة المتوسط الحسابي ((158.19) ، وبوزن نسبي (75.20) ، وعليه فالفرضية الأولى تحققت.

وتتفق نتائج هذه الدراسة مع نتائج دراسة سمارة وآخرون (2011) التي هدفت إلى معرفة درجة تقدير معلمي المرحلة الأساسية الدنيا في المدارس التابعة لمديرية تربية لواء الرصيفة لذواتهم وعلاقاتها بدافعية الإنجاز لديهم حيث توصلت إلى وجود مستوى مرتفع في دافعية الإنجاز لدى العينة المبحوثة .

وتختلف نتائج هذه الدراسة مع دراسة فوزي حنان (2013،2014) ، والتي هدفت للتعرف على مستويات الضغوط المهنية ودافعية الإنجاز لدى أطباء الصحة العمومية وطبيعة العلاقة بين المتغيرين ، وتوصلت لى وجود مستوى منخفض في دافعية الانجاز لدى العينة المبحوثة .

وتترتب أبعاد دافعية الإنجاز بمستويات مرتفعة ومتوسطة حسب أولويتها لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي كما يلي :

فبعد التخطيط للمستقبل بمستوى مرتفع بلغ (16.37)، وبوزن نسبي بلغ (77.95) ويمكن عزو ذلك إلى اهتمام العينة المبحوثة بالتفكير في إنجازاتها المستقبلية عن إنجازات الماضي والحاضر وإدراكهم بأن التخطيط للمستقبل ليس وليد الصدفة بل يأتي بتخطيط جدول زمني محكم قصد استثمار الوقت والجهد وهذه من صفات الشخصية الإنجازية في العمل .

ثم يأتي بعد مستوى الطموح بمستوى مرتفع بلغ (25.42)، وبوزن نسبي بلغ (77.03) ، وهذا ما يفسر أن مستشار التوجيه والإرشاد شخصا طموحا يتحدى الصعاب والعراقيل في ميدان عمله و يحب التجديد والابتكار سواء كان هذا الطموح متعلقا باهتماماته الشخصية أو المهنية.

ثم بعد إدراك الزمن بمستوى مرتفع بلغ (16.04)، وبوزن نسبي بلغ (77.03) ، فبحكم تعدد الخدمات التي يقدمها مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي وتوسع ميدان تدخله وعلاقاته مع شركاء عدة في ميدان عمله (الابتدائي ، المتوسط ، الثانوي ، التكوين المهني ، مركز التوجيه) وما تقتضيه الضرورة فهو ملزم بحكامة في تنظيم وقته وعدم تأجيل نشاط على حساب نشاط آخر حتى يتمكن من تغطية جميع نشاطاته في كل المجالات .

ويأتي بعد التنافس بمستوى مرتفع بلغ (16.00) وبوزن نسبي بلغ (77.03). ويمكن تفسير هذه النتيجة إلى طبيعة العمل الذي يقوم به مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والذي يتطلب دائما النشاط والحيوية والتجديد والتنويع في الخدمات التي يقدمها بأساليب وتقنيات مختلفة تشعر الآخر بالرضا. وهذه الصفة تدعمها جلسات التنسيق التي تعقد بمراكز التوجيه والإرشاد المدرسي نصف شهريا مع زملاء العمل التي تفرض على مستشار التوجيه روح التنافس والتميز في عمله.

أما بعد المثابرة فكان بمستوى متوسط بلغ (9.03)، وبوزن نسبي بلغ (77.03) ، ويمكن عزو ذلك إلى الظروف المحيطة بعمل مستشار التوجيه والإرشاد وكثرة المهام المسندة إليه والتي تحول بينه وبين بلوغه مستوى متقدم من المثابرة ، ومنها قطاع التدخل الواسع وصعوبات التنقل .

ويترتب في الأخير بعد المسؤولية بمستوى متوسط بلغ (25.43)، وبوزن نسبي بلغ (70.36) ويمكن عزو هذه النتيجة إلى تعدد الخدمات التي يقوم بها مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والتي تفوق توزيع وتنظيم وقته للقيام بها أحيانا .

كما يتأثر شعور مستشار التوجيه والإرشاد بتحمل المسؤولية من خلال بعض الاختلال الذي نجده في عملية توجيه التلاميذ التي تتم في نهاية السنة الدراسية وفقا للتحجيم المقترح من الوزارة فيضطر مستشار التوجيه إلى تنفيذ هذه التعليمات والمشاركة في مجلس القسم لتوجيه التلاميذ دون مراعاة رغباتهم وميولهم المهنية ، وهذا ما يتنافى مع الحقيقة العلمية والعملية لعملية التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني والتي تؤثر سلبا على شعور المستشار بتحمل المسؤولية .

هذا بالإضافة إلى أن مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني يضيع أحيانا جهده سدى في حضور جميع المجالس البيداغوجية وملأ الوثائق الخاصة بعملية التقييم التربوي والصب الآلي لعلامات التلاميذ الفصلية على المبرمجات الآلية التي يتم العمل بها في الثانويات ، وهذه العمليات يمكن اسنادها لأعوان الإدارة وهي لاتمت بصلة لطبيعة العمل الإرشادي والتوجيهي ، وقد توصلت دراسة عمراني محمد (2014/2013) التي هدفت إلى التعرف على وجهات نظر مستشاري التوجيه المهني والمدرسي حول عملية تفعيل دورهم في المؤسسات التربوية في دراسة

استكشافية مقارنة بين ولايات الجنوب الغربي (بشار ، أدرار) وولايات الشمال الغربي (غليزان ، معسكر) إلى تأكيد حقيقة هذا الوضع المعاش من خلال نتيجة مفادها أن معاش مستشاري التوجيه المدرسي و المهني لانشغالهم بمهام غير تلك الواردة في النصوص لا تختلف عن معاش زملاءهم في الجنوب الغربي لتلك المهام كما توصلت إلى عدم وجود فروق حقيقية بين مستشاري الشمال الغربي و زملاءهم في الجنوب الغربي حول المشاكل المعيقة لممارسة مهامهم الواردة في النصوص .

ب- مناقشة وتفسير نتائج الفرضية الثانية:

أظهرت نتائج المعالجة الإحصائية أن قيم (ف) غير دالة عند مستوى 0.05 فالفروق في الجنس بلغت قيمة (ف) عندها (0.084)، والسن(0. 548)، والأقدمية (0.122)، و المؤهل (0.129)، و التخصص العلمي (0.458)، وهذا ما يشير إلى تحقق هذه الفرضية.

وتتفق نتائج هذه الدراسة مع دراسة رمزان وقالين (Ramzan&Galin 1990) 1991 التي هدفت إلى معرفة العلاقة بين السعادة ودافعية الإنجاز بين الذكور والإناث لدى طلبة الماجستير بقسم آزاد الإسلامية حيث أسفرت نتائجها عن عدم وجود فروق في مستوى دافعية الانجاز يعزى لمتغير الجنس ، ودراسة سمارة وآخرون (2011) حول متغير الجنس والمؤهل العلمي والخبرة التدريسية. و دراسة أبو جراد (2015) حول متغير الجنس والخبرة لدى المرشدين التربويين بمحافظات قطاع غزة.

وتختلف نتائج هذه الفرضية مع دراسة أدسيل وكامبل2008(Adsul,Kambale) التي هدفت لمعرفة أثر كل من الجنس والخلفية الاقتصادية واختلاف الطبقات لدى طلاب الدراسات العليا بمدينة سنغالي التابعة لولاية ماهراراشترا حيث توصلت نتائجها إلى عدم وجود فروق في مستوى دافعية الانجاز تعزى لمتغير الجنس .

ويعزو الباحثان هذه النتيجة إلى طبيعة دافعية الإنجاز وخصائصها التي تعتبر قوة داخلية لدى الفرد تحركها عدة عوامل داخلية وخارجية للقيام بمهامه بكفاءة بسرعة عالية و أقل جهد ممكن ، فمن العوامل الخارجية طبيعة العملية الإرشادية والتوجيهية نفسها التي تتطلب خطة مدروسة ومضبوطة وموزعة على مدار السنة فضلا عن تدخل العوامل الذاتية للمستشار كالثقة في النفس وتحمل المسؤولية ، فيسعى هذا الأخير إلى تحقيق التكامل بين جميع الخدمات التي يقدمها لا لشيء إلا لإرضاء التلميذ والوصول به إلى أقصى غايات النمو والتكيف.

هذا إضافة إلى أن من خصائص ذوي السلوك الإنجازي في العمل أنهم" يشعرون بالسعادة و الرضا من مجرد تحقيق نتائج إنجاز ناجحة بصرف النظر عن أي عوائد خارجية ، كحصولهم مثلا على مكافأة بناء على النجاح الذي حققوه(الحناوي. سلطان ، 1997 :226). وهذه هي حقيقة العمل في مجال التوجيه والإرشاد المدرسي

والمهني، مما يفسر عدم تأثرها بالمتغيرات الشخصية والوظيفية الجنس والسن أو الخبرة أو التخصص أو المؤهل العلمي .

خاتمة وتوصيات:

كشفت نتائج الدراسة عن مستوى دافعية الإنجاز وأبعادها الفرعية لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حيث بينت المعالجة الإحصائية أن الدرجة الكلية لدافعية الإنجاز وأبعادها (التخطيط للمستقبل ، إدراك الزمن ، مستوى التنافس ، مستوى الطموح) بمستوى مرتفع ، فيما بينت أن بعد تحمل المسؤولية والمثابرة بمستوى متوسط .

كما بينت نتائج الدراسة أنه ليس لمتغيرات الجنس والسن والخبرة المهنية والمؤهل والتخصص العلمي أثرا على دافعية الإنجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني ، وعليه نقترح مايلي:

- إعادة النظر في المهام المسندة لمستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني

- بناء برامج إرشادية لتنمية دافعية الانجاز لدى مستشاري التوجيه والإرشاد.

- بناء برامج تكوينية تستجيب لحاجيات مستشاري التوجيه والإرشاد .

-توظيف أخصائيين نفسانيين ومستشاري التوجيه في التعليم الأساسي والمتوسط لتخفيف الضغط على المستشار المقيم بالثانوية .

- الاهتمام بالحوافز المادية والمعنوية التي تستثير دافعية الإنجاز لدى العينة المبحوثة.

- قائمة المراجع :

1- أبو حماد، ناصر الدين (2008):الإرشاد النفسي والتوجيه المهني ، الطبعة الأولى ،عمان ،الأردن ، جدارا للكتاب العالمي ، إربد ، الأردن ، عالم الكتب الحديث .

2-أبو جراد، خليل علي خليل (2015):الانتماء والرضا الوظيفي وعلاقتهما بدافعية الإنجاز لدى المرشدين التربويين بمحافظات غزة ، رسالة ماجستير في علم النفس ،كلية التربية ، جامعة الأزهر غزة .

3- الحناوي . محمد صالح ، سلطان ، محمد سعيد (1997): السلوك التنظيمي ، الإسكندرية ، الدار الجامعية .

4- الخيري ، حسن بن حسين العطاس : (2008): الرضا الوظيفي و دافعية الانجاز لدى عينة من المرشدين المدرسيين بمراحل التعليم العام بمحافظة الليث و القنفذة ، رسالة ماجستير في علم النفس ،كلية التربية، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية .

5- الهلول ، اسماعيل (2011): أثر استخدام البرمجة اللغوية العصبية في تنمية دافعية الإنجاز للمعلم الفلسطيني ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات ، العدد الثاني والعشرون .

6- بني يونس ، محمد محمود (2007): سيكولوجية الدافعية والانفعالات ، الطبعة الأولى ، عمان ، دار المسيرة للنشر والتوزيع .

7- دبور.عبد اللطيف ، الصافي .عبد الحكيم (2007): الإرشاد المدرسي بين النظرية والتطبيق ، الطبعة الأولى ،عمان ، الأردن ، دار الفكر .

8- محمد ، عمراني (2014/2013): وجهة نظر مستشاري التوجيه المهني والمدرسي حول عملية تفعيل دورهم في المؤسسات التربوية ، رسالة ماجستير ،كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة وهران.

9- معمرية، بشير (2009):مدخل لدراسة القياس النفسي ، الطبعة الأولى ، مصر ، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع

9-حنان ، قوراي (2014،2013): " الضغط المهني وعلاقته بدافعية الإنجاز لدى أطباء الصحة العمومية ، دراسة ميدانية على أطباء الصحة العمومية الدوسن ، رسالة ماجستير في علم النفس تخصص علم النفس الاجتماعي ، جامعة محمد خيضر بسكرة .

10- سعد عمر ، سيف الإسلام (2009): الموجز في البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية الطبعة الأولى ، دمشق ، دار الفكر .

11- سمارة ، سمارة ، سلامات (2012): درجة تقدير معلمي المرحلة الأساسية الدنيا في المدارس التابعة لمديرية تربية لواء الرصيفة لذواتهم وعلاقاتها بدافعية الإنجاز لديهم ،مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد(26) ، العدد (3).

12- عبد الرحمان ، حسن محمد (2009): علم النفس الصناعي ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، مؤسسة رؤية للطباعة والنشر والتوزيع .

13- علي أحمد عبد الرحمن ، عياصرة (2006): القيادة والدافعية في الإدارة التربوية ، الطبعة الأولى ،عمان ، دار ومكتبة الحامد

14- خليفة، عبد اللطيف محمد (2006): الدافعية للانجاز ، القاهرة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .

15- خديجة ، بن فليس (2014):المرجع في التوجيه المدرسي والمهني ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية .

16-تيغزة، أمحمد بوزيان (2012): التحليل العاملي الاستكشافي والتوكيدي مفاهيمهما ومنهجيتهما بتوظيف حزمة spss وليزرلlisrel،الطبعة الأولى ، عمان ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة .

17-Adsul ,R.K. Kamble, Vikas (2008): Journal of the Indian Academy of Applied Psychology Vol. 34, No.2, 323-327.

18- Hassanzadeh ,Ramzan. Mahdinejad, Galin(2013) : Relationship between Happiness and Achievement Motivation A Case of University Students ,Iran, Journal of Elementary Education , Vol.23, No. 1 pp.53-65 .

19- Roy ,Babli . Sinha ,Rashmi . Suman, Sapna (2013): emotional intelligence and academic acheivment motivation among adolescents: a relationship study , International Refereed Research Journal of Arts, Science & Commerce Vol.– IV, Issue 2, p126-130

8 L. Ricroch, A.Vuagnat, 2015, Urgences : sept patients sur dix attendent, p.1, 4.
9 M. Montagnon, 2009, Evaluation des pratiques professionnelles, p. 981.
10 Ministère de la Santé, de la population et de la Réforme Hospitalière, Enquête Nationale sur les Urgences Médico-Chirurgicales, Résultats et recommandations, 2006, p. 6
11. Ministère de la Santé, de la population et de la Réforme Hospitalière, Enquête Nationale sur les Urgences Médico-Chirurgicales, Résultats et recommandations, 2006, p. 49
12 *Ibid.*, p. 5
13 *Ibid.*, p. 50
14Ministère de la santé, de la population et de la Réforme Hospitalière, Avant-projet de loi sanitaire, 2003, p. 9
15 M. Ghobrini, 2007, Projet de télémédecine régional dans les urgences hospitalières de Mostaganem, p.142.
16 Association québécoise d'établissements de santé et de services sociaux, 2011, Rapport technique, p.4.
17 F. Wacheux, 1996, Méthodes qualitatives et recherches en gestion, p. 119
18 SFMU, 2004, p. 3.
19 Mihai D. Gheorghiu, F. Moatty, 2013, L'hôpital en mouvement, p.223.

A la lumière des données du tableau statistique, on peut confirmer qu'il existe une différence entre les catégories professionnelles dans leur relation (d'effet) avec la variable « prise en charge du patient ». Et que le corps médical est la catégorie professionnelle qui a le plus d'effet dans la prise en charge opérationnelle du patient, du fait de son rôle essentiel dans le management hospitalier et qu'il est donc appelé à « mettre en œuvre des stratégies relativement adaptées au comportement du malade, des accompagnateurs et du personnel»[18]. Dans un contexte d'insécurité et de manque de moyens humains, le corps médical « tire sa légitimité et son autorité de son expertise »[19].

Mais on ne peut pas penser l'efficacité de l'équipe des urgences sans le rôle déterminant des paramédicaux, si on se réfère à de nombreuses sources de littérature dont celle de l'OMS (2006). Ce qui ne ressort pas, avec force, dans les données statistiques. Il y a certainement des facteurs « parasites » dont, à titre d'exemple, l'instabilité du personnel paramédical.

Conclusion : Dans un contexte de réforme hospitalière et de rationalisation des dépenses de santé, ces résultats appellent à un ensemble de mesures (organisationnelles, juridiques etc.) dont la reconnaissance du statut de l'urgentiste et une continuité dans la recherche dans les domaines de l'évaluation professionnelle, de l'analyse des taches de l'équipe des urgences et de la collaboration entre les médecins spécialistes et généralistes. Et les médecins généralistes avec les paramédicaux qui ont un rôle central dans toutes les phases de la prise en charge du patient. La définition du rôle du secrétariat médico-administratif (souvent négligé), l'importance du tri dans l'accueil des usagers et la formation permanente devraient être également une préoccupation autant des chercheurs que des acteurs de la santé.

Bibliographie

1 Organisation Mondiale de la Sante, 2005, La santé et les objectifs du Millénaire pour le développement, p. 33, 34

2 F. Chaoui, M. Legros, 2012, Défis nationaux et enjeux partagés, les systèmes de santé en Algérie, Maroc et Tunisie, p. 5

3 Oufriha F. Z., 2009, Transition et système de santé en Algérie, p. 35

4 Organisation Mondiale de la Sante, 2005, La santé et les objectifs du Millénaire pour le développement, p. 45

5 Office National des Statistiques, 2008, Recensement Général de la Population et de l'Habitat, p. 2

6 Programme des Nations Unies pour le Développement, 2010, Rapport sur le développement humain, p. 62

7 A. Lemay (collectif), 1996, Analyse économique de l'utilisation des services d'urgence hospitaliers, p. 8

Le premier résultat est que le modèle est significatif. Il existe donc une corrélation entre le système d'évaluation de la performance des ressources humaines et la prise en charge des usagers dans les services des urgences. Le test t de la régression d'organisation des urgences et changement est supérieur à 2. Nous pouvons donc conclure que l' « organisation des urgences et changement » a un effet significatif et positif sur « La prise en charge du patient » ($t = 7,699$; $p < 0,05$).

Le test t de la régression du rôle de ressources humaines dans l'organisation des urgences est inférieur à 2. ($t = 1,951$; sig =0.52). Nous pouvons donc conclure que le rôle des ressources humaines dans l'organisation des urgences entraîne des effets limités sur « La prise en charge du patient ». Cette conclusion mérite une analyse critique sur la portée de ces données statistiques.

Hypothèse N° 2 : il existe des différences entre les trois groupes de postes de travail sur la variable « prise en charge du patient ».

Question N° 2 : Existe-t-il une différence entre les postes de travail (ou les catégories professionnelles) dans leur relation (d'effet) avec la variable « prise en charge du patient » ?

La variable indépendante sera les « postes de travail » qui regroupent les réponses selon la fonction occupée, soit en trois groupes (Médecins, Paramédicaux et Administratifs). La variable dépendante sera « La prise en charge du patient ».

Tableau N° 12 présente les comparaisons multiples (Bonferonni)

Variable dépendante : La prise en charge du patient						
(I) Poste de Trav	(J) Poste de Travail	Différence de moyennes (I-J	Erreur standar	Signification	Interval de confiance à %	
					Borne inférieur	Borne supérieu
Médecins	Paramedicau	**5,91045***	1,7750	,003	1,6392	10,181
	Administrati	**6,49059***	1,9998	,004	1,6785	11,302
Paramédicau	Médecins	-5,91045*	1,7750	,003	-10,1817	-1,6392
	Administrati	**,58014**	1,4539	1,000	-2,9184	4,0787
Administratif	Médecins	-6,49059*	1,9998	,004	-11,3027	-1,678
	Paramedicau	-,58014	1,4539	1,000	-4,0787	2,9184
*. La différence moyenne est significative au niveau 0.05.						

UMC Sidi Al	Homme	5	22		27
	Femme	2	2		4
	Total	**7**	**24**		**31**
Maternité	Homme	11	22	9	42
	Femme	22	112	16	150
	Total	**33**	**134**	**25**	**192**
Psychiatrie	Homme	8	32	15	55
	Femme	11	38	9	58
	Total	**19**	**70**	**24**	**113**
Total		**110**	**354**	**63**	**527**

Tableau N° 09 présente les caractéristiques de l'échantillon de la recherche

Personnel		**Effectifs**	**Pourcentage**
Sexe	Homme	162	47.93%
	Femme	176	52.07%
Ancienneté	0 – 5 ans	129	38.17%
	5 – 10 ans	98	29%
	11 - 15 ans	30	08.87%
	16 ans et plus	81	23.96%
Poste de travail	Médecins	50	14.80%
	Paramédicaux	201	59.47%
	Administratifs	87	25.73%
Total		**338**	**100%**

14. Analyse des résultats

Hypothèse N° 01 : Il existe une corrélation entre le système d'évaluation de la performance des ressources humaines et la prise en charge du patient dans les services des urgences.

Question N° 01 : quel est le type de corrélation qui existe entre le système d'évaluation de la performance des ressources humaines dans les Urgences Médico-Chirurgicales et la prise en charge du patient ?

Tableau N° 11 : présente les résultats des corrélations entre les variables de la recherche et la variable dépendante

Modèle		**Coefficients non standardisés**		**Coefficient standardisé**	**t**	**Sig.**
		A	**Erreur standard**	**Bêta**		
1	(Constante)	29,983	3,984		7,527	,000
	Rôle de ressources humaines dans l'organisation des urgences	,315	,162	,101	1,951	,052
	Organisation des urgences et changement	1,124	,146	,397	7,699	,000

a. Variable dépendante : La prise en charge du patient

02	0.252	09	0.200	16	0.614**	23	0.541**
03	0.445**	10	0.459**	17	0.582**	24	0.313**
04	0.533**	11	0.428**	18	0.560**	25	0.634**
05	0.657**	12	0.355**	19	0.404**	26	0.532**
06	0.375**	13	0.400**	20	0.589**	27	0.481**
07	0.479**	14	0.538**	21	0.721**		

**significatif au niveau 0.01, *significatif au niveau 0.05

Sur la base des résultats des coefficients de corrélation entre les degrés des items et le score total du questionnaire, les items dont les coefficients de corrélation sont statistiquement significatifs, au niveau de la signification statistique 0.01 et 0.05, ont été acceptés. Le questionnaire N° 02 a subit une modification, par la suppression de l'item 09 (0.200), étant donné qu'il présente une faible caractéristique psychométrique. Il est donc composé de 26 items.

La fidélité : afin de vérifier la fidélité du questionnaire N° 02, on a eu recours à :

- à la fiabilité fractionnée
- au Coefficient Alpha Cronbach

Les résultats obtenus sont présentés dans le tableau suivant :

Tableau n° 07 présente les coefficients de fidélité le questionnaire N° 02

Type de coefficient fidélité	Taille de l'échantillon	Coefficient de fidélité
Fiabilité fractionnée	60	0.556
Coefficient Alpha Cronbach	60	0.749

Les questionnaires présentent des caractéristiques psychométriques élevées. On pourra les mettre en œuvre, avec confiance, dans cette recherche.

13. L'étude fondamentale : l'échantillon de la recherche fondamentale

L'étudiant chercheur a questionné l'échantillon total de la population, tel que présenté dans le tableau suivant. Le taux de réponse est de 64.13 %, soit 338 répondants.

Tableau n° 08 présente les effectifs des services des urgences de la wilaya de Mostaganem

Unité / Personnel		Médecins	Paramédicaux	Administratifs	Total
UMC Mostaganem	Homme	20	81	11	112
	Femme	19	24	3	46
	Total	**39**	**105**	**14**	**158**
UMC Aïn Tedeles	Homme	8	16		24
	Femme	4	5		9
	Total	**12**	**21**		**33**

Items	Score générale	Items	Score générale	Items	Score générale	Items	Score générale
01	0.349**	06	0.503**	11	0.232	16	0.415**
02	0.516**	07	0.671**	12	0.665**	17	0.030
03	0.514**	08	0.574**	13	0.464**	18	0.513**
04	0.478**	09	0.592**	14	0.525**	19	0.490**
05	0.366**	10	0.208	15	0.351**	20	0.601**

**significatif au niveau 0.01, * significatif au niveau 0.05

Sur la base des résultats des coefficients de corrélation entre les degrés des items et le score total du questionnaire, soulignés dans le tableau ci-dessus, les items dont les coefficients de corrélation sont statistiquement significatifs, au niveau de la signification statistique 0.01 et 0.05, ont été acceptés. Le questionnaire N°01 reste donc inchangé et est composé de 20 items.

La fidélité : afin de vérifier la fidélité du questionnaire N° 01, on a eu recours à :

- la fiabilité fractionnée
- au coefficient Alpha Cronbach

Les résultats obtenus sont présentés dans le tableau suivant :

Tableau n° 05 présente les coefficients de fidélité du questionnaire N° 01

Type de coefficient fidélité	Taille de l'échantillon	Coefficient de fidélité
Fiabilité fractionnée	60	0.554
Coefficient Alpha Cronbach	60	0.698

Le questionnaire N° 01 présente des caractéristiques psychométriques élevées. Et de ce fait on pourra le mettre en œuvre dans l'étude fondamentale de cette recherche. Nous passons, maintenant, à l'étude du 2eme questionnaire, en parcourant les mêmes étapes.

La validité : afin de vérifier la validité du questionnaire N° 02, on a eu recours :

- au jugement des experts, comme cité précédemment,
- à la validité de la cohérence interne des items, par le calcul des corrélations internes des items du questionnaire.

Tableau n° 06 présente les coefficients de corrélation entre les degrés des items et les scores totaux du questionnaire N° 02

Items	Score générale	Items	Score générale	Items	Score générale	Items	Score générale
01	0.517**	08	0.543**	15	0.505**	22	0.417**

10. La construction du projet du questionnaire

L'échelle du nom du psychologue américain Rensis Likert (1903-1981), développée dans les années trente, est une échelle ordinale. Les questions de type Échelle Likert sont basées sur une échelle d'évaluation conçue pour évaluer les attitudes. La gamme des réponses proposées est répartie sur un continuum de 04 niveaux. La réponse appelée réponse centrale ou neutre a été éliminée étant donné qu'elle représente un « fourre-tout », c'est-à-dire que le questionné, à notre avis, évite de s'affirmer et d'exprimer sa réponse et s'oriente vers une réponse neutre. Dans le cas du questionnaire à quatre choix, conçu par l'étudiant chercheur, on peut considérer que c'est un questionnaire à « choix forcé ».

11. Soumission des projets des deux questionnaires à l'avis des experts

La soumission des projets des questionnaires aux experts a abouti à la suppression de seize 16 items dont 07 items du 1er questionnaire et 09 items du 2eme questionnaire. Nous aurons donc deux nouveaux questionnaires, le premier est composé de 20 items et le deuxième de 27 items.

Dans ces conditions, les deux questionnaires sont finalisés pour être distribués auprès de l'échantillon du pré-test, pour l'étude exploratoire, qui est de 60 urgentistes sur une population de 527 travailleurs hospitaliers.

12. Résultats de l'analyse statistique du pré-test avec le logiciel SPSS.20

Après l'étape préalable de la soumission des deux projets des questionnaires N° 01 et N° 02 au jugement du groupe des experts, leur correction et donc leur validité par le groupe des experts et on a procédé à la diffusion des questionnaires auprès de l'échantillon de 60 urgentistes. Pour mesurer la fiabilité du questionnaire, on a calculé la validité et fidélité des deux questionnaires dont voici les résultats.

La validité : afin de vérifier la validité du questionnaire N° 01, on a eu recours :

- au jugement des experts, comme cité précédemment,
- à la validité de la cohérence interne des items, par le calcul des corrélations internes des items du questionnaire.

L'étudiant chercheur a calculé la validité du questionnaire N° 01 sur l'échantillon de 60 travailleurs de l'étape exploratoire, en procédant au calcul des corrélations internes entre les degrés des items et le score total du questionnaire. Ainsi, les résultats sont représentés comme suit :

Tableau N° 04 présente les coefficients de corrélation entre les degrés des items et les scores totaux du questionnaire N° 01

Le choix de l'échantillon a été décidé de façon aléatoire. L'échantillon comprend soixante (60) médecins, paramédicaux et administratifs (sur une population mère de 527, soit un taux de 11.38 %, répartis comme l'indique le tableau suivant.

7.1 Tableau N° 01 présente les caractéristiques de l'échantillon du pré-test

Personnel		Médecins		Paramédicaux		Administratifs		Total	
		Effectif	%	Effectif	%	Effectif	%	Effectif	%
Sexe	Homme	8	13.33%	21	35%	4	6.66%	33	55%
	Femme	8	13.33%	19	31.66%			27	45%
Ancienneté	0 – 5 ans	7	11.66%	10	16.66%	2	3.33%	19	31.66
	5 – 10 ans	6	10%	08	30%			14	23.33
	10 ans et pl	3	5%	22	36.66%	2	3.33%	27	45%
Poste de travail		16	26.66%	40	66.66%	4	6.66%	60	100%

8. Récolte des données

Dans la recherche bibliographique on s'est appuyé, particulièrement, sur les rapports des chercheurs canadiens sur le modèle EGYPSS, les rapports de l'OMS de l'année 2000 (Pour un système de santé plus performant) et le rapport annuel 2006 (Travailler ensemble pour la santé), centré sur le rôle central des ressources humaines. Cette recherche exploratoire implique les modes de collecte de données suivants :

1. Entretiens exploratoires de type semi-directifs (entretiens exploratoires sur site avec les professionnels de santé des urgences) et avec des personnes ressources qui évoluent dans l'environnement des services des urgences.

2. Etude et exploitation des données statistiques locales, souvent brutes, en relation avec l'organisation et l'administration hospitalière locale.

9. Les entretiens exploratoires

L'objectif, à travers ces entretiens, est de recueillir les matériaux nécessaires (en plus de la littérature) pour la confection du questionnaire.

Type d'entretien : semi-directif

Transcription intégrale de l'entretien

Durée : environ une heure.

ce qui explique que ces structures de santé ne sont pas intégrées dans notre terrain d'enquête. La période de l'enquête exploratoire s'est déroulée entre le 20 décembre 2014 et le 15 février 2015.

5. Méthodologie de la recherche

Nous avons élaboré une méthodologie qui répond aux préoccupations des questionnements de la problématique qui a pour objectif essentiel d'étudier, la nature des corrélations entre le système d'évaluation de la performance des ressources humaines dans les urgences et la prise en charge des patients, de qualité médiocre. En formulant, dans la dernière partie du mémoire, des recommandations méthodologiques sur les urgences hospitalières, dans une perspective d'évaluation équitable de la performance. En considérant aussi que cette recherche est une contribution au débat actuel sur la réforme hospitalière.

Dans le cadre de cette approche, on ne peut appréhender l'organisation des urgences qu'à travers et en comparaison avec certains paramètres reconnus et vérifiés par l'expérience universelle. C'est ce qui explique notre appel à l'approche de l'OMS et au modèle intégrateur canadien nommé Évaluation Globale et Intégrée de la Performance des Systèmes de Santé (EGIPSS). Le modèle ÉGIPSS qui s'inspire étroitement de la théorie de l'action sociale de Parsons et utilisé dans le cadre de cette recherche, a été développé par un groupe de chercheurs canadiens, œuvrant depuis plus d'une vingtaine d'années dans la formation et la recherche sur les méthodes d'évaluation. Les auteurs de ce modèle ont fait le choix de qualifier la performance des systèmes de santé « comme un construit multidimensionnel, en intégrant les notions de performance, d'efficience, d'efficacité, de rendement, de productivité et de qualité, ou encore d'équité »[16].

6. La recherche-action

Notre démarche est imprégnée des principes de la recherche-action. Selon F. Wacheux[17], « trois postulats structurent la recherche-action:

- Pour connaitre la réalité, on doit la modifier,
- Le changement révèle les fonctionnements réels,
- La participation du chercheur au mouvement facilite la formation de l'objet, par un synchronisme entre la recherche et l'action ».

Si on se réfère aux objectifs de la recherche-action, on devrait, au terme de cette recherche, proposer avec l'accord des acteurs des services des urgences, un projet du système d'évaluation de la performance des ressources humaines.

7. L'échantillon de la recherche exploratoire

3. L'importance du choix du thème de recherche

L'intérêt de cette recherche centrée sur la thématique de l'évaluation de la performance des ressources humaines dans les urgences, concerne une activité des plus particulières : l'évaluation de la performance hospitalière. C'est une fonction régulatrice, stratégique des ressources humaines et donc du système de santé. En rapport avec l'«économie de marché » et les exigences d'un secteur public de santé qui ne peut se concevoir que comme performant et crédible aux yeux de la société.

Il faut le souligner, les textes règlementaires du ministre de la santé qui régulent toute l'activité des urgences, telle l'Instruction N°26/MSP/DSS du 05 février 1989, datent de 1988 et 1989 et ne répondent plus aux exigences et préoccupations des urgences hospitalières du moment, qu'elles concernent le fonctionnement des urgences ou le système de garde des différents corps professionnels du collectif des urgentistes.

Cette recherche nous offre un nouvel angle d'approche de la psychologie de travail, un champ d'étude interdisciplinaire par excellence (psychologie du travail, sociologie de santé, anthropologie de santé, économie etc.) qui nécessite de nombreux travaux de recherche et des propositions de solutions d'amélioration, dans le cadre d'une réforme radicale du système de santé.

4. Limites de la recherche

Le pré-test s'est déroulé dans les établissements suivants :

- Les trois services des Urgences Médico-Chirurgicales des Etablissements Publics Hospitaliers (EPH) des communes de Mostaganem, Ain Tedeles et Sidi Ali,
- L'établissement spécialisé psychiatrique de Mostaganem et,
- L'établissement Hospitalier Spécialisé, complexe mères et enfants, de Mostaganem.

Le choix de ses trois organisations sanitaires repose sur un trait commun, à savoir le caractère d'urgence de l'activité. Dans le cadre du travail du mémoire de notre magistère[15] nous avons abouti à la conclusion de la nécessité d'une coordination entre ces trois sites (services des urgences, maternité et psychiatrie), comme une condition essentielle, voire préalable pour une meilleure performance de l'activité des urgences.
Par ailleurs, à partir des données de l'enquête exploratoire, on n'a pas considéré les Etablissements Publics de Santé de Proximité (EPSP), des structures de santé de première ligne (les ex polycliniques), comme une organisation de l'urgence hospitalière, étant donné qu'ils ne réalisent pas l'urgence proprement dite. C'est

rapport « reste une notion subjective et différemment appréciée d'un sujet à l'autre »[10].

La dernière et unique enquête nationale de 2003, sur les urgences médico-chirurgicales, ne fait que confirmer les dysfonctionnements déjà décrits dans les précédents rapports du ministre de la santé, soulignent les rédacteurs du rapport, tels que :

1. « Le flux massif sur certains points aux dépens d'autres,
2. Les vraies urgences représentent moins du dixième des malades examinés,
3. Le personnel est peu motivé (primes de garde insuffisantes, conditions de travail médiocres, environnement difficile) et souvent peu qualifié »[11].

Le rapport situe la place qu'occupent les urgences en précisant que « Les consultations et hospitalisations en urgence représentent une part importante des activités de soins dans le secteur public. Les services d'urgence hospitaliers étant le plus souvent surchargés, avec des urgences de gravité différente, des structures extra hospitalières fonctionnant 24 heures sur 24 et réparties par secteur sanitaire sur l'ensemble du territoire national ont été identifiées dans le cadre de la restructuration de 1997 par le Ministère de la Santé »[12].

Enfin, le rapport conclut que « ce qui prédomine reste l'absence de ligne directrice et plus que l'insuffisance des moyens humains (médecins spécialistes, urgentistes) ou de moyens matériels, c'est l'absence d'organisation qui reste le point crucial »[13]. Une synthèse des recommandations est proposée dans le rapport soumis au ministre de la santé. Aussi, il est projeté que la restructuration des urgences doit être basée sur un plan de travail avec un cahier des charges au niveau des structures d'urgences, quel que soit leur niveau. Et que l'évaluation doit être périodique, avec dans un premier temps, une périodicité courte.

2. Les objectifs de la recherche

On se propose de fixer comme objectif central de cette recherche, de formuler une démarche de l'évaluation de la performance des ressources humaines des urgences hospitalières dans l'organisation de santé algérienne. C'est un des objectifs qui est inscrit dans les textes de l'Avant-projet de loi sanitaire. Ce dernier est explicite quant aux objectifs de l'évaluation des pratiques professionnelles. C'est ce qui est définit dans le titre IV, chapitre IV, section 05 des articles 232 à 238. Ainsi, précise l'Avant-projet de loi, « l'évaluation des pratiques professionnelles permet une connaissance fine de l'activité de l'établissement de santé, une meilleure gestion interne de celui-ci et, pour les établissements hospitaliers, l'exercice d'un contrôle médicalisé sur ces derniers en terme d'activités et de ressources »[14].

l'accueil des patients et leur prise en charge (y compris l'hospitalisation de courte durée) ». Concernant les structures des urgences qui reçoivent une importante charge de travail et donc un flux important de patients, explique l'auteur, « l'absence d'un référentiel (de fiches de postes) engendre des situations très diverses selon les services des établissements des urgences. Par contre, la mise en place d'un poste d'accueil et d'orientation (PAO) est déterminante, en ce sens qu'elle permet une meilleure orientation des patients »[8].

L'évaluation des pratiques professionnelles (EPP) est au centre de cette recherche. Et un système d'évaluation n'est utile que dans la mesure où il implique une démarche d'amélioration des soins. Dans cet esprit, avertit l'auteur, « une évaluation qui ne conduirait pas à la mise en place d'actions correctives et/ou préventives n'aurait pas de sens et serait très démotivante pour les professionnels »[9].
A la lumière de la problématique proposée et des conclusions des entretiens et de l'étude de la littérature se rapportant à notre recherche, on a formulé la problématique générale sous l'angle de l'analyse du système d'évaluation de la performance des ressources humaines dans les termes suivants : quel est le type de corrélation qui existe entre le système d'évaluation de la performance des ressources humaines dans les Urgences Médico-Chirurgicales et la prise en charge du patient ?

En soulignant que le peu de satisfaction des usagers des Urgences Médico-Chirurgicales est un indicateur important sur l'état de crédibilité du service public de santé, on formule l'hypothèse générale dans les termes suivants : le système d'évaluation, de caractère administratif, non valorisant l'activité des ressources humaines, est peu efficace en particulier dans le sens de l'équité. C'est ce qui explique une prise en charge du patient, d'un niveau de qualité peu acceptable, car produisant, en général, peu de satisfaction au niveau des usagers des urgences.

Par ailleurs, nous formulons un second questionnement : dans l'analyse des dynamiques professionnelles, existe-t-il une différence entre les postes de travail (ou les catégories professionnelles) dans leur relation d'effet sur la prise en charge du patient ? Et donc une seconde hypothèse : il existe des différences entre les trois groupes de postes de travail dans leur rapport concret avec la variable « prise en charge du patient », au bénéfice, particulièrement, des corps médical et paramédical.

Concernant la définition des urgences, le ministère de la santé explique qu' « on entend par « urgence » le besoin exprimé d'une prise en charge diagnostique ou thérapeutique rapide, non programmée, entraînant la consultation dans un établissement de soins ou l'hospitalisation ». Ce besoin, complète le

déterminés aussi et dans une large mesure par leurs interactions avec les autres secteurs de l'économie nationale.

Dans ce sens, le rapport mondial sur le millénaire explique, au sujet de la relation de détermination entre éducation et santé, qu' « il existe une étroite corrélation entre le degré d'instruction des mères et la mortalité de l'enfant : une étude réalisée en Inde indique qu'une réduction de 10 % du taux d'analphabétisme féminin permettrait de réduire la mortalité infantile de 12,5 pour 1000 »[4]. Le cas de l'Algérie, sur cette question, semble, à notre avis, assez préoccupant. A titre d'illustration, au dernier recensement de 2008 de la population et de l'habitat, « le taux d'analphabétisme des personnes âgées de dix ans et plus a été calculé à 22.30 %. Il est donc de 15,6 % pour les hommes et de 29,0 % pour femmes. Concernant la wilaya de Mostaganem le taux global est de 30,09 % dont 20,2 % pour les hommes et 41.6 % pour les femmes »[5].

L'expérience universelle, en matière de gouvernance des états, confirme de plus en plus que les services de santé sont, relativement plus équitables, sous des gouvernements démocratiques. Dans ce sens, « une étude a estimé que la transition réduit la mortalité infantile de cinq pour mille et que la démocratie serait une condition nécessaire mais pas suffisante, conclut le rapport du PNUD sur le développement humain, en prenant l'exemple des Etat Unis d'Amérique qui peinent à fournir des services de santé publique ». Ainsi, explique le rapport, « sous un régime où les institutions sont solides (d'après un indice composite, mesurant corruption, respect de la loi, qualité de l'administration, profil des investissements et conflits internes), si le gouvernement dépense plus d'argent pour les salaires et les biens et services, cela entraine des progrès plus rapide de l'Indice de Développement Humain, en avertissant que si par contre le niveau de développement institutionnel est peu avancé, les investissements accrus de capital public entrainent un progrès moindre de l'IDH à long terme » [6]. Cette grille d'analyse, correspond, à notre avis, pour l'essentiel, au cas de l'Algérie.

1. Problématique et hypothèse de la recherche

L'analyse économique de l'utilisation des services d'urgence hospitaliers nous montre que « le rôle normativement reconnu des urgences hospitalières est de traiter des traumatismes dus à des accidents ou des problèmes de santé liés à des épisodes aigus de maladies chroniques ou des épisodes graves de maladies aigues qui nécessitent une intervention médicale urgente. Toutefois les Urgences Hospitalières sont largement utilisées pour des motifs tout autres»[7].

Les structures des urgences sont organisées pour prendre en charge un patient, caractérisé par un niveau de gravité élevé. Dans ce sens, « Pour qu'un service d'urgences puisse ouvrir, avertit l'auteur de l'article, il doit disposer d'un nombre minimum de personnels à tout moment de la journée, afin d'assurer

Key words : evaluation system, hospital emergencies, performance, efficacity, equity, action-research

Introduction

Le rapport sur les objectifs du Millénaire pour le développement (OMD) analyse l'évolution des systèmes de santé en soulignant qu'ils « se sont transformés sous la pression de l'évolution historique, économique et sociale. Il n'est donc pas surprenant, explique le rapport, que ces systèmes reflètent souvent les grands problèmes de société, notamment en matière de gouvernance, d'administration, de financement et d'intégration sociale, mais ajoute-t-il, les priorités spécifiques et les étapes de leur mise en œuvre seront dictées par les particularités du contexte national »[1].

Dans une réflexion prospective sur le développement des systèmes de santé maghrébins, Chaoui et Legros mettent en relief la fragilité de ces systèmes et le nécessaire changement des modèles de gestion. Ainsi, ils alertent les responsables, en précisant qu' « aujourd'hui, les pays du Maghreb font face à des attentes fortes de leurs populations qui demandent l'accès aux soins de qualité, au moindre coût ainsi qu'une plus grande participation des usagers et des professionnels à la gouvernance des systèmes de santé (transition démocratique) ». Pour cela, les auteurs du rapport proposent que « les gouvernements doivent y répondre tout en maîtrisant les dépenses de santé qui vont considérablement augmenter du fait, notamment, de l'accroissement des nouvelles pathologies émergentes. En effet, expliquent les deux auteurs, les systèmes de santé du Maghreb, fortement axés sur la distribution des soins, doivent évoluer et favoriser le développement d'actions prenant davantage en compte les déterminants de santé, les questions de santé étant largement liées à l'ensemble des politiques publiques (éducation, nutrition, habitat, environnement). Il s'agit là du principal défi auquel ils devront faire face dans les vingt prochaines années », conclut le rapport[2].

Analysant les difficultés du secteur public des soins et la formation rapide du secteur privé qui occupe une place relativement importante dans le marché, l'économiste de santé explique que le « développement accéléré de la médecine privée ne s'est malheureusement pas accompagné d'une définition claire de son rôle, de son rapport au secteur public et encore moins d'un contrôle de ses activités et des honoraires pratiqués »[3].

Le regard du chercheur abordera donc le secteur de la santé, non pas comme un secteur fermé, avec une logique propre, mais comme un secteur dynamique avec ses rapports d'intérêts avec l'environnement. C'est-à-dire qu'en définitive, les solutions de fond du développement du secteur de la santé ne relèvent pas uniquement du facteur de l'augmentation des salaires, mais sont

يحدد ب 527 فرد في المصالح الاستعجالية بولاية مستغانم. ونلخص نتائج البحث في الاستنتاجات التالية:

– توجد علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين النظام التقييمي لأداء الموارد البشرية ومتغير «التكفل بالمريض».

– إن متغير «التنظيم في الاستعجالات والتغيير» له تأثير دال وايجابي على عملية التكفل بالمريض بالرغم من أن

دور الموارد البشرية في تنظيم الاستعجالات» محدود في مجال التكفل بالمريض.

– توجد فروق دالة إحصائيا بين الأطباء وشبه الطبيين والإداريين في التكفل العملي بالمريض، ويبقى الأطباء هم الفئة المهنية التي لها أكبر تأثير على التكفل بالمريض.

الكلمات المفتاحية: نظام التقييم، الاستعجالات الاستشفائية، الاداء، الفعالية، الانصاف، البحث النشيط.

Abstract

Study of the evaluation system of the human resources performance and the care of the patient in the hospital emergency services of the wilaya of Mostaganem.

This research studies the analysis of the evaluation system of the human resources' performance and its correlation with the patient's care at the emergency department in Mostaganem. To check the hypotheses, the researcher has submitted a questionnaire for each variable, and opted to question a sample of 338 doctors, paramedics and administrative on a total population of 527 individual. So the sample's rate is of 64.13%. This paper summarizes the results of research in the following conclusions :

There is a correlation between the evaluation system of the human resources' performance and the patient's care.

The organization of emergency and change has a significant and positive effect on patient care; But the role of human resources in the organization of emergency resulted in a limited effects on the patient's care.

There are substantial differences between doctors, paramedics and administrative in the operational patient care, but the medical profession has the most effect.

Etude du système d’évaluation de la performance des ressources humaines et la prise en charge du patient dans les services des urgences hospitalières

De la wilaya de Mostaganem

Pr. Mustapha Ghobrini, Université de Mostaganem

Résumé Cette recherche étudie l’analyse du système d’évaluation de la performance des ressources humaines et sa corrélation avec la prise en charge du patient dans les services des urgences de la wilaya de Mostaganem. Pour vérifier les hypothèses de travail, l’étudiant chercheur a soumis deux questionnaires, chacun prenant en charge une variable, et a opté pour questionner un échantillon, composé de 338 médecins, paramédicaux et administratifs sur une population de 527 personnes, soit un taux de 64.13 %. On résume les résultats de la recherche dans les conclusions suivantes :

- Il existe une corrélation, statistiquement significative, entre le système d’évaluation de la performance des ressources humaines et la variable « prise en charge des patients »,
- La variable « L’organisation des urgences et changement » a un effet significatif et positif sur la prise en charge du patient. Mais « Le rôle des ressources humaines dans l'organisation des urgences » entraîne des effets limités sur la prise en charge du patient,
- Il existe des différences, statistiquement significatives, entre les médecins, paramédicaux et administratifs dans la prise en charge opérationnelle du patient, mais le corps médical a le plus d’effet.

Mots clés : Système d’évaluation, Urgences hospitalières, Performance, Efficacité, Equité, recherche-action.

ملخص: دراسة نظام تقييم اداء الموارد البشرية والتكفل بالمريض في مصالح الاستعجالات الاستشفائية لولاية مستغانم

يهدف هذا البحث إلى دراسة النظام التقويمي لأداء الموارد البشرية وعلاقاته بتكفل المريض في المصالح الاستعجالية لولاية مستغانم. وللتحقق من الفرضيات المطروحة طبق الباحث استمارتين على عينة قوامها 338 من الأطباء وشبه الطبيين والإداريين بنسبة 64.13 % من مجتمع الدراسة الدي